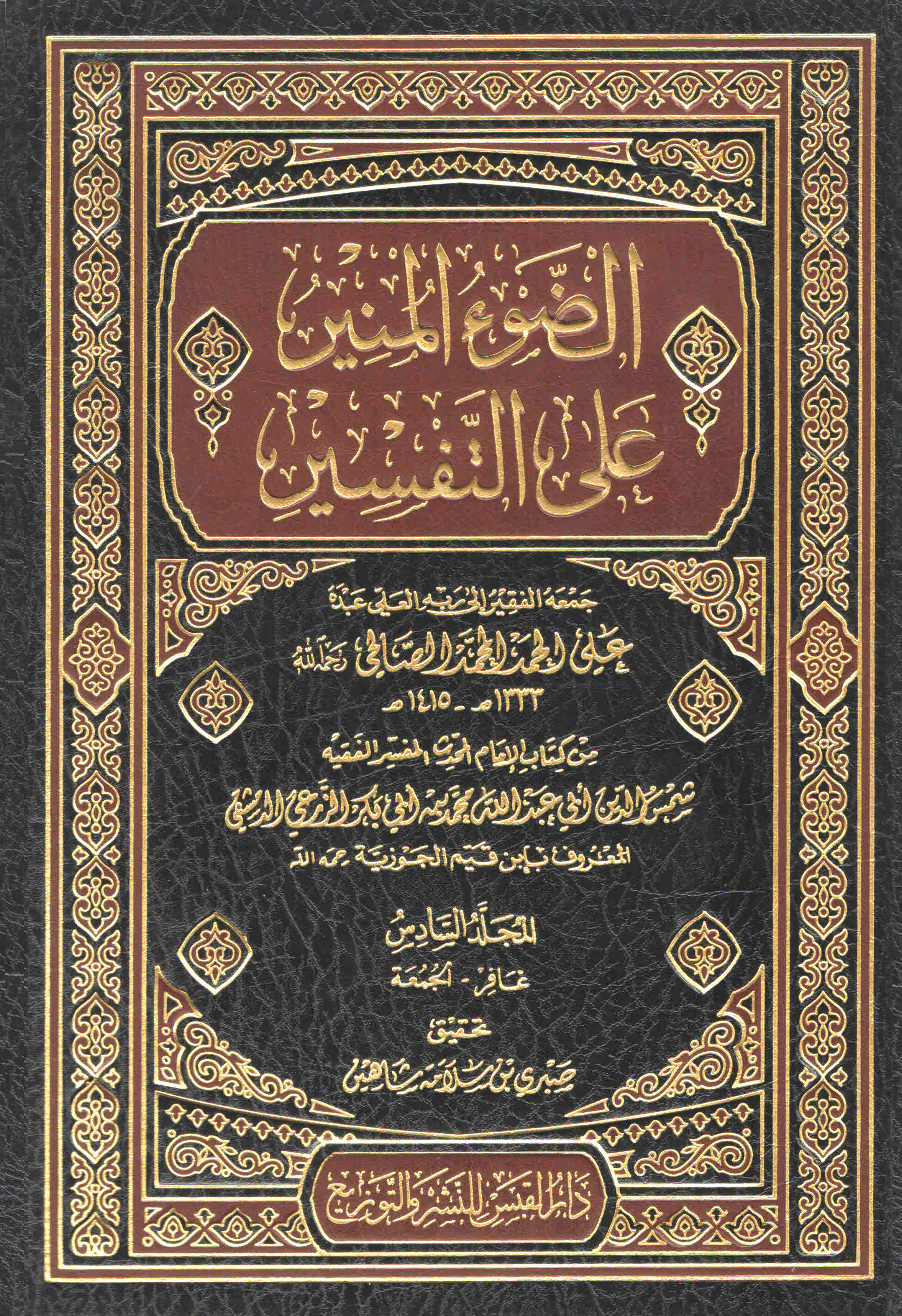
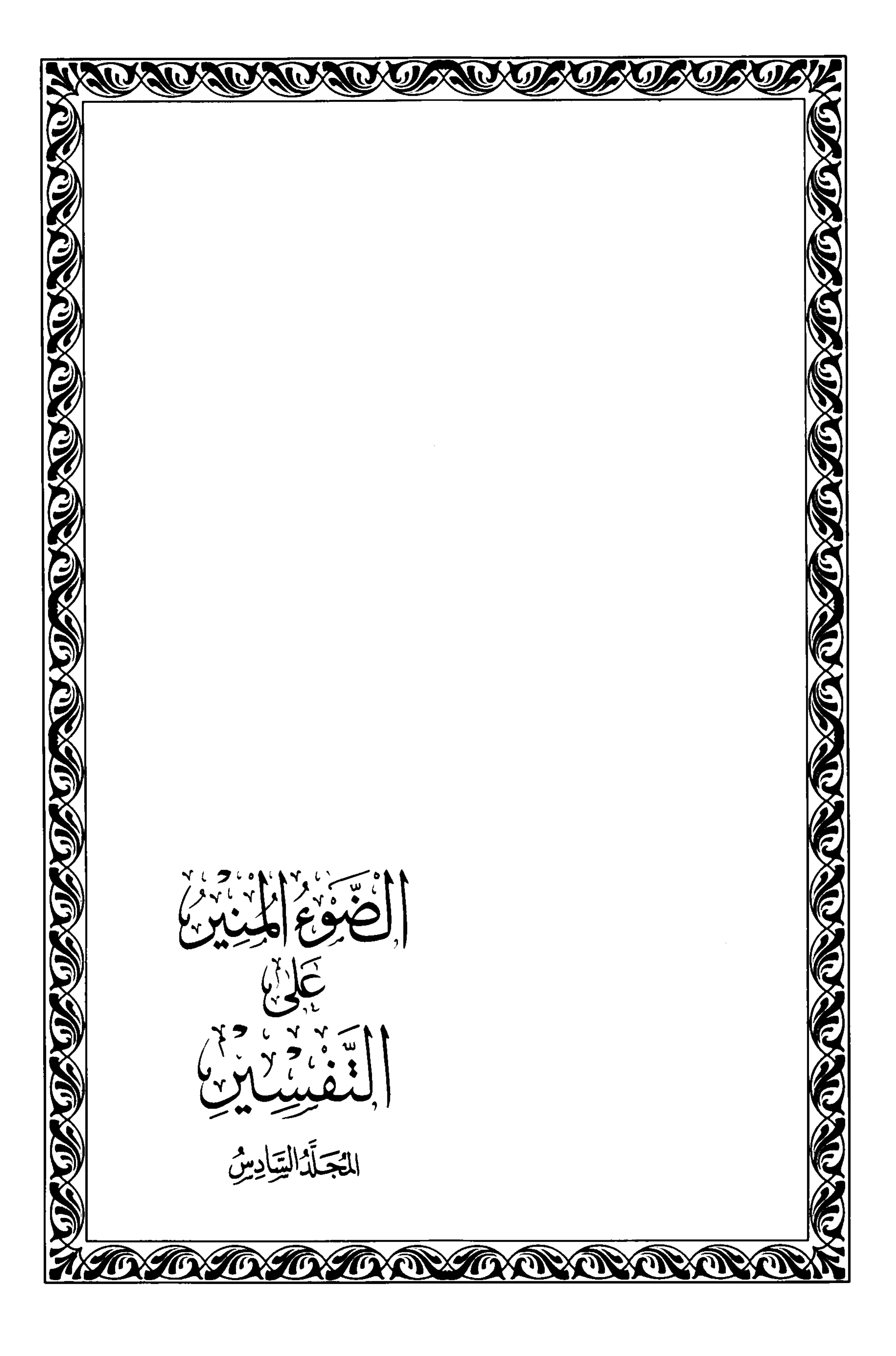


الضوء المنير
على التفسير
جمعه الفقير إلى ربه العلي عبده
علي الحمد المحمد الصالحي رحمه الله
١٣٣٣هـ - ١٤١٥هـ
من كتاب الإمام المحدث المفسر الفقيه
شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي
المعروف بابن قيم الجوزية رحمه الله
المجلد السادس
غافر - الجمعة
تحقيق
صبري بن سلامة شاهين
دار القبس للنشر والتوزيع



الضوء المنير على التفسير

المجلد السادس

ح دار القبس للنشر والتوزيع ، ١٤٣٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصالحي، علي الحمد

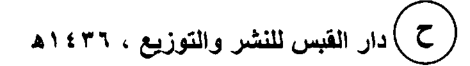
الضوء المنير على التفسير./علي الحمد الصالحي- ط٢- الرياض، ١٤٣٦هـ

ردمك ٣-٠-٩٠٦١٤-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٥-٦-٩٠٦١٤-٦٠٣-٩٧٨ (ج٦)

١-القرآن - تفسير أ- شاهين، صبري سلامة (محقق) ب- العنوان

ديوي ٢٢٧،٣ رقم الإيداع ١٤٣٦/١٥



طَبعَة جَدِيدَة مُصَحَّحَة وَمُحَقَّقَة

الطَّبعَةُ الثَّانِيَةُ

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

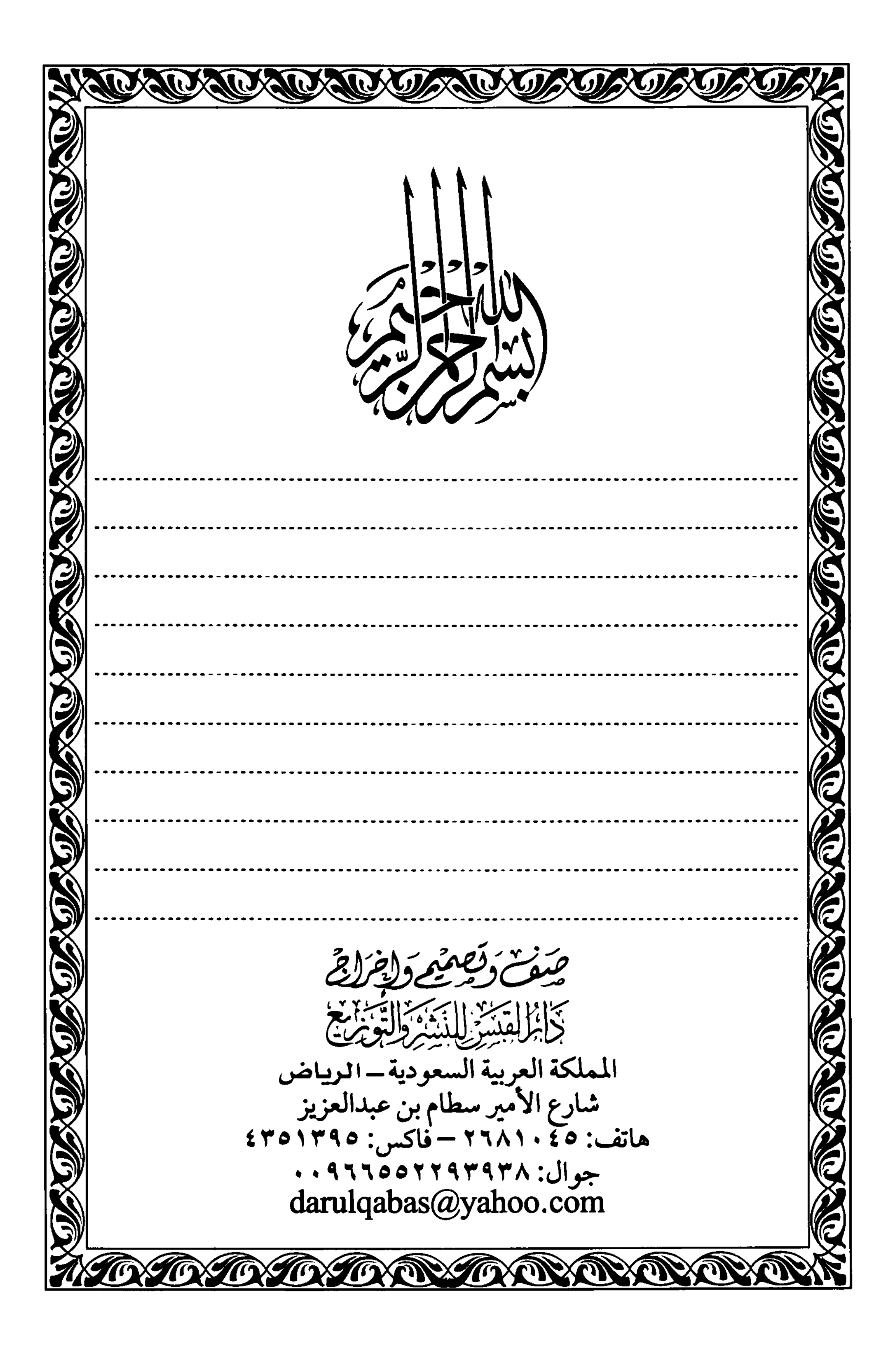
الموقع الرسمي للمؤلف: www.assalehi.com - البريد الإلكتروني: assalehi@hotmail.com

هاتف: ٩٦٦١١٤١١٨٨٩٨+ ، ٩٦٦١١٤١١٨٨٧٤+ ؛ فاكس: ٩٦٦١١٤١٣١٤٧٤+

جوال: ٩٦٦٥٠٥٤٦٥١٩٣+

العنوان البريدي: المملكة العربية السعودية ص.ب: ٢١١٧٠ الرياض:١١٤٧٥

إنَّ الوَفاء وبذل المعروف من العمل الصَّالح، وإنَّ الله لا يُضيع أجر من أحسن عملاً. أخي الحبيب، وإن كان لديك معلومات أو وثائق عن والدنا: الشيخ علي الحمد المحمَّد الصَّالحي رحمه الله، نرجو التكرم والتفضّل بالاتصال علينا على العنوان أعلاه. نسأل الله للجميع التَّوفيق والسَّداد؛ لما يحبُّه ويرضاه من الأقوال والأعمال، وأن يجعلَ لنا ولكم لسانَ صدق في الآخرين، والحمد لله ربِّ العالمين.



صف وتصميم وإخراج
دار القبس للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية ـ الرياض
شارع الأمير سطام بن عبدالعزيز
هاتف: ٢٦٨١٠٤٥ ـ فاكس: ٤٣٥١٣٩٥
جوال: ٠٠٩٦٦٥٥٢٢٩٣٩٣٨
darulqabas@yahoo.com



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِی ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝ ﴾.

[1]عطف في الاسمين الأولين دون الآخرين. فقال السهيلي: إنما حسن العطف بين الاسمين الأولين، لكونهما من صفات الأفعال، وفعله ـ سبحانه ـ في غيره لا في نفسه، فدخل حرف العطف للمغايرة الصحيحة بين المعنيين، ولتنزلهما منزلة الجملتين، لأنه يريد تنبيه العباد على أنه يفعل هذا ويفعل هذا، ليرجوه ويؤملوه. ثم قال: ﴿ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ﴾ بغير واو، لأن الشدة راجعة إلى معنى القوة والقدرة، وهو معنى خارج عن صفات الأفعال، فصار بمنزلة قوله: ﴿ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [النمل: ٧٨]. وكذلك قوله: ﴿ ذِی ٱلطَّوۡلِ ﴾ لأن لفظ ذي عبارة عن ذاته.

هذا جوابه، وهو كما ترى غير شاف ولا كاف، فإن شدة عقابه من صفات الأفعال، وطوله من صفات الأفعال، ولفظة (ذي) فيه لا تخرجه عن كونه صفة فعل كقوله: ﴿ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾، بل لفظ الوصف بغافر وقابل أدل على الذات من الوصف بذي، لأنها بمعنى صاحب كذا. فالوصف المشتق أدل على الذات من الوصف بها، فلم يشف جوابه، بل زاد السؤال سؤالاً.

فاعلم أن هذه الجملة مشتملة على ستة أسماء، كل اثنين منها قسم، فابتدأها بالعزيز العليم، وهما اسمان مطلقان، وصفتان من صفات ذاته، وهما مجردان عن العطف. ثم ذكر بعدهما اسمين من صفات أفعاله، فأدخل بينهما العاطف، ثم ذكر اسمين آخرين بعدهما وجردهما من العاطف. فأما الأولان فتجردهما من العاطف

(١) ١٩١ بدائع جـ١.

لكونهما مفردين صفتين جاريتين على اسم الله، وهما متلازمان فتجريدهما عن العطف هو الأصل، وهو موافق لبيان ما في الكتاب العزيز من ذلك كالعزيز العليم، والسميع البصير، والغفور الرحيم(١).

وأما ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ ﴾ فدخل العاطف بينهما، لأنهما في معنى الجملتين وإن كانا مفردين لفظاً، فهما يعطيان معنى يغفر الذنب ويقبل التوب، أي هذا شأنه ووصفه في كل وقت، فأتى بالاسم الدال على أن هذا وصفه ونعته، المتضمن لمعنى الفعل، الدال على أنه لا يزال يفعل ذلك، فعطف أحدهما على الآخر على نحو عطف الجمل بعضها على بعض، وكذلك الاسمان الأولان، ولما لم يكن الفعل ملحوظًا في قوله: ﴿ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِ ﴾ إذ لا يحسن وقوع الفعل فيهما، وليس في لفظ (ذي) ما يصاغ منه فعل، جرى مجرى المفردين من كل وجه، ولم يعطف أحدهما على الآخر، كما لم يعطف في العزيز العليم، فتأمله فإنه واضح.

وأما العطف في قوله: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى: ٢، ٣] فلما كان المقصود الثناء عليه بهذه الأفعال وهي جملة دخلت الواو عاطفة جملة على جملة، وإن كانت الجملة مع الموصول في تقدير المفرد، فالفعل مراد مقصود، والعطف يصير كلا منها جملة مستقلة مقصودة بالذكر، بخلاف ما لو أتى بها في خبر موصول واحد فقيل: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدًا ﴾ و﴿ نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ و﴿ خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ [الزخرف: ١٠، ١١، ١٢]. كانت كلها في حكم جملة واحدة. فلما غاير بين الجمل بذكر الاسم الموصول مع كل جملة دل على أن المقصود وصفه بكل من هذه الجمل على حدتها. وهذا قريب من باب قطع النعوت، والفائدة هنا كالفائدة ثم، وقد تقدمت الإشارة إليها فراجعها. بل قطع النعوت إنما كان الأجل هذه الفائدة،

---

(١) تقدم بحث حول هذه الآية في سورة التوبة عند قوله تعالى: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ﴾ يحسن الرجوع إليه. (ج).

فذلك المقدر في النعوت المقطوعة لهذا المحقق في النعوت المعطوفة، والحمد لله على ما من به وأنعم، فإنه ذو الطول والإحسان.

تتمة: تأمل كيف وقع الوصف بشديد العقاب بين صفتي رحمة قبله وصفة رحمة بعده. فقبله ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ ﴾ [غافر: ٣] وبعده ﴿ ذِى ٱلطَّوْلِ ﴾ ففي هذا تصديق الحديث الصحيح وشاهد له، وهو قوله ﷺ: «**سبقت غضبي**»(١) وقد سبقت صفتا الرحمة هنا وغلبت. وتأمل كيف افتتح الآية بقوله: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ [غافر: ٢] والتنزيل يستلزم علو المنزل من عنده، لا تعقل العرب من لغتها بل ولا غيرها من الأمم السليمة الفطرة إلا ذلك. وقد أخبر أن تنزيل الكتاب منه. فهذا يدل على شيئين: أحدهما: علوه ـ تعالى ـ على خلقه. والثاني: أنه هو المتكلم بالكتاب المنزل من عنده لا غيره، فإنه أخبر أنه منه، وهذا يقتضي أن يكون منه قولاً، كما أنه منه تنزيلاً؛ فإن غيره لو كان هو المتكلم به لكان الكتاب من ذلك الغير، فإن الكلام إنما يضاف إلى المتكلم به.

ومثل هذا: ﴿ وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى ﴾ [السجدة: ١٣] ومثله: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ ﴾ [النحل: ١٠٢] مثله: ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢] فاستمسك بحرف من في هذه المواضع؛ فإنه يقطع حجج شعب المعتزلة والجهمية. وتأمل كيف قال: (تنزيل من) ولم يقل تنزيله، فتضمنت الآية إثبات علوه وكلامه وثبوت الرسالة.

ثم قال: ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فتضمن هذان الإسمان صفتي القدرة والعلم، وخلق أعمال العباد، وحدوث كل ما سوى الله؛ لأن القدرة هي قدرة الله، كما قال أحمد بن حنبل. فتضمنت إثبات القدر، ولأن عزته تمنع أن يكون في ملكه ما لا يشاؤه أو يشاء ما لا يكون، فكمال عزته تبطل ذلك. وكذلك كمال قدرته توجب أن يكون خالق كل

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٢٢) ومسلم (رقم ٢٧٥١) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٤٤١) وشرح النووي (١٦/ ١٩٢).

شيء، وذلك ينفي أن يكون في العالم شيء قديم لا يتعلق به خلقه؛ لأن كمال قدرته وعزته يبطل ذلك.

ثم قال: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ ﴾ والذنب مخالفة شرعه وأمره، فتضمن هذان الاسمان إثبات شرعه وإحسانه وفضله. ثم قال: ﴿ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ﴾ وهذا جزاؤه للمذنبين، وذو الطول جزاؤه للمحسنين، فتضمنت الثواب والعقاب. ثم قال: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ فتضمن ذلك التوحيد والمعاد. فتضمنت الآيتان إثبات صفة العلو، والكلام، والقدرة، والعلم، والقدر، وحدوث العالم والثواب والعقاب والتوحيد والمعاد وتنزيل الكتاب منه على لسان رسوله يتضمن الرسالة والنبوة.

فهذه عشرة قواعد الإسلام والإيمان تجلى على سمعك في هذه الآية العظيمة، ولكن خَوْدٌ تُزَفّ إلى ضرير مقعد، فهل خطر ببالك قط أن هذه الآية تتضمن هذه العلوم والمعارف مع كثرة قراءتك لها وسماعك إياها؟ وهكذا سائر آيات القرآن، فما أشدها من حسرة، وأعظمها من غبنة على من أفنى أوقاته في طلب العلم، ثم يخرج من الدنيا وما فهم حقائق القرآن، ولا باشر قلبه أسراره ومعانيه، فالله المستعان.

***

﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾.

[(١)] هو ـ سبحانه ـ يقرن بين سعة العلم والرحمة كما يقرن بين العلم والحلم. فمن الأول قوله: ﴿ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا ﴾ [غافر: ٧] ومن الثاني: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ

---

(١) ٨٠ بدائع جـ١.

حَكِيمٌ ﴾ فما قرن شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى علم، ومن رحمة إلى علم. وحملة العرش أربعة: اثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك، واثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك[(١)]. فاقتران العفو بالقدرة كاقتران الحلم والرحمة بالعلم؛ لأن العفو إنما يحسن عند القدرة، وكذلك الحلم والرحمة إنما يحسنان مع العلم. وقدم الرحيم في هذا الموضع لتقدم صفة العلم، فحسن ذكر الرحيم بعده ليقترن به فيطابق قوله: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ ثم ختم الآية بذكر صفة المغفرة، لتضمنها دفع الشر، وتضمن ما قبلها جلب الخير، ولما كان دفع الشر مقدماً على جلب الخير قدم اسم الغفور على الرحيم حيث وقع. ولما كان في هذا الموضع تعارض يقتضي تقديم اسمه الرحيم لأجل ما قبله قدم على الغفور.[(٢)]

[(٣)(٤)]التي على الأبدان أيضاً نوعان: نوع في الدنيا ونوع في الآخرة، وشدتها ودوامها بحسب مفاسد ما ترتب عليها في الشدة والخفة. فليس في الدنيا والآخرة شر أصلاً إلا الذنوب وعقوباتها. فالشر اسم لذلك كله، وأصله من شر النفس وسيئات الأعمال، وهم الأصلان اللذان كان النبي ﷺ يستعيذ منهما في خطبته بقوله: «**ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا**»[(٥)] وسيئات الأعمال من شرور النفس، فعاد الشر

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/ ٧) وفيه ثمانية بدل أربعة. والبيهقي في الشعب (١/ ٣٢٧ رقم ٣٦٤) وأبو الشيخ في العظمة (٣/ ٩٥٤ رقم ٤٨١) ومحمد بن عثمان بن أبي شيبة في العرش (رقم ٢٤) وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣/ ٥٥).

(٢) يشير إلى آية سورة سبأ، وقد تقدم البحث فليرجع إليه من أراده. (ج).

(٣) ١٥٤ الجواب الكافي.

(٤) ما تقدم تفصيل للعقوبات القدرية والشرعية. (ج).

(٥) أخرجه ابن ماجه (رقم ١٨٩٢) والترمذي (رقم ١١٠٥) وحسنه. والنسائي في المجتبى (رقم ١٤٠٤) والطبراني في الكبير (٨/ ٣٠٤ رقم ٨١٤٨) وأبو يعلى (١٣/ ١٨٥-١٨٦ رقم ٧٢٢١) وقال الهيثمي في المجمع (٢/ ١٨٨): رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات.

كله إلى شر النفس، فإن سيئات الأعمال من فروعه وثمراته.

وقد اختلف في معنى قوله: «ومن سيئات أعمالنا» هل معناه السيء من أعمالنا فيكون من باب إضافة النوع إلى جنسه: وتكون بمعنى من. وقيل معناه من عقوباتها التي تسوء فيكون التقدير: ومن عقوبات أعمالنا التي تسوءنا. ويرجع هذا القول أن الاستعاذة تكون قد تضمنت جميع الشر. فإن شرور الأنفس تستلزم الأعمال السيئة، وهي تستلزم العقوبات السيئة. فنبه بشرور الأنفس على ما تقتضيه من قبح الأعمال، واكتفى بذكرها عنه إذ هي أصله.

ثم ذكر غاية الشر ومنتهاه، وهي السيئات التي تسوء العبد من عمله من العقوبات والآلام. فتضمنت هذه الاستعاذة أصل الشر وفروعه وغايته ومقتضاه. ومن دعاء الملائكة للمؤمنين قولهم: ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ﴾ [غافر: ٩] فهذا يتضمن طلب وقايتهم من سيئات الأعمال وعقوباتها التي تسوء صاحبها، فإنه ـ سبحانه ـ متى وقاهم عمل السيء وقاهم جزاء السيء. وإن كان قوله: ﴿ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ﴾ أظهر في عقوبات الأعمال المطلوب وقايتهم يومئذ منها. فإن قيل: قد سألوه ـ سبحانه ـ أن يقيهم عذاب الجحيم، وهذا هو وقاية العقوبات السيئة، فدل على أن المراد بالسيئة التي سألوا وقايتها الأعمال السيئة، ويكون الذي سأله الملائكة نظير ما استعاذ منه النبي ﷺ. ولا يرد على هذا قوله: (يؤمئذ) فإن المطلوب وقاية شرور سيئات الأعمال ذلك اليوم، وهي سيئات في نفسها.

وقيل: وقاية السيئات نوعان. أحدهما: وقاية فعلها بالتوفيق فلا تصدر منه، والثاني: وقاية جزائها بالمغفرة، فلا يعاقب عليها، فتضمنت الآية سؤال الأمرين، والظرف تقييد للجملة الشرطية لا بالجملة الطلبية. وتأمل ما تضمنه هذا الخبر عن الملائكة من مدحهم بالإيمان والعمل الصالح والإحسان إلى المؤمنين بالاستغفار لهم. وقدموا بين يدي استغفارهم توسلهم إلى الله ـ سبحانه ـ بسعة علمه وسعة رحمته، فسعة علمه يتضمن علمه بذنوبهم وأسبابها، وضعفهم عن العصمة، واستيلاء عدوهم

وأنفسهم وهواهم وطباعهم، وما زين لهم من الدنيا وزينتها. وعلمه بهم إذ أنشأهم من الأرض، وإذ هم أجنة في بطون أمهاتهم. وعلمه السابق بأنهم لابد أن يعصوه، وأنه يحب العفو والمغفرة، وغير ذلك من سعة علمه الذي لا يحيط به أحد سواه، وسعة رحمته تتضمن أنه لا يهلك عليه أحد من المؤمنين به من أهل توحيده ومحبته، فإنه واسع الرحمة لا يخرج عن دائرة رحمته إلا الأشقياء. ولا أشقى ممن لم تسعه رحمته التي وسعت كل شيء.

ثم سألوه أن يغفر للتائبين الذين اتبعوا سبيله، وهو صراطه الموصل إليه الذي هو معرفته ومحبته وطاعته فيما أمر، وترك ما يكره فتابوا مما يكره، واتبعوا السبيل الذي يحبها. ثم سألوه أن يقيهم عذاب الجحيم، وأن يدخلهم والمؤمنين من أصولهم وفروعهم وأزواجهم جنات عدن التي وعدهم بها، وهو ـ سبحانه ـ وإن كان لا يخلف الميعاد فإنه وعدهم بها بأسباب، ومن جملتها دعاء الملائكة لهم بأن يدخلهم إياها، يدخلونها برحمته التي منها أن وفقهم لأعمالها، وأقام ملائكته يدعون لهم بدخولها.

ثم أخبر ـ سبحانه ـ عن ملائكته أنهم قالوا عقيب هذه الدعوة: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أي: مصدر ذلك وسببه وغايته صادر عن كمال قدرتك وكمال علمك؛ فإن العزة كمال القدرة، والحكمة كمال العلم. وبهاتين الصفتين يقضي ﷻ ما يشاء ويأمر وينهى ويثيب ويعاقب. فهاتان الصفتان مصدر الخلق والأمر. والمقصود أن عقوبات السيئات تتنوع إلى عقوبات شرعية وعقوبات قدرية. وهي إما في القلب وإما في البدن وإما فيهما. وعقوبات في دار البرزخ بعد الموت، وعقوبات يوم عود الأجسام في الدار الآخرة. فالذنب لا يخلو من عقوبة البتة. ولكن لجهل العبد لا يشعر بما هو فيه من العقوبة؛ لأنه بمنزلة السكران والمخدر والنائم الذي لا يشعر بالألم، فإذا استيقظ وصحى أحس بالألم. فترتب العقوبات على الذنوب كترتب الإحراق على النار، والكسر على الانكسار، الاغتراف على الماء، وفساد البدن على السموم، والأمراض على الأسباب الجالبة لها.

وقد تقارن المضرة الذنب، وقد تتأخر عنه إما يسيراً وإما مدة، كما يتأخر المرض عن سببه أن يقارنه، وكثيراً ما يقع الغلط للعبد في هذا المقام، ويذنب الذنب فلا يرى أثره عقيبه، ولا يدري أنه يعمل عمله على التدريج شيئاً فشيئاً، كما تعمل السموم والأشياء الضارة حذو القذة بالقذة. فإن تدارك العبد نفسه بالأدوية والاستفراغ والحمية، وإلا فهو صائر إلى الهلاك، هذا إذا كان ذنباً واحداً لم يتداركه بما يزيل أثره، فكيف بالذنب على الذنب كل يوم وكل ساعة؟ والله المستعان.

[1]منها حرمان دعوة رسول الله ﷺ ودعوة الملائكة، فإن الله ـ سبحانه ـ أمر نبيه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [غافر: ٧ـ ٩] فهذا دعاء الملائكة للمؤمنين التابعين المتبعين لكتابه وسنة رسوله، الذين لا سبيل لهم غيرهما. فلا يطمع غير هؤلاء بإجابة هذه الدعوة إذا لم يتصف بصفات المدعو له بها.

[2]قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ . فأي نصح للعباد مثل هذا إلا نصح الأنبياء، فإذا طلب العبد العلم فقد سعى في أعظم ما ينصح به عباد الله،

---

(١) ٨٠ الجواب الكافي.

(٢) ٦٤ مفتاح جـ١.

فلذلك تحبه الملائكة وتعظمه ثم تضع أجنحتها له رضاً ومحبة وتعظيماً. وقال أبو حاتم الرازي: سمعت ابن أبي أويس يقول: سمعت مالك بن أنس يقول: معنى قول رسول الله ﷺ: «تضع أجنحتها»[1] يعني تبسطها بالدعاء لطالب العلم بدلاً من الأيدي.

***

﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ ﴾.

[2]الوحي حياة الروح، كما أن الروح حياة البدن. ولهذا من فقد هذه الروح: فقد فَقَد الحياة النافعة في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا: فحياته حياة البهائم، وله المعيشة الضنك. وأما في الآخرة: فله جهنم، لا يموت فيها ولا يحيا.

[3] ثم ينزل القلب منزل «التذكر»، وهو قرين الإنابة. قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ [غافر: ١٣]. وقال: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [قٓ: ٨]، وهو من خواص أولي الألباب. كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الرعد: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

***

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه ابن حبان (١/ ٢٨٩ رقم ٨٨) والضياء في المختارة (٨/ ٣٦ رقم ٢٩) والحاكم (١/ ١٨٠ رقم ٣٤١) وابن خزيمة (١/ ١٣ رقم ١٧) والنسائي في الكبرى (١/ ٩٢ رقم ١٣٢) والترمذي (رقم ٣٥٣٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) ١٥٨ مدارج جـ٣.

(٣) ٢٥٩ مدارج جـ٣.

[(١)] ويلي[(٢)] ذلك في كبر المفسدة القول على الله بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله، ووصفه بضد ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ، فهذا أشد شيء منافاة ومناقضة لكمال من له الخلق والأمر، وقدح في نفسه الربوبية وخصائص الرب. فإن صدر ذلك عن علم فهو عناد أقبح من الشرك وأعظم إثماً عند الله. فإن المشرك المقر بصفات الرب خير من المعطل الجاحد لصفات كماله؟ كما أن من أقر بالملك للملك ولم يجحد ملكه ولا الصفات التي استحق بها الملك لكن جعل معه شريكاً في بعض الأمور تقرباً إليه خير ممن جحد صفات الملك وما يكون به الملك ملكاً. هذا أمر مستقر في سائر الفطر والعقول. فأين القدح في صفات الكمال والجحد لها من عبادة واسطة بين المعبود الحق وبين العابد يتقرب إليه بعبادة تلك الواسطة، إعظاماً له وإجلالاً؟ فداء التعطيل هو الداء العضال الذي لا دواء له. ولهذا حكى الله عن إمام المعطلة فرعون أنه أنكر على موسى ما أخبر به من أن ربه فوق السموات، فقال: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦ ـ ٣٧] واحتج الشيخ أبو الحسن الأشعري في كتبه على المعطلة بهذه الآية. وقد ذكرنا لفظه في غير هذا الكتاب وهو كتاب (اجتماع الجيوش الإسلامية على حرب المعطلة والجهمية) في إثبات العلو.

...[(٣)] التصريح بلفظ الأين الذي هو عند الجهمية بمنزلة متى في الاستحالة، ولا فرق بين اللفظين عندهم البتة، فالقائل «أين الله» و«متى كان الله» عندهم سواء: كقول أعلم الخلق به، وأنصحهم لأمته، وأعظمهم بياناً عن المعنى الصحيح بلفظ لا يوهم باطلاً بوجه «أين الله» في غير موضع.

---

(١) ١٩٣ الجواب الكافي.

(٢) أي الشرك والكبر، وقد تقدم هذا قريبًا في سورة الزمر، استطرد على قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾. (ج).

(٣) ٢٨٢ أعلام جـ٢.

...شهادته التي هي أصدق شهادة عند الله وملائكته وجميع المؤمنين لمن قال: «إن ربه في السماء» بالإيمان، وشهد عليه أفراخ جهم بالكفر، وصرَّح الشافعي بأن هذا الذي وصفته من أن ربها في السماء إيمان، فقال في كتابه في باب عتق الرقبة المؤمنة. وذكر حديث الأمة السوداء، التي سوَّدت وجوه الجهمية، وبيضت وجوه المحمدية: فلما وصفت الإيمان قال: «أعتقها فإنها مؤمنة»[1]. وهي إنما وصفت كون ربها في السماء، وأن محمداً عبده ورسوله؛ فقرنت بينهما في الذكر؛ فجعل الصادق المصدوق مجموعهما هو الإيمان.

... إخباره ـ سبحانه ـ عن فرعون أنه رَامَ الصعود إلى السماء ليطلع إلى إله موسى، فيكذبه فيما أخبر به من أنه سبحانه فوق السماوات، فقال: ﴿ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ۝ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ﴾ فكذب فرعون موسى في إخباره إياه بأن ربه فوق السماء، وعند الجهمية لا فرق بين الإخبار بذلك وبين الإخبار بأنه يأكل ويشرب. وعلى زعمهم يكون فرعون قد نزه الرب عما لا يليق به، وكذب موسى في إخباره بذلك؛ إذ من قال عندهم: إن ربه فوق السماوات فهو كاذب، فهم في هذا التكذيب موافقون لفرعون مخالفون لموسى ولجميع الأنبياء، ولذلك سماهم أئمة السنة: «فرعونية»، قالوا: وهم شر من الجهمية؛ فإن الجهمية يقولون: إن الله في كل مكان بذاته، وهؤلاء عطلوه بالكلية، وأوقعوا عليه الوصف المطابق للعدم المحض، فأي طائفة من طوائف بني آدم أثبتت الصانع على أي وجه كان قولهم خيراً من قولهم.

...إخباره ﷺ أنه تردد بين موسى وبين الله، ويقول له موسى: ارجع إلى ربك فسله التخفيف، فيرجع إليه ـ سبحانه ـ ثم ينزل إلى موسى، فيأمره بالرجوع إليه ـ سبحانه ـ فيصعد إليه ـ سبحانه ـ ثم ينزل من عنده إلى موسى ثلاث مرات.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٥٣٧) وانظر: عمدة القاري (٢٠/ ٢٨٤) والتمهيد (٧/ ١٣٤).

(١) وأما الصد فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [غافر: ٣٧] قرأ أهل الكوفة على البناء للمفعول حملاً على (زين) وقرأ الباقون وصد بفتح الصاد، ويحتمل وجهين: أحدهما: أعرض، فيكون لازماً. والثاني: يكون صد غيره، فيكون متعدياً. والقراءتان كالآيتين لا يتناقضان.

***

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْأَخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ ﴾.

(٢) أخبرهم أن الدنيا متاع يستمتع بها إلى غيرها، وأن الآخرة هي المستقر. وإذا عرفت أن لذات الدنيا متاع وسبيل إلى لذات الآخرة، ولذلك ما خلقت الدنيا لذاتها. فكل لذة أعانت على لذة الآخرة، وأوصلت إليها لم يذم تناولها، بل يحمد بحسب إيصالها إلى لذة الآخرة. إذا عرف هذا فأعظم نعيم الآخرة ولذاتها النظر إلى وجه الله ـ جل جلاله ـ وسماع كلامه، والقرب منه. كما ثبت في الصحيح في حديث الرؤية: «فوالله ما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه»(٣).

وفي حديث آخر: «إنه إذا تجلى لهم ورأوه نسوا ما هم فيه من النعيم». وفي النسائي ومسند الإمام أحمد من حديث عمار بن ياسر ﷺ عن النبي ﷺ في دعائه: «وأسألك اللهم لذة النظر إلى وجهك الكريم، والشوق إلى لقائك»(٤). وفي كتاب السنة لعبد الله

---

(١) ٩٦ شفاء.

(٢) ٣١٨ الجواب الكافي.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٨١) وانظر: عمدة القاري (٥/ ٤٣).

(٤) أخرجه ابن حبان (٥/ ٣٠٤-٣٠٥ رقم ١٩٧١) والنسائي في الكبرى (١/ ٣٨٧ رقم ١٢٢٨) وفي المجتبى (رقم ١٣٠٥) وعبدالرزاق (١٠/ ٤٤٢ رقم ١٩٦٤٧) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٢/ ٤٥) والدارقطني في رؤية الله (رقم ١٧٣) والطبراني في الدعاء (رقم ٦٢٤) وتمام في فوائده (٢/ ١٤٧-١٤٨ رقم ١٣٨٧).

ابن الإمام أحمد مرفوعاً: «كأن الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن من الرحمن، فإذا سمعوه من الرحمن فكأنهم لم يسمعوه قبل ذلك»[١].

فإذا عرف هذا فأعظم الأسباب التي تحصل هذه اللذة، هو أعظم لذات الدنيا على الإطلاق، وهي لذة معرفته ـ سبحانه ـ، ولذة محبته؛ فإن ذلك هو لذة الدنيا ونعيمها العالي، ونسبة لذاتها الفانية إليه كتفلة في بحر. فإن الروح والقلب والبدن إنما خلقت لذلك. فأطيب ما في الدنيا معرفته ـ سبحانه ـ ومحبته، وألذ ما في الجنة رؤيته ومشاهدته، فمحبته ومعرفته قرة العيون، ولذة الأرواح، وبهجة القلوب، ونعيم الدنيا وسرورها. واللذة القاطعة عن ذلك تنقلب آلاماً وعذاباً ويبقى صاحبها في المعيشة الضنك. فليست الحياة الطيبة إلا بالله.

***

﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾.

[٢]رؤساء الكفر وأئمته، ودعاته الذين كفروا وصدوا عباد الله عن الإيمان وعن الدخول في دينه رغبة ورهبة، فهؤلاء عذابهم مضاعف، ولهم عذابان: عذاب بالكفر، وعذاب بصد الناس عن الدخول في الإيمان. قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ ﴾ [النحل: ٨٨] فأحد العذابين بكفرهم، والعذاب الآخرة بصدهم عن سبيل الله. وقد استقرت حكمة الله وعدله أن يجعل على الداعي إلى الضلال مثل آثام من اتبعه واستجاب له، ولا ريب أن عذاب هذا يتضاعف ويتزايد بحسب من اتبعه وضل به. وهذا النوع في الأشقياء مقابل دعاة الهدى في السعداء، فأولئك يتضاعف ثوابهم، وتعلو درجاتهم بحسب من اتبعهم واهتدى بهم،

(١) أخرجه القزويني في التدوين في أخبار قزوين (٢/ ٤٠٣) والديلمي في مسند الفردوس (١/ ٢٥٣ رقم ٩٨١) وانظر: فيض القدير (٢/ ٤٣٦).
(٢) ٤٠٩ طريق الهجرتين.

وهؤلاء عكسهم، ولهذا كان فرعون وقومه في أشد العذاب، قال ـ تعالى ـ في حقهم: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦] وهذا تنبيه على أن فرعون نفسه في الأشد من ذلك؛ لأنهم إنما دخلو أشد العذاب تبعاً له، فإنه هو الذي استخفهم فأطاعوه، وغرهم فاتبعوه. ولهذا يكون يوم القيامة أمامهم وفرطهم في هذا الورد، قال تعالى: ﴿ يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ﴾ [هود: ٩٨]. والمقصود: أنهم استحقوا أشد العذاب لغلظ كفرهم، وصدهم عن سبيل الله، وعقوبتهم من آمن بالله.

فليس عذاب الرؤساء في النار كعذاب أتباعهم، ولها كان في كتاب النبي ﷺ لهرقل: «**فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين**»[(١)] والصحيح في اللفظ أنهم الأتباع. ولهذا كان عدو الله إبليس أشد أهل النار عذاباً، وهو أول من يكسى حلة من النار؛ لأنه إمام كل كفر وشرك وشر. فما عُصِيَ الله إلا على يديه وبسببه، ثم الأمثل فالأمثل من نوابه في الأرض ودعاته. ولا ريب أن الكفر يتفاوت، فكفر أغلظ من كفر. كما أن الإيمان يتفاوت، فإيمان أفضل من إيمان. فكما أن المؤمنين ليسوا في درجة واحدة، بل هم درجات عند الله، فكذلك الكفار ليسوا في طبقة واحدة ودرك واحد، بل النار دركات، كما أن الجنة درجات. ولا يظلم الله من خلقه أحداً، وهو الغني الحميد.

وغلظ الكفر الموجب لغلظ العذاب يكون من ثلاثة أوجه: (أحدها) من حيث العقيدة الكافرة في نفسها، كمن جحد رب العالمين بالكلية، وعطل العالم عن الرب الخالق المدبر له، فلم يؤمن بالله وملائكته ولا كتبه ولا رسله ولا اليوم الآخر. ولهذا لا يقر أرباب هذا الكفر بالجزية عند كثير من العلماء، ولا تؤكل ذبائحهم، ولا تنكح نساؤهم اتفاقاً لتغلظ كفرهم. وهؤلاء هم المعطلة، والدهرية، وكثير من الفلاسفة،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧) ومسلم (رقم ١٧٧٣) وانظر: فتح الباري (١/٣٩) وشرح النووي (١٢/١٠٧-١٠٩).

وأهل الوحدة القائلين بأنه لا وجود للرب ﷻ غير وجود هذا العالم. (الجهة الثانية) تغلظه بالعناد والضلال عمداً على بصيرة. ككفر من شهد قلبه أن الرسول حق لما رآه من آيات صدقه، وكفر عناداً وبغياً. كقوم ثمود، وقوم فرعون، واليهود الذي عرفوا الرسول كما عرفوا أبناءهم، وكفر أبي جهل، وأمية بن أبي الصلت وأمثال هؤلاء. (الجهة الثالثة) السعي في إطفاء نور الله وصد عباده عن دينه بما تصل إليه قدرتهم، فهؤلاء أشد الكفار عذاباً بحسب تغلظ كفرهم، ومنهم من يجتمع في حقه الجهات الثلاث. ومنهم من يكون فيه جهتان منها أو واحدة.

فليس عذاب هؤلاء كعذاب من هو دونهم في الكفر، ممن هو ملبوس عليه لجهله، والمؤمنون من أذاه في سلامة، لا ينالهم منه أذى، ولم يتغلظ كفره كتغلظ هؤلاء، بل هو مقر بالله ووحدانيته وملائكته وجنس الكتب والرسل واليوم الآخر. وإن شارك أولئك في كفرهم بالرسول فقد زادوا عليه أنواعاً من الكفر. وهل يستوي في النار عذاب أبي طالب وأبي لهب وأبي جهل وعقبة بن أبي معيط وأبي بن خلف وأضرابهم؟ والمقصود: أن هذه الطبقة وهي طبقة الرؤساء الدعاة الصادين عن دين الله ليست كطبقة من دونهم ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**أهون أهل النار عذاباً أبو طالب**»[1]، ومعلوم أن كفر أبي طالب لم يكن مثل كفر أبي جهل وأمثاله.

طبقة المقلدين وجهال الكفرة وأتباعهم وحميرهم الذين هم معهم تبعاً لهم يقولون: إنا وجدنا آباءنا على أمة، وإنا على أسوة بهم. ومع هذا فهم متاركون لأهل الإسلام غير محاربين لهم، كنساء المحاربين وخدمهم وأتباعهم، الذين لم ينصبوا أنفسهم لما نصب له أولئك أنفسهم من السعي في إطفاء نور الله وهدم دينه وإخماد كلماته، بل هم بمنزلة الدواب.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٦١، ٦٥٦٢) ومسلم (رقم ٢١٣) واللفظ له، وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٢٤-٤٣٠) وشرح النووي (٣/ ٨٦).

وقد اتفقت الأمة على أن هذه الطبقة كفار وإن كانوا جهالاً مقلدين لرؤسائهم وأئمتهم، إلا ما يحكى عن بعض أهل البدع: أنه لم يحكم لهؤلاء بالنار، وجعلهم بمنزلة من لم تبلغه الدعوة، وهذا مذهب لم يقل به أحد من أئمة المسلمين لا الصحابة ولا التابعين ولا من بعدهم، وإنما يعرف عن بعض أهل الكلام المحدث في الإسلام.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من مولود إلا وهو يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»(١) فأخبر أن أبويه ينقلانه عن الفطرة إلى اليهودية والنصرانية والمجوسية، ولم يعتبر في ذلك غير المربي والمنشأ على ما عليه الأبوان. وصح عنه أنه قال ﷺ: «**إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة**»(٢) وهذا المقلد ليس بمسلم، وهو عاقل مكلف، والعاقل المكلف لا يخرج عن الإسلام أو الكفر.

وأما من لم تبلغه الدعوة فليس بمكلف في تلك الحال، وهو بمنزلة الأطفال والمجانين، وقد تقدم الكلام عليهم. والإسلام هو توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، والإيمان بالله وبرسوله واتباعه فيما جاء به. فما لم يأت العبد بهذا فليس بمسلم، وإن لم يكن كافراً معانداً فهو كافر جاهل. فغاية هذه الطبقة أنهم كفار جهال غير معاندين، وعدم عنادهم لا يخرجهم عن كونهم كفاراً، فإن الكافر من جحد توحيد الله وكذب رسوله إما عناداً أو جهلاً وتقليداً لأهل العناد. فهذا وإن كان غايته أنه غير معاند فهو متبع لأهل العناد، وقد أخبر الله في القرآن في غير موضع بعذاب المقلدين لأسلافهم من الكفار، وأن الأتباع مع متبوعهم، وأنهم يتحاجون في النار، وأن الأتباع يقولون: ﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨].

***

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٣٥٨) ومسلم (رقم ٢٦٥٨) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٤٨-٢٥١) وشرح النووي (١٦/ ٢٠٧).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٧٤) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٠٢) وشرح النووي (١٦/ ٢٢٦).

﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٧ ـ ٤٨].

[1]قال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ﴾ [سبأ: ٣١ ـ ٣٣]. فهذا إخبار من الله وتحذير بأن المتبوعين والتابعين اشتركوا في العذاب، ولم يغن عنهم تقليدهم شيئاً، وأصرح من هذا قوله تعالىٰ: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ﴾ [البقرة: ١٦٦ ـ ١٦٧] وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من دعا إلىٰ ضلالة كان عليه من الإثم مثل أوزار من اتبعه لا ينقص من أوزارهم شيئاً**»[2]. وهذا يدل علىٰ أن كفر من اتبعهم إنما هو بمجرد اتباعهم وتقليدهم.

نعم لابد في هذا المقام من تفصيل به يزول الإشكال، وهو الفرق بين مقلد تمكن من العلم ومعرفة الحق فأعرض عنه، ومقلد لم يتمكن من ذلك بوجه. والقسمان واقعان في الوجود، فالمتمكن المعرض مفرط تارك للواجب عليه لا عذر له عند الله، وأما العاجز عن السؤال والعلم الذي لا يتمكن من العلم بوجه فهم قسمان أيضاً: أحدهما مريد للهدىٰ مؤثر له محب له، غير قادر عليه ولا علىٰ طلبه لعدم من يرشده، فهذا حكمه حكم أرباب الفترات، ومن لم تبلغه الدعوة. الثاني: معرض لا إرادة له،

(١) ٤١٢ طريق الهجرتين.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٠١٧) (٢٦٧٤) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٠٢).

ولا يحدث نفسه بغير ما هو عليه. فالأول يقول: يا رب لو أعلم ديناً خيراً مما أنا عليه لدنت به وتركت ما أنا عليه، ولكن لا أعرف سوى ما أنا عليه ولا أقدر على غيره، فهو غاية جهدي ونهاية معرفتي.

والثاني: راض بما هو عليه لا يؤثر غيره، ولا تطلب نفسه سواه، ولا فرق عنده بين حال عجزه وقدرته، وكلاهما عاجز. وهذا لا يجب أن يلحق بالأول، لما بينهما من الفرق: فالأول كمن طلب الدين في الفترة ولم يظفر به، فعدل عنه بعد استفراغ الوسع في طلبه عجزاً وجهلاً. والثاني: كمن لم يطلبه بل مات على شركه، وإن كان لو طلبه لعجز عنه، ففرق بين عجز الطالب وعجز المعرض. فتأمل هذا الموضع، والله يقضي بين عباده يوم القيامة بحكمه وعدله، ولا يعذب إلا من قامت عليه حجته بالرسل، فهذا مقطوع به في جملة الخلق. وأما كون زيد بعينه وعمرو قامت عليه الحجة أم لا، فذلك مما لا يمكن الدخول بين الله وبين عباده فيه، بل الواجب على العبد أن يعتقد أن كل من دان بدين غير دين الإسلام فهو كافر، وأن الله ﷻ لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بالرسول. هذا في الجملة، والتعيين موكول إلى علم الله وحكمه.

هذا في أحكام الثواب والعقاب، وأما في أحكام الدنيا فهي جارية على ظاهر الأمر: فأطفال الكفار ومجانينهم كفار في أحكام الدنيا لهم حكم أوليائهم. وبهذا التفصيل يزول الإشكال في المسألة. وهو مبني على أربعة أصول:

أحدها: أن الله ﷻ لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء: ١٥]. وقال تعالى: ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]. وقال تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [الملك: ٨ ـ ٩]. وقال تعالى: ﴿ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١١] وقال تعالى: ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ

عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الأنعام: ١٣٠].
وهذا كثير في القرآن، يخبر أنه إنما يعذب من جاءه الرسول وقامت عليه الحجة، وهو المذنب الذي يعترف بذنبه، وقال تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الزخرف: ٧٦] والظالم من عرف ما جاء به الرسول أو تمكن من معرفته بوجه، وأما من لم يعرف ما جاء به الرسول وعجز عن ذلك فكيف يقال إنه ظالم؟

الأصل الثاني: أن العذاب يستحق بسببين، أحدهما: الإعراض عن الحجة وعدم إرادتها والعمل بها وبموجبها. الثاني: العناد لها بعد قيامها وترك إرادة موجبها. فالأول: كفر إعراض، والثاني:كفر عناد. وأما كفر الجهل مع عدم قيام الحجة وعدم التمكن من معرفتها، فهذا الذي نفى الله التعذيب عنه حتى تقوم حجة الرسل.

الأصل الثالث: أن قيام الحجة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص، فقد تقوم حجة الله على شخص دون آخر، إما لعدم عقله وتمييزه كالصغير والمجنون، وإما لعدم فهمه، كالذي لا يفهم الخطاب ولم يحضر ترجمان بترجم له. فهذا بمنزلة الأصم الذي لا يسمع شيئاً ولا يتمكن من الفهم، وهو أحد الأربعة الذين يدلون على الله بالحجة يوم القيامة، كما تقدم في حديث الأسود وأبي هريرة وغيرهما.

الأصل الرابع: أن أفعال الله ﷻ تابعة لحكمته التي لا يخل بها، وأنها مقصودة لغاياتها المحمودة وعواقبها الحميدة. وهذا الأصل هو أساس الكلام في هذه الطبقات، إلا من عرف ما في كتب الناس ووقف على أقوال الطوائف في هذا الباب، وانتهى إلى غاية مراتبهم ونهاية إقدامهم، والله الموفق للسداد الهادي إلى الرشاد.

وأما من لم يثبت حكمة ولا تعليلاً، ورد الأمر إلى محض المشيئة التي ترجح أحد المثلين على الآخر بلا مرجح، فقد أراح نفسه من هذا المقام الضنك، واقتحام عقبات هذه المسائل العظيمة، وأدخلها كلها تحت قوله: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾

[الأنبياء: ٢٣] وهو الفعال لما يريد، وصدق الله وهو أصدق القائلين: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ لكمال حكمته وعلمه ووضعه الأشياء مواضعها، وأنه ليس في أفعاله خلل ولا عبث ولا فساد، يسأل عنه كما يسأل المخلوق، وهو الفعال لما يريد، ولكن لا يريد أن يفعل إلا ما هو خير ومصلحة ورحمة وحكمة، فلا يفعل الشر، ولا الفساد، ولا الجور، ولا خلاف مقتضى حكمته، لكمال أسمائه وصفاته، وهو الغني الحميد العليم الحكيم.

***

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ۝ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ﴾.

[(١)] التذكر و«التفكر» منزلان يثمران أنواع المعارف، وحقائق الإيمان والإحسان. والعارف لا يزال يعود بتفكره على تذكره، وبتذكره على تفكره، حتى يفتح قفل قلبه بإذن الفتاح العليم. قال الحسن البصري: ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر، وبالتفكر على التذكر[(٢)]، ويناطقون القلوب حتى نطقت.

قال صاحب المنازل: «التذكر فوق التفكر؛ لأن التفكر طلب، والتذكر وجود». يريد أن التفكر التماس الغايات من مباديها. كما قال: «التفكر تلمس البصيرة لاستدراك البغية». وأما قوله: «التذكر وجود» فلأنه يكون فيما قد حصل بالتفكر. ثم غاب عنه بالنسيان. فإذا تذكره وجده فظفر به. و«التذكر» تفعل من الذكر. وهو ضد النسيان. وهو حضور صورة المذكور العلمية في القلب. واختير له بناء التفعل، لحصوله بعد مهلة وتدرج. كالتبصر والتفهم والتعلم.

فمنزلة «التذكر» من «التفكر» منزلة حصول الشيء المطلوب بعد التفتيش عليه.

---

(١) ٤٤٠ مدارج جـ١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره عن قتادة (٨/ ٢٥١٧ رقم ١٤٠٩٠).

ولهذا كانت آيات الله المتلوة والمشهودة ذكرى. كما قال في المتلوة: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ۝ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [غافر: ٥٣، ٥٤] وقال عن القرآن: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٨]. وقال في آياته المشهودة: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٦ - ٨].

فـ «التبصرة» آله البصر، و«التذكره» آلة الذكر. وقرن بينهما وجعلهما لأهل الإنابة؛ لأن العبد إذا أناب إلى الله أبصر مواقع الآيات والعبر. فاستدل بها على ما هي آيات له. فزال عنه الإعراض بالإنابة، والعمى بالتبصرة، والغفلة بالتذكرة؛ لأن التبصرة توجب له حصول صورة المدلول في القلب بعد غفلته عنها. فترتيب المنازل الثلاثة أحسن ترتيب، ثم إن كلا منها يمد صاحبه ويقويه ويثمره.

وقال ـ تعالى ـ في آياته المشهودة: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ۝ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٦، ٣٧].

والناس ثلاثة: رجل قبل ميت. فذلك الذي لا قلب له. فهذا ليست هذه الآية ذكرى في حقه. الثاني: رجل له قلب حيٌّ مستعد، لكنه غير مستمع للآيات المتلوة، التي يخبر بها الله عن الآيات المشهودة: إما لعدم ورودها، أو لوصولها إليه، ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها. فهو غائب القلب، ليس حاضراً. فهذا أيضاً لا تحصل له الذكرى، مع استعداده ووجود قلبه. والثالث: رجل حي القلب مستعد، تليت عليه الآيات، فأصغى بسمعه، وألقى السمع وأحضر قلبه، ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه. فهو شاهد القلب. ملق السمع. فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلوة والمشهودة. فالأول: بمنزلة الأعمى الذي لا يبصر. والثاني: بمنزلة البصير الطامح

ببصره إلىٰ غير جهة المنظور إليه، فكلاهما لا يراه. والثالث: بمنزلة البصير الذي قد حدق إلىٰ جهة المنظور، وأتبعه بصره، وقابله علىٰ توسط من البعد والقرب. فهذا هو الذي يراه. فسبحان من جعل كلامه شفاء لما في الصدور. فإن قيل: فما موقع «أو» من هذا النظم علىٰ ما قررت؟ قيل: فيها سر لطيف، ولسنا نقول: إنها بمعنىٰ الواو. كما يقوله ظاهرية النحاة.

فاعلم أن الرجل قد يكون له قلب وقَّاد، مليء باستخراج العبر، واستنباط الحكم. فهذا قلبه يوقعه علىٰ التذكر والاعتبار، فإذا سمع الآيات كانت له نوراً علىٰ نور. وهؤلاء أكمل خلق الله، وأعظمهم إيماناً وبصيرة. حتىٰ كأن الذي أخبرهم به الرسول مشاهد لهم، لكن لم يشعروا بتفاصيله وأنواعه. حتىٰ قيل: إن مثل حال الصديق مع النبي ﷺ، كمثل رجلين دخلا داراً، فرأىٰ أحدهما تفاصيل ما فيها وجزئياته. والآخر: وقعت يده علىٰ ما في الدار ولم ير تفاصيله ولا جزئياته. لكن علم أن فيها أموراً عظيمة، لم يدرك بصره تفاصيلها. ثم خرجا فسأله عما رأىٰ في الدار؟ فجعل كلما أخبره بشيء صدقه، لما عنده من شواهده، وهذه أعلىٰ درجات الصديقية. ولا تستبعد أن يمن الله المنان علىٰ عبد بمثل هذا الإيمان؛ فإن فضل الله لا يدخل تحت حصر ولا حسبان.

فصاحب هذا القلب إذا سمع الآيات وفي قلبه نور من البصيرة: ازداد بها نوراً إلىٰ نوره. فإن لم يكن للعبد مثل هذا القلب فألقىٰ السمع وشهد قلبه ولم يغب حصل له التذكر أيضاً: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة: ٢٦٥] والوابل والطل في جميع الأعمال وآثارها، وموجباتها. وأهل الجنة سابقون مقربون، وأصحاب يمين، وبينهما في درجات التفضيل ما بينهما. حتىٰ إن شراب أحد النوعين الصرف يطيب به شراب النوع الآخر ويمزج به مزجاً. قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦] فكل مؤمن يرىٰ هذا. ولكن رؤية أهل العلم له لون، ورؤية غيرهم له لون آخر.

قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ

دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٣٠، ٣١] بين أن هذا العقاب لم يكن ظلماً من الله للعباد بل لذنوبهم واستحقاقهم، ومعلوم أن المحال الذي لا يمكن ولا يكون مقدوراً أصلاً لا يصلح أن يمدح الممدوح بعدم إرادته ولا فعله ولا يحمد على ذلك، وإنما يكون المدح بترك الأفعال لمن هو قادر عليها. وأن يتنزه عنها لكماله وغناه وحمده. وعلى هذا يتم قوله: «**إني حرمت الظلم على نفسي**»[١] وما شاكله من النصوص.

***

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

[٢]من ألهم الدعاء فقد أريد به الإجابة: فإن الله ـ سبحانه ـ يقول: ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠]. وقال: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**»[٣]. وهذا يدل على أن رضاه في سؤاله وطاعته. وإذا رضي الرب ـ تبارك وتعالى ـ فكل خير من رضاه. كما أن كل بلاء ومصيبة من غضبه. وقد ذكر أحمد في كتاب الزهد أثراً: «**أنا الله لا إله إلا أنا، إذا رضيت باركت، وليس لبركتي منتهى، وإذا غضبت لعنت، ولعنتي تبلغ السابع من الولد**»[٤].

وقد دل العقل، والنقل، والفطرة، وتجارب الأمم على اختلاف أجناسها ومللها

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٧٧) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٨٤) وشرح النووي (١٦/ ١٣٢).

(٢) ١٧ الجواب الكافي.

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٣٣٧٣) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٦٥٨) وأبو يعلى (١٢/ ١٠ رقم ٦٦٥٥) وأحمد (٢/ ٤٤٢) والبيهقي في الشعب (٢/ ٣٥ رقم ١٠٩٩) والطبراني في الدعاء (رقم ٢٣) وانظر: فتح الباري (١١/ ٩٥).

(٤) أخرجه أحمد في الزهد (صـ٥٢) وانظر: الدر المنثور (٥/ ٤٢٩-٤٣٠).

ونحلها على أن التقرب إلى رب العالمين، وطلب مرضاته، والبر والإحسان إلى خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير، وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شر. فما استجلبت نعم الله واستدفعت نقمة الله بمثل طاعته والتقرب إليه والإحسان إلى خلقه..

***

﴿ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

[1]أول ذنب عصى الله به أبوا الثقلين: الكبر والحرص. فكان الكبر ذنب إبليس اللعين، فآل أمره إلى ما آل إليه. وذنب آدم على نبينا وعليه السلام: كان من الحرص والشهوة. فكان عاقبته التوبة والهداية. وذنب إبليس حمله على الاحتجاج بالقدر والإصرار، وذنب آدم أوجب له إضافته إلى نفسه، والاعتراف به والاستغفار.

فأهل الكبر والإصرار، والاحتجاج بالأقدار: مع شيخهم وقائدهم إلى النار إبليس. وأهل الشهوة: المستغفرون التائبون المعترفون بالذنوب، الذين لا يحتجون عليها بالقدر. مع أبيهم آدم في الجنة. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول: التكبر شر من الشرك؛ فإن المتكبر يتكبر عن عبادة الله ـ تعالى ـ، والمشرك يعبد الله وغيره.

قلت: ولذلك جعل الله النار دار المتكبرين. كما قال في سورة الزمر وفي سورة غافر: ﴿ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر: ٧٢ وغافر: ٧٦] وفي سورة النحل: ﴿ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [النحل: ٢٩] وفي سورة تنزيل: ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٠]. وأخبر أن أهل الكبر والتجبر هم الذين طبع الله على قلوبهم. فقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٣٥]. وقال ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» رواه مسلم. وقال ﷺ: «الكبر بطر الحق،

(١) ٣٣٢ مدارج جـ٢.

وغمط الناس»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] تنبيهًا علىٰ أنه لا يغفر الكبر الذي هو أعظم من الشرك، وكما أن «من تواضع لله رفعه»(٢) فكذلك من تكبر عن الانقياد للحق أذله الله ووضعه، وصغَّره وحقَّره. ومن تكبر عن الانقياد للحق ـ ولو جاءه علىٰ يد صغير، أو من يبغضه أو يعاديه ـ فإنما تكبره علىٰ الله؛ فإن الله هو الحق، وكلامه حق، ودينه حق، والحق صفته ومنه وله. فإذا رده العبد وتكبر عن قبوله: فإنما رد علىٰ الله، وتكبر عليه، الله أعلم.

(٣)الفرق بين المهابة والكبر (أن المهابة) أثر من آثار امتلاء القلب بعظمة الله ومحبته وإجلاله. فإذا امتلأ القلب بذلك حل فيه النور، ونزلت عليه السكينة، وألبس رداء الهيبة، فاكتسىٰ وجهه الحلاوة والمهابة، فأخذ بمجامع القلوب محبة ومهابة، فحنت إليه الأفئدة، وقرت به العيون، وأنست به القلوب. فكلامه نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، وعمله نور. إن سكت علاه الوقار، وإن تكلم أخذ بالقلوب والأسماع.

وأما الكبر فأثر من آثار العجب والبغي من قلب قد امتلأ بالجهل والظلم، ترحلت منه العبودية، ونزل عليه المقت. فنظره إلىٰ الناس شزر، ومشيه بينهم تبختر، ومعاملته لهم معامل الاستئثار لا الإيثار ولا الإنصاف، ذاهب بنفسه تيهاً، لا يبدأ من لقيه بالسلام، وإن رد عليه رأىٰ أنه قد بالغ في الإنعام عليه، لا ينطلق لهم وجهه ولا يسعهم خلقه، ولا يرىٰ لأحد عليه حقاً، ويرىٰ حقوقه علىٰ الناس، ولا يرىٰ فضلهم عليه،

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٩١) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٢٥٩-٢٦٠) وشرح النووي (٢/ ٨٩).

(٢) أخرجه ابن حبان (١٢/ ٤٩١ رقم ٥٦٧٨) وابن أبي شيبة (٧/ ١٢٠ رقم ٣٤٦٦٣) وأبو يعلىٰ (٢/ ٣٥٨ رقم ١١٠٩) وأحمد ٣/ ٧٦) والبيهقي في الشعب (٦/ ٢٧٦ رقم ٨١٤٠) وهناد في الزهد (١/ ٩١ رقم ٩٨) والطبراني في الأوسط (٨/ ١٧٢ رقم ٨٣٠٧) قال المنذري في الترغيب (٤/ ٢٨٩ رقم ٥٦٧٨): رواه البيهقي بإسناد حسن. وحسنه الحافظ ابن حجر في الأمالي المطلقة (صـ٨٩-٩٠).

(٣) ٢٨٧ الروح.

ويرىٰ فضله عليهم، لا يزداد من الله إلا بعداً، ومن الناس إلا صغاراً وبغضاً.

والفرق بين الصيانة والتكبر أن الصائن لنفسه بمنزلة رجل قد لبس ثوباً جديداً نقي البياض ذا ثمن، فهو يداخل به علىٰ الملوك فمن دونهم، فهو يصونه عن الوسخ والغبار والطبوع وأنواع الآثار، إبقاء علىٰ بياضه ونقائه، فتراه صاحب تعزز وهروب من المواضع التي يخشىٰ منها عليه التلوث، فلا يسمح بأثر ولا طبع ولا لوث يعلو ثوبه، وإن أصابه شيء من ذلك علىٰ غرة بادر إلىٰ قلعه وإزالته ومحو أثره. وهكذا الصائن لقلبه ودينه تراه يجتنب طبوع الذنوب وآثارها، فإن لها في القلب طبوعاً وآثاراً أعظم من الطبوع، الفاحشة في الثوب النقي البياض، ولكن علىٰ العيون غشاؤة أن تدرك تلك الطبوع فتراه يهرب من مظان التلوث، ويحترس من الخلق، ويتباعد من تخالطهم مخافة أن يحصل لقلبه ما يحصل للثوب الذي يخالط الدباغين والذباحين والطباخين ونحوهم. بخلاف صاحب العلو فإنه وإن شابه هذا في تحرزه وتجنبه فهو يقصد أن يعلو رقابهم ويجعلهم تحت قدمه، فهذا لون وذاك لون.

***

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

[1] إن القوم لم يكن لهم نصيب من العلم الذي جاءت به الرسل، بل كانوا كما قال الله تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ [غافر: ٨٣]. وما غاية ما يناله الذاكر المعرض عما جاءت به الرسل، وغاية ما نالوا به علماً بأمور طبيعية فيها الحق والباطل، وأمور رياضية كثيرة التعب قليلة الجدوىٰ، وأمور الهيئة باطلها أضعاف حقها. فأين العلم المتلقي من الوحي النازل، إلىٰ الظن المأخوذ عن الرأي الزائل؟ وأين العلم المأخوذ عن رسول الله ـ عليه الصلاة

---

(١) ١٥٨ تحفة المودود.

والسلام ـ عن جبريل عن الله ﷻ إلى الظن المأخوذ عن رأي رجل لم يستنر قلبه بنور الوحي طرفة عين، وإنما معه حدسه وتخمينه؟ ونسبة ما يدركه العقلاء قاطبة بعقولهم إلى ماجاءت به الرسل كنسبة سراج ضعيف إلى ضوء الشمس.

ولا تجد ولو عمرت عمر نوح مسألة واحدة أصلاً اتفق فيها العقلاء كلهم على خلاف ما جاء به الرسل في أمر من الأمور البتة. فالأنبياء لم تأت بما يخالف صريح العقل البتة، وإنما جاءت بما لا يدركه العقل. فما جاءت به الرسل مع العقل ثلاثة أقسام، لا رابع لها البتة:

١ ـ قسم شهد به العقل والفطرة.

٢ ـ وقسم يشهد بجملته ولا يهتدي لتفصيله.

٣ ـ وقسم ليس في العقل قوة إدراكه.

٤ ـ وأما القسم الرابع، وهو ما يحيله العقل الصريح ويشهد ببطلانه، فالرسل بريئون منه. وإن ظن كثير من الجهال المدعين للعلم والمعرفة أن بعض ما جاء به الرسل يكون من هذا القسم، فهذا إما لجهله بما جاءت به، وإما لجهله بحكم العقل أو لهما.ا.هـ.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة غافر

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

سُورَةُ فُصِّلَتْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

[(١)]قال تعالىٰ: ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ [فصلت: ٣] أي بينت وأزيل عنها الإجمال، فلو كانت آياته مجملة لم تكن قد فصلت. وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور: ٥٤]. وهذا يتضمن بلاغ المعنىٰ وأنه في أعلىٰ درجات البيان. فمن قال: إنه لم يبلغ الأمة معاني كلامه وكلام ربه بلاغاً مبيناً بل بلغهم ألفاظه، وأحالهم في فهم معانيه علىٰ ما يذكره هؤلاء لم يكن قد شهد له بالبلاغ. وهذا هو حقيقة قولهم، حتىٰ إن منهم من يصرح به، ويقول: إن المصلحة كانت في كتمان معاني هذه الألفاظ وعدم تبليغها للأمة، إما لمصلحة الجمهور، ولكونهم لا يفهمون المعاني إلا في قوالب الحسيات وضرب الأمثال، وإما لينال الكادحون ثواب كدحهم في استنباط معانيها واستخراج تأويلاتها من وحشي اللغات وغرائب الأشعار، ويغوصون بأفكارهم الدقيقة علىٰ صرفها عن حقائقها ما أمكنهم.

وأما أهل العلم والإيمان فيشهدون له بما شهد الله به، وشهدت به ملائكته وخيار القرون: أنه بلغ البلاغ المبين، القاطع للعذر، المقيم للحجة، الموجب للعلم واليقين لفظاً ومعنى. والجزم بتبليغه معاني القرآن والسنة: كالجزم بتبليغه الألفاظ، بل أعظم من ذلك؛ لأن ألفاظ القرآن والسنة إنما يحفظها خواص أمته، وأما المعاني التي بلغها فإنه يشترك في العلم بها العامة والخاصة. ولما كان بالمجمع الأعظم الذي لم يجمع لأحد مثله قبله ولا بعده في اليوم الأعظم، في المكان الأعظم، قال لهم: «أنتم مسئولون عني فما أنتم قائلون» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، ورفع

---

(١) ٣٣٨ الصواعق جـ٢.

إصبعه الكريمة إلىٰ السماء، رافعاً لها إلىٰ من هو فوقها وفوق كل شيء قائلاً: «**اللهم اشهد**»[(١)] فكأنا شهدنا تلك الإصبع الكريمة وهي مرفوعة إلىٰ الله، وذلك اللسان الكريم وهو يقول: «**اللهم اشهد**»، ونشهد أن بلغ البلاغ المبين، وأدىٰ رسالة ربه كما أمر، ونصح أمته غاية النصيحة، وكشف لهم طرائق الهدىٰ، وأوضح لهم معالم الدين، وتركهم علىٰ المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، فلا يحتاج مع كشفه وبيانه إلىٰ تنطع المتنطعين، فالحمد لله الذي أغنانا بوحيه ورسوله عن تكلفات المتكلفين.

***

﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾.

[(٢)]قوله تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ [الأنعام: ٢٥] وهي جمع كنان، كعنان وأعنة، وأصله من الستر والتغطية، ويقال: كنَّه وأكنه وكنان بمعنىٰ واحد، بل بينهما فرق فأكنه إذا ستره وأخفاه كقوله تعالىٰ: ﴿ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٣٥]. وكنه إذا صانه وحفظه كقوله: ﴿ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾، ويشتركان في الستر، والكنان ما أكن الشيء وستره وهو كالغلاف. وقد أقروا علىٰ أنفسهم بذلك، فقالوا: ﴿ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [فصلت: ٥]. فذكروا غطاء القلب وهي الأكنة، وغطاء الأذن وهو الوقر، وغطاء العين وهو الحجاب. والمعنىٰ لا نفقه كلامك ولا نسمعه ولا نراك، والمعنىٰ: إنا في ترك القبول منك بمنزلة من لا يفقه ما تقول ولا يراك. قال ابن عباس: قلوبنا في أكنة مثل الكنانة التي فيها السهام. وقال مجاهد: كجعبة النبل. وقال مقاتل: عليها غطاء فلا نفقه ما تقول.

***

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٢١٨) وانظر: شرح النووي (٨/ ١٨٤).
(٢) ٩٣ شفاء.

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ ﴾.

[(١)] وقال تعالى: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [فصلت: ٦، ٧]، قال أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم: هي التوحيد: شهادة أن لا إله إلا الله، والإيمان الذي به يزكو القلب، فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب، وذلك طهارته، وإثبات إلهيته ـ سبحانه ـ، وهو أصل كل زكاة ونماء؛ فإن التزكي ـ وإن كان أصله النماء والزيادة والبركة ـ فإنه إنما يحصل بإزالة الشر. فلهذا صار التزكي ينتظم الأمرين جميعاً. فأصل ما تزكو به القلوب والأرواح هو التوحيد. والتزكية جعل الشيء زكياً، إما في ذاته، وإما في الاعتقاد والخبر عنه، كما يقال عدلته وفسقته، إذا جعلته كذلك في الخارج، أو في الاعتقاد والخبر. وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ [النجم: ٣٢] هو على غير معنى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٩] أي لا تخبروا بزكاتها وتقولوا: نحن زاكون صالحون متقون، ولهذا قال عقيب ذلك: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٢].

***

﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾.

[(٢)] قوله ﷺ: «من صلى على جنازة فله قيراط، ومن تبعها حتى تدفن فله قيراطان»[(٣)]. سئل أبو نصر ابن الصباغ عن القيراطين: هل هما غير الأول أو به؟ فقال:

---

(١) ٤٩ إغاثة جـ١.

(٢) ١٣٧ البدائع.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٩٤٥) وانظر: فتح الباري (٣/ ١٩٧) وشرح النووي (٦/ ٦٦).

بل القيراطان الأول، وآخر معه بدليل قوله تعالىٰ: ﴿ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ [فاطر: ١].
(قلت): ونظير هذا قوله ﷺ: «**من صلىٰ العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلىٰ الفجر في جماعة فكأنما قام الليل كله**»[١] فهذا مع صلاة العشاء في جماعة، قد جاء مصرحاً به في جامع الترمذي كذلك. «**ومن صلىٰ العشاء والفجر في جماعة، فكأنما قام الليل كله**»[٢]. ونظيره أيضاً قوله تعالىٰ: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [فصلت: ٩، ١٠]، فهي أربعة باليومين الأولين، ولولا ذلك كانت أيام التخليق ثمانية.

[٣]اختلف الناس هل السماء أشرف من الأرض أم الأرض أشرف من السماء؟ فالأكثرون علىٰ الأول. واحتج من فضل الأرض، بأن الله أنشأ منها أنبياءه ورسله وعباده المؤمنين، وبأنها مساكنهم ومحلهم أحياء وأمواتاً. وبأن الله ﷻ لما أراد إظهار فضل آدم للملائكة قال: ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠] فأظهر فضله عليهم بعلمه واستخلافه في الأرض، وبأن الله ﷻ وضعها بأن جعلها محل بركاته عموماً وخصوصًا، فقال: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ ﴾ [فصلت: ١٠].

ووصف الشام بالبركة في ست آيات، ووصف بعضها بأنها مقدسة، ففيها الأرض المباركة، والمقدسة، والوادي المقدس. وفيها بيته الحرام، ومشاعر الحج، والمساجد التي هي بيوته ـ سبحانه ـ والطور الذي كلم عليه كليمه ونجيه. وبإقسامه ـ

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٦٥٦) وانظر: فتح الباري (٣/ ١٩٧) وشرح النووي (٦/ ٦٦) (٧/ ١٣).
(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٢١) وأبو داود (رقم ٥٥٥) وابن حبان (٥/ ٤٠٨ رقم ٢٠٥٩). وأحمد (١/ ٦٨) والبزار (٢/ ٦١ رقم ٤٠٣) وقال الترمذي: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ وانظر: التمهيد (٢٣/ ٣٥٣) وتحفة الأحوذي (٢/ ١١).
(٣) ٢٣ البدائع جـ٤.

سبحانه ـ بالأرض عموماً وخصوصاً أكثر من إقسامه بالسماء؛ فإنه أقسم بالطور، والبلد الأمين، والتين والزيتون، ولما أقسم بالسماء أقسم بالأرض معها، وبأنه سبحانه خلقها قبل خلق السماء، كما دلت عليه سورة حم السجدة. وبأنها مهبط وحيه، ومستقر كتبه، ورسله، ومحل أحب الأعمال إليه، وهو: الجهاد، والصدقة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومغايظة أعدائه، ونصر أوليائه، وليس في السماء من ذلك شيء. وبأن ساكنيها من الرسل والأنبياء والمتقين أفضل من سكان السماء من الملائكة، كما هو مذهب أهل السنة، فمسكنهم أشرف من مسكن الملائكة. وبأن ما أودع فيها من المنافع والأنهار والثمار والمعارف والأقوات والحيوان والنبات ما هو من بركاتهم لم يودع في السماء مثله. وبأن الله ـ سبحانه ـ قال: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠] ثم قال: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] فجعل الأرض محل آياته، والسماء محل رزقه. ولو لم يكن له فيها إلا بيته وبيت خاتم أنبيائه ورسله حيًّا وميتاً وبأن الأرض جعلها الله قراراً وبساطاً، ومهاداً وفراشاً وكفاتاً ومادة للساكن لملابسه وطعامه وشرابه ومراكبه وجميع آلاته، ولاسيما إذا أخرجت بركتها وازينت وأنبتت من كل زوج بهيج.

قال المفضلون للسماء: يكفي في فضلها أن رب العالمين ـ سبحانه ـ فيها، وأن عرشه وكرسيه فيها، وأن الرفيق الأعلىٰ الذي أنعم الله عليه فيها، وأن دار كرامته فيها وأنها مستقر أنبيائه ورسله وعباده المؤمنين يوم الحشر. وأنها مطهرة مبرأة من كل شر وخبث ودنس يكون في الأرض؛ ولهذا لا تفتح أبوابها للأرواح الخبيثة، ولا يلج ملكوتها. ولأنها مسكن من لا يعصون الله طرفة عين، فليس فيها موضع أربع أصابع إلا وملك ساجد أو قائم، وبأنها أشرف مادة من الأرض، وأوسع وأنور وأصفىٰ وأحسن خلقة وأعظم آيات. وبأن الأرض محتاجة في كمالها إليها، ولا تحتاج هي إلىٰ الأرض، ولهذا جاءت في كتاب الله في غالب المواضع مقدمة علىٰ الأرض، وجمعت

وأفردت الأرض فبشرفها وفضلها أتى بها مجموعة، وأما الأرض فلم يأت بها إلا مفردة، وحيث أريد تعدادها قال: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾. وهذا القول هو الصواب والله ﷻ أعلم.

***

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

(1)المرتبة الثانية: هداية البيان والدلالة التي أقام بها حجته على عباده. وهذا لا تستلزم الاهتداء التام. قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧] يعني بينا لهم ودللناهم وعرفناهم فآثروا الضلالة والعمى. وقال تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٨]. وهذه المرتبة أخص من الأولى وأعم من الثانية. وهي هدى التوفيق والإلهام. قال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [يونس: ٢٥] فعم بالدعوة خلقه، وخص بالهداية من شاء منهم.

قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦] مع قوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢] فأثبت هداية الدعوة والبيان، ونفى هداية التوفيق والإلهام. وقال النبي ﷺ في تشهد الحاجة: **«من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له»**. وقال تعالى: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ [النحل: ٣٧] أي من يضله الله لا يهتدي أبداً، وهذه الهداية الثالثة هي الهداية الموجبة المستلزمة للاهتداء.

---

(١) ٤٨٤ المفتاح جـ١.

وأما الثانية فشرط لا موجب، فلا يستحيل تخلف الهدى عنها، بخلاف الثالثة، فإن تخلف الهدى عنها مستحيل.

***

﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

[1]الإنطاق فعل الله الذي لا يجوز تعطيله. والنطق فعل العبد الذي لا يمكن إنكاره كما قال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٣]. فعلم أن كونهم ينطقون هو أمر حقيقي حتى شبه به في تحقيق كون ما أخبر به، وأن هذا حقيقة لا مجاز. ومن جعل إضافة نطق العبد إليه مجازاً لم يكن ناطقاً عنده حقيقة، فلا يكون التشبيه بنطقه محققاً لما أخبر به فتأمله.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ [النجم: ٤٣] فهو المضحك المبكي حقيقة، والعبد الضاحك الباكي حقيقة، كما قال تعالى: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا ﴾ [التوبة: ٨٢]. وقال: ﴿ أَفَمِنْ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ [النجم: ٥٩ ـ ٦٠] فلولا المنطق الذي أنطق، والمضحك المبكي الذي أضحك وأبكى لم يوجد ناطق ولا ضاحك ولا باك. فإذا أحب عبداً أنطقه بما يحب وأثابه عليه. وإذا أبغضه أنطقه بما يكرهه فعاقبه عليه، وهو الذي أنطق هذا وهذا، وأجرى ما يجب على لسان هذا وما يكره على لسان هذا. كما أنه أجرى على قلب هذا ما أضحكه، وعلى قلب هذا ما أبكاه.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [يونس: ٢٢] وقوله: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [النمل: ٦٩] فالتسيير فعله حقيقة، والسير فعل العبد حقيقة، فالتسيير

(١) ١٣٤ شفاء.

فعل محض، والسير فعل وانفعال. ومن هذا قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾ [الأحزاب: ٣٧] فهو ـ سبحانه ـ المزوج ورسوله المتزوج. وكذلك قولـه: ﴿ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ [الطور: ٢٠] فهو المزوج وهم المتزوجون.

وقد جمع ـ سبحانه ـ بين الأمرين في قوله: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف:٥] فالإزاغة فعله والزيغ فعلهم. فإن قيل: أنتم قررتم أنه لم يقع منهم الفعل إلا بعد فعله، وأنه لولا إنطاقه لهم وإضحاكه وإبكاؤه لما نطقوا ولا ضحكوا ولا بكوا، وقد دلت هذه الآية على أن فعله بعد فعلهم، وأنه أزاغ قلوبهم بعد أن زاغوا. وهذا يدل على أن إزاغة قلوبهم هو حكمه عليها الزيغ لا جعلها زائغة. وكذلك قوله: ﴿ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ﴾ المراد جعل لنا آلة النطق، وأضحك وأبكى جعل لهم آلة الضحك والبكاء. قيل: أما الإزاغة المترتبة على زيغهم فهي إزاغة أخرى غير الإزاغة التي زاغوا بها أولاً، عقوبة لهم على زيغهم، والرب ـ تعالى ـ يعاقب على السيئة بمثلها، كما يثيب على الحسنة بمثلها، فحدث لهم زيغ آخر غير الزيغ الأول، فهم زاغوا أولاً، فجازاهم الله بإزاغة فوق زيغهم.

***

﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

...[1] لا يستقر للعبد قدم في المعرفة ـ بل ولا في الإيمان ـ حتى يؤمن بصفات الرب ـ جل جلاله ـ ويعرفها معرفة تخرجه عن حد الجهل بربه. فالإيمان بالصفات وتعرفها: هو أساس الإسلام، وقاعدة الإيمان وثمرة شجرة الإحسان، فضلاً عن أن يكون من أهل العرفان. وقد جعل الله ـ سبحانه ـ منكر صفاته مسيء الظن به. وتوعده بمالم يتوعد به

(١) ٣٤٧ مدارج جـ٣.

غيره من أهل الشرك والكفر والكبائر. فقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [فصلت: ٢٢، ٢٣].

فأخبر ـ سبحانه ـ: أن إنكارهم هذه الصفة من صفاته: من سوء ظنهم به، وأنه هو الذي أهلكهم. وقد قال في الظانين به ظن السوء: ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [الفتح: ٦]. ولم يجيء مثل هذا الوعيد في غير من ظن السوء به سبحانه. وجحد صفاته وإنكار حقائق أسمائه: من أعظم ظن السوء به.

ولما كان أحب الأشياء إليه: حمده ومدحه، والثناء عليه بأسمائه وصفاته وأفعاله: كان إنكارها وجحدها أعظم الإلحاد والكفر به، وهو شر من الشرك. فالمعطل شر من الشرك؛ فإنه لا يستوي جحد صفات الملك وحقيقة ملكه والطعن في أوضافه هو، والتشريك بينه وبين غيره في الملك. فالمعطلون أعداء الرسل بالذات. بل كل شرك في العالم فأصله التعطيل؛ فإنه لولا تعطيل كماله ـ أو بعضه ـ وظن السوء به: لما أشرك به، كما قال إمام الحنفاء وأهل التوحيد لقومه: ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ٨٦، ٨٧] أي: فما ظنكم به: أن يجازيكم، وقد عبدتم معه غيره؟

وما الذي ظنتم به حتىٰ جعلتم معه شركاء؟ أظننتم: أنه محتاج إلىٰ الشركاء والأعوان؟ أم ظننتم: أنه يخفىٰ عليه شيء من أحوال عباده، حتىٰ يحتاج إلىٰ شركاء تعرفه بها كالملوك؟ أم ظننتم أنه لا يقدر وحده علىٰ استقلاله بتدبيرهم وقضاء حوائجهم؟ أم هو قاس؟ فيحتاج إلىٰ شفعاء يستطعفونه علىٰ عباده؟ أم ذليل، فيحتاج إلىٰ ولي يتكثر به من القلة، يتعزز به من الذِّلة؟ أم يحتاج إلىٰ الولد، فيتخذ صاحبة يكون الولد منها ومنه؟ ـ تعالىٰ الله عن ذلك كله علوًّا كبيراً ـ.

والمقصود: أن التعطيل مبدأ الشرك وأساسه. فلا تجد معطلاً إلا وشركه على حسب تعطيله. فمستقل ومستكثر.

...[١]قال الله في حق من شك في تعلق سمعه ببعض الجزئيات، وهو السر من القول: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [فصلت: ٢٣] فهؤلاء لما ظنوا أن الله ـ سبحانه ـ لا يعلم كثيراً مما يعملون، كان هذا إساءة لظنهم بربهم فأرداهم ذلك الظن. وهذا شأن كل من جحد صفات كماله ونعوت جلاله، ووصفه بما لا يليق به. فإذا ظن هذا أنه يدخله الجنة كان هذا غروراً وخداعاً من نفسه، وتسويلاً من الشيطان. وكيف يجتمع في قلب العبد تيقنه بأنه ملاقي الله وأن الله يسمع كلامه ويرى مكانه، ويعلم سره وعلانيته، ولا يخفى عليه خافية من أمره، وأنه موقوف بين يديه ومسئول عن كل ما عمل، وهو مقيم على مساخطه، مضيع لأوامره، معطل لحقوقه؟ وهو مع هذا يحسن الظن به؟ وهل هذا إلا من خدع النفوس وغرور الأماني؟ وقد قال أبو أمامة سهل بن حنيف: دخلت أنا وعروة بن الزبير على عائشة ـ رضي الله عنها ـ فقالت: لو رأيتما رسول الله ﷺ في مرض له، وكانت عندي ستة دنانير أو سبعة. فأمرني رسول الله ﷺ أن أفرقها. قالت: فشغلني وجع رسول الله ﷺ حتى عافاه الله، ثم سألني عنها، فقال: «ما فعلت؟ أكنت فرقت الستة الدنانير؟» فقلت: لا والله، لقد كان شغلني وجعك. قالت: فدعا بها فوضعها في كفه. فقال: «**ما ظن نبي الله لو لقي الله وهذه عنده؟**» وفي لفظ: «**ما ظن محمد بربه لو لقي الله وهذه عنده؟**»[٢].

فيالله ما ظن أصحاب الكبائر الظلمة بالله إذا لقوه ومظالم العباد عندهم. فإن كان ينفعه قولهم حسَّنا ظنوننا بك فلم يعذب ظالم ولا فاسق. فليصنع العبد ما شاء،

---

(١) ٢٧ الجواب.

(٢) أخرجه ابن حبان (٨/ ٩ رقم ٣٢١٣) وفي الموارد (رقم ٢١٤١) والبيهقي في الكبرى (٦/ ٣٥٦ رقم ١٢٨٠٨) وأحمد (٦/ ١٠٤).

وليرتكب كل ما نهاه الله عنه، وليحسن ظنه بالله فإن النار لا تمسه. فسبحان الله؟! ما يبلغ الغرور بالعبد. وقد قال إبراهيم لقومه: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ [الصافات: ٨٦، ٨٧] أي: ما ظنكم أن يفعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره.

ومن تأمل هذا الموضع حق التأمل علم أن حسن الظن بالله وهو حسن العمل نفسه. فإن العبد إنما يحمله على حسن العمل حسن ظنه بربه أن يجازيه على أعماله ويثيبه عليها ويتقبلها منه. فالذي حمله على العمل حسن الظن، فكلما حسن ظنه حسن عمله. وإلا فحسن الظن مع اتباع الهوى عجز. كما في الترمذي والمسند من حديث شداد بن أوس عن النبي ﷺ: **«الكيّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»**[1].

وبالجملة فحسن الظن إنما يكون مع انعقاد أسباب النجاة، وأما مع انعقاد أسباب الهلاك فلا يتأتى إحسان الظن. فإن قيل: بل يتأتى ذلك، ويكون مستند حسن الظن سعة مغفرة الله ورحمته وعفوه وجوده، وأن رحمته سبقت غضبه، وأنه لا تنفعه العقوبة ولا يضره العفو. قيل: الأمر هكذا، والله فوق ذلك وأجل وأكرم وأجود وأرحم، ولكن إنما يضع ذلك في محله اللائق به؛ فإنه ـ سبحانه ـ موصوف بالحكمة والعزة والانتقام وشدة البطش، وعقوبة من يستحق العقوبة. فلو كان معول حسن الظن على مجرد صفاته وأسمائه لاشترك في ذلك البر والفاجر، والمؤمن والكافر، ووليه وعدوه. فما ينفع المجرم أسماؤه وصفاته وقد باء بسخطه وغضبه، وتعرض للعنته، ووقع في محارمه وانتهك حرماته. بل حسن الظن ينفع من تاب وندم، وأقلع، وبدل

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٤٥٩) وحسَّنه والحاكم (١/ ١٢٥ رقم ١٩١) وصححه، وابن ماجه (رقم ٤٢٦٠) والبيهقي في الكبرى (٣/ ٣٦٩ رقم ٦٣٠٦) وأحمد ٤/ ١٢٤) والبزار (٨/ ٤١٧ رقم ٣٤٨٩) والطبراني في الكبير (٧/ ٢٨٤ رقم ٧١٤٣) وفي الصغير (رقم ٨٦٣) وفي مسند الشاميين (١/ ٢٦٦ رقم ٤٦٣)، والطيالسي (رقم ١١٢٢) وانظر: فتح الباري (٩/ ٣٤٢).

السيئة بالحسنة، واستقبل بقية عمره بالخير والطاعة، ثم أحسن الظن. فهذا حسن ظن، والأول غرور. والله المستعان.

ولا تستطل هذا الفصل فإن الحاجة إليه شديدة لكل أحد. ففرق بين حسن الظن بالله وبين الغرة به: قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢١٨] فجعل هؤلاء أهل الرجاء لا الظالمين والفاسقين. وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٠] فأخبر ـ سبحانه ـ أنه بعد هذه الأشياء غفور رحيم لمن فعلها، فالعالم يضع الرجاء مواضعه، والجاهل المغتر يضعه في غير مواضعه.

***

﴿ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

(١)قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾ [فصلت: ٢٤] أي: وإن يطلبوا إعتابنا وإزالة عتبنا عليهم. ويقال: عتب عليه إذا أعرض عنه وغضب عليه، ثم يقال: استعتب السيد عبده أي طلب منه أن يزيل عتب نفسه عنه بعوده إلى رضاه، فأعتبه عبده أي أزال عتبه بطاعته. ويقال: استعتب العبد سيده أي طلب منه أن يزيل غضبه وعتبه عنه، فأعتبه سيده أي فأزال عتب نفسه عنه. وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾ أي وإن يطلبوا إعتابنا وهو إزالة عتبنا عنهم فما هم من المزال عتبهم؛ لأن الآخرة لا تقال فيها عثراتهم، ولا يقبل فيها توبتهم.

وقوله: ﴿ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [النحل: ٨٤] أي لا يطلب منهم إعتابنا. وإعتابه تعالى إزاله عتبه بالتوبة والعمل الصالح، فلا يطلب منهم يوم القيامة أن يعتبوا ربهم، فيزيلوا عتبه بطاعته واتباع رسله. وكذلك قوله: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا

(١) ١٨١ البدائع جـ٤.

يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [الروم: ٥٧]. وقول النبي ﷺ في دعاء الطائف: «لك العتبى»[1] هو اسم من الإعتاب لا من العتب، أي: أنت المطلوب إعتابه، ولك عليَّ أن أعتبك وأرضيك بطاعتك، فأفعل ما ترضى به عني وما يزول به عتبك عليَّ. فالعتب منه على عبده، والعتبى والإعتاب له من عبده.

فههنا أربعة أمور: العتب وهو من الله تعالى؛ فإن العبد لا يعتب على ربه؛ فإنه المحسن العادل فلا يتصور أن يعتب عليه عبده إلا والعبد ظالم. من ظن من المفسرين خلاف ذلك فقد غلط أقبح غلط. الثاني: الإعتاب وهو من الله ومن العبد باعتبارين، فاعتاب الله عبده إزالة عتب نفسه عن عبده، وإعتاب العبد ربه إزالة عتب الله عليه. والعبد لا قدرة له على ذلك إلا بتعاطي الأسباب التي يزول بها عتب الله عليه. الثالث: الاستعتاب وهو من الله أيضاً ومن العبد بالاعتبارين. فالله يستعتب عباده أي يطلب منهم أن يعتبوه ويزيلوا عتبه عليهم، ومنه قول ابن مسعود وقد وقعت الزلزلة بالكوفة: إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه. والعبد يستعتب ربه أي يطلب منه إزالة عتبه. الرابع: العتبى وهي اسم الإعتاب. فاشدد يديك بهذا الفصل الذي يعصمك من تخبط كثير من المفسرين لهذه المواضع. ومنه قوله النبي ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به: فإما محسن فلعله أن يزداد، وإما مسي فلعله أن يستعتب»[2] أي يطلب من ربه إعتابه إياه بتوفيقه للتوبة وقبولها منه، فيزول عتبه عليه. والاستعتاب نظير الاسترضاء وهو طلب الرضى، وفي الأثر: «إن العبد ليسترضي ربه فيرضى عنه، وإن الله ليسترضى فيرضى». لكن الاسترضاء فوق الاستعتاب؛ فإنه طلب رضوان الله، والاستعتاب طلب إزالة غضبه وعتبه، وهما متلازمان.

***

(١) أخرجه الضياء في المختارة (٩/ ١٧٩-١٨٠ رقم ١٦٢) وانظر: البداية والنهاية (٣/ ١٣٦) وتفسير ابن كثير (٤/ ١٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٦٧٣) ومسلم (رقم ٢٦٨٠) وانظر: فتح الباري (١٠/ ١٢٨) (١١/ ١٥١).

﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

[(١)]معنى الآية: إن الله قيض للمشركين - أي سبَّب لهم - قرناء من الشياطين، يزينون لهم ما بين أيديهم، وما خلفهم من التكذيب بالآخرة، وما فيها من الثواب والعقاب، وقيل عكس هذا، وأن ما بين أيديهم هو ترغيبهم في الدنيا وحرصهم عليها، وما خلفهم هو التكذيب بالآخرة. وقال الحسن: ما بين أيديهم وهو حب ما كان عليه آباؤهم من الشرك وتكذيب الرسل، وما خلفهم تكذيبهم بالبعث وما بعده.

وفي الآية قول رابع: وهو أن التزيين كله راجع إلى أعمالهم، فزينوا لهم ما بين أيديهم: أعمالهم التي عملوها، وما خلفهم: الأعمال التي هم عازموا عليها ولما يعملوها بعد، وكأن لفظ التزيين بهذا القول أليق. ومن جعل ما خلفهم هو الآخرة لم يستقم قوله إلا بإضمار، أي زينوا لهم التكذيب بالآخرة، ومع هذا فهو قول مستقيم ظاهر، فإنهم زينوا لهم ترك العمل لها والاستعداد للقائها، ولهذا كان عليه جمهور أهل التفسير حتى لم يذكر البغوي غيره، وحكاه عن الزجاج، فقال الزجاج: سبّبنا لهم قرناء نظراء من الشياطين حتى أضلوهم، فزينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الدنيا حتى آثروه على الآخرة، وما خلفهم من أمر الآخرة فدعوهم إلى التكذيب به وإنكار البعث.

والمقصود أن قوله تعالى: ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ [فصلت: ٢٥] أي وجب عليهم العذاب مع أمم قد مضت من قبلهم من الجن والإنس، ففي هذا أبين دليل على تكليف الثقلين وتعلق الأمر والنهي بهم، وكذلك تعلق الثواب والعقاب بهم.

...[(٢)]قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾

---

(١) ٤١٩ طريق الهجرتين.

(٢) ١٠٥ الإغاثة جـ١.

[فصلت: ٢٥]. قال الكلبي: «ألزمناهم قرناء من الشياطين». وقال مقاتل: «هيأنا لهم قرناء من الشياطين». وقال ابن عباس: «ما بين أيديهم من أمر الدنيا، وما خلفهم من أمر الآخرة». والمعنىٰ زينوا لهم الدنيا حتىٰ آثروها، ودعوهم إلىٰ التكذيب بالآخرة والإعراض عنها. وقال الكلبي: «زينوا لهم الدنيا حتىٰ آثروها، ودعوهم إلىٰ التكذيب بالآخرة والإعراض عنها. وقال الكلبي: «زينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الآخرة: أنه لا جنة، ولا نار، ولا بعث؛ وما خلفهم من أمر الدنيا: ما هم عليه من الضلالة»، وهذا اختيار الفراء[1].

وقال ابن زيد: «زينوا لهم ما مضىٰ من خبث أعمالهم، وما يستقبلون منها» والمعنىٰ علىٰ هذا: زينوا لهم ما عملوه فلم يتوبوا منه، وما يعزمون عليه فلا ينوون تركه. فقول عدو الله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ ﴾ [الأعراف: ١٧] يتناول الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ ﴾ [الأعراف: ١٧] فإن مالك الحسنات عن اليمين يستحث صاحبه علىٰ فعل الخير، فيأتيه الشيطان من هذه الجهة يثبطه عنه، وإن ملك السيئات عن الشمال ينهاه عنها فيأتيه الشيطان من تلك الجهة يحرضه عليها، وهذا يفصل ما أجمله في قوله: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾.

***

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ۝٣٢ ﴾.

[2]الملك يتولىٰ من يناسبه بالنصح له والإرشاد، والتثبيت والتعليم، وإلقاء

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٤/ ١١١) وتنوير المقباس من تفسير ابن عباس (صـ٤٠٢) وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٥).

(٢) ٢٧٩ الروضة.

الصواب على لسانه، ودفع عدوه عنه، والاستغفار له إذا زل، وتذكيره إذا نسي، وتسليته إذا حزن، وإلقاء السكينة في قلبه إذا خاف، وإيقاظه للصلاة إذا نام [عنها]، وإيعاد صاحبه بالخير، وحضه على التصديق بالوعد، وتحذيره من الركون إلى الدنيا، وتقصير أمله وترغيبه فيما عند الله. فهو أنيسه في الوحدة، ووليه ومعلمه، ومثبته ومسكن جأشه، ومرغبه في الخير، ومحذره من الشر، ويستغفر له إن أساء، ويدعو له بالثبات إن أحسن. وإن بات طاهراً يذكر الله بات معه في شعاره، فإن قصده عدو له بسوء وهو نائم دفعه عنه.

(١)وقال بعض السلف: إذا أصبح ابن آدم ابتدره الملك والشيطان، فإن ذكر الله وكبره وحمده وهلله طرد الملك الشيطان وتولاه، وإن افتتح بغير ذلك ذهب الملك عنه وتولاه الشيطان. ولا يزال الملك يقرب من العبد حتى يصير الحكم والطاعة والغلبة له، فتتولاه الملائكة في حياته، وعند موته، وعند مبعثه. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ وإذا تولاه الملك تولاه أنصح الخلق له، وأنفعهم وأبرهم به، فثبته وعلمه، وقوى جنانه وأيده.

قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الأنفال: ١٢] ويقول الملك للعبد عند الموت: «لا تخف ولا تحزن، وأبشر بالذي يسرك»(٢)، ويثبته بالقول الثابت أحوج ما يكون إليه، في الحياة الدنيا، وعند الموت، وفي القبر عند المسألة. فليس أحد أنفع للعبد من صحبة الملك له، وهو وليه في يقظته ومنامه،

---

(١) ١٤٤ الجواب.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧) وابن المبارك في الزهد (رقم ١٢١٩) وابن أبي شيبة (٣/ ٥٤-٥٥ رقم ١٢٠٥٩) والحاكم (١/ ٩٣-٩٤ رقم ١٠٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٦٥-٣٦٦) والحديث حسنه الحافظ المنذري في الترغيب (٤/ ١٩٧).

وحياته وعند موته وفي قبره، ومؤنسه في وحشته، وصاحبه في خلوته، ومحدثه في سره، ويحارب عنه عدوه ويدافع عنه ويعينه عليه، ويعده بالخير ويبشره به.

باعث الدين بالإضافة إلىٰ باعث الهوىٰ له ثلاث أحوال:[١]

أحدها: أن يكون القهر والغلبة لداعي الدين، فيرد جيش الهوىٰ مغلولاً. وهذا إنما يصل إليه بدوام الصبر، والواصلون إلىٰ هذه المرتبة هم المنصورون في الدنيا والآخرة، وهم الذين قالوا: ﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ ﴾، وهم الذين تقول لهم الملائكة عند الموت: ﴿ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾، وهم الذين نالوا معية الله مع الصابرين، وهم الذين جاهدوا في الله حق جهاده، وخصهم بهدايته دون من عداهم.

الحالة الثانية: أن تكون القوة والغلبة لداعي الهوىٰ، فيسقط منازعه باعث الدين بالكلية، فيستسلم البائس للشيطان وجنده، فيقودونه حيث شاءوا. وله معهم حالتان: إحداهما أن يكون من جندهم وأتباعهم، وهذه حال العاجز الضعيف. الثانية: أن يصير الشيطان من جنده، وهذه حال الفاجر القوي المتسلط، والمبتدع الداعية المتبوع، كما قال القائل:

وكنت امرءاً من جـــند إبليس فارتقىٰ ... بي الحال حتىٰ صار إبليس من جندي[٢]

---

(١) ٢٠ عدة الصابرين.

(٢) هذا البيت من بحر الطويل، ينسب إلىٰ الخبز أرزي: نصر بن أحمد بن نصر بن مأمون البصري أبي القاسم، شاعر غزل كان أميًّا يخبز خبز الأرز بالبصرة وينشد الشعر فيجتمع له الناس ويتعجبون من حاله، جمع له ديوان شعر، مات سنة ٣١٧هـ. وينسب أيضاً إلىٰ الأمير الصنعاني صاحب سبل السلام وتطهير الاعتقاد وغيرهما مات سنة ١١٨٢هـ وهذه النسبة غير صحيحة وذكر البيت جلال الدين القزويني في الإيضاح في علوم البلاغة (صـ٨٢) وأبو منصور الثعالبي في ثمار القلوب في المضاف والمنسوب (١/ ١٣٣) والزمخشري في ربيع الأبرار (١/ ٣٦٦) والشنقيطي في أضواء البيان (٢/ ٢٠٧) ونسبه إلىٰ الخوارزمي ولعله تصحيف وذكره أيضاً ابن كثير في البداية والنهاية (١١/ ٦٣) والمناوي في فيض القدير (٥/ ٣٠٢).

فيصير إبليس وجنده من أعوانه وأتباعه. وهؤلاء هم الذين غلبت عليهم شقوتهم، واشتروا الحياة الدنيا بالآخرة. وإنما صاروا إلى هذه الحال لما أفلسوا من الصبر. وهذه الحالة هي حالة جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء. وجند أصحابها المكر والخداع، والأماني الباطلة، والغرور والتسويف بالعمل، وطول الأمل، وإيثار العاجل على الآجل. وهي التي قال في صاحبها النبي ﷺ: «**العاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني**».

وأصحاب هذه الحال أنواع شتى، فمنهم المحارب لله ورسوله، الساعي في إبطال ما جاء به الرسول، يصد عن سبيل الله، ويبغيها جهده عوجاً وتحريفاً، ليصد الناس عنها. ومنهم المعرض عما جاء به الرسول، المقبل على دنياه وشهواتها فقط. ومنهم المنافق ذو الوجهين، الذي يأكل بالكفر والإسلام. ومهم الماجن المتلاعب الذي قطع أنفاسه بالمجون واللهو واللعب. ومنهم من إذا وعظ قال: واشوقاه إلى التوبة، ولكنها قد تعذرت عليَّ فلا مطمع لي فيها. ومنهم من يقول: ليس الله محتاجاً إلى صلاتي وصيامي، وأنا لا أنجو بعملي والله غفور رحيم. ومنهم من يقول: ترك المعاصي استهانة بعفو الله ومغفرته:

فكثر ما استطعت من الخطايا … إذا كان القدوم على كـــــريم[1]

ومنهم من يقول: ماذا تقع طاعتي في جنب ما قد عملت، وما ينفع الغريق خلاص إصبعه وباقي بدنه غريق، ومنهم من يقول: سوف أتوب، وإذا جاء الموت ونزل بساحتي تبت وقبلت توبتي. إلى غير ذلك من أصناف المغترين، الذين صارت عقولهم في أيدي شهواتهم، فلا يستعمل أحدهم عقله إلا في دقائق الحيل التي بها

---

(١) ذكر هذا البيت ابن خلكان في وفيات الأعيان (١/ ٨٧٣) وذكر صدر البيت ابن كثير في البداية والنهاية (١٠/ ٢٣٤) ونسبه إلى أبي نواس وأما عجز البيت فهو: **فإنك لا قيا ربًّا غفوراً**

وانظر: أبجد العلوم (٣/ ٧٧).

أما عجز البيت فقد ذكره ابن كثير في البداية (١٣/ ٤٦) وصدره: **وسوء الظن أن تعتد زاداً**

يتوصل إلى قضاء شهوته، فعقله مع الشيطان كالأسير في يد الكافر، يستعمله في رعاية الخنازير، وعصر الخمور، وحمل الصليب. وهو بقهره عقله وتسليمه إلى أعدائه ـ عند الله ـ بمنزلة رجل قهر مسلماً وباعه للكفار، وسلمه إليهم، وجعله أسيراً عندهم.

وها هنا نكتة بديعة يجب التفطن لها، وينبغي إخلاء القلب لتأملها، وهي أن هذا المغرور ولما أذل سلطان الله الذي أعزه به وشرفه ورفع به قدره، وسلمه في يد أبغض أعدائه إليه، وجعله أسيراً له تحت قهره وتصرفه وسلطانه، سلط الله عليه من كان حقه هو أن يتسلط عليه، فجعله تحت قهره وتصرفه وسلطانه، يسخره حيث شاء، ويسخر منه، ويسخر منه جنده وحزبه. فكما أذل سلطان الله وسلمه إلى عدوه أذله الله وسلط عليه عدوه، الذي أمره أن يتسلط هو عليه ويذله ويقهره، فصار بمنزلة من سلم نفسه إلى أعدى عدو له يسومه سوء العذاب، وقد كان بصدد أن يستأسره ويقهره ويشفي غيظه منه، فلما ترك مقاومته ومحاربته، واستسلم له سلط عليه عقوبة له. قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٩٨-١٠٠].

فإن قيل: فقد أثبت له على أوليائه هاهنا سلطاناً فكيف نفاه بقوله ـ تعالى ـ حاكياً عنه مقرراً له: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ﴾ [سبأ: ٢٠- ٢١]. قيل: السلطان الذي أثبته له عليهم غير الذي نفاه من وجهين:

أحدهما: أن السلطان الثابت هو سلطان التمكن منهم، وتلاعبه بهم وسوقه إياهم، كيف أراد بتمكينهم إياه من ذلك بطاعته وموالاته. والسلطان الذي نفاه سلطان الحجة،

فلم يكن لإبليس عليهم من حجة يتسلط بها غير أن دعاهم فأجابوه بلا حجة ولا برهان.

الثاني: أن الله لم يجعل له عليهم سلطاناً ابتداء البتة، لكن هم سلطوه على أنفسهم بطاعته، ودخولهم في جملة جنده وحزبه، فلم يتسلطن عليهم بقوته فإن كيده ضعيف، وإنما تسلطن عليهم بإرادتهم واختيارهم. والمقصود أن من قصد أعظم أوليائه وأحبابه ونصحائه فأخذه وأخذ أولاده وحاشيته وسلمهم إلى عدوه كان من عقوبته أن يسلط عليه ذلك العدو نفسه.

الحالة الثالثة: أن يكون الحرب سجالاً دولاً بين الجندين، فتارة له وتارة عليه، وتكثر نوبات الانتصار وتقل، وهذه حال أكثر المؤمنين، الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

وتكون الحال يوم القيامة موازنة لهذه الأحوال الثلاث سواء بسواء، فمن الناس من يدخل الجنة ولا يدخل النار، ومنهم من يدخل النار ولا يدخل الجنة، ومنهم من يدخل النار ثم يدخل الجنة. وهذا الأحوال الثلاث هي أحوال الناس في الصحة والمرض. فمن الناس من تقاوم قوته داءه فتقهره ويكون السلطان للقوة. ومنهم من يقهر داؤه قوته ويكون السلطان للداء. ومنهم من الحرب بين دائه وقوته نوباً، فهو متردد بين الصحة والمرض.

ومن الناس من يصبر بجهد ومشقة. ومنهم من يصبر بأدنى حمل على النفس. ومثال الأول كرجل صارع رجلاً شديداً فلا يقهره إلا بتعب ومشقة. والثاني: كمن صارع رجلاً ضعيفاً فإنه يصرعه بغير مشقة. فهكذا تكون المصارعة بين جنود الرحمان وجنود الشيطان، ومن صرع جند الشيطان صرع الشيطان. قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «لقي رجل من الإنس رجلاً من الجن فصارعه فصرعه الإنسي فقال: مالي أراك ضيئلاً فقال: إني من بينهم لضليع». فقالوا: أهو عمر بن الخطاب فقال: «من ترونه غير عمر»[1].

---

(١) أخرجه الدارمي (رقم ٣٣٨١) والطبراني في الكبير (٩/ ١٦٦ رقم ٨٨٢٦). وانظر: دلائل النبوة للبيهقي (٧/ ١٢٣) وذكره الطبراني في الكبير بلفظ أطول من هذا. جعلته أصلًا لقصة من قصص =

وقال بعض الصحابة: «إن المؤمن ينضي شيطانه، كما ينضي أحدكم بعيره في السفر»[١]. وذكر ابن أبي الدنيا عن بعض السلف: أن شيطاناً لقي شيطاناً، فقال: مالي أراك شخيباً. فقال: إنني مع رجل إن أكل ذكر اسم الله فلا آكل معه، وإن شرب ذكر اسم الله فلا أشرب معه، وإن دخل بيته ذكر اسم الله فأبيت خارج الدار. فقال: لكني مع رجل إن أكل لم يسم الله فآكل أنا وهو جميعاً، وإن شرب لم يسم الله فأشرب معه، وإن دخل داره لم يسم الله فأدخل معه، وإن جامع امرأته لم يسم الله فأجامعها. فمن اعتاد الصبر هابه عدوه، ومن عز عليه الصبر طمع فيه عدوه، وأوشك أن ينال منه غرضه.

[٢]فهذا ما تلخص[٣] لي من جمع أقوال الناس في مصير أرواحهم بعد الموت، ولا تظفر به مجموعاً في كتاب واحد غير هذا البتة، ونحن نذكر مأخذ هذه الأقوال وما لكل قول وما عليه، وما هو الصواب من ذلك، الذي دل عليه الكتاب والسنة، على طريقتنا التي منَّ الله بها، وهو مرجو الإعانة والتوفيق.

فأما من قال هي في الجنة فاحتج بقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩]. قال وهذه ذكره ـ سبحانه ـ عقيب ذكر خروجها من البدن بالموت، وقسم الأرواح إلى ثلاثة أقسام: (مقربين)، وأخبر أنها في جنة النعيم. و(أصحاب يمين) حكم لها بالسلام، وهو يتضمن سلامتها من العذاب.

الأطفال تحت عنوان: «الرجل الذي غلب الشيطان» وهي من منشورات دار المسلم بالرياض.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥١) والنهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ٧١) ولسان العرب (١٥/ ٣٣٠) وفيض القدير (٢/ ٣٨٥).

(٢) ١١٥ الروح.

(٣) يشير المؤلف رحمه الله إلى ما سرده من أقوال الناس عامة، وقد ذكرها واحدًا وعشرين ثم فصلها بقرابة كراستين وناقشها بما لها وما عليها، بما لا مزيد عليه. وذكر في آخر كلامه ما يلي من قوله: «وأنت إذا تأملت السنن...» إلخ. (ج).

و(مكذبة ضالة)، وأخبر أن لها نزلاً من حميم وتصلية جحيم. قالوا: وهذا بعد مفارقتها للبدن قطعاً، وقد ذكر ـ سبحانه ـ حالها يوم القيامة في أول السورة، فذكر حالها بعد الموت وبعد البعث.

واحتجوا بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر: ٢٧، ٣٠]. وقد قال غير واحد من الصحابة والتابعين: إن هذا يقال لها عند خروجها من الدنيا، يبشرها الملك بذلك. ولا ينافي ذلك قول من قال: إن هذا يقال لها في الآخرة؛ فإنه يقال لها عند الموت وعند البعث. وهذه من البشرى التي قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠]. وهذا التنزل يكون عند الموت، ويكون في القبر، ويكون عند البعث، وأول بشارة الآخرة عند الموت. وقد تقدم في حديث البراء بن عازب أن الملك يقول لها عند قبضها: أبشري بروح وريحان، وهذا من ريحان الجنة...[1]

[2]وأنت إذا تأملت السنن والآثار في هذا الباب، وكان لك بها فضل اعتناء، عرفت حجة ذلك، ولا تظن أن الآثار الصحيحة في هذا الباب تعارضها، فإنها كلها حق يصدق بعضها بعضاً، لكن الشأن في فهمها، ومعرفة النفس وأحكامها، وأن لها شأناً غير شأن البدن، وأنها مع كونها في الجنة فهي في السماء، وتتصل بفناء القبر وبالبدن فيه، وهي أسرع شيء حركة وانتقالاً وصعوداً وهبوطاً، وأنها تنقسم إلى مرسلة ومحبوسة، وعلوية وسفلية، لها بعد المفارقة صحة ومرض، ولذة ونعيم، وألم أعظم مما كان لها حال اتصالها بالبدن بكثير، فهنالك الحبس والألم والعذاب والمرض والحسرة، وهنالك اللذة والراحة والنعيم والإطلاق. وما أشبه حالها في هذا البدن

(١) تقدم في سورة الزمر (ج).
(٢) ١٤٥ الروح.

بحال البدن في بطن أمه. وحالها بعد المفارقة بحاله بعد خروجه من البطن إلى هذه الدار.

فلهذه الأنفس أربع دور، كل دار أعظم من التي قبلها: (الدار الأولى): في بطن الأم، وذلك الحصر والضيق والغم والظلمات الثلاث. (والدار الثانية): هي الدار التي نشأت فيها وألفتها، واكتسبت فيها الخير والشر، وأسباب السعادة والشقاوة. (والدار الثالثة): دار البرزخ، وهي أوسع من هذه الدار وأعظم، بل نسبتها إليها كنسبة هذه الدار إلى الأولى. (والدار الرابعة) دار القرار وهي الجنة والنار، فلا دار بعدها. والله ينقلها في هذه الدور طبقاً بعد طبق، حتى يبلغها الدار التي لا يصلح لها غيرها، ولا يليق بها سواها، وهي التي خلقت لها وهيئت للعمل الموصل لها إليها. ولها في كل دار من هذه الدور حكم وشأن غير شأن الدار الأخرى، فتبارك الله فاطرها ومنشئها، ومميتها ومحييها، ومسعدها ومشقيها، الذي فاوت بينها في درجات سعادتها وشقاوتها، كما فاوت بينها في مراتب علومها وأعمالها وقواها وأخلاقها. فمن عرفها كما ينبغي شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك له، وله الحمد كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، وله القوة كلها، والقدرة كلها، والعز كله، والحكمة كلها، والكمال المطلق من جميع الوجوه، وعرف بمعرفة نفسه صدق أنبيائه ورسله، وأن الذي جاءوا به هو الحق الذي تشهد به العقول، وتقر به الفطر، وما خالفه فهو الباطل، وبالله التوفيق.

***

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾.

[1]قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف: ١٠٨]. وسواء كان المعنى: أنا ومن اتبعني يدعو إلى الله على بصيرة، أو كان

(١) ٢٤٩ جلاء الأفهام.

الوقف عند قوله: ﴿ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ثم يبتدئ ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ﴾ فالقولان متلازمان، فإنه أمره ـ سبحانه ـ أن يخبر أن سبيله الدعوة إلى الله، فمن دعا إلى الله تعالى فهو على سبيل رسوله ﷺ، وهو على بصيرة، وهو من أتباعه، ومن دعا إلى غير ذلك فليس على سبيله، ولا هو على بصيرة، ولا هو من أتباعه.

فالدعوة إلى الله ـ تعالى ـ هي وظيفة المرسلين وأتباعهم، وهم خلفاء الرسل في أممهم، والناس تبع لهم؛ والله ـ سبحانه ـ قد أمر رسوله أن يبلغ ما أنزل إليه، وضمن له حفظه وعصمته من الناس. وهكذا المبلغون عنه من أمته لهم من حفظ الله وعصمته إياهم بحسب قيامهم بدينه وتبليغهم له. وقد أمر النبي ﷺ بالتبليغ عنه ولو آية، ودعا لمن بلغ عنه ولو حديثاً. وتبليغ سنته إلى الأمة أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو؛ ولأن ذلك التبليغ يفعله كثير من الناس، وأما تبليغ السنن فلا تقوم به إلا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم في أممهم، جعلنا الله ـ تعالى ـ منهم بمنه وكرمه.

(1)الدعاة جمع داع كقاض وقضاة، ورام ورماة، وإضافتهم إلى الله للاختصاص، أي الدعاة المخصوصون به الذين يدعون إلى دينه وعبادته ومعرفته ومحبته. وهؤلاء هم خواص خلق الله وأفضلهم عند الله منزلة وأعلاهم قدراً. يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣]. قال الحسن: هو المؤمن أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحاً في إجابته، فهذا حبيب الله، هذا ولي الله[2]. فمقام الدعوة إلى الله أفضل مقامات العبد. قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ [الجن: ١٩].

---

(١) ١٥٣ المفتاح جـ١.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٤/١١٨) وانظر: تفسير القرطبي (١٥/ ٣٦٠) وتفسير ابن كثير (٤/ ١٠٢).

وقال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]. جعل سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق. فالمستجيب القابل الزكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه يدعى بطريق الحكمة. والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر يدعى بالموعظة الحسنة، وهي الأمر والنهي المقرون بالرغبة والرهبة. والمعاند الجاحد يجادل بالتي هي أحسن. هذا هو الصحيح في معنى هذه الآية، لا ما يزعم أسير منطق اليونان أن الحكمة قياس البرهان وهي دعوة الخواص، والموعظة الحسنة قياس الخطابة وهي دعوة العوام، والمجادلة بالتي هي أحسن القياس الجدلي، وهو رد شغب المشاغب بقياس جدلي مسلم المقدمات. وهذا باطل، وهو مبني على أصول الفلسفة، وهو مناف لأصول المسلمين وقواعد الدين من وجوه كثيرة ليس هذا موضع ذكرها.

(١)قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣]. فهذا احتجاج بما ركب في العقول والفطر، لأنه لا قول للعبد أحسن من هذا القول. وقال تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٦٠]. فأي شيء أصرح من هذا ،حيث أخبر ـ سبحانه ـ أنه حرمه عليهم مع كونه طيباً في نفسه. فلولا أن طيبه أمر ثابت له بدون الأمر لم يكن ليجمع الطيب والتحريم، وقد أخبر ـ تعالى ـ أنه حرم عليهم طيبات كانت حلالاً عقوبة لهم، فهذا تحريم عقوبة. بخلاف التحريم على هذه الأمة فإنه تحريم صيانة وحماية، ولا فرق عند النفاة بين الأمرين بل الكل سواء. فإنه ـ سبحانه ـ أمر عباده بما أمرهم به رحمة منه وإحساناً وإنعاماً عليهم، لأن صلاحهم في معاشهم وأبدانهم وأحوالهم، وفي معادهم ومآلهم، إنما هو بفعل ما أمروا به، وهو في ذلك بمنزلة الغذاء الذي لا قوام للبدن إلا به بل أعظم، وليس مجرد تكليف وابتلاء كما يظنه كثير من

---

(١) ١٠ المفتاح جـ٢.

الناس. ونهاهم عما نهاهم عنه صيانة وحمية لهم، إذ لا بقاء لصحتهم، ولا حفظ لها إلا بهذه الحمية، فلم يأمرهم حاجة منه إليهم وهو الغني الحميد، ولا حرم عليهم ما حرم بخلاً منه عليهم وهو الجواد الكريم، بل أمره ونهيه عين حظهم وسعادتهم العاجلة والآجلة. ومصدر أمره ونهيه رحمته الواسعة وبره وجوده وإحسانه وإنعامه، فلا يسأل عما يفعل لكمال حكمته وعلمه ووقع أفعاله على وفق المصلحة والرحمة والحكمة.

(١)والرسل من أولهم إلى خاتمهم ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ أرسلوا بالدعوة إلى الله، وبيان الطريق الموصل إليه، وبيان حال المدعوين بعد وصولهم إليه. فهذه القواعد الثلاث ضرورية في كل ملة على لسان كل رسول. فعرفوا الرب المدعو إليه بأسمائه وصفاته وأفعاله تعريفاً مفصلاً، حتى كأن العباد يشاهدونه ـ سبحانه ـ، وينظرون إليه فوق سماواته على عرشه، يكلم ملائكته ويدبر أمر مملكته، ويسمع أصوات خلقه، ويرى أفعالهم وحركاتهم ويشاهد بواطنهم، كما يشاهد ظواهرهم، يأمر وينهى، ويرضى ويغضب، ويحب ويسخط، ويضحك من قنوطهم وقرب غِيَره، ويجيب دعوة مضطرهم، ويغيث ملهوفهم، ويعين محتاجهم، ويجبر كسيرهم، ويغني فقيرهم، ويميت ويحيي، ويمنع ويعطي، يؤتي الحكمة من يشاء، مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير. كل يوم هو في شأن، يغفر ذنباً ويفرج كرباً، ويفك عانياً، وينصر مظلوماً، ويقصم ظالماً، ويرحم مسكيناً، ويغيث ملهوفاً، ويسوق الأقدار إلى مواقيتها، ويجريها على نظامها، ويقدم ما يشاء تقديمه، ويؤخر ما يشاء تأخيره، فأزِمَّة الأمور كلها بيده، ومدار تدبير الممالك كلها عليه، وهذا مقصود الدعوة، وزبدة الرسالة.

القاعدة الثانية: تعريفهم بالطريق الموصل إليه، وهو صراطه المستقيم، الذي نصبه

---

(١) ٣٤٨ المدارج جـ٣.

لرسله وأتباعهم. وهو امتثال أمره، واجتناب نهيه، والإيمان بوعده ووعيده.

القاعدة الثالثة: تعريف الحال بعد الوصول، وهو ما تضمنه اليوم الآخر من الجنة والنار، وما قبل ذلك من الحساب، والحوض والميزان والصراط.

فقعدت المعطلة والجهمية على رأس القاعدة الأولى، فحالوا بين القلوب وبين معرفة ربها، وسموا إثبات صفاته، وعلوه فوق خلقه، واستواءه على عرشه: تشبيهاً وتجسيماً وحشواً. فنفروا عنه صبيان العقول. وسموا نزوله إلى سماء الدنيا، وتكلمه بمشيئته، ورضاه بعد غضبه، وغضبه بعد رضاه، وسمعه الحاضر لأصوات العباد، ورؤيته المقارنة لأفعالهم ونحو ذلك: حوادث.

وسموا وجهه الأعلى، ويديه المبسوطتين، وأصابعه التي يضع عليها الخلائق يوم القيامة: جوارح وأعضاء ـ مكراً منهم كُبَّاراً بالناس ـ كمن يريد التنفير عن العسل، فيمكر في العبارة، ويقول: مائع أصفر يشبه العذرة المائعة. أو ينفر عن شيء مستحسن فيسميه بأقبح الأسماء، فعل الماكر المخادع. فليس مع مخالف الرسل سوى المكر في القول والعمل.

فلما تم للمعطلة مكرهم، وسلك في القلوب المظلمة الجاهلة بحقائق الإيمان، وما جاء به الرسول: ترتب عليه الإعراض عن الله، وعن ذكره ومحبته، والثناء عليه بأوصاف كماله، ونعوت جلاله، فانصرفت قوى حبها وشوقها وأنسها إلى سواه. وجاء أهل الآراء الفاسدة، والسياسات الباطلة، والأذواق المنحرفة، والعوائد المستمرة: فقعدوا على رأس هذا الصراط، وحالوا بين القلوب وبين الوصول إلى نبيها، وما كان عليه هو وأصحابه، وعابوا من خالفهم في قعودهم عن ذلك، ورغب عما اختاروه لأنفسهم، ورموه بما هم أولى به منه. كما قيل: رمتني بدائها وانسلت[1].

---

(١) انظر: مجمع الأمثال للميداني (١/ ٢٨٦) وكتاب الأمثال للقاسم بن سلام (ص ٧٣) وكتاب المستقصى في الأمثال للزمخشري (٢/ ١٠٣).

وجاء أصحاب الشهوات المفتونون بها، الذين يعدون حصولها ـ كيف كان ـ هو الظفر في هذه الحياة والبغية، فقعدوا على رأس طريق المعاد، والاستعداد للجنة ولقاء الله، وقالوا: اليوم خمر، وغداً أمر، اليوم لك، ولا تدري: غداً لك، أو عليك؟ وقالوا: لا نبيع ذرة منقودة، بدرة موعودة.

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به ... في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل[1]

وقالوا للناس: خلوا لنا الدنيا. ونحن قد خلينا لكم الآخرة. فإن طلبتم منا ما بأيدينا أحلناكم على الآخرة.

أناس ينقدون عيش النعيم ... ونحن نحال على الآخرة
فإن لم تكن مثلما يزعمو ... ن فتلك إذًا كرةً خاسرة

فالإيمان بالصفات ومعرفتها، وإثبات حقائقها، وتعلق القلب بها، وشهوده لها: هو مبدأ الطريق ووسطه وغايته. وهو روح السالكين، وحاديهم إلى الوصول، ومحرك عزماتهم إذا فتروا، ومثير هممهم إذا قصروا؛ فإن سيرهم إنما هو على الشواهد، فمن كان لا شاهد له فلا سير له، ولا طلب ولا سلوك له. وأعظم الشواهد: صفات محبوبهم، ونهاية مطلوبهم. وذلك هو العلم الذي رفع لهم في السير فشمروا إليه، كما قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «من رأى رسول الله ﷺ فقد رآه غادياً رائحاً، لم يضع لبنة على لبنة، ولكن رفع له علم فشمر إليه» ولا يزال العبد في التواني والفتور والكسل، حتى يرفع الله ﷻ له ـ بفضله ومنه ـ علماً يشاهده بقلبه، فيشمر إليه ويعمل عليه.

فإن عطلت شواهد الصفات، ووضعت أعلامها عن القلوب، وطمست آثارها، وضربت بسياط البعد، وأسبل دونها حجاب الطرد، وتخلفت مع المتخلفين، وأوحى إليها القدر: أن اقعدي مع القاعدين، فإن أوصاف المدعو إليه، ونعوت كماله، وحقائق أسمائه: هي الجاذبة للقلوب إلى محبته، وطلب الوصول إليه، لأن القلوب

---

(١) هذا البيت من بحر البسيط، ينسب إلى المتنبي المتوفى سنة ٣٥٤هـ.

إنما تحب من تعرفه، وتخافه وترجوه وتشتاق إليه؛ وتلتذ بقربه، وتطمئن إلىٰ ذكره، بحسب معرفتها بصفاته. فإذا ضرب دونها حجاب معرفة الصفات والإقرار بها: امتنع منها ـ بعد ذلك ـ ما هو مشروط بالمعرفة، وملزوم لها. إذ وجود الملزوم بدون لازمه، والمشروط بدون شرطه: ممتنع. فحقيقة المحبة، والإنابة والتوكل، ومقام الإحسان: ممتنع علىٰ المعطل امتناع حصول المغل من معطل البذر، بل أعظم امتناعاً.

كيف تصمد القلوب إلىٰ من ليس داخل العالم ولا خارجه، ولا متصلاً به ولا منفصلاً عنه، ولا مبايناً له ولا محايثاً؟ بل حظ العرش منه كحظ الآبار والوهاد. والأماكن التي يرغب عن ذكرها؟ وكيف تأله القلوب من لا يسمع كلامها، ولا يرىٰ مكانها، ولا يُحب ولا يَحب، ولا يقوم به فعل البتة، ولا يتكلم ولا يكلم، ولا يقرب من شيء ولا يقرب منه شيء، ولا يقوم به رأفة ولا رحمة ولا حنان، ولا له حكمة، ولا غاية يفعل ويأمر لأجلها؟

فكيف يتصور علىٰ ذلك، ومحبته والإنابة إليه والشوق إلىٰ لقائه، ورؤية وجهه الكريم في جنات النعيم، وهو مستو علىٰ عرشه فوق جميع خلقه؟ أم كيف تأله القلوب من لا يَحب ولا يُحب، ولا يرضىٰ ولا يغضب ولا يفرح ولا يضحك؟

فسبحان من حال بين المعطلة وبين محبته ومعرفته، والسرور والفرح به، والشوق إلىٰ لقائه، وانتظار لذة النظر إلىٰ وجهه الكريم، والتمتع بخطابه في محل كرامته ودار ثوابه! فلو رآها أهلاً لذلك لمن عليها به، وأكرمها به؛ إذ ذاك أعظم كرامة يكرم بها عبده. والله أعلم حيث يجعل كرامته. ويضع نعمته: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٣]، ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٢] وليس جحودهم صفاته سبحانه، وحقائق أسمائه: في الحقيقة تنزيهًا. وإنما هو حجاب ضرب عليهم، فظنوه تنزيهاً. كما ضرب حجاب الشرك والبدع والمضلة والشهوات المردية على قلوب أصحابها، وزين لهم سوء أعمالهم، فرأوها حسنة.

***

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾.

[1] هذا لدفع شر شياطين الإنس، ثم قال: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت: ٣٦] فأكد بإن وبضمير الفصل وأتى باللام، في «السميع العليم» وقال في الأعراف: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

وسر ذلك ـ والله أعلم ـ أنه حيث اقتصر على مجرد الاسم ولم يؤكده أريد إثبات مجرد الوصف الكافي في الاستعاذة، والإخبار بأنه ـ سبحانه ـ يسمع ويعلم، فيسمع استعاذتك فيجيبك، ويعلم ما تستعيذ منه فيدفعه عنك. فالسمع لكلام المستعيذ، والعلم بالفعل المستعاذ منه، وبذلك يحصل مقصود الاستعاذة. وهذا المعنى شامل للموضعين، وامتاز المذكور في سورة فصلت بمزيد التأكيد والتعريف والتخصيص؛ لأن سياق ذلك بعد إنكاره ـ سبحانه ـ على الذين شكوا في سمعه لقولهم، وعلمه بهم، كما جاء في الصحيحين من حديث ابن مسعود قال: «اجتمع عند البيت ثلاثة نفر قرشيان وثقفي، أو ثقفيان وقرشي، كثير شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم، فقالوا: أترون الله يسمع ما نقول؟ فقال أحدهم: يسمع إن جهرنا، ولا يسمع إن أخفينا، فقال

(١) ٩٦ الإغاثة جـ١.

الآخر: إن سمع بعضه سمع كله، فأنزل الله ﷻ: ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [فصلت: ٢٢ - ٢٣][(١)].

فجاء التوكيد في قوله: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ في سياق هذا الإنكار: أي هو وحده الذي له كمال قوة السمع وإحاطة العلم، لا كما يظن به أعداؤه الجاهلون: أنه لا يسمع إن أخفوا، وأنه لا يعلم كثيرًا مما يعملون. وحسن ذلك أيضاً: أن المأمور به في سورة فصلت دفع إساءتهم إليه بإحسانه إليهم، وذلك أشق على النفوس من مجرد الإعراض عنهم؛ ولهذا عقبه بقوله: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٥] فحسن التأكيد لحاجة المستعيذ.

وأيضاً فإن السياق ههنا لإثبات صفات كماله وأدلة ثبوتها، وآيات ربوبيته، وشواهد توحيده، ولهذا عقب ذلك بقوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ ﴾ [فصلت: ٣٧] وبقوله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً ﴾ [فصلت: ٣٩] فأتى بأداة التعريف الدالة على أن من أسمائه «السميع العليم»، كما جاءت الأسماء الحسنى كلها معرفة.

والذي في الأعراف في سياق وعيد المشركين وإخوانهم من الشياطين ووعد المستعيذ بأن له ربًّا يسمع ويعلم، وآلهة المشركين التي عبدوها من دونه ليس لهم أعين يبصرون بها، ولا آذان يسمعون بها، فإنه سميع عليم، وآلهتهم لا تسمع ولا تبصر ولا تعلم، فكيف تسوونها به في العبادة؛ فعلمت أنه لا يليق بهذا السياق غير التنكير، كما لا يليق بذلك غير التعريف، والله أعلم بأسرار كلامه.

ولما كان المستعاذ منه في سورة «حم المؤمن» هو شر مجادلة الكفار في آياته، وما ترتب عليها من أفعالهم المرئية بالبصر، قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٨١٧) ومسلم (رقم ٢٧٧٥) وانظر: فتح الباري (٨/ ٥٦٢) وشرح النووي (١٧/ ١٢٢).

بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۙ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ۚ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦]. فإنه لما كان المستعاذ منه كلامهم وأفعالهم المشاهدة عياناً قال: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وهناك المستعاذ منه غير مشاهد لنا، فإنه يرانا هو وقبيله من حيث لا نراه، بل هو معلوم بالإيمان وأخبار الله ورسوله.

***

﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾.

[1]القرآن أرشد إلى دفع هذين العدوين بأسهل الطرق بالاستعاذة والإعراض عن الجاهلين، ودفع إساءتهم بالإحسان. وأخبر عن عظم حظ من لقاه ذلك؛ فإنه ينال بذلك كف شر عدوه وانقلابه صديقاً، ومحبة الناس له، وثناءهم عليه، وقهر هواه، وسلامة قلبه من الغل والحقد، وطمأنينة الناس ـ حتى عدوه ـ إليه. هذا غير ما يناله من كرامة الله وحسن ثوابه ورضاه عنه؛ وهذا غاية الحظ عاجلاً وآجلاً، ولما كان ذلك لا ينال إلا بالصبر قال: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥] فإن النزق الطائش لا يصبر على المقابلة.

ولما كان الغضب مركب الشيطان، فتتعاون النفس الغضبية والشيطان على النفس المطمئنة التي تأمر بدفع الإساءة الإحسان، أمر أن يعاونها بالاستعاذة منه، فتمد الاستعاذة النفس المطمئنة، فتقوى على مقاومة جيش النفس الغضبية، ويأتي مدد الصبر الذي يكون النصر معه، وجاء مدد الإيمان والتوكل، فأبطل سلطان الشيطان، فـ ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩].

قال مجاهد وعكرمة والمفسرون: ليس له حجة. والصواب أن يقال: ليس له طريق يتسلط به عليهم، لا من جهة الحجة، ولا من جهة القدرة. والقدرة داخلة في مسمى السلطان، وإنما سميت الحجة سلطاناً لأن صاحبها يتسلط بها تسلط صاحب

---

(١) ٩٨ إغاثة جـ١.

القدرة بيده. وقد أخبر سبحانه أنه لا سلطان لعدوه على عباده المخلصين المتوكلين، فقال: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٣٩ـ٤٢].

وقال: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠].

فتضمن ذلك أمرين، أحدهما: نفي سلطانه وإبطاله على أهل التوحيد والإخلاص. والثاني: إثبات سلطانه على أهل الشرك وعلى من تولاه.

[(١)] وأما سيرته ﷺ في أوليائه وحزبه: فأمر أن يصبر نفسه مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، وأن لا تعدو عيناه عنهم، وأمره أن يعفو عنهم، ويستغفر لهم، ويشاورهم في الأمر، وأن يصلي عليهم، وأمره بهجر من عصاه وتخلف عنه، حتى يتوب ويراجع طاعته، كما هجر الثلاثة الذين خلفوا، وأمره أن يقيم الحدود على من أتى موجباتها منهم، وأن يكونوا عنده في ذلك سواء، شريفهم ودنيهم.

وأمره في دفع عدوه من شياطين الإنس: بأن يدفع بالتي هي أحسن، فيقابل إساءة من أساء إليه بالإحسان، وجهله بالحلم، وظلمه بالعفو، وقطيعته بالصلة. وأخبره أنه إن فعل ذلك عاد عدوه كأنه ولي حميم. وأمره في دفع عدوه من شياطين الجن: بالاستعاذة بالله منهم، وجمع له هذين الأمرين في ثلاثة مواضع من القرآن: في سورة الأعراف، والمؤمنين، وسورة حم السجدة.

فقال في سورة الأعراف: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠]. فأمره باتقاء شر الجاهلين بالإعراض عنهم، وباتقاء شر الشيطان بالاستعاذة منه. وجمع له في

(١) ٢٠٩ الزاد جـ٢.

هذه الآية مكارم الأخلاق والشيم كلها؛ فإن ولي الأمر له مع الرعية ثلاثة أحوال: فإنه لابد له من حق عليهم يلزمهم القيام به، ومن أمر يأمرهم به، ولابد من تفريط وعدوان يقع منهم في حقه، فأمر بأن يأخذ من الحق الذي له عليهم ما طوعت به أنفسهم، وسمحت به، وسهل عليهم ولم يشق، وهو العفو الذي لا يلحقهم ببذله ضرر ولا مشقة. وأمر أن يأمرهم بالعرف وهو المعروف الذي تعرفه العقول السليمة والفطر المستقيمة، وتقر بحسنه ونفعه، وإذا أمر به يأمر به بالمعروف أيضاً، لا بالعنف والغلظة. وأمر أن يقابل جهل الجاهلين منهم بالإعراض عنه، دون أن يقابله بمثله. فبذلك يكتفي شرهم.

وقال تعالى في سورة المؤمنين: ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون: ٩٣ ـ ٩٨].

وقال تعالى في سورة حم السجدة: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ [فصلت: ٣٤ ـ ٣٦]. فهذه سيرته مع أهل الأرض: إنسهم وجنهم مؤمنهم وكافرهم.

[(١)]وقد قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾.

ولما كان الشيطان على نوعين: نوع يرى عياناً، وهو شيطان الإنس، ونوع لا يرى، وهو شيطان الجن: أمر ﷻ نبيه ﷺ أن يكتفي من شر شيطان الإنس بالإعراض عنه،

---

(١) ٩٤ الزاد جـ٢.

والعفو، والدفع بالتي هي أحسن، ومن شيطان الجن بالاستعاذة بالله منه. وجمع بين النوعين في سورة الأعراف: (١٩٩) وسورة المؤمنون: (٩٨) وسورة فصلت: (٣٦) والاستعاذة في القراءة والذكر: أبلغ في دفع شر شياطين الجن. والعفو والإعراض والدفع بالإحسان: أبلغ في دفع شر شياطين الإنس، قال:

فما هو إلا الاستعاذة ضارعاً أو الدفع بالحسنى هما خير مطلوب
فهذا دواء الداء من شر ما يرى وذاك دواء الداء من شر محجوب

فيما يقوله ويفعله من اشتد غضبه: أمره ﷺ أن يطفئ عنه جمرة الغضب بالوضوء والقعود إن كان قائماً، والاضطجاع إن كان قاعداً، والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم.

ولما كان الغضب والشهوة جمرتين من نار في قلب ابن آدم: أمر أن يطفئها بالوضوء والصلاة، والاستعاذة من الشيطان الرجيم، كما قال تعالى: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة: ٤٤]. وهذا إنما يحمل عليه شدة الشهوة، فأمرهم بما يطفئون بها جمرتها، وهو الاستعانة بالصبر والصلاة، وأمر ـ تعالى ـ بالاستعاذة من الشيطان عند نزغاته.

ولما كانت المعاصي كلها تتولد من الغضب والشهوة، وكان نهاية قوة الغضب: القتل، ونهاية قوة الشهوة: الزنا ـ جمع الله ـ تعالى ـ بين القتل والزنا، وجعلهما قرينين في سورة الأنعام وسورة الإسراء وسورة الفرقان وسورة الممتحنة.والمقصود أنه ـ سبحانه ـ أرشد عباده إلى ما يدفعون به شر قوتي الغضب والشهوة من الصلاة والاستعاذة.

***

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

(١) ومن آياته ﷻ الليل والنهار، وهما من أعجب آياته وبدائع مصنوعاته. ولهذا يعيد ذكرهما في القرآن الكريم ويبديه كقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ ﴾ [فصلت: ٣٧] وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الفرقان: ٤٧]. وقول ﷻ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٣] وقوله ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ [يونس: ٦٧].وهذا كثير في القرآن، فانظر إلى هاتين الآيتين، وما تضمنتاه من العبر والدلالات علي ربوبية الله وحكمته، وكيف جعل الليل سكناً ولباساً يغشى العالم فتسكن فيه الحركات، وتأوى الحيوانات إلى بيوتها والطير إلى أوكارها. وتستجم فيه النفوس، وتستريح من كد السعي والتعب. حتى إذا أخذت منه النفوس راحتها وسباتها، وتعطلت إلى معايشها وتصرفها جاء فالق الأصباح ﷻ بالنهار، يقدم جيشه بشير الصباح، فهزم تلك الظلمة ومزقها كل ممزق، وكشفها عن العالم فإذا هم مبصرون، فانتشر الحيوان وتصرف في معاشه ومصالحه، وخرجت الطيور من أوكارها. فياله من معاد ونشأة دال على قدرة الله ـ سبحانه ـ علي المعاد الأكبر، وتكرره ودوام مشاهدة النفوس له بحيث صار عادة ومألفاً، ومنعها من الاعتبار به والاستدلال به على النشأة الثانية وإحياء الخلق بعد موتهم، ولا ضعف في قدرة القادر التام القدرة ولا قصور في حكمته ولا في علمه يوجب تخلف ذلك، ولكن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء. وهذا أيضاً من أياته الباهرة أن يعمي عن هذه الآيات الواضحة البينة من شاء من خلقه فلا يهتدي بها ولا يبصرها كمن هو واقف في الماء إلى حلقه، وهو يستغيث من العطش وينكر وجود الماء. وبهذا وأمثاله يعرف الله ﷻ ويشكر ويحمد ويتضرع إليه ويسأل.

***

(١) ٢٠٣ المفتاح جـ١.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

[1]قوله تعالىٰ: ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [الحج: ٥ - ٧]. وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت: ٣٩]. جعل الله - سبحانه - إحياء الأرض بعد موتها نظير إحياء الأموات، وإخراج النبات منها نظير إخراجهم من القبور، ودل بالنظير على نظيره، وجعل ذلك آية ودليلاً على خمسة مطالب: أحدها: وجود الصانع، وأنه الحق المبين، وذلك يستلزم إثبات صفات كماله وقدرته وإرادته وحياته وعلمه وحكمته ورحمته وأفعاله. والثاني: أنه يحيي الموتى.

وقد كرر - سبحانه - ذكر هذا الدليل في كتابه مراراً؛ لصحة مقدماته، ووضوح دلالته، وقرب تناوله، وبعده من كل معارضة وشبهة، وجعله تبصرة وذكرى، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۞ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٧ - ٨]. فالمنيب إلى ربه يتذكر بذلك، فإذا تذكر تبصر به، فالتذكر قبل التبصر، وإن قدم عليه في اللفظ، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. والتذكر: تفعل من الذكر، وهو حضور صورة من المذكور في القلب، فإذا استحضره القلب وشاهده على وجهه أوجب له البصيرة، فأبصر ما جعل دليلاً عليه، فكان في حقه تبصرة وذكرى، والهدى مداره على هذين الأصلين: التذكر، والتبصر.

---

(١) ١٤٤ الإعلام جـ١.

[(١)]تنبيه: ثم تأمل هذا الخلق الذي خص به الإنسان دون جميع الحيوان، وهو خلق الحياء، الذي هو من أفضل الأخلاق وأجلها وأعظمها قدراً وأكثرها نفعاً، بل هو خاصة الإنسانية، فمن لا حياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتهما الظاهرة، كما أنه ليس معه من الخير شيء. ولولا هذا الخلق لم يقر الضيف، ولم يوف بالوعد، ولم يؤد أمانة، ولم يقض لأحد حاجة، ولا تحرى الرجل الجميل فآثره والقبيح فتجنبه، ولا ستر له عورة، ولا امتنع من فاحشة، وكثير من الناس لولا الحياء الذي فيه لم يؤد شيئاً من الأمور المفترضة عليه، ولم يرع لمخلوق حقاً، ولم يصل له رحماً، ولا بر له والداً.

فإن الباعث على هذه الأفعال إما ديني وهو رجاء عاقبتها الحميدة، وإما دنيوي علوي وهو حياء فاعلها من الخلق. قد تبين أنه لولا الحياء إما من الخالق أو من الخلائق لم يفعلها صاحبها. وفي الترمذي وغيره مرفوعاً: «**استحيوا من الله حق الحياء**»، قالوا: وما حق الحياء؟ قال: «**أن تحفظ الرأس وما حوى، والبطن وما وعى، وتذكر المقابر والبلى**»[(٢)]. وقال ﷺ: «**إذا لم تستح فاصنع ما شئت**»[(٣)]. وأصح القولين فيه قول أبي عبيد والأكثرين أنه تهديد كقوله تعالى: ﴿ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ﴾ وقوله: ﴿ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلاً ﴾. وقالت طائفة: هو إذن وإباحة، والمعنى أنك إذا أردت أن تفعل فعلاً فانظر قبل فعله، فإن كان مما يستحيا فيه من الله ومن الناس فلا تفعله، وإن كان مما لا يستحيا منه فافعله فإنه ليس بقبيح.

وعندي أن هذا الكلام صورته صورة الطلب ومعناه معنى الخبر. وهو في قوة

---

(١) ٢٧٧ المفتاح جـ١.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧) وأبو يعلى (٨/ ٤٦١ رقم ٥٠٤٧) وابن أبي شيبة (٧/ ٧٧ رقم ٣٤٣٢٠) والطبراني في الكبير (٣/ ٢١٩ رقم ٣١٩٢) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٦٢) وتحفة الأحوذي (٧/ ١٣٠-١٣١).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٨٤) انظر: فتح الباري (٦/ ٥٢٣) والتمهيد (٢٠/ ٦٧-٦٩).

قولهم: من لا يستحي صنع ما يشتهي، فليس بإذن، ولا هو مجرد تهديد، وإنما هو في معنى الخبر. والمعنى أن الرادع عن القبيح إنما هو الحياء فمن لم يستح فإنه يصنع ما شاء. وإخراج هذا المعنى في صيغة الطلب لنكتة بديعة جداً، وهي أن للإنسان آمرين وزاجرين. آمر وزاجر من جهة الحياء، فإذا أطاعه امتنع من فعل كل ما يشتهي. وله آمر وزاجر من جهة الهوى والطبيعة. فمن لم يطع آمر الحياء وزاجره أطاع آمر الهوى والشهوة. ولابد. فإخراج الكلام في قالب الطلب يتضمن هذا المعنى دون أن يقال: من لا يستحي صنع ما يشتهي.

***

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ ﴾.

[١]قال تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦] أي لا يحمل المسيء عقاب ما لم يعمله. ولا يمنع المحسن من ثواب عمله.

[٢]فتدبر قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴾ [الشورى: ٤٨] كيف أتى في تعليق الرحمة المحققة إصابتها من الله ـ تعالى ـ بإذا وأتى في إصابة السيئة بأن، فإن ما يعفو الله عنه أكثر. وأتى في الرحمة بالفعل الماضي الدال على تحقيق الوقوع، وفي حصول السيئة بالمستقبل

(١) ١٣٦ المدارج جـ١.
(٢) ٤٧ البدائع جـ١.

الدال على أنه غير محقق ولابد. وكيف أتى في وصول الرحمة بفعل الإذاقة الدال على مباشرة الرحمة لهم، وأنها مذوقة لهم، والذوق هو أخص أنواع الملابسة وأشدها.

وكيف أتى في الرحمة بحرف ابتداء الغاية مضافة إليه، فقال: (منا رحمة)، وأتى في السيئة بباء السببية مضافة إلى كسب أيديهم. وكيف أكد الجملة الأولى التي تضمنت إذاقة الرحمة بحرف إن دون الجملة الثانية. وأسرار القرآن أكثر وأعظم من أن يحيط بها عقول البشر. وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٦٧]. كيف أتى بإذا ههنا ما كان مس الضر لهم في البحر محققاً بخلاف قوله: ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴾ [فصلت: ٤٩]. فإنه لم يقيد مس الشر هنا بل أطلقه، ولما قيده بالبحر الذي هو متحقق فيه ذلك أتى بأداة إذا.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴾ [الإسراء: ٨٣] كيف أتى هنا بإذا المشعرة بتحقيق الوقوع المستلزم لليأس، فإن اليأس إنما حصل عند تحقق مس الشر له، فكان الإتيان بإذا هنا أدل على المعنى المقصود من إن بخلاف قوله: ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ [فصلت: ٥١] فإنه بقلة صبره وضعف احتماله متى توقع الشر أعرض وأطال في الدعاء، فإذا تحقق وقوعه كان يؤوساً. ومثل هذه الأسرار في القرآن لا يرقى إليها إلا بموهبة من الله وفهم يؤتيه عبداً في كتابه..

***

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾.

[1]من أسمائه تعالى «المؤمن» وهو ـ في أحد التفسيرين ـ المصدق الذي يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم . فهو الذي صدق رسله وأنبياءه فيما بلغوا

(١) ٤٦٦ الإعلام جـ٣.

عنه. وشهد لهم بأنهم صادقون بالدلائل التي دل بها على صدقهم قضاء وخلقاً. فإنه ـ سبحانه ـ أخبر ـ وخبره الصدق وقوله الحق ـ أنه لابد أن يرى العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم: أن الوحي الذي بلغته رسله حق. فقال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣] أي القرآن؛ فإنه هو المتقدم في قوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ ﴾ [فصلت: ٥٢]. ثم قال: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣] فشهد ـ سبحانه ـ لرسوله بقوله أن ما جاء به حق. ووعده أن يُرِيَ العباد من آياته الفعلية الخلقية ما يشهد بذلك أيضاً.

ثم ذكر ما هو أعظم من ذلك وأجل، وهو شهادته ـ سبحانه ـ على كل شيء. فإن من أسمائه «الشهيد» الذي لا يغيب عنه شيء. ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. بل هو مطلع على كل شيء مشاهد له، عليم بتفاصيله. وهذا استدلال بأسمائه وصفاته. والأول استدلال بقوله وكلماته. والاستدلال بالآيات الأفقية والنفسية استدلال بأفعاله ومخلوقاته.

فإن قلت: قد فهمت الاستدلال بكلماته والاستدلال بمخلوقاته. فبين لي كيفية الاستدلال بأسمائه وصفاته؛ فإن ذلك أمر لا عهد لنا به في تخاطبنا وكتبنا. قلت: أجل! هو لعمر الله كما ذكرت. وشأنه أجل وأعلى، فإن الرب ـ تعالى ـ هو المدلول عليه، وآياته هي الدليل والبرهان.

فاعلم أن الله ـ سبحانه ـ في الحقيقة هو الدال على نفسه بآياته. فهو الدليل لعباده في الحقيقة بما نصبه لهم من الدلالات والآيات. وقد أودع في الفطر التي لم تتنجس بالتعطيل والجحود: أنه ـ سبحانه ـ الكامل في أسمائه وصفاته، وأنه الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل عيب ونقص، فالكمال كله، والجمال والجلال والبهاء. والعزة والعظمة والكبرياء: كله من لوازم ذاته. يستحيل أن يكون على غير ذلك. فالحياة كلها له، والعلم كله له، القدرة كلها له، والسمع والبصر والإرادة، والمشيئة والرحمة

والغنى، والجود والإحسان والبر، كله خاص له قائم به. وما خفي على الخلق من كماله أعظم وأعظم مما عرفوه منه، بل لا نسبة لما عرفوه من ذلك إلى ما لم يعرفوه.

ومن كماله المقدس: اطلاعه على كل شيء، وشهادته عليه، بحيث لا يغيب عنه وجه من وجوه تفاصيله، ولا ذرة من ذراته، باطناً وظاهراً. ومن هذا شأنه: كيف يليق بالعباد أن يشركوا به؟ وأن يعبدوا معه غيره؟ وأن يجعلوا معه إلهاً آخر؟ وكيف يليق بكماله أن يقر من يكذب عليه أعظم الكذب؟ ويخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه، ثم ينصره على ذلك ويؤيده، ويعلي كلمته، ويرفع شأنه، ويجيب دعوته، ويهلك عدوه، ويظهر على يديه من الآيات والبراهين والأدلة ما تعجز عن مثله قوى البشر. وهو ـ مع ذلك ـ كاذب عليه مفتر، ساع في الأرض بالفساد.

ومعلوم أن شهادته ـ سبحانه ـ على كل شيء، وقدرته على كل شيء، وحكمته وعزته وكماله المقدس يأبى ذلك كل الإباء. ومن ظن ذلك به، وجوزه عليه: فهو من أبعد الخلق من معرفته، وإن عرف منه بعض صفاته، كصفة القدرة وصفة المشيئة.

والقرآن مملوء من هذه الطريق. وهي طريق الخاصة، بل خاصة الخاصة هم الذين يستدلون بالله على أفعاله، وما يليق به أن يفعله وما لا يفعله. وإذا تدبرت القرآن رأيته ينادي على ذلك، فيبديه ويعيده لمن له فهم وقلب واع عن الله. قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴾ [الحاقة: ٤٤] إلى قوله تعالى: ﴿ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ﴾ أفلا تراه كيف يخبر أن كماله وحكمته وقدرته تأبي أن يقر من تقول عليه بعض الأقاويل بل لا بد أن يجعله عبرة لعباده، كما جرت بذلك سنته في المتقولين عليه..

(١)ومن الآيات التي في الأرض مما يحدثه الله فيها كل وقت ما يصدق به رسله فيما أخبرت به، فلا تزال آيات الرسل وأعلام صدقهم، وأدلة نبوتهم يحدثها الله ﷻ في الأرض، إقامة للحجة على من لم يشاهد تلك الآيات التي قاربت عصر الرسل،

(١) ١٨٩ التبيان.

حتى كأن أهل كل قرن يشاهدون ما يشاهده الأولون أو نظيره. كما قال: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]. وهذه الإرادة لا تختص بقرن دون قرن، بل لابد أن يري الله ـ سبحانه ـ أهل كل قرن من الآيات ما يبين لهم أنه الله الذي لا إله إلاهو، وأن رسله صادقون وآيات الأرض أعظم مما ذكر وأكثر، فنبه باليسير منها على الكثير[1].

[2]الرب ـ تعالى ـ يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين: أحدهما النظر في مفعولاته. والثاني: التفكر في آياته وتدبرها. فتلك آياته المشهودة، وهذه آياته المسموعة المعقولة. فالنوع الأول كقوله: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ﴾ [البقرة: ١٦٤]. إلى آخره. وقوله: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٠] وهو كثير في القرآن. والثاني كقوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [النساء: ٨٢].وقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨] وقوله: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص: ٢٩]، وهو كثير أيضاً.

فأما المفعولات فإنها دالة على الأفعال، والأفعال دالة على الصفات، فإن المفعول يدل على فاعل فعله، وذلك يستلزم وجوده وقدرته ومشيئته وعلمه؛ لاستحالة صدور الفعل الاختياري من معلوم أو موجود لا قدرة له ولا حياة ولا علم ولا إرادة. ثم ما في المفعولات من التخصيصات المتنوعة دال على إرادة الفاعل، وأن فعله ليس بالطبع بحيث يكون واحداً غير متكرر. وما فيها من المصالح والحكم والغايات المحمودة دال على حكمته ـ تعالى ـ. وما فيها من النفع والإحسان والخير دال على رحمته. وما فيها من البطش والانتقام والعقوبة دال على غضبه. وما فيها من الإكرام

---

(١) يأتي في الذاريات البحث كاملاً إن شاء الله تعالى. (ج).

(٢) ٢٠ الفوائد.

والتقريب والعناية دال على محبته. وما فيها من الإهانة والإبعاد والخذلان دال على بغضه ومقته. وما فيها من ابتداء الشيء في غاية النقص والضعف، ثم سوقه إلى تمامه ونهايته دال على وقوع المعاد. وما فيها من أحوال النبات والحيوان وتصرف المياه دليل على إمكان المعاد. وما فيها من ظهور آثار الرحمة والنعمة على خلقه دليل على صحة النبوات. وما فيها من الكمالات التي لو عدمتها كانت ناقصة دليل على أن معطي تلك الكمالات أحق بها. فمفعولاته من أدل شيء على صفاته وصدق ما أخبرت به رسله عنه. فالمصنوعات شاهدة تصدق الآيات المسموعات منبهة على الاستدلال بالآيات المصنوعات.

قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣] أي: أن القرآن حق، فأخبر أنه لابد أن يريهم من آياته المشهودة ما يبين لهم أن آياته المتلوة حق. ثم أخبر بكفاية شهادته على صحة خبره بما أقام من الدلائل والبراهين على صدق رسوله، فآياته شاهدة بصدقه، وهو شاهد بصدق رسوله بآياته، فهو الشاهد والمشهود له، وهو الدليل والمدلول عليه، فهو الدليل بنفسه على نفسه، كما قال بعض العارفين: كيف أطلب الدليل على من هو دليل لي على كل شيء، فأي دليل طلبته عليه فوجوده أظهر منه. ولهذا قال الرسل لقومهم: ﴿ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ ﴾ [إبراهيم: ١٠] فهو أعرف من كل معروف، وأبين من كل دليل. فالأشياء عرفت به في الحقيقة، وإن كان عرف بها في النظر والاستدلال بأفعاله وأحكامه عليه.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة فصلت

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

سُورَةُ الشُّورَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝ عٓسٓقٓ ۝ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾.

(١) هذا الموصوف بهذه الصفات والأفعال والعلو والعظمة والحفظ والعزة والحكمة والملك والحمد والمغفرة والرحمة والكلام والمشيئة والولاية وإحياء الموتى والقدرة التامة الشاملة والحكم بين عباده وكونه فاطر السموات والأرض وهو السميع البصير. فهذا هو الذي ليس كمثله شيء لكثرة نعوته وأوصافه وأسمائه وأفعاله، وثبوتها على وجه الكمال الذي لا يماثله فيه شيء. فالمثبت لصفات كماله هو الذي يصفه أنه ليس كمثله شيء. وأما المعطل النافي لصفاته وحقائق أسمائه، فإن وصفه بأنه ليس كمثله شيء مجاز لا حقيقة له، كما يقول في سائر أوصافه وأسمائه.

(٢) وقال تعالى: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى: ١٠]، وهذا نص صريح في أن حكم جميع ما تنازعنا فيه مردود إلى الله وحده، فهو الحاكم فيه على لسان رسوله. فلو قدم حكم العقل على حكمه لم يكن هو الحاكم بكتابه. وقال تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾

---

(١) ٢١٢ مختصر الصواعق جـ١.

(٢) ١٤١ مختصر الصواعق جـ١.

[الأعراف: ٣] فأمر باتباع الوحي المنزل وحده ونهى عما خالفه، وأخبر أن كتابه بينة وهدىٰ وشفاء ورحمة ونور مفصلاً وبرهاناً وحجة وبيانا. فلو كان في العقل ما يعارضه ويجب تقديمه على القرآن لم يكن فيه شيء من ذلك، بل كانت هذه الصفات للعقل دونه.

(١) قال تعالىٰ: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ [الشورىٰ: ١١].

قلت: وجه تعلقه بإشارة الآية: هو أن الله سبحانه يعيشكم فيما خلق لكم من الأنعام المذكورة. قال الكلبي: يكثركم في هذا التزويج. ولولا هذا التزويج لم يكثر النسل. والمعنىٰ: يخلقكم في هذا الوجه الذي ذكر: من جعله لكم أزواجاً. فإن سبب خلقنا وخلق الحيوان: بالأزواج، والضمير في قوله: «فيه» يرجع إلى الجعل. ومعنىٰ «الذرء» الخلق، وهو هنا الخلق الكثير، فهو خلق وتكثير. فقيل «في» بمعنى الباء، أي يكثركم بذلك. وهذا قول الكوفيين. والصيح: أنها علىٰ بابها. والفعل تضمن معنىٰ «ينشئكم» وهو يتعدىٰ بفي. كما قال تعالىٰ: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١] فهذا تفسير الآية.

ولما كانت الحياة حياتين: حياة الأبدان، وحياة الأرواح. وهو ـ سبحانه ـ الذي يحيي قلوب أوليائه وأرواحهم بإكرامه ولطفه وبسطه ـ كان ذلك تنمية لها وتكثيراً وذرءاً. والله أعلم.

(٢) قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]، إنما قصد به نفي أن يكون معه شريك، أو معبود يستحق العبادة والتعظيم، كما يفعله المشبهون والمشركون. ولم يقصد به نفي صفات كماله، وعلوه على خلقه. وتكلمه بكتبه. وتكليمه لرسله، ورؤية المؤمنين له جهرة بأبصارهم، كما ترى الشمس والقمر

---

(١) ٢٩٩ مدارج جـ٣.
(٢) ٢٣١ إغاثة جـ٢.

في الصحو. فإنه سبحانه إنما ذكر هذا في سياق رده على المشركين، الذين اتخذوا من دونه أولياء. يوالونهم من دونه. فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝ ﴾ [الشورى: ٦- ١١].

فتأمل كيف ذكر هذا النفي تقريراً للتوحيد، وإبطالاً لما عليه أهل الشرك: من تشبيه آلهتهم، وأوليائهم به، حتى عبدوهم معه، فحرفها المحرفون وجعلوها ترساً لهم في نفي صفاته كماله، وحقائق أسمائه وأفعاله.

وهذا التشبيه الذي أبطله الله سبحانه نفيا ونهياً: هو أصل شرك العالم، وعبادة الأصنام. ولهذا نهى النبي ﷺ، أن يسجد أحد لمخلوق مثله[1]، أو يحلف بمخلوقه مثله[2]، أو يصلي إلى قبر، أو يتخذ عليه مسجداً، أو يعلق عليه قنديلاً أو يقول القائل: ما شاء الله وشاء فلان، ونحو ذلك، حذراً من هذا التشبيه الذي هو أصل الشرك. وأما

(١) قال رسول الله ﷺ: **«لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر، ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها»** أخرجه ضياء الدين المقدسي في المختارة (٥/ ٢٦٥-٢٦٦ رقم ١٨٩٥) والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٦٣ رقم ٩١٤٧) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٨٤ رقم ١٣٢٦٣) وأحمد (٣/ ١٥٨) والحاكم (٤/ ١٨٩ رقم ٧٣٢٤) وهو حديث حسن.

(٢) قال رسول الله ﷺ: **«ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت»** أخرجه البخاري (رقم ٦١٠٨) ومسلم (رقم ١٦٤٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٥٣٠-٥٣٣) وشرح النووي (١١/ ١٠٤-١٠٥).

إثبات صفات الكمال فهو أصل التوحيد.

فتبين أن المشبهة هم الذين يشبهون المخلوق بالخالق في العبادة والتعظيم والخضوع، والحلف به، والنذر له، والسجود له، والعكوف عند بيته، وحلق الرأس له، والاستعانة به، والتشريك بينه وبين الله، في قولهم: ليس لي إلا الله وأنت، وأنا متكل على الله وعليك. وهذا من الله ومنك. وأنا في حسب الله وحسبك، وما شاء الله وشئت. وهذا لله ولك. وأمثال ذلك.

فهؤلاء هم المشبهة حقًا، لا أهل التوحيد، المثبتون لله ما أثبته لنفسه، والنافون عنه ما نفاه عن نفسه، الذين لا يجعلون له نداً من خلقه، ولا عدلا، ولا كفؤا، ولا سمياً. وليس لهم من دونه ولي ولا شفيع.

فمن تدبر هذا الفصل حق التدبير تبين له كيف وقعت الفتنة في الأرض بعبادة الأصنام، وتبين له سر القرآن في الإنكار على هؤلاء المشبهة الممثلة، ولاسيما إذا جمعوا إلى هذا التشبيه تعطيل الصفات والأفعال. كما هو الغالب عليهم. فيجمعون بين تعطيل الرب ـ سبحانه ـ عن صفات كماله، وبين تشبيه خلقه به.

[1]إنه ـ سبحانه ـ وصف نفسه بأنه ليس كمثله شيء. وأنه لا سمي له ولا كفؤ له. وهذا يستلزم وصفه بصفات الكمال التي فات بها شبه المخلوقين واستحق بقيامها أن يكون ليس كمثله شيء وهكذا كونه ليس له سمي، أي مثيل يساميه في صفاته وأفعاله ولا من يكافيه فيها. ولو كان مسلوب الصفات والأفعال والكلام والاستواء والوجه واليدين ومنفياً عنه مباينة العالم ومحايثته واتصاله به وانفصاله عنه وعلوه عليه وكونه يمنته أو يسرته أو أمامه أو وراءه لكان كل عدم مثلاً له في ذلك، فيكون قد نفى عن نفسه مماثلة الموجودات وأثبت لها مماثلة المعدومات، فهذا النفي واقع على أكمل الموجودات، وعلى العدم المحض، فإن العدم المحض لا مثل له ولا كفؤ ولا سمي.

---

(١) ٢٠٧ مختصر الصواعق جـ١.

فلو كان المراد بهذا نفي صفاته وأفعاله واستوائه على عرشه وتكلمه بالوحي وتكليمه لمن يشاء من خلقه؛ لكان ذلك وصفا له بغاية العدم. فهذا النفي واقع على العدم المحض. وعلي من كثرت أوصاف كماله حتى تفرد بذلك الكمال فلم يكن له شبيه في كماله ولا سمي ولا كفؤ.

فإذا أبطلتم هذا المعنى الصحيح تعين ذلك المعنى الباطل قطعاً، وصار المعنى أنه لا يوصف بصفة أصلاً، فلا يفعل فعلاً، ولا وجه له، ولا يد، ولا يسمع، ولا يبصر، ولا يعلم، ولا يقدر، تحقيقاً لمعنى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾.

وقال إخوانكم من الملاحدة: ليس له ذات أصلاً تحقيقاً لهذا النفي.

وقال غلاتهم: لا وجود له. تحقيقاً لهذا النفي.

وأما الرسل وأتباعهم فإنهم قالوا: إن الله حي، وله حياة، وليس كمثله شيء في حياته. وهو قوي، وله القوة، وليس كمثله شيء في قوته. ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] يسمع ويبصر. وليس كمثله شيء في سمعه وبصره. ومتكلم. وله يدان. ومستو على عرشه. وليس له في هذه الصفات مثل: فهذا النفي لا يتحقق إلا بإثبات صفات الكمال، فإنه مدح له وثناء أثنى به على نفسه. والعدم المحض لا يمدح به أحد ولا يكون كمالا له بل هو أنقص النقص. وإنما يكون كمالا إذا تضمن الإثبات كقوله تعالى: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، لكمال حياته وقيوميته.

وقوله: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ لكمال غناه وملكه وربوبيته.

قوله: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦]، ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩]، لكمال غناه وعدله ورحمته، وقوله: ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨] لكمال قدرته. وقوله: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [يونس: ٦١] لكمال علمه. وقوله: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣]

لعظمته وإحاطته بما سواه، وأنه أكبر من كل شيء. وأنه واسع، فيرىٰ ولكن لا يحاط به إدراكاً، كما يعلم ولا يحاط به علماً، فيرىٰ ولا يحاط به رؤية. وهكذا ليس كمثله شيء، وهو متضمن لإثبات جميع صفات الكمال علىٰ وجه الإجمال.

وهذا هو المعقول في فطر الناس. فإذا قالوا: فلان عديم المثل، أو قد أصبح ولا مثل له في الناس. أو ما له شبيه، ولا من يكافيه. فإنما يريدون بذلك أنه تفرد من الصفات والأفعال والمجد بما لا يلحقه فيه غيره. فصار واحداً في الجنس لا مثيل له، ولو أطلقوا ذلك عليه باعتبار نفي صفاته وأفعاله ومجده؛ لكان ذلك عندهم غاية الذم والنقص له.

فإذا أطلقوا ذلك في سياق المدح والثناء لم يشك عاقل في أنه إنما أراد كثرة أوصافه وأفعاله وأسمائه التي لها حقائق تحمل عليها.

فهل يقول عاقل لمن لا قدرة له ولا علم ولا بصر ولا يتصرف بنفسه ولا يفعل شيئاً ولا يتكلم ولا له وجه ولا يد ولا قوة ولا فضيلة من الفضائل: إنه لا شبه له، ولا مثل له، وأنه وحيد دهره، وفريد عصره، ونسيج وحده، وهل فطر الله الأمم وأطلق ألسنتهم ولغاتهم إلا علىٰ ضد ذلك؟ وهل كان رب العالمين أهل الثناء والمجد إلا بأوصاف كماله ونعوته جلاله وأفعاله وأسمائه الحسنىٰ؟ وإلا فبماذا يثني عليه المثنون! ولأي شيء يقول أعرف الخلق به: «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت علىٰ نفسك؟»[1] ومعلوم أن هذا الثناء الذي أخبر أنه لا تحصيه لو كان بالنفي لكان هؤلاء أعلم به منه وأشد إحصاء له، فإنهم نفوا عنه حقائق الأسماء والصفات نفياً مفصلاً.وذلك مما يحصيه المحصي بلا كلفة ولا تعب. وقد فصله النفاة وأحصوه وحصروه.

***

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٤٨٦) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٨٤) وشرح ا لنووي (٤/ ٢٠٤).

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾.

[(١)]أخبر ـ تعالىٰ ـ أنه شرع لنا دينه الذي وصى به نوحاً والنبيين من بعده، وهو دين واحد، ونهانا عن التفريق فيه، ثم أخبرنا أنه ما تفرق من قبلنا في الدين إلا بعد العلم الموجب للإثبات وعدم التفرق، وأن الحامل علىٰ ذلك التفرق البغي من بعضهم علىٰ بعض وإرادة كل طائفة أن يكون العلو والظهور لها ولقولها دون غيرها. وإذاتأملت تفرق أهل البدع والضلال رأيته صادراً عن هذا بعينه.

ثم أمر ـ سبحانه ـ نبيه أن يدعو إلىٰ دينه الذي شرعه لأنبيائه، وأن يستقيم كما أمره ربه، وحذره من اتباع أهواء المتفرقين.

وأمره أن يؤمن بكل ما أنزله الله من الكتب، وهذه حال المحق أن يؤمن بكل ما سمعه من الحق علىٰ لسان أي طائفة كانت.

ثم أمره أن يخبرهم بأنه أمر العدل بينهم، وهذا يعم العدل في الأقوال والأفعال والآراء والمحاكمات كلها، فنصبه ربه ومرسله للعدل بين الأمم، فهكذا وارثه ينتصب للعدل بين المقالات والآراء والمذاهب، ونسيته منها إلىٰ القدر المشترك بينهما من الحق، فهو أولىٰ به وبتقريره وبالحكم لمن خاصم به.

ثم أمره أن يخبرهم بأن الرب المعبود واحد، فما الحامل للتفرق والاختلاف، وهو ربنا وربكم والدين واحد، ولكل عامل عمله لا يعدوه إلىٰ غيره.

---

(١) ٥٧ مفتاح جـ٢.

ثم قال: ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ [الشورى: ١٥] والحجة ههنا هي الخصومة أي للخصومة، ولا وجه لخصومة بيننا وبينكم، بعد ما ظهر الحق، وأسفر صبحه، وبانت أعلامه، وانكشفت الغمة عنه. وليس المراد نفي الاحتجاج من الطرفين كما يظنه بعض من لا يدري ما يقول، وأن الدين لا احتجاج فيه.

كيف والقرآن من أوله إلى آخره حجج وبراهين على أهل الباطل قطعية يقينية وأجوبة لمعارضتهم وإفساداً لأقوالهم بأنواع الحجج والبراهين وإخباراً عن أنبيائه ورسله بإقامة الحجج والبراهين، وأمر لرسوله بمجادلة المخالفين بالتي هي أحسن، وهل تكون المجادلة إلا بالاحتجاج وإفساد حجج الخصم.

وكذلك أمر المسلمين بمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن.

وقد ناظر النبي ﷺ جميع طوائف الكفر أتم مناظرة وأقام عليهم ما أفحمهم به من الحجج، حتى عدل بعضهم إلى محاربته بعد أن عجز عن رد قوله وكسر حجته، واختار بعضهم مسالمته ومتاركته، وبعضهم بذل الجزية عن يد وهو صاغر، كل ذلك بعد إقامة الحجج عليهم، وأخذها بكظمهم وأسرها لنفوسهم، وما استجاب له من استجاب إلا بعد أن وضحت له الحجة، ولم يجد إلى ردها سبيلاً، وما خالفه أعداؤه إلا عناداً منهم وميلا إلى المكابرة بعد اعترافهم بصحة حججه، وأنها لا تدفع، فما قام الدين إلا على ساق الحجة. فقوله: ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ أي لا خصومة، فإن الرب واحد فلا وجه للخصومة فيه ودينه واحد، وقد قامت الحجة وتحقق البرهان فلم يبق للاحتجاج والمخاصمة فائدة. فإن فائدة الاحتجاج ظهور الحق ليتبع، فإذا ظهر وعانده المخالف وتركه جحوداً وعناداً لم يبق للاحتجاج فائدة، فلا حجة بيننا وبينكم أيها الكفار، فقد وضح الحق واستبان، ولم يبق إلا الإقرار به أو العناد، والله يجمع بيننا يوم القيامة فيقضي للمحق على المبطل وإليه المصير. قالوا: وها نحن نتحرى القسط بين الفريقين...[1]

(١) بحث المؤلف هنا بحثًا مطولًا إجمالاً وتفصيلًا. (ج).

[(١)]قول النبي ﷺ: «**الأنبياء أولاد علات**»[(٢)] وفي لفظ: «**أخوة من علات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد**»[(٣)]. قال الجوهري: بنو العلات، هم أولاد الرجل من نسوة شتى، سميت بذلك لأن الذي تزوجها عل أولى كانت قبلها، ثم عل من الثانية. العلل: الشرب الثاني، يقال له: علل بعد نهل، وعله يعله، إذا سقاه السقية الثانية[(٤)].

وقال غيره: سموا بذلك، لأنهم أولاد ضرائر، والعلات: الضرائر، وهذا الثاني أظهر: وأما وجه التسمية، فقال جماعة منهم القاضي عياض وغيره، معناه أن الأنبياء مختلفون في أزمانهم، وبعضهم بعيد الوقت من بعض، فهم أولاد علات إذ لم يجمعهم زمان واحد، كما لم يجمع أولاد العلات بطن واحد، وعيسى لما كان قريب الزمان من النبي، ﷺ ولم يكن بينهما نبي كانا كأنهما في زمان واحد، فقال ﷺ: «**أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم** عليه السلام» قالوا: كيف يا رسول الله؟ فقال: «**الأنبياء أخوة من علات**»[(٥)] الحديث.

وفيه وجه آخر أحسن من هذا، وهو أن النبي ﷺ شبه دين الأنبياء الذي اتفقوا عليه من التوحيد وهو: عبادة الله وحده لا شريك له، والإيمان به، وبملائكته، وكتبه، ورسله، ولقائه: بالأب الواحد لاشتراك جميعهم فيه، وهو الدين الذي شرعه الله لأنبيائه كلهم. قال تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

---

(١) ٢٠١ بدائع جـ٣.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٤٢) ومسلم (رقم ٢٣٦٥) وانظر: فتح الباري (٦/ ٤٨٩) وشرح النووي (١٥/ ١١٩).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٤٣) وانظر: عمدة القاري (١٦/ ٣٦).

(٤) انظر: لسان العرب (١١/ ٤٧٠) ومختار الصحاح (صـ١٨٩) وتهذيب الأسماء واللغات (٣/ ٢٢٤).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٤٣) ومسلم (رقم ٢٣٦٥) وانظر: فتح الباري (٦/ ٤٨٩) وشرح النووي (١٥/ ١١٩).

وقال البخاري في صحيحه: باب ما جاء أن دين الأنبياء واحد، وذكر هذا الحديث، وهذا هو دين الإسلام الذي أخبر الله أنه دين أنبيائه ورسله من أولهم نوح إلىٰ خاتمهم محمد ﷺ، فهو بمنزلة الأب الواحد. وأما شرائع الأعمال والمأمورات فقد تختلف، فهي بمنزلة الأمهات الشتىٰ التي كان لقاح تلك الأمهات من أب واحد، كما أن مادة تلك الشرائع المختلفة من دين واحد متفق عليه.

فهذا أولىٰ المعنيين بالحديث. وليس في تباعد أزمنتهم ما يوجب أن يشبه زمانهم بأمهاتهم ويجعلون مختلفي الأمهات لذلك، وكون الأم بمنزلة الشريعة، والأب بمنزلة الدين وأصالة هذا وتذكيره. وفرعيته: الأم وتأنيثها واتحاد الأب وتعدد الأم ما يدل علىٰ أنه معنىٰ الحديث، والله أعلم.

***

﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ﴾.

[(1)]الحجة هي اسم لما يحتج به من حق وباطل. قال تعالىٰ: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ ﴾ [البقرة: ١٥٠]. فإنهم يحتجون عليكم بحجة باطلة: ﴿ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي ﴾ [البقرة: ١٥٠] وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [الجاثية: ٢٥].

والحجة المضافة إلىٰ الله هي الحق. وقد تكون الحجة بمعنىٰ: المخاصمة، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ﴾ [الشورىٰ: ١٥] أي قد وضح الحق واستبان وظهر،

---

(١) ١٤٥ مفتاح جـ١.

فلا خصومة بيننا بعد ظهوره ولا مجادلة، فإن الجدال شريعة موضوعة للتعاون على إظهار الحق، فإذا ظهر الحق ولم يبق به خفاء فلا فائدة في الخصومة...

(١) والمقصود الفرق بين الحجج والبينات. فنقول: الحجج الأدلة العلمية.

والبيان جمع بينة، وهي صفة في الأصل، يقال: آية بينة، وحجة بينة، والبينة اسم لكل ما يبين الحق من علامة منصوبة، أو أمارة، أو دليل علمي، قال تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ [الحديد: ٢٥].

فالبينات الآيات التي أقامها الله دلالة على صدقهم من المعجزات، والكتاب هو الدعوة. وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧] ومقام إبراهيم آية جزئية مرئية بالأبصار، وهو من آيات الله الموجودة في العالم. ومنه قول موسى لفرعون وقومه: ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ ﴾ [الأعراف: ١٠٥، ١٠٧]. وكان إلقاء العصا وانقلابها حية هو البينة...

(٢) العبد دائماً متقلب بين أحكام الأوامر وأحكام النوازل، فهو محتاج ـ بل مضطر ـ إلى العون عند الأوامر، وإلى اللطف عند النوازل، وعلى قدر قيامه بالأوامر يحصل له من اللطف عند النوازل، فإن كمل القيام بالأوامر ظاهراً وباطناً، ناله اللطف ظاهراً وباطناً، وإن قام بصورها دون حقائقها وبواطنها، ناله اللطف في الظاهر، وقل نصيبه من اللطف في الباطن.

فإن قلت: وما اللطف الباطن؟ فهو ما يحصل للقلب عند النوازل من السكينة والطمأنينة، وزوال القلق والاضطراب والجزع، فيستخذي بين يدي سيده ذليلاً له،

---

(١) ١٤٦ مفتاح جـ١.

(٢) ٢٠٢ فوائد.

مستكيناً ناظراً إليه بقلبه، ساكناً إليه بروحه وسره، قد شغله مشاهدة لطفه به عن شدة ما هو فيه من الألم، وقد غيبه عن شهود ذلك معرفته بحسن اختياره له، وأنه عبد محض يجري عليه سيده أحكامه رضي أو سخط، فإن رضي نال الرضا، وإن سخط فحظه السخط. فهذا اللطف الباطن ثمرة تلك المعاملة الباطنة، يزيد بزيادتها، وينقص بنقصانها.

***

﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.

(1)سأله ﷺ عبادة بن الصامت، فقال: رجل أهدى إليَّ قوساً ممن كنت أعلمه الكتاب والقرآن، وليست بمال، وأرمي عليها في سبيل الله، فقال: «إن كنت تحب أن تطوق طوقًا من نار فأقبلها»(2).

ولا ينافي هذا قوله: «إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله»(3) في قصة الرقية؛ لأن تلك جعالة على الطب؛ فطبه بالقرآن، فأخذ الأجرة على الطب، لا على تعليم القرآن، وههنا منعه من أخذ الأجرة على تعليم القرآن؛ فإن الله ـ تعالى ـ قال لنبيه: ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ [الأنعام: ٩٠] وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ [سبأ: ٤٧] وقال تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا ﴾ [يس: ٢١] فلا يجوز أخذ الأجرة على تبليغ الإسلام والقرآن.

---

(١) ٣٣٣ أعلام جـ٤.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣١٥) والضياء في المختارة (٨/ ٢٥١ رقم ٣٠٤) وابن أبي شيبة (٤/ ٣٤١ رقم ٢٠٨٤٣) والبيهقي في الكبرى (٦/ ١٢٥ رقم ١١٤٦١) وأبو داود (رقم ٣٤١٦) والحاكم (٢/ ٤٨ رقم ٢٢٧٧) قال الشوكاني في نيل الأوطار (٦/ ٢٦): وفي إسناده المغيرة بن زياد أبو هاشم الموصلي وقد وثقه وكيع ويحيى بن معين وتكلم فيه جماعة وقال الإمام أحمد: ضعيف الحديث، حدَّث بأحاديث مناكير، وكل حديث رفعه فهو منكر، وانظر: التحقيق في أحاديث الخلاف (٢/ ٢١٨ رقم ١٥٧٦).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٥٧٣٧) وانظر: فتح الباري (٤/ ٤٥٣، ٤٦٣).

[١]ونحن[٢] نمنع من أخذ الأجرة على كل قربة، ونحبط بأخذ الأجر عليها: كالقضاء، والفتيا، وتعليم العلم، والصلاة، وقراءة القرآن، وغيرها؛ فلا يثيب الله عليها إلا لمخلص أخلص العمل لوجهه، فإذا فعله للأجرة لم يثب عليه الفاعل ولا المستأجر، فلا يليق بمحاسن الشرع أن يجعل العبادات الخالصة له معاملات تقصد بها المعاوضات والأكساب الدنيوية، وفارق قضاء الديون وضمانها فإنها حقوق الآدميين ينوب بعضهم فيها عن بعض، فلذلك جازت في الحياة وبعد الموت.

[٣]استدل شيعي على الوصية لأهل البيت بقوله تعالىٰ: ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [الشورى: ٢٣]. فأجيب بأن قيل: هذه وصية بهم، لا وصية إليهم، فهي حجة على خلاف قول الشيعة، لأن الأمر لو كان إليهم لأوصاهم ولم يوص بهم.

ونظير هذا الاحتجاج على أن الأمر في قريش لا في الأنصار، يقول النبي ﷺ: «**أوصيكم بالأنصار**»[٤] فدل على أن الأمر في غيرهم.

قلت: وهذا كله خروج عن معنى الآية وما أريد بها، ولا دلالة فيها لواحدة من الطائفتين، فإن معنى الآية: لا أسألكم عليه أجرًا، إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة، فإنه لم يكن بطن من قريش إلا وللنبي ﷺ فيهم قرابة، فقال: «**لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجرًا، ولكن صلوا بيني وبينكم من القرابة**» وليست هذه الصلة أجرًا، فالاستثناء منقطع، فإن الصلة من موجبات الرحم، فهي واجبة على كل أحد، وهذا هو تفسير ابن عباس الذي ذكره البخاري عنه في صحيحه[٥].

***

(١) ١٦٣ الروح.
(٢) هذا البحث في إهداء القربات والطاعات عامة بتفصيل ومناقشة للأدلة في المسألة السادسة عشرة بكاملها من كتاب الروح بدءًا من ص ١٤٥ وانتهاءً بـ ص١٧٧ لمن أراده. (ج).
(٣) ١٢٩ بدائع جـ٣.
(٤) أخرجه البخاري (رقم ٣٧٩٩) ومسلم (رقم ٢٥١٠).
(٥) انظر: فتح الباري (١٣/ ٥٠٤) وتحفة الأحوذي (٩/ ٨٩-٩٠).

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ ﴾.

(١)قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ [الشورى: ٢٤] ههنا انتهى جواب الشرط، ثم أخبر خبرًا جازمًا غير معلق أنه ﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ ﴾ [الشورى: ٢٤].

(٢)قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [الشورى: ٢٤] وفي معنى الآية للناس قولان:

أحدهما: قول مجاهد ومقاتل: إن يشأ الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم، حتى لا يشق عليك. **والثاني**: قول قتادة: إن يشأ الله ينسك القرآن، ويقطع عنك الوحي، وهذا القول دون الأول لوجوه:

أحدها: أن هذا خرج جوابا لهم وتكذيبا لقولهم: إن محمدًا كذب على الله وافترى عليه هذا القرآن. فأجابهم بأحسن جواب، وهو أن الله تعالى قادر لا يعجزه شيء، فلو كان كما تقولون لختم على قلبه، فلا يمكنه أن يأتي بشيء منه، بل يصير القلب كالشيء المختوم عليه، فلا يوصل إلى ما فيه، فيعود المعنى إلى أنه لو افترى عليَّ لم أمكنه ولم أقره.

ومعلوم أن مثل هذا الكلام لا يصدر من قلب مختوم عليه، فإن فيه من علوم الأولين والآخرين، وعلم المبدأ والمعاد والدنيا والآخرة، والعلم الذي لا يعلمه إلا الله، والبيان التام والجزالة والفصاحة والجلالة والأخبار بالغيوب، ما لم يمكن من

---

(١) ٤٦٨ مدارج جـ٣.

(٢) ١١٥ التبيان.

ختم على قلبه أن يأتي به ولا ببعضه، فلولا أني أنزلته على قلبه ويسرته بلسانه لما أمكنه أن يأتيكم بشيء منه، فأين هذا إلى المعنى الذي ذكره الآخرون، وكيف يلتئم مع حكاية قولهم وكيف يتضمن الرد عليهم[١].

[٢]قال ابن عقيل: الأموال التي يأخذها القضاة أربعة أقسام: رشوة، وهدية، وأجرة، ورزق.

فالرشوة حرام، وهي ضربان: رشوة ليميل إلى أحدهما بغير حق، فهذه حرام عن فعل حرام على الآخذ والمعطي، وهما آثمان، ورشوة يعطاها ليحكم بالحق، واستيفاء حق المعطي من دين ونحوه، فهي حرام على الحاكم دون المعطي، لأنها للاستنقاذ، فهي كجعل الآبق وأجرة الوكلاء في الخصومة.

وأما الهدية فضربان: هدية كانت قبل الولاية فلا تحرم استدامتها. وهدية لم تكن إلا بعد الولاية، وهي ضربان: مكروهة وهي الهدية إليه ممن لا حكومة له، وهدية ممن قد اتجهت له حكومة، فهي حرام على الحاكم والمهدي.

وأما الأجرة إن كان للحاكم رزق من الإمام من بيت المال حرم عليه أخذ الأجرة قولا واحدا، لأنه إنما أجرىٰ له الرزق لأجل الاشتغال بالحكم، فلا وجه لأخذ الأجرة من جهة الخصوم، وإن كان الحاكم لا رزق له، فعلى وجهين: أحدهما الإباحة، لأنه عمل مباح، فهو كما لو حكاه، ولأنه مع عدم الرزق لا يتعين عليه الحكم، فلا يمنع من أخذ الأجرة: كالوصي وأمين الحاكم يأكلان من مال اليتيم بقدر الحاجة.

وأما الرزق من بيت المال فإن كان غنيا لا حاجة له إليه احتمل أن يكره، لئلا يضيق على أهل المصالح، ويحتمل أن يباح، لأنه بذل نفسه لذلك، فصار كالعامل في الزكاة والخراج.

---

(١) أوصلها الشيخ إلى عشرة أوجه تأتي إن شاء الله في سورة الحاقة. (ج).

(٢) ١٤٦ بدائع جـ٣.

قلت: أصل هذه المسائل عامل الزكاة وقيم اليتيم، فإن الله تعالىٰ أباح لعامل الزكاة جزءا منها، فهو يأخذه مع الفقر والغنىٰ. والنبي ﷺ منعه من قبول الهدية، وقال: «**هلا جلس في بيت أبيه وأمه، فينظر هل يهدىٰ إليه أم لا**»[1].

وفي هذا دليل علىٰ أن من أهدي إليه في بيته ولم يكن سببه العمل علىٰ الزكاة جاز له قبوله، فيدل ذلك علىٰ أن الحاكم إذا أهدىٰ إليه من كان يهدي له قبل الحكم ولم تكن ولايته سبب الهدية فله قبولها.

وأما ناظر اليتيم فالله تعالىٰ أمره بالاستعفاف مع الغنىٰ، وأباح له الأكل بالمعروف مع الفقر، وهو إما اقتراض أو إباحة علىٰ الخلاف فيه.

والحاكم فرع متردد بين أصلين عامل الزكاة وناظر اليتيم.

فمن نظر إلىٰ عموم الحاجة إليه، وحصول المصلحة العامة به ألحقه بعامل الزكاة، فيأخذ الرزق مع الغنىٰ، كما يأخذه عامل الزكاة.

ومن نظر إلىٰ كونه راعيا منتصبا لمعاملة الرعية بأن لاحظ لهم أنهم ألحقه بولي اليتيم إن احتاج أخذ وإن استغنىٰ ترك.

وهذا أفقه وهو مذهب الخليفتين الراشدين. قال عمر بن الخطاب ﷺ: «إني أنزلت نفسي من مال الله منزلة ولي اليتيم إن احتاج أكل بالمعروف، وإن استغنىٰ ترك» والفرق بينه وبين عامل الزكاة أن عامل الزكاة مستأجر من جهة الإمام لجباية أموال المستحقين لها وجمعها، فما يأخذه يأخذه بعمله، كمن يستأجره الرجل لجباية أمواله.

وأما الحاكم فإنه منتصب لإلزام الناس بشرائع الرب تبارك وتعالىٰ وأحكامه، وتبليغها إليهم، فهو مبلغ عن الله تعالىٰ ﷻ بفتياه، ويتميز عن المفتىٰ بالإلزام بولايته وقدرته، والمبلغ عن الله تعالىٰ الملزم للأمة بدينه لا يستحق عليهم شيئًا، فإن كان محتاجا فله من الفيء ما يسد حاجته، وهذا لون وعامل الزكاة لون، فالحاكم مفتي في

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٥٩٧) ومسلم (رقم ١٨٣٢) وانظرك فتح الباري (١٣/ ١٦٥-١٦٧).

خبره عن حكم الله ورسوله، شاهد فيما ثبت عنده، ملزم لمن توجه عليه الحق، فيشترط له شروط المفتي والشاهد، ويتميز بالقدرة على التنفيذ، فهو في منصب خلافة من قال: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الأنعام: ٩٠].

فهؤلاء هم الحكام المقدر وجودهم في الأذهان المفقودون في الأعيان، الذين جعلهم الله ظلالا يأوي إليها اللهفان، ومناهل يردها الظمآن.

(١) والفرق بين الهدية والرشوة وإن اشتبها في الصورة والقصد؛ فإن الراشي قصده بالرشوة التوصل إلى إبطال حق أو تحقيق باطل، فهذا الراشي الملعون على لسان رسول الله ﷺ، فإن رشا لدفع الظلم عن نفسه اختص المرتشي وحده باللعنة.

وأما المهدي فقصده استجلاب المودة والمعرفة والإحسان، فإن قصد المكافأة فهو معاوض، وإن قصد الربح فهو مستكثر.

***

﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝﴾.

(٢) الجاهل يشكو الله إلى الناس، وهذا غاية الجهل بالمشكو والمشكو إليه، فإنه لو عرف ربه لما شكاه، ولو عرف الناس لما شكا إليهم.

ورأى بعض السلف رجلًا يشكو إلى رجل فاقته وضرورته، فقال: «يا هذا، والله ما زدت على أن شكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك»[٣]، في ذلك قيل:

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما ... تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

والعارف إنما يشكو إلى الله وحده، وأعرف العارفين من جعل شكواه إلى الله من نفسه لا من الناس، فهو يشكو من موجبات تسليط الناس عليه، فهو ناظر إلى قوله تعالى:

---

(١) ٢٩٣ الروح.

(٢) ٨٦ فوائد.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من قول الفضيل بن عياض (٧/ ٢١٩ رقم ١٠٠٧٩) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٤٨/ ٤٠١-٤٠٢) وانظر: فيض القدير (٤/ ٤٩٤).

﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، وقوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾[آل عمران: ١٦٥].

فالمراتب ثلاثة: أخسها أن تشكو الله إلىٰ خلقه، وأعلاها أن تشكو نفسك إليه، وأوسطها أن تشكو خلقه إليه.

[(١)] قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨]، فكل ما يقضى علىٰ العبد فهو عدل فيه.

فإن قيل: فالمعصية عندكم بقضائه وقدره! فما وجه العدل في قضائها؟ فإن العدل في العقوبة عليها غير ظاهر.

قيل: هذا سؤال له شأن، ومن أجله زعمت طائفة أن العدل هو المقدور، والظلم ممتنع لذاته.

قالوا: لأن الظلم هو التصرّف في ملك الغير، والله له كل شيء. فلا يكون تصرّفه في خلقه إلا عدلًا.

وقالت طائفة: بل العدل أنه لا يعاقب علىٰ ما قضاه وقدره، فلمّا حسن منها العقوبة، علىٰ الذنب عُلم أنّه ليس بقضائه وقدره، فيكون العدل هو جزاؤه علىٰ الذنب بالعقوبة، والذم إما في الدنيا وإما في الآخرة.

وصعب علىٰ هؤلاء الجمع بين العدل وبين القدر، فزعموا أن من أثبت القدر لم يمكنه أن يقول بالعدل، ومن قال بالعدل لم يمكنه أن يقول بالقدر. كما صعب عليهم الجمع بين التوحيد وإثبات الصفات، فزعموا أنه لا يمكنهم إثبات التوحيد إلا بإنكار الصفات، فصار توحيدهم تعطيلًا وعدلهم تكذيبا بالقدر.

---

(١) ٢٤ فوائد.

وأما أهل السنة فهم مثبتون للأمرين، والظلم عندهم هو وضع الشيء في غير موضعه كتعذيب المطيع ومن لا ذنب له، وهذا قد نزّه الله نفسه عنه في غير موضع من كتابه، وهو سبحانه وإن أضلّ من شاء، وقضى بالمعصية والغي على من شاء، فذلك محض العدل فيه، لأنه وضع الإضلال والخذلان في موضعه اللائق به.

كيف ومن أسمائه الحسنى العدل، الذي كل أفعاله وأحكامه سداد وصواب وحق، وهو سبحانه قد أوضح السبل، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، وأزاح العلل، ومكّن من أسباب الهداية والطاعة بالأسماع والأبصار والعقول، وهذا عدله، ووفّق من شاء بمزيد عناية، وأراد من نفسه أن يعينه ويوفّقه، فهذا فضله، وخذل من ليس بأهل لتوفيقه وفضله، وخلى بينه وبين نفسه، ولم يرد سبحانه من نفسه أن يوفّقه، فقطع عنه فضله، ولم يحرمه عدله. وهذا نوعان:

أحدهما: ما يكون جزاء منه للعبد على إعراضه عنه، وإيثار عدوه في الطاعة، والموافقة عليه، وتناسى ذكره وشكره، فهو أهل أن يخذله ويتخلى عنه.

والثاني: أن لا يشاء له ذلك ابتداء لما يعلم منه أنه لا يعرف قدر نعمة الهداية، ولا يشكره عليه، ولا يثني عليه بها،ولا يحبه، فلا يشاؤها له، لعدم صلاحية محله.

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٣]، وقال: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٣]. فإذا قضى على هذه النفوس بالضلال والمعصية، كان ذلك محض العدل، كما إذا قضى على الحيّة بأن تقتل وعلى العقرب وعلى الكلب العقور، كان ذلك عدل فيه، وإن كان مخلوقا على هذه الصفة. وقد استوفينا الكلام في هذا في كتابنا الكبير القضاء والقدر.

(١) والصبر على البلاء ينشأ من أسباب عديدة:

---

(١) ٢٧٦ طريق الهجرتين.

أحدها: شهود جزائها وثوابها.

الثاني: شهود تكفيرها للسيئات ومحوها لها.

الثالث: شهود القدر السابق الجاري بها، وأنها مقدرة في أُم الكتاب قبل أن يخلق فلابد منها، فجزعه لا يزيده إلا بلاءً.

الرابع: شهوده حق الله عليه في تلك البلوى، وواجبه فيها الصبر بلا خلاف بين الأُمة، أو الصبر والرضا على أحد القولين، فهو مأُمور بأداء حق الله وعبوديته عليه فى تلك البلوى، فلا بد له منه وإلا تضاعفت عليه.

الخامس: شهود ترتبها عليه بذنبه، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾ [الشورى: ٣٠]، فهذا عام في كل مصيبة دقيقة وجليلة، فيشغله شهود هذا السبب بالاستغفار الذى هو أعظم الأسباب فى دفع تلك المصيبة.

قال على بن أبى طالب: ما نزل بلاءٌ إلا بذنب، ولا رفع بلاءٌ إلا بتوبة[(١)].

السادس: أن يعلم أن الله قد ارتضاها له واختارها وقسمها، وأن العبودية تقتضى رضاه بما رضي له به سيده ومولاه، فإن لم يوف قدر المقام حقه فهو لضعفه، لينزل إلى مقام الصبر عليها، فإن نزل عنه نزل إلى مقام الظلم وتعدي الحق.

السابع: أن يعلم أن هذه المصيبة هى دواءٌ نافع ساقه إليه الطبيب العليم بمصلحته الرحيم به، فليصبر على تجرعه، ولا يتقيأْه بتسخطه وشكواه، فيذهب نفعه باطلاً.

الثامن: أن يعلم أن في عُقبى هذا الدواءِ من الشفاءِ والعافية والصحة وزوال الأَلم ما لم تحصل بدونه، فإذا طالعت نفسه كراهة هذا الدواء ومرارته فلينظر إلى عاقبته وحسن تأْثيره. قال الله تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا

---

(١) يروى هذا الدعاء عن العباس بن عبدالمطلب لما استسقى به عمر بن الخطاب رضي الله عنهما أنه قال بعد ما فرغ عمر من دعائه قال العباس: اللهم إنه لم ينزل بلاء من السماء إلا بذنب ولا يكشف إلا بتوبة... أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٢٦/ ٣٥٨-٣٥٩) وانظر: الاستيعاب (٢/ ٨١٤) وسبل السلام (٢/ ٨١) ونيل الأوطار (٤/ ٣٢).

وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦]. وقال الله تعالىٰ: ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩] وفي مثل هذا القائل:

لعلّ عتبك محمود عـواقـبه وربما صحت الأجسام بالعلل[1]

التاسع: أن يعلم أن المصيبة ما جاءَت لتهلكه وتقتله، وإنما جاءت لتمتحن صبره وتبتليه، فيتبين حينئذ هل يصلح لاستخدامه، وجعله من أوليائه وحزبه أم لا؟ فإن ثبت اصطفاه واجتباه، وخلع عليه خلع الإكرام، وأَلبسه ملابس الفضل، وجعل أولياءَه وحزبه خدماً له وعوناً له، وإن انقلب على وجه ونكص على عقبيه طرد وصفع قفاه وأُقصي، وتضاعفت عليه المصيبة، وهو لا يشعر في الحال بتضاعفها وزيادتها، ولكن سيعلم بعد ذلك بأن المصيبة في حقه صارت مصائب، كما يعلم الصابر أن المصيبة في حقه صارت نعماً عديدة. وما بين هاتين المنزلتين المتباينتين إلا صبر ساعة، وتشجيع القلب في تلك الساعة. والمصيبة لا بد أن تقلع عن هذا وهذا، ولكن تقلع عن هذا بأَنواع الكرامات والخيرات، وعن الآخر بالحرمان والخذلان، لأن ذلك تقدير العزيز العليم، وفضل الله يؤتيه من يشاءُ، والله ذو الفضل الْعظيم.

العاشر: أن يعلم أن الله يربي عبده على السراء والضراء، والنعمة والبلاء، فيستخرج منه عبوديته في جميع الأحوال. فإن العبد على الحقيقة من قام بعبودية الله على اختلاف الأحوال، وأما عبد السراء والعافية الذي يعبد الله على حرف، فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه، فليس من عبيده الذين اختارهم لعبوديته. فلا ريب أن الإيمان الذي يثبت على محل الابتلاء والعافية هو الإيمان النافع وقت الحاجة، وأما إيمان العافية فلا يكاد يصحب العبد ويبلغه منازل المؤمنين، وإنما يصحبه إيمان يثبت على البلاءِ والعافية. فالابتلاء كير العبد ومحك إيمانه: فإما أن يخرج تبراً أحمر، وإما أن

---

(١) هذا البيت من بحر الوسيط وينسب إلى المتنبي، وذكر البيت ابن الجوزي في المدهش (صـ١٤٦) وأبو الحسن الجرجاني في الوساطة بين المتنبي وخصومه (صـ٢٧٩).

يخرج زغلاً محضاً، وإما أن يخرج فيه مادتان ذهبية ونحاسية، فلا يزال به البلاءُ حتى يخرج المادة النحاسية من ذهبه، ويبقى ذهباً خالصاً.

فلو علم العبد أن نعمة الله عليه في البلاءِ ليست بدون نعمة الله عليه في العافية لشغل قلبه بشكره ولسانه: «اللَّهم أعنِّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[1]، وكيف لا يشكر من قيض له ما يستخرج خبثه ونحاسه، وصيَّره تبراً خالصًا، يصلح لمجاورته والنظر إليه في داره؟ فهذه الأسباب ونحوها تثمر الصبر على البلاء، فإن قويت أثمرت الرضا والشكر.

فنسأل الله أن يسترنا بعافيته، ولا يفضحنا بابتلائه بمنه وكرمه.

[2]والصبر على الطاعة ينشأُ من معرفة هذه الأسباب، ومن معرفة ما تجلبه الطاعة من العواقب الحميدة والآثار الجميلة، ومن أَقوى أسبابها: الإيمان والمحبة، فكلما قوي داعي الإيمان والمحبة في القلب كانت استجابته للطاعة بحسبه.

وههنا مسألة تكلم فيها الناس، وهي أي الصبرين أفضل صبر العبد عن المعصية، أم صبره على الطاعة؟ فطائفة رجحت الأول وقالت: الصبر عن المعصية من وظائف الصدّيقين، كما قال بعض السلف: أعمال البر يفعلها البر والفاجر، ولا يقوى على ترك المعاصي إلا صدّيق.

قالوا: ولأن داعي المعصية أشد من دواعي ترك الطاعة، فإن داعي المعصية إلى أمر وجودي تشتهيه النفس وتلتذ به، والداعي إلى ترك الطاعة الكسل والبطالة

---

(١) أخرجه ابن حبان (٥/ ٣٦٤ رقم ٢٠٢٠) وابن خزيمة (١/ ٣٦٩ رقم ٧٥١) والنسائي في الكبرى (١/ ٣٨٧ رقم ١٢٢٦) وفي المجتبى (رقم ١٣٠٣) وأبو داود (رقم ١٥٢٢) وابن أبي شيبة (٦/ ١٠٤ رقم ٢٩٨٢٥) والطبراني في الكبير (٢٠/ ٦٠ رقم ١١٠) والبزار (٥/ ٤٣٨ رقم ٢٠٧٥) وعبد بن حميد (رقم ١٢٠) وصححه النووي في رياض الصالحين (صـ١١٥-١١٦) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٧٢) ورواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير عمرو بن عبد الله الأودي وهو ثقة.

(٢) ٢٧٥ طريق الهجرتين.

والمهانة، ولا ريب أن داعي المعصية أقوىٰ.

قالوا: ولأن العصيان قد اجتمع عليه داعي النفس والهوىٰ والشيطان وأسباب الدنيا وقرناءُ الرجل وطلب التشبه والمحاكاة وميل الطبع، وكل واحد من هذه الدواعي يجذب العبد إلىٰ المعصية ويطلب أثره، فكيف إذا اجتمعت وتظاهرت علىٰ القلب؟ فأي صبر أَقوىٰ من صبر عن إجابتها؟ ولولا أَن الله يصبره لما تَأَتَّىٰ منه الصبر. وهذا القول كما ترىٰ حجته في غاية الظهور.

ورجحت طائفة الصبر علىٰ الطاعة بناءً منها علىٰ أن فعل المأْمور أَفضل من ترك المنهيات، واحتجت علىٰ ذلك بنحو من عشرين حجة. ولا ريب أن فعل المأمورات إنما يتم بالصبر عليها، فإذا كان فعلها أفضل. كان الصبر عليها أفضل.

وفصل النزاع في ذلك: أن هذا يختلف باختلاف الطاعة والمعصية: فالصبر علىٰ الطاعة المعظمة الكبيرة أفضل من الصبر عن المعصية الصغيرة الدنية، والصبر عن المعصية الكبيرة أفضل من الصبر علىٰ الطاعة الصغيرة، وصبر العبد علىٰ الجهاد مثلاً أفضل وأعظم من صبره عن كثير من الصغائر، وصبره عن كبائر الإثم والفواحش أعظم من صبره علىٰ صلاة الصبح وصوم يوم تطوعاً ونحوه، فهذا فصل النزاع في المسألة. والله أعلم.

[(١)] وههنا للعبد أحد عشر مشهدًا فيما يصيبه من أذىٰ الخلق وجنايتهم عليه.

أحدها: المشهد الذي ذكره الشيخ رحمه الله، وهو مشهد القدر، وأن ما جرىٰ عليه: بمشيئة الله وقضائه وقدره، فيراه كالتأذي بالحر والبرد والمرض والألم وهبوب الرياح وانقطاع الأمطار فإن الكل أوجبته مشيئة الله، فما شاء الله كان ووجب وجوده، وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده وإذا شهد هذا: استراح وعلم أنه كائن لا محالة، فما للجزع منه وجه، وهو كالجزع من الحر والبرد والمرض والموت.

---

(١) ٣١٨ مدارج جـ٢.

المشهد الثاني: مشهد «الصبر» فيشهده ويشهد وجوبه وحسن عاقبته وجزاء أهله وما يترتب عليه من الغبطة والسرور، ويخلصه من ندامة المقابلة والانتقام، فما انتقم أحد لنفسه قط إلا أعقبه ذلك ندامة، وعلم أنه إن لم يصبر اختيارًا على هذا ـ وهو محمود ـ صبر اضطرارًا على أكبر منه وهو مذموم.

المشهد الثالث: مشهد «العفو والصفح والحلم»، فإنه متى شهد ذلك وفضله وحلاوته وعزته: لم يعدل عنه إلا لعشىً في بصيرته، فإنه ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزًّا[(١)]. كما صح عن النبي ﷺ، وعلم بالتجربة والوجود، وما انتقم أحد لنفسه إلا ذل، هذا وفي الصفح والعفو والحلم: من الحلاوة والطمأنينة والسكينة وشرف النفس وعزها ورفعتها عن تشفيها بالانتقام: ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام.

المشهد الرابع: مشهد الرضا وهو فوق مشهد «العفو والصفح»، وهذا لا يكون إلا للنفوس المطمئنة، سيما إن كان ما أصيبت به سببه القيام لله، فإذا كان ما أصيب به في الله وفي مرضاته ومحبته: رضيت بما نالها في الله، وهذا شأن كل محب صادق يرضى بما يناله في رضى محبوبه من المكاره، ومتى تسخط به وتشكى منه، كان ذلك دليلا على كذبه في محبته، والواقع شاهد بذلك، والمحب الصادق كما قيل:

من أجلك جعلت خدِّي أرضًا ... للشامت والحسود حتى ترضى

ومن لم يرض بما يصيبه في سبيل محبوبه فلينزل عن درجة المحبة، وليتأخر، فليس من ذا الشأن[(٢)].

[(٣)]قال ابن عباس: «إن للحسنة نورًا في القلب، وضياء في الوجه، وقوة في البدن، وزيادة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق. وإن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمة في

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٨٨) وانظر: شرح النووي (١٦/ ١٤١).
(٢) ذكرها المؤلف أحد عشر، تركنا ذكرها اختصارًا سوى الثامن فهو في سورة لقمان. (ج).
(٣) ٤٢٤ مدارج جـ١.

القلب، ووهنا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق»[١] وهذا يعرفه صاحب البصيرة ويشهده من نفسه ومن غيره.

فما حصل للعبد حال مكروهة قط إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال لخيار خلقه وأصحاب نبيه: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

والمراد بالحسنة والسيئة هنا: النعم والمصائب التي تصيب العبد من الله، ولهذا قال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾ ولم يقل: ما أصبت. فكل نقص وبلاء وشر في الدنيا والآخرة فسببه الذنوب، ومخالفة أوامر الرب، فليس في العالم شر قط إلا الذنوب وموجباتها.

وآثار الحسنات والسيئات في القلوب والأبدان والأموال: أمر مشهود في العالم، لا ينكره ذو عقل سليم، بل يعرفه المؤمن والكافر والبر والفاجر.

وشهود العبد هذا في نفسه وفي غيره وتأمله ومطالعته: مما يقوي إيمانه بما جاءت به الرسل وبالثواب والعقاب، فإن هذا عدل مشهود محسوس في هذا العالم، ومثوبات وعقوبات عاجلة، دالة على ما هو أعظم منها، لمن كانت له بصيرة، كما قال بعض الناس: إذا صدر مني ذنب ولم أبادره ولم أتداركه بالتوبة: انتظرت أثره السيئ، فإذا أصابني ـ أو فوقه أو دونه ـ كما حسبت يكون هجيراي: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله. ويكون ذلك من شواهد الإيمان وأدلته، فإن الصادق متى أخبرك أنك إذا فعلت كذا وكذا ترتب عليه من المكروه كذا وكذا، فجعلت كلما فعلت شيئا من ذلك حصل لك ما قال من المكروه، لم تزدد إلا علما بصدقه وبصيرة فيه، وليس هذا لكل أحد، بل أكثر الناس ترين الذنوب على قلبه، فلا يشهد شيئًا من

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٠٥).

ذلك، ولا يشعر به البتة.

وإنما يكون هذا لقلب فيه نور الإيمان، وأهوية الذنوب والمعاصي تعصف فيه، فهو يشاهد هذا وهذا، ويرىٰ حال مصباح إيمانه مع قوة تلك الأهوية والرياح، فيرىٰ نفسه كراكب البحر عند هيجان الرياح، وتقلب السفينة وتكفئها، ولاسيما إذا انكسرت به، وبقي علىٰ لوح تلعب به الرياح، فهكذا المؤمن يشاهد نفسه عند ارتكاب الذنوب إذا أريد به الخير، وإن أريد به غير ذلك، فقلبه في واد آخر.

ومتىٰ انفتح هذا الباب للعبد: انتفع بمطالعة تاريخ العالم وأحوال الأمم وماجريات الخلق، بل انتفع بماجريات أهل زمانه، وما يشاهده من أحوال الناس، وفهم حينئذ معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد: ٣٣]، وقوله: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨].

فكل ما تراه في الوجود من شر وألم وعقوبة وجدب ونقص في نفسك وفي غيرك، فهو من قيام الرب تعالىٰ بالقسط، وهو عدل الله وقسطه، وإن أجراه علىٰ يد ظالم، فالمسلط له أعدل العادلين، كما قال تعالىٰ لمن أفسد في الأرض: ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ﴾ [الإسراء: ٥].

فالذنوب مثل السموم مضرة بالذات، فإن تداركها من سقي بالأدوية المقاومة لها، وإلا قهرت القوة الإيمانية وكان الهلاك.

كما قال بعض السلف: «المعاصي بريد الكفر، كما أن الحمىٰ بريد الموت»[(١)].

فشهود العبد نقص حاله إذا عصىٰ ربه، وتغير القلوب عليه، وجفولها منه، وانسداد الأبواب في وجهه، وتوعر المسالك عليه، وهوانه علىٰ أهل بيته وأولاده وزوجته وإخوانه، وتطلبه ذلك حتىٰ يعلم من أين أتي، ووقوعه علىٰ السبب الموجب

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٤٤٧) وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٢٩) وانظر: سير أعلام النبلاء (١٢/ ٥١٠) وفيض القدير (٢/ ١٣٣) وفتح الباري (١٠/ ٤٦٦) وشرح النووي (٢/ ٥٠).

لذلك: مما يقوي إيمانه، فإن أقلع وباشر الأسباب التي تفضي به إلى ضد هذه الحال، رأى العز بعد الذل، والغنى بعد الفقر، والسرور بعد الحزن، والأمن بعد الخوف، والقوة في قلبه بعد ضعفه ووهنه وازداد إيمانا مع إيمانه، فتقوى شواهد الإيمان في قلبه وبراهينه وأدلته في حال معصيته وطاعته، فهذا من الذين قال الله فيهم: ﴿ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٥].

***

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

[1]أخبر أن ما عنده خير لمن آمن به وتوكل عليه، وهذا هو التوحيد، ثم قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ فهذا اجتناب داعي القوة الشهوانية، ثم قال: ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ فهذا مخالفة القوة الغضبية، فجمع بين التوحيد والعفة والعدل، التي هي جماع الخير كله[2].

[3]وقالت الحنفية والشافعية والمالكية ومتأخرو أصحاب أحمد: إنه لا قصاص في اللطمة والضربة، وإنما فيه التعزير، وحكى بعض المتأخرين في ذلك الإجماع، وخرجوا عن محض القياس وموجب النصوص وإجماع الصحابة؛ فإن ضمان النفوس والأموال مبناه على العدل، كما قال تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى: ٤٠] وقال: ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٤] وقال: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم ﴾ [النحل: ١٢٦].

---

(١) ٨٠ فوائد.
(٢) أول هذا البحث تقدم في آخر سورة الفرقان. (ج).
(٣) ٣١٨ أعلام جـ١.

فأمر بالمماثلة في العقوبة والقصاص، فيجب اعتبارها بحسب الإمكان، والأمثل هو المأمور به، فهذا الملطوم المضروب قد اعتدي عليه، فالواجب أن يفعل بالمعتدي كما فعل به، فإن لم يمكن كان الواجب ما هو الأقرب والأمثل، وسقط ما عجز عنه العبد من المساواة من كل وجه.

ولا ريب أن لطمة بلطمة وضربة بضربة في محلهما بالآلة التي لطمه بها أو بمثلها أقرب إلى المماثلة المأمور بها حسا وشرعا من تعزيره بها بغير جنس اعتدائه وقدره وصفته، وهذا هو هدي رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين ومحض القياس، وهو منصوص الإمام أحمد ومن خالفه في ذلك من أصحابه فقد خرج عن نص مذهبه وأصوله، كما خرج عن محض القياس والميزان[(١)] قال إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني في كتابه المترجم له: باب في القصاص من اللطمة والضربة.

حدثني إسماعيل بن سعيد قال: سألت أحمد بن حنبل عن القصاص من اللطمة والضربة؟ فقال: «عليه القود من اللطمة والضربة»، وبه قال أبو داود وأبو خيثمة وابن أبي شيبة، وقال إبراهيم الجوزجاني: «وبه أقول لما حدثنا شبابة بن سوار ثنا شعبة عن يحيى بن الحصين قال: سمعت طارق بن شهاب يقول: لطم أبو بكر رجلًا يومًا لطمة فقال له: اقتص فعفا الرجل»[(٢)].

حدثنا شبابة أنبأ شعبة عن مخارق قال: سمعت طارقًا يقول: لطم ابن أخ لخالد بن الوليد رجلًا من مراد فأقاده خالد منه[(٣)].

حدثنا أبو بهز حدثنا أبو بكر بن عياش قال: سمعت الأعمش عن كميل بن زياد

---

(١) انظر: حاشية ابن القيم على سنن أبي داود (١٢/ ١٧٥-١٧٧) وفتح الباري (١٢/ ٢٢٩) ومجموع فتاوى ابن تيمية (٣٤/ ١٦٢).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٥/ ٤٦٤ رقم ٢٨٠١٠) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٢٢٨) وتغليق التعليق (٥/ ٢٥٢) وعمدة القاري (٢٤/ ٥٦).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٥/ ٤٦٤ رقم ٢٨٠٠٦).

قال: لطمني عثمان ثم أقادني فعفوت[١].

حدثني ابن الأصفهاني حدثنا عبد السلام بن حرب عن ناجية عن عمه يزيد بن عربي قال: رأيت عليًّا ـ كرم الله وجهه في الجنة ـ أقاد من لطمه[٢].

وحدثنا الحميدي ثنا سفيان ثنا عبد الله بن إسماعيل بن زياد ابن أخي عمرو بن دينار أن ابن الزبير أقاد من لطمة[٣].

ثنا يزيد بن هارون أنا الجريري عن أبي نضرة عن أبي فراس قال: خطبنا عمر فقال: إني لم أبعث عمالي إليكم ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن إنما بعثتهم ليبلغوكم دينكم، وسنة نبيكم، ويقسم فيكم فيئكم، فمن فعل به غير ذلك فليرفعه إليَّ فوالذي نفس عمر بيده لأقصنه منه، فقام إليه عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين إن كان رجل من المسلمين على رعية فأدب بعض رعيته لتقصنه منه! فقال عمر: أنا لا أقصه منه، وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه[٤].

ثنا محمد بن كثير عن الأوزاعي عن ابن حرملة قال: تلاحى رجلان فقال أحدهما: ألم أخنقك حتى سلحت؟ فقال: بلى ولكن لم يكن لي عليك شهود، فشهدوا على ما قال: ثم رفعه إلى عمر بن عبد العزيز فأرسل في ذلك إلى سعيد بن المسيب، فقال: يخنقه كما خنقه، حتى يحدث أو يفتدي منه. فافتدى منه بأربعين بعيرًا، فقال ابن كثير: أحسبه ذكره عن عثمان[٥]...

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الإشراف في منازل الأشراف (رقم ٤١٧) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٥٠/ ٢٥٦) وانظر: الإصابة في تمييز الصحابة (٥/ ٦٥٣).

(٢) أخرجه أبي شيبة (٥/ ٤٦٤ رقم ٢٨٠٠٥) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٢٢٨) وعمدة القاري (٢٤/ ٥٦).

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (٨/ ٦٥ رقم ١٥٨٨٤) وابن أبي شيبة (٥/ ٤٦٤ رقم ٢٨٠٠٨) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٢٢٨) وعمدة القاري (٢٤/ ٥٦).

(٤) أخرجه أبو داود (رقم ٤٥٣٧) وابن الجارود (رقم ٨٤٤) والبيهقي في الكبرى (٨/ ٤٨ رقم ١٥٧٩٦) وأحمد (١/ ٤١) وابن أبي شيبة (٦/ ٤٦١ رقم ٣٢٩٢١) والحاكم (٤/ ٤٨٥ رقم ٨٣٥٦) وصحَّحه.

(٥) أخرجه بلفظ قريب ابن أبي الدنيا في الإشراف (رقم ١٨٥).

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ۝ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ ﴾.

[1]الفرق بين العفو والذل: أن العفو إسقاط حقك جودًا وكرمًا وإحسانًا مع قدرتك على الانتقام، فتؤثر الترك رغبة في الإحسان ومكارم الأخلاق.

بخلاف الذل فإن صاحبه يترك الانتقام عجزًا وخوفًا ومهانة نفس، فهذا مذموم غير محمود، ولعل المنتقم بالحق أحسن حالا منه.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴾ [الشورى: ٣٩] فمدحهم بقوتهم على الانتصار لنفوسهم، وتقاضيهم منها ذلك، حتى إذا قدروا على من بغى عليهم، وتمكنوا من استيفاء مالهم عليه ندبهم إلى الخلق الشريف من العفو والصفح، فقال: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشورى: ٤٠].

فذكر المقامات الثلاثة: العدل وأباحه، والفضل وندب إليه، والظلم وحرمه.

فإن قيل: فكيف مدحهم على الانتصار والعفو، وهما متنافيان.

قيل: لم يمدحهم على الاستيفاء والانتقام، وإنما مدحهم على الانتصار وهو القدرة والقوة على استيفاء حقهم، فلما قدروا ندبهم إلى العفو.

قال بعض السلف في هذه الآية: كانوا يكرهون أن يستذلوا، فإذا قدروا عفوا، فمدحهم على عفو بعد قدرة، لا على عفو ذل وعجز ومهانة. وهذا هو الكمال الذي مدح سبحانه ـ به نفسه في قوله: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٩] والله غفور رحيم.

وفي أثر معروف: حملة العرش أربعة، اثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك. واثنان يقولان سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لك

---

(١) ٢٩٤ الروح.

الحمد على عفوك بعد قدرتك[١].

ولهذا قال المسيح ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨] أي أن غفرت لهم: غفرت عن عزة وهي كمال القدرة، وحكمة وهي كمال العلم، فغفرت بعد أن علمت ما عملوا، وأحاطت بهم قدرتك، إذ المخلوق قد يغفر بعجزه عن الانتقام، وجهله بحقيقة ما صدر من المسيء. والعفو من المخلوق ظاهره ضيم وذل. وباطنه عز ومهابة والانتقام ظاهره عز وباطنه ذل، فما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزا ولا انتقم أحد لنفسه إلا ذل، ولو لم يكن إلا بفوات عز العفو، ولهذا ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط، وتأمل قوله سبحانه: ﴿ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ كيف يفهم منه أن فيهم من القوة ما يكونون هم بها المنتصرين لأنفسهم، لا أن غيرهم هو الذي ينصرهم، ولما كان الانتصار لا تقف النفوس فيه على حد العدل غالبا، بل لا بد من المجاوزة شرع فيه سبحانه المماثلة والمساواة وحرم الزيادة وندب إلى العفو، والمقصود أن العفو من أخلاق النفس المطمئنة، والذل من أخلاق الإمارة.

ونكتة المسألة أن الانتقام شيء والانتصار شيء، فالانتصار أن ينتصر لحق الله ومن أجله، ولا يقوى على ذلك إلا من تخلص من ذل حظه ورق هواه، فإنه حينئذ ينال حظا من العز، الذي قسم الله للمؤمنين، فإذا بغى عليه انتصر من الباغي من أجل عز الله الذي أعزه به، غيرة على ذلك العز أن يستضام ويقهر، وحمية للعبد المنسوب إلى العزيز الحميد أن يستذل، فهو يقال للباغي عليه: أنا مملوك من لا يذل مملوكه، ولا يحب أن يذله أحد. وإذا كانت نفسه الأمارة قائمة على أصولها لم تحب بعد طلبه إلا الانتقام والانتصار لحظها وظفرها بالباغي تشفيا فيه وإذلالًا له.

---

(١) أخرجه الطبراني في تفسيره (١٩/ ٧) من قول شهر بن حوشب. وأخرجه أيضاً أبو الشيخ في العظمة (٣/ ٩٥٤ رقم ٤٨١) وابن أبي شيبة في العرش (رقم ٢٤) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٥٥) و(٦/ ٧٤) بلفظ: «حملة العرش ثمانية: فأربعة منهم يقولون...».

وأما النفس التي خرجت من ذل حظها ورق هواها إلىٰ عز توحيدها وإنابتها إلىٰ ربها، فإذا نالها البغي قامت بالانتصار حمية ونصرة للعز الذي أعزها الله به ونالته منه، وهو في الحقيقة حمية لربها ومولاها.

وقد ضرب لذلك مثلًا بعبدين من عبيد الغلة حراثين، ضرب أحدهما صاحبه فعفا المضروب عن الضارب، نصحًا منه لسيده، وشفقة علىٰ الضارب أن يعاقبه السيد، فلم يجشم سيده خلقه عقوبته وإفساده بالضرب، فشكر العافي علىٰ عفوه، ووقع منه بموقع. وعبد آخر قد أقامه بين يديه وجمَّله وألبسه ثيابًا يقف بها بين يديه، فعمد بعض سواس الدواب وأضرابهم ولطخ تلك الثياب بالعذرة أو مزقها، فلو عفا عمن فعل به ذلك لم يوافق عفوه رأىٰ سيده ولا محبته، وكان الانتصار أحب إليه وأوفق لمرضاته، كأنه يقول: إنما فعل هذا بك جرأة عليَّ واستخفافًا بسلطاني، فإذا أمكنه من عقوبته فأذله وقهره، ولم يبق إلا أن يبطش به، فذل وانكسر قلبه، فإن سيده يحب منه أن لا يعاقبه لحظه، وأن يأخذ منه حق السيد، فيكون انتصاره حينئذ لمحض حق سيده لا لنفسه.

كما روي عن علي ﵁ أنه مر برجل فاستغاث به، وقال: هذا منعني حقي، ولم يعطني إياه. فقال: أعطه حقه. فلما جاوزهما لج الظالم ولطم صاحب الحق، فاستغاث بعلي فرجع، وقال: أتاك الغوث. فقال له استقد منه فقال: قد عفوت يا أمير المؤمنين. فضربه عليٌّ تسع درر. وقال: قد عفا عنك من لطمته، وهذا حق السلطان فعاقبه علىٰ لما اجترأ علىٰ سلطان الله ولم يدعه.

ويشبه هذا قصة الرجل الذي جاء إلىٰ أبي بكر ﵁ فقال: احملني، فوالله لا أنا أفرس منك ومن ابنك. وعنده المغيرة بن شعبة، فحسر عن ذراعه، وصك بها أنف الرجل، فسال الدم، فجاء قومه إلىٰ أبي بكر ﵁، فقالوا: أقدنا من المغيرة. فقال: أنا أقيدكم من وزعة الله؟! لا أقيدكم منه. فرأىٰ أبو بكر أن ذلك انتصار من المغيرة وحمية الله، وللعز الذي أعز به خليفة رسول الله ﷺ، ليتمكن بذلك العز من حسن خلافته وإقامة دينه.

فترك قوده لاجترائه على عز الله وسلطانه، الذي أعز به رسوله ودينه وخليفته، فهذا لون، والضرب حمية للنفس الأمارة لون.

[(١)]أفتى الزهري لعمر بن عبد العزيز فيمن أتلف له شجر، فقال الزهري: يغرسه حتى يعود كما كان، وقال ربيعة وأبو الزناد: عليه القيمة، فغلظ الزهري القول فيهما. وقول الزهري وحكم سليمان هو موجب الأدلة، فإن الواجب ضمان المتلف بالمثل بحسب الإمكان، كما قال تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال: ﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٩٤] ﴿ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞ ﴾ [البقرة: ١٩٤] وقال: ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم ﴾ [النحل: ١٢٦] وإن كان مثل الحيوان والآنية والثياب من كل وجه متعذرًا، فقد دار الأمر بين شيئين: الضمان بالدراهم المخالفة للمثل في الجنس والصفة والمقصود والانتفاع وإن ساوت المضمون في المالية والضمان بالمثل بحسب الإمكان المساوي للمتلف في الجنس والصفة والمالية والمقصود والانتفاع ولا ريب أن هذا أقرب إلى النصوص والقياس والعدل.

ونظير هذا ما ثبت بالسنة واتفاق الصحابة من القصاص في اللطمة والضربة، وهو منصوص أحمد في رواية إسماعيل بن سعيد وقد تقدم تقرير ذلك وإذا كانت المماثلة من كل وجه متعذرة حتى في المكيل والموزون، فما كان أقرب إلى المماثلة فهو أولى بالصواب، ولا ريب أن الجنس إلى الجنس أقرب مماثلة من الجنس إلى القيمة، فهذا هو القياس وموجب النصوص، وبالله التوفيق.

***

﴿ لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾ ﴾.

---

(١) ٢٦ أعلام جـ٢.

[(١)] ذكر أصناف النساء الأربعة مع الرجال: أحدها من تلد الإناث فقط. الثانية من تلد الذكور فقط. الثالثة من تلد الزوجين الذكر والأنثى، وهو معنى التزويج هنا، أن يجعل ما يهب له زوجين ذكرًا أو أنثى. الرابعة العقيم التي لا تلد أصلًا.

ومما يدل على أن سبب الإذكار والإيناث لا يعلمه البشر، ولا يدرك بالقياس والفكر، وإنما يعلم بالوحي ما روى مسلم في صحيحه من حديث ثوبان قال: كنت عند النبي ﷺ فجاء حبر من أحبار اليهود، فقال: السلام عليك يا محمد! فدفعته دفعة كاد يصرع منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول يا رسول الله! فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله، فقال رسول الله ﷺ **«إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي»** قال اليهودي: جئت أسالك، فقال رسول الله ﷺ: **«أينفعك شيء إن حدثتك»**؟ قال: أسمع بأذني فنكت رسول الله ﷺ بعود معه، فقال: **«سل»** فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول الله ﷺ: **«هم في الظلمة دون الجسر»** قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: **«فقراء المهاجرين»** قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ فقال: **«زيادة كبد حوت ذي النون»** قال: فما غذاؤهم على إثرها؟ قال: **«ينحر لهم ثور الجنة، الذي يأكل من أطرافها»** قال: فما شرابهم عليه؟ قال: **«من عين تسمى سلسبيلا»** قال: صدقت. وجئت أسالك عن شيء لا يعلمه إلا نبي أو رجل أو رجلان، قال: **«ينفعك إن حدثتك»** قال: أسمع بأذني، قال: جئت أسألك عن الولد؟ قال: **«ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا منيّ الرجل منيّ المرأة أذكرا بإذن الله، وإن علا منيّ المرأة منيّ الرجل أنثا بإذن الله»** قال اليهودي: لقد صدقت، وإنك لنبي، ثم انصرف، فقال رسول الله ﷺ: **«لقد سألني عن هذا الذي سألني عنه وما لي علم به حتى أتاني الله به»**[(٢)].

---

(١) ٢٥٨ مفتاح جـ١.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٣١٥) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٧٦) وشرح النووي (٣/ ٢٢٦-٢٢٧).

والذي دل عليه العقل والنقل أن الجنين يخلق من الماءين جميعًا، فالذكر يقذف ماءه في رحم الأنثىٰ، وكذلك هي تنزل ماءها إلىٰ حيث ينتهي ماؤه، فيلتقي الماءان علىٰ أمر قد قدره الله وشاءه، فيخلق الولد بينهما جميعًا، وأيهما غلب كان الشبه له.

كما في صحيح البخاري عن حميد عن أنس قال: بلغ عبدالله بن سلام قدوم النبي ﷺ فأتاه، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي، قال: «ما أول أشراط الساعة، وما أول طعام يأكله أهل الجنة، ومن أي شيء ينزع الولد إلىٰ أبيه، ومن أي شيء ينزع إلىٰ أخواله؟ فقال رسول الله ﷺ: **«أخبرني بهن آنفًا جبريل»** فقال عبد الله: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقال رسول الله ﷺ: **«أما أول أشراط الساعة: فنار تحشر الناس من المشرق إلىٰ المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشي المرأة وسبقها ماؤه كان الشبه له، وإن سبقت كان الشبه لها»** فقال: أشهد أنك رسول الله[1]، وذكر الحديث.

وفي الصحيحين عن أم سلمة قالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحي من الحق، هل علىٰ المرأة من غسل إذا هي احتلمت قال: **«نعم إذا رأت الماء الأصفر»** فضحكت أم سلمة، فقالت: أو تحتلم المرأة؟ فقال رسول الله ﷺ: **«فبم يشبهها الولد»**[2]؟

فهذه الأحاديث الثلاثة تدل علىٰ أن الولد يخلق من الماءين، وأن الإذكار والإيناث يكون بغلبة أحد الماءين، وقهره للآخر، وعلوه عليه، وأن الشبه يكون بالسبق، فمن سبق ماؤه إلىٰ الرحم كان الشبه له، وهذه أمور ليس عند أهل الطبيعة ما يدل عليها، ولا تعلم إلا بالوحي، وليس في صناعتهم أيضًا ما ينافيها.

علىٰ أن في النفس من حديث ثوبان ما فيها، وأنه يخاف أن لا يكون أحد رواته حفظه كما ينبغي، وأن يكون السؤال إنما وقع فيه عن الشبه لا عن الإذكار والإيناث،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٤٨٠).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٨٢) ومسلم (رقم ٣١٣) وانظر: فتح الباري (١/ ٢٢٩).

كما سأل عنه عبدالله بن سلام، ولذلك لم يخرجه البخاري.

وفي الصحيحين من حديث عبدالله بن أبي بكر عن أنس عن النبي ﷺ قال: «**إن الله وكل بالرحم ملكًا، فيقول: يا رب نطفة! يا رب علقة! يا رب مضغة! فإذا أراد أن يخلقها، قال: يا رب أذكر أم أنثىٰ؟ شقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أمه**»[1].

أفلا ترىٰ كيف أحال بالإذكار والإيناث علىٰ مجرد المشيئة، وقرنه بما لا تأثير للطبيعة فيه من الشقاوة والسعادة والرزق والأجل، ولم يتعرض الملك لكسبه الذي للطبيعة فيه مدخل أولا ترىٰ عبد الله بن سلام لم يسأل إلا عن الشبه الذي يمكن الجواب عنه ولم يسال عن الإذكار والإيناث، مع أنه أبلغ من الشبه والله أعلم، وإن كان رسول الله ﷺ قد قاله فهو عين الحق، وعلىٰ كل تقدير فهو يبطل ما زعمه بعض الطبائعيين من معرفة أسباب الإذكار والإيناث، والله أعلم.

[2]وأما الإذكار والإيناث: فليس بسبب طبيعي، وإنما سببه: الفاعل المختار الذي يأمر الملك به مع تقدير الشقاوة والسعادة والرزق والأجل، ولذلك جمع بين هذه الأربع في الحديث: «**فيقول الملك: يا رب ذكر؟ يا رب أنثىٰ؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك**»[3] وقد رد سبحانه ذلك إلىٰ محض مشيئته، في قوله تعالىٰ: ﴿**يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا**﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠].

والتعليق بالمشيئة وإن كان لا ينافي ثبوت السبب بذلك إذا علم كون الشيء سببا

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣١٨) ومسلم (رقم ٢٦٤٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٨٣) وشرح النووي (١٦/ ١٩٠).

(٢) ٢٢٠ الطرق الحكمية.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٣٩٧) وابن حبان (١٤/ ٥٢-٥٣ رقم ٦١٧٧) وانظر: التمهيد (١٨/ ١١١) وجامع العلوم والحكم (١/ ٤٩).

دل على سببيته بالعقل وبالنص، وقد قال ﷺ في حديث أم سليم: **«ماء الرجل غليظ أبيض، وماء المرأة رقيق أصفر، فمن أيهما علا - أو سبق - يكون الشبه»**[(١)] فجعل للشبه سببين: علو الماء وسبقه.

وبالجملة فعامة الأحاديث إنما هي تأثير سبق الماء وعلوه في الشبه، وإنما جاء تأثير ذلك في الإذكار والإيناث في حديث ثوبان وحده، وهو فرد بإسناده، فيحتمل أنه اشتبه على الراوي فيه الشبه بالإذكار والإيناث، وإن كان قد قاله رسول الله ﷺ، فهو الحق الذي لا شك فيه، ولا ينافي سائر الأحاديث، فإن الشبه من السبق. والإذكار والإيناث: من العلو، وبينهما فرق، وتعليقه على المشيئة لا ينافي تعليقه على السبب، كما أن الشقاوة والسعادة والرزق معلقات بالمشيئة وحاصلة بالسبب، والله أعلم.

[(٢)]قال الله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠] فقسم سبحانه حال الزوجين إلى أربعة أقسام، اشتمل عليها الوجود، وأخبر أن ما قدره بينهما من الولد فقد وهبهما إياه، وكفى بالعبد تعرضا لمقته أن يتسخط ما وهبه.

وبدأ سبحانه بذكر الإناث، فقيل جبرا لهن لأجل استثقال الوالدين لمكانهما.

وقيل: وهو أحسن إنما قدمهن؛ لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاء، لا ما يشاء الأبوان، فان الأبوين لا يريدان إلا الذكور غالبًا، وهو سبحانه قد أخبر أنه يخلق ما يشاء، فبدأ بذكر الصنف الذي يشاء ولا يريده الأبوان.

وعندي وجه آخر وهو أنه تعالى قدم ما كانت تؤخره الجاهلية من أمر البنات حتى كانوا يئدوهن أي هذا النوع المؤخر الحقير عندكم مقدم عندي في الذكر.

وتأمل كيف نكَّر سبحانه الإناث، وعرف الذكور، فجبر نقص الأنوثة بالتقديم،

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٣١١) وانظر: شرح النووي (٣/ ٢٢٢).

(٢) ١٠ تحفة المودود.

وجبر نقص التأخير بالتعريف، فإن التعريف تنويه كأنه قال ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين، الذين لا يخفون عليكم. ثم لما ذكر الصنفين معا قدم الذكور إعطاء لكل من الجنسين حقه من التقديم والتأخير، والله أعلم بما أراد من ذلك.

والمقصود أن التسخط بالإناث من أخلاق الجاهلية، الذين ذمهم الله تعالىٰ في قوله: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [النحل: ٥٨] وقال: ﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل: ٥٩] وقال: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [الزخرف: ١٧] ومن هاهنا عبر بعض المعبرين لرجل قال له: رأيت كأن وجهي أسود، فقال له: ألك امرأة حامل؟ قال: نعم، قال: تلد لك أنثى.

وفي صحيح مسلم من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو هكذا». وضم إصبعيه[(١)].

وروى عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت: جاءت امرأة ومعها ابنتان لها تسألني، فلم تجد عندي شيئًا غير تمرة واحدة، فأعطيتها إياها، فأخذتها فشقتها بين ابنتيها ولم تأكل منها شيئًا، ثم قامت فخرجت هي وابنتاها، فدخل رسول الله ﷺ عليَّ بعد ذلك، فحدثته حديثها، فقال رسول الله ﷺ: «من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن، كن له سترًا من النار»[(٢)] رواه ابن المبارك عن معمر عن الزهري عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم عن عروة، وهو في الصحيح، والحديث في مسند أحمد.

وفيه أيضًا من حديث أيوب بن بشير الأنصاري عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال:

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٣١) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٢٨) وشرح النووي (١٦/ ١٧٩-١٨٠).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٤١٨) ومسلم (رقم ٢٦٢٩) وعبدالرزاق (١٠/ ٤٥٧ رقم ١٩٦٩٣) وأحمد (٦/ ٣٣) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٢٨).

قال رسول الله ﷺ: «**لا يكون لأحد ثلاث بنات أو ثلاث أخوات أو بنتان أو أختان، فيتقي الله فيهن ويحسن إليهن إلا دخل الجنة**»[(١)] ورواه الحميدي عن سفيان عن سهيل بن أبي صالح عن أيوب بن بشير عن سعيد الأعشىٰ عن أبي سعيد عن النبي ﷺ: «**من كان له ثلاث بنات أو أخوات أو بنتان أو أختان فأحسن صحبتهن وصبر عليهن واتقىٰ الله فيهن دخل الجنة**»[(٢)].

وقال محمد بن عبد الله الأنصاري عن ابن جريج، حدثني أبو الزبير عن عمر بن نبهان عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «**من كان له ثلاث بنات فصبر علىٰ لأوائهن وعلىٰ ضرائهن دخل الجنة**» وفي رواية، فقال يا رسول الله، واثنتين؟ قال: «**واثنتين**» قال: يا رسول الله، وواحدة؟ قال: «**وواحدة**»[(٣)].

وقال البيهقي: حدثنا أحمد بن الحسين، حدثنا الأصم، حدثنا الحسن بن مكرم، حدثنا عثمان بن عمر، أنبأ النهاس عن شداد أبي عمار عن عوف بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «**من كان له ثلاث بنات ينفق عليهن حتىٰ يبن أو يمتن كن له حجابًا من النار**»[(٤)]، وقال علي بن المديني: حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا النهاس بن قهتم، حدثنا شداد أبو عمار، عن عوف بن مالك الأشجعي قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من عبد يكون له ثلاث بنات فينفق عليهن، حتىٰ يبن أو يمتن إلا كن له حجابًا من النار**» فقالت امرأة: يا رسول الله، وابنتان؟ قال: «**وابنتان**»[(٥)] قال: وقال أبو عمار عن عوف بن

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ١٩١٢) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ٦٣٦٩).

(٢) أخرجه ابن حبان (٢/ ١٨٩-١٩٠ رقم ٤٤٦) وفي موارد الظمآن (رقم ٢٠٤٤) والترمذي (رقم ١٩١٦) والحميدي (٢/ ٣٢٣ رقم ٧٣٨). وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ٥٨٠٨).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٥/ ٢٢٢ رقم ٢٥٤٤٠).

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٤٠٥ رقم ٨٦٧٩).

(٥) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٤٠٦ رقم ٨٦٨١) وأحمد (٦/ ٢٩) والطبراني في الكبير (١٨/ ٥٦ رقم ١٠٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٥٧): رواه الطبراني وفيه النهاس بن قهم وهو ضعيف. وانظر: عون المعبود (٦/ ٤٠٦).

مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**وأنا وامرأة سفعاء الخدين كهاتين في الجنة**»[1].

وروى فطر بن خلف عن شرحبيل بن سعد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مسلم يكون له ابنتان فيحسن إليهما ما صحبها وصحبتاه إلا أدخلتاه الجنة**»[2] وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر عن ابن المنكدر أن النبي ﷺ قال: «**من كان له ثلاث بنات أو أخوات فكفهن وآواهن وزوجهن دخل الجنة**» قالوا: أو ابنتان؟ قال: «**أو ابنتان**» حتى ظننا أنهم لو قالوا: أو واحدة؟ قال: «**أو واحدة**»[3] هذا مرسل.

وقال عبد الله بن المبارك عن حرملة بن عمران قال: سمعت أبا غشانة قال: سمعت عقبة بن عامر الجهني يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من كانت له ثلاث بنات فصبر عليهن، فأطعمهن وسقاهن وكساهن من جدته، كن له حجابا من النار**»[4]. رواه الإمام أحمد في مسنده. وقد قال تعالى في حق النساء: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

وهكذا البنات أيضا قد يكون للعبد فيهن خير في الدنيا والآخرة. ويكفي في قبح كراهتهن أن يكره ما رضيه الله وأعطاه عبده. وقال صالح بن أحمد: كان أبي إذا ولد له ابنة يقول: الأنبياء كانوا آباء بنات. ويقول: قد جاء في البنات ما قد علمت. وقال

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٥١٤٩) وعبدالرزاق (١١/ ٢٩٩ رقم ٢٠٥٩١) والطبراني في الكبير (١٨/ ٥٦ رقم ١٠٣) وأحمد (٦/ ٢٩) والبيهقي في الشعب (٦/ ٤٠٦ رقم ٨٦١٢) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ١٤١) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٣٦).

(٢) أخرجه الضياء في المختارة (١٠/ ٤٢٤ رقم ٤٤٩) والبيهقي في الشعب (٦/ ٤٠٦ رقم ٨٦٨٣).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (١٠/ ٤٥٨ رقم ١٩٦٩٧) والطبراني في الأوسط (٦/ ٢٠٥ رقم ٦١٩٩) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٥٨): رواه الطبراني في الأوسط وفيه من لم أعرفهم، وانظر: عمدة القاري (٢٢/ ٩٩).

(٤) أخرجه ابن ماجه (رقم ٣٦٦٩) وأبو يعلى (٣/ ٢٩٩ رقم ١٧٦٤) وأحمد (٤/ ١٥٤) والبيهقي في الشعب (٦/ ٤٠٧ رقم ٨٦٨٩) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٧٦) وابن أبي الدنيا في العيال (رقم ٨٩) وقال الكناني في مصباح الزجاجة (٤/ ١٠١): هذا إسناد صحيح.

يعقوب بن بختان ولد لي سبع بنات، فكنت كلما ولد لي ابنة دخلت على أحمد بن حنبل فيقول لي: يا أبا يوسف الأنبياء آباء بنات. فكان يذهب قوله همي.

***

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾.

[(١)]جمع بين الروح الذي يحصل به الحياة، والنور الذي يحصل به الإضاءة والإشراق، وأخبر أن كتابه الذي أنزله على رسوله ﷺ متضمن للأمرين، فهو روح تحيا به القلوب، ونور تستضيء وتشرق به، كما قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. أي أو من كان كافرًا ميت القلب، مغمورًا في ظلمة الجهل: فهديناه لرشده، ووفقناه للإيمان، وجعلنا قلبه حيا بعد موته، مشرقا مستنيراً بعد ظلمته؟ فجعل الكافر ـ لانصرافه عن طاعته، وجهله بمعرفته، وتوحيده وشرائع دينه، وترك الأخذ بنصيبه من رضاه، والعمل بما يؤديه إلى نجاته وسعادته: ـ بمنزلة الميت الذي لا ينفع نفسه بنافعة، ولا يدفع عنها من مكروه، فهديناه للإسلام وأنعشناه به، فصار يعرف مضار نفسه ومنافعها، ويعمل في خلاصها من سخط الله تعالى وعقابه، فأبصر الحق بعد عماه عنه، وعرفه بعد جهله به، واتبعه بعد إعراضه عنه، وحصل له نور وضياء يستضيء به، فيمشي بنوره بين الناس، وهم في سدف الظلام.

[(٢)]إن عقل رسول الله ﷺ أكمل عقول أهل الأرض على الإطلاق، فلو وزن عقله بعقولهم لرجحها، وقد أخبر الله أنه قبل الوحي لم يكن يدري ما الإيمان، كما لم يكن يدري ما الكتاب، فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا

---

(١) ٢١ إغاثة جـ١.

(٢) ١١٦ مختصر الصواعق جـ١.

ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝ ﴾ [الضحى: ٦-٨]، وتفسير هذه الآية بالآية التي في آخر سورة الشورىٰ، فإذا كان أعقل الخلق علىٰ الإطلاق إنما حصل له الهدىٰ بالوحي، كما قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ [سبأ: ٥٠]، فكيف يحصل لسفهاء العقول وأخفاء الأحلام الاهتداء إلىٰ حقائق الإيمان بمجرد عقولهم دون نصوص الوحي، حتىٰ اهتدوا بتلك الهداية إلىٰ المعارضة بين العقل ونصوص الأنبياء: ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴾ [مريم: ٨٩، ٩٠].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الشورىٰ

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤ ﴾.

[(١)] قال ابن عباس: في اللوح المحفوظ المقرئ عندنا، قال مقاتل: إن نسخته في أصل الكتاب، وهو اللوح المحفوظ. وأم الكتاب: أصل الكتاب، وأم كل شيء: أصله. والقرآن كتبه الله في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض، كما قال تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢].

وأجمع الصحابة والتابعون وجميع أهل السنة والحديث: أن كل كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب.

وقد دل القرآن على أن الرب تعالى كتب في أم الكتاب ما يفعله وما يقوله، فكتب في اللوح أفعاله وكلامه فـ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ ﴾ [المسد: ١] في اللوح المحفوظ قبل وجود أبي لهب، وقوله: ﴿ لَدَيْنَا ﴾ يجوز فيه أن تكون من صلة أم الكتاب، أي أنه في الكتاب الذي عندنا، وهذا اختيار ابن عباس.

ويجوز أن يكون من صلة الخبر: أنه عليّ حكيم عندنا، ليس هو كما عند المكذبين به، أي وإن كذبتم به وكفرتم فهو عندنا في غاية الارتفاع والشرف والإحكام...

[(٢)] قوله: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾ [الزخرف: ٥]، على أحد التأويلين أي نترككم، فلا ننصحكم ولا ندعوكم، ونعرض عنكم إذا أعرضتم أنتم وأسرفتم.

***

(١) ٤١ شفاء العليل.

(٢) ١١٨ بدائع الفوائد جـ ٣. طبعة دار الخير.

﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝ ﴾.

[(١)] كيف نبههم بالسفر الحسي على السفر إليه؟ وجمع لهم بين السفرين.

كما جمع لهم الزادين في قوله: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة: ١٩٧]، فجمع لهم بين زاد سفرهم وزاد معادهم؟

وكما جمع بين اللباسين في قوله: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٦] فذكر سبحانه زينة ظواهرهم وبواطنهم، ونبههم بالحسي على المعنوي؛ وفهم هذا القدر زائدٌ على فهم مجرد اللفظ ووضعه في أصل اللسان، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

[(٢)] ثم تأمل الحكمة البالغة في إعطائه سبحانه بهيمة الأنعام: الأسماع والأبصار، ليتم تناولها لمصالحها، ويكمل انتفاع الإنسان بها، إذ لو كانت عمياء أو صماء لم يتمكن من الانتفاع بها ثم سلبها العقول ـ على كبر خلقها ـ التي للإنسان ليتم تسخيره إياها، فيقودها ويصرفها حيث شاء، ولو أعطيت العقول على كبر خلقها لامتنعت من طاعته، واستعصت عليه ولم تكن مسخرة له، فأعطيت من التمييز والإدراك ما تتم به مصلحتها ومصلحة من ذللت له، وسلبت من الذهن والعقل ما ميز به عليها الإنسان، وليظهر أيضًا فضيلة التمييز والاختصاص.

ثم تأمل كيف قادها وذللها على كبر أجسامها، ولم يكن يطيقها لولا تسخيره، قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ

(١) ٢٢٧ أعلام جـ١.
(٢) ٢٢٤ مفتاح جـ١.

تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [١٢، ١٣] أي مطيقين ضابطين.

وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ۝ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧١، ٧٢].

فترىٰ البعير علىٰ عظم خلقته يقوده الصبي الصغير ذليلًا منقادًا، ولو أرسل عليه لسواه بالأرض، ولفصله عضوًا عضوًا.

فسل المعطل من الذي ذلَّله وسخره وقاده علىٰ قوته لبشر ضعيف من أضعف المخلوقات، وفرغ بذلك التسخير النوع الإنساني لمصالح معاشه ومعاده، فإنه لو كان يزاول من الأعمال والأحمال ما يزاول الحيوان لشغل بذلك عن كثير من الأعمال، لأنه كان يحتاج مكان الجمل الواحد إلىٰ عدة أناسي، يحملون أثقاله وحمله، ويعجزون عن ذلك، وكان ذلك يستفرغ أوقاتهم ويصدهم عن مصالحهم، فأعينوا بهذه الحيوانات مع ما لهم فيها من المنافع التي لا يحصيها إلا الله من الغذاء والشراب والدواء واللباس والأمتعة والآلات والأواني والركوب والحرث والمنافع الكثيرة والجمال.

هديه ﷺ في سفره وعبادته فيه[1]: كانت أسفاره ﷺ دائرةً بين أربعة أسفار: سفرِه لهجرته، وسفره للجهاد وهو أكثرها، وسفرِه للعمرة، وسفرِه للحج.

وكان إذا أراد سفراً، أقرع بين نسائه، فأيَّتُهُن خرج سهمُها، سافر بها معه[2].

ولما حجّ، سافر بهن جميعاً. وكان إذا سافر خرج مِن أول النهار، وكان يستحِبُّ الخروجَ يوم الخميس[3]، ودعا الله تبارك وتعالىٰ أن يُبارك لأُمَّتِهِ في بُكورها. وكان إذا

---

(١) ٢٦٣ زاد المعاد جـ١.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٥٩٣) ومسلم (رقم ٢٧٧٠) وانظر: فتح الباري (٥/ ٢٧٣).

(٣) عن كعب بن مالك ﷺ قال: «إن النبي ﷺ خرج يوم الخميس في غزوة تبوك، وكان يحب أن يخرج يوم الخميس» أخرجه البخاري (رقم ٢٩٥٠) وانظر: فتح الباري (٦/ ١١٣).

بعث سرية أو جيشاً، بعثهم من أول النهار[١]، وأمرَ المسافرين إذا كانوا ثلاثة فليؤمهم أحدهم[٢]. ونهى أن يُسافر الرجل وحدَه[٣]، وأخبر أن الراكِبَ شَيْطَانٌ، والرَّاكِبانِ شَيْطَانَانِ، وَالثَّلاثَةُ رَكْب[٤]. وذُكِرَ عنه ﷺ أنه كان يقول حين ينهض للسفر: «**اللَّهُم إِلَيْك تَوَجَهْتُ، وبِكَ اعْتَصَمْت، اللَّهُم اكْفِني مَا أَهمَّني وَمَا لاَ أَهْتَم بِهِ، اللَّهُمَّ زَوِّدْني التَّقْوَىٰ، وَاغْفِرْ لي ذَنْبِي، وَوَجِّهْني لِلخَيْرِ أَيْنَما تَوَجَّهْتُ**»[٥].

---

(١) أخرجه ابن حبان (١١/ ٦٢ رقم ٤٧٥٤) والنسائي في الكبرىٰ (٥/ ٢٥٨ رقم ٨٨٣٣) وأبو داود (رقم ٢٦٠٦) والترمذي (رقم ١٢١٢) وابن ماجه (رقم ٢٢٣٦) والبيهقي في الكبرىٰ (٩/ ١٥١ رقم ١٨٢٣٧) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٤/ ٣٦٣ رقم ٢٤٠٢) والطبراني في الكبير (٨/ ٢٤ رقم ٧٢٧٥) وأحمد (٣/ ٤١٧) وحسنه الترمذي وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٦/ ١١٤): أخرجه أصحاب السنن وصححه ابن حبان.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٦٧٢) والبيهقي في سننه الكبرىٰ (٣/ ٨٩ رقم ٤٩٠٥) وقد نص على السفر وانظر: فتح الباري (٢/ ١٨٦).

(٣) أخرج عبد الرزاق في مصنفه (١٠/ ٤٣١ رقم ١٩٦٠٧) عن عمر ﷺ قال: «**لا يسافرن رجل وحده ولا ينامن في بيت وحده**» وأخرج ابن عبدالبر بسنده في التمهيد (٢٠/ ٩-١٠) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: خرجتُ مرة لسفر فمررت بقبر من قبور الجاهلية، فإذا رجلٌ قد خرج من القبر يتأجج ناراً، في عنقه سلسلة، ومعي إداوة من ماء، فلمَّا رآني قال: يا عبد الله اسقني، قال: فقلت: عرفني فدعاني باسمي أو كلمة تقولها العرب: يا عبد الله. إذ خرج على إثره رجل من القبر، فقال: يا عبد الله لا تسقه فإنه كافر ثم أخذ السلسلة فاجتذبه فأدخله القبر.

قال أبو عمر: هذا الحديث ليس له إسناد، ورواته مجهولون، ولم نورده للاحتجاج به، ولكن للاعتبار، وما لم يكن فيه حكم فقد تسامح الناس في روايته عن الضعفاء، والله المستعان. وانظر: الاستذكار (٨/ ٥٣١) وشرح الزرقاني (٤/ ٥٠١) وأخرج هذه القصة أيضاً ابن أبي الدنيا في كتاب من عاش بعد الموت (رقم ٣٣) أما نهي المسافر أن يسافر وحده فقد أخرجه ابن أبي شيبة عن عطاء (٥/ ٣١٠ رقم ٢٦٣٨٨) وأبو داود في المراسيل (رقم ٣١١).

(٤) أخرجه النسائي في الكبرىٰ (٥/ ٢٦٦ رقم ٨٨٤٩) وأبو داود (رقم ٢٦٠٧) والبيهقي في الكبرىٰ (٥/ ٢٥٧ رقم ١٠١٢٧) والترمذي (رقم ١٦٧٤) وقال: حديث حسن صحيح، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٦/ ٥٣): وهو حديث حسن الإسناد، وقد صححه ابن خزيمة والحاكم.

(٥) أخرجه البيهقي في السنن الكبرىٰ (٥/ ٢٥٠ رقم ١٠٠٨٦) وأبو يعلى (٥/ ١٥٧-١٥٨ رقم ٢٧٧٠) =

وكان إذا قُدِّمتَ إليه دابتُه ليركبها، يقول: «بسم الله» حين يضع رجله في الرِّكاب، وإذا استوى على ظهرها، قال: «الحمدُ للهِ الَّذي سَخَّرَ لَنَا هَذا، وَمَا كُنَّا لَهُ بمقْرِنينَ، وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لمنْقَلِبونَ»، ثُمَّ يَقُولُ: «الحَمْدُ للهِ، الحَمد للهِ، الحَمْدُ للهِ»، ثم يقول: «اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أكبر»، ثم يقولُ: «سُبْحَانَكَ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي، فَاغفِرِ لِي إِنَّه لاَ يَغْفر الذُنُوبَ إلاَّ أَنتَ».

وكان يقول: «اللَّهم إِنَّا نَسْأَلُكَ في سَفَرِنَا هَذَا البِرَّ وَالتَّقْوَى، وَمِنَ العَمَلِ مَا تَرْضَى، اللَّهُم هَوِّن عَلَيْنَا سَفَرَنَا هذا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ، اللَّهم أَنْتَ الصَّاحِبُ في السَّفَرِ، وَالخَلِيفَةُ في الأَهْلِ، اللَّهُمَّ إِنِيِّ أَعُوذُ بِكَ مِن وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ المنقَلَبِ، وَسوءِ المَنْظَرِ في الأَهلِ وَالمَالِ» وإذا رجع، قالهن، وزاد فيهن: «آيبون تَائِبُونَ عَابِدُون لِرَبِّنَا حَامِدُون»[1].

وكان هو وأصحابُه إذا عَلوا الثنايا، كبَّروا، وإذا هبطوا الأودية، سبَّحوا[2].

وكان إذا أشرف على قرية يُريد دخولَها يقولُ: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وما أظْلَلْنَ، وَرَبَّ الأَرضين السَّبْعِ وَمَا أَقْلَلْنَ، وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ وما أَضْلَلْنَ، وَرَبَّ الرِّيَاحِ وَما ذَرَيْنَ، أَسْأَلُكَ خَيْرَ هذِه القَرْيَةِ وَخَيْرَ أَهْلِهَا، وأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، وَشَرِّ أَهْلِهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا»[3].

وذكر عنه أنه كان يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أسأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هذِهِ القَرْيَة وَخَيْرِ مَا جَمَعْتَ

=

وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٤٩٥) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٣٠): رواه أبو يعلى وفيه عمر بن مساور وهو ضعيف.

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٣٤٢) وانظر: فتح الباري (١١/ ١٨٩) وشرح النووي (٩/ ١١٠-١١١).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٢٥٩٩) وعبدالرزاق (٥/ ١٦٠ رقم ٩٢٤٥) وصححه النووي في رياض الصالحين (ص٢٤٥).

(٣) أخرجه الضياء في المختارة (٨/ ٧٢ رقم ٦٩) وابن حبان (٦/ ٤٢٥ رقم ٢٧٠٩) وابن خزيمة (٤/ ١٥٠ رقم ٢٥٦٥) والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٥٦ رقم ٨٨٢٦) والبيهقي في الكبرى (٥/ ٢٥٢ رقم ١٠١٠٠) والطبراني في الكبير (٨/ ٣٣ رقم ٧٢٩٩) وفي الدعاء (رقم ٨٣٨) وابن قانع في معجم الصحابة (٢/ ١٨).

فِيهَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشرِّ مَا جَمَعْتَ فِيهَا، اللَّهُمّ ارزُقْنَا جَنَاهَا، وَأَعِذْنَا مِنْ وَبَاهَا، وَحَبِّبْنَا إِلَىٰ أَهْلِهَا، وَحَبِّب صَالِحِي أَهْلِهَا إِلَيْنَا»[1].

***

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾.

[2]احتج سبحانه علىٰ هؤلاء الذين جعلوا له البنات بأن أحدهم لا يرضىٰ بالبنات، وإذا بشر أحدهم بالأنثىٰ حصل له من الحزن والكآبة ما ظهر منه السواد علىٰ وجهه، فإذا كان أحدكم لا يرضىٰ بالإناث بناتًا، فكيف تجعلونها لي؟ كما قال تعالىٰ: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ [النحل: ٦٢].

ثم ذكر سبحانه ضعف هذا الجنس الذي جعلوه لله، وأنه أنقص الجنسين. ولهذا يحتاج في كماله إلىٰ الحلية وهو أضعف الجنسين بيانًا، فقال تعالىٰ: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ فأشار بنشأتهن في الحلية إلىٰ أنهن ناقصات فيحتجن إلىٰ حلية يكملن بها، وأنهن عييات فلا يبن حجتهن وقت الخصومة مع أن في قوله: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ ﴾ تعريضًا بما وضعت له الحلية من التزين لمن يفترشهن ويطأهن،وتعريضًا بأنهن لا يثبتن في الحرب، فذكر الحلية التي هي علامة الضعف والعجز.

...[3]وقد أنكر الله سبحانه علىٰ من رد النبوة بأن الله صرفها عن عظماء القرىٰ ومن رؤسائها، وأعطاها لمن ليس كذلك بقوله: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥/ ٨٨ رقم ٤٧٥٥) والدعاء (رقم ٨٣٦) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٥٢٧).

(٢) ١٠٥ مختصر الصواعق جـ١.

(٣) ٢٥٩ أعلام جـ٢.

قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٢].

***

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

[(١)] إن الله سبحانه يحكي عن الكفار اقتراحهم في الاختيار وإرادتهم: أن تكون الخيرة لهم، ثم ينفي هذا سبحانه عنهم، ويبين تفرده هو بالاختيار، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢] فأنكر عليهم سبحانه تخيرهم عليه، وأخبر أن ذلك ليس إليهم، بل إلى الذي قسم بينهم معايشهم المتضمنة لأرزاقهم، ومدد آجالهم، وكذلك هو الذي يقسم فضله بين أهل الفضل على حسب علمه بمواقع الاختيار، ومن يصلح له ممن لا يصلح، وهو الذي رفع بعضهم فوق بعض درجات، وقسم بينهم معايشهم ودرجات التفضيل، فهو القاسم ذلك وحده لا غيره، وهكذا هذه الآية بين فيها انفراده بالخلق والاختيار، وأنه سبحانه أعلم بمواقع اختياره، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، أي: الله أعلم بالمحل الذي يصلح لاصطفائه وكرامته، وتخصيصه بالرسالة والنبوة، دون غيره.

***

(١) ٧ زاد المعاد جـ١.

﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

[(١)] تعليله سبحانه عدم الحكم القدري والشرعي بوجود المانع منه كقوله: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ ﴾ [الزخرف: ٣٣] ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى: ٢٧].

وقوله: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ [الإسراء: ٥٩] أي آيات الاقتراح لا الآيات الدالة على صدق الرسل، التي يقيمها هو سبحانه ابتداء، وقوله: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾ [فصلت: ٤٤].

وقوله: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٨، ٩] فأخبر سبحانه عن المانع الذي منع من إنزال الملك عيانًا بحيث يشاهدونه، وأن حكمته وعنايته بخلقه منعت من ذلك، فإنه لو أنزل الملك ثم عاينوه ولم يؤمنوا، لعوجلوا بالعقوبة ولم ينظروا، وأيضًا فإنه جعل الرسول بشرًا ليمكنهم التلقي عنه والرجوع إليه، ولو جعله ملكًا فإما أن يدعه على هيئة الملائكة أو يجعله على هيئة البشر والأول يمنعهم من التلقي عنه، والثاني لا يحصل مقصودهم، إذ كانوا يقولون: هو بشر لا ملك، وقال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٤، ٩٥].

---

(١) ١٩٦ شفاء العليل.

فأخبر سبحانه عن المانع من إنزال الملائكة، وهو أنه لم يجعل الأرض مسكنًا لهم، ولا يستقرون فيها مطمئنين، بل يكون نزولهم لينفذوا أوامر الرب سبحانه، ثم يعرجون إليه، ومن هذا قوله: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴾.

فأخبر سبحانه عن حكمته في الامتناع من إرسال رسله بآيات الاقتراح والتشهي، وهي أنها لا توجب الإيمان، فقد سألها الأولون، فلما أوتوها كذبوا بها فأهلكوا، فليس لهم مصلحة في الإرسال بها، بل حكمته سبحانه تأبىٰ ذلك كل الإباء.

ثم نبَّه علىٰ ما أصاب ثمود من ذلك، فإنهم اقترحوا الناقة فلما أعطوا ما سألوا ظلموا ولم يؤمنوا، فكان في إجابتهم إلىٰ ما سألوا هلاكهم واستئصالهم، ثم قال: ﴿ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ﴾ [الإسراء: ٥٩] أي: لأجل التخويف فهو منصوب نصب المفعول لأجله، قال قتادة: إن الله يخوف الناس بما شاء من آياته لعلهم يعتبون أو يذكرون أو يرجعون[١] وهذا يعم آياته التي تكون مع الرسل، والتي تقع بعدهم في كل زمان، فإنه سبحانه لا يزال يحدث لعباده من الآيات ما يخوفهم بها ويذكرهم بها.

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٧] أي لا يعلمون حكمته تعالىٰ ومصلحة عباده في الامتناع من إنزال الآيات التي يقترحها الناس علىٰ الأنبياء، وليس المراد أن أكثر الناس لا يعلمون أن الله قادر، فإنه لم ينازع في قدرة الله أحد من المقرين بوجوده سبحانه، ولكن حكمته في ذلك لا يعلمها أكثر الناس.

[٢]وربما اتكل بعض المغترين علىٰ ما يرىٰ من نعم الله عليه في الدنيا، وأن يغتر به ويظن أن ذلك من محبة الله له، وأنه يعطيه في الآخرة أفضل من ذلك، فهذا من الغرور. قال الإمام أحمد: حدثنا يحيىٰ بن غيلان حدثنا رشدين بن سعد عن حرملة بن عمران

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥/ ٣٠٨) وعزاه إلىٰ ابن جرير.
(٢) ٤١ الجواب الكافي.

التجيبي عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال: «**إذا رأيت الله ﷻ يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج**»، ثم تلا قوله ﷻ: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾[1] [الأنعام: ٤٤] وقال بعض السلف: إذا رأيت الله ﷻ يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على معاصيه فاحذره، فإنما هو استدراج منه، يستدرجك به.

وقد قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥].

وقد رد سبحانه على من يظن هذا الظن بقوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ﴾ [الفجر: ١٥-١٧] أي ليس كل من نعَّمتَه ووسعت عليه رزقه أكون قد أكرمته، وليس كل من ابتليته وضيقت عليه رزقه أكون قد أهنته، بل أبتلي هذا بالنعم، وأكرم هذا بالابتلاء. وفي جامع الترمذي عنه ﷺ: «**إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب**»[2].

وقال بعض السلف: رُبَّ مستدرج بنعم الله عليه وهو لا يعلم، ورُبَّ مغرور بستر الله عليه وهو لا يعلم، ورُبَّ مفتون بثناء الناس عليه وهو لا يعلم.

***

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٥) والطبري في تفسيره (٧/ ١٩٥) والطبراني في الأوسط (٩/ ١١٠ رقم ٩٢٧٢) وفي الكبير (١٧/ ٣٣٠ رقم ٩١٣) وابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٣٢) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٣٣).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧) والبزار (٥/ ٣٩٢ رقم ٢٠٢٦) والبيهقي في الشعب (٤/ ٣٩٥ رقم ٥٥٢٤) والحاكم (١/ ٨٨ رقم ٩٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٢٨): رواه أحمد ورجاله وثقوا وفي بعضهم خلاف.

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

[(١)] فائدة جليلة: إذا أصبح العبد وأمسىٰ، وليس همه إلا الله وحده، تحمل الله سبحانه حوائجه كلها، وحمل عنه كل ما أهمه، وفرغ قلبه لمحبته، ولسانه لذكره، وجوارحه لطاعته، وإن أصبح وأمسىٰ والدنيا همه، حمله الله همومها وغمومها وأنكادها، ووكله إلىٰ نفسه، فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلق، ولسانه عن ذكره بذكرهم، وجوارحه عن طاعته بخدمتهم وأشغالهم، فهو يكدح كدح الوحش في خدمة غيره؛ كالكير ينفخ بطنه ويعصر أضلاعه في نفع غيره، فكل من أعرض عن عبودية الله وطاعته ومحبته، بُلِيَ بعبودية المخلوق ومحبته وخدمته، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٣٦].

قال سفيان بن عيينة: «لا تأتون بمثل مشهور للعرب إلا جئتكم به من القرآن». فقال له قائل: «فأين في القرآن: أعط أخاك تمرة، فإن لم يقبل فأعطه جمرة» فقال في قوله: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا ﴾ الآية. اهـ.

[(٢)] قال الله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٩] فأخبر سبحانه أنه من عشا عن ذكره وهو كتابه الذي أنزل علىٰ رسوله ﷺ وبارك فيه فأعرض عنه، وعمىٰ عنه، وغشت بصيرته عن فهمه وتدبره ومعرفة مراد الله منه، قيض الله له شيطانًا عقوبة له علىٰ إعراضه عن كتابه، فهو

---

(١) ٨٣ فوائد.

(٢) ١٢٦ الجواب الكافي.

قرينه الذي لا يفارقه لا في الإقامة ولا في المسير ومولاه وعشيره الذي هو بئس المولىٰ وبئس العشير.

رضيعا لبان ثدي أمٍّ تقاسما بأسحم داج عوض لا يتفرق[(١)]

ثم أخبر سبحانه أن الشيطان ليصد قرينه ووليه عن سبيله الموصل إليه وإلىٰ جنته، ويحسب هذا الضال المضل المصدود أنه علىٰ طريق هدًىٰ، حتىٰ إذا جاء القرينان يوم القيامة يقول أحدهما للآخر: يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين، فبئس القرين كنت لي في الدنيا، أضللتني عن الهدىٰ بعد إذ جاءني، وصددتني عن الحق، وأغويتني حتىٰ هلكت، وبئس القرين أنت لي اليوم.

ولما كان المصاب إذا شاركه غيره في مصيبته حصل له بالتأسي نوع تخفيف وتسلية، أخبر الله سبحانه أن هذا غير موجود وغير حاصل في حق المشتركين في العذاب، وأن القرين لا يجد راحة ولا أدنىٰ فرح بعذاب قرينه معه، وإن كانت المصائب في الدنيا إذا عمت صارت مسلاة، كما قالت الخنساء في أخيها صخر:

فلولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يكون مثل أخي ولكن أعزِّي النفس عنه بالتأسي
ألا يا صخر لا أنساك حتىٰ أفارق عيشتي وورود رمسي[(٢)]

فمنع الله سبحانه هذا القدر من الراحة علىٰ أهل النار، فقال: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩].

[(٣)]وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ

---

(١) هذا البيت من بحر الطويل ينسب إلىٰ الأعشى، ذكره ابن قتيبة في أدب الكاتب (ص ٤٧٥) وابن السكيت في إصلاح المنطق (ص ٤٨٧) والجواليقي في شرح أدب الكاتب (ص ٢١٦).

(٢) هذه الأبيات من بحر الوافر، وقد سبق التعريف بالخنساء، وذكر البيت الأول الحافظ ابن حجر في الإصابة (٧/ ٦١٦) وذكر قبله البيت الثالث هنا وفيه: أفارق مهجتي ويشق رمسي.

(٣) ٤٤ مفتاح جـ١.

۝ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧].

فأخبر سبحانه أن من ابتلاه بقرينه من الشياطين وضلاله به إنما كان بسبب إعراضه وعشوه عن ذكره الذي أنزله على رسوله، فكان عقوبة هذا الإعراض أن قيض له شيطانًا يقارنه، فيصده عن سبيل ربه وطريق فلاحه، وهو يحسب أنه مهتد، حتى إذا وافى ربه يوم القيامة مع قرينه، وعاين هلاكه وإفلاسه، قال: ﴿ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ [الزخرف: ٣٨] وكل من أعرض عن الاهتداء بالوحي الذي هو ذكر الله، فلابد أن يقول هذا يوم القيامة.

فإن قيل: فهل لهذا عذر في ضلاله إذا كان يحسب أنه على هدى، كما قال تعالى: ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾؟

قيل: لا عذر لهذا وأمثاله من الضلال الذين منشأ ضلالهم: الإعراض عن الوحي، الذي جاء به الرسول ﷺ، ولو ظن أنه مهتد، فإنه مفرط بإعراضه عن اتباع داعي الهدى، فإذا ضل فإنما أتى من تفريطه وإعراضه، وهذا بخلاف من كان ضلاله لعدم بلوغ الرسالة، وعجزه عن الوصول إليها، فذاك له حكم آخر، والوعيد في القرآن إنما يتناول الأول. وأما الثاني فإن الله لا يعذب أحدًا إلا بعد إقامة الحجة عليه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء: ١٥] وقال تعالى: ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥] وقال تعالى في أهل النار: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الزخرف: ٧٦] وقال تعالى: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الزمر: ٥٦-٥٩] وهذا كثير في القرآن.

***

﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾.

[١] المراد بسؤالهم: سؤال أممهم عما جاؤوهم به هل فيه أن الله شرع لهم أن يعبد من دونه إله غيره؟ قال الفراء: المراد سؤال أهل التوراة والإنجيل، فيخبرونه عن كتبهم وأنبيائهم، وقال ابن قتيبة: التقدير: واسأل من أرسلنا إليهم رسلًا من قبلك: وهم أهل الكتاب، وقال ابن الأنباري: التقدير: وسل من أرسلنا من قبلك.

وعلى كان تقدير، فالمراد التقرير لمشركي قريش وغيرهم ممن أنكر النبوات والتوحيد، وأن الله أرسل رسولًا، أو أنزل كتابًا، أو حرم عبادة الأوثان، فشهادة أهل الكتاب بهذا حجة عليهم، وهي من أعلام صحة رسالته ﷺ، إذ كان قد جاء على ما جاء به إخوانه الذين تقدموه من رسل الله سبحانه، ولم يكن بدعًا من الرسل، ولا جاء بضد ما جاءوا به، بل أخبر بمثل ما أخبروا به من غير شاهد ولا اقتران في الزمان، وهذه من أعظم آيات صدقه.

***

﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴾.

[٢] السلف هو الذي تقدم، والسالف المتقدم، قال الله تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٦] والعرب تسمي أول الرواحل السالفة، ومنه قول النبي ﷺ: «**الحقي بسلفنا الخير عثمان بن مظعون**»[٣]، وقول الصديق: لأقاتلنهم حتى تنفرد سالفتي[٤]. وهي العنق.

***

(١) ١١ أحكام أهل الذمة جـ١.

(٢) ٥١٠ زاد المعاد جـ٤.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٣٣٥) والحاكم (٣/ ٢١٠ رقم ٤٨٦٩) والطيالسي (رقم ٢٦٩٤) وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٠٥) وابن سعد في الطبقات (٣/ ٣٩٨) وعمر بن شبة في أخبار المدينة (رقم ٣٢٠).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢) وانظر: فتح الباري (٥/ ٣٣٨).

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

[(١)]أما ما تؤثره كثرة الخلطة فامتلاء القلب من دخان أنفاس بني آدم حتى يسود، ويوجب له تشتتا وتفرقا، وهما وغما، وضعفا وحملا لما يعجز عن حمله من مؤنة قرناء السوء، وإضاعة مصالحه، والاشتغال عنها بهم وبأمورهم، وتقسُّم فكره في أودية مطالبهم وإراداتهم، فماذا يبقى منه لله والدار الآخرة؟.

هذا وكم جلبت خلطة الناس من نقمة، ودفعت من نعمة، وأنزلت من منحة، وعطلت من منحة، وأحلت من رزية، وأوقعت في بلية؟ وهل آفة الناس إلا الناس، وهل كان على أبي طالب ـ عند الوفاة ـ أضر من قرناء السوء؟ لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد.

وهذه الخلطة التي تكون على نوع مودة في الدنيا، وقضاء وطر بعضهم من بعض، تنقلب إذا حقت الحقائق عداوة، ويعض المخلط عليها يديه ندما، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩] وقال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وقال خليله إبراهيم لقومه: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥] وهذا شأن كل مشتركين في غرض، يتوادون ما داموا متساعدين على حصوله، فإذا انقطع ذلك الغرض أعقب ندامة وحزنًا وألمًا، وانقلبت تلك المودة بغضا ولعنة وذما من بعضهم لبعض، لما انقلب ذلك الغرض حزنًا وعذابًا، كما يشاهد في هذه الدار من أحوال المشتركين في خزيه، إذا أخذوا وعوقبوا، فكل متساعدين على باطل متوادين عليه: لابد أن تنقلب مودتهما بغضًا وعداوة.

---

(١) ٤٥٤ مدارج جـ١.

والضابط النافع في أمر الخلطة: أن يخالط الناس في الخير ـ كالجمعة والجماعة، والأعياد والحج، وتعلم العلم والجهاد، والنصيحة ـ ويعتزلهم في الشر، وفضول المباحات. فإذا دعت الحاجة إلى خلطتهم في الشر، ولم يمكنه اعتزالهم: فالحذر الحذر أن يوافقهم، وليصبر على أذاهم، فإنهم لابد أن يؤذره إن لم يكن له قوة ولا ناصر، ولكن أذىً يعقبه عزّ ومحبة له وتعظيم وثناء عليه منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين....

***

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

[1] الله ﷻ إنما خلق الخلق لدار القرار، وجعل اللذة كلها بأسرها فيها، كما قال الله تعالى: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾ [الزخرف: ٧١] وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة: ١٧] وقال النبي ﷺ: «**يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين: ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر بله ما اطلعتم**»[2] أي غير ما اطلعتم عليه، وهذا هو الذي قصده الناصح لقومه الشفيق عليهم، حيث قال: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾ [غافر: ٣٨، ٣٩] فأخبرهم أن الدنيا متاع يتمتع بها إلى غيرها، والآخرة هي المستقر والغاية.

...[3] فليتأمل العاقل هذا الموضع، ولينزل نفسه منزلة من قد فاته أعظم محبوب وأنفعه، وهو أفقر شيء وأحوجه إليه، فواتا لا يرجى تداركه، وحصل على ضده، فيا لها من مصيبة ما أوجعها، وحالة ما أفظعها، فأين هذه الحال من حالة من يلتذ في الدنيا بكل ما يقصد به وجه الله ﷻ من الأكل والشرب واللباس والنكاح وشفاء الغيظ

---

(١) ١٧١ روضة المحبين.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٧٨٠) ومسلم (رقم ٢٨٢٤) وانظر: فتح الباري (٨/ ٥١٦-٥١٧).

(٣) ١٧٤ روضة المحبين.

بقهر العدو وجهاد في سبيله، فضلًا عما يلتذ به من معرفة ربه وحبه له وتوحيده والإنابة إليه والتوكل عليه والإقبال عليه وإخلاص العمل له والرضا به وعنه والتفويض إليه وفرح القلب وسروره بقربه والأنس به والشوق إلىٰ لقائه، كما في الحديث الذي صححه ابن حبان والحاكم: «**وأسألك لذة النظر إلىٰ وجهك والشوق إلىٰ لقائك**»[1] وهذه اللذة لا تزال في الدنيا في زيادة مع تنقيصها بالعدو الباطن من الشيطان والهوىٰ والنفس والدنيا والعدو الظاهر، فكيف إذا تجردت الروح وفارقت دار الأحزان والآفات، واتصلت بالرفيق الأعلىٰ ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٨، ٧٠] فإذا أفضىٰ إلىٰ دار النعيم فهناك من أنواع اللذة والبهجة والسرور ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر، فبؤسًا وتعسًا للنفوس الوضيعة الدنيئة التي لا يهزها الشوق إلىٰ ذلك طربًا، ولا تتقد نار إرادتها لذلك رغبًا، ولا تبعد عما يصد عن ذلك رهبًا.

[2]قال تعالىٰ: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الزخرف: ٧١] فالصحاف جمع صحفة، قال الكلبي: بقصاع من ذهب، وقال الليث: الصحفة: قصعة مسلطحة عريضة، الجمع صحاف قال الأعشىٰ:

والمكاكيك والصحاف من الفضـ ـة والضامرات تحـت الرجال[3]

---

(١) أخرجه ابن حبان (٥/ ٣٠٤-٣٠٥، رقم ١٩٧١) وفي موارد الظمآن (رقم ٥٠٩) والنسائي في الكبرىٰ (١/ ٣٨٧ رقم ١٢٢٨) وفي المجتبىٰ (رقم ١٣٠٥) وعبد الرزاق (١٠/ ٤٤٢ رقم ١٩٦٤٧) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٢/ ٤٥) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٨٤٥) والدارقطني في رؤية الله (رقم ١٧٣) والطبراني في الدعاء (رقم ٦٢٤) وتمام في فوائده (٢/ ١٤٧-١٤٨ رقم ١٣٨٧) وانظر: شرح حديث لبيك لابن رجب (صـ٨٢) وفيض القدير (٤/ ٢٩٢).

(٢) ١٣٨ حادي الأرواح.

(٣) هذا البيت من بحر الخفيف ينسب إلىٰ الأعشىٰ، وذكره أبو زيد القرشي في جمهرة أشعار العرب =

وأما الأكواب فجمع كوب، قال الفراء: الكوب المستدير الرأس، الذي لا أذن له، وأنشد لعدي:

متكئـا تـصفق أبوابـه يـسعى عليـه الغيـد بـالكوب[١]

وقال أبو عبيد: الأكواب الأباريق، التي لا خراطيم لها. قال أبو إسحاق: واحدها كوب، وهو إناء مستدير لا عروة له. وقال ابن عباس: هي الأباريق التي ليست لها آذان. وقال مقاتل: هي أوان مستديرة الرأس، ليس لها عرى[٢]. وقال البخاري في صحيحه: الأكواب: الأباريق التي لها خراطيم[٣]. وقال تعالى: ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۝ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨] الأباريق: هي الأكواب التي لها خراطيم، فإن لم يكن لها خراطيم ولا عرى فهي أكواب. وإبريق إفعيل من البريق وهو الصفاء، فهو الذي يبرق لونه من صفائه، ثم سُمِّي كل ما كان على شكله إبريقا وإن لم يكن صافيا وأباريق الجنة من الفضة في صفاء القوارير، يُرى من ظاهرها ما في باطنها. والعرب تسمي السيف إبريقا لبريق لونه، ومنه قول ابن أحمر:

تعلقـت إبريقـا وعلقـت جعبـة ليهلـك حيـا ذا زهـاء وجامـل[٤]

وفي نوادر اللحياني: امرأة إبريق إذا كانت براقة[٥].

(صـ١٧٧) وابن منظور في لسان العرب (٩/ ١٨٧).

(١) هذا البيت من بحر السريع ينسب إلى عدي بن زيد العبادي التميمي شاعر من دهاة الجاهلية، كان فصيحًا يحسن العربية والفارسية، جعله كسرى ترجماناً بينه وبين العرب توفي سنة ٣٦ قبل الهجرة. ذكر البيت القرطبي في تفسيره (١٦/ ١١٤) (١٩/ ١٤٠) وابن منظور في لسان العرب (١/ ٧٢٩) (١٠/ ٢٠٣).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٧/ ١٧٤-١٧٥).

(٣) أخرجه البخاري تعليقاً (رقم ٤٨١٩) وانظر: فتح الباري (٨/ ٥٦٩).

(٤) هذا البيت من بحر الطويل، ينسب إلى عمرو بن أحمد الباهلي، شاعر جاهلي مخضرم أدرك الإسلام فأسلم وشارك في الفتوحات، وكان من المطالبين بدم عثمان ﷺ، مات سنة ٧٥هـ. والبيت ذكره الخطابي في غريب الحديث (٢/ ١٥٣) وابن منظور في لسان العرب (١٠/ ١٥، ٢٦٢).

(٥) ذكره ابن منظور في اللسان (١٠/ ١٦).

***

﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

[(١)] وقال: ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾ [ص: ٥٠، ٥١] قال تعالى: ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾ [الدخان: ٥٥] هذا يدل على أمنهم من انقطاعها ومضرتها، وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ ﴾ [الزخرف: ٧٢، ٧٣]، وقال تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣]، أي لا تكون في وقت دون وقت، ولا تمنع ممن أرادها وقال: ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ٢١-٢٣] والقطوف جمع قطف، وهو ما يقطف. والقطف بالفتح الفعل أي ثمارها دانية قريبة ممن يتناولها فيأخذها كيف يشاء. قال البراء بن عازب: يتناول الثمرة وهو نائم وقال تعالى: ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ [الإنسان: ١٤] قال ابن عباس: إذا هم أن يتناول من ثمارها تدلت له حتى يتناول ما يريد. وقال غيره: قريب إليهم مذللة كيف شاءوا، فهم يتناولونها قيامًا وقعودًا ومضطجعين، فيكون كقوله: ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾.

[(٢)] قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٢، ٧٣] وقال تعالى: ﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ [الرعد: ٣٥] وقال تعالى: ﴿ وَأَمْدَدْنَٰهُم

---

(١) ١٢٤ حادي الأرواح.

(٢) ١٣٤ حادي الأرواح.

بِفَـٰكِهَةٍ وَلَحۡمٍ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ۝ يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسًا لَّا لَغۡوٌ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٌ﴾ [الطور: ٢٢، ٢٣] وقال تعالىٰ: ﴿يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخۡتُومٍ ۝ خِتَـٰمُهُۥ مِسۡكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَـٰفِسُونَ ۝﴾ [المطففين: ٢٥، ٢٦] .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي الزبير عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**يأكل أهل الجنة ويشربون، ولا يمتخطون، ولا يتغوطون، ولا يبولون، طعامهم ذلك جشاء كريح المسك، يلهمون التسبيح والتكبير، كما تلهمون النفس**» ورواه أيضًا من رواية طلحة بن نافع عن جابر، وفيه قالوا: فما بال الطعام؟ قال: «**جشاء ورشح كرشح المسك، يلهمون التسبيح والحمد**»[1] .

وفي المسند وسنن النسائي بإسناد صحيح علىٰ شرط الصحيح من حديث الأعمش عن ثمامة بن عقبة عن يزيد بن أرقم قال: جاء رجل من أهل الكتاب إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا أبا القاسم! تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون قال: «**نعم، والذي نفس محمد بيده، إن أحدهم ليعطىٰ قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع والشهوة**» قال: فإن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة، وليس في الجنة أذىٰ، قال: «**تكون حاجة أحدهم رشحا يفيض من جلودهم: كرشح المسك، فيضمر بطنه**»[2]، ورواه الحاكم في صحيحه، ولفظه: أتىٰ النبي ﷺ رجل من اليهود، فقال: يا أبا القاسم! ألست تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون؟ ـ ويقول لأصحابه: إن أقر لي بهذا خصمته ـ فقال

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٨٣٥) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٢٤).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣٦٧) والنسائي في الكبرىٰ (٦/ ٤٥٤ رقم ١١٤٧٨) وابن حبان (١٦/ ٤٤٣ رقم ٧٤٢٤) وفي موارد الظمآن (رقم ٢٦٣٧) والدارمي (رقم ٢٨٢٥) وابن أبي شيبة (٧/ ٣٣ رقم ٣٣٩٩٤) والطبراني في الأوسط (٢/ ٢٠٢ رقم ١٧٢٢) وفي الكبير (٥/ ١٧٧ رقم ٥٠٠٥) وعبد بن حميد (رقم ٢٦٣) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٤١٦): رواه كله الطبراني في الأوسط وفي الكبير بنحوه وأحمد... ورواه البزار ورجال أحمد والبزار رجال الصحيح غير ثمامة بن عقبة وهو ثقة. وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٢٩١ رقم ٥٦٨٥): رواه أحمد والنسائي ورواته محتج بهم في الصحيح.

رسول الله ﷺ: «**بلى والذي نفس محمد بيده، إن أحدهم ليعطى قوة مائة رجل في المطعم والمشرب والشهوة والجماع**»[١] فقال له اليهودي: فإن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة، فقال رسول الله ﷺ: «**حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل المسك، فإذا البطن قد ضمر**».

وقال الحسن بن عرفة: حدثنا خلف بن خليفة عن حميد الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن مسعود قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه، فيخر بين يديك مشويًا**»[٢]. وقد تقدم حديث أنس في قصة عبد الله بن سلام في أول طعام يأكله أهل الجنة وشرابهم على أثره، وحديث أبي سعيد الخدري: «**تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفأها الجبار بيده نزلًا لأهل الجنة**»[٣].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الزخرف.

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (رقم ١٤٥٩) وهناد في الزهد (١/ ٧٣ رقم ٦٣) والطبراني في الأوسط (٨/ ٣٦١ رقم ٨٨٧٦). وانظر: فتح الباري (١/ ٣٧٨) حيث نقل الحافظ ابن حجر تصحيح الحاكم لهذا الحديث.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور (رقم ١١٧١) والشاشي في مسنده (٢/ ٢٨٢ رقم ٨٥٨) وتمام في فوائده (٢/ ٤٧-٤٨ رقم ١١٠٣).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٢٠) ومسلم (رقم ٢٧٩٢) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٧٣) وشرح النووي (١٧/ ١٣٥).

سُورَةُ الدُّخَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ ﴾.

[١]هذه هي ليلة القدر قطعًا لقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ [القدر: ١]. ومن زعم أنها ليلة النصف من شعبان فقد غلط.

قال سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد: ليلة القدر ليلة الحكم[٢].

وقال سفيان عن محمد بن سوقة عن سعيد بن جبير: يؤذن للحجاج في ليلة القدر، فيكتبون بأسمائهم وأسماء آبائهم، فلا يغادر منهم أحد، ولا يزاد فيهم ولا ينقص منهم[٣]. وقال ابن علية ثنا ربيعة بن كلثوم قال: قال رجل للحسن وأنا أسمع: أرأيت ليلة القدر في كل رمضان هي؟ قال: نعم والله الذي لا إله إلا هو، إنها لفي كل رمضان، وإنها لليلة القدر يفرق فيها كل أمر حكيم، فيها يقضي الله كل أجل وعمل ورزق إلىٰ مثلها[٤]، وذكر يوسف بن مهران عن ابن عباس قال: يكتب من أ م الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر، حتىٰ الحجاج يقال يحج فلان ويحج فلان[٥].

وذكر عن سعيد بن جبير في هذه الآية: إنك لترىٰ الرجل يمشي في الأسواق، وقد

---

(١) ٢٢ شفاء.

(٢) أخرجه عبدالرزاق في تفسيره (٣/ ٣٨٦) وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٤٥٢ رقم ١٩٤٢٧) وابن أبي شيبة (٢/ ٢٥٢ رقم ٨٦٩٢) والبيهقي في الشعب (٣/ ٣٢١ رقم ٣٦٦٠).

(٣) أخرجه الصنعاني في تفسيره (٣/ ٢٠٥) والطبري في تفسيره (٣٠/ ٢٥٩).

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٤٠٠) وعزاه إلىٰ عبد بن حميد ومحمد بن نصر وابن جرير. وانظر: تفسير القرطبي (١٦/ ١٢٧) وتفسير الطبري (٢٥/ ١٠٨).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٢٨٧ رقم ١٨٥٢٧) وانظر: تفسير السيوطي (٧/ ٣٩٩).

وقع اسمه في الموتى[١].

وقال مقاتل: يقدر الله في ليلة القدر أمر السنة في بلاده وعباده إلى السنة القابلة[٢].

وقال أبو عبد الرحمن السلمي: يقدر أمر السنة كلها في ليلة القدر، وهذا هو الصحيح: أن القدر مصدر قدر الشيء يقدره قدرًا، فهي ليلة الحكم والتقدير[٣].

وقالت طائفة: ليلة القدر ليلة الشرف والعظمة، من قولهم: لفلان قدر في الناس، فإن أراد صاحب هذا القول أن لها قدرًا وشرفًا مع ما يكون فيها من التقدير فقد أصاب، وإن أراد أن معنى القدر فيها هو الشرف والخطر، فقد غلط إن الله سبحانه أخبر أن فيها يفرق، أي يفصل الله ويبين ويبرم كل أمر حكيم.

***

﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ ﴾.

[٤]هم إنما خرجوا باختيارهم، وقد أخبر أنه هو الذي أخرجهم، فالإخراج فعله حقيقة، والخروج فعلهم حقيقة، ولولا إخراجه لما خرجوا.

وهذا بخلاف قوله: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ [نوح: ١٧، ١٨].

وقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ﴾ [الحشر: ٢]، وقوله: ﴿ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ [النحل: ٧٨] فإن هذا إخراج لا صنع لهم فيه، فإنه بغير اختيارهم وإرادتهم.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما (١٠/ ٣٢٨٧ رقم ١٨٥٣٠) والضياء في المختارة (١٠/ ٢٣٦ رقم ٢٤٨) والحاكم (٢/ ٤٨٧ رقم ٣٦٧٨) والبيهقي في الشعب (٣/ ٣٢١ رقم ٣٦٦١) وفي فضائل الأوقات (رقم ٨٢) كلهم عن ابن عباس.

(٢) انظر: شعب الإيمان للبيهقي (٣/ ٣١٩-٣٢٠) وفضائل الأوقات له أيضاً (صـ٢١٣).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٥/ ١٠٨).

(٤) ٥٩ شفاء.

وأما قوله: ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ [الأنفال: ٥] فيحتمل أن يكون إخراجًا بقدره ومشيئته، فيكون من الأول، ويحتمل أن يكون إخراجًا يوجبه بأمره فلا يكون من هذا، فيكون الإخراج في كتاب الله ثلاثة أنواع: أحدها: إخراج الخارج باختياره ومشيئته. والثاني إخراجه قهرًا وكرهًا. والثالث إخراجه أمرًا وشرعًا.

***

﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

(١) إنكاره سبحانه على من زعم أنه لم يخلق الخلق لغاية ولا لحكمة، كقوله: ﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا ﴾ [المؤمنون: ١١٥] وقوله: ﴿ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦] وقوله: ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

والحق هو الحكم والغايات المحمودة التي لأجلها خلق ذلك كله، وهو أنواع كثيرة:

منها: أن يعرف الله تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وآياته.

ومنها: أن يحب ويعبد ويشكر ويذكر ويطاع.

ومنها: أن يأمر وينهى ويشرع الشرائع.

ومنها: أن يدبر الأمر ويبرم القضاء ويتصرف في المملكة بأنواع التصرفات.

ومنها: أن يثيب ويعاقب، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، فيوجد أثر عدله وفضله موجودا مشهودا، فيحمد على ذلك ويشكر.

ومنها: أن يعلم خلقه أنه لا إله غيره ولا رب سواه.

ومنها: أن يصدق الصادق فيكرمه، ويكذب الكاذب فيهينه.

---

(١) ١٩٨ شفاء.

ومنها: ظهور آثار أسمائه وصفاته على تنوعها وكثرتها في الوجود الذهني والخارجي، فيعلم عباده ذلك علما مطابقًا لما في الواقع.

ومنها: شهادة مخلوقاته كلها بأنه وحده ربها وفاطرها ومليكها، وأنه وحده إلهها ومعبودها.

ومنها: ظهور أثر كماله المقدس، فإن الخلق والصنع لازم كماله، فإنه حي قدير، ومن كان ذلك كذلك لم يكن إلا فاعلا مختارًا.

ومنها: أن يظهر أثر حكمته في المخلوقات بوضع كل منها في موضعه، الذي يليق به ومحبته[1] على الوجه الذي تشهد العقول والفطر بحسنه، فتشهد حكمته الباهرة.

ومنها: أنه سبحانه يحب أن يجود وينعم ويعفو ويغفر ويسامح، ولابد من لوازم ذلك خلقا وشرعًا.

ومنها: أنه يحب أن يثنى عليه ويمدح ويمجد ويسبح ويعظم.

ومنها: كثرة شواهد ربوبيته ووحدانيته وإلهيته إلى غير ذلك من الحكم، التي تضمنها الخلق، فخلق مخلوقاته بسبب الحق، ولأجل الحق، وخلقها ملتبس بالحق، وهو في نفسه حق، فمصدره حق، وغايته حق، وهو يتضمن للحق.

وقد أثنى على عباده المؤمنين حيث نزهوه عن إيجاد الخلق لا لشيء ولا لغاية، فقال تعالى: ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وأخبر أن هذا ظن أعدائه، لا ظن أوليائه، فقال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [ص: ٢٧].

وكيف يتوهم أنه عرفه من يقول: إنه لم يخلق لحكمة مطلوبة له، ولا أمر لحكمة ولا نهى لحكمة، وإنما يصدر الخلق والأمر عن مشيئة وقدرة محضة، لا لحكمة ولا

---

(١) كذا بالأصل، ولعلها «ومجيئه». (ج).

لغاية مقصودة، وهل هذا إلا إنكار لحقيقة حمده، بل الخلق والأمر إنما قام بالحكم والغايات، فهما مظهران بحمده وحكمته، فإنكار الحكمة إنكار لحقيقة خلقه وأمره، فإن الذي أثبته المنكرون من ذلك ينزه عنه الرب ويتعالى عن نسبته إليه، فإنهم أثبتوا خلقًا وأمرًا لا رحمة فيه ولا مصلحة ولا حكمة، بل يجوز عندهم أو يقع أن يأمر بما لا مصلحة للمكلف فيه البتة، وينهى عما فيه مصلحة، والجميع بالنسبة إليه سواء، ويجوز عندهم أن يأمر بكل ما نهى عنه، وينهى عن جميع ما أمر به، ولا فرق بين هذا وهذا، إلا لمجرد الأمر والنهي.

ويجوز عندهم أن يعذب من لم يعصه طرفة عين، بل أفنى عمره في طاعته وشكره وذكره، وينعم على من لم يطعه طرفة عين، بل أفنى عمره في الكفر به والشرك والظلم والفجور، فلا سبيل إلى أن يعرف خلاف ذلك منه إلا بخبر الرسول، وإلا فهو جائز عليه. وهذا من أقبح الظن وأسوئه بالرب سبحانه، وتنزيهه عنه كتنزيهه عن الظلم والجور، بل هذا هو عين الظلم الذي يتعالى الله عنه.

والعجب العجاب أن كثيرا من أرباب هذا المذهب ينزهونه عما وصف به نفسه من صفات الكمال ونعوت الجلال، ويزعمون أن إثباتها تجسيم وتشبيه، ولا ينزهونه عن هذا الظلم والجور، ويزعمون أنه عدل وحق، وأن التوحيد عندهم لا يتم إلا به، كما لا يتم إلا بإنكار استوائه على عرشه وعلوه فوق سماواته وتكلمه وتكليمه وصفات كماله، فلا يتم التوحيد عند هذه الطائفة إلا بهذا النفي، وذلك الإثبات، والله ولي التوفيق.

[1]قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥] وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧] وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥].

والحق الذي خلق به ولأجله الخلق هو عبادة الله وحده التي هي كمال محبته

---

(١) ٦٨ روضة المحبين.

والخضوع والذل له، ولوازم عبوديته من الأمر والنهي والثواب والعقاب، ولأجل ذلك أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وخلق الجنة والنار، والسماوات والأرض إنما قامت بالعدل الذي هو صراط الله الذي هو عليه وهو أحب الأشياء [إلى الله تعالى] قال الله تعالى حاكيًا عن نبيه هود ﵇: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٦] فهو على صراطٍ مستقيم في شرعه وقدره، وهو العدل الذي به ظهر الخلق والأمر والثواب والعقاب، وهو الحق الذي به وله خلقت السموات والأرض وما بينهما، ولهذا قال المؤمنون في عبادتهم: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ ﴾ [آل عمران: ١٩١] فنزهوا ربهم سبحانه أن يكون خلق السماوات عبثًا لغير حكمة ولا غايةٍ محمودة، وهو سبحانه يحمد لهذه الغايات المحمودة، كما يُحمد لذاته وأوصافه، فالغايات المحمودة في أفعاله هي الحكمة التي يحبها ويرضاها.

***

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾.

[(١)] السياق يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته، فانظر إلى قوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ [الدخان: ٤٩] كيف نجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير.

***

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

---

(١) ٩ بدائع جـ٤.

[١]قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ﴾ [الكهف: ٣٠، ٣١].

قال جماعة من المفسرين: السندس ما رق من الديباج، والإستبرق ما غلظ منه[٢].

وقالت طائفة: ليس المراد به الغليظ، ولكن المراد به الصفيق.

وقال الزجاج: هما نوعان من الحرير، وأحسن الألوان الأخضر، وألين اللباس الحرير، فجمع لهم بين حسن منظر اللباس والتذاذ العين به، وبين نعومته والتذاذ الجسم به.

وقال تعالى: ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [الحج: ٢٣] وهاهنا مسألة، وهذا موضع ذكرها، وهي أن الله ﷻ أخبر أن لباس أهل الجنة حرير، وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»[٣] متفق على صحته من حديث عمر بن الخطاب وأنس بن مالك.

وقد اختلف في المراد بهذا الحديث، فقالت طائفة من السلف والخلف: إنه لا يلبس الحرير في الجنة، ويلبس غيره من الملابس.

قالوا وأما قوله تعالى: ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ فمن العام المخصوص.

وقال الجمهور: وهذا من الوعيد الذي له حكم أمثاله من نصوص الوعيد، التي تدل على أن الفعل مقتض لهذا الحكم، وقد يتخلف عنه لمانع، وقد دل النص والإجماع على أن التوبة مانعة من لحوق الوعيد، ويمنع من لحوقه أيضًا الحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، ودعاء المسلمين، وشفاعة من يأذن الله له في الشفاعة

(١) ١٤١ حادي الأرواح.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٢٤٣) (٢٥/ ١٣٥) وعمدة القاري (١٣/ ١٧٠) (٢٢/ ٢٢٦).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٥٨٣٢، ٥٨٣٤) ومسلم (رقم ٢٠٧٣) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٢٨٨-٢٩٨).

فيه، وشفاعة أرحم الراحمين إلى نفسه. فهذا الحديث نظير الحديث الآخر: «من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة»[1].

***

﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝ ﴾.

[2]المقام الأمين، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ [الدخان: ٥١] والمقام موضع الإقامة، والأمين الآمن من كل سوء وآفة ومكروه، وهو الذي قد جمع صفات الأمن كلها، فهو آمن من الزوال والخراب وأنواع النقص، وأهله آمنون فيه من الخروج والنغص والنكد.

والبلد الأمين الذي قد أمن أهله فيه مما يخاف منه سواهم.

وتأمل كيف ذكر سبحانه الأمن في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ [الدخان: ٥١]. وفي قوله تعالى: ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾ [الدخان: ٥٥].

فجمع لهم بين أمن المكان وأمن الطعام، فلا يخافون انقطاع الفاكهة، ولا سوء عاقبتها ومضرتها، وأمن الخروج منها، فلا يخافون ذلك، وأمن الموت فلا يخافون فيها موتًا.

[3]وأما قوله: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الدخان: ٥٦] فهذا الاستثناء هو لتحقيق دوام الحياة وعدم ذوق الموت، وهو يجعل النفي الأول العام بمنزلة النص، الذي لا يتطرق إليه استثناء البتة؛ إذ لو تطرق إليه استثناء فرد من أفراده لكان أولى بذكره من العدول عنه إلى الاستثناء المنقطع، فجرى هذا الاستثناء مجرى

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٥٧٥) ومسلم (رقم ٢٠٠٣) بلفظ: «من شرب الخمر في الدنيا، ثم لم يتب منها حرمها في الآخرة» وانظر: فتح الباري (١٠/ ٣٢-٣٣) وشرح النووي (١٣/ ١٧٣).
(٢) ٧٥ حادي الأرواح.
(٣) ٣١٩ مدارج جـ١.

التأكيد، والتنصيص على حفظ العموم، وهذا جارٍ في كل منقطع، فتأمله فإنه من أسرار العربية.

[(١)] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ۝ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الدخان: ٥١-٥٦].

فجمع لهم بين حسن المنزل وحصول الأمن فيه من كل مكروه، واشتماله على الثمار والأنهار، وحسن اللباس وكمال العشرة لمقابلة بعضهم بعضًا، وتمام اللذة بالحور العين، ودعائهم بجميع أنواع الفاكهة مع أمنهم من انقطاعها ومضرتها وغائلتها، وختام ذلك أعلمهم بأنهم لا يذوقون فيها هناك موتًا.

والحور جمع حوراء، وهي المرأة الشابة الحسناء الجميلة البيضاء شديدة سواد العين.

وقال زيد بن أسلم: الحوراء التي يحار فيها الطرف، وعين حسان الأعين.

وقال مجاهد: الحوراء التي يحار فيها الطرف من رقة الجلد، وصفاء اللون.

وقال الحسن: الحوراء شديدة بياض العين، شديدة سواد العين.

[(٢)] وقوله تعالى: ﴿ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ قال أبو عبيدة: جعلناهم أزواجًا، كما يزوج النعل بالنعل، جعلناهم اثنين اثنين، وقال يونس: قرناهم بهن، وليس من عقد التزويج قال: والعرب لا تقول تزوجت بها، وإنما تقول: تزوجتها، قال ابن نصر: هذا والتنزيل يدل على قاله يونس، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾ [الأحزاب: ٣٧] ولو كان على تزوجت بها، لقال زوجناك بها. وقال ابن سلام: تميم

---

(١) ١٥٦ حادي الأرواح.

(٢) ١٥٧ حادي الأرواح.

تقول: تزوجت امرأة وتزوجت بها، وحكاه الكسائي أيضًا، وقال الأزهري: تقول العرب: زوجته امرأة، وتزوجت امرأة، وليس من كلامهم: تزوجت بامرأة. وقوله تعالى: ﴿ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ أي قرناهم. وقال الفراء: هي لغة في أزدشنوءة، قال الواحدي: وقول أبي عبيدة في هذا أحسن؛ لأنه جعله من التزويج الذي هو بمعنى جعل الشيء زوجًا، لا بمعنى عقد النكاح، ومن هذا يجوز أن يقال: كان فردًا فزوجته بآخر، كما يقال شفعته بآخر، وإنما تمتنع الباء عند من يمنعها إذا كان بمعنى عقد التزويج. «قلت»: ولا يمتنع أني يراد الأمران معًا، فلفظ التزويج يدل على النكاح، كما قال مجاهد: أنكحناهم الحور، ولفظ الباء تدل على الاقتران والضم وهذا أبلغ من حذفها، والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الدخان

والحمد لله رب العالمين





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ ﴾.

[(١)] الإفك هو الكذب وهو في القول، والإثم هو الفجور وهو في الفعل، والكذب يدعو إلى الفجور، كما في الحديث الصحيح: «**إن الكذب يدعو إلى الفجور، وإن الفجور يدعو إلى النار**»[(٢)]. فالذي قاله صحيح.

وأما كل معتد أثيم، ففيه معنى ثانٍ غير ما ذكره، وهو أن العدوان مجاوزة الحد الذي حد للعبد، فهو ظلم في القدر والوصف. وأما الإثم فهو محرم الجنس، ومن تعاطى تعدي الحدود تخطى إلى الجنس الآخر، وهو الإثم.

معنى ثالث وهو أن المعتدي الظالم لعباد الله تعالى عدوانا عليهم. والأثيم: الظالم لنفسه بالفجور، فكان تقديمه هنا على الأثيم أولى، لأنه في سياق ذمه، والنهي عن طاعته، فمن كان معتديا على العباد ظالما لهم، فهو أحرى بأن لا تطيعه وتوافقه.

وفيه معنى رابع: وهو أنه قدمه على الأثيم، ليقترن بما قبله، وهو وصف المنع للخير، فوصفه بأنه لا خير فيه للناس، وأنه مع ذلك معتد عليهم، فهو متأخر عن المناع، لأنه يمنع خيره أولا ثم يعتدي عليهم ثانيا، ولهذا يحمد الناس من يوجد لهم الراحة، ويكف عنهم الأذى، وهذا هو حقيقة التصوف، وهذا لا راحة يوجدها ولا أذى يكفه.

***

﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝ ﴾.

---

(١) ٦٨ بدائع جـ١.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٠٩٤) ومسلم (رقم ٢٦٠٧) وانظر: شرح النووي (١٦/ ١٦٠).

[(١)] قالوا في تفسيرها: لا يخافون وقائع الله بهم، كوقائعه بمن قبلهم من الأمم.

[(٢)] اعلم أن ورود [أم] هذه على قسمين: أحدهما: ما تقدمه استفهام صريح بالهمزة. وحكمها ما تقدم، وهو الأصل فيها، والأخية التي يرجع إليها ما خرج عن ذلك كله.

والثاني: ورودها مبتدأة مجردة من استفهام لفظي سابق عليها نحو قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ [الكهف: ٩].

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾ [الطور: ٣٠] وقوله: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [آل عمران: ١٤٢] ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ ﴾ [المؤمنون: ٦٩] ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ ﴾ [الزخرف: ١٦] ﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ ﴾ [الطور: ٣٩] ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ ﴾ [الزخرف: ٥٢] ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا ﴾ [الروم: ٣٥] وهو كثير جدًّا تجد فيه [أم] مبتدءًا بها ليس قبلها استفهام في اللفظ، وليس هذا استفهام استعلام، بل تقريع وتوبيخ وإنكار.

وليس بإخبار فهو إذا متضمن لاستفهام سابق مدلول عليه بقوة الكلام وسياقه، ودلت [أم] عليه، لأنها لا تكون إلا بعد تقدم استفهام كأنه يقول أيقولون صادق أم يقولون شاعر؟ وكذلك أم يقولون تقوله أي أتصدقونه أم تقولون تقوله؟ وكذلك ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ ﴾ أي: أبلغك خبرهم أم حسبت أنهم كانوا من آياتنا عجبًا.

وتأمل كيف تجد هذا المعنى باديًا على صفحات قوله تعالى: ﴿ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾ [النمل: ٢٠] كيف تجد المعنى أحضر أم كان من الغائبين.

وهذا يظهر كل الظهور فيما إذا كان الذي دخلت عليه أم له ضد، وقد حصل التردد

---

(١) ٥١ مدارج جـ٢.

(٢) ٢٠٦ بدائع جـ١.

بينهما، فإذا ذكر أحدهما استغني به عن ذكر الآخر، لأن الضد يخطر بالقلب، وهو عند شعوره بضده.

فإذا قلت: ما لي لا أرى زيدا أم هو في الأموات؟ كان المعنى الذي لا معنى للكلام سواه: أحي هو أم في الأموات؟

***

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

كذلك قوله تعالى: ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ ﴾ معناه أهو خير مني أم أنا خير منه، وكذلك قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ﴾ [البقرة: ٢١٤] هو استفهام إنكار معادل لاستفهام مقدر في قوة الكلام، فإذا قلت: لم فعلت هذا أم حسبت أن لا أعاقبك؟ كان معناه: أحسبت أن أعاقبك، فأقدمت على العقوبة أم حسبت أني لا أعاقبك فجهلتها.

وكذلك قوله: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ﴾ أي أحسبتم أن تدخلوا الجنة بغير جهاد فتكونوا جاهلين، أم لم تحسبوا ذلك فتكونوا مفرطين.

وكذلك إذا قلت أم حسبت أن تنال العلم بغير جد واجتهاد، معناه: أحسبت أن تناله بالبطالة والهوينا، فأنت جاهل أم لم تحسب ذلك فأنت مفرط، وكذلك: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ [الجاثية: ٢١] أي أحسبوا هذا فهم مغترون، أم لم يحسبوه فما لهم مقيمون على السيئات، وعلى هذا سائر ما يرد عليك من هذا الباب.

وتأمل كيف يذكر سبحانه القسم الذي يظنونه ويزعمونه فينكره عليهم، وأنه مما لا ينبغي أن يكون، ويترك ذكر القسم الآخر الذي لا يذهبون إليه، فتردد الكلام بين

قسمين، فيصرح بإنكار أحدهما، وهو الذي سيق لإنكاره، ويكتفي منه بذكر الآخر، وهذه طريقة بديعة عجيبة في القرآن نذكرها في باب الأمثال وغيرها، وهي من باب الاكتفاء عن غير الأهم بذكر الأهم لدلالته عليه، فأحدهما مذكور صريحًا، والآخر ضمنًا، ولذلك أمثلة في القرآن يحذف منها الشيء للعلم بموضعه، فمنها قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم ﴾ ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا ﴾ وهو كثير جدًّا بواو العطف من غير ذكر عامل يعمل في إذ، لأن الكلام في سياق تعداد النعم وتكرار الأقاصيص، فيشير بالواو العاطفة إليها، كأنها مذكورة في اللفظ، لعلم المخاطب بالمراد، ولما خفي هذا علىٰ بعض ظاهرية النحاة قال إن [أو] زائدة هنا، وليس كذلك.

ومن هذا الباب [الواو] المتضمنة معنىٰ [رب] فإنك تجدها في أول الكلام كثيرًا، إشارة منهم إلىٰ تعداد المذكور بعدها من فخر أو مدح أو غير ذلك، فهذه كلها معان مضمرة في النفس، وهذه الحروف عاطفة عليها، وربما صرحوا بذلك المضمر، كقول ابن مسعود: دع ما في نفسك، وإن أفتوك عنه وأفتوك.

ومن هذا الباب حذف كثير من الأجوبة في القرآن، لدلالة الواو عليها، لعلم المخاطب أن الواو عاطفة، ولا يعطف بها إلا علىٰ شيء، كقوله تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ ﴾ [يوسف: ١٥] وكقوله تعالىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ [الزمر: ٧٣] وهذا الباب واسع في اللغة، فهذا ما في هذه المسألة، وكان قد وقع لي هذا بعينه أمام المقام بمكة، وكان يجول في نفسي، فأضرب عنه صفحا، لأني لم أره في مباحث القوم، ثم رأيته بعد لفاضلين من النحاة:

أحدهما حام حوله وما ورد ولا أعرف اسمه.

والثاني أبو القاسم السهيلي رحمه الله، فإنه كشفه وصرح به، وإذا لاحت الحقائق فكن أسعد الناس بها، وإن جفاها الأغمار، والله الموفق للصواب.

***

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

[(1)] قال ابن عباس: علم ما يكون قبل أن يخلقه. وقال أيضا: على علم قد سبق عنده. وقال أيضا: يريد الأمر الذي سبق له في أم الكتاب. وقال سعيد بن جبير ومقاتل: على علمه فيه. وقال أبو إسحاق: أي على ما سبق في علمه أنه ضال قبل أن يخلقه. وهذا الذي ذكره جمهور المفسرين، وقال الثعلبي: على علم منه بعاقبة أمره. قال وقيل على ما سبق في علمه أنه ضال قبل أن يخلقه، وكذلك ذكر البغوي وأبو الفرج بن الجوزي، قال: على علمه السابق فيه أنه لا يهتدي.

وذكر طائفة منهم المهدوي وغيره: قولين في الآية هذا أحدهما[(2)]: قال المهدوي: فأضله الله على علم علمه منه بأنه لا يستحقه. قال: وقيل على علم من عابد الصنم أنه لا ينفع ولا يضر.

وعلى الأول يكون ﴿ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ حال من الفاعل. المعنى: أضله الله عالما بأنه من أهل الضلال في سابق علمه. وعلى الثاني حال من المفعول، أي أضله الله في حال علم الكافر بأنه ضال.

قلت: وعلى الوجه الأول فالمعنى: أضله الله عالما به وبأقواله وما يناسبه ويليق به ولا يصلح له غيره قبل خلقه وبعده، وأنه أهل للضلال، وليس أهلا أن يهدي، وأنه لو هدى لكان قد وضع الهدى في غير محله، وعند من لا يستحقه، والرب تعالى حكيم، إنما يضع الأشياء في محالها اللائقة بها.

فانتظمت الآية على هذا القول في إثبات القدر والحكمة، التي لأجلها قدر عليه الضلال، وذكر العلم إذ هو الكاشف المبين لحقائق الأمور، ووضع الشيء في

---

(١) ٤ شفاء.

(٢) ذكر القول الثاني في (صـ٣٩) واستطرد هنا في البحث جزاه الله خيرًا. اختصرناه فمن أراده فليرجع إليه. (ج).

مواضعه، وإعطاء الخير من يستحقه، ومنعه من لا يستحقه، فإن هذا لا يحصل بدون العلم، فهو سبحانه أضله على علمه بأحواله، التي تناسب ضلاله وتقتضيه وتستدعيه.

وهو سبحانه كثيرًا ما يذكر ذلك مع إخباره بأنه أضل الكافر، كما قال: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقال تعالىٰ: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦، ٢٧].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ [المائدة: ١٠٨] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر: ٣] ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [إبراهيم: ٢٧] ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ [غافر: ٣٤] ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٣٥] ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٥٩].

وقد أخبر سبحانه أنه يفعل ذلك عقوبة لأرباب هذه الجرائم، وهذا إضلال ثان بعد الإضلال الأول، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٥٥] وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٩، ١١٠].

(١)وفي قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الجاثية: ٢٣] قول آخر أنه على علم

---

(١) ٣٩ شفاء.

الضال، كما قيل: على علم منه أن معبوده لا ينفع ولا يضر، فيكون المعنى: أضله الله مع علمه الذي تقوم به عليه الحجة لم يضله على جهل وعدم علم هذا يشبه قوله: ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقوله: ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٨]، وقوله: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾ [النمل: ١٤] ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ [الإسراء: ٥٩]. وقول موسى لفرعون: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦] وقوله: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣] وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة: ١١٥] ونظائره كثيرة.

وعلى هذا التقدير فهو ضال عن سلوك طريق رشده، وهو يراها عيانًا كما في الحديث: «**أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه**»(١). فإن الضال عن الطريق قد يكون متبعًا لهواه، عالمًا بأن الرشد والهدى في خلاف ما يعمل.

ولما كان الهدى هو معرفة الحق والعمل به كان له ضدان: الجهل، وترك العمل به.

فالأول ضلال في العلم، والثاني ضلال في القصد والعمل، فقد وقع قوله: ﴿ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الدخان: ٣٢] وفي قوله: ﴿ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الجاثية: ٢٣] وفي قوله: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [القصص: ٧٨].

فالأول يرجع العلم فيه إلى الله قولًا واحدًا، والثاني والثالث فيهما قولان، والراجح في قوله: ﴿ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ أن يكون كالأول، وهو قول عامة السلف، والثالث فيه قولان محتملان، وقد ذكر توجيههما، والله أعلم. والمقصود ذكر مراتب القضاء

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٢/ ٢٨٤-٢٨٥ رقم ١٧٧٨) والطبراني في الصغير (رقم ٥٠٧) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٧١ رقم ١١٢٢) وانظر: عمدة القاري (١٢/ ٣٩) وفيض القدير (١/ ٥١٨).

والقدر: علمًا وكتابة ومشيئة وخلقًا.

[١]وأما الغشاوة فهو غطاء العين، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ﴾ [الجاثية: ٢٣] وهذا الغطاء سرى إليها من غطاء القلب؛ فإن ما في القلب يظهر على العين من الخير والشر، فالعين مرآة القلب تظهر ما فيه.

وأنت إذا أبغضت رجلًا بغضًا شديدًا أو أبغضت كلامه ومجالسته تجد على عينيك غشاوة عند رؤيته ومخالطته، فتلك أثر البغض والإعراض عنه وغلظت على الكفار عقوبة لهم على إعراضهم ونفورهم عن الرسول، وجعل الغشاوة عليها يشعر بالإحاطة على ما تحته كالعمامة، ولما عشوا عن ذكره الذي أنزله صار ذلك العشاء غشاوة على أعينهم، فلا تبصر مواقع الهدى.

***

﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

[٢]وهؤلاء قوم عطَّلوا المصنوعات عن صانعها، وقالوا ما حكاه الله عنهم: ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وهؤلاء فرقتان، فرقة قالت: إن الخالق سبحانه لما خلق الأفلاك متحركة أعظم حركة درات عليه فأحرقته، ولم يقدر على ضبطها وإمساك حركاتها، وفرقة قالت: إن الأشياء ليس لها أول البتة...

***

﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

[٣]قال طاوس: أدركت ثلاثمائة من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء

(١) ٩٦ شفاء.

(٢ ٢٥٥ إغاثة جـ٢.

(٣) ٦٦ طريق الهجرتين.

بقدر، وقال أيوب السختياني: أدركت الناس وما كلامهم إلا: إن قضى، إن قدر. وقال عطاء عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٩] قال: كتب الله أعمال بني آدم وما هم عاملون إلى يوم القيامة، قال: والملائكة تستنسخ ما يعمل بنو آدم يومًا بيوم، فذلك قوله: ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وفي الآية قول آخر: إن استنساخ الملائكة هو كتابتهم لما يعمل بنو آدم بعد أن يعملوه، وقد يقال وهو الأظهر: إن الآية تعم الأمرين، فيأمر الله ملائكته فتستنسخ من أم الكتاب أعمال بني آدم ثم يكتبونها عليهم إذا عملوها فلا تزيد على ما نسخوه من أم الكتاب ذرة ولا تنقصها...

[(١)] وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

وأكثر المفسرين على أن هذا الاستنساخ من اللوح المحفوظ، فتستنسخ الملائكة ما يكون من أعمال بني آدم قبل أن يعملوها، فيجدون ذلك موافقًا لما يعملونه، فيثبت الله تعالى منه ما فيه ثواب أو عقاب، ويطرح منه اللغو.

وذكر ابن مردويه في تفسيره من طرق إلى بقية عن أرطأة بن المنذر عن مجاهد عن ابن عمر يرفعه: إن أول ما خلق الله القلم، فأخذه بيمينه، وكلتا يديه يمين، فكتب الدنيا وما يكون فيها من عمل معمول من بر أو فجور، رطب أو يابس، فأحصاه عند الذكر. وقال اقرؤا إن شئتم: ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٩] فهل تكون النسخة إلا من شيء قد فرغ منه[(٢)]. وقال آدم ثنا

---

(١) ٢٤ شفاء.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٥/ ١٥٦) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٤٩ رقم ١٠٦) وابن المستفاض في القدر (رقم ٤١٦) قال الألباني في ظلال الجنة في تخريج السنة: إسناده حسن رجاله ثقات، وفي ابن مصفى كلام لا ينزل حديثه عن مرتبة الحسن وهو وبقية مدلسان،وقد صرحا بالتحديث.وأخرجه الآجري في الشريعة (صـ١٧٥) من طريق الربيع بن نافع عن بقية بن الوليد قال: حدثنا أرطأة بن المنذر به. فصح الحديث والحمد لله. انتهى كلام الألباني.

ورقاء عن عطاء بن السائب عن مقسم عن ابن عباس: ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ قال: تستنسخ الحفظة من أم الكتاب ما يعمل بنو آدم، فإنما يعمل الإنسان على ما استنسخ الملك من أم الكتاب[1].

وفي تفسير الأشجع عن سفيان عن منصور عن مقسم عن ابن عباس قال: كتب في الذكر عنده كل شيء هو كائن، ثم بعث الحفظة على آدم وذريته، وكل ملائكته ينسخون من الذكر ما يعمل العباد، ثم قرأ: ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[2].

وفي تفسير الضحاك عن ابن عباس في هذه الآية قال: هي أعمال أهل الدنيا الحسنات والسيئات، تنزل من السماء كل غداة وعشية ما يصيب الإنسان في ذلك اليوم أو الليلة: الذي يقتل، والذي يغرق، والذي يقع من فوق بيت، والذي يتردى من جبل، والذي يقع، والذي يحرق بالنار، فيحفظوا عليه ذلك كله، وإذا كان الشيء صعدوا به إلى السماء، فيجدونه كما في السماء مكتوبا في الذكر الحكيم[3].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الجاثية

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٤٣٠-٤٣١) وعزاه إلى ابن مردويه.

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٤٣١) وعزاه إلى ابن مردويه وأبي نعيم في الحلية.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٤٣٠) وعزاه إلى ابن مردويه وضعفه.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾.

(١) طالبهم بالدليل السمعي والعقلي.

***

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

(٢) قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠] وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤] وقال لرسوله ﷺ: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود: ١١٢].

فبين أن الاستقامة ضد الطغيان، وهو مجاوزة الحدود في كل شيء.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾ [فصلت: ٦] وقال تعالى: ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [الجن: ١٦، ١٧].

سئل صديق الأمة وأعظمها استقامة أبو بكر الصديق ﷺ عن الاستقامة، فقال: «أن

---

(١) ٩٦ مختصر الصواعق جـ١.

(٢) ١٠٣ مدارج جـ٢.

لا تشرك بالله شيئًا»[١] يريد الاستقامة على محض التوحيد.

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: «الاستقامة: أن تستقيم على الأمر والنهي ولا تروغ روغان الثعالب»[٢].

وقال عثمان بن عفان ﷺ: «استقاموا: أخلصوا العمل لله»[٣].

وقال علي بن أبي طالب ﷺ وابن عباس رضي الله عنهما: «استقاموا أدوا الفرائض»[٤].

وقال الحسن: «استقاموا على أمر الله، فعملوا بطاعته، واجتنبوا معصيته»[٥].

وقال مجاهد: «استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله، حتى لحقوا بالله»[٦].

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: استقاموا على محبته وعبوديته، فلم يلتفتوا عنه يمنة ولا يسرة. وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبدالله ﷺ قال: قلت: يا رسول الله ﷺ قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا غيرك. قال: «**قل آمنت بالله ثم استقم**»[٧]. وفيه عن ثوبان ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن**»[٨].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ١٨٧).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٤/ ١١٥) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ٢٣١) وأحمد في الزهد (ص١١٥) وابن المبارك في الزهد (رقم ٣٢٥) والقزويني في التدوين في أخبار قزوين (٢/ ٣٤٦).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٩٩).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٣٢).

(٥) انظر: تحفة الأحوذي (٩/ ٨٩).

(٦) انظر: تفسير الطبري (٢٤/ ١١٥) وتفسير ابن كثير (٤/ ٤٣٢).

(٧) أخرجه مسلم (رقم ٣٨) وانظر: شرح النووي (٢/ ٨-٩).

(٨) أخرجه الحاكم (١/ ٢٢٠ رقم ٤٤٧) وابن ماجه (رقم ٢٧٧) والبيهقي في الكبرى (١/ ٨٢ رقم ٣٨٩) والدارمي (رقم ٦٥٥) ومالك في الموطأ (رقم ٦٦) والطبراني في الصغير (رقم ٨) وفي الأوسط (٧/ ١١٦ رقم ٧٠١٩) وفي الكبير (٢/ ١٠١ رقم ١٤٤٤) وأحمد (٥/ ٢٧٦) والبزار (٦/ ٣٥٨ رقم ٢٣٦٧) والطيالسي (رقم ٩٩٦) وقال المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٩٧ رقم ٣١١): رواه ابن =

والمطلوب من العبد الاستقامة وهي السداد، فإن لم يقدر عليها فالمقاربة، فإن نزل عنها: فالتفريط والإضاعة، كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «سددوا وقاربوا، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله ﷺ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[(١)]. فجمع في هذا الحديث مقامات الدين كلها، فأمر بالاستقامة وهي السداد، والإصابة في النيات والأقوال والأعمال.

وأخبر في حديث ثوبان: أنهم لا يطيقونها، فنقلهم إلى المقاربة، وهي أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم: كالذي يرمي إلى الغرض، فإن لم يصبه يقاربه، ومع هذا فأخبرهم: أن الاستقامة والمقاربة لا تنجي يوم القيامة، فلا يركن أحد إلى عمله، ولا يعجب به، ولا يرى أن نجاته به، بل إنما نجاته برحمة الله وعفوه وفضله.

فالاستقامة كلمة جامعة آخذة بمجامع الدين، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد. والاستقامة تتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال والنيات، فالاستقامة فيها: وقوعها لله وبالله وعلى أمر الله. قال بعض العارفين: كن صاحب الاستقامة لا طالب الكرامة، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة، وربك يطالبك بالاستقامة. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله تعالى روحه يقول: أعظم الكرامة لزوم الاستقامة.

***

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ

=

ماجه بإسناد صحيح، والحاكم وقال: صحيح على شرطهما، ولا علة له سوى وهم أبي بلال الأشعري. وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٢٥) وشرح النووي (٢/ ٩) والتمهيد (٢٤/ ٣١٨-٣١٩).

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٦٧٣) ومسلم (رقم ٢٨١٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٩٧).

أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

[1]أخبر تعالىٰ أن مدة الحمل والفطام ثلاثون شهرًا، وأخبر في آية البقرة أن مدة تمام الرضاع حولين كاملين، فعلم أن الباقي يصلح مدة للحمل، وهو ستة أشهر، فاتفق الفقهاء كلهم علىٰ أن المرأة لا تلد لدون ستة أشهر، إلا أن يكون سقطا، وهذا أمر تلقاه الفقهاء عن الصحابة ﭫ.

فذكر البيهقي وغيره عن أبي حرب بن أبي الأسود الرملي [الديلمي] أن عمر أُتِيَ بامرأة قد ولدت لستة أشهر، فهم عمر برجمها، فبلغ ذلك عليا ﭬ، فقال: ليس عليها رجم. فبلغ ذلك عمر فأرسل إليه فسأله، فقال: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ [البقرة: ٢٣٣] وقال: ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف: ١٥] فستة أشهر حمله، وحولان تمام الرضاعة، لا حد عليها. فخلىٰ عنها[2].

وفي موطأ مالك أنه بلغه أن عثمان بن عفان ﭬ أتي بامرأة قد ولدت في ستة أشهر، فأمر بها أن ترجم، فقال علي: ليس ذلك عليها، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ وقال: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤] فأمر بها عثمان أن ترد، فوجدت قد رجمت[3].

وذكر داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس أنه كان يقول: إذا ولدت المرأة لتسعة أشهر كفاها من الرضاع أحد وعشرون شهرًا، وإذا وضعت لسبعة أشهر كفاها من الرضاع ثلاثة وعشرون شهرًا، وإذا وضعت لستة أشهر كفاها من الرضاع أربعة

---

(١) ١٥٨ تحفة المودود.

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرىٰ (٧/ ٤٤٢ رقم ١٥٣٢٦) وعبدالرزاق (٧/ ٣٤٩ رقم ١٣٤٤٣) وانظر: تأويل مختلف الحديث (صـ١٦٢) والمغني (٨٧/ ٩٧) وشرح الزرقاني (٤/ ١٧٩).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/ ٤٩١) وعبدالرزاق (٧/ ٣٥١ رقم ١٣٤٤٦) وصححه الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير (٣/ ٢١٩) وانظر: المغني (٩/ ٧٣).

وعشرون شهرًا، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾[(١)]، انتهىٰ كلامه.

وقال الله تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ [الرعد: ٨]. قال ابن عباس: ﴿ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ ﴾ ما تنقص عن التسعة أشهر وما تزيد عليها. ووافقه علىٰ هذا أصحابه: كمجاهد وسعيد بن جبير، وقال مجاهد أيضًا: إذا حاضت المرأة علىٰ ولدها كان ذلك نقصانًا من الولد ﴿ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ قال: إذا زادت علىٰ تسعة أشهر كان ذلك تمامًا لما نقص من ولدها، وقال أيضًا: الغيض: ما رأت الحامل من الدم في حملها، وهو نقصان من الولد. والزيادة ما زاد علىٰ التسعة أشهر وهو تمام النقصان. وقال الحسن: ما تغيض الأرحام ما كان من سقط، وما تزداد المرأة تلد لعشرة أشهر، وقال عكرمة تغيض الأرحام الحيض بعد الحمل، فكل يوم رأت فيه الدم حاملا ازداد به في الأيام طاهرًا، فما حاضت يومًا إلا ازدادت في الحمل يومًا. وقال قتادة: الغيض: السقط وما تزداد فوق التسعة أشهر.

وقال سعيد بن جبير: إذا رأت المرأة الدم علىٰ الحمل فهو الغيض للولد فهو نقصان في غذاء الولد وزيادة في الحمل.

تغيض وتزداد: فعلان متعديان، مفعولهما محذوف، وهو العائد علىٰ ما الموصولة. والغيض النقصان، ومنه: ﴿ وَغِيضَ ٱلْمَآءُ ﴾ [هود: ٤٤]. وضده: الزيادة.

والتحقيق في معنىٰ الآية: أنه يعلم مدة الحمل، وما يعرض فيها من الزيادة والنقصان، فهو العالم بذلك دونكم، كما هو العالم بما تحمل كل أنثىٰ، هل هو ذكر أو أنثىٰ، وهذا أحد أنواع الغيب، التي لا يعلمها إلا الله، كما في الصحيح عنه ﷺ: **«مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله: لا يعلم متىٰ تجيء الساعة إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متىٰ يجيء الغيث إلا الله، ولا يعلم ما في الأرحام إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله»**[(٢)].

---

(١) أخرجه الطبري (٢/ ٤٩١) والبيهقي في الكبرىٰ (٧/ ٤٤٢ رقم ١٥٣٢٥).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٦٢٧) وانظر: فتح الباري (١/ ١٢٣) (٨/ ٢٩١).

فهو سبحانه المنفرد بعلم ما في الرحم، وعلم وقت إقامته فيه، وما يزيد من بدنه، وما ينقص، وما عدا هذا القول، فهو من توابعه ولوازمه: كالسقط والتام، ورؤية الدم وانقطاعه. والمقصود ذكر مدة إقامة الحمل في البطن، وما يتصل بها من زيادة ونقصان.

وأما أقصاها فقال ابن المنذر: اختلف أهل العلم في ذلك، فقالت طائفة: أقصى مدته سنتان، وروي هذا القول عن عائشة، وروي عن الضحاك وهرم بن حيان: أن كل واحد منهما أقام في بطن أمه سنتين. وهذا قول سفيان الثوري، وفيه قول ثان: وهو أن مدة الحمل قد تكون ثلاث سنين، روينا عن الليث بن سعد أنه قال: حملت مولاة لعمر ابن عبد الله ثلاث سنين. وفيه قول ثالث: أن أقصى مدته أربع سنين. هكذا قال الشافعي.

قلت: وعن الإمام أحمد رحمه الله روايتان: أنه أربع سنين، والثانية سنتان، قال: واختلف فيه عن مالك، فالمشهور عنه عند أصحابه مثل ما قال الشافعي، وحكى ابن الماجشون عنه ذلك، ثم رجع لما بلغه قصة المرأة التي وضعت لخمس سنين، وفيه قول آخر [هو: قول رابع]: إن مدة الحمل قد تكون خمس سنين، حكي عن عباد بن العوام أنه قال: ولدت امرأة معنا في الدار لخمس سنين. قال: فولدته وشعره يضرب إلى هاهنا. وأشار إلى العنق، قال: ومر به طير، فقال: هش. وقد حكي عن ابن عجلان: أن امرأته كانت تحمل خمس سنين. وفيه قول خامس قال الزهري: إن المرأة تحمل ست سنين وسبع سنين، فيكون ولدها مخشوشا في بطنها. قال: وقد أتى سعيد بن مالك بامرأة حملت سبع سنين.

وقالت فرقة: لا يجوز في هذا الباب التحديد والتوقيت بالرأي، لأنا وجدنا لأدنى الحمل أصلا في تأويل الكتاب، وهو الأشهر الستة، فنحن نقول بهذا ونتبعه، ولم نجد لآخره وقتًا، وهذا قول أبي عبيد، ودفع بهذا حديث عائشة، وقال المرأة: التي روته عنها مجهولة، وأجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم: أن المرأة إذا جاءت بولد لأقل[1] من

(١) كذا بالأصل، ولعله (لأكثر) من ستة أشهر (ج).

ستة أشهر من يوم تزوجها الرجل أن الولد غير لا حق به، فإن جاءت به لستة أشهر من يوم نكحها فالولد له.

(١)والمقصود تفاوت الناس في مراتب الفهم في النصوص، وأن منهم من يفهم من الآية حكمًا أو حكمين، ومنهم من يفهم منها عشرة أحكام أو أكثر من ذلك، ومنهم من يقتصر في الفهم على مجرد اللفظ دون سياقه، ودون إيمائه وإشارته وتنبيهه واعتباره، وأخص من هذا وألطف ضمه إلى نص آخر متعلق به، فيفهم من اقترانه به قدرًا زائدًا على ذلك اللفظ بمفرده.

وهذا باب عجيب من فهم القرآن، لا يتنبه له إلا النادر من أهل العلم، فإن الذهن قد لا يشعر بارتباط هذا بهذا وتعلقه به، وهذا كما فهم ابن عباس من قوله: ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف: ١٥] مع قوله: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة: ٢٣٣] أن المرأة قد تلد لستة أشهر.

وكما فهم الصديقُ من آية الفرائض في أول السورة وآخرها: أن الكلالة من لا ولد له ولا والد، وأسقط الإخوة بالجد، وقد أرشد النبي ﷺ عمر إلى هذا الفهم، حيث سأله عن الكلالة، وراجعه السؤال فيها مرارًا، فقال: يكفيك آية الصيف...

(٢)وهذا وأمثاله يدل على أن الطبيعة التي هي منتهى سير الطبائعين، لها رب قاهر قادر يتصرف فيها بمشيئته، وينوع فيها خلقه كما يشاء، ليدل من له عقل على وجوده ووحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله، وإلا فمن أين في الطبيعة المجردة هذا الاختلاف العظيم والتباين الشديد. ومن أين في الطبيعة خلق هذا النوع الإنساني على أربعة أضرب. أحدها: لا من ذكر ولا من أنثى: كآدم ؑ. الثاني: من ذكر بلا أنثى: كحواء صلوات الله عليها. الثالث: من أنثى بلا ذكر: كالمسيح. الرابع: من ذكر وأنثى: كسائر النوع. ومن أين في

---

(١) ٣٥٤ أعلام جـ١.

(٢) ١٦٢ تحفة المودود.

الطبيعة والقوة هذا التركيب والتقدير والتشكيل، وهذه الأعضاء والرباطات والقوىٰ والمنافذ والعجائب، التي ركبت في هذه النطفة المهينة، لو لا بدائع صنع الله ما وجدت تلك العجائب في مستقذر الماء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٦-٨] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ٥، ٦].

لقد دل سبحانه علىٰ نفسه أوضح دلالة، بما أشهده كل عبد علىٰ نفسه من حاله وحدوثه، وإتقان صنعه، وعجائب خلقه، وآيات قدرته، وشواهد حكمته فيه، ولقد دعا سبحانه الإنسان إلىٰ النظر في مبدإ خلقه وتمامه، فقال تعالىٰ: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝ ﴾ [الطارق ٥، ٧] وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ ﴾ [الحج: ٥]، قال تعالىٰ: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]، وهذا في القرآن كثير لمن تدبره وعقله، وهو شاهد منك عليك، فمن أين للطبيعة والقوة المحصورة هذا الخلق والإتقان والإبداع، وتفصيل تلك العظام، وشد بعضها ببعض علىٰ اختلاف أشكالها ومقاديرها ومنافعها وصفاتها، ومن جعل في النطفة تلك العروق واللحم والعصب، ومن فتح لها تلك الأبواب والمنافذ، ومن شق سمعها وبصرها، ومن ركب فيها لسانا تنطق به، وعينين تبصر بهما، وأذنين تسمع بهما، وشفتين، ومن أودع فيها الصدر، وما حواه من المنافع الآلات، التي لو شاهدتها لرأيت العجائب، ومن

جعل هناك حوضا وخزانة يجتمع فيها الطعام والشراب، وساق إليه مجاري وطرقًا ينفذ فيها، فيسقي جميع أجزاء البدن، كل جزء يشرب من مجراه، الذي يختص به لا يتعداه ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ [البقرة: ٦٠]، ومن أخدمها تلك القوى التي بها تمت مصالحها ومنافعها، ومن أودع فيها العلوم الدقيقة والصنائع العجيبة، وعلَّمها ما لم تكن تعلم، وألهمها فجورها وتقواها، ونقلها في أطوار التخليق طورًا بعد طور وطبقا بعد طبق، إلى أن صارت شخصًا حيًّا ناطقًا سميعًا بصيرًا، عالمًا متكلمًا، آمرًا ناهيًا، مسلطًا على طير السماء، وحيتان الماء، ووحوش الفلوات، عالما بما لا يعلمه غيره من المخلوقات، ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ [عبس: ١٧-٢٢].

قد زعم طائفة ممن تكلم في خلق الإنسان أنه إنما يعطى السمع والبصر بعد ولادته وخروجه من بطن أمه، واحتج بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]، واحتج أنه في بطن الأم لا يرى شيئا، ولا يسمع صوتًا، فلم يكن لإعطائه السمع والبصر هناك فائدة، وليس ما قاله صحيحًا، ولا حجة له في الآية، لأن الواو لا ترتيب فيها، بل الآية حجة عليه.

[1]قال الزجاج: الأشد من نحو سبع عشرة سنة إلى نحو الأربعين، وقال ابن عباس في رواية عطاء عنه: الأشد الحلم، وهو اختيار يحيى بن يعمر والسدي، وروى مجاهد عنه: ستًّا وثلاثين سنة. وروى عنه أيضا ثلاثين. وقال الضحاك: عشرين سنة. وقال مقاتل: ثمان عشرة. وقد أحكم الزهري تحكيم اللفظة، فقال: بلوغ الأشد يكون من وقت بلوغ الإنسان مبلغ الرجال إلى أربعين سنة. قال: فبلوغ الأشد محصور الأول،

---

(١) ١٨٢ تحفة المودود.

محصور النهاية، غير محصور ما بين ذلك، فبلوغ الأشد مرتبة بين البلوغ وبين الأربعين ومعنى اللفظة من الشدة: وهي القوة والجلادة. والشديد الرجل القوي، فالأشد القوي. قال الفراء: واحدها شدة في القياس ولم أسمع لها بواحد.

وقال أبو الهيثم: واحدها شدة كنعمة وأنعم. وقال بعض أهل اللغة: واحدها شدة بضم الشين. وقال آخرون منهم: هو اسم مفرد، كالآنك، وليس بجمع، حكاهما ابن الأنباري.

ثم بعد الأربعين يأخذ في النقصان وضعف القوى على التدريج، كما أخذ في زيادتها على التدريج، قال الله تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ [الروم: ٥٤] فقوته بين ضعفين، وحياته بين موتين، فهو أولاً نطفة ثم علقة ثم مضغة، ثم جنيناً ما دام في البطن، فإذا خرج فهو وليد، فما لم يستتم سبعة أيام فهو صديغ بالغين المعجمة، لأنه لم يشتد صدغه، ثم ما دام يرضع فهو رضيع، فإذا قطع عنه اللبن فهو فطيم، فإذا دب ودرج فهو دارج، قال الراجز:

أم صبي قـــد حـــبا ودارج

فإذا بلغ طوله خمسة أشبار فهو خماسي، فإذا سقطت أسنانه فهو مثغور وقد ثغر فإذا نبتت بعد سقوطها فهو مثغر بوزن مدكر بالتاء والثاء معًا، فإذا بلغ السبع وما قاربها فهو مميز، فإذا بلغ العشر فهو مترعرع وناشئ، فإذا قارب الحلم فهو يافع ومراهق ونهام للغلمة. فإذا بلغ فهو بالغ، فإذا اجتمعت قوته فهو حزوَّر، واسمه في جميع ذلك غلام ما لم يخضر شاربه، فإذا اخضر شاربه وأخذ عذاره في الطلوع فهو باقل، وقد بقل وجهه بالتخفيف، ثم هو ما بين ذلك وبين تكامل لحيته فتى، وشارخ بحصول شرخ الشباب له.

***

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾.

[(١)]أخبر أن منهم من حق عليه القول، أي وجب عليه العذاب وأنه خاسر، ولا يكون ذلك إلا في أهل التكليف المستوجبين العقاب بأعمالهم، ثم قال بعد ذلك: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾ [الأحقاف: ١٩] أي في الخير والشر يوفونها، ولا يظلمون شيئًا من أعمالهم، وهذا ظاهر جدًّا في ثوابهم وعقابهم، وأن مسيئهم كما يستحق العذاب بإساءته فمحسنهم يستحق الدرجات بإحسانه، ولكل درجات مما عملوا، فدل ذلك لا محالة أنهم كانوا مأمورين بالشرائع، متعبدين بها في الدنيا، ولذلك استحقوا الدرجات بأعمالهم في الآخرة في الخير والشر.

***

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

[(٢)]المؤمن لا يذهب طيباته في الدنيا، بل لابد أن يترك بعض طيباته للآخرة. وأما الكافر فإنه لا يؤمن بالآخرة فهو حريص على تناول حظوظه كلها وطيباته في الدنيا. ومنها علمه بأن أعماله هي زاده ووسيلته إلى دار إقامته، فإن تزود من معصية الله أوصله ذلك الزاد إلى دار العصاة والجناة، وإن تزود من طاعته وصل إلى دار أهل طاعته وولايته.

ومنها علمه بأن عمله هو وليه في قبره، وأنيسه فيه، وشفيعه عند ربه، والمخاصم والمحاج عنه، فإن شاء جعله له، وإن شاء جعله عليه.

ومنها علمه بأن أعمال البر تنهض بالعبد، وتقوم به، وتصعد إلى الله به، فبحسب قوة تعلقه بها يكون صعوده مع صعودها.

وأعمال الفجور تهوي به، وتجذبه إلى الهاوية، وتجره إلى أسفل سافلين، وبحسب

(١) ٤١٩ طريق الهجرتين.

(٢) ٢٧٣ طريق الهجرتين.

قوة تعلقه بها يكون هبوطه معها ونزوله إلىٰ حيث يستقر به.

قال الله تعالىٰ: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر: ١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأعراف: ٤٠]، فلما لم تفتح أبواب السماء لأعمالهم بل أغلقت عنها، لم تفتح لأرواحهم عند المفارقة بل أُغلقت عنها.

وأهل الإيمان والعمل الصالح لما كانت أبواب السماء مفتوحة لأعمالهم، حتىٰ وصلت إلىٰ الله سبحانه، فتحت لأرواحهم حتىٰ وصلت إليه تعالىٰ وقامت بين يديه، فرحمها وأمر بكتابة اسمها فى عليين، ومنها خروجه من حصن الله الذى لا ضيعة علىٰ من دخله، فيخرج بمعصيته منه إلىٰ حيث يصير نهباً للصوص وقطاع الطريق.

فما الظن بمن خرج من حصن حصين لا تدركه فيه آفة إلىٰ خربة موحشة هى مأْوىٰ اللصوص وقطاع الطريق، فهل يتركون معه شيئاً من متاعه؟ ومنها أنه بالمعصية قد تعرّض لمحق بركته [فى كل شيء من أمر دنياه وآخرته، فإن الطاعة تجلب للعبد بركات كل شيء، والمعصية تمحق منه كل بركة]. وبالجملة فآثار المعصية القبيحة أكثر من أن يحيط بها العبد علماً، وآثار الطاعة الحسنة أكثر من أن يحيط بها علمًا، فخير الدنيا والآخرة بحذافيره فى طاعة الله، وشر الدنيا والآخرة بحذافيره فى معصيته، وفى بعض الآثار يقول الله ﷻ: «**من ذا الذي أطاعني فشقي بطاعتي؟ ومن ذا الذي عصاني فسعد بمعصيتي؟**»(١).

***

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٣٧) وتاريخ دمشق (٨/ ٣١-٣٥).

...(١)قالوا: وأما الاستدلال بالمعين على العام فلا يتم إلا بالتسوية بين المتماثلين، إذ لو جاز الفرق لما كان هذا المعين دليلا على الأمر العام المشترك بين الأفراد، ومن هذا أدلة القرآن بتعذيب المعينين الذين عذبهم على تكذيب رسله وعصيان أمره على أن هذا الحكم عام شامل على من سلك سبيلهم، واتصف بصفتهم، وهو سبحانه قد نبه عباده على نفس هذا الاستدلال، وتعدية هذا الخصوص إلى العموم، كما قال تعالى عقيب أخباره عن عقوبات الأمم المكذبة لرسلهم، وما حل بهم: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾ [القمر: ٤٣]. فهذا محض تعدية الحكم إلى من عدا المذكورين بعموم العلة، وإلا فلو لم يكن حكم الشيء حكم مثله لما لزمت التعدية، ولا تمت الحجة.

ومثل هذا قوله تعالى عقيب أخباره عن عقوبة قوم عاد، حين رأوا العارض في السماء، فقالوا: ﴿ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ فقال تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ٢٤، ٢٥].

ثم قال: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٦] فتأمل قوله: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ ﴾ كيف تجد المعنى أن حكمكم كحكمهم وإنا إذا كنا قد أهلكناهم بمعصية رسلنا، ولم يدفع عنهم ما مكنوا فيه من أسباب العيش، فأنتم كذلك تسوية بين المتماثلين، وأن هذا محض عدل الله بين عباده.

***

(١) ١٣١ أعلام جـ١.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

[1]ذكر ما يتناول به العلوم وهي السمع والبصر والفؤاد، الذي هو محل العقل، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك: ١٠] فأخبروا أنهم خرجوا عن موجب السمع والعقل، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم: ٢٣] ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٤] وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤] فدعاهم على استماعه بأسماعهم وتدبره بعقولهم...

***

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾.

[2]لما نقضت الصحيفة: وافق موتُ أبي طالب وموت خديجة، وبينهما يسير، فاشتد البلاء على رسول الله ﷺ من سفهاء قومه، وتجرؤوا عليه، فكاشفوه بالأذى، فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف، رجاء أن يؤووه وينصروه على قومه، ويمنعوه منهم. ودعاهم إلى الله ﷻ فلم ير من يؤوي، ولم ير ناصرًا، وآذوه مع ذلك أشد الأذى، ونالُوا

(١) ٩٢ مختصر الصواعق جـ١.
(٢) ١٢٣ زاد المعاد جـ٢.

منه ما لم ينله قومُه، وكان معه زيد بن حارثة مولاه، فأقام بينهم عشرة أيام، لا يدع أحداً من أشرافهم إلا جاءه وكلَّمه، فقالوا: اخْرج مِن بلدنا، وأغرَوْا به سُفهاءهم، فوقفوا له سمَاطَيْن، وجعلوا يرمُونه بالحِجَارَةِ حتى دمِيَتْ قَدَماه، وزيدُ بن حارثة يَقيهِ بنفسه حتى أصابه شِجاج في رأسه، فانصرفَ راجعاً من الطائفِ إلى مكة محزوناً، وفي مرجعه ذلك دعا بالدعاء المشهورِ دُعاء الطَّائِفِ: «اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وهَوَانِي عَلَى النَّاس، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي، إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي؟ أَوْ إِلَى عَدوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي، إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلاَ أُبَالِي، غَيْرَ أَنَّ عَافِيَتَكَ هِي أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنيا وَالآخِرَةِ، أَنْ يَحِلَّ عَلَيَّ غَضَبُكَ، أَوْ أَنْ يَنْزِلَ بِي سَخَطُكَ، لك العُتبى حَتَّى تَرْضَى، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلا بِكَ»(١).

فأرسل ربُّه تبارك وتعالى إليه مَلَكَ الجِبَالِ، يستأمِرُهُ أن يُطْبِقَ الأَخْشَبَيْنِ عَلَى أَهْل مَكَّةَ، وهُمَا جبلاها اللذانِ هِيَ بينهما، فقَالَ: «لاَ، بَلْ أَسْتَأْنِي بِهِمْ لَعَلَّ اللهَ يُخرِجُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً»(٢).

فلما نزل بنخلة مَرْجِعَهُ، قام يُصَلِّي مِن الليل، فَصُرِفَ إليهِ نَفَرٌ مِنَ الجن، فاستمَعُوا قراءته، ولم يَشْعُرْ بهم رسولُ اللهِ ﷺ حتى نَزَلَ عَلَيْهِ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن

---

(١) أخرجه الضياء في المختارة (٩/ ١٧٩-١٨٠ رقم ١٦٢) والطبراني في الدعاء (رقم ١٠٣٦) قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٦٤) وأورد ذلك الدعاء الحسن: اللهم إليك أشكو، وذكره ثم قال: فلما انصرف عنهم بات بنخلة فقرأ تلك الليلة من القرآن فاستمعه الجن من أهل نصيبين، وهذا صحيح. ولكن قوله: إن الجن كان استماعهم تلك الليلة فيه نظر.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٣١) ومسلم (رقم ١٧٩٥) وانظر: شرح النووي (١٢/ ١٥٥).

ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٢].

وأقام بنخلة أياماً، فقال له زيدُ بنُ حارثة: كيف تدخلُ عليهم، وقد أخرجوك؟ يعني قريشاً، فقال: «يا زيدُ؛ إن الله جاعِلٌ لما ترى فَرَجاً ومخرجاً، وإن الله ناصرٌ دِينه ومظهر نبيه».

ثم انتهى إلى مكة فأرسل رجلاً مِن خُزاعة إلى مُطعم بن عدي: «أَدْخُلُ في جِوَارِكَ؟» فقال: نعم، ودعا بنيه وقومه، فقال: البِسُوا السِّلاَح، وكونوا عِنْدَ أركانِ البيت، فإني قد أجرتُ محمداً، فدخلَ رسولُ الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة، حتى انتهى إلى المسجد الحَرام، فقام المطعمُ بن عدي على راحلته، فنادى: يا معشرَ قريش؛ إني قد أجرتُ محمداً، فَلا يَهجْهُ أَحَدٌ مِنكم، فانتهى رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الرُّكنِ، فاسْتَلَمَه، وصلَّى ركعتين، وانصرف إلى بيته، والمطعمُ بن عدي وولده محدِقون به بالسِّلاح حتى دخل بيته[1].

[2] وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ﴾ إلى قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأحقاف:٢٩، ٣٢]. فهذا يدل على تكليفهم من وجوه متعددة:

(**أحدها**): أن الله ﷻ صرفهم إلى رسوله، يستمعون القرآن، ليؤمنوا به، ويأتْمروا بأوامره، وينتهوا عن نواهيه.

(**الثاني**): أنهم ولوا إلى قومهم منذرين. والإنذار هو الإعلام بالخوف بعد انعقاد أسبابه، فعلم أنهم منذرون لهم بالنار إن عصوا الرسول.

(**الثالث**): أنهم أخبروا أنهم سمعوا القرآن وعقلوه وفهموه، وأنه يهدي إلى الحق،

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١/ ٢١٢).
(٢) ٤٢١ طريق الهجرتين.

وهذا القول منهم يدل على أنهم عالمون بموسى وبالكتاب المنزل عليه، وأن القرآن مصدق له، وأنه هاد إلى صراط مستقيم. وهذا يدل على تمكينهم من العلم، الذى تقوم به الحجة، وهم قادرون على امتثال ما فيه، والتكليف إنما يستلزم العلم والقدرة.

(الرابع): إنهم قالوا لقومهم: ﴿ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ ﴾ [الأحقاف:٣١] وهذا صريح فى أنهم مكلفون مأمورون بإجابة الرسول، وهى تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر.

(الخامس): أنهم قالوا: ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ والمغفرة لا تكون إلا عن ذنب، وهو مخالفة الأمر.

(السادس): أنهم قالوا: ﴿ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ والذنب مخالفة الأمر.

(السابع): أنهم قالوا: ﴿ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ، وهذا يدل على أن من لم يستجب منهم لداعى الله لم يجره من العذاب الأليم. وهذا صريح فى تعلق الشريعة الإسلامية بهم.

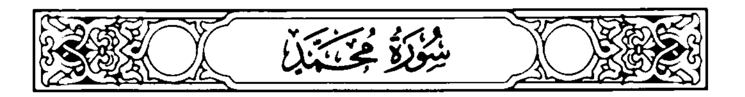
(الثامن): أنهم قالوا: ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ﴾ [الأحقاف: ٣٢]، وهذا تهديد لمن تخلف عن إجابة داعى الله منهم. وقد استدل بها على أنهم كانوا متعبدين بشريعة موسى، كما هم متعبدون بشريعة محمد، وهذا ممكن، والآية لا تستلزمه، ولكن قوله تعالى: ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، الآية تدل على أن الجن كانوا متعبدين بشرائع الرسل قبل محمد ﷺ، والآيات المتقدمة تدل على ذلك أيضاً.

وعلى هذا فيكون اختصاص النبى ﷺ بالبعثة إلى الثقلين إلى جميعهم لا إلى بعضهم، ومن قبله كان يبعث إلى طائفة مخصوصة.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الأحقاف.

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ﴾.

[(١)]...تسميته ﷺ بهذا الاسم لما اشتمل عليه من مسماه، وهو الحمد، فإنه ﷺ محمود عند الله، ومحمود عند ملائكته، ومحمود عند إخوانه من المرسلين، ومحمود عند أهل الأرض كلهم، وإن كفر به بعضهم، فإن ما فيه من صفات الكمال محمود عند كل عاقل، وإن كابر عقله جحوداً، أو عناداً، أو جهلاً باتصافه بها، ولو علم اتصافه بها لحمده، فإنه يحمد من اتصف بصفات الكمال، ويجهل وجودها فيه، فهو في الحقيقة حامد له.

وهو ﷺ اختص من مسمى الحمد بما لم يجتمع لغيره، فإن اسمه محمد وأحمد، وأمته الحمادون، يحمدون الله في السراء والضراء، وصلاته وصلاة أمته مفتتحة بالحمد، وخطبته مفتتحة بالحمد، وكتابه مفتتح بالحمد، هكذا كان عند الله في اللوح المحفوظ أن خلفاءه وأصحابه يكتبون المصحف مفتتحاً بالحمد، وبيده ﷺ لواء الحمد يوم القيامة[(٢)].

ولما يسجد بين يدي ربه ﷻ للشفاعة، ويؤذن له فيها، يحمد ربه بمحامد يفتحها عليه حينئذ، وهو صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون، قال

---

(١) ٩٦ جلاء الأفهام.

(٢) أخرجه الضياء في المختارة (٦/ ٣٢٣ رقم ٢٣٤٥) وابن حبان (١٤/ ٣٩٨ رقم ٦٤٧٨) والترمذي (رقم ٣١٤٨) والدارمي (رقم ٤٧) والطبراني في الأوسط (٤/ ٤٤-٤٥ رقم ٣٥٧٠) وفي الكبير (٢/ ١٨٤ رقم ١٧٥٠) وأبو يعلى (٤/ ٢١٣-٢١٥ رقم ٢٣٢٨) وأحمد (١/ ٢٨١) وحسنه الترمذي وانظر: فتح الباري (٨/ ٤٠٠) (١/ ٤٢٧).

تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾[(١)] [الإسراء: ٧٩].

ومن أحب الوقوف علىٰ معنىٰ المقام المحمود فليقف علىٰ ما ذكره سلف الأمة من الصحابة والتابعين فيه في تفسير هذه السورة، كتفسير ابن أبي حاتم، وابن جرير، وعبد ابن حميد، وغيرها من تفاسير السلف. وإذا قام في ذلك المقام حمده حينئذ أهل الموقف كلهم مسلمهم وكافرهم أولهم وآخرهم.

وهو محمود ﷺ بما يملأ به الأرض من الهدىٰ والإيمان والعلم النافع والعمل الصالح، وفتح به القلوب، وكشف به الظلمة عن أهل الأرض، واستنقذهم من أسر الشياطين، ومن الشرك بالله والكفر به والجهل به، حتىٰ نال به أتباعه شرف الدنيا والآخرة، فإن رسالته وافت أهل الأرض أحوج ما كانوا إليها، فإنهم كانوا بين عباد أوثان، وعباد صلبان، وعباد نيران، وعباد الكواكب، ومغضوب عليهم قد باؤوا بغضب من الله، وحيران لا يعرف ربا يعبده، ولا بماذا يعبده، والناس يأكل بعضهم بعضاً، من استحسن شيئاً دعا إليه، وقاتل من خالفه، وليس في الأرض موضع قدم مشرق بنور الرسالة.

وقد نظر الله سبحانه حينئذ إلىٰ أهل الأرض، فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا علىٰ آثار من دين صحيح[(٢)]، فأغاث الله به البلاد والعباد، وكشف به تلك الظلم، وأحيا به الخليقة بعد الموت،فهدىٰ به من الضلالة، وعلم به من الجهالة، وكثَّر بعد القلة، وأعزَّ به بعد الذلة، وأغنىٰ به بعد العيلة، وفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، فعرف الناس ربهم ومعبودهم، غاية ما يمكن أن تناله قواهم من المعرفة، وأبدأ وأعاد، واختصر وأطنب في ذكر أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، حتىٰ تجلت معرفته

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٤٠) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٢٦-٤٢٧) وشرح النووي (٣/ ٥٨).
(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٨٦٥) وانظر: شرح النووي (١٧/ ١٩٧).

سبحانه في قلوب عباده المؤمنين، وانجابت سحائب الشك والريب عنها، كما ينجاب السحاب عن القمر ليلة إبداره، ولم يدع لأمته حاجة في هذا التعريف لا إلىٰ من قبله ولا إلىٰ من بعده، بل كفاهم وشفاهم وأغناهم عن كل من تكلم في هذا الباب: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥١].

روىٰ أبو داود في مراسيله، عن النبي ﷺ أنه رأىٰ بيد بعض أصحابه قطعة من التوراة فقال: «**كفىٰ بقوم ضلالة أن يتبعوا كتاباً غير كتابهم، أنزل علىٰ غير نبيهم**»، فأنزل الله ﷻ تصديق ذلك: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1] [العنكبوت: ٥١]، فهذا حال من أخذ دينه عن كتاب منزل علىٰ غير النبي ﷺ، فكيف بمن أخذه عن عقل فلان وفلان، وقدمه علىٰ كلام الله ورسوله؟.

وعرفهم الطريق الموصل لهم إلىٰ ربهم ورضوانه ودار كرامته، ولم يدع حسناً إلا أمرهم به، ولا قبيحاً إلا نهىٰ عنه، كما قال ﷺ: «**ما تركت من شيء يقربكم إلىٰ الجنة إلا وقد أمرتكم به، ولا من شيء يقربكم إلىٰ النار إلا وقد نهيتكم عنه**»[2]. قال أبو ذر: «لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً»[3].

وعرفهم حالهم بعد القدوم علىٰ ربهم أتم تعريف، فكشف الأمر وأوضحه، ولم يدع باباً من العلم النافع للعباد المقرب لهم إلىٰ ربهم إلا فتحه، ولا مشكلاً إلا بينه

(١) أخرجه أبو داود في المراسيل (رقم ٤٥٤) وانظر: فتح الباري (٩/ ٦٨) وتخريج الأحاديث والآثار للزيلعي (٣/ ٤٩).

(٢) أخرجه الشافعي في مسنده (صـ٢٣٣) وفي الأم (٧/ ٢٧٩) وعبدالرزاق (١١/ ١٢٥ رقم ٢٠١٠٠).

(٣) أخرجه البزار (٩/ ٣٤١ رقم ٣٨٩٧) والطبراني في الكبير (٢/ ١٥٥ رقم ١٦٤٧) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٣/ ٢٣٨) وقال الدارقطني في العلل (٦/ ٢٩٠ رقم ١١٤٨) عن أبي ذكر مرسلاً وهو الصحيح. وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٤٠٥).

وشرحه، حتى هدى الله به القلوب من ضلالها، وشفاها به من أسقامها، وأغاثها به من جهلها، فأي بشر أحق بأن يحمد منه ﷺ، وجزاه عن أمته أفضل الجزاء. وأصح القولين في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، أنه على عمومه، وفيه على هذا التقدير وجهان:

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته، أما أتباعه فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة، وأما أعداؤه المحاربون له، فالذين عُجِّل قتلهم وموتهم خير لهم من حياتهم، لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة، وهم قد كتب عليهم الشقاء، فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر، وأما المعاهدون له فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته، وهم أقل شراً بذلك العهد من المحاربين له. وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهلهم واحترامها وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيرها، وأما الأمم النائية عنه فإن الله سبحانه رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض فأصاب كل العالمين النفع برسالته.

الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد، لكن المؤمنون قبلوا هذه الرحمة فانتفعوا بها دنيا وأخرى، والكفار ردوها، فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم، لكن لم يقبلوها، كما يقال: هذا دواء لهذا المرض، فإذا لم يستعمله لم يخرج عن أن يكون دواء لذلك المرض. ومما يحمد عليه ﷺ ما جبله الله عليه من مكارم الأخلاق وكرائم الشيم، فإن من نظر في أخلاقه وشيمه ﷺ علم أنها خير أخلاق، فإنه ﷺ كان أعلم الخلق، وأعظمهم أمانة، وأصدقهم حديثاً، وأجودهم وأسخاهم، وأشدهم احتمالاً، وأعظمهم عفواً ومغفرة، وكان لا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً، كما روى البخاري في صحيحه: عن عبد الله بن عمرو، أنه قال في صفة رسول الله ﷺ في التوراة: «**محمد عبدي ورسولي، سميته المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء**

وأفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، حتى يقولوا لا إله إلا الله»[١].

وأرحم الخلق وأرأفهم بهم، وأعظم الخلق نفعاً لهم في دينهم ودنياهم، وأفصح خلق الله، وأحسنهم تعبيراً عن المعاني الكثيرة بالألفاظ الوجيزة الدالة على المراد، وأصبرهم في مواطن الصبر، وأصدقهم في مواطن اللقاء، وأوفاهم بالعهد والذمة، وأعظمهم مكافأة على الجميل بأضعافه، وأشدهم تواضعاً، وأعظمهم إيثاراً على نفسه، وأشد الخلق ذباً عن أصحابه وحماية لهم ودفاعاً عنهم، وأقوم الخلق بما يأمر به، وأتركهم لما ينهي عنه، وأوصل الخلق لرحمه، فهو أحق بقول القائل:

برد على الأدنى ومرحمة   وعلى الأعادي مارن جلد[٢]

***

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾[٣].

[٤]قال مجاهد: يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلوا عليها أحدًا. وقال ابن عباس في رواية أبي صالح: «هم أعرف بمنازلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم» وقال محمد بن كعب: يعرفونها كما تعرفون بيوتكم في الدنيا إذا انصرفتم من يوم الجمعة. هذا قول جمهور المفسرين،

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢١٢٥) وانظر: فتح الباري (٨/ ٥٨٦).

(٢) هذا البيت من بحر الكامل ينسب إلى الحسين بن محمد المنبجي المعروف بدوقلة شاعر مغمور لا يعرف متى ولد أو متى مات، تنسب إليه القصيدة المشهورة باليتيمة ذهب إلى نسبتها إليه ثعلب اللغوي المعروف المتوفى سنة ٢٩١هـ.

(٣) تقدم في سورة النساء بحث على هذه الآية (رقم ٩٨) يحسن الرجوع إليه لمن أراده. (ج).

(٤) ١٠٥ حادي الأرواح.

وتلخيص أقوالهم ما قاله أبو عبيدة: عرفها لهم، أي بيّنها لهم حتى عرفوها من غير استدلال. وقال مقاتل بن حيان: بلغنا أن الملك الموكل بحفظ بني آدم يمشي في الجنة، ويتبعه ابن آدم حتى يأتيه أقصى منزل هو له، فيعرفه كل شيء أعطاه الله في الجنة، فإذا دخل إلى منزله وأزواجه انصرف الملك عنه. وقال سلمة بن كهيل: طرقها لهم ومعنى هذا أنه طرقها لهم حتى يهتدوا إليها. وقال الحسن: وصف الله الجنة في الدنيا لهم فإذا دخلوها عرفوها بصفتها. وعلى هذا القول فالتعريف وقع في الدنيا، ويكون المعنى يدخلهم الجنة التي عرفها لهم. وعلى القول الأول يكون التعريف واقعًا في الآخرة، هذا كله إذا قيل: إنه من التعريف. وفيها قول آخر: إنه من العرف، وهو الرائحة الطيبة. وهذا اختيار الزجاج، أي طيبها ومنه طعام معرف أي مطيب، وقيل: هو من العرف وهو التتابع: أي تابع لهم طيباتها وملاذها.

والقول هو الأول، وأنه سبحانه أعلمها وبينها بما يعلم به كل أحد منزله وداره فلا يتعداه إلى غيره، وفي صحيح البخاري من حديث قتادة عن أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله ﷺ قال: **«إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، يتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا، أذن لهم بدخول الجنة، والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أدل منه بمسكنه كان في الدنيا»**(١).

وفي مسند أحمد من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«والذي بعثني بالحق ما أنتم في الدنيا بأعرف بأحوالكم ومساكنكم من أهل الجنة وبأزواجهم ومساكنهم إذا دخلوا الجنة»**(٢).

***

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٤٤٠) وانظر: فتح الباري (٥/ ١٢٧) (١٠/ ٤٨٩).

(٢) أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده (١/ ٩٤ رقم ١٠) وأبو الشيخ في العظمة (٣/ ٨٣٦) والطبراني في الأحاديث الطوال (١/ ٢٦٦-٢٧٦ رقم ٣٦).

﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾.

(١)أخبر أن حكم الشيء حكم مثله. وكذلك كل موضع أمر الله سبحانه فيه بالسير في الأرض، سواء كان السير الحسي على الأقدام والدواب، أو السير المعنوي بالتفكير والاعتبار، أو كان اللفظ يعمهما وهو الصواب، فإنه يدل على الاعتبار والحذر أن يحل بالمخاطبين ما حل بأولئك، ولهذا أمر سبحانه أولي الأبصار بالاعتبار بما حل بالمكذبين، ولولا أن حكم النظير حكم نظيره، حتى تعبُرَ العقول منه إليه لما حصل الاعتبار، وقد نفى الله سبحانه عن حكمه وحكمته التسوية بين المختلفين في الحكم، فقال تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦].

فأخبر أن هذا حكم باطل في الفطر والعقول، لا تليق نسبته إليه سبحانه، وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٨] أفلا تراه كيف ذكَّر العقول، ونبَّه الفطر بما أودع فيها من إعطاء النظير، حكم نظيره وعدم التسوية بين الشيء ومخالفه في الحكم؟

وكل هذا من الميزان الذي أنزله الله مع كتابه، وجعله قرينه ووزيره، فقال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴾ [الشورى: ١٧] وقال: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥] وقال تعالى: ﴿ الرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ [الرحمن: ١، ٢] فهذا الكتاب، ثم قال: ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ٧] والميزان يراد به العدل والآلة، التي يعرف بها

---

(١) ١٣٢ أعلام جـ١.

العدل وما يضاده.

والقياس الصحيح هو الميزان، فالأولىٰ تسميته بالاسم الذي سماه الله به، فإنه يدل علىٰ العدل، وهو اسم مدح واجب علىٰ كل واحد في كل حال بحسب الإمكان بخلاف اسم القياس، فإنه ينقسم إلىٰ حق وباطل وممدوح ومذموم، ولهذا لم يجئ في القرآن مدحه ولا ذمه، ولا الأمر به ولا النهي عنه، فإنه مورد تقسيم إلىٰ صحيح وفاسد. فالصحيح هو الميزان الذي أنزله مع كتابه. والفاسد ما يضاده كقياس الذين قاسوا البيع علىٰ الربا بجامع ما يشتركان فيه من التراضي بالمعاوضة المالية، وقياس الذين قاسوا الميتة علىٰ المذكىٰ في جواز أكلها بجامع ما يشتركان فيه من إزهاق الروح: هذا بسبب من الآدميين، وهذا بفعل الله. ولهذا تجد في كلام السلف ذم القياس، وأنه ليس من الدين، وتجد في كلامهم استعماله والاستدلال به، وهذا حق، وهذا حق، كما سنبينه إن شاء الله تعالىٰ.

***

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾.

(١) وقال عبد الله بن بريدة في قوله تعالىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾ [محمد: ١٦] قال: هو عبد الله بن مسعود.

***

﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ ﴾.

(٢) ليس للعبد شيء أنفع من صدقه ربه في جميع أموره مع صدق العزيمة، فيصدقه في عزمه وفي فعله، قال تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [محمد: ٢١]

---

(١) ١٧ أعلام جـ١.

(٢) ١٧٦ فوائد.

فسعادته في صدق العزيمة وصدق الفعل.

فصدق العزيمة جمعها وجزمها وعدم التردد فيها، بل تكون عزيمة لا يشوبها تردد ولا تلوم، فإذا صدقت عزيمته بقي عليه صدق الفعل، وهو استفراغ الوسع وبذل الجهد فيه،وأن لا يتخلف عنه بشيء من ظاهره وباطنه.

فعزيمة القصد تمنعه من ضعف الإرادة والهمة وصدق الفعل يمنعه من الكسل والفتور، ومن صدق الله في جميع أموره، صنع الله له فوق ما يصنع لغيره؛ وهذا الصدق معنى يلتئم من صحة الإخلاص وصدق التوكل، فأصدق الناس من صح إخلاصه وتوكله.

***

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾.

[(١)]أي إن أعرضتم عن الإيمان بالقرآن والرسول وطاعته فليس إلا الفساد في الأرض، والشرك والمعاصي وقطيعة الرحم.

ونظيره قوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ [ق: ٥] لما تركوا الحق وعدلوا عنه مرج عليهم أمرهم والتبس، فلا يدرون ما يقولون وما يفعلون، بل لا يقولون شيئًا إلا كان باطلًا، ولا يفعلون شيئًا إلا كان ضائعًا غير نافع لهم، وهذا شأن كل من خرج عن الطريق الموصل إلى المقصود.

ونظيره قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [القصص: ٥٠] وقد كشف هذا المعنى كل الكشف بقوله ﷻ: ﴿ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس: ٣٢].

***

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾.

(١) ٨٠ التبيان.

[١]وقوله: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٤].

قال ابن عباس: في آذانهم صمم عن استماع القرآن، وهو عليهم عمى، أعمى الله قلوبهم، فلا يفقهون، أولئك ينادون من مكان بعيد، مثل البهيمة التي لا تفهم إلا دعاءً ونداءً، وقال مجاهد: بعيد من قلوبهم، وقال الفراء: تقول للرجل الذي لا يفهم: كذلك أنت تنادي من مكان بعيد، قال: وجاء في التفسير، كأنما ينادون من السماء فلا يسمعون، انتهى، والمعنى: إنهم لا يسمعون ولا يفهمون، كما أن من دعي من مكان بعيد لم يسمع ولم يفهم.

***

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤].

[٢]قال ابن عباس: يريد على قلوب هؤلاء أقفال، وقال مقاتل: يعني الطبع على القلب، وكأن القلب منزلة الباب المرتج، الذي قد ضرب عليه قفل، فإنه ما لم يفتح القفل لا يمكن فتح الباب والوصول إلى ما وراءه، وكذلك ما لم يرفع الختم والقفل عن القلب لم يدخل الإيمان والقرآن.

وتأمل تنكير القلب وتعريف الأقفال، فإن تنكير القلوب يتضمن إرادة قلوب هؤلاء، وقلوب من هم بهذه الصفة، ولو قال: أم على القلوب أقفالها، لم تدخل قلوب غيرهم في الجملة. وفي قوله: أقفالها بالتعريف نوع تأكيد، فإنه لو قال: أقفال، لذهب الوهم إلى ما يعرف بهذا الاسم، فلما أضافها إلى القلوب علم أن المراد بها: ما هو

---

(١) ٩٦ شفاء.

(٢) ٩٥ شفاء.

للقلب بمنزلة القفل للباب، فكأنه أراد أقفالها المختصة بها، التي لا تكون لغيرها، والله أعلم.

[١]وروي عن عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه عن سهل بن سعد قال: تلا رسول الله ﷺ قوله ﷻ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ وغلام جالس عند رسول الله ﷺ فقال: بلى والله يا رسول الله! إن عليها لأقفالها، ولا يفتحها إلا الذي أقفلها، فلما ولي عمر بن الخطاب طلبه ليستعمله، وقال: لم يقل ذلك إلا من عقل[٢].

...[٣]وإلى هذين الأصلين ندب عباده في القرآن، فقال في الأصل الأول: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [محمد: ٢٤] ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨] ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص: ٢٩] ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢] ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت: ٣].

وقال في الأصل الثاني: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٠١] ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١] ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الجاثية: ٣-٥] ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [غافر: ٢١] ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ﴾ [الروم: ٤٢].

---

(١) ٦٦ طريق الهجرتين.

(٢) ذكره الذهبي في ميزان الاعتدال (٦/ ٥٠٨) وقال: وذؤيب ضعيف.

(٣) ١٨٦ مفتاح جـ١.

[١]وقال بعض السلف: ما من عبدٍ إلا وله عينان في وجهه يبصر بهما أمر الدنيا، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر الآخرة، فإذا أراد الله بعبدٍ خيرًا فتح عينيه اللتين في قلبه، فأبصر بهما من اللذة والنعيم ما لا خطر له مما وعد به من لا أصدق منه حديثًا، وإذا أراد به غير ذلك تركه على ما هو عليه، ثم قرأ: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[٢] [محمد: ٢٤] ولو لم يكن للقلب المشتغل بمحبة غير الله، المعرض عن ذكره من العقوبة إلا صدؤه وقسوته وتعطيله عما خلق له لكفى بذلك عقوبة، وقد روى عبد العزيز بن أبي روّاد عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد**» قيل: يا رسول الله فما جلاؤها؟ قال: «**تلاوة القرآن**»[٣] وقال بعض العارفين: إن الحديد إذا لم يستعمل غشيه الصدأ حتى يفسده، كذلك القلب إذا عطل من حب الله والشوق إليه وذكره غلبه الجهل حتى يميته ويهلكه...

---

(١) ١٨٢ روضة المحبين.

(٢) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس عن معاذ بن جبل (٤/ ١٤ رقم ٦٠٤٠) بينما ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٣٩) والمزي في تهذيب الكمال (٨/ ١٧١) وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٦/ ٢٠٠) وابن الجوزي في صفة الصفوة (٤/ ٢١٥) كلهم عن خالد بن معدان. بيما قال إبراهيم بن محمد بن سبط ابن العجمي في الكشف الحثيث (صـ٩٧) في ترجمة الحسين بن أحمد الهروي الشماخي الحافظ قال: كذبه الحاكم وقد ذكر شيخنا العراقي في تخريج أحاديث الإحياء للغزالي قبيل كتاب رياضة النفس حديثاً: ما من عبد إلا وله أربع أعين.. ثم عزاه لمسند الفردوس، ثم ذكر أن في مسنده هذا الرجل، ثم قال: والآفة منه. انتهى. وقد ذكره الذهبي في ميزانه مطولاً وذكر كلام الحاكم وقول شيخنا: والآفة منه. إشارة إلى أنه وضعه، والله أعلم.

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب (٢/ ٣٥٢-٣٥٣ رقم ٢٠١٤) وأبو نعيم في الحلية (٨/ ١٩٧) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/١٩٨ رقم ١١٧٨) وابن عدي في الكامل (١/ ٢٥٩) (٥/ ٢٨٣) والخطيب في تاريخ بغداد (١١/ ٨٥) قال ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٨٣٢): هذا حديث مشهور بعبد العزيز معروف برواية عبدالرحيم بن هارون الغساني عنه، وقد سرقه منه إبراهيم، فأما عبدالعزيز فقال ابن حبان: كان يحدث على التوهم والنسيان فسقط الاحتجاج به. وأما عبدالرحيم فقال الدارقطني: متروك الحديث وكان يكذب. وأما إبراهيم بن عدي كان يحدث بالمناكير، وعندي أنه يسرق الحديث.

[(١)] وقال خالد بن معدان: ما من عبد إلا وله عينان في وجهه يبصر بهما أمر الدنيا، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر الآخرة، فإذا أراد الله بعبدٍ خيرًا فتح عينيه اللتين في قلبه فأبصر بهما ما وعده الله بالغيب، وإذا أراد الله به غير ذلك تركه على ما هو فيه، ثم قرأ: ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾.

[(٢)] ومما ينبغي أن يعلم أنه لا يمتنع مع الطبع والختم والقفل حصول الإيمان بأن يفك الذي ختم على القلب وطبع عليه وضرب عليه القفل ذلك الختم والطابع والقفل، ويهديه بعد ضلاله، ويعلمه بعد جهله، ويرشده بعد غيه ويفتح قفل قلبه بمفاتيح توفيقه، التي هي بيده، حتى لو كتب على جبينه الشقاوة والكفر لم يمتنع أن يمحوها ويكتب عليه السعادة والإيمان، وقرأ قارئ عند عمر بن الخطاب: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ وعنده شاب فقال: اللهم عليها أقفالها ومفاتيحها بيدك، لا يفتحها سواك. فعرفها له عمر، وزادته عنده خيرًا، وكان عمر يقول في دعائه: «اللهم إن كنت كتبتني شقياً فامحني واكتبني سعيدًا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت»[(٣)] فالرب تعالى فعال لما يريد لا حجر عليه.

وقد ضل ههنا فريقان: القدرية حيث زعمت أن ذلك ليس مقدورًا للرب، ولا يدخل تحت فعله، إذ لو كان مقدورًا له ومنعه العبد لناقض جوده ولطفه. والجبرية حيث زعمت أنه سبحانه إذا قدر قدرًا أو علم شيئًا فإنه لا يغيره بعد هذا، ولا يتصرف فيه بخلاف ما قدره وعلمه.

والطائفتان حجرت على من لا يدخل تحت حجر أحد أصلا، وجميع خلقه تحت

---

(١) ٤٢٤ روضة المحبين.

(٢) ٩٠ شفاء.

(٣) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ١٢٠٥، ١٢٠٦) من قول عمر بينما أخرجه أبو طاهر السلفي في معجم السفر (رقم ١٢٣٩) عن شقيق. وانظر: عمدة القاري (١١/ ١٨١-١٨٢) ومشكل الحديث وبيانه (ص ٢٩٧).

حجره شرعا وقدرا، وهذه المسألة من أكبر مسائل القدر، وسيمر بك إن شاء الله في باب المحو والإثبات ما يشفيك فيها.

والمقصود أنه مع الطبع والختم والقفل لو تعرض العبد أمكنه فك ذلك الختم والطابع، وفتح ذلك القفل يفتحه من بيده مفاتيح كل شيء، وأسباب الفتح مقدورة للعبد غير ممتنعة عليه، وإن كان فك الختم وفتح القفل غير مقدور له، كما أن شرب الدواء مقدور له، وزوال العلة، وحصول العافية غير مقدور، فإذا استحكم به المرض وصار صفة لازمة له لم يكن له عذر في تعاطي ما إليه من أسباب الشفاء، وإن كان غير مقدور له، ولكن لما ألف العلة وساكنها، ولم يحب زوالها ولا آثر ضدها عليها مع معرفته بما بينها وبين ضدها من التفاوت، فقد سد على نفسه باب الشفاء بالكلية والله سبحانه يهدي عبده إذا كان ضالًّا، وهو يحسب أنه على هدى، فإذا تبين له الهدى لم يعدل عنه لمحبته وملاءمته لنفسه.

فإذا عرف الهدى فلم يحبه ولم يرض به، وآثر عليه الضلال مع تكرار تعريفه: منفعة هذا وخيره، ومضرة هذا وشره، فقد سد على نفسه باب الهدى بالكلية، فلو أنه في هذه الحال تعرض وافتقر إلى من بيده هداه، وعلم أنه ليس إليه هدى نفسه، وأنه إن لم يهده الله فهو ضال، وسأل الله أن يقبل بقلبه، وأن يقيه شر نفسه وفقه وهداه، بل لو علم الله منه كراهية لما هو عليه من الضلال، وأنه مرض قاتل إن لم يشفه منه أهلكه، لكانت كراهته وبغضه إياه مع كونه مبتلى به من أسباب الشفاء والهداية، ولكن من أعظم أسباب الشقاء والضلال محبته له ورضاه به وكراهته الهدى والحق، فلو أن المطبوع على قلبه المختوم عليه كره ذلك، ورغب إلى الله في فك ذلك عنه، وفعل مقدوره لكان هداه أقرب شيء إليه، ولكن إذا استحكم الطبع والختم حال بينه وبين كراهة ذلك، وسؤال الرب فكه وفتح قلبه.

فإن قيل: فإذا جوزتم أن يكون الطبع والختم والقفل عقوبة وجزاء على الجرائم

والإعراض والكفر السابق على فعل الجرائم.

قيل: هذا موضع يغلط فيه أكثر الناس، ويظنون بالله سبحانه خلاف موجب أسمائه وصفاته.

والقرآن من أوله إلى آخره إنما يدل على أن الطبع والختم والغشاوة لم يفعلها الرب سبحانه بعبده من أول وهلة، حين أمره بالإيمان أو بينه له، وإنما فعله بعد تكرار الدعوة منه سبحانه، والتأكيد في البيان والإرشاد، وتكرار الإعراض منهم، والمبالغة في الكفر والعناد، فحينئذ يطبع على قلوبهم ويختم عليها، فلا تقبل الهدى بعد ذلك. والإعراض والكفر الأول لم يكن مع ختم وطبع، بل كان اختيارا، فلما تكرر منهم صار طبيعة وسجية، فتأمل هذا المعنى في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ٦، ٧] ومعلوم أن هذا ليس حكما يعم جميع الكفار بل الذين آمنوا وصدقوا الرسل كان أكثرهم كفارا قبل ذلك، ولم يختم على قلوبهم وعلى أسماعهم.

فهذه الآيات في حق أقوام مخصوصين من الكفار، فعل الله بهم ذلك عقوبة منه لهم في الدنيا بهذا النوع من العقوبة العاجلة.

كما عاقب بعضهم بالمسخ قردة وخنازير، وبعضهم بالطمس على أعينهم، فهو سبحانه يعاقب بالطمس على القلوب، كما يعاقب بالطمس على الأعين، وهو سبحانه قد يعاقب بالضلال عن الحق عقوبة دائمة مستمرة، وقد يعاقب به إلى وقت، ثم يعافي عبده ويهديه، كما يعاقب بالعذاب كذلك.

***

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ۝ ﴾.

(١)من منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ «منزلة الفراسة» قال الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر: ٧٥] قال مجاهد رحمه الله: المتفرسين: وقال ابن عباس رضي الله عنهما: للناظرين وقال قتادة: للمعتبرين. وقال مقاتل: للمتفكرين. ولا تنافي بين هذه الأقوال، فإن الناظر متىٰ نظر في آثار ديار المكذبين ومنازلهم وما آل إليه أمرهم: أورثه فراسة وعبرة وفكرة. وقال تعالىٰ في حق المنافقين: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ [محمد: ٣٠] فالأول: فراسة النظر والعين. والثاني: فراسة الأذن والسمع.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: علق معرفته إياهم بالنظر علىٰ المشيئة، ولم يعلق تعريفهم بلحن خطابهم علىٰ شرط، بل أخبر به خبرًا مؤكدًا بالقسم، فقال: ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ وهو تعريض الخطاب وفحوىٰ الكلام ومغزاه. واللحن ضربان: صواب وخطأ، فلحن الصواب نوعان:

أحدهما: الفطنة ومنه الحديث: «**ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض**»(٢).

والثاني: التعريض والإشارة، وهو قريب من الكناية، ومنه قول الشاعر:

وحديث ألذه وهو مما … يشتهي السامعون يوزن وزنًا
منطق صائب وتلحن أحيا … نًا وخير الحديث ما كان لحنًا(٣)

---

(١) ٤٨٢ مدارج جـ٢.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٦٨٠) ومسلم (رقم ١٧١٣) وانظر: فتح الباري (٥/ ٢٨٨-٢٨٩) وشرح النووي (١٢/ ٤-٥).

(٣) هذان البيتان من وزن الخفيف ينسبان إلىٰ مالك بن أسماء بن خارجة الفزاري كان من أشراف الكوفة ومن شعراء الغزل تولىٰ إمرة خوارزم وأصبهان للحجاج بعد ما تزوج أخته هند بنت أسماء، مات سنة ١٠٠هـ ذكر البيتين ابن منظور في لسان العرب (١٣/ ٣٨٠) وابن عساكر في تاريخه (٥٦/ ٣٥٨) والخطيب البغدادي في تاريخه (١٢/ ٢١٤).

والثالث: فساد المنطق في الإعراب، وحقيقته: تغيير الكلام عن وجهه: إما إلى خطإ، وإما إلى معنى خفي لم يوضع له اللفظ.

والمقصود: أنه سبحانه أقسم على معرفتهم من لحن خطابهم، فإن معرفة المتكلم وما في ضميره من كلامه: أقرب من معرفته بسيماه وما في وجهه، فإن دلالة الكلام على قصد قائله وضميره أظهر من السيماء المرئية. والفراسة تتعلق بالنوعين: بالنظر والسماع. وفي الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ عن عن النبي ﷺ قال: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله» ثم تلا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾(1) [الحجر: ٧٥].

***

﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوٓا إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾.

(2)كما أن الذلة مضروبة على من خالف أمره: فالعزة لأهل طاعته ومتابعته، قال الله سبحانه: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩] وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون: ٨] وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوٓا إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٥].

***

﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾.

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣١٢٧) والطبراني في الأوسط (٣/ ٣١٢ رقم ٣٢٥٤) وفي الكبير (٨/ ١٠٢ رقم ٧٤٩٧) وفي مسند الشاميين (٣/ ١٨٣-١٨٤ رقم ٢٠٤٢) والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٣٨٧ رقم ٦٦٣) قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٦٨): رواه الطبراني وإسناده حسن. وانظر: فتح الباري (١٢/ ٣٨٨) وفيض القدير (٢/ ٥٥٨).

(٢) ٣٥ زاد المعاد جـ١ طبعة مؤسسة الرسالة.

(١)...قد وقع الإخبار عن قدرته عليه سبحانه على تبديلهم بخير منهم، وفي بعضها تبديل أمثالهم، وفي بعضها استبداله قوما غيرهم، ثم لا يكونوا أمثالهم، فهذه ثلاثة أمور يجب معرفة ما بينها من الجمع والفرق، فحيث وقع التبديل بخير منهم فهو إخبار عن قدرته على أن يذهب بهم ويأتي بأطوع وأتقى له منهم في الدنيا، وذلك قوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: ٣٨] يعني بل يكونوا خيرا منكم. قال مجاهد: يستبدل بهم من شاء من عباده، فيجعلهم خيرًا من هؤلاء، فلم يتولوا بحمد الله فلم يستبدل بهم.

وأما ذكره تبديل أمثالهم، ففي سورة الواقعة وسورة الإنسان، فقال في الواقعة: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١] وقال في سورة الإنسان: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٨].

قال كثير من المفسرين: المعنى أنا إذا أردنا أن نخلق خلقا غيركم لم يسبقنا سابق، ولم يفتنا ذلك، وفي قوله: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ إذا شئنا أهلكناهم وأتينا بأشباههم، فجعلناهم بدلًا منهم. قال المهدوي قومًا موافقين لهم في الخلق، مخالفين لهم في العمل. ولم يذكر الواحدي ولا ابن الجوزي غير هذا القول. وعلى هذا فتكون هذه الآيات نظير قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ [النساء: ١٣٣] فيكون استدلالًا بقدرته على إذهابهم، والإتيان بأمثالهم على إتيانه بهم أنفسهم إذا ماتوا.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة محمد

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

---

(١) ١٢٢ التبيان.

سُورَةُ الفَتْحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ ﴾.

[(١)]...ثم رجع إلى المدينة وفي مرجعه أنزل الله عليه ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ ﴾ [الفتح: ١-٣]. فقال عمر: أوَ فتحٌ هُوَ يا رسول الله؟ قال: «نعم»، فقال الصحابةُ: هنيئاً لكَ يا رَسُولَ الله، فما لَنَا؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح: ٤] الآية. ولما رجع إلى المَدِينة، جاءه أبو بصير رجل من قريش مسلماً، فأرسلوا في طلبه رجلين، وقالوا: العهدَ الذي جعلتَ لنا، فدفعه إلى الرَّجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحُلَيْفَةِ، فنزلوا يأكُلون مِن تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إنِّي لأرى سيفَكَ هذا جيداً، فاستلَّه الآخرُ، فقال: أَجَلْ والله إنه لجيد، لقد جربتُ به ثم جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه به حتى برد، وفرَّ الآخرُ يعدو حتى بلغ المدينة، فدخل المسجدَ، فقال رسولُ الله ﷺ حين رآهُ: «لَقَدْ رَأى هذَا ذُعْرَاً»، فلما انتهى إلى النبي ﷺ، قال: قُتِلَ والله صاحبي، وإني لمقتول، فجاء أبو بصير، فقال: يا نبيَّ الله؛ قد والله أوفى الله ذِمَّتك، قد رددتني إليهم، فأنجاني الله منهم، فقال النبيُّ ﷺ: «وَيْلُ أُمِّهِ

---

(١) ٣٠٨ الزاد جـ٢.

مِسْعَرُ حَرْبٍ، لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ»، فلما سمِعَ ذلك، عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتىٰ أتىٰ سِيفَ البَحرِ، وينفلتُ منهم أبو جندل بنُ سهيل، فلحق بأبي بصير، فلا يخرُجُ مِن قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتىٰ اجتمعت منهم عِصابة، فوالله ما يسمعُونَ بعيرٍ لقُريش خرجت إلىٰ الشام إلا اعترضُوا لها، فقتلوهم، وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريشٌ إلىٰ النبيِّ ﷺ تُنَاشِدُهُ الله والرحم لمَا أرسل إليهم، فمَن أتاه منهم، فهو آمن، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ حتىٰ بلغ: ﴿ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٤-٢٦]، وكانت حميتُهم أنهم لم يُقِرُّوا أنه نبي الله، ولم يُقروا بـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وحالُوا بينهم وبين البيت[(١)].

قلتُ: في الصحيح: أن النبي ﷺ: «توضأ، ومجَّ في بئر الحديبية من فمه، فجاشتْ بالماءِ»[(٢)] كذلك قال البراء بنُ عازب، وسلمةُ بنُ الأكوع في الصحيحين.

وقال عروة: عن مروان بن الحكم، والمِسور بن مَخْرَمَة «أنه غرز فيها سهماً مِن كنانته، وهو في الصحيحين أيضاً. وفي مغازي أبي الأسود عن عروة: توضأ في الدَّلْوِ، ومضمض فاه، ثم مَجَّ فيه، وأمر أن يُصَبَّ في البئر، ونزع سهماً من كِنانته، وألقاه في البئر، ودعا الله تعالىٰ، ففارت بالماء حتىٰ جعلُوا يغترِفُونَ بأيديهم منها، وهم جلوس علىٰ شفيرها[(٣)]، فجمع بين الأمرين، وهذا أشبه والله أعلم.

وفي صحيح البخاري: عن جابر، قال: عَطِشَ الناسُ يومَ الحُديبية، ورسولُ الله ﷺ بين يديه رَكْوَة يتوضأ منها، إذ جَهَشَ الناسُ نحوه، فقال: «ما لكم»؟ قالوا: يا رسُولَ الله؛ ما عندنا ماء نشرب، ولا ما نتوضأ إلا ما بينَ يديكَ، فوضع يده في الرَّكوة، فجعل

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢) وانظر: عمدة القاري (١٤/ ٥-٦) والاستيعاب (٤/ ١٦١٣).
(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٨٠٧) وانظر: فتح الباري (٧/ ٤٤٢) وشرح النووي (١٢/ ١٧٥).
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢) وانظر: فتح الباري (٥/ ٣٣٧) (٦/ ٥٨٥).

الماءُ يفورُ من بين أصابعه أمثال العيون، فشربوا، وتوضؤوا، وكانوا خمسَ عشرة مائة[١]، وهذِهِ غيرُ قصة البئر.

وفى هذه الغزوة أصابهم ليلة مطر، فلما صلَّى النبى ﷺ الصُّبحَ، قال: **«أَتَدْرُونَ مَاذا قَالَ رَبُّكُم اللَّيْلَةَ»**؟ قالوا: اللهُ ورسُوله أعلم. قال: **«أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِى مُؤْمِنٌ بى وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ ورَحْمَتِهِ، فَذلِكَ مُؤْمنٌ بى، كَافرٌ بالكَوْكَبِ، وأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كذَا وكَذَا، فَذلِكَ كَافرٌ بى مُؤْمنٌ بالكوكب»**[٢].

وجرى الصلحُ بين المسلمين وأهلِ مكة على وضعِ الحربِ عشرَ سنين، وأن يأمنَ الناسُ بعضهم من بعض، وأن يَرجعَ عنهم عامَهُ ذلك، حتى إذا كان العامُ المقبل، قَدِمهَا، وخَلّوْا بينَه وبين مكَّة، فأقام بها ثلاثاً، وأن لا يدخُلَهَا إلا بسلاح الراكب، والسيوف فى القِرَب، وأنَّ مَن أتانا مِن أصحابكَ لم نرده عليك، ومَن أتاكَ من أصحابنا رددتَه علينا، وأنَّ بيننا وبينَك عَيْبَةً مكفوفةً، وأنه لا إسْلالَ ولا إغْلالَ، فقالوا: يا رسولَ اللهِ؛ نُعطيهم هذا؟ فقال: **«مَنْ أتاهم منا فأبعَدَهُ اللهُ، ومَن أتانا مِنهم فرددناه إليهم، جَعَلَ اللهُ له فَرَجاً ومخرجاً»**[٣].

وفى قِصة الحُديبية، أنزل اللهُ ﷻ فِديةَ الأذى لمن حلق رأسَه بالصيام، أو الصَّدقة، أو النُّسك فى شأن كعب بن عُجرة.

وفيها دعا رسولُ اللهِ ﷺ للمُحَلِّقِينَ بالمَغْفِرَة ثلاثاً، ولِلمُقَصِّرِينَ مَرَّةً.

وفيها نحرُوا البَدَنَةَ عن سَبْعَةٍ، والبَقَرَةَ عَنْ سَبْعَةٍ.

وفيها أهدى رسولُ اللهِ ﷺ فى جملة هَدْيِهِ جملاً كان لأبى جهل، كان فى أنفه بُرَةٌ مِنْ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٧٦) وانظر: فتح الباري (٦/ ٥٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٨٤٦) ومسلم (رقم ٧١) وانظر: شرح النووي (٢/ ٥٩-٦٠).

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (٩/ ٢٢١-٢٢٢ رقم ١٨٥٨٩) وأبو داود رقم ٢٧٦٦) وأحمد (٤/ ٣٢٥) وابن سعد في الطبقات (٢/ ٩٧) وانظر: فتح الباري (٥/ ٣٤٣-٣٤٤) ونيل الأوطار (٨/ ١٨٨، ٢٠٤).

فِضَّةٍ، لِيغيظَ بِهِ المشركين.

وفيها أُنزِلَتْ سورةُ الفتح، ودخلت خُزاعة فى عَقْدِ رسولِ اللهِ ﷺ وعهده، ودخلَتْ بنو بكر فى عقد قريش وعهدهم، وكان فى الشرط أن مَن شاء أن يدخل فى عقده ﷺ دخل، ومَن شاء أن يدخل فى عقد قريش دخل.

ولما رجع إلى المدينة جاءه نساء مؤمناتٌ، مِنهن أُمُّ كُلثُوم بنتُ عقبة بن أبى معيط، فجاء أهلُهَا يسألونها رسولَ اللهِ ﷺ بالشرطِ الذى كانَ بينهم، فلم يَرْجِعْها إليهم، ونهاهُ اللهُ ﷻ عن ذلك، فقيل: هذا نسخ للشرط فى النساء.

وقيل: تخصيص للسُّنَّة بالقرآن، وهو عزيزٌ جداً. وقيل: لم يقع الشرطُ إلا على الرجال خاصة، وأراد المشركون أن يُعَمِّمُوهُ فى الصنفين، فأبى اللهُ ذلك.

بعض ما فى قصة الحُديبية مِن الفوائِدِ الفِقهية فمنها: اعتمارُ النبى ﷺ فى أشهر الحجِّ، فإنه خرج إليها فى ذى القعدة.

ومنها: أن الإحرامَ بالعُمرة من الميقات أفضلُ، كما أن الإحرامَ بالحجِّ كذلك، فإنه أحرم بهما مِن ذى الحُليفة، وبينها وبينَ المدينة ميلٌ أو نحوُه.

وأما حديث: «مَنْ أَحْرَمَ بِعُمْرَةٍ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ ومَا تَأَخَّرَ». وفي لفظ: «كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ»[1] فحديث لا يثبُت، وقد اضطرب فيه إسناداً ومتناً اضطراباً شديداً.

ومنها: أن سَوْقَ الهَدي مسنونٌ فى العُمرة المفرَدَة، كما هو مسنون فى القِران.

ومنها: أن إشْعَارَ الهَدي سُنَّة لا مُثلَةٌ منهي عنها.

ومنها: استحبابُ مُغايظة أعداءِ اللهِ، فإن النبي ﷺ أهدى في جُملة هَدْيه جملاً لأبى

(١) أخرجه ابن ماجه (رقم ٣٠٠١، ٣٠٠٢) وابن أبي شيبة (٣/ ١٢٥ رقم ١٢٦٩٢) وأبو يعلى (١٢/ ٣٢٧ رقم ٦٩٠٠) والطبراني في الكبير (٢٣/ ٤١٦ رقم ١٠٠٦) وانظر: عمدة القاري (٩/ ١٤١) وشرح الزرقاني (٢/ ٣٢٤) وعون المعبود (٥/ ١١٥) وفيض القدير (٦/ ٩١) والمغني (٣/ ١١٤) وسبل السلام (٢/ ١٩٠).

جهل في أَنْفِهِ بُرَةٌ مِن فضةٍ يَغيظُ به المشركين، وقد قال تعالىٰ في صفة النبي ﷺ وأصحابه: ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال ﷻ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٠].

ومنها: أن أميرَ الجيشِ ينبغي له أن يبعثَ العُيونَ أمامه نحوَ العدو.

ومنها: أن الاستعانَةَ بالمُشرِكِ المأمونِ في الجهاد جائزةٌ عند الحاجة، لأن عيينة الخزاعي كَانَ كافراً إذ ذاك، وفيه مِن المصلحة أنه أقربُ إلىٰ اختلاطه بالعدوِّ، وأخذه أخبارهم.

ومنها: استحبابُ مشورةِ الإمام رعيَّته وجيشه، استخراجاً لوجه الرأي، واستطابةً لنفوسهم، وأمناً لِعَتْبِهِم، وتعرفاً لمصلحةٍ يختصُّ بعلمها بعضُهم دون بعض، وامتثالاً لأمر الربِّ في قوله تعالىٰ: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقد مدَحَ ﷻ عباده بقوله: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨].

ومنها: جواز سبي ذراري المشركينَ إذا انفردُوا عن رجالهم قبل مقاتلة الرجال.

ومنها: ردُّ الكَلام الباطِل ولو نُسِبَ إلىٰ غير مُكَلَّفٍ، فإنهم لما قالوا: خلأتِ القَصْوَاءُ، يعني حَرَنَتْ وألَحَّتْ، فلَمْ تَسِرْ، والخِلاء في الإبل بكسر الخاء والمدِّ نظير الحِران في الخيل، فلما نسبُوا إلىٰ الناقة ما ليس من خُلُقِهَا وطبعها، ردَّهُ عليهم، وقال: «ما خَلأَتْ ومَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ»(١)، ثم أخبر ﷺ عن سبب بروكها، وأن الذي حَبَسَ الفيلَ عن مكة حبسها للحكمة العظيمة التي ظهرت بسبب حبسها، وما جرىٰ بعده.

ومنها: أن تسميةَ ما يُلابسه الرجلُ مِن مراكبه ونحوها سُنَّة.

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢) وانظر: فتح الباري (٦/ ٧٣) وعمدة القاري (١٤/ ٢-٣).

ومنها: جوازُ الحَلِف، بل استحبابُه على الخبر الديني الذي يريد تأكيده، وقد حُفِظَ عن النبي ﷺ الحَلِف في أكثر من ثَمَانِينَ موضعاً، وأمره الله تعالى بالحَلِفِ على تصدِيقِ ما أخبر به في ثلاثة مواضِعَ: في سورة يونس (٥٣) وسبأ (٣) والتغابن (٧).

ومنها: أن المُشْرِكين، وأهلَ البِدَع والفجور، والبُغَاة والظَّلَمة، إذا طَلَبُوا أمراً يُعَظِّمُونَ فيه حُرمةً مِن حُرُماتِ الله تعالى، أُجيبُوا إليه وأُعطوه، وأُعينوا عليه، وإن مُنِعوا غيره، فيُعاوَنون على ما فيه تعظيم حرمات الله تعالى، لا على كفرهم وبَغيهم، ويُمنعون مما سوى ذلك، فكُلُّ مَن التمس المعاونةَ على محبوب لله تعالى مُرْضٍ له، أُجيبَ إلى ذلك كائناً مَن كان، ما لم يترتَّب على إعانته على ذلك المحبوبِ مبغوضٌ لله أعظمُ منه، وهذا مِن أدقِّ المواضع وأصعبِهَا، وأشقِّهَا على النفوس، ولذلك ضاق عنه من الصحابة مَن ضاق، وقال عمر ما قال، حتَّى عَمِلَ له أعمالاً بعده، والصِّدِّيقُ تلقاه بالرضا والتسليم، حتى كان قلبُه فيه على قلبِ رسولِ الله ﷺ، وأجاب عُمَرَ عما سأل عنه من ذلك بعَيْن جوابِ رسول الله ﷺ، وذلك يدل على أن الصِّدِّيق رضي الله عنه أفضلُ الصحابة وأكملُهم، وأعرفُهم بالله تعالى ورسوله ﷺ، وأعلمُهم بدينه، وأقومُهم بمحابِّه، وأشدُّهم موافقةً له، ولذلك لم يسأل عمر عما عَرَضَ له إلا رسولَ الله ﷺ وصِدِّيقَه خاصة دونَ سائر أصحابه.

ومنها: أن النبي ﷺ عَدَلَ ذاتَ اليمين إلى الحُديبية. قال الشافعي: بعضُهَا مِن الحِل، وبعضُها مِن الحَرَم. وروى الإمام أحمد في هذه القصة أن النبي ﷺ كان يُصلِّي في الحرم، وهو مضطرب في الحِل، وفي هذا كالدّلالة على أن مضاعفةَ الصلاة بمكة تتعلق بجميع الحرم لا يخصُّ بها المسجد الذي هو مكانُ الطواف، وأن قوله: «صَلاَةٌ في المَسْجِدِ الحَرَام أَفْضَلُ مِنْ مِائة صَلاةٍ في مَسْجِدي»[1]، كقوله تعالى: ﴿ فَلَا يَقْرَبُواْ

(١) أخرجه البخاري (رقم ١١٩٠) ومسلم (رقم ١٣٩٤) وانظر: فتح الباري (٣/ ٦٦-٦٧) وشرح النووي (٩/ ١٦٣-١٤٦).

ﵟٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَﵞ [التوبة: ٢٨]، وقوله تعالىٰ: ﵟسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِﵞ [الإسراء: ١]، وكان الإسراء مِن بيت أُم هانئ.

ومنها: أن مَن نزل قريباً مِن مكة، فإنَّهُ ينبغي له أن ينزل في الحِلِّ، ويصلي في الحَرم، وكذلك كان ابنُ عمر يصنعُ.

ومنها: جوازُ ابتداءِ الإمام بطلب صلح العَدُوِّ إذا رأىٰ المصلحةَ للمسلمين فيه، ولا يَتوقَّفُ ذلكَ علىٰ أن يكون ابتداءُ الطلب منهم.

وفي قِيام المغيرة بن شعبة علىٰ رأس رسول الله ﷺ بالسيف، ولم يكن عادته أن يُقام علىٰ رأسه، وهو قاعد، سُنَّةٌ يُقتدىٰ بها عند قدومِ رسل العدو من إظهار العزِّ والفخر، وتعظيم الإمام، وطاعته، ووقايته بالنفوس، وهذه هي العادة الجارية عند قدوم رسل المؤمنين علىٰ الكافرين، وقدوم رسل الكافرين علىٰ المؤمنين، وليس هذا من هذا النوع الذي ذمَّه النبي ﷺ بقوله: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَاماً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِن النَّار**»(١)، كما أن الفخرَ والخُيلاء في الحرب ليسا من هذا النوع المذموم في غيره، وفي بعث البُدْنِ في وجه الرسول الآخر دليل علىٰ استحباب إظهارِ شعائر الإسلام لرسل الكفار.

وفي قول النبي ﷺ للمغيرة: «**أَمَّا الإِسْلاَمُ فَأَقْبلُ، وَأَمَّا المَالُ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شيء**»(٢)، دليل علىٰ أن مال المشرك المعاهَد معصوم، وأنه لا يملكُ، بل يُرد عليه، فإن المغيرةَ كان قد صحبهم علىٰ الأمان، ثم غدر بهم، وأخذ أموالهم، فلم يتعرَّض النبي ﷺ لأموالهم، ولا ذبَّ عنها، ولا ضمنها لهم، لأن ذلك كان قبل إسلام المغيرة.

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٧٥٥) وابن أبي شيبة (٥/ ٢٣٤ رقم ٢٥٥٨٢) وهناد في الزهد (٢/ ٤٢٧ رقم ٨٣٧) والطبراني في الأوسط (٤/ ٢٨٢ رقم ٤٢٠٨) وفي الكبير (١٩/ ٣٥١ رقم ٨١٩) وصححه المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٢٨٩ رقم ٤١٠٨) وحسنه الترمذي وانظر: فتح الباري (١/ ٢٢٢) (١١/ ٥٠).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢) وانظر: فتح الباري (٥/ ٣٤١).

وفي قول الصِّدِّيق لعروة: «امصُصْ بَظْرَ اللاَّتِ»[١]، دليلٌ على جواز التصريح باسم العَوْرة إذا كان فيه مصلحة تقتضيها تلك الحال، كما أذن النبي ﷺ أن يُصرَّح لمن ادَّعى دعوى الجاهلية بِهَنِ أبيه، ويقال له: «اعضُضْ أيْرَ أبيك[٢]، ولا يُكْنَى له»، فلكل مقام مقال.

ومنها: احتمالُ قِلَّةِ أدبِ رسولِ الكُفار، وجهلِه وجفوته، ولا يقابَل على ذلك لما فيه من المصلحة العامة، ولم يُقابل النبي ﷺ عُروةَ على أخذِهِ بلحيته وقتَ خطابه، وإن كانت تلك عادَة العرب، لكن الوقارَ والتعظيمَ خلافُ ذلك.

وكذلك لم يُقابل رسولُ الله ﷺ رَسولَي مسيلمةَ حين قالا: نشهدُ أنه رسول الله، وقال: «لَوْلا أنَّ الرُّسُلَ لا تُقْتَلُ لَقَتَلْتُكُمَا»[٣]. ومنها: طهارة النُّخَامَةِ، سواء أكانت من رأسٍ أو صدر.

ومنها: طهارةُ الماءِ المستعمل. ومنها: استحبابُ التفاؤُل، وأنَّهُ ليس مِن الطِّيَرةِ المكْرُوهَة، لقوله لما جاء سهيل: سَهُلَ أَمْرُكُم[٤].

ومنها: أن المشهودَ عليه إذا عُرِفَ باسمه واسمِ أبيه: أغنى ذلك عن ذِكر الجَدِّ، لأن النبيَّ ﷺ لم يزد على محمد بن عبد الله، وقَنِعَ مِن سهيل بذكر اسمه واسم أبيه خاصة، واشتراطُ ذِكر الجد لا أصل له، ولما اشترى العَدَّاءُ بْنُ خالد منه ﷺ الغلامَ فكتب له:

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢) وانظر: عمدة القاري (١٤/ ٣) ونيل الأوطار (٨/ ١٨٥، ١٩٧).

(٢) انظر: لسان العرب (١٥/ ٥٣) والنهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ١٩٣) والقاموس المحيط (٨٣٥-٨٣٦).

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ٢٧٦١) والبيهقي في الكبرى (٩/ ٢١١ رقم ١٨٥٥٦) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ٣١٨) وأبو بكر الشيباني في الآحاد والمثاني (٣/ ٢٤ رقم ١٣٠٩) وابن قانع في معجم الصحابة (٣/ ١٤٧ رقم ١١٢٢) والحاكم (٢/ ١٥٥ رقم ٢٦٣٢) وصححه.

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢) وانظر: عمدة القاري (١٤/ ٤، ١٢).

«هذا مَا اشْتَرَىٰ العَدَّاءُ بْنُ خَالِدِ بن هَوْذَةَ»[١] فذكر جده، فهو زيادةُ بيان تَدُلُّ علىٰ أنه جائز لا بأس به، ولا تَدُلُّ علىٰ اشتراطه، ولما لم يكُنْ في الشهرة بحيث يُكتفىٰ باسمه واسم أبيه ذكر جده، فيُشترط ذِكْرُ الجد عند الاشتراك في الاسم واسم الأب، وعند عدمِ الاشتراك، واكتُفىٰ بذكر الاسم واسمِ الأب.. والله أعلم.

ومنها: أن مصالحةَ المشركين ببعض ما فيه ضَيْمٌ على المُسلمينَ جائزةٌ للمصلحة الراجحة، ودفع ما هو شر منه، ففيه دفعُ أعلىٰ المفسدتينِ باحتمالِ أدناهما.

ومنها: أن مَن حَلَفَ علىٰ فِعْل شيء، أو نَذَره، أو وَعَدَ غيرَه به ولم يُعيِّن وقتاً، لا بلفظه، ولا بنيته، لم يكن علىٰ الفور، بل علىٰ التراخي.

ومنها: أن الحلاقَ نُسُكٌ، وأنه أفضلُ من التقصير، وأنه نُسُكٌ في العُمرةِ، كما هو نُسُكٌ في الحجِّ، وأنه نُسُكٌ في عُمرة المحصر، كما هو نُسُك في عُمرة غيره.

ومنها: أن المُحْصَرَ ينحرُ هَدْيَه حيث أُحْصِرَ من الحِلِّ أو الحَرَم، وأنه لا يجب عليه أن يُواعِدَ مَن ينحرُهُ في الحرم إذا لم يَصِل إليه، وأنه لا يتحلل حتىٰ يصل إلىٰ محله، بدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ [الفتح: ٢٥].

ومنها: أن الموضِعَ الذي نحر فيه الهَدْي، كان من الحِلِّ لا من الحرم، لأن الحَرَمَ كُلَّهُ محلُّ الهَدْي.

ومنها: أن المُحْصَرَ لا يجب عليه القضاءُ، لأنه ﷺ أمرَهم بالحلق والنحر، ولم يأمر أحداً منهم بالقضاء، والعُمْرةُ من العام القابل لم تكن واجبةً، ولا قضاءَ عن عُمرة الإحصار، فإنهم كانُوا في عُمرة الإحصار ألفاً وأربعمائة، وكانوا في عُمرة القضيةِ دُون ذلك، وإنما سُمِّيت عُمرةَ القضية والقضاء، لأنها العُمرة التي قاضاهم عليها،

---

(١) أخرجه ابن الجارود في المنتقى (رقم ١٠٢٨) وابن ماجه (رقم ٢٢٥١) والبيهقي في الكبرىٰ (٥/ ٣٢٧ رقم ١٠٥٦٣) والترمذي (رقم ١٢١٦) والدارقطني (٣/ ٧٧ رقم ٢٨٩) وأبو بكر الشيباني في الآحاد والمثاني (٣/ ١٦٩ رقم ١٥٠١) والطبراني في الكبير (١٨/ ١٢ رقم ١٥) وحسنه الترمذي، وكذا حسنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١٢/ ٣٥٠).

فأُضيفت العُمرة إلىٰ مصدر فعله.

ومنها: أن الأمر المطلقَ علىٰ الفور وإلا لم يَغْضَبْ لِتأخيرهم الامتثال عن وقت الأمر، وقد اعتذر عن تأخيرهم الامتثال بأَنَّهُم كانوا يَرْجُون النسخ، فأَخَّروا متأوِّلين لذلك، وهذا الاعتذارُ أولىٰ أن يُعتذر عنه، وهو باطل، فإنه ﷺ لو فَهِمَ منهم ذلك، لم يشتَدَّ غضبُه عليهم لتأخير أمره، ويقول: «**مَا لي لا أَغْضَبُ، وأَنَا آمُرُ بالأَمْر فلا أُتَّبعُ**»[1]، وإنما كان تأخيرُهم مِن السعىٰ المغفور لا المشكور، وقد رضىَ الله عنهم، وغفر لهم، وأوجب لهم الجنَّة.

ومنها: أن الأصل مشارَكَةُ أُمَّتِه له فىٰ الأحكام، إلا ما خصَّه الدليلُ، ولذلك قالت أُمُّ سلمة: «اخرُجْ ولا تُكَلِّمْ أحدَاً حتىٰ تَحْلِقَ رأسك وتنحر هَدْيك»[2]، وعلمت أن الناس سيتابعونه.

فإن قيل: فكيف فعلوا ذلك اقتداءً بفعله، ولم يمتثِلُوه حين أمرهم به؟

قيل: هذا هو السببُ الذىٰ لأجله ظنَّ مَن ظنَّ أنهم أَخَّروا الامتثال طمعاً في النسخ، فلما فعلَ النبيُّ ﷺ ذلك، عَلِمُوا حينئذ أنه حكم مُسْتَقِرٌ غيرُ منسوخ، وقد تقدم فسادُ هذا الظن، ولكن لما تغيَّظَ عليهم، وخرج ولم يُكلمهم، وأراهُم أنه بادر إلىٰ امتثال ما أمر به، وأنه لم يُؤَخِّر كتأخيرهم، وأن اتباعهم له وطاعتَهم تُوجِبُ اقتداءهم به، بادرُوا حينئذ إلىٰ الاقتداء به وامتثالِ أمره.

ومنها: جوازُ صُلحِ الكُفَّارِ علىٰ ردِّ مَن جاء منهم إلىٰ المسلمين، وألا يُرد مَنْ ذهب من المسلمين إليهم، هذا فىٰ غير النساء، وأما النساء، فلا يجوزُ اشتراطُ رَدِّهن إلىٰ

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٦) والنسائي في الكبرىٰ (٦/ ٥٦ رقم ١٠٠١٧) وابن ماجه (رقم ٢٩٨٢) قال في مصباح الزجاجة (٣/ ١٩٩): هذا إسناد رجاله ثقات إلا أن فيه أبا إسحاق واسمه عمرو بن عبدالله اختلط بآخره ولم أدر حال أبي بكر بن عباس هل روىٰ عنه قبل الاختلاط أو بعده فيوقف حديثه حتىٰ يتبين حاله.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢) وانظر: عمدة القاري (١٤/ ٥).

الكفار، وهذا موضعُ النسخ خاصة فى هذا العقد بنص القرآن، ولا سبيلَ إلىٰ دعوىٰ النسخ فى غيره بغير موجب.

ومنها: أن خُروجَ البُضع من ملك الزوج متقوَّم، ولذلك أوجبَ اللهُ سبحانه ردَّ المهر علىٰ مَن هاجرت امرأتُه، وحِيل بينَه وبينها، وعلىٰ مَن ارتدَّت امرأتُه مِن المسلمين إذا استحق الكفارُ عليهم ردَّ مهورِ مَن هاجر إليهم مِن أزواجهم، وأخبر أن ذلك حُكمُه الذى حكم به بينهم، ثم لم ينسخه شىءٌ، وفى إيجابِه ردَّ ما أعطى الأزواجُ من ذلك دليلٌ علىٰ تقوُّمه بالمسمَّىٰ، لا بمهر المثل.

ومنها: أن ردَّ مَن جاء من الكفار إلىٰ الإمام لا يتناول مَن خرج منهم مسلماً إلىٰ غيرِ بلدِ الإمام، وأنه إذا جاء إلىٰ بلد الإمام، لا يجبُ عليه ردُّه بدون الطلب، فإن النبى ﷺ لم يَرُدَّ أبا بصير حين جاءه، ولا أكرهه علىٰ الرجوع، ولكن لما جاؤوا فى طلبه، مكَّنهم من أخذه ولم يكرهْهُ علىٰ الرجوع.

ومنها: أن المعاهدين إذا تسلَّموه وتمكَّنُوا منه فقتل أحداً منهم لم يضمنه بديةٍ ولا قَوَدٍ، ولم يضمنه الإمام، بل يكون حكمه فى ذلك حُكمَ قتله لهم فى ديارهم حيث لا حكم للإمام عليهم، فإن أبا بصيرٍ قتل أحد الرجلين المعاهَدَيْنِ بذى الحُلَيْفَةِ، وهى مِن حُكم المدينة، ولكن كان قد تسلَّموه، وفُصِلَ عن يد الإمام وحكمه.

ومنها: أن المعاهَدِينَ إذا عاهدوا الإمام، فخرجت منهم طائفة، فحاربتهم، وغَنِمَتْ أموالهم، ولم يَتَحَيَّزُوا إلىٰ الإمام، لم يجب علىٰ الإمام دفعُهم عنهم، ومنعُهم منهم، وسواءٌ دخلوا فى عَقدِ الإمام وعهده ودينه، أو لم يدخلوا، والعهدُ الذى كان بين النبيِّ ﷺ وبين المشركين، لم يكن عهداً بين أبى بصير وأصحابه وبينهم.

وعلىٰ هذا فإذا كان بين بعضِ ملوكِ المسلمين وبعضِ أهل الذِّمةِ من النصارىٰ وغيرِهم عهد، جاز لملك آخر مِن ملوك المسلمين أن يَغْزُوَهُم، ويغنَم أموالهم إذا لم يكن بينه وبينهم عهد، كما أفتىٰ به شيخُ الإسلام تقي الدين ابن تيمية - قدس الله

روحه - نصارى مَلَطْيَةَ وسبيهم، مستدلاً بقصة أبى بصير مع المشركين.

فى الإشارة إلى بعضِ الحِكمِ التى تضمَّنتها هذه الهدنة.

وهى أكبرُ وأجَلُّ مِن أن يُحيط بها إلا الله الذى أحكم أسبابهَا، فوقعت الغايةُ على الوجه الذى اقتضته حكمته وحمدُه.

فمنها: أنها كانت مُقَدِّمةً بين يدىْ الفتح الأعظم الذى أعزَّ اللهُ بِهِ رسولَه وجندَه، ودخل الناس به فى دين الله أفواجاً، فكانت هذه الهُدنة باباً له، ومفتاحاً، ومؤذِناً بين يديه، وهذه عادةُ الله سبحانه فى الأُمور العظام التى يقضيها قدراً وشرعاً، أن يُوطِّئَ لها بين يديها مقدمات وتوطئات، تُؤذِنُ بها، وتدُلُّ عليها.

ومنها: أن هذه الهُدنة كانت من أعظم الفُتوح، فإن الناسَ أمِنَ بعضُهم بعضاً، واختلطَ المسلمون بالكفار، ونادوهم بالدعوة، وأسمعوهم القُرآن، وناظرُوهم على الإسلام جهرةً آمنين، وظهر مَن كان مختفياً بالإسلام، ودخل فيه فى مُدة الهُدنة مَن شاء الله أن يدخل، ولهذا سماه الله فَتْحاً مُّبِيناً. قال ابن قتيبة: قضينا لك قضاءً عظيماً، وقال مجاهد: هو ما قضى الله له بالحُديبية.

وحقيقة الأمر: أن الفتح فى اللُّغة فتحُ المغلق، والصلح الذى حصل مع المشركين بالحديبية كان مسدوداً مُغلقاً حتى فتحه الله، وكان مِن أسباب فتحه صدُّ رسولِ الله ﷺ وأصحابِهِ عن البيت، وكان فى الصورة الظاهرة ضيماً وهضماً للمسلمين، وفى الباطن عزًّا وفتحاً ونصراً، وكان رسولُ الله ﷺ ينظر إلى ما وراءَهُ مِن الفتح العظيم، والعزِّ، والنصرِ من وراء ستر رقيق، وكان يُعطي المشركين كلَّ ما سألوه مِن الشروط، التى لم يحتملها أكثر أصحابه ورؤوسهم، وهو ﷺ يعلم ما فى ضمن هذا المكروه من محبوب: وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ:

وَرُبَّمَا كَانَ مَكْرُوهُ النُّفُوسِ إلىٰ ... مَحْبوبِهَا سَبَبَاً مَا مِثْلُه سَبَبُ[1]

---

(١) هذا البيت من بحر البسيط وينسب إلى البحتري: هو الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي الشاعر الكبير، كان يقال لشعره: سلاسل الذهب، وهو أحد الثلاثة الذين كانوا أشعر أبناء عصرهم: المتنبي وأبو تمام =

فدخل على تلك الشروط دخولَ واثِق بنصر الله له وتأييده، وأن العاقِبةَ له، وأن تلك الشروطَ واحتمالها هو عَيْنُ النصرة، وهو مِن أكبر الجند الذى أقامه المشترطون، ونصبُوه لحربهم، وهم لا يشعرون، فذلُّوا مِن حيث طلبوا العز، وقُهِرُوا من حيثُ أظهروا القدرة والفخر والغلبة، وعزَّ رسولُ الله ﷺ وعساكِرُ الإسلام من حيث انكسروا لله، واحتملُوا الضَّيْم له وفيهِ، فدار الدَّورُ، وانعكس الأمرُ، وانقلب العِزُّ بالباطل ذُلاً بحقٍّ، وانقلبت الكَسرة لله عزاً بالله، وظهرت حِكمة اللهِ وآياتُه، وتصديقُ وعده، ونصرةُ رسوله على أتمِّ الوجوهِ وأكملِها التى لا اقتراح للعقول وراءها.

ومنها: ما سبَّبه سبحانه للمؤمنين من زيادة الإيمان والإذعانِ، والانقيادِ على ما أحبُّوا وكرهوا، وما حصل لهم فى ذلك من الرضى بقضاء الله، وتصديقِ موعوده، وانتظارِ ما وُعِدُوا به، وشهودِ مِنَّة الله ونِعْمتهِ عليهم بالسَّكِينةِ التى أنزلها فى قُلوبهم، أحوج ما كانوا إليها فى تلك الحال التى تَزَعْزَعُ لها الجبالُ، فأنزل الله عليهم من سكينته ما اطمأنت به قلوبُهم، وقويت به نفُوسُهم، وازدادوا به إيماناً.

ومنها: أنه سبحانه جعل هذا الحكم الذى حكم به لِرسوله وللمؤمنين سبباً لما ذكره مِن المغفرة لرسوله ما تقدَّم مِن ذنبه وما تأخَّر، ولإتمام نِعمتهِ عليه،ولهدايته الصِّراطَ المستقيم، ونصره النصر العزيز، ورضاه به، ودخوله تحته، وانشراح صدره به مع ما فيهِ من الضيم، وإعطاءِ ما سألوه، كان من الأسباب التى نال بها الرسولُ وأصحابُه ذلك، ولهذا ذكره الله سبحانه جَزَاءً وغاية، وإنما يكون ذلك على فِعل قام بالرسول والمؤمنين عند حكمه تعالى، وفتحه.

وتأمل كيف وصفَ سبحانه النصرَ بأنه عزيزٌ فى هذا الموطن، ثم ذكر إنزالَ السكينة

والبحتري قيل لأبي العلاء المعري: أي الثلاثة أشعر؟ فقال: المتنبي وأبو تمام حكيمان، وإنما الشاعر البحتري توفي سنة ٢٨٤هـ.

فى قلوبِ المؤمنين فى هذا الموطنِ الذى اضطربت فيهِ القلوبُ، وقَلِقَتْ أشدَّ القلق، فهى أحوجُ ما كانت إلى السكينةِ، فازدادوا بها إيماناً إلى إيمانهم.

ثم ذكر سُبحانه بَيْعتَهم لِرسوله، وأكَّدها بكونها بَيْعةً له سبحانه، وأن يَده تعالى كانت فوقَ أيديهم إذ كانت يدُ رسول الله ﷺ كذلك، وهو رسولُه ونبيُّه، فالعقدُ معه عقدٌ مع مُرْسِلِهِ، وبَيْعته بيعته، فمن بايعه، فكأنما بايع الله، ويدُ الله فوقَ يده، وإذا كان الحجرُ الأسودُ يمينَ الله فى الأرض. فمَن صافحه وقبَّله، فكأنما صافح الله، وقبَّل يمينه، فيدُ رسول الله ﷺ أولى بهذا مِن الحَجَر الأسود.

ثم أخبر أن ناكِثَ هذه البيعة إنما يعود نكثُه على نفسه، وأن للمُوَفِّي بها أجراً عظيماً، فَكُلُّ مؤمن فقد بايع الله على لسان رسوله بَيْعة على الإسلام وحقوقه، فناكِث ومُوفٍ.

ثم ذكرَ حالَ مَن تخلَّفَ عنه من الأعراب، وظنهم أسوأ الظَّنِّ باللهِ: أنَّهُ يخذُل رسولَه وأولياءَه، وجندَه، ويُظْفِرُ بهم عدوَّهم، فلن ينقلبوا إلى أهليهم أبدًا، وذلك مِن جهلهم بالله وأسمائِهِ وصِفاتِه، وما يليق به، وجهلهم برسوله، وما هُوَ أهل أن يُعامِلَه به ربُّه ومولاه.

ثم أخبر سبحانه عن رضائه عن المؤمنين بدخولهم تحت البَيْعة لرسوله، وأنه سبحانه علم ما فى قلوبهم حينئذ مِن الصِّدق والوفاء، وكمال الانقياد، والطاعة، وإيثار الله ورسولِهِ على ما سواهُ، فأنزل الله السكينةَ والطُّمَأْنِينة، والرِّضى فى قلوبهم، وأثابهم على الرِّضى بحُكمه، والصبرِ لأمره فتحاً قريباً، ومغانِمَ كثيرة يأخذونها، وكان أوَّلُ الفتح والمغانم فتحَ خَيْبَرَ، ومغانمها، ثم استمرت الفتوحُ والمغانمُ إلى انقضاء الدهر. ووعدهم سبحانه مغانِمَ كثيرة يأخذونها، وأخبرهم أنه عجَّل لهم هذه الغنيمة، وفيها قولان:

أحدهما: أنه الصلحُ الذى جرى بينهم وبين عدوهم.

والثانى: أنها فتحُ خيبر وغنائمُها.

ثم قال: ﴿ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ ﴾ [الفتح: ٢٠]، فقيل: أيدىٰ أهلِ مكة أن يقاتلوهم، وقيل: أيدىٰ اليهود حين همُّوا بأن يغتالُوا مَنْ بالمدينة بعد خروج رسول الله ﷺ بمن معه من الصحابة منها، وقيل: هم أهل خيبر وحلفاؤهم الذين أرادوا نصرهم من أسَد وغطفان. والصحيح تناول الآية للجميع.

وقوله: ﴿ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح: ٢٠]. قيل: هذه الفعلة التىٰ فعلها بكم، وهىٰ كفُّ أيدي أعدائكم عنكم مع كثرتهم، فإنَّهُم حينئذٍ كان أهل مكة ومَن حولها، وأهلُ خيبر ومَنْ حولها، وأسَدٌ وغَطَفَان، وجمهورُ قبائل العرب أعداء لهم، وهم بينَهم كالشَّامَةِ، فلم يَصِلُوا إليهم بسوء، فمِن آياتِ الله سبحانه كفُّ أيدي أعدائهم عنهم، فلم يصلوا إليهم بسوء مع كثرتهم، وشدةِ عداوتهم، وتولي حراستهم، وحفظهم فى مشهدهم ومغيبِهم.

وقيل: هىٰ فتح خيبر، جعلها آية لعباده المؤمنين، وعلامة علىٰ ما بعدها من الفتوح، فإن الله سبحانه وعدهم مغانِم كثيرة، وفتوحاً عظيمة، فعجَّل لهم فتحَ خيبر، وجعلها آية لما بعدها، وجزاءً لِصبرهم ورضَاهم يومَ الحديبية وشكراناً، ولهذا خصَّ بها وبغنائمها مَنْ شهد الحديبية.

ثم قال: ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٠]، فجمع لهم إلىٰ النصرِ والظَّفَرِ والغنائم الهداية، فجعلهم مهديِّين منصُورين غانمين، ثم وعدهم مغانِمَ كثيرة وفُتوحاً أُخرىٰ، لم يكونوا ذلك الوقت قادرين عليها، فقيل: هىٰ مكَّةُ، وقيل: هىٰ فارِس والروم، وقيل: الفتوحُ التىٰ بعد خيبر من مشارق الأرض ومغاربها. ثم أخبر سبحانه أن الكفار لو قاتلوا أولياءَه، لولَّىٰ الكفارُ الأدبارَ غيرَ منصورين، وأن هذه سُنَّته فى المكذبين من قبلَهم، ولا تبديلَ لسُنَّته.

فإن قيل: فقد قاتلُوهم يوم أُحُد، وانتصروا عليهم، ولم يولُّوا الأدبار؟

قيل: هذا وعد معلَّق بشرطٍ، مذكور فى غير هذا الموضع، وهو الصبر والتقوىٰ، وفات هذا الشرط يومَ أُحُد بِفَشَلِهم المنافي للصبر، وتنازعهم، وعصيانهم المنافي

للتقوى، فصرفهم عن عدوهم، ولم يحصُل الوعدُ لانتفاء شرطه.

ثم ذكر سبحانه أنه هو الذى كفَّ أيدي بعضِهم عن بعض من بعد أن أظفر المؤمنين بهم، لما لَه فى ذلك من الحِكم البالغة التى منها: أنه كان فيهم رجالٌ ونساء قد آمنوا، وهم يكتُمون إيمانَهم، لم يعلمْ بهم المسلمون، فلو سلَّطكم عليهم، لأصبتم أُولئك بمعرَّة الجيش، وكان يُصيبكم منهم معرَّةُ العُدوان والإيقاع بمن لا يستحق الإيقاع به، وذكر سبحانه حصول المعرَّةِ بهم من هؤلاء المستضعفين المستخفِّين بهم، لأنها موجبُ المعرَّة الواقعة منهم بهم، وأخبر سبحانه أنهم لو زايلوهم وتميَّزوا منهم، لعذَّب أعداءه عذاباً أليماً فى الدنيا، إما بالقتلِ والأسر، وإما بغيره، ولكن دفع عنهم هذا العذَابَ لوجود هؤلاء المؤمنين بَيْنَ أَظهرهم، كما كان يدفعُ عنهم عذابَ الاستئصال، ورسولُه بين أظهرهم.

ثم أخبر سبحانه عما جعله الكفارُ فى قلوبهم مِن حَمِية الجاهليةِ التى مصدرها الجهلُ والظُّلم، التى لأجلها صدُّوا رسولَه وعِبادَه عن بيته، ولم يُقِرُّوا ببسم الله الرحمن الرحيم، ولم يُقِرُّوا لمحمد بأنه رسول الله مع تحققهم صدقه، وتيقنِهم صحةَ رسالته بالبراهين التى شاهدوها، وسمعوا بها فى مدة عشرين سنة، وأضاف هذَا الجَعْلَ إليهم، وإن كان بقضائه وقدره، كما يُضاف إليهم سائرُ أفعالهم التى هى بقُدرتهم وإرادتهم.

ثم أخبر سبحانه أنه أنزل فى قلبِ رسوله وأوليائه مِن السكينة ما هو مقابل لما فى قلوب أعدائه مِن حَمِيَّة الجاهلية، فكانت السكينةُ حظَّ رسوله وحِزبه، وحَميةُ الجاهلية حظَّ المشركين وجندهم، ثم ألزم عِبادَه المؤمنين كلمة التقوى، وهى جِنس يَعُمُّ كُلَّ كلمةٍ يُتقى الله بها، وأعلى أنواعها كلمةُ الإخلاص، وقد فُسِّرَتْ ببسم الله الرحمن الرحيم، وهى الكلمةُ التى أبت قريش أن تلتزِمها، فألزمها اللهُ أولياءَهُ وحزبه، وإنما حَرَمَهَا أعداءَهُ صيانة لها عن غير كفئها، وألزمها مَن هو أحقُّ بهَا وأهلها، فوضعها فى موضعها، ولم يُضيعها بوضعها فى غير أهلها، وهو العليم بمحالِّ تخصيصه ومواضعه.

ثم أخبر سبحانه أنه صدَقَ رسُولَه رؤياه في دخولهم المسجدَ آمنين، وأنه سيكون ولا بُدَّ، ولكن لم يكن قد آن وقت ذلك في هذا العام، والله سبحانه عَلِمَ مِن مصلحة تأخيره إلى وقته ما لم تعلموا أنتم، فأنتم أحببتُم استعجالَ ذلك، والربُّ تعالى يعلم من مصلحة التأخير وحكمته ما لم تعلمُوه، فقدَّم بين يدي ذلك فتحاً قريباً، توطئة له وتمهيداً.

ثم أخبرهم بأنه هو الذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودينِ الحقِّ لِيُظهره على الدِّين كُلِّه، فقد تكفَّل الله لهذا الأمر بالتمام والإظهار على جميع أديان أهلِ الأرض، ففي هذا تقوية لقلوبهم، وبِشارة لهم وتثبيتٌ، وأن يكونوا على ثقة مِن هذا الوعد الذي لا بُدَّ أن ينجزه، فلا تظنُّوا أن ما وقع من الإغماض والقهرِ يومَ الحُديبية نُصرة لعدوه، ولا تخلياً عن رسوله ودينه، كيف وقد أرسله بدينه الحقِّ، ووعده أن يُظهِرَه على كل دِينٍ سواه؟

ثم ذكر سبحانه رسولَه وحزبَه الذين اختارهم له، ومدحهم بأحسن المدح، وذكر صفاتِهم في التوراة والإنجيل، فكان في هذا أعظمُ البراهين على صدق مَن جاء بالتوراة والإنجيل والقرآن، وأن هؤلاء هم المذكورون في الكتب المتقدمة بهذه الصفات المشهورة فيهم، لا كما يقول الكفار عنهم: إنهم متغلِّبون طالبُو ملك ودنيا، ولهذا لما رآهم نصارىٰ الشام، وشاهدوا هَدْيَهم وسيرتَهم، وعدلهم وعلمهم، ورحمَتهم وزهدَهم في الدنيا، ورغبتهم في الآخرة، قالوا: ما الذين صَحِبُوا المسيحَ بأفضلَ مِن هؤلاء، وكان هؤلاء النصارىٰ أعرفَ بالصحابة وفضلهم من الرافضة أعدائهم، والرافضةُ تصفُهُم بضد ما وصفهم الله به في هذه الآية وغيرها، ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

[1]الإشارة إلى ما في الغزوة[2] من الفقه واللَّطائف: كان صلحُ الحديبية مقدِّمةً

(١) ٤٠١ الزاد جـ٢.

(٢) أي غزوة الفتح، سرد المؤلف رحمه الله هذه الغزوة في عدة صحائف فمن أرادها فليراجعها. (ج).

وتوطئة بينَ يدي هذا الفتح العظيم، أَمِنَ الناسُ به، وكلَّم بعضُهم بعضاً وتناظروا في الإسلام، وتمكن مَن اختفىٰ مِن المسلمين بمكة من إظهار دينه، والدعوةِ إليه، والمناظرةِ عليه، ودخل بسببه بَشَرٌ كثيرٌ في الإسلام، ولهذا سمَّاه الله فتحاً في قوله: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ [الفتح: ١]، نزلت في شأن الحُديبية، فقال عمر: يا رسول الله؛ أَوَ فتحٌ هو؟ قال: «نعم». وأعاد ﷺ ذكر كونه فتحاً، فقال: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ٢٧].

وهذا شأنه سبحانه أن يُقدِّمَ بين يدي الأُمور العظيمة مقدِّماتٍ تكونُ كالمدخل إليها، المنبئة عنها، كما قدَّم بين يدي قصة المسيح وخلقه مِن غير أب، قِصة زكريا، وخلقِ الولد له مع كونه كبيراً لا يُولد لمثله.

وكما قدَّم بين يدي نسخ القِبْلة قصةَ البيت وبناءه وتعظيمه، والتنويه بِه، وذِكْر بانيه، وتعظِيمهِ، ومدحه.

ووطأ قبل ذلك كُلِّه بذكر النسخ، وحكمته المقتضية له، وقُدرته الشاملة له.

وهكذا ما قدَّم بين يدي مبعث رسوله ﷺ، من قصة الفيل، وبِشارات الكُهَّان به، وغير ذلك، وكذلك الرُّؤيا الصالحة لرسوله ﷺ كانت مقدِّمةً بين يدي الوحي في اليقظة.

وكذلك الهِجرة كانت مقدِّمةً بين يدي الأمر بالجهاد.

ومَن تأمل أسرار الشرع والقدر، رأىٰ من ذلك ما تَبْهَرُ حِكمتُه الألبابَ.

وفيها: أن أهل العهد إذا حاربُوا مَن هم في ذمة الإمام وجواره وعهده، صارُوا حرباً له بذلك، ولم يبق بينهم وبينه عهدٌ، فله أن يُبَيِّتَهم في ديارهم، ولا يحتاجُ أن يُعلِمَهُمْ علىٰ سواء، وإنما يكون الإعلامُ إذا خاف منهم الخيانَة، فإذا تحقَّقها، صاروا نابذين لعهده.

وفيها: انتقاضُ عهد جميعهم بذلك، رِدْئهم ومُباشِرِيهم إذا رضُوا بذلك، وأقرُّوا

عليه ولم يُنكروه، فإن الذين أعانُوا بني بكر مِن قُريش، بعضُهم لم يُقاتِلُوا كُلُّهم معهم، ومع هذا فقد غزاهم رسولُ الله ﷺ كلَّهم، وهذا كما أنهم دخلوا في عقد الصلح تبعاً، ولم ينفرِدْ كلٌّ واحد منهم بصُلح، إذ قد رَضُوا به وأقرُّوا عليه، فكذلك حُكم نقضهم للعهد، هذا هَدْيُ رسول الله ﷺ الذي لا شك فيه كما ترى[١].

[٢]تعريف الصراط باللام هنا: فاعلم أن الألف واللام إذا دخلت على اسم موصوف اقتضت أنه أحق بتلك الصفة من غيره، ألا ترى أن قولك: جالس فقيها أو عالما ليس كقولك جالس الفقيه أو العالم. ولا قولك: أكلت طيبًا كقولك: أكلت الطيب. ألا ترى إلى قوله ﷺ: **«أنت الحق ووعدك الحق وقولك الحق»** ثم قال: **«ولقاؤك الحق والجنة حق والنار حق»**[٣] فلم يدخل الألف واللام على الأسماء المحدثة، وأدخلها على اسم الرب تعالى ووعده وكلامه.

فإذا عرفت هذا فلو قال: اهدنا صراطًا مستقيمًا لكان الداعي إنما يطلب الهداية إلى صراط مستقيم على الإطلاق، وليس المراد ذلك، بل المراد الهداية إلى الصراط المعين الذي نصبه الله تعالى لأهل نعمته، وجعله طريقا إلى رضوانه وجنته، وهو دينه الذي لا دين له سواه، فالمطلوب أمر معين في الخارج والذهن، لا شيء مطلق منكر. واللام هنا للعهد العلمي الذهني، وهو أنه طلب الهداية إلى سر معهود، قد قام في القلوب معرفته والتصديق به وتميزه عن سائر طرق الضلال، فلم يكن بد من التعريف.

فإن قيل: لم جاء منكرا في قوله لنبيه ﷺ: ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [الفتح: ٢]

---

(١) استمر المؤلف في شرح هذه الغزوة وفقهها في كراسات، وهي كبيرة الفائدة، ألجأنا طلب الاختصار إلى الإحالة عليها هي وأمثالها. (ج).

(٢) ١٢ البدائع جـ٣.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ١١٢٠) ومسلم (رقم ٧٦٩) وانظر: فتح الباري (٣/ ٤) (٧/ ١٥٢) وشرح النووي (٦/ ٥٥).

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢] وقوله تعالى: ﴿ وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ٨٧]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ١٦١].

فالجواب عن هذه المواضع بجواب واحد، وهو أنها ليست في مقام الدعاء والطلب، وإنما هي في مقام الإخبار من الله تعالى عن هدايته إلى صراط مستقيم وهداية رسوله إليه ولم يكن للمخاطبين عهد به، ولم يكن معروفًا لهم، فلم يجئ معرفا بلام العهد المشيرة إلى معروف في ذهن المخاطب، قائم في خلده، ولا تقدمه في اللفظ معهود تكون اللام مصروفة إليه، وإنما تأتي لام العهد في أحد هذين الموضعين، أعني أن يكون لها معهود ذهني أو ذكر لفظي، وإذ لا واحد منهما في هذه المواضع، فالتنكير هو الأصل، وهذا بخلاف قوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ فإنه لما تقرر عند المخاطبين أن لله صراطا مستقيما، هدى إليه أنبياءه ورسله، وكان المخاطب سبحانه المسئول عن هدايته عالمًا به، دخلت اللام عليه، فقال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ وقال السهيلي: إن قوله تعالى: ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ نزلت في صلح الحديبية، وكان المسلمون قد كرهوا ذلك الصلح، ورأوا أن الرأي خلافه. وكان الله تعالى عما يقولون ورسوله ﷺ أعلم، فأنزل الله على رسوله ﷺ هذه الآية، فلم يرد صراطًا مستقيمًا في الدين، وإنما أراد صراطًا في الرأي والحرب والمكيدة.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي تهدي من الكفر والضلال إلى صراط مستقيم، ولو قال في هذا الموطن إلى الصراط المستقيم، لجعل للكفر وللضلال حظا من الاستقامة، إذ الألف واللام تنبئ أن ما دخلت عليه من الأسماء الموصلة أحق بذلك المعنى، مما تلاه في الذكر، أو ما قرب به في الوهم، ولا يكون أحق به إلا أن يكون في الآخر طرف منه.

وغير خاف ما في هذين الجوابين من الضعف والوهن. أما قوله: إن المراد بقوله:

﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ في الحرب والمكيدة، فهضم لهذا الفضل العظيم والحظ الجزيل الذي امتن الله به على رسوله.

وأخبر النبي ﷺ أن هذه الآية أحب إليه من الدنيا وما فيها.

ومتى سمى الله الحرب والمكيدة صراطًا مستقيمًا، وهل فسر هذه الآية أحد من السلف أو الخلف بذلك؟ بل الصراط المستقيم ما جعله الله عليه من الهدى ودين الحق، الذي أمره أن يخبر بأن الله تعالى هداه إليه في قوله: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾، ثم فسره بقوله تعالى: ﴿ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١] ونصب دينا هنا على البدل من الجار والمجرور، أي هداني دينًا قيمًا.

أفتراه يمكنه هاهنا أن يقول إن الحرب والمكيدة. فهذا جواب فاسد جدًّا.

وتأمل: ما جمع الله سبحانه لرسوله في آية الفتح من أنواع العطايا.

وذلك خمسة أشياء أحدها: الفتح المبين. والثاني: مغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر. والثالث: هدايته الصراط المستقيم. والرابع: إتمام نعمته عليه. والخامس: إعطاء النصر العزيز.

وجمع سبحانه له بين الهدى والنصر، لأن هذين الأصلين بهما كمال السعادة والفلاح، فإن الهدى هو العلم بالله تعالى ودينه، والعمل بمرضاته وطاعته، فهو العلم النافع والعمل الصالح والنصر والقدرة التامة على تنفيذ دينه، فالحجة والبيان والسيف والسنان، فهو النصر بالحجة واليد وقهر قلوب المخالفين له بالحجة، وقهر أبدانهم باليد.

وهو سبحانه كثيرًا ما يجمع بين هذين الأصلين، إذ بهما تمام الدعوة وظهور دينه على الدين كله، كقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [الصف: ٩] في موضعين في سورة براءة وفي سورة الصف، وقال تعالى:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥] فهذا الهدى، ثم قال: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ فهذا النصر، فذكر الكتاب الهادي والحديد الناصر.

وقال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ [آل عمران: ١-٤].

فذكر إنزال الكتاب الهادي، والفرقان وهو النصر الذي يفرق بين الحق والباطل.

وسر اقتران النصر بالهدى: أن كلا منهما يحصل به الفرقان بين الحق والباطل، ولهذا سمى تعالى ما ينصر به عباده المؤمنين فرقانا، كما قال تعالى: ﴿ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾ [الأنفال: ٤١]، فذكر الأصلين ما أنزله على رسوله يوم الفرقان، وهو يوم بدر، وهو اليوم الذي فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل بنصر رسوله ودينه وإذلال أعدائه وخزيهم.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٨] فالفرقان نصره له على فرعون وقومه. والضياء والذكر التوراة، هذا هو معنى الآية.

ولم يصب من قال: إن الواو زائدة، وإن ضياء منصوب على الحال، كما بينا فساده في: الأمالي المكية، فبين أن آية الفتح تضمنت الأصلين: الهدى والنصر، وأنه لا يصح فيها غير ذلك البتة، وأما جوابه الثاني عن قوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ بأنه لو عرف لجعل للكفر والضلال حظا من الاستقامة، فما أدري من أين جاء له هذا الفهم مع ذهنه الثاقب وفهمه البديع رحمه الله تعالى، وما هي إلا كبوة جواد ونبوة صارم.

أفترى قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ۝ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ

ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الصافات: ١١٧، ١١٨] يفهم منه أن لغيره حظًّا من الاستقامة، وما ثم غيره إلا طرق الضلال، وإنما الصراط المستقيم واحد، وهو ما هدى الله تعالى إليه أنبياءه ورسله أجمعين وهو الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم.

وكذلك تعريفه في سورة الفاتحة، هل يقال إنه يفهم منه أن لغيره حظًّا من الاستقامة.

بل يقال: تعريفه ينبئ أن لا يكون لغيره حظ من الاستقامة، فإن التعريف في قوة الحصر، فكأنه قيل: لا صراط مستقيم سواه. وفهم هذا الاختصاص من اللفظ أقوى من فهم المشاركة، فتأمله هنا وفي نظائره.

***

﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾.

[(١)] لم يجمع على أحد من الوعيد والعقوبة ما جمع على أهل الإشراك، فإنهم ظنوا به ظن السوء، حتى أشركوا به، ولو أحسنوا به الظن لوحّدوه حق توحيده.

ولهذا أخبر سبحانه عن المشركين أنهم ما قدروه حق قدره في ثلاثة مواضع من كتابه.

وكيف يقدره حق قدره من جعل له عدلا وندا، يحبه، ويخافه، ويرجوه، ويذل له، ويخضع له، ويهرب من سخطه، ويؤثر مرضاته؟ قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]. وقال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝ ﴾ [الأنعام: ١]. أي يجعلون له عَدْلًا في العبادة والمحبة والتعظيم.

وهذه هي التسوية التي أثبتها المشركون بين الله وبين آلهتهم، وعرفوا، وهم في

---

(١) ٦١ الإغاثة جـ١.

النار، أنها كانت ضلالا وباطلا، فيقولون لآلهتهم وهم في النار معهم: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨].

ومعلوم أنهم ما سووهم به في الذات والصفات والأفعال، ولا قالوا: إن آلهتهم خلقت السماوات والأرض، وأنها تحيي وتميت، وإنما سووها به في محبتهم لها، وتعظيمهم لها، وعبادتهم إياها، كما ترى عليه أهل الإشراك ممن ينتسب إلى الإسلام. ومن العجب أنهم ينسبون أهل التوحيد إلى التنقص بالمشايخ والأنبياء والصالحين، وما ذنبهم إلا أن قالوا: إنهم عبيد لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم ضرًا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، وأنهم لا يشفعون لعابديهم أبدا، بل قد حرم الله شفاعتهم لهم، ولا يشفعون لأهل التوحيد إلا بعد إذن الله لهم في الشفاعة، فليس لهم من الأمر شيء، بل الأمر كله لله، والشفاعة كلها له سبحانه، والولاية له، فليس لخلقه من دونه ولي ولا شفيع.

[(١)] إذا تبين هذا فههنا أصل عظيم يكشف سر المسألة، وهو أن أعظم الذنوب عند الله إساءة الظن به؛ فإن المسيء به الظن قد ظن به خلاف كماله المقدس، فظن به ما يناقض أسماءه وصفاته.

ولهذا توعد الله سبحانه الظانين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم، كما قال تعالى: ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾.

وقال تعالى لمن أنكر صفة من صفاته: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [فصلت: ٢٣].

وقال تعالى عن خليله إبراهيم أنه قال لقومه: ﴿ مَاذَا تَعْبُدُونَ ۝ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ٨٥-٨٧].

أي فما ظنكم أن يجازيكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره، وما ظنكم به حين

---

(١) ١٨٥ الجواب.

عبدتم معه غيره؟ وما ظنكم بأسمائه وصفاته وربوبيته من النقص؟ حتى أحوجكم ذلك إلى عبودية غيره؟ فلو ظننتم به ما هو أهله من أنه بكل شيء عليم، وهو على كل شيء قدير، وأنه غني عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه، وأنه قائم بالقسط على خلقه، وأنه المتفرد بتدبير خلقه لا يشركه فيه غيره، والعالم بتفاصيل الأمور فلا يخفى عليه خافية من خلقه، والكافي لهم وحده فلا يحتاج إلى معين، والرحمن بذاته فلا يحتاج في رحمته إلى من يستعطفه.

***

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾.

[(١)]...أما تقديم العزيز على الحكيم فإن كان من الحكم وهو الفصل والأمر فما ذكره من المعنى صحيح. وإن كان من الحكمة وهي كمال العلم والإرادة المتضمنين اتساق صنعه وجريانه على أحسن الوجوه وأكملها، ووضعه الأشياء مواضعها، وهو الظاهر من هذا الاسم، فيكون وجه التقديم: أن العزة كمال القدرة، والحكمة كمال العلم، وهو سبحانه الموصوف من كل صفة كمال بأكملها وأعظمها وغايتها، فتقدم وصف القدرة، لأن متعلقه أقرب إلى مشاهدة الخلق، وهو مفعولاته تعالى وآياته. وأما الحكمة فمتعلقها بالنظر والفكر والاعتبار غالبا، وكانت متأخرة عن متعلق القدرة. ووجه ثان أن النظر في الحكمة بعد النظر في المفعول والعلم به، فينتقل منه إلى النظر فيما أودعه من الحكم والمعاني.

ووجه ثالث: أن الحكمة غاية الفعل، فهي متأخرة عنه تأخر الغايات عن وسائلها فالقدرة تتعلق بإيجاده، والحكمة تتعلق بغايته، فقدم الوسيلة على الغاية، لأنها أسبق في الترتيب الخارجي.

***

(١) ٦٧ البدائع جـ١.

﴿ لِّتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ۝ ﴾.

[1]وتأمل قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [النور: ٥٢] كيف جعل الطاعة لله ولرسوله، والخشية والتقوىٰ له وحده، وقال تعالىٰ: ﴿ لِّتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ [الفتح: ٩] كيف جعل التوقير والتعزير للرسول وحده، والتوقير هو التعظيم الصادر عن الهيبة والإجلال، هذه حقيقته، فعلم أن الخوف من أجل مقامات الخواص، وأنهم إليه أحوج وبه أقوم من غيرهم.

***

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝ ﴾.

[2]...لشدة الحاجة إلىٰ السكينة وحقيقتها وتفاصيلها وأقسامها نشير إلىٰ ذلك بحسب علومنا القاصرة وأذهاننا الجامدة وعباراتنا الناقصة، ولكن نحن أبناء الزمان، والناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم ولكل زمان دولة ورجال.

فالسكينة فعيلة من السكون، وهو طمأنينة القلب واستقراره، وأصلها في القلب، ويظهر أثرها علىٰ الجوارح، وهي عامة وخاصة.

فسكينة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أخص مراتبها وعلىٰ أقسامه: كالسكينة التي حصلت لإبراهيم الخليل، وقد ألقي في المنجنيق مسافرًا إلىٰ ما أضرم له أعداء الله من النار فيا لله تلك السكينة التي كانت في قلبه حين ذلك السفر!

وكذلك السكينة التي حصلت لموسىٰ، وقد غشيه فرعون وجنوده من ورائهم والبحر أمامهم، وقد استغاث بنو إسرائيل: يا موسىٰ إلىٰ أين تذهب بنا، هذا البحر

---

(١) ٢٩٢ طريق الهجرتين.

(٢) ٢٠٠الأعلام جـ٤.

أمامنا، وهذا فرعون خلفنا.

وكذلك السكينة التي حصلت له وقت تكليم الله له: نداء ونجاء كلامًا حقيقة، سمعه حقيقة بأذنه. وكذلك السكينة التي حصلت له وقد رأىٰ العصا ثعبانًا مبينًا. وكذلك السكينة التي نزلت عليه وقد رأىٰ حبال القوم وعصيهم كأنها تسعىٰ، فأوجس في نفسه خيفة. وكذلك السكينة التي حصلت لنبينا ﷺ وقد أشرف عليه وعلىٰ صاحبه عدوهما وهما في الغار، فلو نظر أحدهم إلىٰ تحت قدميه لرآهما.

وكذلك السكينة التي نزلت عليه في مواقفه العظيمة، وأعداء الله قد أحاطوا به كيوم بدر ويوم حنين ويوم الخندق وغيره، فهذه السكينة أمر فوق عقول البشر، وهي من أعظم معجزاته عند أرباب البصائر، فإن الكذاب ولاسيما علىٰ الله أقلق ما يكون، وأخوف ما يكون، وأشده اضطرابًا في مثل هذه المواطن، فلو لم يكن للرسل صلوات الله وسلامه عليهم من الآيات إلا هذه وحدها لكفتهم.

وأما الخاصة فتكون لأتباع الرسل بحسب متابعتهم، وهي سكينة الإيمان، وهي سكينة تسكن القلوب عن الريب والشك، ولهذا أنزلها الله علىٰ المؤمنين في أصعب المواطن، أحوج ما كانوا إليها: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح: ٤] فذكر نعمته عليهم بالجنود الخارجة عنهم، والجنود الداخلة فيهم، وهي السكينة عند القلق والاضطراب، الذي لم يصبر عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذلك يوم الحديبية: قال الله عز وجل يذكر نعمته عليهم بإنزالها أحوج ما كانوا إليها ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨] لما علم الله عز وجل ما في قلوبهم من القلق والاضطراب لما منعهم كفار قريش من دخول بيت الله، وحبسوا الهدي عن محله، واشترطوا عليهم تلك الشروط الجائرة الظالمة، فاضطربت قلوبهم، وقلقت، ولم تطق الصبر، فعلم

تعالىٰ ما فيها، فثبتها بالسكينة رحمة منه ورأفة ولطفًا، وهو اللطيف الخبير.

وتحتمل الآية وجهًا آخر، وهو أنه سبحانه علم ما في قلوبهم من الإيمان والخير ومحبته ومحبة رسوله، فثبتها بالسكينة وقت قلقها واضطرابها.

والظاهر أن الآية تعم الأمرين، وهو أنه علم ما في قلوبهم مما يحتاجون معه إلىٰ إنزال السكينة، وما في قلوبهم من الخير الذي هو سبب أنزالها.

ثم قال بعد ذلك: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الفتح: ٢٦].

لما كانت حمية الجاهلية توجب من الأقوال والأعمال ما يناسبها جعل الله في قلوب أوليائه سكينة تقابل حمية الجاهلية وفي ألسنتهم كلمة التقوىٰ مقابلة لما توجبه حمية الجاهلية من كلمة الفجور، فكان حظ المؤمنين السكينة في قلوبهم، وكلمة التقوىٰ علىٰ ألسنتهم. وحظ أعدائهم حمية الجاهلية، في قلوبهم، وكلمة الفجور والعدوان علىٰ ألسنتهم. فكانت هذه السكينة وهذه الكلمة جند من جند الله، أيد بها الله رسوله والمؤمنين في مقابلة جند الشيطان الذي في قلوب أوليائه وألسنتهم.

وثمرة هذه السكينة الطمأنينة للخبر تصديقًا وإيقانًا، وللأمر تسليما وإذعانًا، فلا تدع شبهة تعارض الخبر، ولا إرادة تعارض الأمر، فلا تمر معارضات السوء بالقلب إلا وهي مجتازة من مرور الوساوس الشيطانية، التي يُبْتَلَىٰ بها العبد، ليقوىٰ إيمانه، ويعلو عند الله ميزانه، بمدافعتها وردها وعدم السكون إليها، فلا يظن المؤمن أنها لنقص درجته عند الله.

ومنها السكينة عند القيام بوظائف العبودية، وهي التي تورث الخضوع والخشوع، وغض الطرف، وجمعية القلب علىٰ الله تعالىٰ، بحيث يؤدي عبوديته بقلبه وبدنه. والخشوع نتيجة هذه السكينة وثمرتها، وخشوع الجوارح نتيجة خشوع القلب، وقد

رأى النبي ﷺ رجلًا يعبث بلحيته في الصلاة، فقال: «**لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه**»[١].

فإن قلت: قد ذكرت أقسامها ونتيجتها وثمرتها وعلامتها فما أسبابها الجالبة لها؟

قلت: سببها استيلاء مراقبة العبد لربه جل جلاله حتى كأنه يراه، وكلما اشتدت هذه المراقبة أوجبت له من الحياء والسكينة والمحبة والخضوع والخشوع والخوف والرجاء ما لا يحصل بدونها، فالمراقبة أساس الأعمال القلبية كلها، وعمودها الذي قيامها به.

ولقد جمع النبي ﷺ أصول أعمال القلب وفروعها كلها في كلمة واحدة وهي قوله في الإحسان: «**أن تعبد الله كأنك تراه**»[٢]. فتأمل كل مقام من مقامات الدين، وكل عمل من أعمال القلوب، كيف تجد هذا أصله ومنبعه؟

والمقصود أن العبد محتاج إلى السكينة عند الوساوس المعترضة في أصل الإيمان، ليثبت قلبه ولا يزيغ، وعند الوساوس والخطرات القادحة في أعمال الإيمان، لئلا تقوى وتصير همومًا وغمومًا وإرادات ينقص بها إيمانه، وعند أسباب المخاوف على اختلافها، ليثبت قلبه، ويسكن جأشه، وعند أسباب الفرح لئلا يطمح به مركبه، فيجاوز الحد الذي لا يعبر، فينقلب ترحًا وحزنًا.

وكم ممن أنعم الله عليه بما يفرحه فجمح به مركب الفرح وتجاوز الحد، فانقلب ترحًا عاجلًا. ولو أعين بسكينة تعدل فرحه لأريد به الخير، وبالله التوفيق.

***

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٨٦ رقم ٦٧٨٧) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٣/ ٢١٠) وأبو عبدالرحمن السلمي في آداب الصحبة (رقم ٢٠٦) وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٣٠) وفي سنده سليمان بن عمرو أبو داود النخعي أحد من اتهم بوضع الحديث.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٠) ومسلم (رقم ٨، ٩) وانظر: فتح الباري (١/ ١٢٠) وشرح النووي (١/ ١٥٧-١٥٨).

﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

[(١)]كلمة التقوى هي الكلمة التي يتقى الله بها، وأعلى أنواع هذه الكلمة، هي قول لا إله إلا الله، ثم كل كلمة يتقى الله بها بعدها فهي من كلمة التقوى. وقد أخبر سبحانه أنه ألزمها عباده المؤمنين، فجعلها لازمة لهم، لا ينفكون عنها، فبإلزامه التزموها، ولولا إلزامه لهم إياها لما التزموها، والتزامها فعل اختياري تابع لإرادتهم واختيارهم، فهو الملزم وهم الملتزمون.

***

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

[(٢)]بين سبحانه حكمة ما كرهوه عام الحديبية من صد المشركين لهم حتى رجعوا ولم يعتمروا، وبين لهم أن مطلوبهم يحصل بعد هذا، فحصل في العام القابل، وقال سبحانه: ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ وهو صلح الحديبية، وهو أول الفتح المذكور في قوله: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ [الفتح: ١] فإن بسببه حصل من مصالح الدين والدنيا والنصر وظهور الإسلام وبطلان الكفر ما لم يكونوا يرجونه قبل ذلك، ودخل الناس بعضهم في بعض، وتكلم المسلمون بكلمة الإسلام وبراهينه وأدلته جهرة، لا يخافون. ودخل في ذلك الوقت في الإسلام قريب ممن دخل فيه إلى ذلك الوقت، وظهر لكل أحد بغي المشركين وعداوتهم وعنادهم، وعلم

(١) ٦٠ شفاء.
(٢) ٣٤ شفاء.

الخاص والعام أن محمدا وأصحابه أولي الحق والهدى، وأن أعداءهم ليس بأيديهم إلا العدوان والعناد، فإن البيت الحرام لم يصد عنه حاج ولا معتمر من زمن إبراهيم، فتحققت العرب عناد قريش وعداوتهم، وكان ذلك داعية لبشر كثير إلى الإسلام، وزاد عناد القوم وطغيانهم، وذلك من أكبر العون على نفوسهم، وزاد صبر المؤمنين واحتمالهم والتزامهم لحكم الله وطاعة رسوله، وذلك من أعظم أسباب نصرهم إلى غير ذلك من الأمور التي علمها الله، ولم يعلمها الصحابة، ولهذا سماه فتحا. وسئل النبي ﷺ أفتح هو؟ قال: «نعم»(١).

***

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾.

(٢)...قد جمع سبحانه لأهل هدايته بين الهدى والرحمة والصلاة عليهم، فقال: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٧].

قال عمر بن الخطاب ﷺ: «نعم العدلان، ونعمت العلاوة»، فبالهدى خلصوا من الضلال، وبالرحمة نجوا من الشقاء والعذاب، وبالصلاة عليهم نالوا منزلة القرب

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٢٧٣٦) والحاكم (٢/ ١٤٣ رقم ٢٥٩٣) والطبراني في الأوسط (٤/ ١٢٠-١٢١ رقم ٣٧٦٦) وفي الكبير (٦/ ٩٠ رقم ٥٦٠٤) وانظر: نصب الراية (٣/ ٤١٦) ومقدمة فتح الباري (ص ١٦٥).

(٢) ١٧٢ الإغاثة جـ٢.

والكرامة. والضالون حصل لهم ضد هذه الثلاثة: الضلال عن طريق السعادة، والوقوع في ضد الرحمة من الألم والعذاب، والذم واللعن، الذي هو ضد الصلاة.

ولما كان نصيب كل عبد من الرحمة على قدر نصيبه من الهدى كان أكمل المؤمنين إيمانا أعظمهم رحمة، كما قال تعالى فى أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ ﴾ [الفتح: ٢٩]. وكان الصديق رضى الله تعالى عنه من أرحم الأمة، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**أرحم أمتي بأمتي أبو بكر**»[(١)] رواه الترمذي.

وكان أعلم الصحابة باتفاق الصحابة، كما قال أبو سعيد الخدرى ﷺ: «وكان أبو بكر ﷺ أعلمنا به، يعنى النبي ﷺ»[(٢)] فجمع الله له بين سعة العلم والرحمة.

وهكذا الرجل كلما اتسع علمه اتسعت رحمته، وقد وسع ربنا كل شيء رحمة وعلمًا. فوسعت رحمته كل شيء، وأحاط بكل شيء علمًا، فهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، بل هو أرحم بالعبد من نفسه. كما هو أعلم بمصلحة العبد من نفسه.

والعبد لجهله بمصالح نفسه وظلمه لها يسعى فيما يضرها ويؤلمها، وينقص حظها من كرامته وثوابه، ويبعدها من قربه، وهو يظن أنه ينفعها ويكرمها، وهذا غاية الجهل والظلم.

والإنسان ظلوم جهول، فكم من مكرم لنفسه بزعمه، وهو لها مهين، ومرفه لها، وهو لها متعب، ومعطيها بعض غرضها ولذتها، وقد حال بينها وبين جميع لذاتها، فلا علم له بمصالحها التي هي مصالحها، ولا رحمة عنده لها، فما يبلغ عدوه منه ما يبلغ

---

(١) أخرجه الضياء في المختارة (٦/ ٢٢٧ رقم ٢٢٤٢) والنسائي في الكبرى (٥/ ٦٧ رقم ٨٢٤٢) وابن ماجه (رقم ١٥٤) والترمذي (رقم ٣٧٩١) والبيهقي في الكبرى (٦/ ٢١٠ رقم ١١٩٦٦) وابن أبي شيبة (٦/ ٣٤٩ رقم ٣١٩٣١) والطبراني في الصغير (رقم ٥٥٦) وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٥٨٢ رقم ١٢٤٢) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وانظر: فتح الباري (٨/ ١٦٧).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٦٦) ومسلم (رقم ٢٣٨٢) وانظر: فتح الباري (١/ ١٦٥-١٦٦).

هو من نفسه. فقد بخسها حظها، وأضاع حقها، وعطل مصالحها، وباع نعيمها الباقي، ولذتها الدائمة الكاملة، بلذة فانية مشوبة بالتنغيص، إنما هي كأضغاث أحلام أو كطيف زار في المنام.

وليس هذا بعجيب من شأنه، وقد فقد نصيبه من الهدى والرحمة. فلو هُدي ورُحم لكان شأنه غير هذا الشأن، ولكن الرب تعالى أعلم بالمحل الذي يصلح للهدى والرحمة. فهو الذي يؤتيها العبد. كما قال عن عبده الخضر: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٥]، ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف: ١٠].

ومما ينبغي أن يُعلم: أن الرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه، وشقت عليها. فهذه هي الرحمة الحقيقية فأرحم الناس بك من شق عليك في إيصال مصالحك، ودفع المضار عنك.

فمن رحمة الأب بولده: أن يكرهه على التأدب بالعلم والعمل، ويشق عليه في ذلك بالضرب وغيره، ويمنعه شهواته التي تعود بضرره، ومتى أهمل من ولده كان لقلة رحمته به، وإن ظن أنه يرحمه [ويرفّهُهُ] ويريحه. فهذه رحمة مقرونة بجهل، كرحمة الأم.

ولهذا كان من إتمام رحمة أرحم الراحمين: تسليط أنواع البلاء على العبد، فإنه أعلم بمصلحته، فابتلاؤه له وامتحانه ومنعه من كثير من أغراضه وشهواته: من رحمته به، ولكن العبد لجهله وظلمه يتهم ربه بابتلائه، ولا يعلم إحسانه إليه بابتلائه وامتحانه...

[1]وقوله: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ فهذا كله شهادة منه لرسوله، قد أظهرها وبينها، وبين صحتها غاية البيان بحيث قطع العذر بينه وبين عباده، وأقام الحجة عليهم، فكونه سبحانه شاهدًا لرسوله معلوم بسائر أنواع الأدلة: عقليها ونقليها وفطريها وضروريها ونظريها.

---

(١) ٤٧٠ المدارج جـ٣.

ومن نظر في ذلك وتأمله علم أن الله سبحانه شهد لرسوله أصدق الشهادة، وأعدلها وأظهرها، وصدقه بسائر أنواع التصديق، بقوله الذي أقام البراهين على صدقه فيه، وبفعله وإقراره، وبما فطر عليه عباده من الإقرار بكماله وتنزيهه عن القبائح، وعما لا يليق به.

وفي كل وقت يحدث من الآيات الدالة على صدق رسوله ما يقيم به الحجة، ويزيل به العذر، ويحكم له ولأتباعه بما وعدهم به من العز والنجاة والظفر والتأييد، ويحكم على أعدائه ومكذبيه بما توعدهم به من الخزي والنكال والعقوبات المعجلة الدالة على تحقيق العقوبات المؤجلة ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفتح: ٢٨] فيظهره ظهورين ظهورًا بالحجة والبيان والدلالة وظهورًا بالنصر والظفر والغلبة والتأييد، حتى يظهره على مخالفيه. ويكون منصورًا.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الفتح

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ الحُجُرَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝ ﴾.

(1)أي لا تقولوا حتى يقول، ولا تأمروا حتى يأمر، ولا تقدموا حتى يفتي، ولا تقطعوا أمرًا حتى يكون هو الذي يحكم فيه ويمضيه. وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنها: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة(2)، وروى العوفي عنه قال: نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه، والقول الجامع في معنى الآية: لا تعجلوا بقول ولا فعل قبل أن يقول رسول الله ﷺ أو يفعل.

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢] فإذا كان رفع أصواتهم فوق صوته سببًا لحبوط أعمالهم، فكيف تقديم آرائهم وعقولهم وأذواقهم وسياساتهم ومعارفهم على ما جاء به ورفعها عليه؟ أليس هذا أولى أن يكون محبطًا لأعمالهم؟

(3)قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ ﴾. أي لا تقولوا حتى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر.

قال بعض السلف: ما من فعلة ـ وإن صغرت ـ إلا ينشر لها ديوانان: لِمَ؟ وكيف؟

---

(١) ٥١ الإعلام جـ١.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٦/ ١١٦) وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٠٢٣ رقم ١٨٦٠٤) وانظر: عمدة القاري (١٨/ ١٩) (١٩/ ١٨١).

(٣) ٥١ الإغاثة جـ٢.

أي: لِمَ فعلت؟ وكيف فعلت؟ فالأول سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه: هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل، وغرض من أغراض الدنيا في محبة المدح من الناس أو خوف ذمهم، أو استجلاب محبوب عاجل، أو دفع مكروه عاجل، أم الباعث على الفعل القيام بحق العبودية، وطلب التودد والتقرب إلى الرب ﷻ، وابتغاء الوسيلة إليه؟

ومحل هذا السؤال: أنه، هل كان عليك أن تفعل هذا الفعل لمولاك، أم فعلته لحظك وهواك؟

والثاني: سؤال عن متابعة الرسول ﷺ في ذلك التعبد، أي هل كان ذلك العمل مما شرعته لك على لسان رسولي، أم كان عملًا لم أشرعه ولم أرضه؟

فالأول: سؤال عن الإخلاص، والثاني عن المتابعة، فإن الله سبحانه لا يقبل عملًا إلا بهما.

فطريق التخلص من السؤال الأول: بتجريد الإخلاص، وطريق التخلص من السؤال الثاني: بتحقيق المتابعة، وسلامة القلب من إرادة تعارض الإخلاص، وهوى يعارض الاتباع، فهذا حقيقة سلامة القلب الذي ضمنت له النجاة والسعادة.

(1) ومن الأدب مع الرسول: أن لا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهي ولا إذن ولا تصرف، حتى يأمر هو وينهى ويأذن، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١] وهذا باق إلى يوم القيامة ولم ينسخ، فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته كالتقدم بين يديه في حياته ولا فرق بينهما عند ذي عقل سليم.

قال مجاهد رحمه الله: لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ. وقال أبو عبيدة: تقول العرب: لا تقدم بين يدي الإمام، وبين يدي الأب. أي لا تعجلوا بالأمر والنهي دونه.

---

(١) ٣٨٩ المدارج جـ٢.

وقال غيره: لا تأمروا حتى يأمر، ولا تنهوا حتى ينهى .

ومن الأدب معه: أن لا ترفع الأصوات فوق صوته، فإنه سبب لحبوط الأعمال، فما الظن برفع الآراء ونتائج الأفكار على سنته وما جاء به؟ أترى ذلك موجبا لقبول الأعمال ورفع الصوت فوق صوته موجبا لحبوطها؟

ومن الأدب معه: أن لا يجعل دعاءه كدعاء غيره قال تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ [النور: ٦٣] وفيه قولان للمفسرين:

أحدهما: أنكم لا تدعونه باسمه، كما يدعو بعضكم بعضًا، بل قولوا: يا رسول الله يا نبي الله. فعلى هذا: المصدر مضاف إلى المفعول، أي دعاءكم الرسول.

الثاني: أن المعنى لا تجعلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضا: إن شاء أجاب، وإن شاء ترك بل إذا دعاكم لم يكن لكم بد من أجابته ولم يسعكم التخلف عنها ألبتة فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل أي دعاؤه إياكم.

ومن الأدب معه: أنهم إذا كانوا معه على أمر جامع من خطبة أو جهاد أو رباط لم يذهب أحد منهم مذهبًا في حاجته حتى يستأذنه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴾ [النور: ٦٢] فإذا كان هذا مذهبا مقيدا بحاجة عارضة لم يوسع لهم فيه إلا بإذنه، فكيف بمذهب مطلق في تفاصيل الدين: أصوله وفروعه دقيقه وجليله، هل يشرع الذهاب إليه بدون استئذانه ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣].

ومن الأدب معه: أن لا يستشكل قوله، بل تستشكل الآراء لقوله، ولا يعارض نصه بقياس، بل تهدر الأقيسة وتلقى لنصوصه، ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيال يسميه أصحابه معقولًا، نعم هو مجهول، وعن الصواب معزول، ولا يوقف قبول ما جاء به ﷺ على موافقة أحد، فكل هذا من قلة الأدب معه ﷺ، وهو عين الجرأة.

***

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ ﴾.

[1] قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ ﴾ [الحجرات: ٤] وهذا النداء هو رفع أصواتهم الذي نهىٰ الله عنه المؤمنين، وأثنىٰ عليهم بِغَضِّها بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ [الحجرات: ٣] وكل ما في القرآن العظيم من ذكر كلامه وتكليمه وأمره ونهيه دال علىٰ أنه تكلم حقيقة لا مجازًا، وكذلك نصوص الوحي الخاص كقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ ﴾ [النساء: ١٦٣] قال الجارودي: سمعت الشافعي يقول: أنا مخالف ابن علية في كل شيء حتىٰ في قول لا إله إلا الله، أنا أقول لا إله إلا الله الذي كلم موسىٰ من وراء حجاب، وهو يقول لا إله إلا الله الذي خلق كلامه أسمعه موسىٰ[2]، وقد نوع الله تعالىٰ هذه الصفة في إطلاقها عليه تنويعًا يستحيل معه نفي حقائقها، بل ليس في الصفات الإلهية أظهر من صفة الكلام والعلو والفعل والقدرة، بل حقيقة الإرسال تبليغ كلام الرب تبارك وتعالىٰ، وإذا انتفت عنه حقيقة الكلام انتفت حقيقة الرسالة والنبوة، والرب تبارك وتعالىٰ يخلق بقوله وكلامه، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢] فإذا انتفت حقيقة الكلام عنه انتفىٰ الخلق، وقد عاب الله آلهة المشركين بأنها لا تكلم ولا تكلم عابديها ولا ترجع إليهم قولًا، والجهمية وصفوا الرب تبارك وتعالىٰ بصفة هذه الآلهة، وقد ضرب الله تعالىٰ لكلامه واستمراره ودوامه المثل بالبحر يمده من بعده سبعة أبحر، وأشجار الأرض كلها أقلام فيفني المداد والأقلام ولا تنفد كلماته، أفهذا صفة من لا يتكلم ولا يقوم به كلام؟ فإذا كان كلامه وتكليمه، وخطابه ونداؤه، وقوله وأمره ونهيه، ووصيته وعهده، وإذنه وحكمه،

(١) ٢٨٥ الصواعق جـ٢.
(٢) أخرجه البيهقي في الاعتقاد (ص ٩٦).

وإنباؤه وإخباره وشهادته كل ذلك مجازًا لا حقيقة له بطلت الحقائق كلها، فإن الحقائق إنما حقت بكلمات تكوينه ﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونس: ٨٢] فما حقت الحقائق إلا بقوله وفعله.

[(١)]وأما الأدب مع الخلق: فهو معاملتهم ـ علىٰ اختلاف مراتبهم ـ بما يليق بهم، فلكل مرتبة أدب، والمراتب فيها أدب خاص.

فمع الوالدين: أدب خاص، وللأب منهما: أدب هو أخص به، ومع العالم: أدب آخر، ومع السلطان: أدب يليق به.

وله مع الأقران أدب يليق بهم، ومع الأجانب أدب غير أدبه مع أصحابه وذوي أنسه، ومع الضيف أدب غير أدبه مع أهل بيته.

ولكل حال أدب: فللأكل آداب، وللشرب آداب، وللركوب والدخول والخروج والسفر والإقامة والنوم آداب، وللبول آداب، وللكلام آداب، وللسكوت والاستماع آداب.

وأدب المرء: عنوان سعادته وفلاحه. وقلة أدبه: عنوان شقاوته وبواره، فما استجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الأدب.

فانظر إلىٰ الأدب مع الوالدين: كيف نجىٰ صاحبه من حبس الغار حين أطبقت عليهم الصخرة، والإخلال به مع الأم تأويلا وإقبالا علىٰ الصلاة كيف امتحن صاحبه بهدم صومعته وضرب الناس له ورميه بالفاحشة؟

وتأمل أحوال كل شقي ومغتر ومدبر: كيف تجد قلة الأدب هي التي ساقته إلىٰ الحرمان؟

وانظر قلة أدب عوف مع خالد: كيف حرمه السلب بعد أن برد بيديه؟

وانظر أدب الصديق ﷺ مع النبي ﷺ في الصلاة: أن يتقدم بين يديه فقال: ما كان

---

(١) ٣٩٠ المدارج جـ٢.

ينبغي لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول الله ﷺ كيف أورثه مقامه والإمامة بالأمة بعده. فكان ذلك التأخر إلى خلفه وقد أومأ إليه أن: اثبت مكانك جمزا وسعيا إلى قدام بكل خطوة إلى وراء مراحل إلى قدام، تنقطع فيها أعناق المطي، والله أعلم.

(١)ذكر سَرِيَّة عُيينة بن حصن الفَزَاري إلى بني تميم، وذلك في المحرَّم من هذه السنة، بعثه إليهم فى سَرِيَّة لِيغزوهم في خمسين فارساً، ليس فيهم مهاجري ولا أنصارى، فكان يسيرُ الليل ويكمُن النهار، فهجم عليهم في صحراء، وقد سرَّحوا مواشيهم، فلما رأوا الجمع ولَّوْا، فأخذ منهم أحد عشر رجلا وإحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبياً، فساقهم إلى المدينة،فأُنزِلُوا في دار رملة بنت الحارث فقدم فيهم عدة من رؤسائهم: عطارد بن حاجب، والزِّبْرقان بن بدر، وقيس بن عاصم، والأقرع بن حابس، وقيس بن الحارث، ونعيم بن سعد، وعمرو بن الأهتم، ورباح بن الحارث، فلما رأوا نِساءهم وذراريَهم، بكوا إليهم، فَعَجِلُوا، فجاؤوا إلى باب النبي ﷺ، فنادوا: يا محمد اخرُج إلينا، فخرج رسولُ الله ﷺ، وأقام بلالُ الصلاة، وتعلَّقُوا برسول الله ﷺ يكلمونه، فوقف معهم، ثم مضى فصلَّى الظهرَ، ثم جلس في صحن المسجد، فقدَّموا عُطارد بن حاجب، فتكلَّم وخطب، فأمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس بن شماس، فأجابهم، وأنزل الله فيهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ ﴾ [الحجرات: ٤، ٥] فردَّ عليهم رسول الله ﷺ الأسرى والسبي. فقام الزِّبْرقان شاعر بَني تميم فأنشد مفاخراً:

نَحْـنُ الكِـرامُ فَـلا حَـيٌّ يُعادِلُنَـا ... مِنَّـا المُلُـوكُ، وفِينـا تُنْـصَبُ البِيَـعُ
وكَـم قَـسَرْنَا مِـن الأحْيـاءِ كُلِّهِـم ... عنـد النِّهـابِ وفَـضْلُ العـزِّ يُتَّبَـعُ
ونَحْـنُ يُطْعِـمُ عِنْـدَ القَحْـطِ مُطْعِمُنَـا ... مِـن الـشِّواءِ إذا لم يُـؤْنَس القَـزَعُ

(١) ٤٧٢ الزاد جـ٢.

بِـمَا تَـرَىٰ النَّـاسَ تَأْتِينَـا سَـرَاتُهُمْ ... مِـنْ كُـلِّ أَرْضٍ هُوِيّـاً ثُـمَّ نَـصْطَنِعُ
فَنَنْحَـرُ الكُـومَ عُبْطـاً فِـي أَرُومَتِنَـا ... للنـازلين إذا مـا أُنزِلُـوا شَـبِعُوا
فـلا ترانـا إلـىٰ حـيٍّ نُفـاخِرُهُم ... إلا اسْـتَفَادُوا فَكَـانُوا الـرَّأْسَ يُقْتَطَـعُ
فَمَـنْ يُفَاخِرُنَـا فِي ذَاكَ نَعْرِفُـه ... فَيَرْجِـعُ القَـوْمُ والأَخْبَـارُ تُـسْتَمَعُ
إِنَّـا أَبَيْنَـا وَلاَ يَـأْبَىٰ لَنَـا أَحَـدٌ ... إِنَّـا كَـذلِكَ عِنْـدَ الفَخْـرِ نَرْتَفِـع

فقام شاعر الإسلام حسَّان بن ثابت، فأجابه على البديهة:

إِنَّ الـذَّوائِبَ مِـنْ فِهْـرٍ وإِخْـوَتِهِمْ ... قَـدْ بَيَّنُـوا سُـنَّةً لِلنَّـاس تُتَّبَـعُ
يَرْضَـىٰ بهـا كُـلُّ مَـنْ كَانَـتْ سَرِيرَتُهُ ... تَقْـوىٰ الإلـه وكُـلُّ الخَيْـر مُـصْطَنَعُ
قَـوْمٌ إذا حَـارَبُوا ضَـرُّوا عَـدُوَّهُم ... أَوْ حَـاوَلُوا النَّفْـعَ في أَشْـيَاعِهِمْ نَفَعُـوا
سَـجِيَّةٌ تِلْـكَ فِـيهِمْ غَيْـرُ مُحْدَثَـةٍ ... إِنَّ الخَلائِـقَ فـاعْلَم شَـرُّهَا البِـدَعُ
إِنْ كَـانَ فِـي النَّـاسِ سَبَّاقُونَ بَعْـدَهُمُ ... فَكُـلُّ سَـبقٍ لأَدْنَـىٰ سَـبْقِهِمْ تَبَـعُ
لاَ يَرْقَـعُ النَّـاسُ مَـا أَوْهَـتْ أَكُفُّهُـمُ ... عِنْـدَ الـدِّفَاعِ ولاَ يُوهُـونَ مَـا رَقَعُـوا
إِنْ سَـابَقُوا النَّـاسَ يَوْمَـاً فَـازَ سَـبْقُهُم ... أَوْ وازَنُـوا أَهْـلَ مَجْـدٍ بِالنَّـدىٰ مَتَعُـوا
أَعِفَّـةٌ ذُكِـرَتْ فِي الـوَحْيِ عِفَّـتُهُمْ ... لاَ يَطْمَعُـونَ وَلا يُـرْدِيهِمُ الطَّمَـعُ
لاَ يَبْخَلُـونَ عَلَـىٰ جَـارٍ بفَـضْلِهِمُ ... وَلا يَمَـسُّهُمُ مِـنْ مَطْمَـعٍ طَبَـعُ
إِذَا نَـصَبْنَا لِحَـيٍّ لَـمْ نَـدِبَّ لَهُـمْ ... كَـمَا يَـدِبُّ إِلـىٰ الوَحْـشيَّةِ الـذُّرُعُ
نَـسْمُوا إذا الحَـرْبُ نَالَتْنَـا مَخَالِبُهَـا ... إِذا الزَّعَـانِفُ مِـنْ أَظْفَارِهَـا خَـضَعُوا
لاَ يَفْخَـرُونَ إِذَا نَـالُوا عَـدُوَّهُمُ ... وإِنْ أُصِـيبُوا فَـلا خَـوْرٌ وَلاَ هَلَـعُ
كَـأَنَّهُمْ فِي الـوَغَىٰ والمَـوْتُ مُكْتَنِـف ... أُسْـدٌ بِحَلْيِـه في أرسَـاغِها فَـدَعُ
خُـذْ مِنْهُمْ مَـا أَتَـوا عَفْـواً إذا غـضبُوا ... وَلا يَكُـنْ هَمـكَ الأَمْـرَ الَّـذِي صنعُوا
فَـإِنَّ فِي حَـرْبِهِمْ فَـاتْرُكْ عَـدَاوَتَهُمْ ... شَـراً يُخَـاضُ عَلَيْـهِ الـسُّمُّ والـسَّلَعُ
أَكْـرِمْ بِقَـوْمٍ رَسُـولُ اللهِ شِـيعَتُهُمْ ... إِذَا تَفَاوَتَـتِ الأَهْـوَاءُ والـشِّيَعُ

أَهْدَىٰ لَهُمْ مِدْحَتِي قَلْبٌ يُوَازِرُهُ فيما أَحَبَّ لِسَانٌ حائِكٌ صَنَعُ
فَإِنَّهُمْ أَفْضَلُ الأَحْيَاءِ كُلِّهِم إنْ جَدَّ بِالنَّاسِ جِدُّ القَوْلِ أو شمعوا[1]

فلما فرغ حسَّان، قال الأقرع بن حابس: إنَّ هذا الرجل لَمُؤَتَّى له، لَخطيبُه أخطبُ مِن خطيبنا، ولَشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا، ثم أسلموا، فأجازهم رسولُ الله ﷺ فأحسن جوائزهم.

قال ابن إسحاق: فلما قدم وفد بني تميم، دخلوا المسجد، ونادوا رسول الله ﷺ: أن أخرج إلينا يا محمد، فآذىٰ ذلك رسولَ الله ﷺ مِن صياحهم، فخرج إليهم، فقالوا: جئنا لِنفاخِرك، فأْذن لشاعرنا وخطيبنا قال: «نعم قَدْ أذِنْتُ لخطيبكم فليقم»، فقام عُطارد بن حاجب، فقال: الحمدُ لله الذي له علينا الفضل والمن، وهو أهله، الذي جعلنا ملوكًا ووهب لنا أموالاً عِظاماً، نفعل فيها المعروفَ، وجعلنا أعزَّ أهلِ المشرق وأكثَره عدداً، وأيسرَه عُدّة، فمَن مثلُنا في الناس؟ ألسنا رؤوس الناس، وأُولى فضلهم، فمَن فاخرنا، فليعُدّد مثل ما عَدَدْنَا، وإنا لو نشاء لأكثرنا من الكلام، ولكن نستحيي من الإكثار فيما أعطانا، إنا نعرف بذلك أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا، أو أمرٍ أفضل مِن أمرنا. ثم جلس، فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس بن شماس: «قُمْ فَأَجِبْهُ»، فقام فقال: الحمد لله الذي السَّمواتُ والأرضُ خلقه، قضىٰ فيهن أمرَه، ووسع كرسيَّه علمه، ولم يكن شيء قط إلا من فضله، ثم كان من فضله أن جعلنا ملوكاً، واصطفىٰ من خير خلقه رسولاً، أكرمَه نَسَباً، وأصدقَه حديثاً، وأفْضلَه حسباً، فأنزل عليهِ كِتابه، وائتمنه علىٰ خلقه، وكان خيرة الله مِن العالمين، ثم دعا الناسَ إلىٰ الإيمان بالله، فآمن به المهاجرون من قومه وذوي رحمه، أكرم الناس أحساباً، وأحسنهم وجوهاً، وخير الناس فعالاً، ثم كان أَوَّل الخلق إجابة واستجابة لله حين دعاه رسول الله ﷺ نحن،

---

(١) ذكر هذه الأبيات والتي تليها لحسان ﷺ وللزبرقان كل من ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٠/ ٣٦٢-٣٦٣) مع اختلاف يسير وتقديم وتأخير في بعض الأبيات وابن عبد البر في الاستيعاب (١/ ٣٤٩-٣٥٠) (٢/ ٥٦١) بينما ذكر أبيات الزبرقان وحده عمر بن شبة في أخبار المدينة (١/ ٢٨٤-٢٨٥).

فنحن أنصار الله، ووزراءُ رسولِه ﷺ، نُقاتِلُ الناسَ حتى يؤمنوا بالله، فمن آمن بالله ورسولِه منع ماله ودمه، ومَن كفر جاهدناه في الله أبداً، وكان قتلُه علينا يسيراً، أقول هذا، وأستغفر الله العظيم لي وللمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم». ثم ذكر قيام الزِّبْرقان وإنشاده، وجواب حسَّان له بالأبيات المتقدمة، فلما فرغ حسَّان من قوله، قال الأقرع بن حابس: إن هذا الرجل لمؤتى، لخطيبه أخطبُ مِن خطيبنا، وشاعِرُه أشعر من شاعرنا، وأقوالُهم أعلى من أصواتنا، ثم جوَّزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم[١].

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٨﴾ ﴾.

[٢]أما الفسوق: فهو في كتاب الله نوعان: مفرد مطلق، ومقرون بالعصيان.

والمفرد نوعان أيضًا: فسوق كفر يخرج عن الإسلام، وفسوق لا يخرج عن الإسلام. فالمقرون كقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ [الحجرات: ٧]. والمفرد ـ الذي هو فسوق كفر ـ كقوله تعالى: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ ﴾ الآية. [البقرة: ٢٦، ٢٧].

وقوله ﷻ: ﴿ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۢ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [البقرة: ٩٩] وقوله: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾

---

(١) انظر: تاريخ دمشق (١٠/ ٢٧٤) والاستيعاب (١/ ٢٥٠) والثقات (٢/ ١١٢) وتفسير السيوطي (٧/ ٥٥٤).

(٢) ٣٥٩ المدارج جـ١.

[السجدة: ٢٠] فهذا كله فسوق كفر.

وأما الفسوق الذي لا يخرج عن الإسلام فكقوله تعالى: ﴿وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ﴾ [الحجرات: ٦] فإن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط لما بعثه رسول الله إلى بني المصطلق بعد الوقعة مصدقا، وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية، فلما سمع القوم بمقدمه تلقوه تعظيمًا لأمر رسول الله ﷺ فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله، فهابهم فرجع من الطريق إلى رسول الله ﷺ، فقال: إن بني المصطلق منعوا صدقاتهم، وأرادوا قتلي. فغضب رسول الله ﷺ وَهَمَّ أن يغزوهم، فبلغ القوم رجوعه، فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله سمعنا برسولك فخرجنا نتلقاه ونكرمه، ونؤدي إليه ما قبلنا من حق الله، فبدا له في الرجوع، فخشينا أنه إنما رده من الطريق كتاب جاء منك لغضب غضبته علينا، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله فاتهمهم رسول الله ﷺ، وبعث خالد بن الوليد خفية في عسكر، وأمره أن يخفي عليهم قدومه، وقال له: انظر فإن رأيت منهم ما يدل على إيمانهم فخذ منهم زكاة أموالهم، وإن لم تر ذلك فاستعمل فيهم ما تستعمل في الكفار. ففعل ذلك خالد ووافاهم فسمع منهم أذان صلاتي المغرب والعشاء، فأخذ منهم صدقاتهم، ولم ير منهم إلا الطاعة والخير، فرجع إلى رسول الله ﷺ، وأخبره الخبر فنزل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾[1] الآية. و«النبأ» هو الخبر، الغائب عن المخبر إذا كان له شأن، و«التبين» طلب بيان حقيقته والإحاطة بها علمًا.

وههنا فائدة لطيفة، وهي أنه سبحانه لم يأمر برد خبر الفاسق وتكذيبه ورد شهادته جملة، وإنما أمر بالتبين، فإن قامت قرائن وأدلة من خارج تدل على صدقه عمل بدليل

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٦/ ١٢٣) والطبراني في الكبير (٢٣/ ٤٠١ رقم ٩٦٠) وإسحاق بن راهويه في مسنده (٤/ ١١٨-١١٩ رقم ١٨٨٦) قال الهيثمي في المجمع (٧/ ١١١): رواه الطبراني وفيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف. وانظر: تفسير السيوطي (٧/ ٥٥٦).

الصدق، ولو أخبر به من أخبر، فهكذا ينبغي الاعتماد في رواية الفاسق وشهادته.

وكثير من الفاسقين يصدقون في أخبارهم ورواياتهم وشهاداتهم، بل كثير منهم يتحرى الصدق غاية التحري وفسقه من جهات أخر، فمثل هذا لا يرد خبره ولا شهادته، ولو ردت شهادة مثل هذا وروايته لتعطلت أكثر الحقوق، وبطل كثير من الأخبار الصحيحة، ولاسيما من فسقه من جهة الاعتقاد والرأي، وهو متحر للصدق، فهذا لا يرد خبره ولا شهادته.

وأما من فسقه من جهة الكذب، فإن كثر منه وتكرر بحيث يغلب كذبه على صدقه، فهذا لا يقبل خبره ولا شهادته، وإن ندر منه مرة ومرتين، ففي رد شهادته وخبره بذلك قولان للعلماء، وهما روايتان عن الإمام أحمد رحمه الله.

والمقصود: ذكر الفسوق الذي لا يخرج إلى الكفر.

والفسوق الذي تجب التوبة منه أعم من الفسوق الذي ترد به الرواية والشهادة. وكلامنا الآن فيما تجب التوبة منه، وهو قسمان: فسق من جهة العمل، وفسق من جهة الاعتقاد. ففسق العمل نوعان: مقرون بالعصيان ومفرد.

فالمقرون بالعصيان: هو ارتكاب ما نهى الله عنه والعصيان: هو عصيان أمره، كما قال الله تعالى: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ ﴾ [التحريم: ٦] وقال موسى لأخيه هارون عليهما السلام: ﴿ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ۝ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴾ [طه: ٩٢، ٩٣] وقال الشاعر:

أمرتك أمرا جازما فعصيتني ... فأصبحت مسلوب الإمارة نادما[1]

فالفسق أخص بارتكاب النهي، ولهذا يطلق عليه كثيرا كقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَفْعَلُواْ

---

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما إلا أن عجز البيت:
فجـدك إذ لم تقبل النصح عاثر
وذكر البيت كما هو هنا الطبري في تفسيره (١٤/ ٦٩) وجعله من قول حصين بن المنذر الرقاشي ليزيد بن المهلب. وذكر صدر البيت الآمدي في الإحكام (١/ ١٦٤) (٢/ ١٦٧) ولم ينسبه لأحد.

فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. والمعصية أخص بمخالفة الأمر كما تقدم، ويطلق كل منهما على صاحبه، كقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠] فسمى مخالفته للأمر فسقًا، وقال: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] فسمى ارتكابه للنهي معصية، فهذا عند الإفراد، فإذا اقترنا كان أحدهما لمخالفة الأمر، والآخر لمخالفة النهي.

والتقوى اتقاء مجموع الأمرين، وبتحقيقها تصح التوبة من الفسوق والعصيان، بأن يعمل العبد بطاعة الله على نور من الله، يرجو ثواب الله، ويترك معصية الله على نور من الله، يخاف عقاب الله.

وفسق الاعتقاد: كفسق أهل البدع، الذين يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر، ويحرمون ما حرم الله، ويوجبون ما أوجب الله، ولكن ينفون كثيرًا مما أثبت الله ورسوله جهلا وتأويلا وتقليدا للشيوخ، ويثبتون ما لم يثبته الله ورسوله كذلك.

وهؤلاء كالخوارج المارقة وكثير من الروافض والقدرية والمعتزلة، وكثير من الجهمية الذين ليسوا غلاة في التجهم.

وأما غالية الجهمية: فكغلاة الرافضة، ليس للطائفتين في الإسلام نصيب.

ولذلك أخرجهم جماعة من السلف من الثنتين والسبعين فرقة، وقالوا: هم مباينون للملة.

[(١)]من ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾ [الحجرات: ٧].

فتحبيبه سبحانه الإيمان إلى عباده المؤمنين هو إلقاء محبته في قلوبهم، وهذا لا يقدر عليه سواه، وأما تحبيب العبد الشيء إلى غيره، فإنما هو بتزيينه، وذكر أوصافه

---

(١) ٥٧ شفاء.

وما يدعو إلى محبته.

فأخبر سبحانه أنه جعل في قلوب عباده المؤمنين الأمرين: حبه وحسنه الداعي إلى حبه، وألقى في قلوبهم كراهة ضده من الكفر والفسوق والعصيان، وأن ذلك محض فضله ومنته عليهم، حيث لم يكلهم إلى أنفسهم، بل تولى هو سبحانه هذا التحبيب والتزيين، وتكريه ضده، فجاد عليهم به فضلًا منه ونعمة، والله عليم بمواقع فضله ومن يصلح له، ومن لا يصلح، حكيم بجعله في مواضعه.

(١)...و«التوفيق» إرادة الله من نفسه أن يفعل بعبده ما يصلح به العبد، بأن يجعله قادرًا على فعل ما يرضيه، مريدا له، محبًّا له، مؤثرًا له على غيره. ويبغض إليه ما يسخطه، ويكرهه إليه، وهذا مجرد فعله، والعبد محل له، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝﴾ [الحجرات: ٧، ٨].

فهو سبحانه عليم بمن يصلح لهذا الفضل، ومن لا يصلح له، حكيم يضعه في مواضعه وعند أهله، لا يمنعه أهله ولا يضعه عند غير أهله، وذكر هذا عقيب قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾.

ثم جاء به بحرف الاستدراك، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾.

يقول سبحانه: لم تكن محبتكم للإيمان وإرادتكم له وتزيينه في قلوبكم منكم، ولكن الله هو الذي جعله في قلوبكم كذلك، فآثرتموه ورضيتموه، فلذلك لا تقدموا بين يدي رسولي، ولا تقولوا حتى يقول ولا تفعلوا حتى يأمر، فالذي حبب إليكم الإيمان أعلم بمصالح عباده منكم، وأنت فلولا توفيقه لكم لما أذعنت نفوسكم للإيمان، فلم يكن الإيمان بمشورتكم وتوفيق أنفسكم، ولا تقدمتم به إليها، فنفوسكم تقصر وتعجز عن ذلك، ولا تبلغه، فلو أطاعكم رسولي في كثير مما تريدون:

---

(١) ٤١٤ المدارج جـ١.

لشق عليكم ذلك، ولهلكتم، وفسدت مصالحكم، وأنتم لا تشعرون، ولا تظنوا أن نفوسكم تريد لكم الرشد والصلاح، كما أردتم الإيمان، فلولا أني حببته إليكم، وزينته في قلوبكم، وكرهت إليكم ضده، لما وقع منكم، ولا سمحت به أنفسكم.

وقد ضرب للتوفيق والخذلان مثل: ملك أرسل إلى أهل بلد من بلاده رسولًا، وكتب معه إليهم كتابًا، يعلمهم أن العدو مصبحهم عن قريب ومجتاحهم، ومخرِّب البلد، ومهلك من فيها، وأرسل إليهم أموالا ومراكب وزادا وعدة وأدلة، وقال: ارتحلوا مع هؤلاء الأدلة، وقد أرسلت إليكم جميع ما تحتاجون إليه، ثم قال لجماعة من مماليكه: اذهبوا إلى فلان فخذوا بيده، واحملوه ولا تذروه يقعد واذهبوا إلى فلان كذلك وإلى فلان، وذروا من عداهم، فإنهم لا يصلحون أن يساكنوني في بلدي، فذهب خواص مماليكه إلى من أمروا بحملهم، فلم يتركوهم يقرون، بل حملوهم حملا، وساقوهم سوقا إلى الملك، فاجتاح العدو من بقي في المدينة وقتلهم وأسر من أسر.

فهل يعد الملك ظالمًا لهؤلاء أم عادلًا فيهم؟ نعم خص أولئك بإحسانه وعنايته، وحرمها من عداهم، إذ لا يجب عليه التسوية بينهم في فضله وإكرامه، بل ذلك فضله يؤتيه من يشاء.

[(١)]قد ذكرنا أن العبد في الذنب له نظر إلى أربعة أمور: نظر إلى الأمر والنهي.

ونظر إلى الحكم والقضاء، وذكرنا ما يتعلق بهذين النظرين.

النظر الثالث: النظر إلى محل الجناية ومصدرها، وهو النفس الأمارة بالسوء، ويفيده نظره إليها أمورًا.

منها: أن يعرف أنها جاهلة ظالمة، وأن الجهل والظلم يصدر عنهما كل قول وعمل قبيح، ومن وصفه الجهل والظلم لا مطمع في استقامته واعتداله البتة، فيوجب له ذلك بذل الجهد في العلم النافع، الذي يخرجها به عن وصف الجهل والعمل الصالح،

---

(١) ٢١٩ المدارج جـ١.

الذي يخرجها به عن وصف الظلم، ومع هذا فجهلها أكثر من علمها، وظلمها أعظم من عدلها.

فحقيق بمن هذا شأنه أن يرغب إلىٰ خالقها وفاطرها أن يقيها شرها، وأن يؤتيها تقواها، ويزكيها فهو خير من زكاها، فإنه ربها ومولاها، وأن لا يكله إليها طرفة عين، فإنه إن وكله إليها هلك، فما هلك من هلك إلا حيث وكل إلىٰ نفسه، وقال النبي ﷺ لحصين بن المنذر: «قل اللهم ألهمني رشدي، وقني شر نفسي»[(١)] وفي خطبة الحاجة «**الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستهديه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا**»[(٢)] وقد قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [التغابن: ١٦] وقال: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف: ٥٣].

فمن عرف حقيقة نفسه وما طبعت عليه: علم أنها منبع كل شر، ومأوىٰ كل سوء، وأن كل خير فيها ففضل من الله منَّ به عليها، لم يكن منها، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ [النور: ٢١]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ [الحجرات: ٧] فهذا الحب وهذه الكراهة لم يكونا في النفس ولا بها، ولكن هو الله الذي منَّ بهما، فجعل العبد بسببهما من الراشدين ﴿ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحجرات: ٨] ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمن يصلح لهذا الفضل، ويزكو عليه وبه، ويثمر عنده ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فلا يضعه عند غير أهله، فيضيعه بوضعه في غير موضعه.

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٤٨٣) والشيباني في الآحاد والمثاني (٤/ ٣٢٣ رقم ٢٣٥٥) والطبراني في الأوسط (٢/ ٢٨٠ رقم ١٩٨٥) وفي الكبير (١٨/ ١٧٤ رقم ٣٩٦) والبزار (٩/ ٥٣ رقم ٣٥٨٠) والديلمي في مسند الفردوس (١/ ٤٦٨ رقم ١٩٠٢) وصححه ابن القيم في الوابل الصيب (ص٢٣٣) ونقل النووي في رياض الصالحين (ص ٣٣٣) تحسين الترمذي.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٨٦٨) وانظر: فتح الباري (٩/ ٢٠٢).

[(١)] إن عمل الحسنات من إحسان الله ومنه وتفضله عليه بالهداية والإيمان، كما قال أهل الجنة ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣].

فخلق الرب سبحانه لهم الحياة والسمع والبصر والعقول والأفئدة، وإرسال الرسل، وتبليغهم البلاغ الذي اهتدوا به، وإلهامهم الإيمان وتحبيبه إليهم وتزيينه في قلوبهم، وتكريه ضده إليهم، كل ذلك من نعمه، كما قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ ﴾ [الحجرات: ٧، ٨].

فجميع ما يتقلب فيه العالم من خير الدنيا والآخرة هو نعمة محضة بلا سبب سابق يوجب ذلك لهم، ومن غير حول وقوة منهم إلا به، وهو خالقهم وخالق أعمالهم الصالحة وخالق جزائها، وهذا كله منه سبحانه.

بخلاف الشر فإنه لا يكون إلا بذنوب العبد، وذنبه من نفسه.

وإذا تدبر العبد هذا علم أن ما هو فيه من الحسنات من فضل الله، فشكر ربه على ذلك، فزاده من فضله عملًا صالحًا ونعمًا يفيضها عليه.

وإذا علم أن الشر لا يحصل له إلا من نفسه وبذنوبه استغفر ربه وتاب، فزال عنه سبب الشر، فيكون دائمًا شاكرًا مستغفرًا، فلا يزال الخير يتضاعف له، والشر يندفع عنه.

***

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ ﴾.

---

(١) ١٦٨ شفاء.

[(١)]الحقوق نوعان: حق الله وحق الآدمي، فحق الله لا مدخل للصلح فيه: كالحدود والزكوات والكفارات ونحوها، وإنما الصلح بين العبد وبين ربه في إقامتها لا في إهمالها، ولهذا لا يقبل بالحدود، وإذا بلغت السلطان فلعن الله الشافع والمشفع.

وأما حقوق الآدميين فهي التي تقبل الصلح والإسقاط والمعاوضة عليها، والصلح العادل هو الذي أمر الله به ورسوله ﷺ، كما قال: ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ ﴾ [الحجرات: ٩] والصلح الجائر هو الظلم بعينه، وكثير من الناس لا يعتمد العدل في الصلح، بل يصلح صلحا ظالما جائرا، فيصالح بين الغريمين على دون الطفيف من حق أحدهما، والنبي ﷺ صالح بين كعب وغريمه، وصالح أعدل الصلح، فأمره أن يأخذ الشطر، ويدع الشطر.

وكذلك لما عزم على طلاق سودة رضيت بأن تهب له ليلتها، وتبقي على حقها من النفقة والكسوة، فهذا أعدل الصلح، فإن الله سبحانه أباح للرجل أن يطلق زوجته، ويستبدل بها غيرها، فإذا رضيت بترك بعض حقها وأخذ بعضه، وأن يمسكها كان هذا من الصلح العادل، وكذلك أرشد الخصمين اللذين كانت بينهما المواريث، بأن يتوخيا الحق بحسب الإمكان، ثم يحلل كل منهما صاحبه.

وقد أمر الله سبحانه بالإصلاح بين الطائفتين المقتتلتين أولا، فإن بغت إحداهما على الأخرى فحينئذ أمر بقتال الباغية لا بالصلح، فإنها ظالمة، ففي الإصلاح مع ظلمها هضم لحق الطائفة المظلومة، وكثير من الظلمة المصلحين يصلح بين القادر الظالم والخصم الضعيف المظلوم، بما يرضى به القادر صاحب الجاه، ويكون له فيه الحظ، ويكون الإغماض والحيف فيه على الضعيف، ويظن أنه قد أصلح ولا يمكن المظلوم من أخذ حقه، وهذا ظلم، بل يمكن المظلوم من استيفاء حقه، ثم يطلب إليه برضاه أن يترك بعض حقه بغير محاباة لصاحب الجاه، ولا يشتبه بالإكراه للآخر

---

(١) ١٠٨ الإعلام جـ١.

بالمحاباة ونحوها.

(١)ندب الله ﷻ إلى الصلح بين الطائفتين في الدماء، فقال: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾.

وندب الزوجين إلى الصلح عند التنازع في حقوقهما، فقال: ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ [النساء: ١٢٨] وقال تعالى: ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [النساء: ١١٤].

وأصلح النبي ﷺ بين بني عمرو بن عوف لما وقع بينهم، ولما تنازع كعب بن مالك وابن أبي حدرد في دين على ابن أبي حدرد أصلح النبي ﷺ بأن استوضع من دين كعب الشطر وأمر غريمه بقضاء الشطر(٢). وقال لرجلين اختصما عنده: «اذهبا فاقتسما ثم توخيا الحق، ثم استهما، ثم ليحلل كل منكما صاحبه»(٣).

***

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

(٤)الصلح الذي يحل الحرام ويحرم الحلال: كالصلح الذي يتضمن تحريم بضع

---

(١) ١٠٧ الإعلام جـ١.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٧١) ومسلم (رقم ١٥٥٨) وانظر: فتح الباري (١/ ٥٥٢) وشرح النووي (١٠/ ٢٢٠).

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٦٠ رقم ٢١٠٣٣) وأبو يعلى (١٢/ ٤٥٦ رقم ٧٠٢٧).

(٤) ١٠٩ الإعلام جـ١.

حلال، أو إحلال بضع حرام، أو إرقاق حر، أو نقل نسب، أو ولاء عن محل إلى محل، أو أكل ربا، أو إسقاط واجب، أو تعطيل حد، أو ظلم ثالث، وما أشبه ذلك، فكل هذا صلح جائر مردود.

فالصلح الجائز بين المسلمين هو الذي يعتمد فيه رضا الله سبحانه ورضا الخصمين، فهذا أعدل الصلح وأحقه، وهو يعتمد العلم والعدل، فيكون المصلح عالمًا بالوقائع، عارفًا بالواجب، قاصدًا للعدل، فدرجة هذا أفضل من درجة الصائم القائم، كما قال النبي ﷺ: «**ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصائم القائم**» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «**إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين الحالقة، أما إني أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين**»[1] وقد جاء في أثر: أصلحوا بين الناس، فإن الله يصلح بين المؤمنين يوم القيامة، وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[2] [الحجرات: ١٠].

[3]قال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١] قسم العباد إلى تائب وظالم، وما ثمَّ قسم ثالث البتة، وأوقع اسم «الظالم» على من لم يتب ولا أظلم منه؛ لجهله بربه وبحقه، وبعيب نفسه وآفات أعماله، وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**يا أيها الناس، توبوا إلى الله، فوالله إني لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»[4].

وكان أصحابه يعدون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم: «**رب اغفر لي، وتب**

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٥٠٩) وأحمد (١/ ١٦٧) وعبدالرزاق (١٠/ ٣٨٥ رقم ١٩٤٣٨) والشاشي (١/ ١١٤ رقم ٥٤) والطيالسي (رقم ١٩٣) وعبد بن حميد (رقم ٩٧) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٢٦٠) ونقل المنذري تصحيح الترمذي في ترغيبه (٣/ ٣٢٠).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله (رقم ١١٨) مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ ولفظه: «فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، فإن عز وجل يصلح بين المؤمنين يوم القيامة» وانظر: تفسير السيوطي (٤/ ١٠) وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٨٦) وفيض القدير (١/ ١٢٧).

(٣) ١٧٨ المدارج جـ١.

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٦٣٠٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ١٠١).

عليَّ إنك أنت التواب الغفور» مائة مرة[١]، وما صلى صلاة قط بعد إذ أنزلت عليه ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ إلى آخرها إلا قال فيها: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفرلي»[٢].

وصح عنه ﷺ أنه قال: «لن ينجي أحدًا منكم عمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[٣]، فصلوات الله وسلامه على أعلم الخلق بالله وحقوقه وعظمته، وما يستحق جلاله من العبودية، وأعرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها.

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾ ﴾.

[٤]هذا من أحسن القياس التمثيلي، فإنه شبه تمزيق عرض الأخ بتمزيق لحمه.

ولما كان المغتاب يمزق عرض أخيه في غيبته كان بمنزلة من يقطع لحمه في حال غيبة روحه عنه بالموت.

---

(١) أخرجه ابن حبان (٣/ ٢٠٦ رقم ٩٢٧) وفي موارد الظمآن (رقم ٢٤٥٩) والنسائي في الكبرى (٦/ ١١٩ رقم ١٠٢٩٢) وأبو داود (رقم ١٥١٦) وابن ماجه (رقم ٣٨١٤) وابن أبي شيبة (٦/ ٥٧ رقم ٢٩٤٤٣) وأحمد (٢/ ٢١) وعبد بن حميد (رقم ٧٨٦) والبيهقي في الشعب (١/ ٤٣٨ رقم ٦٤١) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٦١٨) ونقل النووي تصحيح الترمذي في رياض الصالحين (ص ٤٢٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ١٠١).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٧٩٤) ومسلم (رقم ٤٨٤) دون ذكر السورة، بل نصّا على أن هذا الدعاء كان ﷺ يقوله في ركوعه وسجوده. وتقول عائشة رضي الله عنها بعد ذكر هذا الدعاء: يتأول القرآن. وانظر: فتح الباري (٣/ ٨) (٨/ ٢٠). وشرح النووي (٤/ ٢٠١).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦٤٦٣) ومسلم (رقم ٢٨١٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٩٧).

(٤) ١٦٩ الإعلام جـ١.

ولما كان المغتاب عاجزًا عن دفعه عن نفسه بكونه غائبا عن ذمه كان بمنزلة الميت الذي يقطع لحمه، ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه.

ولما كان مقتضى الأخوة التراحم والتواصل والتناصر، فعلق عليها المغتاب ضد مقتضاها من الذم والعيب والطعن، كان ذلك نظير تقطيع لحم أخيه، والأخوة تقتضي حفظه وصيانته والذب عنه.

ولما كان المغتاب متمتعًا بعرض أخيه، متفكها بغيبته وذمه، متحليًّا بذلك، شبه بآكل لحم أخيه بعد تقطيعه. ولما كان المغتاب محبًّا لذلك معجبًا به، شبه بمن يحب أن يأكل لحم أخيه ميتا، ومحبته لذلك قدر زائد على مجرد أكله، كما أن أكله قدر زائد على تمزيقه.

فتأمل هذا التشبيه والتمثيل وحسن موقعه، ومطابقة المعقول فيه المحسوس، وتأمل إخباره عنهم بكراهة أكل لحم الأخ ميتا، ووصفهم بذلك في آخر الآية، والإنكار عليهم في أولها أن يحب أحدهم ذلك، فكما أن هذا مكروه في طباعهم، فكيف يحبون ما هو مثله ونظيره، فاحتج عليهم بما كرهوه على ما أحبوه، وشبه لهم ما يحبونه بما هو أكره شيء إليهم، وهم أشد شيء نفرة عنه، فلهذا يوجب العقل والفطرة والحكمة أن يكونوا أشد شيء نفرة، عما هو نظيره ومشبهه، وبالله التوفيق.

[(١)]وقال ﷺ: «**أتدرون ما الغيبة؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**ذكرك أخاك بما يكره**» قيل: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته**»[(٢)] ذكره مسلم.

وللإمام أحمد ومالك: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: ما الغيبة؟ فقال: «**أن تذكر من المرء ما يكره أن يسمع**». فقال: يا رسول الله وإن كان حقًّا؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إذا**

(١) ٤٠١ الإعلام جـ٤.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٨٩) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٦٩) وشرح النووي (١٦/ ١٤٢).

قلت باطلاً فذلك البهتان»[١].

وسئل ﷺ عن الكبائر، فقال: «**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقول الزور، وقتل النفس التي حرم الله**[٢]، **والفرار يوم الزحف**[٣]، **ويمين الغموس**[٤]، **وقتل الإنسان ولده خشية أن يطعم معه، والزنا بحليلة جاره**[٥]، **والسحر، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات**»[٦]. وهذا مجموع من أحاديث.

[٧]والفرق بين النصيحة والغيبة: أن النصيحة يكون القصد فيها تحذير المسلم من مبتدع، أو فتان، أو غاش، أو مفسد، فتذكر ما فيه إذا استشارك في صحبته ومعاملته والتعلق به، كما قال النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس وقد استشارته في نكاح معاوية وأبي جهم، فقال: «**أما معاوية فصعلوك، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه**»[٨]، وقال عن بعض أصحابه لمن سافر معه: «**إذا هبطت بلاد قومه فاحذره**»[٩].

فإذا وقعت الغيبة على وجه النصيحة لله ورسوله وعباده المسلمين فهي قربة إلى الله من جملة الحسنات، وإذا وقعت على وجه ذم أخيك، وتمزيق عرضه، والتفكه

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٦/ ١٣٦) ومالك في الموطأ (رقم ١٧٨٦).

(٢) أخرجه البخاري عن أنس ﷺ (رقم ٦٨٧١) ومسلم (رقم ٨٨).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٥/ ١٩٨ رقم ٨٦٥٥) وابن أبي شيبة (٦/ ٥٤٢ رقم ٣٣٦٩٢) وابن أبي عاصم في الجهاد (رقم ٢٧١) وانظر: فتح الباري (١١/ ٩٨).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٦٦٧٥) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٠٥، ٤١١).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٤٤٧٧) ومسلم (رقم ٨٦) وانظر: فتح الباري (٨/ ٤٩٣-٤٩٤) وشرح النووي (٢/ ٨٠).

(٦) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٦٦) ومسلم (رقم ٨٩) وانظر: فتح الباري (١٢/ ١٨٢) وشرح النووي (٢/ ٨٣-٨٦).

(٧) ٢٩٣ الروح.

(٨) أخرجه مسلم (رقم ١٤٨٠) وانظر: شرح النووي (١٠/ ٩٨).

(٩) أخرجه أبو داود (٤٨٦١) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٢٩ رقم ٢٠٢٠٤) وأحمد (٥/ ٢٨٩) وحسَّنه السيوطي، وانظر: فيض القدير (١/ ٢٢٢) وعون المعبود (١٣/ ١٤٢-١٤٤).

بلحمه، والغض منه، لتضع منزلته من قلوب الناس، فهي الداء العضال، ونار الحسنات التي تأكلها، كما تأكل النار الحطب.

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾.

[(1)] قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠] وقال: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٧١] وقال تعالىٰ: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وقال ﷺ: «لا فَضْلَ لِعَرَبيٍّ عَلىٰ عَجَمِي، وَلاَ لِعَجَمِيٍّ عَلىٰ عَرَبي، ولا لأَبْيَض عَلىٰ أَسْوَدَ، ولا لأسود عَلىٰ أبْيَض، إلاَّ بِالتَّقْوَىٰ، النّاسُ مِنْ آدَمَ، وآدَمُ منْ تُرابٍ»[(٢)]. وقال ﷺ: «إِنَّ آلَ بني فُلاَنٍ لَيْسُوا لي بِأَوْلِيَاءَ، إِنَّ أَوْلِيائي المتَّقُونَ حَيْثُ كَانُوا وأَيْنَ كَانُوا»[(٣)].

وفي الترمذي: عنه ﷺ: «إِذَا جَاءَكُم مَنْ تَرْضُوْنَ دِينَهُ وخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ، إلاَّ تَفْعَلوه، تَكُنْ فِتْنَةٌ في الأَرْضِ وفَسَادٌ كَبِيرٌ». قالوا: يا رسولَ الله، وإن كان فيه؟ فقال: «إِذَا جَاءَكُم مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوه»، ثلاث مرات[(٤)].

---

(١) ٤١ الزاد جـ٤.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤١١) وابن المبارك في مسنده (رقم ٢٣٩) والبيهقي في الشعب (٤/ ٢٨٩ رقم ٥١٣٧) وأبو الشيخ في التوبيخ والتنبيه (رقم ٢٥٠) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٢٦٦): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. وانظر: فتح الباري (٦/ ٥٢٧).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢١٥) وانظر: شرح النووي (٣/ ٨٧-٨٨).

(٤) أخرجه الترمذي (رقم ١٠٨٥) وقال: هذا حديث حسن غريب. والبيهقي في الكبرىٰ (٧/ ٨٢ رقم ١٣٢٥٩) وسعيد بن منصور (رقم ٥٩٠) والشيباني في الآحاد والمثاني (٢/ ٣٥١ رقم ١١٢٢) والطبراني في الأوسط (٧/ ١٣١ رقم ٧٠٧٤) وفي الكبير (٢٢/ ٢٩٩ رقم ٧٦٢) وابن أبي الدنيا في العيال (رقم ١١٧).

وقال النبيُّ ﷺ لبني بَيَاضَة: «أَنْكِحُوا أَبا هِنْدٍ، وأَنْكِحُوا إِلَيْهِ». وكان حجَّاماً[١].

وزوَّج النبيُّ ﷺ زينبَ بنتَ جَحْشٍ القُرشية مِن زيد بن حارثة مولاه، وزوَّج فاطمة بنت قيس الفِهرية القرشية. من أسامة ابنه، وتزوَّج بلالُ بن رباح بأخت عبد الرحمن بن عوف.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور: ٢٦] وقد قال تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣].

فالذي يقتضيه حُكمُه ﷺ اعتبارُ الدِّين في الكفاءة أصلاً. وكمالاً، فلا تُزَوَّجُ مسلمةٌ بكافر، ولا عفيفةٌ بفاجر، ولم يعتبرِ القرآنُ والسنةُ في الكفاءة أمراً وراءَ ذلك، فإنه حرَّم على المسلمة نكاحَ الزاني الخبيثِ، ولم يعتبر نسباً ولا صِناعة، ولا غِنىً ولا حرفة، فيجوز للعبد القِنِّ نكاحَ الحرَّةِ النسيبة الغنيةِ إذا كان عفيفاً مسلماً، وجوز لغير القرشيين نكاحَ القرشيات، ولغير الهاشميين نكاحَ الهاشميات وللفقراءِ نكاحَ الموسرات.

وقد تنازع الفقهاءُ في أوصاف الكفاءة: فقال مالك في ظاهر مذهبه: إنها الدِّينُ، وفي رواية عنه: إنها ثلاثة: الدِّين، والحريَّة، والسلامةُ من العيوب. وقال أبو حنيفة: هي النسبُ والدين.

وقال أحمد في رواية عنه: هي الدِّين والنسب خاصة. وفي رواية أخرى: هي خمسة: الدِّين، والنسب، والحرية، والصناعة، والمال.

[٢]وأما كلامهم في مسألة «الفقير الصابر، والغني الشاكر» وترجيح أحدهما على

---

(١) أخرجه ابن حبان (٩/ ٣٧٥ رقم ٤٠٦٧) وفي موارد الظمآن (رقم ١٢٤٩) وأبو داود (رقم ٢١٠٢) والدارقطني (٣/ ٣٠٠ رقم ٢٠٤) وأبو يعلى (١٠/ ٣١٨ رقم ٥٩١١) والطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٢١ رقم ٨٠٨) والحاكم (٢/ ١٧٨ رقم ٢٦٩٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وقال الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير (٣/ ١٦٤): إسناده حسن.

(٢) ٤٤٢ المدارج جـ٢.

صاحبه، فعند أهل التحقيق والمعرفة: أن التفضيل لا يرجع إلى ذات الفقر والغنى، وإنما يرجع إلى الأعمال والأحوال والحقائق، فالمسألة أيضًا فاسدة في نفسها، فإن التفضيل: عند الله تعالى بالتقوى وحقائق الإيمان، لا بفقر ولا غنى، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣] ولم يقل أفقركم ولا أغناكم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: والفقر والغنى ابتلاء من الله لعبده، كما قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ﴾ [الفجر: ١٥، ١٧] أي ليس كل من وسعت عليه وأعطيته: أكون قد أكرمته، ولا كل من ضيقت عليه وقترت: أكون قد أهنته، فالإكرام: أن يكرم الله العبد بطاعته والإيمان به ومحبته. ومعرفته والإهانة: أن يسلبه ذلك.

قال ـ يعني ابن تيمية ـ ولا يقع التفاضل بالغني والفقر، بل بالتقوى، فإن استويا في التقوى استويا في الدرجة، سمعته يقول ذلك.

وتذاكروا هذه المسألة عند يحيى بن معاذ، فقال: لا يوزن غدا الفقر ولا الغنى، وإنما يوزن الصبر والشكر.

[1]يذكر الله سبحانه في كتابه تخليقه من ماء الرجل كقوله: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ [الطارق: ٥-٧] وقوله ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴾ [القيامة: ٣٧] ونظائرها من الآيات التي إن لم تختص بماء الرجل فهي فيه أظهر، وإذا كان جزءا من الواطئ، وجزءًا من الأم، فكيف كان ملكا لسيد الأم دون سيد الأب؟ ويخالف القياس من وجه آخر، وهو أن الماء بمنزلة البذر، ولو أن رجلا أخذ بذر غيره فزرعه في أرضه كان الزرع لصاحب البذر، وإن كان عليه أجرة الأرض.

(١) ٤٦ الإعلام جـ١.

قيل: لا ريب أن الولد منعقد من ماء الأب كما هو منعقد من ماء الأم، ولكن إنما تَكَوَّن وصار مالًا متقومًا في بطن الأم، فالأجزاء التي صار بها كذلك من الأم أضعاف أضعاف الجزء الذي من الأب، مع مساواتها له في ذلك الجزء، فهو أنما تكون في أحشائها من لحمها ودمها، ولما وضعه الأب لم يكن له قيمة أصلا، بل كان كما سماه الله ماء مهينا لا قيمة له، ولهذا لو نزا فحل رجل على رَمَكَة آخر كان الولد لمالك الأم باتفاق المسلمين، وهذا بخلاف البذر، فإنه مال متقوم له قيمة قبل وضعه في الأرض، يعاوض عليه بالأثمان وعسب الفحل لا يعاوض عليه، فقياس أحدهما على الآخر من أبطل القياس.

فإن قيل: فهلا طردتم ذلك في النسب، وجعلتموه للأم كما جعلتموه للأب.

قيل: قد اتفق المسلمون على أن النسب للأب، كما اتفقوا على أنه يتبع الأم في الحرية والرق، وهذا هو الذي تقتضيه حكمة الله شرعًا وقدرًا، فإن الأب هو المولود له، والأم وعاء وإن تكوَّن فيها.

والله سبحانه جعل الولد خليفة أبيه، وشجنته، والقائم مقامه، ووضع الأنساب بين عباده، فيقال فلان ابن فلان، ولا تتم مصالحهم وتعارفهم ومعاملاتهم إلا بذلك، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣] فلولا ثبوت الأنساب من قبل الآباء لما حصل التعارف، ولفسد نظام العباد، فإن النساء محتجبات مستورات عن العيون، فلا يمكن في الغالب أن تعرف عين الأم، فيشهد على نسب الولد منها، فلو جعلت الأنساب للأمهات لضاعت وفسدت، وكان ذلك مناقضا للحكمة والرحمة والمصلحة، ولهذا إنما يدعى الناس يوم القيامة بآبائهم لا بأمهاتهم.

***

﴿۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾.

[(١)]هؤلاء مسلمون وليسوا بمؤمنين، لأنهم ليسوا ممن باشر الإيمان قلبه، فذاق حلاوته وطعمه، وهذا حال أكثر المنتسبين إلى الإسلام، وليس هؤلاء كفارًا، فإنه سبحانه أثبت لهم الإسلام بقوله: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾، ولم يرد قولوا بألسنتكم من غير مواطأة القلب، فإنه فرق بين قولهم ﴿ءَامَنَّا﴾، وقولهم: ﴿أَسۡلَمۡنَا﴾، ولكن لما لم يذوقوا طعم الإيمان، قال: ﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ ووعدهم ﷻ ـ مع ذلك ـ على طاعتهم أن لا ينقصهم من أجور أعمالهم شيئًا.

ثم ذكر أهل الإيمان الذين ذاقوا طعمه، وهم الذين آمنوا به وبرسوله، ثم لم يرتابوا في إيمانهم، وإنما انتفى عنهم الريب، لأن الإيمان قد باشر قلوبهم وخالطتها بشاشته، فلم يبق للريب فيه موضع. وصدق ذلك الذوق: بذلهم أحب شيء إليهم في رضى ربهم تعالى، وهو أموالهم وأنفسهم. ومن الممتنع: حصول هذا البذل من غير ذوق طعم الإيمان، ووجود حلاوته؛ فإن ذلك إنما يحصل بصدق الذوق والوجد. كما قال الحسن: «**ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب، وصدقه العمل**».

فالذوق والوجد: أمر باطن، والعمل دليل عليه ومصدق له. كما أن الريب والشك والنفاق: أمر باطن والعمل دليل عليه ومصدق له. فالأعمال ثمرات العلوم والعقائد، فاليقين يثمر الجهاد ومقامات الإحسان. فعلى حسب قوته تكون ثمرته ونتيجته، والريب والشك يثمر الأعمال المناسبة له. وبالله التوفيق.

[(٢)]...قوله تعالى:﴿۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ [الحجرات: ١٤] نفيًا للإيمان المطلق لا لمطلق الإيمان، لوجوه:

منها: أنه أمرهم أو أذن لهم أن يقولوا أسلمنا، والمنافق لا يقال له ذلك.

ومنها: أنه قال: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ﴾ ولم يقل قال المنافقون.

---

(١) ٩١ المدارج جـ٣.

(٢) ١٧ البدائع جـ٤.

ومنها: أن هؤلاء الجفاة الذين نادوا رسول الله ﷺ من وراء الحجرات، ورفعوا أصواتهم فوق صوته غلظة منهم جفاء لا نفاقًا وكفرًا.

ومنها: أنه قال: ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ ولم ينف دخول الإسلام في قلوبهم، ولو كانوا منافقين لنفى عنهم الإسلام كما نفى الإيمان.

ومنها: أن الله تعالى قال: ﴿ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ﴾ [الحجرات: ١٤] أي لا ينقصكم والمنافق لا طاعة له.

ومنها: أنه قال: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ﴾ [الحجرات: ١٧] فأثبت لهم إسلامهم، ونهاهم أن يمنوا على رسول الله ﷺ، ولو لم يكن إسلامًا صحيحًا، لقال لم تسلموا، بل أنتم كاذبون، كما كذبهم في قولهم: ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ [المنافقون: ١] لما لم تطابق شهادتهم اعتقادهم.

ومنها: أنه قال: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ ﴾ ولو كانوا منافقين لما من عليهم.

ومنها: أنه قال: ﴿ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ﴾، ولا ينافي هذا قوله: ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ ﴾، فإنه نفى الإيمان المطلق، ومنَّ عليهم بهدايتهم إلى الإسلام، الذي هو متضمن لمطلق الإيمان.

ومنها: أن النبي ﷺ لما قسم القسم قال له سعد: أعطيت فلانًا، وتركت فلانًا وهو مؤمن، فقال: «أو مسلم» ثلاث مرات[1]، وأثبت له الإسلام دون الإيمان[2]. وفي الآية أسرار بديعة ليس هذا موضعها.

***

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٥٠) وانظر: فتح الباري (١/ ٨١) وشرح النووي (٢/ ١٨٠).
(٢) تقدم في سورة المائدة بحث حول هذه الآية. (ج).

[١]قدم عليه ﷺ وفد بني أسد: عشرة رهط، فيهم وابصة بن معبد، وطلحة بن خويلد، ورسول الله ﷺ جالس مع أصحابه في المسجد، فتكلموا، فقال متكلم: «يا رسول الله، إنا شهدنا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنك عبده ورسوله، وجئناك يا رسول الله، ولم تبعث إلينا بعثًا، ونحن لمن وراءنا» قال محمد بن كعب القرظي: فأنزل الله على رسوله: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧]، وكان مما سألوا رسول الله ﷺ عنه يومئذ العيافة والكهانة، وضرب الحصى، فنهاهم رسول الله ﷺ عن ذلك كله، فقالوا: «يا رسول الله، إن هذه أمور كنا نفعلها في الجاهلية، أرأيت خصلة بقيت؟ قال: وما هي؟ قالوا: الخط، قال: «**علمه نبي من الأنبياء، فمن صادف مثل علمه علم**»[٢].

[٣]وأما تمييز النعمة من الفتنة: فليفرق بين النعمة التي يرى بها الإحسان واللطف، ويعان بها على تحصيل سعادته الأبدية، وبين النعمة التي يرى بها الاستدراج، فكم من مستدرج بالنعم وهو لا يشعر، مفتون بثناء الجهال عليه، مغرور بقضاء الله حوائجه وستره عليه. وأكثر الخلق عندهم أن هذه الثلاثة علامة السعادة والنجاح، ذلك مبلغهم من العلم!

فإذا كملت هذه الثلاثة فيه عرف حينئذ أن ما كان من نعم الله عليه بجمعه على الله فهو نعمة حقيقة، وما فرقه عنه وأخذه منه فهو البلاء في صورة النعمة، والمحنة في صورة المنحة، فليحذر فإنما هو مستدرج، ويميز بذلك أيضا بين المنة والحجة، فكم تلتبس إحداهما عليه بالأخرى!

---

(١) ١٠٠ الزاد جـ٣.

(٢) أخرجه العقيلي في الضعفاء (٢/ ٢٩٢) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٤٣٤) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن مردويه.

(٣) ١٧١ المدارج جـ١.

فإن العبد بين منة من الله عليه وحجة منه عليه، ولا ينفك عنهما، فالحكم الديني متضمن لمنته وحجته.

قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وقال: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ﴾ [الحجرات: ١٧].

وقال: ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَـٰلِغَةُ ﴾[الأنعام: ١٤٩].

والحكم الكوني أيضًا متضمن لمنته وحجته، فإذا حكم له كونا حكمًا مصحوبًا باتصال الحكم الديني به فهو منة عليه، وإن لم يصحبه الديني فهو حجة منه عليه.

وكذلك حكمه الديني إذا اتصل به حكمه الكوني، فتوفيقه للقيام به منة منه عليه، وإن تجرد عن حكمه الكوني صار حجة منه عليه، فالمنة: باقتران أحد الحكمين بصاحبه. والحجة في تجرد أحدهما عن الآخر، فكل علم صحبه عمل يرضي الله سبحانه فهو منة، وإلا فهو حجة.

وكل قوة ظاهرة وباطنة صحبها تنفيذ لمرضاته وأوامره فهي منة، وإلا فهي حجة. وكل حال صحبه تأثير في نصرة دينه والدعوة إليه، فهو منة منه، وإلا فهو حجة. وكل مال اقترن به إنفاق في سبيل الله وطاعته، لا لطلب الجزاء ولا الشكور، فهو منة من الله عليه، وإلا فهو حجة.

وكل فراغ اقترن به اشتغال بما يريد الرب من عبده فهو منة عليه، وإلا فهو حجة.

وكل قبول في الناس وتعظيم ومحبة له، اتصل به خضوع للرب وذل وانكسار، ومعرفة بعيب النفس، والعمل وبذل النصيحة للخلق، فهو منة، وإلا فهو حجة.

وكل بصيرة وموعظة وتذكير وتعريف من تعريفات الحق سبحانه إلى العبد اتصل به عبرة، ومزيد في العقل، ومعرفة في الإيمان، فهي منة، وإلا فهي حجة. وكل حال مع الله تعالى أو مقام اتصل به السير إلى الله، وإيثار مراده على مراد العبد، فهو منة من الله، وإن صحبه الوقوف عنده، والرضا به، وإيثار مقتضاه من لذة النفس به، وطمأنينتها

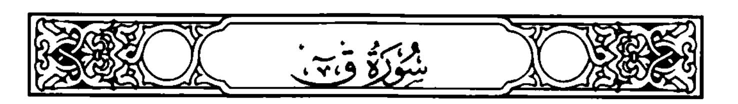
إليه وركونها إليه، فهو حجة من الله عليه.

فليتأمل العبد هذا الموضع العظيم الخطر، ويميز بين مواقع المنن والمحن، والحجج والنعم، فما أكثر ما يلتبس ذلك على خواص الناس وأرباب السلوك ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الحجرات

والحمد لله رب العالمين





بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ١، ٢].

(١)الصحيح أن [قٓ، ونٓ، وصٓ]، بمنزلة [حمٓ، والٓمٓ، طسٓ] تلك حروف مفرد، وهذه متعددة. وقد تقدمت الإشارة إلى بعض ما فيها قبل.

وههنا قد اتحد المقسم به والمقسم عليه وهو القرآن، فأقسم بالقرآن على ثبوته وصدقه، وأنه حق من عنده، ولذلك حذف الجواب ولم يصرح به، لما في القسم من الدلالة عليه، أو لأن المقصود نفس المقسم به، كما تقدم بيانه، ثم أخذ سبحانه في بيان عجب الكفار من غير عجيب، بل بما لا ينبغي أن يقع سواه.

كما قال سبحانه: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [يونس: ١، ٢] فأي عجب من هذا حتى يقول الكافرون: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [يونس: ٧٦].

وكيف يتعجب من رحمة الخالق عباده، وهدايته، وإنعامه عليهم بتعريفهم على لسان رسوله ﷺ بطريق الخير والشر، وما هم صائرون إليه بعد الموت، وأمرهم ونهيهم، حتى يقابل ذلك بالتعجب، ونسبة ما جاء به إلى السحر، لولا غاية الجهل والظلم، وإن العجب كل العجب قولهم وتكذيبهم، كما قال تعالى: ﴿۞ وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ﴾ [الرعد: ٥].

***

﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝﴾.

---

(١) ٢٧٠ التبيان.

[(١)] قوله: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٞ﴾ [ق: ٣] أي بعيد وقوعه، وليس المراد أنه واقع بعيد زمنه، هذا قول جماعة من المفسرين، منهم ابن عباس وأصحابه، قال ابن عباس: يقدم الذنب ويؤخر التوبة، وقال قتادة، وعكرمة: قدمًا قدمًا في معاصي الله لا ينزع عن فجوره.

***

﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ۝٨﴾.

[(٢)] ...قد كرر سبحانه ذكر هذا الدليل[(٣)] في كتابه مرارًا، لصحة مقدماته، ووضوح دلالته، وقرب تناوله، وبعده من كل معارضة وشبهة، وجعله تبصرةً وذكرىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ [ق: ٧، ٨] فالمنيب إلىٰ ربه يتذكر بذلك، فإذا تذكر تبصَّر به، فالتذكر قبل التبصر، وإن قدم عليه في اللفظ، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] والتذكر: تفعل من الذكر، وهو حضور صورةٍ من المذكور في القلب، فإذا استحضره القلب وشاهده علىٰ وجهه أوجب له البصيرة، فأبصر ما جعل دليلًا عليه، فكان في حقه تبصرة وذكرىٰ، والهدىٰ مداره علىٰ هذين الأصلين: التذكر، والتبصر.

وقد دعا سبحانه الإنسان إلىٰ أن ينظر في مبدأ خلقه ورزقه، ويستدل بذلك علىٰ معاده وصدق ما أخبرت به الرسل، فقال في الأول: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ﴾ [الطارق: ٥-٨].

***

(١) ٩٤ التبيان.

(٢) ١٤٥ إعلام الموقعين جـ١، طبعة دار الجيل.

(٣) يشير إلىٰ ما تقدم من ذكره آية فصلت علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ﴾ (ج).

﴿ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ﴾[قٓ: ١٠].

(١)قال تعالى: ﴿ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ﴾[الشعراء: ١٤٨] طلع النخل: ما يبدو من ثمرته في أول ظهوره، وقشره يسمى الكُفرَّى.

والنضيد: المنضود الذي قد نضد بعضه على بعض، وإنما يقال له نضيد: ما دام في كُفُرَّاه، فإذا انفتح فليس بنصيد. وأما «الهضيم» فهو المنضم بعضه إلى بعض، فهو كالنضيد أيضًا، وذلك يكون قبل تشقق الكُفُرَّى عنه.

«والطلع» نوعان: ذكر وأنثى، والتقليح: هو أن يؤخذ من الذكر ـ وهو مثل دقيق الحنطة ـ فيجعل في الأنثى، وهو التأبير، فيكون ذلك بمنزلة اللقاح بين الذكر والأنثى.

وقد روى مسلم في صحيحه عن طلحة بن عبيد الله قال: مررت مع رسول الله ﷺ في نخل، فرأى قومًا يلقحون، فقال: «ما يصنع هؤلاء» قالوا: يأخذون من الذكر فيجعلونه في الأنثى قال: «ما أظن ذلك يغني شيئًا»، فبلغهم، فتركوه، فلم يصلح، فقال النبي ﷺ: «إنما هو ظن، فإن كان يغني شيئًا فاصنعوه، فإنما أنا بشر مثلكم، وإن الظن يخطئ ويصيب، ولكن ما قلت لكم عن الله ﷻ فلن أكذب على الله»(٢) اهـ.

***

﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٥ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦ ﴾.

(٣)﴿ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴾ [قٓ: ١٥] فهذا الخلق الجديد هو المتضمن لكونهم أمثالهم، وقد سماه الله ﷻ إعادة، والمعاد مثل المبدأ، وسماه نشأة أخرى، وهي مثل الأولى، وسماه خلقًا جديدًا، وهو مثل الخلق الأول، كما قال ﴿ أَفَعَيِينَا

(١) ٣٦٧ زاد المعاد جـ٣.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٣٦١، ٢٣٦٢).

(٣) ١٢٤ التبيان.

بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، وسماه أمثالا وهم هم، فتطابقت ألفاظ القرآن، وصدق بعضها بعضا، وبين بعضها بعضًا، ولهذا تزول إشكالات أوردها من لم يفهم المعاد الذي أخبرت به الرسل عن الله، ولا يفهم من هذا القول ما قاله بعض المتأخرين: إنهم غيرهم من كل وجه، فهذا خطأ قطعًا، معاذ الله من اعتقاده، بل هم أمثالهم وهم أعيانهم، فإذا فهمت الحقائق فلا يناقش في العبارة إلا ضيق العطن، صغير العقل، ضعيف العلم.

[1] وأما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] فهذه الآية لها شأن، وقد اختلف فيها السلف والخلف على قولين، فقالت طائفة: نحن أقرب إليه بالعلم والقدرة والإحاطة، وعلى هذا فيكون المراد قربه ـ سبحانه ـ بنفسه، وهو نفوذ قدرته ومشيئته فيه وإحاطة علمه به. والقول الثاني: إن المراد قرب ملائكته منه، وأضاف ذلك إلى نفسه بصيغة ضمير الجمع على عادة العظماء في إضافة أفعال عبيدها إليها بأوامرهم ومراسيمهم إليهم، فيقول الملك: نحن قتلناهم، وهزمناهم، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨] وجبرائيل هو الذي يقرؤه على رسول الله ﷺ، وقال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ١٧] فأضاف قتل المشركين يوم بدر إليه، وملائكته هم الذين باشروه، إذ هو بأمره، وهذا القول هو أصح من الأول لوجوه: أحدها: أنه سبحانه قيد القرب في الآية بالظرف، وهو قوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ [ق: ١٧] فالعامل في الظرف ما في قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ [ق: ١٦] من معنى الفعل، ولو كان المراد قربه سبحانه بنفسه، لم يتقيد ذلك بوقت تلقي الملكين، ولا كان في ذكر التقييد به فائدة، فإن علمه سبحانه وقدرته ومشيئته عامة للتعلق. (الثاني) أن الآية تكون قد تضمنت علمه وكتابة

---

(١) ٢٦٧ مختصر الصواعق جـ٢.

ملائكته لعمل العبد، وهذا نظير قوله: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٠].

وقريب منه قوله تعالىٰ في أول السورة: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴾ [قٓ: ٤] ونحو قوله: ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ [طه: ٥٢].

الرابع أن قرب الرب تعالىٰ إنما ورد خاصًّا لا عامًّا، وهو نوعان: قربه من داعيه بالإجابة، ومن مطيعه بالإثابة، ولم يجئ القرب كما جاءت المعية خاصة وعامة، فليس في القرآن ولا في السنة. أن الله قريب من كل أحد، وأنه قريب من الكافر والفاجر، وإنما جاء خاصًّا بقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ١٨٦] فهذا قريب من داعيه وسائله»...

فإن قيل: فكيف تصنعون بقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ [قٓ: ١٦].

قيل: هذه الآية فيها قولان للناس.

أحدهما: أنه قربه بعلمه، ولهذا قرنه بعلمه بوسوسة نفس الإنسان، وحبل الوريد حبل العنق، وهو عرق بين الحلقوم والودجين، الذي متىٰ قطع مات صاحبه وأجزاء القلب، وهذا الحبل يحجب بعضها بعضًا، وعلم الله بأسرار العبد وما في ضميره لا يحجبه شيء.

والقول الثاني: أنه قربه من العبد بملائكته، الذين يصلون إلىٰ قلبه، فيكون أقرب إليه من ذلك العرق، اختاره شيخنا.

وسمعته يقول: هذا مثل قوله: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ [يوسف: ٣] وقوله: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٨] فإن جبريل ﷺ هو الذي قصه عليه بأمر الله، فنسب تعليمه إليه، إذ هو بأمره، وكذلك جبريل هو الذي قرأه عليه، كما في

صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية: فإذا قرأه رسولنا فأنصت لقراءته حتىٰ يقضيها.

قلت: أول الآية يأبىٰ ذلك، فإنه قال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ [ق: ١٦] قال: وكذلك خلقه للإنسان إنما هو بالأسباب وتخليق الملائكة. قلت: وفي صحيح مسلم من حديث حذيفة بن أسيد ﷺ في تخليق النطفة: «**فيقول الملك الذي يخلقه: يارب ذكر أم أنثىٰ؟ أسوىٰ أم غير سوىٰ؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك**»[1] فهو سبحانه الخالق وحده، ولا ينافي ذلك استعمال الملائكة بإذنه ومشيئته وقدرته في التخليق، فإن أفعالهم وتخليقهم خلق له سبحانه، فما ثم خالق علىٰ الحقيقة غيره.

***

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

[2]قال: وشر حركات الجوارح حركة اللسان، وهي أضرها علىٰ العبد. واختلف السلف والخلف: هل يكتب جميع ما يلفظ به أو الخير والشر فقط؟ علىٰ قولين: أظهرهما الأول. وقال بعض السلف: «كل كلام بن آدم عليه لا له، إلاّ ما كان من ذكر الله وما والاه»[3]، وكان الصديق ﷺ يمسك بلسانه، ويقول: هذا أوردني الموارد[4]، والكلام

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٩٥) ومسلم (رقم ٢٦٤٦) وانظر: عمدة القاري (٢٣/ ١٤٧).

(٢) ٢١٦ الجواب الكافي.

(٣) فعن أم حبيبة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**كل كلام ابن آدم عليه لا له، إلا أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو ذكر الله تعالىٰ**» أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٥) وفي الصمت (رقم ١٤) وحسنه الحافظ ابن حجر في الأمالي المطلقة (ص ١٦٠-١٦١).

(٤) أخرجه الضياء المقدسي في المختارة (١/ ٧٥-٧٦ رقم ٣) وابن أبي شيبة (٥/ ٣٢٠ رقم ٢٦٥٠٠) وأبو يعلىٰ (١/ ١٧ رقم ٥) والبيهقي في الشعب (٤/ ٢٤٤ رقم ٤٩٤٧) وهناد في الزهد (٢/ ٥٣١ رقم ١٠٩٣) وابن المبارك في الزهد (رقم ٣٦٩) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٧) وابن أبي الدنيا في الصمت (رقم ١٩) وفي الورع (رقم ٩٢) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٠٢): رواه أبو يعلىٰ ورجاله رجال الصحيح غير موسىٰ بن محمد بن حيان وقد وثقه ابن حبان.

أسيرك، فإذا خرج من فيك صرت أسيره. والله عند لسان كل قائل: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨]. وفي اللسان آفتان عظيمتان إن خلص العبد من احدهما لم يخلص من الأخرىٰ. آفة الكلام وآفة السكوت وقد يكون كل منهما أعظم إثمًا من الأخرىٰ في وقتها، فالساكت عن الحق شيطان أخرس، عاص لله، مراء مداهن إذا لم يخف علىٰ نفسه. والمتكلم بالباطل شيطان ناطق عاص لله، وأكثر الخلق منحرف في كلامه وسكوته، فهم بين هذين النوعين، وأهل الوسط هم أهل الصراط المستقيم، كفوا ألسنتهم عن الباطل، وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة، فلا ترىٰ أحدهم أنه يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة، فضلًا أن تضره في آخرته، وإن العبد ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها، ويأتي بسيئات أمثال الجبال، فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله ﷻ وما اتصل به.

(١)قاعدة جليلة: إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلّم به سبحانه منه إليه، فإنّه خطاب منه لك، علىٰ لسان رسوله، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾.

وذلك أن تمام التأثير لمّا كان موقوفا علىٰ مؤثر مقتض، ومحل قابل، وشرط لحصول الأثر، وانتقاء المانع الذي يمنع منه، تضمّنت الآية بيان ذلك كلّه بأوجز لفظ وأبينه، وأدلّه علىٰ المراد.

فقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ إشارة إلىٰ ما تقدّم من أوّل السورة إلىٰ ها هنا، وهذا هو المؤثّر. قوله: ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ فهذا هو المحل القابل، والمراد به القلب الحيّ الذي يعقل عن الله، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ [يس: ٦٩، ٧٠] أي حيّ القلب ، وقوله: ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ ﴾ أي وجّه سمعه

---

(١) ٣ فوائد.

وأصغى حاسّة سمعه إلى ما يقال له، وهذا شرط التأثّر بالكلام. وقوله: ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أي شاهد القلب حاضر غير غائب. قال ابن قتيبة: استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساه. وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير، وهو سهو القلب، وغيبته عن تعقّل ما يقال له، والنظر فيه وتأمّله. فإذا حصل المؤثر وهو القرآن، والمحل القابل وهو القلب الحي، ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب، وانصرافه عنه إلى شيء آخر، حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكّر.

فإن قيل: إذا كان التأثير إنما يتم بمجموع هذه، فما وجه دخول أداة «أو» في قوله: ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ ﴾، والموضع موضع واو الجمع لا موضع «أو» التي هي لأحد الشيئين.

قيل: هذا سؤال جيّد، والجواب عنه أن يقال: خرج الكلام بـ«أو» باعتبار حال المخاطب المدعو، فإن من الناس من يكون حي القلب واعيه، تام الفطرة، فإذا فكّر بقلبه، وجال بفكره، دلّه قلبه وعقله على صحّة القرآن، وأنه الحق، وشهد قلبه بما أخبر به القرآن، فكان ورود القرآن على قلبه نورا على نور الفطرة، وهذا وصف الذين قيل فيهم: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾ [سبأ: ٦]. وقال في حقّهم: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النور: ٣٥] فهذا نور الفطرة على نور الوحي، وهذا حال صاحب القلب الحيّ الواعي.

قال ابن القيّم[1]: وقد ذكرنا ما تضمّنت هذه الآية من الأسرار والعبر في كتاب

---

(١) كذا بالمطبوعة، ولعله سهو من الناسخ.

اجتماع الجيوش الإسلامية علىٰ غزو المعطّلة والجهميّة. فصاحب القلب يجمع بين قلبه وبين معاني القرآن، فيجدها كأنها قد كتبت فيه، فهو يقرأها عن ظهر قلب.

ومن الناس من لا يكون تام الاستعداد، واعي القلب، كامل الحياة، فيحتاج إلىٰ شاهد يميّز له بين الحق والباطل، ولم تبلغ حياة قلبه ونوره وزكاء فطرته مبلغ صاحب القلب الحي الواعي، فطريق حصول هدايته أن يفرغ سمعه للكلام، وقلبه لتأمّله، والتفكر فيه، وتعقل معانيه، فيعلم حينئذ أنه الحق.

فالأول: حال من رأىٰ بعينيه ما دعي إليه وأخبر به.

والثاني: حال من علم صدق المخبر وتيقّنه، وقال يكفيني خبره، فهو في مقام الإيمان، والأوّل في مقام الإحسان. وهذا قد وصل إلىٰ علم اليقين، وترقىٰ قلبه منه إلىٰ منزلة عين اليقين، وذاك معه التصديق الجازم الذي خرج به من الكفر ودخل به في الإسلام، فعين اليقين نوعان: نوع في الدنيا، ونوع في الآخرة، فالحاصل في الدنيا نسبته إلىٰ القلب كنسبة الشاهد إلىٰ العين. وما أخبرت به الرسل من الغيب يعاين في الآخرة بالأبصار، وفي الدنيا بالبصائر، فهو عين يقين في المرتبتين.

وقد جمعت هذه السورة من أصول الإيمان ما يكفي ويشفي، ويغني عن كلام أهل الكلام، ومعقول أهل المعقول.

فإنها تضمّنت تقرير المبدأ والمعاد والتوحيد والنبوّة والإيمان بالملائكة، وانقسام الناس إلىٰ هالك شقي، وفائز سعيد، وأوصاف هؤلاء وهؤلاء.

وتضمّنت إثبات صفات الكمال لله، وتنزيهه عما يضاد كماله من النقائص والعيوب. وذكر فيها القيامتين الصغرىٰ والكبرىٰ، والعالمين: الأكبر، وهو عالم الآخرة، والأصغر وهو عالم الدنيا.

وذكر فيها خلق الإنسان ووفاته وإعادته، وحاله عند وفاته ويوم معاده وإحاطته سبحانه به من كل وجه، حتىٰ علمه بوساوس نفسه، وإقامة الحفظة عليه، يحصون

عليه كل لفظة يتكلم بها، وأنه يوافيه يوم القيامة، ومعه سائق يسوقه إليه، وشاهد يشهد عليه، فإذا أحضره السائق قال: ﴿ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ٢٣]. أي هذا الذي أمرت بإحضاره قد أحضرته، فيقال عند إحضاره: ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾[قَ: ٢٤]. كما يحضر الجاني إلى حضرة السلطان، فيقال: هذا فلان قد أحضرته، فيقول: اذهبوا به إلى السجن وعاقبوه بما يستحقّه.

وتأمّل كيف دلّت السورة صريحا على أن الله ﷻ يعيد هذا الجسد بعينه الذي أطاع وعصى، فينعمه ويعذّبه، كما ينعم الروح التي آمنت بعينها، ويعذّب التي كفرت بعينها، لا أنه سبحانه يخلق روحا أخرى غير هذه فينعمها ويعذبها، كما قاله من لم يعرف المعاد الذي أخبرت به الرسل، حيث زعم أن الله سبحانه يخلق بدنا غير هذا البدن من كل وجه، عليه يقع النعيم والعذاب، والروح عندهم عرض من أعراض البدن، فيخلق روحا غير هذه الروح، وبدنا غير هذا البدن.

وهذا غير ما اتفقت عليه الرسل، ودلّ عليه القرآن والسنّة وسائر كتب الله تعالى، وهذا في الحقيقة إنكار للمعاد، وموافقة لقول من أنكره من المكذبين، فإنهم لم ينكروا قدرة الله على خلق أجسام أخر غير هذه الأجسام يعذبها وينعمها، كيف وهم يشهدون النوع الإنساني يخلق شيئًا بعد شيء! فكل وقت يخلق الله سبحانه أرواحا وأجساما غير الأجسام التي فنيت، فكيف يتعجّبون من شيء يشاهدونه عيانا؟ وإنما تعجّبوا من عودهم بأعيانهم بعد أن مزّقهم البلى، وصاروا عظاما ورفاتا، فتعجّبوا أن يكونوا هم بأعيانهم مبعوثين للجزاء، ولهذا قالوا: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤٧]. وقالوا: ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ ﴾[قَ: ٣].

ولو كان الجزاء إنما هو لأجسام غير هذه، لم يكن ذلك بعثًا ولا رجعًا، بل يكون ابتداء، ولم يكن لقوله: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ [قَ: ٤]. كبير معنى. فإنه سبحانه جعل هذا جوابًا لسؤال مقدّر، وهو: أنّه يميز تلك الأجزاء التي اختلطت

بالأرض، واستحالت إلى العناصر بحيث لا تتميّز، فأخبر سبحانه بأنه قد علم ما تنقصه الأرض من لحومهم وعظامهم وأشعارهم، وأنه كما هو عالم بتلك الأجزاء، فهو قادر على تحصيلها وجمعها بعد تفرّقها، وتأليفها خلقًا جديدًا، وهو سبحانه يقرر المعاد بذكر كمال علمه، وكمال قدرته، وكمال حكمته، فإن شبه المنكرين له كلها تعود إلى ثلاثة أنواع:

أحدها: اختلاط أجزائهم بأجزاء الأرض على وجه لا يتميّز ولا يحصل معه تميز شخص عن شخص.

الثاني: أن القدرة لا تتعلّق بذلك.

الثالث: أن ذلك أمر لا فائدة فيه، أو إنما الحكمة اقتضت دوام هذا النوع الإنساني شيئًا بعد شيء، هكذا أبدًا، كلما مات جيل خلفه جيل آخر. فإمّا أن يميت النوع الإنساني كله، ثم يحييه بعد ذلك، فلا حكمة في ذلك. فجاءت براهين المعاد في القرآن مبنيّة على ثلاثة أصول:

أحدها: تقرير كمال علم الرب سبحانه، كما قال في جواب من قال: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]. وقال: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٥، ٨٦]. وقال: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ [ق: ٤].

والثاني: تقرير كمال قدرته كقوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١]. وقوله: ﴿بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ٤]. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾ [الحج: ٦].

ويجمع سبحانه بين الأمرين، كما في قوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

الثالث: كمال حكمته كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ﴾

[الدخان: ٣٨]. وقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ﴾ [ص: ٢٧]. وقوله: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦]. وقوله: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]. وقوله: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١].

ولهذا كان الصواب: أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع، وأن كمال الرب تعالى وكمال أسمائه وصفاته تقتضيه وتوجبه، وأنه منزّه عمّا يقوله منكروه كما ينزه كماله عن سائر العيوب والنواقص.ثم أخبر سبحانه أن المنكرين لذلك لمّا كذّبوا بالحق اختلط عليهم أمرهم ﴿ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ [ق: ٥]. مختلط لا يحصلون منه على شيء.

ثم دعاهم إلى النظر في العالم العلوي وبنائه وارتفاعه واستوائه وحسنه والتئامه، ثم إلى العالم السفلي وهو الأرض، وكيف بسطها، وهيّأها بالبسط لما يراد منها، وثبّتها بالجبال، وأودع فيها المنافع، وأنبت فيها من كل صنف حسن من أصناف النبات على اختلاف أشكاله وألوانه ومقاديره ومنافعه وصفاته، وأن ذلك تبصرة إذا تأمّلها العبد المنيب، وتبصّر بها تذكر ما دلت عليه مما أخبرت به الرسل من التوحيد والمعاد، فالناظر فيها يتبصّر أولًا، ثم يتذكر ثانيًا، وأن هذا لا يحصل إلا لعبد منيب إلى الله بقلبه وجوارحه.

ثم دعاهم إلى التفكّر في مادة أرزاقهم وأقواتهم وملابسهم ومراكبهم وجناتهم، وهو الماء الذي أنزله من السماء وبارك فيه، حتى أنبت به جنّات مختلفة الثمار والفواكه، ما بين أبيض وأسود وأحمر وأصفر وحلو وحامض، وبين ذلك مع اختلاف منافعها وتنوّع أجناسها، وأنبتت به الحبوب كلها على تنوعها، واختلاف منافعها وصفاتها، وأشكالها ومقاديرها. ثم أفرد النخل لما فيه من موضع العبرة والدلالة التي لا تخفى على المتأمل: ﴿ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [البقرة: ١٦٤]، ثم قال: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾

[قٓ: ١١]. أي مثل هذا الإخراج من الأرض الفواكه والثمار والأقوات والحبوب: خروجكم من الأرض بعد ما غيّبتم فيها.

وقد ذكرنا هذا القياس وأمثاله من المقاييس الواقعة في القرآن في كتابنا: المعالم وبيّنا بعض ما فيها من الأسرار والعبر.

ثم انتقل سبحانه إلى تقرير النبوّة بأحسن تقرير، وأوجز لفظ، وأبعده عن كل شبهة وشك، فأخبر أنه أرسل إلى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون رسلا فكذّبوهم، فأهلكهم بأنواع الهلاك، وصدق فيهم وعيده الذي أوعدتهم به رسله إن لم يؤمنوا، وهذا تقرير لنبوّتهم ولنبوة من أخبر بذلك عنهم، من غير أن يتعلّم ذلك من معلّم ولا قرأه في كتاب، بل أخبر به إخبارًا مفصّلًا مطابقًا لما عند أهل الكتاب.ولا يرد على هذا إلا سؤال البهت والمكابرة على جحد الضروريات، بأنه لم يكن شيء من ذلك، أو أن حوادث الدهر ونكباته أصابتهم كما أصابت غيرهم، وصاحب هذا السؤال يعلم من نفسه أنه باهت مباهت جاحد لما شهد به العيان، وتناقلته القرون قرنا بعد قرن، فإنكاره بمنزلة إنكار وجود المشهورين من الملوك والعلماء والبلاد النائية.

ثم عاد سبحانه إلى تقرير المعاد بقوله: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِ﴾ [قٓ: ١٥]، يقال لكل من عجز عن شيء: عيي به وعيي فلان بهذا الأمر، قال الشاعر:

عيّـوا بأمرهــم كما عييت ببيضتها الحمامة[1]

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ﴾ [الأحقاف: ٣٣]. قال ابن عبّاس: يريد أفعجزنا،

---

(١) هذا البيت من مجزوء الكامل، ينسب إلى سلامة بن جندل الشاعر الجاهلي، كان فارساً وكان في شعره حكمة وجودة مات سنة ٢٣قبل الهجرة، وينسب أيضاً إلى يزيد بن مفرغ الحميري اليمني ولد بالبصرة ونشأ بها وعرف العربية والفارسية مات سنة ٦٩هـ. ذكر البيت ابن منظور في اللسان (١٥/ ١١٣) وابن قتيبة في غريب الحديث (٢/ ٩) والخطابي في غريب الحديث (١/ ٦٩٨) ونسبه الأولان إلى عبيد بن الأبرص.

وكذلك قال مقاتل:

قلت: هذا تفسير بلازم اللفظة، وحقيقتها أعم من ذلك، فان العرب تقول: أعياني أن أعرف كذا، وعييت به إذا لم تهتد لوجهه، ولم تقدر على معرفته وتحصيله، فتقول: أعياني دواؤك إذا لم تهتد له، ولم تقف عليه. ولازم هذا المعنى العجز عنه. والبيت الذي استشهدوا به شاهد لهذا المعنى، فان الحمامة لم تعجز عن بيضتها، ولكن أعياها إذا أرادت أن تبيض أين ترمي بالبيضة، فهي تدور وتجول حتى ترمي بها، فإذا باضت أعياها أين تحفظها وتودعها حتى لا تنال، فهي تنقلها من مكان إلى مكان، وتحار أين تجعل مقرّها، كما هو حال من عي بأمره، فلم يدر من أين يقصد له، ومن أين يأتيه، وليس المراد بالإعياء في هذه الآية التعب، كما يظنّه من لم يعرف تفسير القرآن، بل هذا المعنى هو الذي نفاه سبحانه عن نفسه في آخر السورة بقوله: ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨]. ثم أخبر سبحانه أنّهم: ﴿ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ق: ١٥]. أي أنهم التبس عليهم إعادة الخلق خلقًا جديدًا.

ثم نبههم على ما هو من أعظم آيات قدرته وشواهد ربوبيّته وأدلّة المعاد، وهو خلق الإنسان، فإنه من أعظم الأدلة على التوحيد والمعاد.وأي دليل أوضح من تركيب هذه الصورة الآدميّة بأعضائها وقواها وصفاتها، وما فيها من اللحم والعظم والعروق والأعصاب والرباطات والمنافذ والآلات والعلوم والإرادات والصناعات، كل ذلك من نطفة ماء. فلو أنصف العبد لاكتفى بفكره في نفسه، واستدل بوجوده على جميع ما أخبرت به الرسل عن الله وأسمائه وصفاته. ثم أخبر سبحانه عن إحاطة علمه به، حتى علم وساوس نفسه، ثم أخبر عن قربه إليه بالعلم والإحاطة، وأن ذلك أدنى إليه من العرق الذي داخل بدنه، فهو أقرب إليه بالقدرة عليه والعلم به من ذلك العرق.

وقال شيخنا: المراد بقول نحن، أي ملائكتنا، كما قال: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٨]. أي إذا قرأه عليك رسولنا جبريل.

قال: ويدل عليه قوله: ﴿ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ ﴾ [ق: ١٧] فقيد القرب المذكور بتلقّي الملكين، ولو كان المراد به قرب الذات لم يتقيد بوقت تلقي الملكين، فلا حجة في الآية لحلولي ولا معطّل. ثم أخبر سبحانه أن على يمينه و شماله ملكين يكتبان أعماله وأقواله، ونبه بإحصاء الأقوال وكتابتها على كتابة الأعمال، التي هي أقل وقوعًا، وأعظم أثرًا من الأقوال، وهي غايات الأقوال ونهايتها.

ثم أخبر عن القيامة الصغرى، وهي سكرة الموت، وأنها تجيء بالحق، وهو لقاؤه ﷻ، والقدوم عليه، وعرض الروح عليه، والثواب والعقاب الذي تعجل لها قبل القيامة الكبرى.ثم ذكر القيامة الكبرى بقول: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ﴾ [ق: ٢٠].

ثم أخبر عن أحوال الخلق في هذا اليوم، وأن كل أحد يأتي الله ﷻ ذلك اليوم ومعه سائق يسوقه، وشهيد يشهد عليه، وهذا غير شهادة جوارحه، وغير شهادة الأرض التي كان عليها له وعليه، وغير شهادة رسوله والمؤمنين. فإن الله ﷻ يستشهد على العبد الحفظة والأنبياء والأمكنة التي عملوا عليها الخير والشر، والجلود التي عصوه بها، ولا يحكم بينهم بمجرّد علمه، وهو أعدل العادلين وأحكم الحاكمين. ولهذا أخبر نبيه أنه يحكم بين الناس بما سمعه من إقرارهم، وشهادة البيّنة، لا بمجرّد علمه، فكيف يسوغ لحاكم أن يحكم بمجرد علمه من غير بيّنة ولا إقرار؟

ثم أخبر سبحانه أن الإنسان في غفلة من هذا الشأن الذي هو حقيق بأن لا يغفل عنه، وأن لا يزال على ذكره وباله، وقال: ﴿ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا ﴾ [ق: ٢٢]، ولم يقل عنه، كما قال: ﴿ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴾ [فصلت: ٤٥]، ولم يقل: في شك فيه، وجاء هذا في المصدر وإن لم يجئ في الفعل، فلا يقال غفلت منه، ولا شككت منه، كأن غفلته وشكه ابتداء منه، فهو مبدأ غفلته وشكّه، وهذا أبلغ من أن يقال: في غفلة عنه، وشك فيه، فإنه جعل ما ينبغي أن يكون مبدأ التذكرة واليقين ومنشأهما مبدأ

للغفلة والشك. ثم أخبر أن غطاء الغفلة والذهول يكشف عنه ذلك اليوم، كما يكشف غطاء النوم عن القلب فيستيقظ، وعن العين فتنفتح. فنسبة كشف هذا الغطاء عن العبد عند المعاينة كنسبة كشف غطاء النوم عنه عند الانتباه.

ثم أخبر سبحانه أن قرينه، وهو الذي قرن به في الدنيا من الملائكة، يكتب عمله. وقوله يقول لمّا يحضره: هذا الذي كنت وكّلتني به في الدنيا قد أحضرته وأتيتك به، هذا قول مجاهد.وقال ابن قتيبة: المعنى: هذا ما كتبته عليه وأحصيته من قوله وعمله حاضر عندي.

والتحقيق: أن الآية تتضمّن الأمرين، أي هذا الشخص الذي وكلت به، وهذا عمله الذي أحصيت عليه. فحينئذ يقال: ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾ [ق: ٢٤]، وهذا إما أن يكون خطابًا للسائق والشهيد، أو خطابًا للملك الموكل بعذابه وإن كان واحدًا. وهو مذهب معروف من مذاهب العرب في خطابها، أو تكون الألف منقلبة عن نون التأكيد الخفيفة، ثم أجري الوصل مجرى الوقف. ثم ذكر صفات هذا الملقى فذكر له ست صفات:

أحدها: أنه كفار لنعم الله وحقوقه، كفار بدينه وتوحيده وأسمائه وصفاته، كفّار برسله وملائكته، كفار بكتبه ولقائه.

الثانية: أنه معاند للحق يدفعه جحدًا وعنادًا.

الثالثة: أنه مناع للخير، وهذا يعم منعه للخير، الذي هو إحسان إلى نفسه من الطاعات، والقرب إلى الله، والخير الذي هو إحسان إلى الناس، فليس فيه خير لنفسه، ولا لبني جنسه، كما هو حال أكثر الخلق.

الرابعة: أنه مع منعه للخير معتد على الناس، ظلوم غشوم، معتد عليهم بيده ولسانه.

الخامسة: أنه مريب، أي صاحب ريب وشك، ومع هذا فهو آت لكل ريبة، يقال: فلان مريب، إذا كان صاحب ريبة.

السادسة: أنه مع ذلك مشرك بالله، قد اتّخذ مع الله إلها آخر يعبده، ويحبه، ويغضب له، ويرضىٰ له، ويحلف باسمه، وينذر له، ويوالي فيه، ويعادي فيه، فيختصم هو وقرينه من الشيطان، ويحيل الأمر عليه، وأنه هو الذي أطغاه وأضله. فيقول قرينه: لم يكن لي قوّة أن أضلّه وأطغيه، ولكن كان في ضلال بعيد، اختاره لنفسه، وآثره على الحق، كما قال إبليس لأهل النار: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: ٢٢]. وعلىٰ هذا، فالقرين هنا هو شيطانه، يختصمان عند الله.

وقالت طائفة: بل قرينه ها هنا هو الملك، فيدعي عليه أنه زاد عليه فيما كتبه عليه وطغىٰ، وأنه لم يفعل ذلك كله، وأنه أعجله بالكتابة عن التوبة، ولم يمهله حتىٰ يتوب، فيقول الملك: ما زدت في الكتابة علىٰ ما عمل ولا أعجلته عن التوبة: ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٢٧]. فيقول الرب تعالىٰ: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ [ق: ٢٨].

وقد أخبر سبحانه عن اختصام الكفار والشياطين بين يديه في سورتي «الصافّات» و«الأعراف»، وأخبر عن اختصام الناس بين يديه في سورة «الزمر»، وأخبر عن اختصام أهل النار فيها في سورة «الشعراء»، وسورة «صٓ».

ثم أخبر سبحانه أنه لا يبدّل القول لديه، فقيل: المراد بذلك قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]. ووعده لأهل الإيمان بالجنة، وأن هذا لا يبدل ولا يخلف.

قال ابن عبّاس: يريد ما لوعدي خلف لأهل طاعتي ولا أهل معصيتي. قال مجاهد: قد قضيت ما أنا قاض. وهذا أصح القولين في الآية.

وفيها قول آخر: إن المعنىٰ ما يغيّر القول عندي بالكذب والتلبيس، كما يغيّر عند الملوك والحكّام. فيكون المراد بالقول قول المختصمين، وهو اختيار الفراء وابن قتيبة، قال الفراء: المعنىٰ ما يكذب عندي لعلمي بالغيب. وقال ابن قتيبة: أي ما يحرف القول عندي، ولا يزاد فيه ولا ينقص منه. قال: لأنه قال القول عندي، ولم يقل

قولي، وهذا كما قال: لا يكذب عندي.

فعلى القول الأوّل يكون قوله: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [ق: ٢٩]، من تمام قوله: ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ ﴾ [ق: ٢٩]. في المعنى، أي ما قلته ووعدت به لا بد من فعله. ومع هذا فهو عدل لا ظلم فيه ولا جور.

وعلى الثاني يكون قد وصف نفسه بأمرين. أحدهما: أن كمال علمه واطلاعه يمنع من تبديل القول بين يديه وترويج الباطل عليه. وكمال عدله وغناه يمنع من ظلمه لعبيده. ثم أخبر عن سعة جهنّم، وأنها كلّما ألقي فيها تقول: ﴿ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ﴾ [ق: ٣٠]. وأخطأ من قال: إن ذلك للنفي، أي ليس من مزيد؟ والحديث الصحيح يردّ هذا التأويل. ثم أخبر عن تقريب الجنة من المتقين، وأن أهلها هم الذين اتصفوا بهذه الصفات الأربع:

إحداها: أن يكون أوابا، أي رجّاعا إلى الله من معصيته إلى طاعته، ومن الغفلة عنه إلى ذكره. قال عبيد بن عمير: الأوّاب الذي يتذكر ذنوبه، ثم يستغفر منها. وقال مجاهد: هو الذي إذا ذكر ذنبه في الخفاء استغفر منه. وقال سعيد بن المسيّب: هو الذي يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب.

الثانية: أن يكون حفيظا، قال ابن عبّاس: لما ائتمنه الله عليه وافترضه. وقال قتادة: حافظ لما استودعه الله من حقّه ونعمته. ولما كانت النفس لها قوّتان: قوة الطلب وقوة الإمساك، كان الأواب مستعملًا لقوة الطلب في رجوعه إلى الله ومرضاته وطاعته. والحفيظ مستعملًا لقوة الحفظ في الإمساك عن معاصيه ونواهيه. فالحفيظ الممسك نفسه عما حرّم عليه، والأوّاب المقبل على الله بطاعته.

الثالثة: قوله: ﴿ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ [ق: ٣٣]، يتضمن الإقرار بوجوده وربوبيته وقدرته وعلمه واطلاعه على تفاصيل أحوال العبد. ويتضمن الإقرار بكتبه ورسله وأمره ونهيه. ويتضمن الإقرار بوعده ووعيده ولقائه، فلا تصح خشية الرحمن بالغيب إلا بعد هذا كله.

الرابعة: قوله ﴿ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٣٣]. قال ابن عباس: راجع عن معاصي الله، مقبل على طاعة الله. وحقيقة الإنابة: عكوف القلب على طاعة الله ومحبته والإقبال عليه.

ثم ذكر سبحانه جزاء من قامت به هذه الأوصاف بقوله: ﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ۝ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ۝ ﴾ [ق: ٣٤، ٣٥].

ثم خوّفهم بأن يصيبهم من الهلاك ما أصاب من قبلهم، وأنهم كانوا أشد منهم بطشا، ولم يدفع عنهم الهلاك شدّة بطشهم، وأنهم عند الهلاك تقلّبوا وطافوا في البلاد، وهل يجدون محيصا ومنجى من عذاب الله؟. قال قتادة: حاص أعداء الله فوجدوا أمر الله لهم مدركا. وقال الزجاج: طوّفوا وفتشوا فلم يروا محيصا من الموت. وحقيقة ذلك أنهم طلبوا المهرب من الموت فلم يجدوه.

ثم أخبر سبحانه أن في هذا الذي ذكر: ﴿ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ﴾ [ق: ٣٧].

ثم أخبر أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستّة أيّام، ولم يمسه تعب ولا إعياء تكذيب لأعدائه من اليهود، حيث قالوا: إنه استراح في اليوم السابع.

ثم أمر نبيه بالتأسي به ﷺ في الصبر على ما يقول أعداؤه فيه، كما أنه سبحانه صبر على قول اليهود إنه استراح: ولا أحد أصبر على أذى يسمعه منه.

ثم أمره بما يستعين به على الصبر، وهو التسبيح بحمد ربه قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، وبالليل وأدبار السجود. فقيل هو الوتر. وقيل: الركعتان بعد المغرب.

والأول قول ابن عباس، والثاني قول عمر وعلي وأبي هريرة والحسن بن علي، وإحدى الروايتين عن ابن عباس. وعن ابن عباس رواية ثالثة: أنه التسبيح باللسان أدبار الصلوات المكتوبات.ثم ختم السورة بذكر المعاد، ونداء المنادي برجوع الأرواح إلى أجسادها للحشر.

وأخبر أن هذا النداء من مكان قريب يسمعه كل أحد، يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَق بالبعث، ولقاء الله: يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ كما تشقق عن النبات، فيخرجون: سراعًا من غير مهلة ولا بطء: ذلك حشر يسير عليه سبحانه.

ثم أخبر سبحانه أنه عالم بما يقول أعداؤه، وذلك يتضمّن مجازاته لهم بقولهم، إذ لم يخف عليه، وهو سبحانه يذكر علمه وقدرته لتحقيق الجزاء.ثم أخبره أنه ليس بمسلط عليهم ولا قهّار ولم يبعث ليجبرهم على الإسلام ويكرههم عليه، وأمره أن يذكر بكلامه من يخاف وعيده، فهو الذي ينتفع بالتذكير، وأما من لا يؤمن بلقائه ولا يخاف وعيده ولا يرجو ثوابه، فلا ينتفع بالتذكير.

***

﴿ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

[(1)]أي لا أؤاخذ عبدًا بغير ذنب، ولا أمنعه من أجر ما عمله من صالح، ولهذا قال قبله: ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴾ المتضمن لإقامة الحجة، وبلوغ الأمر والنهي، وإذا آخذتكم بعد التقدم فلست بظالم، بخلاف من يؤاخذ العبد قبل التقدم إليه بأمره ونهيه، فذلك الظلم الذي تنزه الله ﷻ عنه.

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[ق: ٣٧].

[(2)]قلت: جعل الله سبحانه كلامه ذكرى، لا ينتفع بها إلا من جمع هذه الأمور الثلاثة.

أحدها: أن يكون له قلب حي واعٍ، فإذا فقد هذا القلب لم ينتفع بالذكرى.

الثاني: أن يصغى بسمعه، فيميله كله نحو المخاطب، فإن لم يفعل لم ينتفع بكلامه.

---

(١) ١٣٦ مدارج جـ١.

(٢) ٢٣١ مدارج جـ٣.

الثالث: أن يحضر قلبه وذهنه عند المكلم له، وهو «الشهيد» أي الحاضر غير الغائب، فإن غاب قلبه، وسافر في موضع آخر: لم ينتفع بالخطاب.

وهذا كما أن المبصر لا يدرك حقيقة المرئي إلا إذا كانت له قوة مبصرة، وحدق بها نحو المرئي، ولم يكن قلبه مشغولًا بغير ذلك، فإن فقد القوة المبصرة، أو لم يحدق نحو المرئي، أو حدق نحوه،ولكن قلبه كله في موضع آخر: لم يدركه. فكثيرًا ما يمر بك إنسان أو غيره، وقلبك مشغول بغيره، فلا تشعر بمروره، فهذا الشأن يستدعي صحة القلب وحضوره، وكمال الإصغاء(١).

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة قٓ

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

(١) تقدم في سورة الحج نقلًا عن المدارج ص ٢٤٦ جـ٣ بحث جامع مفيد جدًا على قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[الحج: ٤٦]. (ج).

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝٤ ﴾.

[(١)]أقسم بالذاريات وهي الرياح تذرو المطر، وتذرو التراب، وتذرو النبات إذا تهشم، كما قال تعالى: ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ﴾ [الكهف: ٤٥] أي تفرقه وتنشره، ثم بما فوقها، وهي السحاب. الحاملات وقرا، أي ثقلا من الماء، وهي روايا الأرض، يسوقها الله سبحانه على متون السحاب.

الرياح كما في جامع الترمذي من حديث الحسن عن أبي هريرة قال: بينما نبي الله جالس في أصحابه، إذ أتى عليهم سحاب، فقال نبي الله ﷺ: **«هل تدرون ما هذا»** قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **«هذا العنان، هذه روايا الأرض، يسوقها الله تبارك وتعالى إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه»**[(٢)].

ثم أقسم سبحانه بما فوق ذلك، وهي الجاريات يسرًا، وهي النجوم التي من فوق الغمام و﴿ يُسْرًا ﴾ أي مسخرة مذللة منقادة. وقال جماعة من المفسرين: إنها السفن تجري ميسرة في الماء جريًا سهلا، ومنهم من لم يذكر غيره.

واختار شيخنا رحمه الله القول الأول، وقال: هو أحسن في الترتيب والانتقال من السافل إلى العالي، فإنه بدأ بالرياح، وفوقها السحاب، وفوقه النجوم، وفوقها الملائكة المقسمات أمر الله، الذي أمرت به بين خلقه.

والصحيح: أن المقسمات أمرًا لا تختص بأربعة.

وقيل: هم جبريل يقسم الوحي والعذاب، وأنواع العقوبة على من خالف الرسل.

---

(١) ١٧٤ التبيان.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣٢٩٨) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٥٤ رقم ٥٧٨) وأبو الشيخ في العظمة (٤/ ١٢٤٩) وقال الترمذي: هذا حديث غريب. وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي.

وميكائيل على القطر والبرد والثلج والنبات، يقسمها بأمر الله. وملك الموت يقسم المنايا بين الخلق بأمر الله. وإسرافيل يقسم الأرواح على أبدانها عند النفخ في الصور، وهم المدبرات أمرًا، وليس في اللفظ ما يدل على الاختصاص بهم، والله أعلم.

وأقسم سبحانه بهذه الأمور الأربعة لمكان العبرة والآية، والدلالة الباهرة على ربوبيته ووحدانيته وعظم قدرته، ففي الرياح من العبر هبوبها وسكونها، ولينها وشدتها، واختلاف طبائعها وصفاتها، ومهابها وتصريفها، وتنوع منافعها، وشدة الحاجة إليها.

فللمطر خمسة رياح: ريح ينشر سحابه، وريح يؤلف بينه، وريح تلقحه، وريح تسوقه حيث يريد الله، وريح تذرو أمامه وتفرقه.

وللنبات ريح، وللسفن ريح، وللرحمة ريح، وللعذاب ريح، إلى غير ذلك من أنواع الرياح، وذلك تقضي بوجود خالق مصرف لها مدبر لها، يصرفها كيف يشاء، ويجعلها رخاء تارة، وعاصفة تارة، ورحمة تارة، وعذابا تارة، فتارة يحيي بها الزرع والثمار، وتارة يعطبها بها، وتارة ينجي بها السفن وتارة يهلكها بها، وتارة ترطب الأبدان وتارة تذيبها، وتارة عقيما وتارة لاقحة، وتارة جنوبا وتارة دبورا، وتارة صبا وتارة شمالا، وتارة حارة وتارة باردة، وهي مع غاية قوتها ألطف شيء، وأقبل المخلوقات لكل كيفية، سريعة التأثر والتأثير، لطيفة المسار بين السماء والأرض. إذا قطع عن الحيوان الذي على وجه الأرض هلك، كبحر الماء الذي إذا فارقه حيوان الماء هلك، يحبسها الله سبحانه إذا شاء، ويرسلها إذا شاء، تحمل الأصوات إلى الأذان، والرائحة إلى الأنف، والسحاب إلى الأرض الجزر، وهي من روح الله، تأتي بالرحمة، ومن عقوبته تأتي بالعذاب.

وهي أقوى خلق الله، كما رواه الترمذي في جامعه من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «**لما خلق الله الأرض جعلت تميد، فخلق الجبال، فقال بها عليها فاستقرت، فعجبت الملائكة من شدة الجبال، وقالوا: يا رب هل من خلقك شيء**

أشد من الجبال؟ قال: نعم الحديد، قالوا: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الحديد؟ قال: نعم النار، قالوا: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من النار؟ قال: نعم الماء، قالوا: يا رب فهل من خلقك أشد من الماء؟ قال: نعم الريح، قالوا: يا رب فهل من خلقك أشد من الريح قال: نعم ابن آدم تصدق بصدقة بيمينه يخفيها عن شماله»(١) ورواه الإمام أحمد في مسنده، وفي الترمذي في حديث قصة عاد: أنه لم يرسل عليهم من الريح، إلا قدر حلقة الخاتم، فلم تذر من شيء أتت عليه، إلا جعلته كالرميم، وقد وصفها الله بأنها عاتية، قال البخاري في صحيحه: عتت على الخزنة: فلم يستطيعوا أن يردوها.

والمقصود: أن الرياح أعظم من آيات الرب الدالة على عظمته وربوبيته وقدرته.

ثم أقسم بالسحاب، وهو من أعظم آيات الله في الجو في غاية الخفة، ثم يحمل الماء والبرد، فيصير أثقل شيء، فيأمر الرياح فتحمله على متونهما، وتسير به حيث أمرت، فهو مسخر بين السماء والأرض حامل لأرزاق العباد والحيوان، فإذا أفرغه حيث أمر به اضمحل وتلاشى بقدرة الله، فإنه لو بقي لأضر النبات والحيوان، فأنشاه سبحانه في زمن يصلح إنشاؤه فيه، وحمله من الماء ما يحمله، وساقه إلى بلد شديد الحاجة إليه.

فسل السحاب: من أنشأه بعد عدمه؟ وحمله الماء والثلج والبرد؟ ومن حمله على ظهور الرياح؟ ومن أمسكه بين السماء والأرض بغير عماد؟ ومن أغاث بقطره العباد، وأحيا به البلاد، وصرفه بين خلقه كما أراد، وأخرج ذلك القطر بقدر معلوم، وأنزله منه، وأفناه بعد الاستغناء عنه، ولو شاء لأدامه عليهم، فلم يستطيعوا إلى دفعه سبيلًا، ولو شاء لأمسكه عنهم، فلا يجدون إليه وصولا، فإن لم يجبك حوارًا أجابك اعتبارًا،

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٣٦٩) والضياء في المختارة (٦/ ١٥٣رقم ٢١٤٩) وأحمد (٣/ ١٢٤) وأبو يعلى (٧/ ٢٨٦ رقم ٤٣١٠) وعبد بن حميد (رقم ١٢١٥) والبيهقي في الشعب (٣/ ٢٤٤ رقم ٣٤٤١) وحسنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٢/ ١٤٧).

وسل الرياح من أنشأها بقدرته، وصرفها بحكمته، وسخرها بمشيئته، وأرسلها بشرًا بين يدي رحمته؟ جعلها سببًا لتمام نعمته، وسلطانًا على من شاء بعقوبته، ومن جعلها رخاء وذارية ولاقحة ومثيرة ومؤلفة ومغذية لأبدان الحيوان والشجر والنبات، وجعلها قاصفًا وعاصفًا ومهلكة وعاتية إلى غير ذلك من صفاتها؟ فهل ذلك لها من نفسها وذاتها أم تدبير مدبر شهدت الموجودات بربوبيته، وأقرت المصنوعات بوحدانيته، بيده النفع والضر وله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين.

وسل الجاريات يسرا من السفن: من أمسكها على وجه الماء؟ وسخر لها البحر؟ ومن أرسل لها الرياح التي تسوقها على الماء سوق السحاب على متون الرياح؟ ومن حفظها في مجراها ومرساها من طغيان الماء وطغيان الريح؟ فمن الذي جعل الريح لها بقدر لو زاد عليها لأغرقها، ولو نقص عنه لعاقها؟

ومن الذي أجرى لها ريحا واحدة تسير بها، ولم يسلط على تلك الريح ما يصادمها ويقاومها، فتتموج في البحر يمينا وشمالا تتلاعب بها الريح؟

ومن الذي علم الخلق الضعيف صنعة هذا البيت العظيم، الذي يمشي على الماء، فيقطع المسافة البعيدة، ويعود إلى بلده، يشق الماء، ويمخره مقبلًا ومدبرًا بريح واحدة، تجري في موج كالجبال ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٢-٣٤]، ومن الذي حمل في هذا البيت نبيه وأولياءه خاصة وأغرق جميع أهل الأرض سواهم؟

وسل الجاريات يسرا من الكواكب والشمس والقمر: من الذي خلقها وأحسن خلقها؟ ورفع مكانها وزين بها قبة العالم، وفاوت بين أشكالها ومقاديرها وألوانها وحركاتها وأماكنها من السماء.

فمنها الكبير، ومنها الصغير والمتوسط والأبيض والأحمر والزجاجي اللون والدري اللون، والمتوسط في قبة الفلك، والمتطرف في جوانبها، وبين ذلك، ومنها ما

يقطع الفلك في شهر، ومنها ما يقطعه في عام، ومنها ما يقطعه في ثلاثين عاما، ومنها ما يقطعه في أضعاف ذلك ومنها ما لا يزال ظاهرًا لا يغيب بحال، فهو أبدي، ومنها أبدي الخفاء، ومنها ما له حالتان ظهور واختفاء، ومنها ما له حركتان حركة عرضية من المشرق إلى المغرب وحركة ذاتية من المغرب إلى المشرق، فحالما يأخذ الكوكب في الغروب فإذا كوكب آخر في مقابلته، وكوكب آخر قد طلع، وهو آخذ في الارتفاع والتصاعد، وكوكب آخر في الربع الشرقي، وكوكب آخر في وسط السماء، وكوكب آخر قد مال عن الوسط، وآخر قد دنا من الغروب، وكأنه رقيبه ينتظر بطلوعه غيبته.

وأنت إذا تأملت أحوال هذه الكواكب وجدتها تدل على المعاد، كما تدل على المبدأ وتدل على وجود الخالق، وصفات كماله وربوبيته وحكمته ووحدانيته أعظم دلالة، وكل ما دل على صفات جلاله ونعوت كماله دل على صدق رسله.

فكما جعل الله النجوم هداية في طريق البر والبحر، فهي هداية في طرق العلم بالخالق سبحانه، وقدرته وعلمه وحكمته، والمبدأ والمعاد والنبوة، ودلالتها على هذه المطالب، لا تقصر عن دلالتها على طرق البر والبحر، بل دلالتها للعقول على ذلك أظهر من دلالتها على الطرق الحسية، فهي هداية في هذا وهذا.

وأما دلالة ﴿ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴾ وهم الملائكة، فلأن ما يشاهد من تدبير العالم العلوي والسفلي وما لا يشاهد، إنما هو على أيدي الملائكة.

فالرب تعالى يدبر بهم أمر العالم، وقد وكل بكل عمل من الأعمال طائفة منهم، فوكل بالشمس والقمر والنجوم والأفلاك طائفة منهم، ووكل بالقطر والسحاب طائفة، ووكل بالنبات طائفة، ووكل بالأجنة والحيوان طائفة، ووكل بالموت طائفة، وبحفظ بني آدم طائفة، وبإحصاء أعمالهم وكتابتها طائفة، وبالوحي طائفة، وبالجبال طائفة، وبكل شأن من شئون العالم طائفة.

هذا مع ما في خلق الملائكة من البهاء والحسن، وما فيهم من القوة والشدة، ولطافة الجسم، وحسن الخلقة، وكمال الانقياد لأمره، والقيام في خدمته، وتنفيذ

أوامره في أقطار العالم...

[١]...فكل حركة في السموات والأرض: من حركات الأفلاك، والنجوم، والشمس، والقمر، والرياح، والسحاب، والنبات، والحيوان، فهي ناشئة عن الملائكة الموكلين بالسموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴾ [النازعات: ٥] وقال: ﴿ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴾ [الذاريات: ٤]، وهي الملائكة عند أهل الإيمان، وأتباع الرسل عليهم السلام، وأما المكذبون للرسل، المنكرون للصانع، فيقولون: هي النجوم، وقد أشبعنا الرد على هؤلاء في كتابنا الكبير المسمى بالمفتاح.

وقد دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة، وأنها موكلة بأصناف المخلوقات، وأنه سبحانه وكل بالجبال ملائكة، ووكل بالسحاب والمطر ملائكة، ووكل بالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة حتى يتم خلقها، ثم وكل بالعبد ملائكة لحفظه، وملائكة لحفظ ما يعمله وإحصائه وكتابته...

***

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝ ﴾.

[٢]...ثم أقسم سبحانه بهذه الأمور على صدق وعده، ووقوع جزائه بالثواب والعقاب، فقال: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ [الذاريات: ٥] أي ما توعدون من أمر الساعة والثواب والعقاب لحق كائن، وهو وعد صدق لا كذب ﴿ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴾ [الذاريات: ٦] أي إن الجزاء لكائن لا محالة.

ويجوز أن تكون ما موصولة والعائد محذوف، والمعنى الذي توعدونه لصادق، أي كائن وثابت وأن تكون مصدرية أي إن وعدكم لحق وصدق ووصف الوعد بكونه

---

(١) ١٢٥ إغاثة جـ٢.

(٢) ١٧٩ التبيان.

صادقًا أبلغ من وصفه بكونه صدقًا، ولا حاجة إلىٰ تكلف جعله بمعنىٰ مصدوق فيه، بل هو صادق نفسه، كما يوصف المتكلم بأنه صادق في كلامه، فوصف كلامه بأنه صادق، وهذا مثل قولهم: سر كاتم، وليل قاتم، ونهار صائم، وماء دافق، ومنه ﴿ عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٢١] وليس ذلك بمجاز ولا مخالف لمقتضىٰ التركيب، وإذا تأملت هذا التناسب والارتباط بين المقسم به والمقسم عليه وجدته دالا عليه مرشدًا إليه.

ثم أقسم سبحانه ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴾ [الذاريات: ٧] أصل الحبك في اللغة إجادة النسج، يقال: حبك الثوب إذا أجاد نسجه، وحبل محبوك إذا كان شديد الفتل، وفرس محبوك الكفل، أي مدمجه، وقال شمر: المحبوك في اللغة: ما أجيد عمله. ودابة محبوكة إذا كانت مدمجة الخلق. وقال أبو عبيدة والمبرد: الحبك الطريق واحدها حباك، وحباك الحمام: طرائق علىٰ جناحيه وحبك الماء طريقه. وقال الفراء: الحبك تكسير كل شيء: كالرمل إذا مرت به الريح، والماء الدائم إذا مرت به الريح، وتجعد الشعر حبك أيضًا، واحدها حبيكة، مثل طرق وطريقة، وحباك مثل مثال ومثل.

والمقصود بهذا كله ما أفصح به ابن عباس، فقال: يريد الخلق الحسن. وروىٰ سعيد بن جبير عنه قال: الحبك حسنها واستواؤها. وقال قتادة: ذات الخلق الشديد. وقال مجاهد: متقن البنيان، وقال أيضًا: ذات الطرائق.

ولكنها بعيدة من العباد فلا يرونها، كحبك الماء إذا ضربته الريح، وكحبك الرمل وكحبك الشعر، وقال عكرمة بنيانها كالبرد المسلسل.

قلت: وفي الحديث في صفة الدجال: ورأسه حبك، أي جعد الشعر، ومن أحسن ما قيل في تفسير الحبك ما ذكره الترمذي في تفسير الجامع من حديث الحسن عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**هل تدرون ما فوقكم**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**فإنها الرقيع سقف محفوظ، وموج مكفوف**»[١] وذكر الحديث.

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٢٩٨) والطبراني في مسند الشاميين (٤/ ٣٥ رقم ٢٦٦٥).

ثم ذكر المقسم عليه فقال: ﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ [الذاريات: ٨، ٩] فالقول المختلف: أقوالهم في القرآن، وفي النبي ﷺ، وهو خرص كله، فإنهم لما كذبوا بالحق اختلفت مذاهبهم وآراؤهم وطرائقهم وأقوالهم، فإن الحق شيء واحد وطريق مستقيم، فمن خالفه اختلفت به الطرق والمذاهب، كما قال تعالىٰ: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝ ﴾ [ق: ٥] أي: مختلط ملتبس، وفي ضمن هذا الجواب أنكم في أقوال باطلة متناقضة، يكذب بعضها بعضًا بسبب تكذيبهم بالحق. ثم أخبر سبحانه أنه يصرف بسبب ذلك القول المختلف من صرف فعن ههنا فيها طرف من معنىٰ التسبيب كقوله: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ ﴾ [هود: ٥٣].

وقوله: ﴿ مَنْ أُفِكَ ﴾ أي من سبق في علم الله أنه يضل ويؤفك كقوله: ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَـٰتِنِينَ ۝ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ١٦١-١٦٣] وقالت طائفة: الضمير يرجع إلىٰ القرآن، وقيل: إلىٰ الإيمان، وقيل: إلىٰ الرسول، والمعنىٰ: يصرف عنه من صرف حتىٰ يكذب به.

ولما كان هذا القول المختلف خرصًا وباطلًا قال: ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴾ أي: المكذبون ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾ [الذاريات: ١٠، ١١] وجهالة قد غمرت قلوبهم أي غطتها وغشتها كغمرة الماء وغمرة الموت، فالغمرات ما غطاها من جهل أو هوىٰ أو سكر أو غفلة أو حب أو بغض أو خوف أو غم، ونحو ذلك، قال تعالىٰ: ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَـٰذَا ﴾ [المؤمنون: ٦٣] أي غفلة، وقيل: جهالة ثم وصفهم بأنهم ساهون في غمرتهم والسهو الغفلة عن الشيء وذهاب القلب عنه، والفرق بينه وبين النسيان: أن النسيان الغفلة بعد الذكر والمعرفة، والسهو لا يستلزم ذلك.

***

﴿ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝ ﴾.

[(١)]أما الغمرات فهي جمع غمرة، والغمرة ما يغمر القلب من حب أو سكرٍ أو غفلة، قال الله تعالىٰ: ﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾ [الذاريات: ١٠، ١١] أي: في غفلة قد غمرت قلوبهم، وقال تعالىٰ: ﴿ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [المؤمنون: ٥٤] ومنه [الماء] الغمر الكثير الذي يغطي من دخل فيه، ومنه غمرات الموت أي شدائده، وكذلك غمرات الحب، وهو [ما] يغطي قلب المحب فيغمره، ومنه قولهم: رجلٌ غمر الرداء ـ كناية عن السخاء، لأنه يغمر العيوب أي يغطيها، فلا يظهر مع السخاء عيب، قال كُثَيِّر:

غمر الرداء إذا تبسم ضاحكًا غلقت لضحكته رقابُ المال[(٢)]

وقال القطامي يصف سفينة نوح:

إلىٰ الجودي حتىٰ صار حجرًا وكان لذلك الغمر انحسار[(٣)]

أي لذلك الماء الذي غمر الأرض ومن عليها.

[(٤)]ثم قال: ﴿ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ [الذاريات: ١٢] استبعادًا للوقوع وجحدًا، فأخبر تعالىٰ أن ذلك ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ [الذاريات: ١٣] والمشهور في تفسير

---

(١) ٣٨ روضة المحبين.

(٢) هذا البيت من بحر الكامل، ينسب إلىٰ كثير عزة بن عبد الرحمن بن الأسود بن مليح، شاعر متيم مشهور، ولد في آخر خلافة يزيد بن عبد الملك، اشتهر بحبه لعزة فعرف بها وعرفت وعرفت به، وهي عزة بنت جميل الكنانية، مات سنة ١٠٥هـ ومات معه في نفس اليوم عكرمة مولىٰ ابن عباس رضي الله عنهما فقيل: مات اليوم أفقه الناس وأشعر الناس، ذكره ابن عبدالبر في الاستذكار (٥/ ١٠) وفي التمهيد (٤/ ٢١٠) وابن فورك في مشكل الحديث وبيانه ص ٣١٧) وابن منظور في اللسان (٥/ ٢٩) والخطابي في غريب الحديث (١/ ٦٢٥) وابن قتيبة في غريب الحديث (٢/ ٩٢).

(٣) هذا البيت من بحر الوافر، وينسب إلىٰ القطامي التغلبي: عمير بن شييم بن عمرو شاعر الغزل الفحل، كان من نصارىٰ تغلب ثم أسلم، أول من لقب بصريع الغواني مات سنة ١٣٠هـ. وذكر البيت ابن منظور في اللسان (٥/ ٣٠).

(٤) ١٨٢ التبيان.

هذا الحرف أنه بمعنى يحرقون، ولكن لفظة على تعطي معنى زائدا على ما ذكروه، ولو كان المراد نفس الحرق لقيل يومهم في النار يفتنون، ولهذا لما علم هؤلاء ذلك، قال كثير منهم على بمعنى في كما تكون في بمعنى [على].

والظاهر أن فتنتهم على النار، قيل فتنتهم فيها لهم عند عرضهم عليها ووقوفهم عليها فتنة وعند دخولهم، والتعذيب بها فتنة أشد منها، ومن جعل الفتنة ههنا من الحريق أخذه من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ ﴾ [البروج: ١٠] واستشهد على ذلك أيضا بهذه اللفظة التي في الذاريات، وحقيقة الأمر أن الفتنة تطلق على العذاب وسببه، ولهذا سمى الله الكفر فتنة، فهم لما أتوا بالفتنة التي هي أسباب العذاب في الدنيا سمى جزاءهم فتنة، ولهذا قال: ﴿ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ ﴾ [الذاريات: ١٤] وكان وقوفهم على النار وعرضهم عليها من أعظم فتنتهم، وآخر هذه الفتنة دخول النار والتعذيب بها، ففتنوا أولا بأسباب الدنيا وزينتها، ثم فتنوا بإرسال الرسل إليهم، ثم فتنوا بمخالفتهم وتكذيبهم، ثم فتنوا بعذاب الدنيا، ثم فتنوا بعذاب الموت، ثم يفتنون في موقف القيامة، ثم إذا حشروا إلى النار وقفوا عليها وعرضوا عليها، وذلك من أعظم فتنتهم، ثم الفتنة الكبرى التي أنستهم جميع الفتن قبلها.

ثم ذكر سبحانه جزاء من خلص من هذه الفتن بالتقوى، وهو الجنات والعيون، وأنهم ﴿ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ من الخير والكرامة.

وفي ذلك دليل على أمور منها قبولهم له، ومنها رضاهم به، ومنها وصولهم إليه بلا مانع ولا عائق، ومنها أن جزاءهم من جنس أعمالهم، فكما أخذوا ما أمرهم به في الدنيا وقابلوه بالرضا والتسليم وانشراح الصدر أخذوا ما آتاهم من الجزاء كذلك.

ثم ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ذلك وهو إحسانهم المتضمن لعبادته وحده لا شريك له، والقيام بحقوقه وحقوق عباده، ثم ذكر ليلهم، وأنهم قليل هجوعهم منه،

وقد قيل: إن ما نافية، والمعنى ما يهجعون قليلا من الليل، فكيف بالكثير، وهذا ضعيف لوجوه:

أحدها: أن هذا ليس بلازم لوصف المتقين الذين يستحقون هذا الجزاء.

الثاني: أن قيام من نام من الليل نصفه أحب إلى الله من قيام من قامه كله.

الثالث: أنه لو كان المراد بذلك إحياء الليل جميعه لكان أولى الناس بهذا رسول الله ﷺ وما قام ليلة حتى الصباح.

الرابع: أن الله سبحانه إنما أمر رسوله أن يتهجد بالقرآن من الليل، لا في الليل كله، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾ [الإسراء: ٧٩].

الخامس: أنه سبحانه لما أمره بقيام الليل في سورة المزمل إنما أمره بقيام النصف أو النقصان منه أو الزيادة عليه، فذكر له هذه المراتب الثلاثة، ولم يذكر قيامه كله.

السادس: أنه ﷺ لما بلغه عن عثمان بن مظعون أنه لا ينام من الليل بعث إليه فجاء، فقال: «يا عثمان أرغبت عن سنتي» قال: لا والله يا رسول الله، ولكن سنتك أطلب، قال: «فإني أنام وأصلي، وأصوم وأفطر، وأنكح النساء، فاتق الله يا عثمان، فإن لأهلك عليك حقا، وإن لضيفك عليك حقًّا، وإن لنفسك عليك حقًّا، فصم وأفطر، وصل ونم»[1]. ولما بلغه عن زينب بنت جحش أنها تصلي الليل كله، حتى جعلت حبلًا بين ساريتين إذا فترت تعلقت به، أنكر ذلك، وأمر بحله[2].

السابع: أن الله أثنى عليهم بأنهم كانت ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦] وتقلق عنها حتى يقوموا إلى الصلاة، ولهذا جازاهم عن هذا التجافي - الذي سببه قلق القلب واضطرابه، حتى يقوم إلى الصلاة - بقرة الأعين.

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ١٣٦٩) وأحمد (٦/ ٢٦٨) وابن أبي الدنيا في العيال (رقم ٤٩٣) قال الهيثمي في المجمع (٤/ ٣٠١): وأسانيد أحمد رجالها ثقات.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٧٨٤) وانظر: فتح الباري (٣/ ٣٦) وشرح النووي (٦/ ٧٢).

الثامن: أن الصحابة الذين هم أول وأولىٰ من دخل في هذه الآية لم يفهموا منها عدم نومهم بالليل، أصلا فروىٰ بجير بن سعد عن سعيد عن قتادة عن أنس في قوله: ﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذاريات: ١٧] قال: كانوا يصلون ما بين المغرب والعشاء.

التاسع: أن في هذا التقرير تفكيكًا للكلام، وتقديما لمعمول العامل المنفي عليه، لأنك تجعل قليلًا مفعول يهجعون، وهو منفي، والبصريون لا يجيزون ذلك، وإن أجازه الكوفيون، وفصل بعضهم، فأجازه في الظرف، ولم يجزه في غيره.

***

﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

[(١)]أخبر عنهم بأنهم مع صلاتهم بالليل كانوا يستغفرون الله عند السحر. فختموا صلاتهم بالاستغفار والتوبة، فباتوا لربهم سجدًا وقيامًا، ثم تابوا إليه، واستغفروه عقيب ذلك، وكان النبي ﷺ إذا سلم من صلاته استغفر ثلاثًا. وأمره الله سبحانه أن يختم عمره بالاستغفار، وأمر عباده أن يختموا إفاضتهم من عرفات بالاستغفار، وشرع ﷺ للمتوضئ أن يختم وضوءه بالتوبة، فأحسن ما ختمت به الأعمال التوبة والاستغفار.

[(٢)]﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨] قال الحسن: مدوا الصلاة إلىٰ السحر، ثم جلسوا يستغفرون، وقال النبي ﷺ: «تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب، كما ينفي الكير خبث الحديد»[(٣)].

---

(١) ١٨٤ التبيان.

(٢) ٢٦٢ مدارج السالكين جـ١.

(٣) أخرجه ابن حبان (٩/ ٦ رقم ٣٦٩٣) وابن خزيمة (٤/ ١٣٠ رقم ٢٥١٢) والضياء في المختارة (٨/ ١٩٧ رقم ٢٢٨) والنسائي في الكبرىٰ (٢/ ٣٢٢ رقم ٣٦٠٩) وابن ماجه (رقم ٢٨٨٧) والترمذي (رقم ٨١٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب. وانظر: فتح الباري (٣/ ٥٩٨).

وقال لمن سأله أن يوصيه بشيء يتشبث به: «لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله»[(١)].

والدين كله استكثار من الطاعات، وأحب خلق الله إليه: أعظمهم استكثارًا منها. وفي الحديث الصحيح الإلهي: «ما تقرب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»[(٢)]. فهذا جزاؤه وكرامته للمستكثرين من طاعته، لا لأهل الفناء المستغرقين في شهود الربوبية.

وقال ﷺ لآخر: «عليك بكثرة السجود، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة، وحط عنك بها خطيئة»[(٣)].

***

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝ ﴾.

[(٤)]...أخبر سبحانه عن إحسانهم إلى الخلق مع إخلاصهم لربهم، فجمع لهم بين الإخلاص والإحسان ضد ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝ ﴾ [الماعون: ٥، ٦] وأكد إخلاصهم في هذا الإحسان بأن مصرفه للسائل والمحروم، الذي

---

(١) أخرجه ابن حبان (٣/ ٩٦ رقم ٨١٤) وفي موارد الظمآن (رقم ٢٣١٧) والترمذي (رقم ٣٣٧٥) والبيقهي في الكبرى (٣/ ٣٧١ رقم ٦٣١٨) وابن ماجه (رقم ٣٧٩٣) وابن أبي شيبة (٦/ ٥٨ رقم ٢٩٤٥٣) وأحمد (٤/ ١٨٨) والحاكم (١/ ٦٧٢ رقم ١٨٢٢) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وانظر: فتح الباري (١١/ ٢١٠).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٠٢) وانظر فتح الباري (١٠/ ٤٦٢) (١١/ ٣٤٤-٣٤٧) وشرح النووي (١٥/ ١٥١).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٤٨٨) وانظر: شرح النووي (٤/ ٢٠٥-٢٠٦).

(٤) ١٨٥ التبيان.

لا يقصد بإعطائه الجزاء منه ولا الشكور، والمحروم المتعفف الذي لا يسأل.

وتأمل حكمة الرب تعالىٰ في كونه حرمه بقضائه، وشرع لأصحاب الجدة إعطاءه، وهو أغنى الأغنياء وأجود الأجودين، فلم يجمع عليه بين الحرمان بالقدر وبالشرع، شرع عطاءه بأمره وحرمه بقدره، فلم يجمع عليه حرمانين.

ثم ذكرهم سبحانه بآياته الأفقية والنفسية، فقال: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١] فآيات الأرض أنواع كثيرة.

منها: خلقها وحدوثها بعد عدمها، وشواهد الحدوث والافتقار إلىٰ الصانع عليها لا تجحد، فإنها شواهد قائمة بها.

ومنها: بروز هذا الجانب فيها عن الماء مع كون مقتضى الطبيعة أن يكون مغمورًا به.

ومنها: سعتها وكبر خلقها ومنها تسطيحها، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية: ٢٠] ولا ينافي ذلك كونها كرية، فهي كرة في الحقيقة، لها سطح يستقر عليه الحيوان.

ومنها: أنه جعلها فراشا، لتكون مقر الحيوان ومساكنه، وجعلها قرارًا.

وجعلها مهادًا ذلولًا، توطأ بالأقدام، وتضرب بالمعاول والفئوس، وتحمل علىٰ ظهرها الأبنية الثقال، فهي ذلول مسخرة لما يريد العبد منها.

وجعلها بساطًا، وجعلها كفاتًا للأحياء، تضمهم علىٰ ظهرها، وللأموات تضمهم في بطنها، وطحاها فمدها وبسطها ووسعها ودحاها، فهيأها لما يراد منها بأن أخرج منها ماءها ومرعاها، وشق فيها الأنهار، وجعل فيها السبل والفجاج.

ونبه بجعلها مهادا وفراشا علىٰ حكمته في جعلها ساكنة، وذلك آية أخرىٰ، إذ لا دعامة تحتها تمسكها، ولا علاقة فوقها، ولكنها لما كانت علىٰ وجه الماء كانت تكفأ فيه تكفأ السفينة، فاقتضت العناية الأزلية والحكمة الإلهية أن وضع عليها رواسي يثبتها بها، لئلا تميد، وليستقر عليها الأنام، وجعلها ذلولًا علىٰ الحكمة في أن لم تكن في

غاية الصلابة والشدة كالحديد، فيمتنع حفرها وشقها والبناء فيها والغرس والزرع والنوم عليها والمشي فيها.

ونبه بكونها قرارًا على الحكمة في أنها لم تخلق في غاية اللين والرخاوة والدماثة، فلا تمسك بناء، ولا يستقر عليها الحيوان ولا الأجسام الثقيلة، بل جعلها بين الصلابة والدماثة.

وأشرف الجواهر عند الإنسان الذهب والفضة والياقوت والزمرد، فلو كانت الأرض من هذه الجواهر لفاتت مصالح العباد والحيوان منها، وتعطلت المنافع المقصودة منها، وبهذا يعلم أن جواهر التراب أشرف من هذه الجواهر، وأنفع وأبرك، وإن كانت تلك أعلى وأعز، فغلاؤها وعزتها لقلتها، وإلا فالتراب أنفع منها وأبرك وأنفس.

وكذلك لم يجعلها شفافة، فإن الجسم الشفاف لا يستقر عليه النور، وما كان كذلك لم يقبل السخونة، فيبقى في غاية البرد، فلا يستقر عليه الحيوان، ولا يتأتى فيه النبات. وكذلك لم يجعلها صقيلة براقة، لئلا يحترق ما عليها بسبب انعكاس أشعة الشمس، كما يشاهد من احتراق القطن ونحوه عند انعكاس شعاع الجسم الصقيل الشفاف، فاقتضت حكمته سبحانه أن جعلها كثيفة غبراء، فصلحت أن تكون مستقرًا للحيوان والأنام والنبات.

ولما كان الحيوان الهوائي لا يمكنه أن يعيش في الماء كالحيوان المائي أبرز له جانبها كما تقدم، وجعله على أوفق الهيئات لمصالحه، وأنشا منها طعامه وقوته، وكذلك خلق منها النوع الإنساني، وأعاده إليها ويخرجه منها.

ومن آياتها أن جعلها مختلفة الأجناس والصفات والمنافع مع أنها قطع متجاورات متلاصقة، فهذه سهلة، وهذه حزنة تجاورها وتلاصقها، وهذه طيبة تنبت، وتلاصقها أرض لا تنبت، وهذه تربة وتلاصقها رمال، وهذه صلبة ويلاصقها ويليها رخوة، وهذه سوداء ويليها أرض بيضاء، وهذه حصى كلها ويجاورها أرض لا يوجد فيها

حجر، وهذه تصلح لنبات كذا وكذا وهذه لا تصلح له بل تصلح لغيره، وهذه سبخة مالحة وهذه بضدها، وهذه ليس فيها جبل ولا معلم وهذه مسجرة بالجبال، وهذه لا تصلح إلا على المطر، وهذه لا ينفعها المطر، بل لا تصلح إلا على سقي الأنهار، فيمطر الله سبحانه الماء على الأرض البعيدة، وهذه لا ينفعها المطر، ويسوق الماء إليها على وجه الأرض.

فلو سألتها من نوَّعها هذه التنوع، ومن فرَّق أجزاءها هذا التفريق، ومن خصص كل قطعة منها بما خصها به، ومن ألقى عليها رواسيها، وفتح فيها السبل، وأخرج منها الماء والمرعى، ومن أمسكها عن الزوال، ومن بارك فيها وقدر فيها أقواتها، وأنشأ منها حيوانها ونباتها، ومن وضع فيها معادنها وجواهرها ومنافعها، ومن هيأها مسكنا ومستقرا للأنام، ومن يبدأ الخلق منها ثم يعيده إليها ثم يخرجه منها، ومن جعلها ذلولًا غير مستصعبة ولا ممتنعة، ومن وطأ مناكبها، وذلل مسالكها، ووسع مخارجها، وشق أنهارها، وأنبت أشجارها، وأخرج ثمارها، ومن صدعها عن النبات، وأودع فيها جميع الأقوات، ومن بسطها وفرشها ومهدها وذللها وطحاها ودحاها، وجعل ما عليها زينة لها، ومن الذي يمسكها أن تتحرك فتتزلزل، فيسقط ما عليها من بناء ومعلم أو يخسفها بمن عليها، فإذا هي تمور، ومن الذي أنشأ منها النوع الإنساني الذي هو أبدع المخلوقات وأحسن المصنوعات، بل أنشأ منها آدم ونوحا وإبراهيم وموسى وعيسى محمدًا صلى الله وسلم عليهم أجمعين، وأنشأ منها أولياءه وأحباءه وعباده الصالحين، ومن جعلها حافظة لما استودع فيها من المياه والأرزاق والمعادن والحيوان، ومن جعل بينها وبين الشمس والقمر هذا القدر من المسافة، فلو زادت على ذلك لضعف تأثرها بحرارة الشمس ونور القمر، فتعطلت المنفعة الواصلة إلى الحيوان والنبات بسبب ذلك، ولو زادت في القرب لاشتدت الحرارة والسخونة كما نشاهده في الصيف، فاحترقت أبدان الحيوان والنبات.

وبالجملة فكانت تفوت هذه الحكمة التي بها انتظام العالم. ومن الذي جعل فيها

الجنات والحدائق والعيون، ومن الذي جعل باطنها بيوتا للأموات وظاهرها بيوتا للأحياء، ومن الذي يحييها بعد موتها فينزل عليها الماء من السماء، ثم يرسل عليها الريح، ويطلع عليها الشمس، فتأخذ في الحبل، فإذا كان وقت الولادة مخضت للوضع، واهتزت وأنبتت من كل زوج بهيج.

فسبحان من جعل السماء كالأب، والأرض كالأم، والقطر كالماء الذي ينعقد منه الولد، فإذا حصل الحب في الأرض، ووقع عليه الماء أثرت نداوة الطين فيه، وأعانتها السخونة المختفية في باطن الأرض، فوصلت النداوة والحرارة إلىٰ باطن الحبة، فاتسعت الحبة وربت، وانتفخت وانفلقت عن ساقين: ساق من فوقها وهو الشجرة، وساق من تحتها وهو العرق، ثم عظم ذلك الولد حتىٰ لم يبق لأبيه نسبة إليه، ثم وضع من الأولاد بعد أبيه آلافا مؤلفة، كل ذلك صنع الرب الحكيم في حبة واحدة، لعلها تبلغ في الصغر إلىٰ الغاية، وذلك من البركة التي وضعها الله سبحانه في هذه الأم، فيا لها من آية تكفي وحدها في الدلالة علىٰ وجود الخالق وصفات كماله وأفعاله، وعلىٰ صدق رسله فيما أخبروا به عنه بإخراج من في القبور ليوم البعث والنشور.

فتأمل اجتماع هذه العناصر الأربعة وتجاورها وامتزاجها، وحاجة بعضها إلىٰ بعض، وانفصال بعضها عن بعض، وتأثيره فيه وتأثره به، بحيث لا يمكنه إلا الاتباع من التأثر والانفعال، ولا يستقل الآخر بالتأثير، ولا يستغني عن صاحبه، وفي ذلك أظهر دلالة علىٰ أنها مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة حادثة بعد عدمها، فقيرة إلىٰ موجد غنىٰ عنها، مؤثر غير متأثر، قديم غير حادث، تنقاد المخلوقات كلها لقدرته، وتجيب داعي مشيئته، وتلبي داعي وحدانيته وربوبيته، وتشهد بعلمه وحكمته، وتدعو عباده إلىٰ ذكره وشكره وطاعته وعبوديته ومحبته، وتحذرهم من بأسه ونقمته، وتحثهم علىٰ المبادرة إلىٰ رضوانه وجنته.

فانظر إلىٰ الماء والأرض كيف لما أراد الرب تعالىٰ امتزاجهما وازدواجهما أنشأ الرياح فحركت الماء وساقته إلىٰ أن قذفته في عمق الأرض، ثم أنشأ لها حرارة لطيفة

سماوية، وحصل بها الإنبات، ثم أنشأ لها حرارة أخرى أقوى منها حصل بها الانفتاح، وكانت حالته الأولى تضعف عن الحرارة الثانية، فادخرت إلى وقت قوته وصلابته، فحرارة الربيع للإخراج، وحرارة الصيف للإنضاج هذا، وإن الأم واحدة، والأب واحد، واللقاح واحد، والأولاد في غاية التباين والتنوع، كما قال تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤].

فهذا بعض آيات الأرض، ومن الآيات التي فيها وقائعه سبحانه، التي أوقعها بالأمم المكذبين لرسلهم المخالفين لأمره، وأبقى آثارهم دالة عليهم، كما قال تعالى ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٣٨]، وقال في قوم لوط: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨]، وقال: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۝ ﴾ [الحجر: ٧٣-٧٦] أي: بطريق ثابت لا يزول عن حاله، وقال: ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحجر: ٧٨، ٧٩] أي ديار هاتين الأمتين لبطريق واضح يمر به السالكون، وقال تعالى: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ [إبراهيم: ٤٥]، وقال عن قوم عاد: ﴿ فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، وقال: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ﴾ [طه: ١٢٨].

فأي دلالة أعظم من رجل يخرج وحده لا عدة له ولا عدد ولا مال، فيدعو الأمة العظيمة إلى توحيد الله والإيمان به وطاعته، ويحذرهم من بأسه ونقمته، فتتفق كلمتهم أو أكثرهم على تكذيبه ومعاداته، فيذكرهم أنواع العقوبات الخارجة عن قدرة البشر، فيغرق المكذبين كلهم تارة، ويخسف بغيرهم الأرض تارة، ويهلك آخرين

بالريح، وآخرين بالصيحة، وآخرين بالمسخ، وآخرين بالصواعق، وآخرين بأنواع العقوبات، وينجو داعيهم ومن معه. والهالكون أضعاف أضعافهم عددا وقوة ومنعة وأموالًا:

فيالك من آيات حق لو اهتدى ... بهن مريد الحق كن هواديا
ولكن على تلك القلوب أكنة ... فليست وإن أصغت تجيب المناديا

فهلا امتنعوا إن كانوا على الحق، وهم أكثرهم عددًا وأقوى شوكة - بقوتهم وعددهم من بأسه وسلطانه، وهلا اعتصموا من عقوبته، كما اعتصم من هو أضعف منهم من أتباع الرسل.

ومن الآيات التي في الأرض مما يحدثه الله فيها كل وقت ما يصدق به رسله فيما أخبرت به، فلا تزال آيات الرسل وأعلام صدقهم وأدلة نبوتهم يحدثها الله ﷻ في الأرض، إقامة للحجة على من لم يشاهد تلك الآيات، التي قاربت عصر الرسل، حتى كأن أهل كل قرن يشاهدون ما يشاهده الأولون أو نظيره، كما قال: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

وهذه الإرادة لا تختص بقرن دون قرن، بل لا بد أن يرى الله سبحانه أهل كل قرن من الآيات ما يبين لهم أنه الله الذي لا إله إلا هو، وأن رسله صادقون، وآيات الأرض أعظم مما ذكر وأكثر، فنبه باليسير منها على الكثير.

ثم قال ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١] لما كان أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه دعاه خالقه وبارئه ومصوره وفاطره من قطرة ماء إلى التبصر والتفكر في نفسه، فإذا تفكر الإنسان في نفسه استنارت له آيات الربوبية، وسطعت له أنوار اليقين، واضمحلت عنه غمرات الشك والريب، وانقشعت عنه ظلمات الجهل، فإنه إذا نظر في نفسه وجد آثار التدبير فيه قائمات، وأدلة التوحيد على ربه ناطقات، شاهدة لمدبره، دالة عليه، مرشدة إليه إذا يجده مكونا من قطرة ماء: لحوما منضدة، وعظاما مركبة، وأوصالا متعددة، مأسورة مشددة بحبال العروق والأعصاب، قد قمطت وشدت،

وجمعت بجلد متين، مشتمل على ثلاثمائة وستين مفصلا، ما بين كبير وصغير، وثخين ودقيق، ومستطيل ومستدير، ومستقيم ومنحن، وشدت هذه الأوصال بثلاثمائة وستين عرقا للاتصال والانفصال، والقبض والبسط، والمد والضم، والصنائع والكتابة.

وجعل فيه تسعة أبواب: فبابان للسمع، وبابان للبصر، وبابان للشم، وبابان للكلام والطعام والشراب والتنفس، وبابان لخروج الفضلات التي يؤذيه احتباسها، وجعل داخل بابي السمع مرًّا قاتلًا، لئلا تلج فيها دابة، تخلص إلى الدماغ فتؤذيه، وجعل داخل بابي البصر مالحا لئلا تذيب الحرارة الدائمة ما هناك من الشحم، وجعل داخل باب الطعام والشراب حلوًا ليسيغ به ما يأكله ويشربه، فلا يتنغص به لو كان مرًّا أو مالحًا.

وجعل له مصباحين من نور كالسراج المضيء، مركبين في أعلى مكان منه، وفي أشرف عضو من أعضائه طليعة له.

وركب هذا النور في جزء صغير جدا، يبصر به السماء والأرض وما بينهما، وغشاه بسبع طبقات، وثلاث رطوبات، بعضها فوق بعض، حماية له وصيانة وحراسة، وجعل على محله غلقا بمصراعين أعلا وأسفل، وركب في ذيل المصراعين أهدابا من الشعر وقاية للعين وزينة وجمالا، وجعل فوق ذلك كله حاجبين من الشعر، يحجبان العين من العرق النازل، ويتلقيان عنها ما ينصب من هناك.

وجعل سبحانه لكل طبقة من طبقات العين شغلًا مخصوصًا، ولكل واحد من الرطوبات مقدارًا مخصوصًا، لو زاد على ذلك أو نقص منه لاختلت المنافع والمصالح المطلوبة، وجعل هذا النور الباصر في قدر عدسة، ثم أظهر في تلك العدسة صورة السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والعالم العلوي والسفلي، مع اتساع أطرافه وتباعد أقطاره.

واقتضت حكمته سبحانه أن جعل فيها بياضا وسوادا، وجعل القوة الباصرة في

السواد، وجعل البياض مستقرا لها ومسكنا، وزين كلا منهما بالآخر، وجعل الحدقة مصونة بالأجفان والحواجب، كما تقدم، والحواجب بالأهداب، وجعلها سوداء، إذ لو كانت بيضاء لتفرق النور الباصر فضعف الإدراك، فإن السواد يجمع البصر، ويمنع من تفرق النور الباصر، وخلق سبحانه لتحريك الحدقة وتقليبها أربعا وعشرين عضلة، لو نقصت عضلة واحدة لاختل أمر العين.

ولما كانت العين كالمرآة التي إنما تنطبع فيها الصور إذا كانت في غاية الصقالة والصفاء، جعل سبحانه هذه الأجفان متحركة جدا بالطبع إلى الانطباق من غير تكلف، لتبقى هذه المرآة نقية صافية من جميع الكدورات، ولهذا لما لم يخلق لعين الذبابة أجفانا، فإنها لا تزال تراها تنظف عينها بيدها من آثار الغبار والكدورات. وكما جعل سبحانه العينين مؤديتين للقلب ما يريانه، فيوصلانه إليه كما ترياه، جعلهما مرآتين للقلب، يظهر فيهما ما هو مودع فيه من الحب والبغض، والخير والشر، والبلادة والفطنة، الزيغ والاستقامة، فيستدل بأحوال العين على أحوال القلب، وهو أحد أنواع الفراسة الثلاثة، وهي فراسة العين، وفراسة الأذن، وفراسة القلب، فالعين مرآة للقلب وطليعة ورسول.

ومن عجيب أمرها أنها من ألطف الأعضاء، وأبعدها تأثرا بالحر والبرد، على أن الاذن على صلابتها وغلظها لتتأثر بهما أكثر من تأثر العين على لطافتها، وليس ذلك بسبب الغطاء الذي عليها من الأجفان، فإنها لو كانت منفتحة لم تتأثر بذلك تأثر الأعضاء اللطيفة.

ومن ذلك الأذنان شقهما تبارك وتعالى في جانبي الوجه وأودعهما من الرطوبة ما يكون معينا على إدراك السمع، وأودعهما القوة السمعية.

وجعل سبحانه في هذه الصدفة. انحرافات واعوجاجات، لتطول المسافة قليلا، فلا يصل الهواء إلا بعد انكسار حدته، فلا يصدمها وهلة واحدة، فيؤذيها، وأيضا لئلا يفجأها الداخل إليها من الدبيب والحشرات، بل إذا دخل إلى عوجة من تلك

الانعطافات وقف هناك، فسهل إخراجه.

وكانت العينان في وسط الوجه والأذنان في جانبيه، لأن العينين محل الملاحة والزينة والجمال، وهما بمنزلة النور الذي يمشي بين يدي الإنسان.

وأما الأذنان فكان جعلهما في الجانبين لكون إدراكهما لما خلف الإنسان وأمامه وعن يمينه وعن شماله سواء، فتأتي المسموعات إليهما على نسبة واحدة.

وخلقت العينان بغطاء، والأذنان بغير غطاء، وهذا في غاية الحكمة، إذ لو كان للأذنين غطاء لمنع الغطاء إدراك الصوت، فلا يحصل إلا بعد ارتفاع الغطاء، والصوت عرض لا ثبات له، فكان يزول قبل كشف الغطاء بخلاف ما تراه العين، فإنه أجسام وأعراض لا تزول فيما بين كشف الغطاء وفتح العين.

وجعل سبحانه الأذن عضوا غضروفيا ليس بلحم مسترخ ولا عظم صلب، بل هي بين الصلابة واللين، فتقبل بلينها وتحفظ بصلابتها، ولا تنصدع انصداع العظام، ولا تتأثر بالحر والبرد والشمس والسموم تأثر اللحم، إذ المصلحة في بروزها لتتلقى ما يرد عليها من الأصوات والأخبار.

ومن ذلك الأنف نصبه سبحانه في وسط الوجه قائما معتدلا في أحسن شكل وأوفقه للمنفعة، وأودعه حاسة الشم التي يدرك بها الروائح وأنواعها...[(١)]

[(٢)]وتأمل كيف جاءت مفردة في قوله: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٣] إرادة لهذين الجنسين، أي رب كل ما علا وكل ما سفل، فلما كان المراد عموم ربوبيته أتى بالاسم الشامل لكل ما يسمى سماء وكل ما يسمى أرضا، وهو أمر حقيقي لا يتبدل ولا يتغير، وإن تبدلت عين السماء والأرض فانظر كيف جاءت مجموعة في قوله: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾

(١) بحث المؤلف بحثًا مطولًا، فمن أراده فليرجع إليه. (ج).
(٢) ١١٦ بدائع جـ١.

[التغابن: ١] في جميع الصور لما كان المراد الإخبار عن تسبيح سكانها على كثرتهم وتباين مراتبهم لم يكن بد من جمع محلهم.

ونظير هذا جمعها في قوله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩].

وكذلك جاءت في قوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ﴾ [الإسراء: ٤٤] مجموعة إخبارا بأنها تسبح له بذواتها وأنفسها على اختلاف عددها، وأكد هذا المعنى بوصفها بالعدد، ولم يقتصر على السماوات فقط، بل قال: ﴿ٱلسَّبْعُ﴾.

وانظر كيف جاءت مفردة في قوله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] فالرزق المطر وما وعدنا به الجنة، وكلاهما في هذه الجهة، لا أنهما في كل واحدة واحدة من السماوات، فكان لفظ الإفراد أليق بها، ثم تأمل كيف جاءت مجموعة في قوله: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] لما كان المراد نفي علم الغيب عن كل من هو في واحدة من السماوات أتى بها مجموعة.

وتأمل كيف لم يجئ في سياق الإخبار بنزول الماء منها إلا مفردة حيث وقعت لما لم يكن المراد نزوله من ذات السماء بنفسها، بل المراد الوصف، وهذا باب قد فتحه الله لي ولك فلجه وانظر إلى أسرار الكتاب وعجائبه وموارد ألفاظه جمعا وإفرادا وتقديمًا وتأخيرًا إلى غير ذلك من أسراره، فلله الحمد والمنة، لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه.

***

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ

ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

(١)...من تأمل المخلوقات، ما يراه منها وما لا يراه، واعتبر ما جاء به الرسول بها، ونقل فكرته في مجاري الخلق والأمر ظهر له أن هذا القرآن من عند الله وأنه كلامه، وهو أصدق الكلام، وأنه حق ثابت، كما أن سائر الموجودات ما يرىٰ منها وما لا يرىٰ حق، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الذاريات: ٢٣] أي: إن كان نطقكم حقيقة وهو أمر موجود لا تمارون فيه ولا تشكون، فهكذا ما أخبرتكم به من التوحيد والمعاد والنبوة حق، كما في الحديث: «**إنه لحق مثل ما أنك ههنا**» فكأنه سبحانه يقول: إن القرآن حق كما أن ما شاهدوه من الخلق وما لا يشاهدونه حق موجود، بل لو فكرتم فيما تبصرون وما لا تبصرون، لدلكم ذلك علىٰ أن القرآن حق.

ويكفي الإنسان من جميع ما يبصره وما لا يبصره بعينه، ومبدأ خلقه ونشأته، وما يشاهده من أحواله ظاهرًا وباطنًا، ففي ذلك أبين دلالة علىٰ وحدانية الرب، وثبوت صفاته، وصدق ما أخبر به رسوله، وما لم يباشر قلبه ذلك حقيقة لم تخالط بشاشة الإيمان قلبه(٢).

(٣)ورأس الأمر وعموده في ذلك إنما هو دوام التفكر وتدبر آيات الله، حيث

---

(١) ١١٠ التبيان.

(٢) هذا جزء من تفسير قول الله تعالىٰ: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الحاقة: ٣٨] وهو بكامله موجود في سورة الحاقة. اهـ. (ج).

(٣) ٥٠ التبوكية.

تستولي على الفكر، وتشغل القلب، فإذا صارت معاني القرآن مكان الخواطر من قلبه وجلس على كرسيه، وصار له التصرف، وصار هو الأمير المطاع أمره، فحينئذ يستقيم له سيره ويتضح له الطريق وتراه ساكنا وهو يباري الريح ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨].

فان قلت: إنك قد أشرت إلى مقام عظيم فافتح لي بابه، واكشف لي حجابه، وكيف تدبر القرآن وتفهمه والإشراف على عجائبه وكنوزه؟ وهذه تفاسير الأئمة بأيدينا، فهل في البيان غير ما ذكروه؟

قلت: سأضرب لك أمثالاً تحتذي عليها، وتجعلها إماماً لك في هذا المقصد، قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٢٤-٣٠]. فعهدى بك إذا قرأت هذه الآية وتطلعت إلى معناها وتدبرتها فإنما تطلع منها على أن الملائكة أتوا إبراهيم في صورة الأضياف يأكلون ويشربون وبشروه بغلام عليم، وإنما امرأته عجبت من ذلك فأخبرتها الملائكة أن الله قال ذلك. ولم يتجاوز تدبرك غير ذلك.

فاسمع الآن بعض ما في هذه الآيات من أنواع الأسرار. وكم قد تضمنت من الثناء على إبراهيم، وكيف جمعت الضيافة وحقوقها وكيف ترعى حق الضيف؟ وما تضمنت من الرد على أهل الباطل من الفلاسفة والمعطلة.

وكيف تضمنت علما عظيماً من أعلام النبوة، وكيف تضمنت جميع صفات الكمال التي مردها إلى العلم والحكمة، وكيف أشارت إلى دليل إمكان المعاد بألطف إشارة وأوضحها ثم أفصحت وقوعه؟

وكيف تضمنت الأخبار عن عدل الرب وانتقامه من الأمم المكذبة، وتضمنت ذكر الإسلام والإيمان والفرق بينهما، وتضمنت بقاء آيات الرب الدالة على توحيده وصدق رسله وعلى اليوم الآخر.

وتضمنت انه لا ينتفع بهذا كله إلا من في قلبه خوف من عذاب الآخرة، وهم

المؤمنون بها وأما من لا يخاف الآخرة، ولا يؤمن بها، فلا ينتفع بتلك الآيات.

فاسمع الآن بعض تفاصيل هذه الجملة: قال الله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ [الذاريات: ٢٤] افتتح سبحانه القصة بصيغة موضوعة للاستفهام، وليس المراد بها حقيقة الاستفهام، ولهذا قال بعض الناس: إن [هل] في مثل هذا الموضع بمعنى [قد] التي تقتضي التحقيق. ولكن في ورود الكلام في مثل هذا بصيغة الاستفهام سر لطيف، ومعنى بديع، فإن المتكلم إذا أراد أن يخبر المخاطب بأمر عجيب ينبغي الاعتناء به، وإحضار الذهن له صدر له الكلام بأداة الاستفهام، لتنبيه سمعه وذهنه للمخبر به، فتارة يصدره بألا، وتارة يصدره بهل، فقول: هل علمت ما كان من كيت وكيت؟ إما مذكرا به، وإما واعظاً له مخوفا، وإما منبها على عظمة ما يخبر به، وإما مقرراً له، فقوله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾ [طه: ٩] و﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ ﴾ [ص: ٢١] و﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ ﴾ [الغاشية: ١] و ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ متضمن لتعظيم هذه القصص، والتنبيه على تدبرها ومعرفة ما تضمنته.

ففيه أمر آخر. وهو التنبيه على أن إتيان هذا إليك علم من أعلام النبوة، فإنه من الغيب الذي لا تعمله أنت ولا قومك، فهل أتاك من غير إعلامنا وإرسالنا وتعريفنا ؟ أم لم يأتك إلا من قبلنا؟

فانظر ظهور هذا الكلام بصيغة الاستفهام، وتأمل عظم موقعه من جميع موارده، يشهد أنه من الفصاحة في ذروتها العليا. وقوله: ﴿ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ متضمن لثنائه على خليله إبراهيم، فإن في المكرمين قولين:

أحدهما: إكرام إبراهيم لهم، ففيه مدح إبراهيم بإكرام الضيف.

والثاني: إنهم مكرمون عند الله، كقوله تعالى: ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، وهو متضمن أيضاً لتعظيم خليله ومدحه، إذ جعل ملائكته المكرمين أضيافاً له، فعلى

كلا التقديرين فيه مدح لإبراهيم. وقوله: ﴿ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ ﴾ [الذاريات: ٢٥] متضمن بمدح آخر لإبراهيم، حيث رد عليهم السلام أحسن مما حيوه به، فإن تحيتهم باسم منصوب متضمن لجملة فعلية تقديره: سلمنا عليك سلاماً. وتحية إبراهيم لهم باسم مرفوع متضمن لجملة اسمية تقديره. سلام دائم، أو ثابت، أو مستقر عليكم، ولا ريب أن الجملة الاسمية تقتضي الثبوت واللزوم. والفعلية تقتضي التجدد والحدوث، فكانت تحية إبراهيم أكمل وأحسن. ثم قال: ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٥] وفي هذا من حسن مخاطبة الضيف والتذمم منه وجهان في المدح.

إحداهما: أنه حذف المبتدأ والتقدير: أنتم قوم منكرون، فتذمم منهم، ولم يواجههم بهذا الخطاب لما فيه من الاستيحاش. وكان النبي ﷺ لا يواجه أحدًا بما يكرهه بل يقول: «وما بال أقوام يقولون كذا ويفعلون كذا».

الثاني: قوله: ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ فحذف فاعل الإنكار، وهو الذي كان أنكرهم، كما قال في موضع آخر: ﴿ نَكِرَهُمْ ﴾ [هود: ٧٠] ولا ريب أن قوله: ﴿ مُّنكَرُونَ ﴾ ألطف من أن يقول أنكرتكم. وقوله: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٧] متضمن وجوهًا من المدح وآداب الضيافة وإكرام الضيف. منها قوله: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ ﴾ والروغان الذهاب بسرعة واختفاء وهو يتضمن المبادرة إلى إكرام الضيف، والاختفاء يتضمن ترك تخجيله وألا يعرض للحياء، وهذا بخلاف من يتثاقل ويتبارد على ضيفه، ثم يبرز بمرأى منه، ويحل صرة النفقة، ويزن ما يأخذ، ويتناول الإناء بمرأى منه، ونحو ذلك، مما يتضمن تخجيل الضيف وحياءه، فلفظة: راغ تنفي هذين الأمرين.

وفي قوله تعالى: ﴿ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ ﴾ مدح آخر، لما فيه من الإشعار أن كرامة الضيف معدة حاصلة عند أهله، وأنه لا يحتاج أن يستقرض من جيرانه، ولا يذهب إلى غير أهله، إذ قرى الضيف حاصل عندهم.

وقوله: ﴿ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴾ يتضمن ثلاثة أنواع من المدح:

أحدها: خدمة ضيفه بنفسه، فإنه لم يرسل به، وإنما جاء به بنفسه.

الثاني: أنه جاءهم بحيوان تام، لم يأتهم ببعضه. ليتخيروا من أطيب لحمه ما شاءوا.

الثالث: أنه سمين ليس بهمزول، وهذا من نفائس الأموال، ولد البقر السمين، فإنهم يعجبون به، فمن كرمه هان عليه ذبحه وإحضاره.

وقوله: ﴿ إِلَيۡهِمۡ ﴾ متضمن المدح وآداباً أخرىٰ، وهو إحضار الطعام إلىٰ بين يدي الضيف، بخلاف من يهيئ الطعام في موضع، ثم يقيم ضيفه فيورده عليه.

وقوله: ﴿ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴾ فيه مدح وآداب أخر، فإنه عرض عليهم الأكل بقوله: ﴿ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴾ وهذه صيغة عرض مؤذنة بالتلطف بخلاف من يقول:: ضعوا أيديكم في الطعام، كلوا، تقدموا، ونحو هذا. وقوله: ﴿ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةً ﴾ [الذاريات: ٢٨] لأنه لما رآهم لا يأكلون من طعامه أضمر منهم خوفاً أن يكون معهم شر، فإن الضيف إذا أكل من طعام رب المنزل اطمأن إليه وأنس به، فلما علموا منه ذلك قالوا: ﴿ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴾ وهذا الغلام إسحاق لا إسماعيل، لأن امرأته عجبت من ذلك فقالت: عجوز عقيم، لا يولد لمثلي، فأنىٰ لي بالولد؟ وأما إسماعيل فإنه من سريته هاجر وكان بكره وأول ولده. وقد بين سبحانه هذا في سورة هود في قوله تعالىٰ: ﴿ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴾ [هود: ٧١] وهذه هي القصة نفسها.

وقوله تعالىٰ: ﴿ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ ﴾ [الذاريات: ٢٩] فيه بيان ضعف عقل المرأة وعدم ثباتها، إذ بادرت إلىٰ الندبة فصكت الوجه عند هذا الإخبار.

وقوله: ﴿ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴾ فيه حسن أدب المرأة عند خطاب الرجال، واقتصارها من الكلام علىٰ ما يتأدىٰ به الحاجة، فإنها حذفت المبتدأ، ولم تقل: أنا عجوز عقيم، واقتصرت علىٰ ذكر السبب الدال علىٰ عدم الولادة لم تذكر غيره، وأما في سورة هود فذكرت السبب المانع منها ومن إبراهيم وصرحت بالعجب. وقوله تعالىٰ: ﴿ قَالُواْ

كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ متضمن لإثبات صفة القول له. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٣٠] متضمن لإثبات صفة الحكمة والعلم اللذين هما مصدر الخلق والأمر، فجميع ما خلقه سبحانه صادر عن علمه وحكمته، وكذلك أمره وشرعه مصدره عن علمه وحكمته. والعلم والحكمة متضمنان لجميع صفات الكمال.

فالعلم يتضمن الحياة و لوازم كمالها من القيومية والقدرة والبقاء والسمع والبصر وسائر الصفات التي يستلزمها العلم التام.

والحكمة تتضمن كمال الإرادة والعدل والرحمة والإحسان والجود والبر، ووضع الأشياء في مواضعها على أحسن وجوهها، ويتضمن إرسال وإثبات الثواب والعقاب. كل هذا العلم من اسمه الحكيم، كما هي طريقة القرآن في الاستدلال على هذه المطالب العظيمة بصفة الحكمة، والإنكار على من يزعم أنه خلق الخلق عبثا وسُدى وباطلاً، فحينئذ صفة حكمته تتضمن الشرع والقدر والثواب والعقاب، ولهذا كان أصح القولين أن المعاد يعلم بالعقل، وأن السمع ورد بتفصيل ما يدل العقل على إثباته.

ومن تأمل طريقة القرآن وجدها دالة على ذلك. وأنه سبحانه يضرب لهم الأمثال المعقولة، التي تدل على إمكان المعاد تارة ووقوعه أخرى، فيذكر أدلة القدرة الدالة على إمكان المعاد وأدلة الحكمة المستلزمة لوقوعه.

ومن تأمل أدلة المعاد في القرآن وجدها كذلك مغنية بحمد الله ومنته على عباده عن غيرها، كافية شافية موصلة إلى المطلوب بسرعة، متضمنة للجواب عن الشبه العارضة لكثير من الناس. وإن ساعد التوفيق كتبت في ذلك سفرًا كبيرًا، لما رأيت في الأدلة التي أرشد إليها القرآن من الشفاء والهدى وسرعة الإنصاف، وحسن البيان، والتنبيه على مواضع الشبه والجواب عنها بما يتثلج له الصدر، ويكثر معه اليقين، بخلاف غيره من الأدلة فإنها على العكس من ذلك وليس هذا موضع التفصيل. والمقصود: أن صدور الخلق والأمر عن علم الرب وحكمته.

اختصت هذه القصة بذكر هذين الاسمين لاقتضائهما لتعجب النفوس من تولد مولود بين أبوين لا يولد لمثلهما عادة، وخفاء العلم بسبب هذا الإيلاد، وكون الحكمة اقتضت جريان هذه الولادة على غير العادة المعروفة، فذكر في الآية اسم العلم والحكمة المتضمن لعلمه سبحانه بسبب هذا الخلق وغايته وحكمته في وضعه موضعه من غير إخلال بموجب الحكمة.

ثم ذكر ﷻ قصة الملائكة في إرسالهم لإهلاك قوم لوط، وإرسال الحجارة المسومة عليهم. وفي هذا ما يتضمن تصديق رسله وإهلاك المكذبين لهم، والدلالة على المعاد والثواب والعقاب لوقوعه عياناً في هذا العالم، وهذا من أعظم الأدلة الدالة على صدق رسله لصحة ما أخبروا به عن ربهم. ثم قال تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦] ففرق بين الإسلام والإيمان هنا لسر اقتضاه الكلام، فإن الإخراج هنا عبارة عن النجاة فهو، إخراج نجاة من العذاب، و لا ريب أن هذا مختص بالمؤمنين المتبعين للرسل ظاهرًا وباطنًا. وقوله تعالى: ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ لما كان الموجودون من المخرجين أوقع اسم الإسلام عليهم، لأن امرأة لوط كانت من أهل هذا البيت، وهي مسلمة في الظاهر، فكانت في البيت الموجودين لا في القوم الناجين، وقد أخبر سبحانه عن خيانة امرأة لوط، وخيانتها أنها كانت تدل قومها على أضيافه وقلبها معهم، وليست خيانة فاحشة، فكانت من أهل البيت المسلمين ظاهرًا، وليست من المؤمنين الناجين.

ومن وضع دلالة القرآن وألفاظه مواضعها تبين له من أسراره وحكمه ما يبهر العقول، ويعلم أنه تنزيل من حكيم حميد. وبهذا خرج الجواب عن السؤال المشهور، وهو: أن الإسلام أعم من الإيمان فكيف استثناء الأعم من الأخص، وقاعدة الاستثناء تقتضي العكس وتبين أن المسلمين المستثنين مما وقع عليه فعل الوجود، والمؤمنين غير مستثنين منه، بل هم المخرجون الناجون.

وقوله تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [الذاريات: ٣٧] فيه دليل على أن آيات الله سبحانه وعجائبه التي فعلها في هذا العالم، وأبقى آثارها دالة عليه وعلى صدق رسله إنما ينتفع بها من يؤمن بالمعاد، ويخشى عذاب الله تعالى، كما قال الله تعالى في موضع آخر: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْأَخِرَةِ ﴾ [هود: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٠] فان من لا يؤمن بالآخرة غايته أن يقول: هؤلاء قوم أصابهم الدهر كما أصاب غيرهم ولا زال الدهر فيه الشقاوة والسعادة. وأما من آمن بالآخرة وأشفق منها، فهو الذي ينتفع بالآيات والمواعظ.

والمقصود بهذا إنما هو التنبيه والتمثيل على تفاوت الأفهام في معرفة القرآن واستنباط أسراره وآثار كنوزه، ويعتبر بهذا غيره، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم.

***

﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

[1] قال الله تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الذاريات: ٥٠] وحقيقة الفرار: الهرب من شيء إلى شيء، وهو نوعان: فرار السعداء، و قرار الأشقياء.

ففرار السعداء: الفرار إلى الله ﷻ، وقرار الأشقياء: القرار منه لا إليه، وأما الفرار منه إليه: ففرار أوليائه، قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ فروا منه إليه، واعملوا بطاعته، وقال سهل بن عبد الله: فروا مما سوى الله إلى الله، وقال آخرون: اهربوا من عذاب الله إلى ثوابه بالإيمان والطاعة.

[2] قال تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ والتوحيد المطلوب من العبد هو الفرار من الله إليه، وتحت (من) و(إلى) في هذا سر عظيم من أسرار التوحيد، فإن الفرار إليه ـ سبحانه ـ

---

(١) ٤٦٩ مدارج جـ١.

(٢) ٧١ التبوكية.

يتضمن إفراده بالطلب والعبودية ولوازمها، فهو متضمن لتوحيد الإلهية التي اتفقت عليها دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وأما الفرار منه إليه فهو متضمن لتوحيد الربوبية وإثبات القدر، وأن كل ما في الكون من المكروه والمحذور الذي يفر منه العبد فإنما أوجبته مشيئة الله وحده، فإن ما شاء كان ووجب وجوده بمشيئته، وما لم يشأ لم يكن، وامتنع وجوده لعدم مشيئته. فادا فر العبد إلى الله فإنما يفر من شئ إلى شئ وجد بمشيئة الله وقدره، فهو في الحقيقة فار من الله إليه.

ومن تصور هذا حق تصوره فهم معنى قوله ﷺ: «**وأعوذ بك منك**»[١] وقوله: «**لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك**»[٢]، فإنه ليس في الوجود شئ يفر منه ويستعاذ منه ويلتجأ منه إلا هو من الله خلقاً وإبداعا. فالفار والمستعيذ: فار مما أوجده قدر الله ومشيئته وخلقه إلى ما تقتضيه رحمته وبره ولطفه وإحسانه.

ففي الحقيقة هو هارب من الله إليه، ومستعيذ بالله منه. وتصور هذين الأمرين يوجب للعبد انقطاع تعلق قلبه عن غيره بالكلية: خوفاً ورجاء ومحبة، فإنه إذا علم أن الذي يفر منه ويستعيذ منه إنما هو بمشيئة الله وقدرته وخلقه، لم يبق في قلبه خوف من غير خالقه وموجده، فتضمن ذلك إفراد الله وحده بالخوف والحب والرجاء، ولو كان فراره مما لم يكن بمشيئة الله وقدرته، لكان ذلك موجباً لخوفه منه، مثل من يفر من مخلوق آخر أقدر منه، فإنه في حال فراره من الأول خائف منه حذرا أن لا يكون الثاني يفيده منه، بخلاف ما إذا كان الذي يفر إليه هو الذي قضى وقدر وشاء ما يفر منه، فإنه لا يبقى في القلب التفات إلى غيره.

فتفطن إلى هذا السر العجيب في قوله: «**أعوذ بك منك**» و«**لا ملجأ ولا منجى منك**

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٤٨٦) وانظر: شرح النووي (٤/ ٢٠٤).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٤٧) ومسلم (رقم ٢٧١٠) وانظر: فتح الباري (١١/ ١١١-١١٤).

إلا إليك»، فإن الناس قد ذكروا في هذا أقوالاً، وقل من تعرض منهم لهذه النكتة، التي هي لبّ الكلام ومقصوده، وبالله التوفيق.

فتأمل كيف عاد الأمر كله إلى الفرار من الله إليه، وهو معنى الهجرة إلى الله تعالى، ولهذا قال النبي ﷺ: «المهاجر من هجر ما نهى الله عنه»[1]. ولهذا يقرن الله سبحانه بين الإيمان والهجرة في غير موضع، لتلازمهما، واقتضاء أحدهما للآخر.

والمقصود: أن الهجرة إلى الله تتضمن: هجران ما يكرهه وإتيان ما يحبه ويرضاه، وأصلها الحب والبغض، فإن المهاجر من شيء إلى شيء لابد أن يكون ما هاجر إليه أحب مما هاجر منه، فيؤثر أحب الأمرين إليه على الآخر. وإذا كان نفس العبد وهواه وشيطانه إنما يدعوانه إلى خلاف ما يحبه ويرضاه، وقد بلي بهؤلاء الثلاث، فلا يزالون يدعونه إلى غير مرضاة ربه، وداعي الإيمان يدعوه إلى مرضاة ربه فعليه في كل وقت أن يهاجر إلى الله ولا ينفك في هجرته إلى الممات.

وهذه الهجرة تقوى وتضعف بحسب داعي المحبة في قلب العبد، فإن كان الداعي أقوى كانت هذه الهجرة أقوى وأتم وأكمل. وإذا ضعف الداعي ضعفت الهجرة حتى لا يكاد يشعر بها علماً، ولا يتحرك لها إرادة.

والذي يقضي منه العجب: أن المرء يوسع الكلام ويفرغ المسائل في الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، وفي الهجرة التي انقطعت بالفتح، وهذه هجرة عارضة، ربما لا تتعلق به في العمر أصلاً. وأما هذه الهجرة التي هي واجبة على مدى الأنفاس فإنه لا يحصل فيها علما ولا إرادة، وما ذاك إلا للإعراض عما خلق له، والاشتغال بما لا ينجيه وحده عما لا ينجيه غيره. وهذا حال من عشت بصيرته وضعفت معرفته بمراتب العلوم والأعمال. والله المستعان، وبالله التوفيق، لا إله غيره ولا رب سواه.

***

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٠) وانظر: فتح الباري (١/ ٥٣-٥٤).

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝ ﴾.

...[(١)] ولما كانت الدنيا حقيرة عند الله لا تساوي لديه جناح بعوضة كانت وما فيها في غاية البعد منه، وهذا هو حقيقة اللعنة، وهو سبحانه إنما خلقها مزرعة للآخرة ومعبرًا إليها، يتزود منها عباده إليه، فلم يكن يقرب منها إلا ما كان متضمنًا لإقامة ذكره ومفضيًا إلى محابه، وهو العلم الذي به يعرف الله ويعبد ويذكر ويثنى عليه ويمجد، ولهذا خلقها وخلق أهلها، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] وقال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق: ١٢] فتضمنت هاتان الآيتان أنه سبحانه إنما خلق السموات والأرض وما بينهما، ليعرف بأسمائه وصفاته، وليعبد، فهذا المطلوب، وما كان طريقًا إليه من العلم والتعلم، فهو المستثنى من اللعنة، واللعنة واقعة على ما عداه، إذ هو بعيد عن الله وعن محابه وعن دينه، وهذا هو متعلق العقاب في الآخرة، فإنه كما كان متعلق اللعنة، التي تضمن الذم والبغض، فهو متعلق العقاب، والله سبحانه إنما يحب من عباده ذكره وعبادته ومعرفته ومحبته، ولوازم ذلك وما أفضى إليه وما عداه، فهو مبغوض له مذموم عنده.

[(٢)] إن الله سبحانه غني كريم، عزيز رحيم. فهو محسن إلى عبده مع غناه عنه، يريد به الخير، ويكشف عنه الضر، لا لجلب منفعه إليه من العبد، ولا لدفع مضرة، بل رحمة منه وإحسانًا. فهو سبحانه لم يخلق خلقه ليتكثر بهم من قلة، ولا ليعتز بهم من ذلة، ولا ليرزقوه قوة، ولا لينفعوه، ولا ليدفعوا عنه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ

---

(١) ٦٩ مفتاح جـ١.

(٢) ٤١ إغاثة جـ١.

إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٦- ٥٨] وقال تعالىٰ: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ [الإسراء: ١١١]. فهو سبحانه لا يوالي من يواليه من الذل، كما يوالي المخلوق المخلوق، وإنما يوالي أولياءه إحسانا ورحمة ومحبة لهم.

أما العباد فإنهم كما قال تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ﴾ [محمد: ٣٨]. فهم لفقرهم وحاجتهم إنما يحسن بعضهم إلىٰ بعض لحاجته إلىٰ ذلك وانتفاعه به عاجلاً أو آجلاً. ولولا تصور ذلك النفع لما أحسن إليه. فهو في الحقيقة إنما أراد الإحسان إلىٰ نفسه، وجعل إحسانه إلىٰ غيره وسيلة وطريقا إلىٰ وصول نفع ذلك الإحسان إليه. فإنه إما أن يحسن إليه لتوقع جزائه في العاجل، فهو محتاج إلىٰ ذلك الجزاء، أو معاوضة بإحسانه، أو لتوقع حمده وشكره.

هو أيضاً إنما يحسن إليه ليحصل منه ما هو محتاج إليه من الثناء والمدح، فهو محسن إلىٰ نفسه بإحسانه إلىٰ الغير. وإما أن يريد الجزاء من الله تعالىٰ في الآخرة، فهو أيضاً محسن إلىٰ نفسه بذلك، وإنما أخر جزاءه إلىٰ يوم فقره وفاقته، فهو غير ملوم في هذا القصد، فإنه فقير محتاج، وفقره وحاجته أمر لازم له من لوازم ذاته، فكماله أن يحرص علىٰ ما ينفعه ولا يعجز عنه، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ [الإسراء: ٧] وقال: ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٢]. وقال تعالىٰ، فيما رواه عنه رسوله ﷺ: «يَا عِبَادِي: إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، يا عِبَادِي: إِنَّمَا هِي أَعْمَالُكُم أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غيْرَ ذلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ»(١).

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٧٧) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٨٤) وشرح النووي (١٦/ ١٣٢).

[١] ويتنصل سبحانه إلى عباده من مواضع الظنة والتهمة التي نسبها إليه من لم يعرفه حق معرفته ولا قدره حق قدره: من تكليف عباده ما لا يقدرون عليه ولا طاقة لهم بفعله البتة، وتعذيبهم إن شكروه وآمنوا به، وخلق السموات والأرض وما بينهما لا لحكمة ولا لغاية، وأنه لم يخلق خلقه لحاجة منه إليهم، ولا ليتكثر بهم من قلة، ولا ليتعزز بهم، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦- ٥٧]، فأخبر أنه لم يخلق الجن والإنس لحاجة منه إليهم، ولا ليربح عليهم، لكن خلقهم جوداً وإحساناً ليعبدوه، فيربحوا هم عليه كل الأرباح كقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧]، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤]، ولما أمرهم بالوضوءِ وبالغسل من الجنابة الذي يحط عنهم أوزارهم، ويدخلون به عليه، ويرفع به درجاتهم، قال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]، وقال في الأضاحي والهدايا: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، وقال عقيب أمرهم بالصدقة ونهيهم عن إخراج الرديء من المال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧]. يقول سبحانه: إني غني عما تنفقون أن ينالني منه شيء، [حميد] مستحق المحامد كلها، فإنفاقكم لا يسد منه حاجة ولا يوجب له حمداً، بل هو الغني بنفسه، الحميد بنفسه، وأسمائه وصفاته. وإنفاقكم إنما نفعه لكم وعائدته عليكم...

[٢] وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذايات: ٥٦] فأخبر سبحانه أن الغاية المطلوبة من خلقه هي عبادته التي أصلها كمال محبته، وهو سبحانه كما أنه

---

(١) ١٣٥ طريق الهجرتين.

(٢) ٢٣٩ طريق الهجرتين.

يحب أن يعبد، يحب أن يحمد ويثنى عليه، ويذكر بأوصافه العلى وأسمائه الحسنى. كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «لا أحد أحب إليه المدح من الله، ومن أجل ذلك أثنى على نفسه»(١). وفي المسند من حديث الأسود بن سريع أنه قال: يا رسول الله، إني حمدت ربي بمحامد فقال: «إن ربك يحب الحمد»(٢).

فهو يحب نفسه، ومن أجل ذلك يثني على نفسه، ويحمد نفسه، ويقدس نفسه، ويحب من يحبه ويحمده ويثني عليه.

بل كلما كانت محبة عبده له أقوى كانت محبة الله له أكمل وأتم، فلا أحد أحب إليه ممن يحبه ويحمده ويثني عليه. ومن أجل ذلك كان الشرك أبغض الأشياء إليه، لأنه ينقص هذه المحبة، ويجعلها بينه وبين من أشرك به، ولهذا لا يغفر الله أن يشرك به، لأن الشرك يتضمن نقصان هذه المحبة والتسوية فيها بينه وبين غيره، ولا ريب أن هذا من أعظم ذنوب المحب عند محبوبه، التي يسقط بها من عينه، وتنقص بها مرتبته عنده إذا كان من المخلوقين.

فكيف يحتمل رب العالمين أن يشرك بينه وبين غيره في المحبة. والمخلوق لا يحتمل ذلك ولا يرضى به، ولا يغفر هذا الذنب لمحبه أبدًا، وعساه أن يتجاوز لمحبه عن غيره من الهفوات والزلات في حقه، ومتى علم بأنه يحب غيره كما يحبه لم يغفر له هذا الذنب ولم يقربه إليه. هذا مقتضى الطبيعة والفطرة.

أفلا يستحي العبد أن يسوي بين إلهه ومعبوده وبين غيره في هذه العبودية والمحبة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٦٣٤) ومسلم (رقم ٢٧٦٠) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٨٤) وشرح النووي (١٧/ ٧٧-٧٨).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (رقم ٨٥٩) والضياء في المختارة (٤/ ٢٥٢ رقم ١٤٥١) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٢٩٨) والطبراني في الكبير (١/ ٢٨٢ رقم ٨٢٢) قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٩٥): رواه أحمد بتمامه والطبراني بنحوه... وأحد أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح.

ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فأخبر سبحانه أن من أحب شيئاً دون الله كما يحب الله فقد اتخذه نداً، وهذا معنى قول المشركين لمعبوديهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧ - ٩٨].

فهذه تسوية في المحبة والتأليه، لا في الذات والأفعال والصفات.

والمقصود: أنه سبحانه يحب نفسه أعظم محبة، ويحب من يحبه، وخلق خلقه لذلك، وشرع شرائعه، وأنزل كتبه لأجل ذلك، وأعد الثواب والعقاب لأجل ذلك، وهذا هو محض الحق الذي به قامت السموات والأرض، وكان الخلق والأمر، فإذا قام به العبد فقد قام بالأمر الذي خلق له، فرضي عنه صانعه وبارئه وأحبه، إذ كان يحب ويرضى، فإذا صدف عن ذلك وأعرض عنه وأبق عن مالكه وسيده أبغضه ومقته، لأنه خرج عما خلق له، وصار إلى ضد الحال التي هو لها، فاستوجب منه غضبه بدلاً من رضاه، وعقوبته بدلاً من رحمته.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الذاريات

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ الطُّورِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَٱلطُّورِ ۝ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝ ﴾.

[(١)]تضمن هذا القسم خمسة أشياء، وهي مظاهر آياته، وقدرته، وحكمته الدالة على ربوبيته ووحدانيته.

فالطور هو الجبل الذي كلم الله عليه نبيه وكليمه موسى بن عمران عند جمهور المفسرين من السلف والخلف، وعرفه ههنا باللام، وعرفه في موضع آخر بالإضافة، فقال: ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ [التين: ٣] وهذا الجبل مظهر بركة الدنيا والآخرة، وهو الجبل الذي اختاره الله لتكليم موسى عليه.

قال عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه: حدثني محمد بن عبيد بن حبان قال حدثنا جعفر بن سليمان قال حدثنا أبو عمران الجوني عن نوف البكالي، قال: أوحى الله ﷻ إلى الجبال إني نازل على جبل منكم، قال فشمخت الجبال كلها إلا جبل الطور، فإنه تواضع، وقال: أرضى بما قسم الله لي. فكان الأمر عليه[(٢)]. وجبل هذا شأنه حقيق أن يقسم الله به، وإنه لسيد الجبال.

(الثاني) الكتاب المسطور في الرق المنشور، واختلف في هذا الكتاب، فقيل: هو اللوح المحفوظ، وهذا غلط، فإنه ليس برق. وقيل: هو الكتاب الذي تضمن أعمال بني آدم، وقال مقاتل: تخرج إليهم أعمالهم يوم القيامة في رق منشور، وهذا وإن كان

---

(١) ١٦٥ التبيان.

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (ص ٦٦) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٤٩) وياقوت في معجم البلدان (٥/ ١٦٧) وانظر: الدر المنثور (٣/ ٥٤٣).

أقوى وأصح من القول الأول، واختاره جماعة من المفسرين، ومنهم من لم يذكر غيره فالظاهر أن المراد به الكتاب المنزل من عند الله، وأقسم الله به لعظمته وجلالته وما تضمنه من آيات ربوبيته وأدلة توحيده وهداية خلقه.

ثم قيل: هو التوراة التي أنزل الله على موسى، وكأن صاحب هذا القول رأى اقتران الكتاب بالطور، فقال: هو التوراة، ولكن التوراة إنما أنزلت في ألواح، لا في رق، إلا أن يقال هي في رق في السماء، وأنزلت في ألواح.

وقيل: هو القرآن، ولعل هذا أرجح الأقوال، لأنه سبحانه وصف القرآن بأنه في صحف مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة، فالصحف هي الرق، وكونه بأيدي سفرة هو كونه منشورًا، وعلى هذا فيكون قد أقسم بسيد الجبال وسيد الكتب، ويكون ذلك متضمنا للنبوتين المعظمتين: نبوة موسى ونبوة محمد، وكثيرًا ما يقرن بينهما وبين محلهما، كما في سورة التين والزيتون.

ثم أقسم بسيد البيوت، وهو البيت المعمور، وفي وصفه الكتاب بأنه مسطور تحقيق لكونه مكتوبا مفروغًا منه، وفي وصفه بأنه منشور إيذان بالاعتناء به، وأنه بأيدي الملائكة منشور غير مهجور. وأما البيت المعمور فالمشهور أنه الضراح الذي في السماء الذي رفع للنبي ليلة الإسراء، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم، وهو بحيال البيت المعمور في الأرض، وقيل هو البيت الحرام، ولا ريب أن كلا منهما معمور، فهذا معمور بالملائكة وعبادتهم، وهذا معمور بالطائفين والقائمين والركع والسجود، وعلى كلا القولين، فكل منهما سيد البيوت.

ثم أقسم سبحانه بمخلوقين عظيمين من بعض مخلوقاته، وهما مظهر آياته وعجائب صنعته، وهما السقف المرفوع، وهو السماء، فإنها من أعظم آياته قدرا وارتفاعا وسعة وسمكا ولونًا وإشراقًا، وهي محل ملائكته، وهي سقف العالم، وبها

انتظامه، ومحل النيرين الذين بهما قوام الليل والنهار والسنين والشهور والأيام والصيف والشتاء والربيع والخريف، ومنها تنزل البركات، وإليها تصعد الأرواح وأعمالها وكلماتها الطيبة.

والثاني: ﴿ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴾ وهو آية عظيمة من آياته وعجائبه، لا يحصيها إلا الله، واختلف في هذا البحر: هل هو الذي فوق السماوات أو البحر الذي نشاهده على قولين:

فقالت طائفة: هو البحر الذي عليه العرش وبين أعلاه وأسفله مسيرة خمسمائة عام، كما في الحديث الذي رواه أبو داود من حديث سماك عن عبد الله بن مخيمرة عن الأحنف بن قيس، قال: كنت بالبطحاء في عصابة فيهم رسول الله ﷺ، فمرت بهم سحابة فنظر إليها، فقال: «**ما تسمون هذه؟**» قالوا: السحاب قال: «**والمزن؟**» قالوا: والمزن، قال: «**والعنان؟**» قالوا: والعنان، قال: «**هل تدرون ما بين السماء والأرض؟**» قالوا: لا ندري، قال: «**إن بعد ما بينهما إما واحدة أو اثنتان أو ثلاث وسبعون سنة، ثم السماء فوقها كذلك، حتى عد سبع سماوات، ثم فوق السابعة بحر بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم على ظهورهم العرش ما بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء، إلى سماء ثم الله فوق ذلك**» وهذا لا يناقض ما في جامع الترمذي: «**إن بين كل سمائين مسيرة خمسمائة عام**»[(١)] إذ المسافات تختلف مقاديرها باختلاف المقدر به، فالخمسمائة مقدرة بسير الإبل، والسبعون بسير البريد، وهو يقطع بقدر ما تقطعه الإبل سبعة أضعاف، وهذا القول في البحر الذي تحت العرش، محكي عن علي بن أبي طالب.

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٤٧٢٣) ومحمد بن عثمان بن أبي شيبة في العرش (رقم ٩) وابن عبدالبر في التمهيد (٧/ ١٤٠) والحاكم (٢/ ٥٤٣ رقم ٣٨٤٨) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم. وانظر: عون المعبود (١٣/ ٦-٧).

والثاني أنه بحر الأرض، واختلف في المسجور فقيل المملوء، هذا قول جميع أهل اللغة، قال الفراء: المسجور في كلام العرب المملوء، يقال سجرت الإناء إذا ملأته، قال لبيد:

فتوسطا عرض السرى وصدَّعا مسجورة متجاورًا قُلَّامها[(١)]

وقال المبرد: المسجور المملوء عند العرب وأنشد للنمر بن تولب:

إذا شاء طالع مسجورة[(٢)]

يريد عينا مملوءة ماء، وكذا قال ابن عباس: المسجورة الممتلئ وقال مجاهد: المسجور الموقد: قال الليث: السجر إيقادك في التنور تسجره سجرا، والسجر اسم الحطب، وهذا قول الضحاك وكعب وغيرهما، قال: البحر يسجر فيزداد في جهنم، وحكي هذا القول عن علي بن أبي طالب ﷺ، قال: مسجور، قال الفراء: وهذا يرجع إلى القول الأول، لأنك تقول سجرت التنور إذا ملأته حطبًا، وروى ذو الرمة الشاعر عن ابن عباس: أن المسجور اليابس الذي قد نضب ماؤه، وذهب، وليس لذي الرمة رواية عن ابن عباس غير هذا الحرف، وهذا القول اختيار أبي العالية، قال أبو زيد: المسجور المملوء، والمسجور الذي ليس فيه شيء جعله من الأضداد.

وقد روى عن ابن عباس: أن المسجور المحبوس، ومنه ساجور الكلب، وهو القلادة من عود أو حديد تمسكه، والمعنى على هذا أنه محبوس بقدرة الله أن يفيض

---

(١) هذا البيت من بحر الكامل وينسب إلى لبيد بن ربيعة العامري، أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية، أسلم ويعد من الصحابة المؤلفة قلوبهم، ترك الشعر ولم يقل إلا بيتاً واحداً، مات سنة ٤١هـ. ذكر هذا البيت الإمام الطبري في تفسيره (١٦/ ٧١) (٢٧/ ١٩) وابن منظور في لسان العرب (٧/ ١٧٦) (٨/ ١٩٤).

(٢) هذا صدر بيت من بحر المتقارب، وعجزه: ترى حولها النبع والساسما، وينسب إلى النمر بن تولب بن زهير، شاعر جاهلي أدرك الإسلام وهو كبير فأسم ويعد في الصحابة، وكان سيداً معظماً في قومه، توفي سنة ١٤هـ. ذكر البيت الطبري في تفسيره (٢٧/ ١٩) وابن منظور في اللسان (١٢/ ٢٨٦) والحربي في غريب الحديث (١/ ٤).

على الأرض فيغرقها، فإن ذلك مقتضى الطبيعة أن يكون الماء غامرًا للأرض فوقها، كما أن الهواء فوق الماء، ولكن أمسكه الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا، وفي هذا حديث ذكره أحمد مرفوعًا: «**ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بني آدم**»[(١)]. وهذا الموضع مما هدم أصول الملاحدة والدهرية، فإنه ليس في الطبيعة ما يقتضي حبس الماء عن بعض جوانب الأرض مع كون كرة الماء عالية على كرة الأرض بالذات، ولو فرض أن في الطبيعة ما يقتضي بروز جوانبها لم يكن فيها ما يقتضي تخصيص هذا الجانب بالبروز دون غيره.

وما ذكره الطبائعيون والمتفلسفة أن العناية الإلهية اقتضت ذلك لمصلحة العالم فنعم، هو كما ذكروا، ولكن عناية من يفعل بقدرته ومشيئته، وهو بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وهو أحكم الحاكمين، غير معقولة، فإن العناية الإلهية تقضي حياته وقدرته ومشيئته وعلمه وحكمته ورحمته وإحسانه إلى خلقه، وقيام الأفعال به، فإثبات العناية الإلهية مع نفي هذه الأمور ممتنع، وبالله التوفيق.

وأقوى الأقوال في المسجور أنه الموقد، وهذا هو المعروف في اللغة من المسجور ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ [التكوير: ٦] قال علي وابن عباس: أوقدت فصارت نارًا، ومن قال: يبست وذهب ماؤها، فلا يناقض كونها نارًا موقدة، وكذا من قال ملئت؛ فإنها تملأ نارًا.

وإذا اعتبرت أسلوب القرآن ونظمه ومفرداته رأيت اللفظة تدل على ذلك كله، فإن البحر محبوس بقدرة الله، ومملوء ماء، ويذهب ماؤه يوم القيامة، ويصير نارا، فكل من المفسرين أخذ معنى من هذه المعاني، والله أعلم.

[(٢)]ومن آياته وعجائب مصنوعاته البحار المكتنفة لأقطار الأرض التي هي خلجان

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٣) والديلمي في مسند الفردوس (٣/ ٣٨٢ رقم ٥١٦٥) وضعفه ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٥٢ رقم ٣٧) وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٤١) وفيض القدير (٥/ ٣٨٤).

(٢) ٢٠٤ مفتاح جـ٢.

من البحر المحيط الأعظم بجميع الأرض، حتى إن المكشوف من الأرض والجبال والمدن بالنسبة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم، وبقية الأرض مغمورة بالماء، ولولا إمساك الرب تبارك وتعالى له بقدرته ومشيئته وحبسه الماء لطفح على الأرض وعلاها كلها، هذا طبع الماء.

ولهذا حار عقلاء الطبيعيين في سبب بروز هذا الجزء من الأرض مع اقتضاء طبيعة الماء للعلو عليه وإن يغمره ولم يجدوا ما يحيلون عليه ذلك إلا الاعتراف بالعناية الأزلية والحكمة الإلهية، التي اقتضت ذلك العيش الحيوان الأرضي في الأرض، وهذا حق، ولكنه يوجب الاعتراف بقدرة الله وإرادته ومشيئته وعلمه وحكمته وصفات كماله، ولا محيص عنه، وفي مسند الإمام أحمد عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بني آدم**».

وهذا أحد الأقوال في قوله عز و جل: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ أنه المحبوس، حكاه ابن عطية وغيره، قالوا: ومنه ساجور الكلب، وهي القلادة من عود أو حديد، التي تمسكه، وكذلك لولا أن الله يحبس البحر ويمسكه، لفاض على الأرض، فالأرض في البحر كبيت في جملة الأرض.

وإذا تأملت عجائب البحر، وما فيه من الحيوانات على اختلاف أجناسها وأشكالها ومقاديرها ومنافعها ومضارها وألوانها، حتى إن فيها حيوانًا أمثال الجبال لا يقوم له شيء، وحتى إن فيه من الحيوانات ما يرى ظهورها، فيظن أنها جزيرة، فينزل الركاب عليها، فتحس بالنار إذا أوقدت فتتحرك، فيعلم أنه حيوان، وما من صنف من أصناف حيوان البر إلا وفي البحر أمثاله، حتى الإنسان والفرس والبعير وأصنافها، وفيه أجناس لا يعهد لها نظير في البر أصلًا، هذا مع ما فيه من الجواهر واللؤلؤ والمرجان، فترى اللؤلؤة كيف أودعت في كن كالبيت لها، وهي الصدفة تكنها وتحفظها، ومنه اللؤلؤ المكنون، وهو الذي في صدفه لم تمسه الأيدي.

وتأمل كيف نبت المرجان في قعره في الصخرة الصماء تحت الماء على هيئة الشجر، هذا مع ما فيه من العنبر، وأصناف النفائس التي يقذفها البحر وتستخرج منه، ثم انظر الى عجائب السفن وسيرها في البحر تشقه وتمخره بلا قائد يقودها ولا سائق يسوقها، وإنما قائدها وسائقها الرياح، التي يسخرها الله لإجرائها، فإذا حبس عنها القائد والسائق ظلت راكدة على وجه الماء.

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [الشورى: ٣٢، ٣٣] وقال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٤] فما أعظمها من آية وأبينها من دلالة، ولهذا يكرر سبحانه ذكرها في كتابه كثيرًا.

وبالجملة فعجائب البحر وآياته أعظم وأكثر من أن يحصيها إلا الله سبحانه، وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢].

[(١)] وهذا عمر بن الخطاب قرأ سورة الطور إلى أن بلغ قوله: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾ [الطور: ٧] فبكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه، وقال لابنه وهو في الموت: ويحك ضع خدي على الأرض، عساه أن يرحمني، ثم قال: ويل أمي إن لم يغفر الله لي، ثلاثًا، ثم قضى، وكان يمر بالآية في ورده بالليل فتخنقه العبرة، فيبقى في البيت أيامًا ويعاد، يحسبونه مريضًا، وكان في وجهه ﷺ، خطان أسودان من البكاء، وقال له ابن عباس: مصّر الله بك الأمصار، وفتح بك الفتوح، وفعل، وفعل، فقال: وددت أني أنجو، لا

(١) ٤٩ الجواب الكافي.

أجر ولا وزر[١].

وهذا عثمان بن عفان كان إذا وقف على القبر يبكي حتى تبتل لحيته، وقال: لو أنني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي لاخترت أن أكون رمادًا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير[٢].

***

﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝ هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝ أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ ۝ فَـٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝﴾.

[٣]أقسم سبحانه بهذه الأمور على المعاد والجزاء، فقال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: ٧، ٨] ولما كان الذي يقع قد يمكن دفعه أخبر سبحانه أنه لا دافع له، وهذا يتناول أمرين أحدهما: أنه لا دافع لوقوعه. والثاني أنه لا دافع له إذا وقع.

ثم ذكر سبحانه وقت وقوعه، فقال: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ٩، ١٠] والمور قد فسر بالحركة، وفسر بالدوران، وفسر بالتموج والاضطراب. والتحقيق: أنه حركة في تموج وتكفؤ وذهاب ومجيء ولهذا فرق بين حركة السماء

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ٣٥١) وعمر بن شبة في أخبار المدينة (٢/ ٧٧ رقم ١٥٦٦) والطبراني في الأوسط (١/ ١٨١-١٨٣ رقم ٥٧٩) وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٧٦) ورواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن. وانظر: فتح الباري (٧/ ٦٥-٦٦).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في المتمنين (رقم ٧٢) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٦٠).

(٣) ١٦٩ التبيان.

وحركة الجبال، فقال: ﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ وقال: ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ [التكوير: ٣] من مكان إلىٰ مكان، وأما السماء فإنها تتكفأ وتموج وتذهب وتجيء، قال الجوهري: مار الشيء يمور مورًا ترهيأ أي تحرك وجاء وذهب، كما تكفأ النخلة العيدانة أي الطويلة، ومنه قوله: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾ قال الضحاك: تموج موجًا. وقال أبو عبيدة والأخفش: تكفأ، وأنشد للأعشىٰ:

كأن مشيتها من بيت جارتها   مور السحابة لا ريث ولا عجـل(١)

ثم ذكر وعيد المكذبين بالمعاد والنبوة، وذكر أعمالهم وعلومهم التي كانوا عليها، وهي الخوض الذي هو كلام باطل، واللعب الذي هو سعي ضائع، فلا علم نافع ولا عمل صالح، بل علومهم خوض بالباطل وأعمالهم لعب.

ولما كانت هذه العلوم والأعمال مستلزمة لدفع الحق بعنف وقهر أدخلوا جهنم، وهم يدعون إليها دعا أي يدفع في أقفيتهم وأكتافهم، دفعا بعد دفع، فإذا وقفوا عليها وعاينوها وقفوا، وقيل لهم: ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [الطور: ١٤]، وتقولون: لا حقيقة لها، ولا من أخبر بها صادق، ثم يقال: ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ ﴾ [الطور: ١٥] الآن كما كنتم تقولون للحق لما جاءتكم به الرسل: إنه سحر، وإنهم سحرة. فهذا الآن سحر لا حقيقة له، كما قلتم أم علىٰ أبصاركم غشاوة فلا تبصرونها، كما كان عليها غشاوة في الدنيا، فلا تبصرون الحق، أفعميت أبصاركم اليوم عن رؤية هذا الحق، كما عميت في الدنيا فلا تبصرون الحق.

ثم سلب عنهم نفع الصبر الذي كانوا في الدنيا إذا داهمتهم الشدائد، وأحاطت بهم لجأوا إليه، وتعللوا بانقضاء البلية لانقضاء أمدها، فقيل لهم يومئذ: ﴿ فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا

---

(١) هذا البيت من بحر البسيط، ينسب إلىٰ الأعشىٰ: ميمون بن قيس، وقد سبق التعريف. والبيت ذكره الطبري في تفسيره (٢٧/ ٢٠) وابن منظور في اللسان (٥/ ١٨٦) وابن قتيبة في غريب الحديث (٢/ ٢٧٤) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٤/ ٢٥٣) وابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٤١).

تَصۡبِرُواْ ﴾ [الطور: ١٦] كلاهما سواء عليكم لا يجدي عنكم الصبر ولا الجزع، فلا الصبر يخفف عنكم حمل هذا العذاب، ولا الجزع يعطف عليكم قلوب الخزنة، ولا يستنزل لكم الرحمة.

ثم أعلموا بأن الرب تعالىٰ لم يظلمهم بذلك، وإنما هو نفس أعمالهم صارت عذابا، فلم يجدوا من اقترانهم به بدًّا، بل صارت عذابًا لازما لهم، كما كانت إرادتهم وعقائدهم الباطلة وأعمالهم القبيحة لازمة لهم، ولزوم العذاب لأهله في النار بحسب لزوم تلك الإرادة الفاسدة والعقائد الباطلة، وما يترتب عليها من الأعمال لهم في الدنيا، فإذا زال ذلك اللزوم في وقت ما بضده وبالتوبة النصوح زوالًا كليا لم يعذبوا عليه في الآخرة، لأن أثره قد زال من قلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، ولم يبق له أثر يترتب عليه، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمادة الفاسدة إذا زالت من البدن بالكلية لم يبق هناك ألم ينشأ عنها، وإن لم تزل تلك الإرادة والأعمال ولكن عارضها معارض أقوىٰ منها كان التأثير للمعارض، وغلب الأقوىٰ الأضعف، وإن تساوىٰ الأمران تدافعا، وقاوم كل منهما الآخر، وكان محل صاحبه جبال الأعراف بين الجنة والنار، فهذا حكم الله وحكمته في خلقه، وأمره ونهيه وعقابه، ولا يظلم ربك أحدًا.

ثم ذكر سبحانه أرباب العلوم النافعة والأعمال الصالحة والاعتقادات الصحيحة، وهم المتقون، فذكر مساكنهم وهم في الجنان، وحالهم في المساكن وهو النعيم، وذكر نعيم قلوبهم وراحتهم بكونهم: ﴿ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ ﴾ [الطور: ١٨] والفاكه: المعجب بالشيء المسرور المغتبط به، وفعله فكه بالكسر يفكه فهو فكه وفاكه إذا كان طيب النفس. والفاكه البال، ومنه الفاكهة وهي المرح الذي ينشأ عن طيب النفس، وتفكهت بالشيء إذا تمتعت به، ومنه الفاكهة التي يتمتع بها، ومنه قوله ﴿ فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٥] قيل معناه تندمون، وهذا تفسير بلازم المعنىٰ، وإنما الحقيقة تزيلون عنكم التفكه، وإذا زال التفكه خلفه ضده، يقال تحنث إذا زال الحنث

عنه وتحرج وتحوب وتأثم، ومنه تفكه، وهذا البناء يقال للداخل في الشيء: كتعلم وتحلم وللخارج منه كتحرج وتأثم.

والمقصود: أنه سبحانه جمع لهم بين النعيمين: نعيم القلب بالتفكه، ونعيم البدن بالأكل والشرب والنكاح، ووقاهم عذاب الجحيم، فوقاهم مما يكرهون، وأعطاهم ما يحبون، جزاء وفاقا، لأنهم تركوا ما يكره، وأتوا بما يحب، فكان جزاؤهم مطابقا لأعمالهم، ثم أخبر عن دوام ذلك لهم بما أفهمه قوله: ﴿ هَنِيٓـًٔا ﴾، فإنهم لو علموا زواله وانقطاعه لنغص عليهم ذلك نعيمهم، ولم يكن هناء لهم.

ثم ذكر مجالسهم وهيئاتهم فيها، فقال: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصۡفُوفَةٍ ﴾ [الطور: ٢٠]، وفي ذكر اصطفافها تنبيه على كمال النعمة عليهم بقرب بعضهم من بعض، ومقابلة بعضهم بعضا، كما قال تعالى: ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴾ [الواقعة: ١٦] فإن من تمام اللذة والنعيم أن يكون مع الإنسان في بستانه ومنزله من يحب معاشرته، ويؤثر قربه، ولا يكون بعيدا منه، قد حيل بينه وبينه، بل سريره إلى جانب سرير من يحبه.

وذكر أزواجهم وأنهم الحور العين، وقد تكرر وصفهم في القرآن بهاتين الصفتين. قال أبو عبيدة: جعلناهم أزواجا، كما يزوج البعل بالبعل، جعلناهم اثنين اثنين، وقال: يونس قرناهم بهن، وليس من عقد التزويج، واحتج على هذا بأن العرب لا تقول: تزوجت بها، وإنما تقول تزوجتها، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٌ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا ﴾ [الأحزاب: ٣٧] وفي الحديث: «**زوجتكها بما معك من القرآن**»[(١)] وقال غيره العرب تقول: تزوجت بامرأة. وقال الأزهري: العرب تقول زوجته امرأة، وتزوجت امرأة، وليس في كلامهم تزوجت بامرأة، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴾ أي قرناهم، وعلى هذا فزوجناهم عند هؤلاء من الاقتران والشفع أي شفعناهم، وقرناهم بهن، وقالت طائفة منهم مجاهد زوجناهم بهن أي أنكحناهم إياهن. قلت: وعلى هذا

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٣١٠) ومسلم (رقم ١٤٢٥) وانظر: فتح الباري (٩/ ١٩١-١٩٨).

فتلويح فعل التزويج قد دل على النكاح، وتعديته بالباء المتضمنة معنى الاقتران والضم، فالقولان واحد، والله أعلم.

وأما الحور العين، فقال مجاهد: التي يحار فيها الطرف باديا مخ سوقهن من وراء ثيابهن، ويرى الناظر وجهه في كبد إحداهن كالمرآة من رقة الجلد وصفاء اللون، وقال قتادة: بحور أي بيض، وكذا قال ابن عباس.

وقال مقاتل: الحور البيض الوجوه العين الحسان الأعين وعين حوراء شديدة السواد نقية البياض طويلة الأهداب مع سوادها كاملة الحسن ولا تسمى المرأة حوراء، حتى يكون مع حور عينها بياض لون الجسد، فوصفهن بالبياض والحسن والملاحة، كما قال: ﴿ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ ﴾ [الرحمن: ٧٠] فالبياض في ألوانهن، والحسن في وجوههن، والملاحة في عيونهن، وقد وصف الله سبحانه نساء أهل الجنة بأحسن الصفات، ودل بما وصف بما سكت عنه...

***

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ٢١ ﴾.

[(١)] أخبر سبحانه عن تكميل نعيمهم بإلحاق ذرياتهم بهم في الدرجة، وإن لم يعملوا أعمالهم لتقر أعينهم بهم، ويتم سرورهم وفرحهم، وأخبر سبحانه أنه لم ينقص الآباء من عملهم من شيء بهذا الإلحاق، فينزلهم من الدرجة العليا إلى الدرجة السفلى، بل ألحق الأبناء بالآباء، ووفر على الآباء أجورهم ودرجاتهم.

ثم أخبر سبحانه أن هذا إنما هو فعله في أهل الفضل، وأما أهل العدل فلا يفعل بهم ذلك، بل ﴿ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴾ [الطور: ٢١]، ففي هذا دفع لتوهم التسوية بين الفريقين بهذا الإلحاق، كما في قوله: ﴿ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ ﴾ [الطور: ٢١] دفع

---

(١) ١٧٣ التبيان.

لتوهم حط الآباء إلى درجة الأبناء، وقسمة أجور الآباء بينهم وبين الأبناء، فينقص أجر أعمالهم، فرفع هذا التوهم بقوله ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ أي ما نقصناهم.

[(١)]قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾[الطور: ٢١]، فهذه الآية تدل على أن الله سبحانه يلحق ذرية المؤمنين بهم في الجنة، وإنهم يكونون معهم في درجتهم. ومع هذه فلا يتوهم نزول الآباء إلى درجة الذرية، فإن الله لم يلتهم - أي لم ينقصهم - من أعمالهم شيئاً، بل رفع ذرياتهم إلى درجاتهم مع توفير أجور الآباءِ عليهم، ولما كان إلحاق الذرية بالآباءِ في الدرجة إنما هو بحكم التبعية لا بالأعمال، ربما توهم متوهم أن ذرية الكفار يلحقون بهم في العذاب تبعاً، وإن لم يكن لهم أعمال الآباءِ، فقطع تعالى هذا التوهم بقوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾، وتأمل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ [الطور: ٢١]، كيف أتى بالواو العاطفة في اتباع الذرية، وجعل الخبر عن المؤمنين الذين هذا شأنهم، فجعل الخبر مستحقاً بأمرين:

أحدهما: إيمان الآباءِ. والثاني اتباع الله ذريتهم إياهم، وذلك لا يقتضي أن كل مؤمن يتبعه كل ذرية له، ولو أُريد هذا المعنى لقيل: والذين آمنوا تتبعهم ذرياتهم، فعطف الاتباع بالواو يقتضي أن يكون المعطوف بها قيداً وشرطاً في ثبوت الخبر، لا حصوله لكل أفراد المبتدأ. وعلى هذا يخرج ما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة، قالت أُتي النبي ﷺ بصبي من الأنصار يصلي عليه: فقلت: يا رسول الله، طوبى لهذا لم يعمل شراً، ولم يدره به. قال: «**أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وخلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار وخلق لها أهلاً وخلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم**»[(٢)]، فهذا الحديث يدل على أنه لا يشهد لكل طفل من أطفال المؤمنين

---

(١) ٣٩٦ طريق الهجرتين.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٦٢) وانظر: شرح النووي (١٦/ ٢٠٧).

بالجنة، وإن أطلق على أطفال المؤمنين في الجملة أنهم في الجنة، لكن الشهادة للمعين ممتنعة، كما يشهد للمؤمنين مطلقاً أنهم في الجنة، ولا يشهد لمعين بذلك إلا من شهد له النبي ﷺ. فهذا وجه الحديث الذي يشكل على كثير من الناس، ورده الإمام أحمد، وقال: لا يصح. ومن يشك أن أولاد المسلمين في الجنة؟ وتأوله قوم تأويلات بعيدة...

(1) ومن ذلك من ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور: ٢١] لما أخبر سبحانه بإلحاق الذرية، ولا عمل لهم بآبائهم في الدرجة، فربما توهم متوهم أن يحط الآباء إلى درجة الذرية، فرفع هذا التوهم بقوله: ﴿وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي: ما نقصنا من الآباء شيئا من أجور أعمالهم، بل رفعنا ذريتهم إلى درجتهم، ولم نحطهم إلى درجتهم بنقص أجورهم، ولما كان الوهم قد يذهب إلى أنه يفعل ذلك بأهل النار، كما يفعله بأهل الجنة قطع هذا الوهم بقوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾، ومن هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٩١] وله كل شيء فلما كان ذكر ربوبيته البلدة الحرام قد يوهم الاختصاص عقبه بقوله: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣] فلما ذكر كفايته للمتوكل عليه فربما أوهم ذلك تعجيل الكفاية وقت التوكل فعقبه بقوله: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ أي وقتًا لا يتعداه فهو يسوقه إلى وقته، الذي قدره له، فلا يستعجل المتوكل، ويقول: قد توكلت ودعوت، فلم أر شيئًا، ولم تحصل لي الكفاة، فالله بالغ أمره في وقته الذي قدره له، وهذا كثير جدًا في القرآن والسنة وهو باب لطيف من أبواب فهم النصوص.

---

(١) ١٦٠ أعلام جـ٤.

[(١)]...ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور: ٢١] فتأمل كم في هذا الكلام من رفع إيهام، منها قوله: ﴿ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ ﴾ لئلا يتوهم أن الاتباع في نسب أو تربية أو حرية أو رق أو غير ذلك.

ومنها قوله: ﴿ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ لرفع توهم أن الآباء تحط إلى درجة الأبناء ليحصل الإلحاق والتبعية، فأزال هذا الوهم بقوله: ﴿ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم ﴾ أي ما نقصنا الآباء بهذا الاتباع شيئًا من عملهم، بل رفعنا الذرية إليهم قرة لعيونهم، وإن لم يكن لهم أعمال يستحقون بها تلك الدرجة.

ومنها قوله: ﴿ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ فلا يتوهم متوهم أن هذا الاتباع حاصل في أهل الجنة وأهل النار، بل هو للمؤمنين دون الكفار، فإن الله سبحانه لا يعذب أحدًا إلا بكسبه، وقد يثيبه من غير كسبه.

ومنها قوله: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، فلما أمرهن بالتقوى التي شأنها التواضع ولين الكلام نهاهن عن الخضوع بالقول، لئلا يطمع فيهن ذو المرض، ثم أمرهن بعد ذلك بالقول المعروف دفعًا لتوهم الإذن في الكلام المنكر، لما نهين عن الخضوع بالقول، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ [البقرة: ١٨٧] فرفع توهم فهم الخيطين من الخيوط بقوله: ﴿ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ [التكوير: ٢٨] فلما أثبت لهم مشيئة فلعل متوهمًا يتوهم استقلالهم بها، فأزال سبحانه ذلك بقوله: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[(٢)] [التكوير: ٢٩].

---

(١) ٧٠ مختصر الصواعق جـ١.

(٢) هذا المبحث فيه فوائد كثيرة قبله وبعده. (ج).

(١)في ارتقاء العبد وهو في الجنة من درجة إلى درجة أعلى منها: قال الإمام احمد ثنا يزيد أنبانا حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن أبي صالح عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول: يا رب أنّى لي هذه. فيقول: باستغفار ولدك لك»(٢).

في إلحاق ذرية المؤمن به في الدرجة وإن لم يعملوا عمله، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور: ٢١] وروى قيس عن عمرو بن مرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرفع ذرية المؤمن إليه في درجته، وإن كانوا دونه في العمل، لتقر بهم عينه، ثم قرأ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ قال: ما نقصنا الآباء مما أعطينا البنين»(٣) (وذكر) ابن مردويه في تفسيره من حديث شريك عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال شريك أظنه حكاه عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده، فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك أو عملك. فيقول: يا رب قد عملت لي ولهم. فيؤمر بالإلحاق بهم» ثم تلا ابن عباس: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ ﴾ إلى آخر الآية(٤).

---

(١) ٢٨٥ حادي الأرواح.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٥٠٩) وابن ماجه (رقم ٣٦٦٠) وابن أبي شيبة (٣/ ٥٨ رقم ١٢٠٨١) والطبراني في الأوسط (٥/ ٢١٠ رقم ٥١٠٨) قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢١٠) رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجالهما رجال الصحيح غير عاصم ابن بهدلة وقد وثق.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٧/ ٢٤) وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٣١٦ رقم ١٨٦٨٣).

(٤) أخرجه الطبراني في الصغير (رقم ٦٤٠) وفي الكبير (١١/ ٤٤٠ رقم ١٢٢٤٨) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١١٤)، رواه الطبراني في الصغير والكبير وفيه محمد بن عبدالرحمن بن غزوان وهو ضعيف.

وقد اختلف المفسرون في الذرية في هذه الآية: هل المراد بها الصغار أو الكبار أو النوعان؟ على ثلاثة أقوال، واختلافهم مبني على أن قوله: ﴿ بِإِيمَـٰنٍ ﴾ حال من الذرية والتابعين أو المؤمنين المتبوعين، فقالت طائفة: المعنى: والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم في إيمانهم، فأتوا من الإيمان بمثل ما أتوا به، وألحقناهم بهم في الدرجات.

قالوا: ويدل على هذا قراءة من قرأ: ﴿ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم ﴾ فجعل الفعل في الإتباع لهم قالوا: وقد أطلق الله سبحانه الذرية على الكبار، كما قال: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ ﴾ [الأنعام: ٨٤]، وقال: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ [الإسراء: ٣]، وقال: ﴿ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٣]، وهذا قول الكبار والعقلاء، قالوا: ويدل على ذلك ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس يرفعه: «**إن الله يرفع ذرية المؤمن إلى درجته، وإن كانوا دونه في العمل، لتقر بهم عينه**»، فهذا يدل على أنهم دخلوا الجنة بأعمالهم، ولكن لم يكن لهم أعمال يبلغوا بها درجة آبائهم، فبلغهم إياها وإن تقاصر عملهم عنها، قالوا أيضًا فالإيمان هو القول والعمل والنية، وهذا إنما يمكن من الكبار.

وعلى هذا فيكون المعنى: إن الله سبحانه يجمع ذرية المؤمن إليه إذا أتوا من الإيمان بمثل إيمانه، إذ هذا حقيقة التبعية وإن كانوا دونه في الإيمان، رفعهم الله إلى درجته: إقرارا لعينه، وتكميلا لنعيمه، وهذا كما إن زوجات النبي ﷺ معه في الدرجة تبعا، وإن لم يبلغوا تلك الدرجة بأعمالهن. وقالت طائفة أخرى: الذرية هاهنا الصغار، والمعنى: والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم في إيمان الآباء، والذرية تتبع الآباء وإن كانوا صغارا في الإيمان وأحكامه من الميراث والدية والصلاة عليهم والدفن في قبور المسلمين وغير ذلك، إلا فيما كان من أحكام البالغين، ويكون قوله (بإيمان) على هذا في موضع نصب على الحال من المفعولين، أي وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان الآباء، قالوا: ويدل على صحة هذا القول البالغين لهم حكم أنفسهم في الثواب والعقاب، فإنهم

مستقلون بأنفسهم ليسوا تابعين الآباء في شيء من أحكام الدنيا ولا أحكام الثواب والعقاب لاستقلالهم بأنفسهم، ولو كان المراد بالذرية البالغين لكن أولاد الصحابة البالغون كلهم في درجة آبائهم، وتكون أولاد التابعين البالغون كلهم في درجة آبائهم، وهلم جرا إلى يوم القيامة، فيكون الآخرون في درجة السابقين، قالوا ويدل عليه أيضا أنه سبحانه جعلهم معهم تبعا في الدرجة، كما جعلهم تبعاً معهم في الإيمان، ولو كانوا بالغين لم يكن إيمانهم تبعا، بل إيمان استقلال، قالوا: ويدل عليه إن الله ﷻ جعل المنازل في الجنة بحسب الأعمال في حق المستقلين. وأما الإتباع فان الله ﷻ يرفعهم إلى درجة أهليهم، وإن لم يكن لهم أعمالهم كما تقدم، وأيضًا فالحور العين والخدم في درجة أهليهم، وإن لم يكن لهم عمل بخلاف المكلفين البالغين، فإنهم يرفعون إلى حيث بلغتهم أعمالهم، وقالت فرقة منهم الواحدي: الوجه أن تحمل الذرية الصغار والكبار، لأن الكبير يتبع الأب بإيمان نفسه والصغير يتبع الأب بإيمان الأب، قالوا: والذرية تقع على الصغير والكبير والواحد والكثير والابن والأب، كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١] أي آباءهم، والإيمان يقع على الإيمان التبعي وعلى الاختياري الكسبي، فمن وقوعه على التبعي قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢] فلو أعتق صغيرًا جاز. قالوا: وأقوال السلف تدل على هذا، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: «إن الله يرفع ذرية المؤمن في درجته، وإن كانوا دونه في العمل، لتقر بهم عيونهم»، ثم قرأ هذه الآية. وقال ابن مسعود في هذه الآية: الرجل يكون له القدم، ويكون له الذرية، فيدخل الجنة فيرفعون إليه لتقر بهم عينه، وإن لم يبلغوا ذلك. وقال أبو مجلز: يجمعهم الله له كما كان يحب إن يجتمعوا في الدنيا، وقال الشعبي: أدخل الله الذرية بعمل الآباء الجنة. وقال الكلبي عن ابن عباس: إن كان الآباء ارفع درجة من الأبناء رفع الله الأبناء إلى الآباء، وإن كان الأبناء أرفع درجة من الآباء رفع الله الآباء إلى الأبناء، وقال إبراهيم: أعطوا مثل أجور آبائهم،

ولم ينقص الآباء من أجورهم شيئًا. وقال: ويدل على صحة هذا القول أن القراءتين كالآيتين، فمن قرأ: ﴿ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم ﴾ فهذا من حق البالغين الذين تصح نسبة الفعل إليهم، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ ﴾ [التوبة: ١٠٠] ومن قرأ: «واتبعناهم ذرياتهم» فهذا في حق الصغار الذين أتبعهم الله إياهم في الإيمان حكما، فدلت القراءتان على النوعين، قلت: واختصاص الذرية هاهنا بالصغار أظهر، لئلا يلزم استواء المتأخرين بالسابقين في الدرجات، ولا يلزم مثل هذا في الصغار، فإن أطفال كل رجل وذريته معه في درجته، والله أعلم.

***

﴿ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

[(١)] وقال: ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [الواقعة: ٢١]. وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي الدرداء، عن رسول الله ﷺ: «سَيِّدُ طَعَامِ أَهْلِ الدُّنيا وأَهْلِ الجَنَّةِ اللَّحْمُ»[(٢)]. ومن حديث بُريدةَ يرفعه: «خَيْرُ الإدَامِ فِي الدُّنيا والآخِرَةِ اللَّحْمُ»[(٣)]. وفي الصحيح عنه ﷺ: «فضلُ عائشةَ على النِّساءِ كفضلِ الثَّريدِ على سائرِ الطَّعَامِ»[(٤)]. و«الثريد»: الخبز واللَّحم. قال الشاعر:

إذَا مَا الْخبْزُ تَأْدِمُهُ بِلَحْمٍ فَـذَاكَ أَمَـانَةَ اللهِ الثّرِيدُ[(٥)]

---

(١) ٣٩١ زاد المعاد جـ٣.

(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ٣٣٠٥) ذكره ابن الجوزي في الموضوعات. انظر: مصباح الزجاجة (٤/ ١٧) وقال العجلوني في كشف الخفاء (١/ ١٧٤) رواه ابن ماجه وابن أبي الدنيا بسند فيه ضعيف، بل موضوع.

(٣) أخرج الديلمي في الفردوس (٢/ ١٨٠ رقم ٢٩٠٩) وابن عدي في الكامل (٧/ ١٠٧) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤/ ٢٣٨) وانظر: فيض القدير (٣/ ٤٦٨-٤٦٩).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٣٣) ومسلم (رقم ٢٤٣١) وانظر: فتح الباري (٧/ ١٠٨).

(٥) ذكره ابن منظور في اللسان (١٢/ ٩) ونسبه إلى ابن بري. وذكره الحربي في غريب الحديث (٣/ ١١٤٢) ولم ينسبه لأحد وكذلك فعل المباركفوري في تحفة الأحوذي (١٠/ ٢٦١) بينما ذكره بدر الدين الزركشي في الإجابة لما استدركت عائشة (ص ٦٤) ونسبه إلى سيبويه.

وقال الزُّهْري: أكل اللَّحْم يَزِيدُ سبعين قوَّة[١]، وقال محمد بن واسع: اللَّحْم يزيد في البصر، ويُروىٰ عن علي بن أبي طالب: «كُلُوا اللَّحْمَ، فإنه يُصَفِّي اللَّوْنَ، ويُخْمِصُ البَطْنَ، ويُحَسِّنُ الخُلُقَ»[٢]، وقال نافع: كان ابن عمر إذا كان رمضانُ لم يَفُتْه اللَّحْم، وإذا سافر لم يفته اللَّحْمَ[٣]. ويُذكر عن عليٍّ: «مَن تركه أربعين ليلة ساء خُلُقه»[٤].

وأما حديث عائشة رضي الله عنها، الذي رواه أبو داود مرفوعاً: «لا تَقْطَعُوا اللَّحْمَ بالسكِّين، فإنه من صَنِيعِ الأعَاجِمِ، وانْهشُوهُ، فإنه أَهْنَأُ وأمرأُ»[٥]. فرده الإمام أحمد بما صحَّ عنه ﷺ مِن قَطعِه بالسِّكين في حديثين، وقد تقدَّما.

[٦]قال الله تعالىٰ: ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [الواقعة: ٢١] وفي مسند البزَّار وغيره مرفوعاً: «إنَّكَ لَتَنْظُرُ إلى الطَّيْرِ في الجَنَّةِ، فَتَشْتَهيهِ، فيَخِرُّ مشويّاً بين يَدَيْكَ»[٧]. ومنه حلال، ومنه حرام. فالحرامُ: ذو المِخلَب، كالصَّقرِ والبازي والشاهِين، وما يأكُلُ الجِيَفَ كالنَّسْر، والرَّخَم، واللَّقْلَق، والعَقْعَق، والغُراب الأَبْقع، والأسود الكبير، وما نُهيَ عن قتله كالهُدهُدِ، والصُّرَدِ، وما أُمِرَ بقتله كالحِدَأة والغراب.

والحلالُ أصناف كثيرة، فمنه: الدَّجاج: ففي الصحيحين من حديث أبي موسىٰ

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في إصلاح المال (رقم ١٨٩) عن الزهري ولفظه: اللحم يزيد قوة سعيي.
(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في إصلاح المال (رقم ١٨٦) ولفظه: أكل اللحم يطيب النفس ويحسن الوجه.
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في إصلاح المال (رقم ١٨٨).
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في إصلاح المال (رقم ١٩١) عن حفص بن عمرو.
(٥) أخرجه أبو داود (رقم ٣٧٧٨) النسائي في الكبرىٰ (٢/ ٩٦ رقم ٢٥٥١) وفي المجتبىٰ (رقم ٢٢٤٣) والبيهقي في الكبرىٰ (٧/ ٢٨٠ رقم ١٤٤٠٣) وفي شعب الإيمان (٥/ ٩١ رقم ٥٨٩٨) ومال الحافظ ابن حجر إلىٰ تحسينه بشواهده كما في فتح الباري (٩/ ٥٤٧).
(٦) ٣٩٧ زاد المعاد جـ٣.
(٧) أخرجه البزار (٥/ ٤٠١ رقم ٢٠٣٢) وابن المبارك في الزهد (رقم ١٤٥٢) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٤١٤): رواه البزار وفيه حميد بن عطاء الأعرج وهو ضعيف.

«أنَّ النبيَّ ﷺ أكل لحمَ الدَّجاجِ»[١]. وهو حارٌّ رطب في الأُولىٰ، خفيفٌ علىٰ المَعِدَة، سريعُ الهضم، جيدُ الخَلْطِ، يَزيد في الدِماغ والمَنِيِّ، ويُصفِّي الصوت، ويُحَسِّنُ اللَّون، ويُقَوِّي العقل، ويُوَلِّد دماً جيداً، وهو مائل إلىٰ الرطوبة، ويقال: إنَّ مداومَةَ أكله تُورث النِّقْرس، ولا يثبت ذلك. ولحمُ الديك: أسخنُ مزاجاً، وأقلُّ رطوبة، والعتيقُ منه دواء، ينفع القُولنج والرَّبو والرِّياح الغليظة إذا طُبِخَ بماء القُرْطُم والشِّبْت، وخصِيُّها محمودُ الغِذَاء، سريعُ الانهضام، والفَراريجُ سريعة الهضمِ، مُلَيِّنة للطبع، والدَّمُ المتولد منها دمٌ لطيف جدًّا.

***

﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾.

[٢]ذكر إمدادهم باللحم والفاكهة والشرب، وأنهم يتعاطون كؤوس الشراب بينهم، يشرب أحدهم ويناول صاحبه، ليتم بذلك فرحهم وسرورهم.

ثم نزه ذلك الشراب عن الآفات من اللغو من أهله عليه ولحوق الإثم لهم، فقال: ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ [الطور: ٢٣] فنفىٰ باللغو السباب والتخاصم والهجر والفحش في المقال والعربدة، ونفىٰ بالتأثيم جميع الصفات المذمومة التي أثمت شارب الخمر، وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ ولم يقل: ولا إثم، أي ليس فيها ما يحملهم علىٰ الإثم، ولا يؤثم بعضهم بعضا بشربها، ولا يؤثمهم الله بذلك ولا الملائكة، فلا يلغون ولا

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٥١٧) ومسلم (رقم ١٦٤٩) وانظر: فتح الباري (٩/ ٦٤٥) وشرح النووي (١١/ ١١٠-١١٢).

(٢) ١٧٣ التبيان.

يأثمون قال ابن قتيبة: لا يذهب بعقولهم فيلغوا، ولم يقع منهم ما يؤثمهم.

ثم وصف خدمهم الطائفين عليهم بأنهم كاللؤلؤ في بياضهم. والمكنون المصون الذي لا تدنسه الأيدي، فلم تذهب الخدمة تلك المحاسن، وذلك اللون والصفاء والبهجة، بل مع انتصابهم لخدمتهم كأنهم لؤلؤ مكنون، ووصفهم في موضع آخر ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ [الإنسان: ١٩]، ففي ذكره المنثور إشارة إلى تفرقهم في حوائج ساداتهم وخدمتهم، وذهابهم ومجيئهم وسعة المكان، بحيث لا يحتاجون أن ينضم بعضهم إلى بعض فيه لضيقه.

ثم ذكر سبحانه ما يتحدثون به هناك، وأنهم يقولون: ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ [الطور: ٢٦] أي كنا خائفين في محل الأمن بين الأهل والأقارب والعشائر، فأوصلنا ذلك الخوف والإشفاق إلى أن من الله علينا، فأمنا مما نخاف: ﴿ وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطور: ٢٧]، وهذا ضد حال الشقي الذي كان في أهله مسرورًا، فهذا كان مسرورًا مع إساءته، وهؤلاء كانوا مشفقين مع إحسانهم، فبدل الله سبحانه إشفاقهم بأعظم الأمن، وبدل أمن أولئك بأعظم المخاوف، فبالله سبحانه المستعان، ثم أخبر عن حالهم في الدنيا، وأنهم كانوا يعبدون الله فيها فأوصلتهم عبادته وحده إلى قربه وجواره ومحل كرامته، والذي جمع لهم ذلك كله بره ورحمته، فإنه هو البر الرحيم، فهذا هو المقسم عليه بتلك الأقسام الخمسة في أول السورة، والله أعلم.

[(١)]في ارتفاع العبادات في الجنة إلا عبادة الذكر، فإنها دائمة: روى مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**يأكل أهل الجنة فيها ويشربون، ولا يتخمطون، ولا يتغوطون، ولا يبولون، ويكون طعامهم ذلك جشاء ورشحا: كرشح المسك، يلهمون التسبيح والحمد، كما يلهمون النفس**» وفي

(١) ٢٩١ حادي الأروح.

رواية: «التسبيح والتكبير كما تلهمون»[١] بالتاء المثناة من فوق، أي: تسبيحهم وتحميدهم يجري مع الأنفاس كما تلهمون أنتم النفس.

في تذاكر أهل الجنة ما كان بينهم في دار الدنيا قال الله تعالى: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴾ [الصافات: ٥٠-٥١] وقد تقدم الكلام عليها وقال تعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطور: ٢٥-٢٧]، وذكر ابن أبي الدنيا من حديث الربيع بن صبيح عن الحسن عن أنس يرفعه: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة فيشتاق الإخوان بعضهم إلىٰ بعض، فيسير سرير هذا إلىٰ سرير هذا، وسرير هذا إلىٰ سرير هذا، حتىٰ يجتمعا جميعا، فيتكئ هذا ويتكئ هذا، فيقول أحدهما لصاحبه: تعلم متىٰ غفر الله لنا؟ فيقول صاحبه: نعم يوم كذا وكذا، وموضع كذا وكذا، فدعونا الله، فغفر لنا**»[٢] وإذا تذاكروا ما كان بينهم فتذاكرهم فيما كان يشكل عليهم في الدنيا من مسائل العلم وفهم القرآن والسنة وصحة الأحاديث أولىٰ وأحرىٰ، فإن المذاكرة في الدنيا في ذلك ألذ من الطعام والشراب والجماع، فتذاكر ذلك في الجنة أعظم لذة وهذه لذة يختص بها أهل العلم، ويتميزون بها علىٰ من عداهم.

[٣]وقال تعالىٰ: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الطور: ٢٥-٢٨] وقال الطبراني: حدثنا الحسن بن إسحاق حدثنا

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٨٣٥) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٢٦).

(٢) أخرجه ابن قدامة في المتحابين في الله (رقم ٦١) والبزار (رقم ٣٥٥٣) والعقيلي في الضعفاء (٢/ ١٠٣ رقم ٥٦٨) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٤٢١): رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير سعيد بن دينار والربيع بن صبيح وهما ضعيفان وقد وثقا.

(٣) ١٨٦ حادي الأرواح.

سهل بن عثمان حدثنا المسيب بن شريك عن بشر بن نمير عن القاسم عن أبي أمامة قال: سئل رسول الله ﷺ أيتزاور أهل الجنة؟ قال: «**يزور الأعلىٰ الأسفل، ولا يزور الأسفل الأعلىٰ، إلا الذين يتحابون في الله، يأتون منها حيث شاؤوا على النوق، محتقبين الحشايا**»(١) وقال الدورقي: حدثنا أبو سلمة التبوذكي حدثنا سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال قال: بلغنا إن أهل الجنة يزور الأعلىٰ الأسفل، ولا يزور الأسفل الأعلىٰ(٢)، وقد تقدم حديث علقمة بن مرثد عن يحيىٰ بن إسحاق عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة ﷺ وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عبدوس حدثنا الحسن بن حماد حدثنا جابر بن نوح عن واصل بن السائب عن أبي سورة عن أبي أيوب يرفعه: «**إن أهل الجنة يتزاورون علىٰ النجائب**»(٣). وقد تقدم، فأهل الجنة يتزاورون فيها، ويستزير بعضهم بعضًا، وبذلك تتم لذتهم وسرورهم، ولهذا قال حارثة للنبي ﷺ وقد سأله: «**كيف أصبحت يا حارثة؟**» قال: أصبحت مؤمنًا حقًّا قال: «**إن لكل حق حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟**» قال: عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني انظر إلىٰ عرش ربي بارزا، وإلىٰ أهل الجنة يتزاورون فيها، وإلىٰ أهل النار يعذبون فيها. فقال: «**عبد نور الله قلبه**»(٤).

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا عبد الله حدثنا سلمة بن شبيب حدثنا سعيد بن دينار عن الربيع بن صبيح عن الحسن عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا دخل أهل**

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٨/ ٢٤٤ رقم ٧٩٥٦) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٧٩): رواه الطبراني وفيه بشر بن نمير وهو متروك.

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد (رقم ٢٣٥).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٤/ ١٧٩ رقم ٤٠٦٩).

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٣/ ٢٦٦ رقم ٣٣٦٧) والبيهقي في الشعب (٧/ ٣٦٢ رقم ١٠٥٩٠) وفي الزهد الكبير (رقم ٩٧٣) وعبد بن حميد (رقم ٤٤٥) وابن أبي شيبة (٦/ ١٧٠ رقم ٣٠٤٢٥) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٨٧) وجاء اسم الصحابي في هذه المصادر: حارث بن مالك الأنصاري.

الجنة الجنة، فيشتاق الإخوان بعضهم إلى بعض، قال: فيسير سرير هذا، إلى سرير هذا وسرير هذا، إلى سرير هذا، حتى يجتمعا جميعًا، فيقول أحدهما لصاحبه: تعلم متى غفر الله لنا فيقول صاحبه: يوم كنا في موضع كذا وكذا، فدعونا الله، فغفر لنا».

(١)وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ فهذا دعاء العبادة، المتضمن للسؤال رغبة ورهبة، والمعنى: إنا كنا من قبل نخلص له العبادة، وبهذا استحقوا أن وقاهم عذاب السموم لا بمجرد السؤال المشترك بين الناجي وغيره، فإن الله سبحانه يسأل من في السماوات ومن في الأرض، والفوز والنجاة إنما هي بإخلاص العبادة لا بمجرد السؤال والطلب.

***

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

(٢)تأمل هذا الترديد والحصر المتضمن لإقامة الحجة بأقرب طريق وأوضح عبارة، يقول تعالى: هؤلاء مخلوقون بعد أن لم يكونوا، فهل خلقوا من غير خالق خلقهم؟ فهذا من المحال الممتنع عند كل عاقل، ثم قال تعالى: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ وهذا أيضًا من المستحيل أن يكون العبد خالقًا لنفسه، فإن من لا يقدر أن يزيد في حياته بعد وجوده وتعاطيه أسباب الحياة ساعة واحدة، كيف يكون خالقًا لنفسه؟ وإذا بطل القسمان تعين أن لهم خالقًا خلقهم، فهو الإله الحق الذي يستحق عليهم العبادة والشكر، فكيف يشركون آلهًا غيره وهو وحده الخالق لهم؟

فإن قيل: فما موقع قوله تعالى: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ من هذه الحجة؟

قيل: أحسن موقع، فإنه بين بالقسمين الأولين أن لهم خالقًا فاطرًا، وبين بالقسم

---

(١) ٥ بدائع جـ٣.

(٢) ١١٠ مختصر الصواعق جـ١.

الثالث: أنهم بعد أن وجدوا وخلقوا فهم عاجزون غير خالقين، فإنهم لم يخلقوا نفوسهم، ولم يخلقوا السماوات والأرض، وأن الواحد القهار الذي لا إله غيره ولا رب سواه هو الذي خلقهم وخلق السماوات والأرض، فهو المتفرد بخلق المسكن والساكن.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الطور

والحمد لله رب العالمين

✿✿✿



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝ ﴾.

[١]أقسم سبحانه بالنجم عند هويه على تنزيه رسوله وبراءته مما نسبه إليه أعداؤه من الضلال والغي، واختلف الناس في المراد بالنجم، فقال الكلبي عن ابن عباس: أقسم بالقرآن إذا نزل نجمًا على رسوله أربع آيات وثلاثا والسورة، وكان بين أوله وآخره عشرون سنة.

وكذلك روى عطاء عنه وهو قول مقاتل والضحاك ومجاهد، واختاره الفراء، وعلى هذا فسمي القرآن منجما، لتفرقه في النزول، والعرب تسمي التفرق تنجما، والمفرق نجما، ونجوم الكتاب أقساطها، ويقول: جعلت مالي على فلان نجوما منجمة، كل نجم كذا وكذا، وأصل هذا أن العرب كانت تجعل مطالع القمر ومساقطها مواقيت لحلول ديونها وآجالها، فيقولون إذا طلع النجم يريدون الثريا حل عليك الدين، ومنه قول زهير في دية جعلت نجوما على العاقل:

ينجمها قوم لقوم غرامة ... ولم يهرقوا بينهم ملء محجم[٢]

ثم جعل كل تنجم تفريقا وإن لم يكن موقتا بطلوع نجم. وقوله (هوي) على هذا

---

(١) ١٥٢ التبيان.

(٢) هذا البيت من بحر الطويل، ينسب إلى زهير بن أبي سلمى، لقب بحكيم الشعراء في الجاهلية، وكان يفضل على شعراء العرب، مات سنة ١٣ قبل الهجرة. ذكر البيت ابن منظور في اللسان (١٢/ ٥٧٠).

القول أي نزل من علىٰ إلىٰ أسفل. قال أبو زيد: هوت العقاب تهوىٰ هويا بفتح الهاء إذا انقضت علىٰ صيد أو غيره وكذلك قال ابن الأعرابي وفرق بين الهوي لقوله:

والدلو في أصعادها عجل الهوي

وقال الليث: العامة تقول الهوي بالضم في مصدر هوي يهوي، وكذلك قال الأصمعي: هوىٰ يهوىٰ هو بفتح الهاء إذا سقط إلىٰ أسفل، قال: وكذلك الهوي في السير إذا مضىٰ.

وههنا أمر يجب التنبيه عليه غلط فيه أبو محمد بن حزم أقبح غلط، فذكر في أسماء الرب تعالىٰ الهوىٰ بفتح الهاء، واحتج بما في الصحيح من حديث عائشة: أن رسول الله ﷺ كان يقول في سجوده «**سبحان ربي الأعلىٰ**»[1] الهوي فظن أبو محمد أن الهوي صفة للرب، وهذا من غلطه رحمه الله، وإنما الهوي علىٰ وزن فعيل اسم لقطعة من الليل، يقال مضىٰ هوي من الليل، علىٰ وزن فعيل، ومضىٰ هزيع منه، أي طرف وجانب، وكان يقول: «**سبحان ربي الأعلىٰ**» في قطعة من الليل وجانب منه، وقد صرحت بذلك في اللفظ الآخر، فقالت كان يقول: «**سبحان ربي الأعلىٰ**» الهوي من الليل.

عدنا إلىٰ قوله: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ وقال ابن عباس في رواية علي بن أبي طلحة وعطية يعني الثريا إذا سقطت وغابت، وهو الرواية الأخرىٰ عن مجاهد، والعرب إذا أطلقت النجم تعني به الثريا، قال: فباتت تعد النجم، وقال أبو حمزة اليماني يعني النجوم إذا انتشرت يوم القيامة: وقال ابن عباس في رواية عكرمة يعني النجوم التي ترمىٰ بها الشياطين إذا سقطت في آثارها عند استراق السمع. وهذا قول الحسن، وهو أظهر الأقوال، ويكون سبحانه قد أقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهدة التي نصبها الله سبحانه آية وحفظا للوحي من استراق الشياطين له، علىٰ أن ما أتىٰ به رسوله حق وصدق، لا سبيل للشيطان، ولا طريق له إليه، بل قد حرس بالنجم إذا هوىٰ رصدا

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٧٧٢) وانظر: شرح النووي (٤/ ١٩٧) (٦/ ٦٢).

بين يدي الوحي وحرسًا له، وعلى هذا فالارتباط بين المقسم به والمقسم عليه في غاية الظهور، وفي المقسم به دليل على المقسم عليه.

وليس بالبين تسمية القرآن عند نزوله بالنجم إذا هوى ولا تسمية نزوله هويا، ولا عهد في القرآن ذلك، فيحمل هذا اللفظ عليه، وليس بالبين تخصيص هذا القسم بالثريا وحدها إذا غابت، وليس بالبين أيضا القسم بالنجوم عند انتشارها يوم القيامة، بل هذا مما يقسم الرب عليه، ويدل عليه بآياته، فلا يجعله نفسه دليلًا لعدم ظهوره للمخاطبين، ولاسيما منكرو البعث، فإنه سبحانه إنما استدل بما لا يمكن جحده ولا المكابرة فيه، فأظهر الأقوال قول الحسن، والله أعلم.

وبين المقسم به والمقسم عليه من التناسب ما لا يخفى، فإن النجوم التي ترمي الشياطين آيات من آيات الله، يحفظ بها دينه ووحيه وآياته المنزلة على رسوله بها ظهر دينه وشرعه وأسماؤه وصفاته، وجعلت هذه النجوم المشاهدة خدما وحرسا لهذه النجوم الهاوية، ونفى سبحانه عن رسوله الضلال المنافي للهدى والغي المنافي للرشاد، ففي ضمن النفي الشهادة له بأنه على الهدى والرشاد، فالهدى في علمه والرشاد في علمه.

وهذان الأصلان هما غاية كمال العبد وبهما سعادته وفلاحه، وبهما وصف النبي ﷺ خلفاءه، فقال: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي**»[1].

فالراشد ضد الغاوي، والمهدي ضد الضال، وهو الذي زكت نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح، وهو صاحب الهدى ودين الحق، ولا يشتبه الراشد المهدي بالضال الغاوي، إلا على أجهل خلق الله، وأعماهم قلبا، وأبعدهم من حقيقة

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٦٧٦) وابن حبان (١/ ١٧٨- ١٧٩ رقم ٥) وفي موارد الظمآن (رقم ١٠٢) وابن ماجه (رقم ٤٢، ٤٣) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١١٤ رقم ٢٠١٢٥) والدارمي (رقم ٩٥) والطبراني في الكبير (١٨/ ٢٤٦ رقم ٦١٨) وفي مسند الشاميين (١/ ٢٥٤ رقم ٤٣٧) قال الترمذي: هذا حديث حسنٌ صحيحٌ، وانظر: فتح الباري (١٠/ ٣٣٩) (١٣/ ٢٩٢) وشرح النووي (١١/ ٢١٧).

الإنسانية، ولله در القائل:

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره   إذا استوت عنده الأنوار والظلم[(١)]

فالناس أربعة أقسام: ضال في علمه، غاو في قصده وعلمه، وهؤلاء شرار الخلق، وهم مخالفو الرسل. الثاني مهتد في علمه، غاو في قصده وعمله، وهؤلاء هم الأمة الغضبية، ومن تشبه بهم، وهو حال كل من عرف الحق ولم يعمل به. الثالث ضال في علمه، ولكن قصده الخير، وهو لا يشعر. الرابع مهتد في علمه راشد في قصده، وهؤلاء ورثة الأنبياء، وهم وإن كانوا الأقلين عددا فهم الأكثرون عند الله قدرا، وهم صفوة الله من عباده وحزبه من خلقه.

وتأمل كيف قال سبحانه: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ﴾ ولم يقل ما ضل محمد. تأكيدا لإقامة الحجة عليهم بأنه صاحبهم وهم أعلم الخلق به وبحاله وأقواله وأعماله، وأنهم لا يعرفونه بكذب ولا غي ولا ضلال، ولا ينقمون عليه أمرا واحدا قط، وقد نبه على هذا المعنى بقوله: ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ ﴾ [المؤمنون: ٦٩] وبقوله: ﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ [التكوير: ٢٢].

ثم قال سبحانه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣، ٤] ينزه نطق رسوله أن يصدر عن هوى، وبهذا الكمال هداه ورشده، وقال: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ ولم يقل وما ينطق بالهوى، لأن نطقه عن الهوى أبلغ، فإنه يتضمن أن نطقه لا يصدر عن هوى، وإذا لم يصدر عن هوى فكيف ينطق به، فتضمن نفي الأمرين: نفي الهوى عن مصدر النطق، ونفيه عن نفسه، فنطقه بالحق، ومصدره الهدى والرشاد، لا الغي والضلال.

ثم قال: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ فأعاد الضمير على المصدر المفهوم من الفعل،

---

(١) هذا البيت من بحر البسيط، وينسب إلى أبي الطيب المتنبي: أحمد بن الحسين الجعفي الكوفي الكندي، سبق التعريف به، وهذا البيت ذكره أسامة بن منقذ في البديع في نقد الشعر (ص ٤٩٥).

أي ما نطقه إلا وحي يوحى، وهذا أحسن من قول من جعل الضمير عائدا إلى القرآن، فإنه يعم نطقه بالقرآن والسنة، وإن كليهما وحي يوحى. وقد احتج الشافعي لذلك، فقال: لعل من حجة من قال بهذا قوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣] قال: ولعل من حجته أن يقول قال رسول الله ﷺ لأبي الزاني بامرأة الرجل الذي صالحه على الغنم والخادم «**والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله: الغنم والخادم رد عليك**»[١] الحديث. وفي الصحيحين أن يعلى بن أمية كان يقول لعمر: ليتني أرى رسول الله ﷺ حين ينزل عليه الوحي، فلما كان بالجعرانة سأله رجل، فقال: كيف ترى في رجل أحرم بعمرة في جبته بعد ما تضمخ بالخلوق، فنظر إليه النبي ﷺ ساعة، ثم سكت، فجاء الوحي فأشار عمر بيده إلى يعلى، فجاء فأدخل رأسه، فإذا النبي ﷺ محرم يغط، ثم سُرِّي عنه، فقال: «**أين السائل آنفا؟**» فجيء به، فقال: «**انزع عنك الجبة، واغسل أثر الطيب، واصنع في عمرتك ما تصنع في حجتك**»[٢].

وقال الشافعي أخبرنا مسلم عن ابن جريج عن ابن طاوس عن أبيه أن عنده كتابا نزل به الوحي، وما فرض رسول الله ﷺ من صدقة وعقول، فإنما نزل به الوحي[٣]، وذكر الأوزاعي عن حسان بن عطية قال: كان جبريل ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة، كما ينزل عليه بالقرآن، يعلمه إياه[٤] وذكر الأوزاعي أيضًا عن أبي عبيد صاحب سليمان: أخبرني القاسم بن مخيمرة حدثني ابن فضيلة قال قيل لرسول الله ﷺ: سعِّر لنا. قال «**لا يسألني الله عن سنة أحدثها فيكم لم يأمرني بها، ولكن سلوا الله من**

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٢٤، ٢٧٢٥) ومسلم (رقم ١٦٩٧، ١٦٩٨) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٢٩١) وشرح النووي (١١/ ٢٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٥٣٦) ومسلم (رقم ١١٨٠) وانظر: فتح الباري (٣/ ٣٩٥).

(٣) أخرجه الشافعي في مسنده (ص ٢٦٤).

(٤) أخرجه الدارمي (رقم ٥٨٨) ومحمد بن نصر المروزي في كتاب السنة (رقم ١٠٢، ٤٠٢) وصحح إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح (١٣/ ٢٩١).

فضله»[(١)] وابن فضيلة هذا يسمى طلحة، وقد صح عنه أنه قال: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه»[(٢)] وهذا هو السنة بلا شك، وقد قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [النساء: ١١٣] وهما القرآن والسنة، وبالله التوفيق.

ثم أخبر تعالى عن وصف من علمه الوحي والقرآن، مما يعلم أنه مضاد لأوصاف الشيطان معلم الضلال والغواية، فقال: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم: ٥]، وهذا نظير قوله: ﴿ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ [التكوير: ٢٠]، وذكرنا هناك السر في وصفه بالقوة، وقوله: ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ [النجم: ٦] أي جميل المنظر حسن الصورة ذو جلالة، ليس شيطانا أقبح خلق الله، وأشوههم صورة، بل هو من أجمل الخلق وأقواهم وأعظمهم أمانة، ومكانة عند الله، وهذا تعديل لسند الوحي والنبوة، وتزكية له، كما تقدم نظيره في سورة التكوير، فوصفه بالعلم والقوة وجمال المنظر وجلالته، وهذه كانت أوصاف الرسول البشري والملكي، فكان رسول الله ﷺ أشجع الناس وأعلمهم وأجملهم وأجلهم. والشياطين وتلامذتهم بضد من ذلك، فهم أقبح الخلق صورة ومعنى، وأجهل الخلق، وأضعفهم هما ونفوسًا.

ثم ذكر استواء هذا المعلم بالأفق الأعلى، ودنوه وتدليه وقربه من رسول الله ﷺ، وإيحاء الله ما أوحى، فصور سبحانه لأهل الإيمان صورة الحال من نزول جبريل من عنده، إلى أن استوى بالأفق، ثم دنى وتدلى، وقرب من رسوله، فأوحى إليه ما أمره الله بإيحائه، حتى كأنهم يشاهدون صورة الحال، ويعاينونها هابطًا من السماء إلى أن صار بالأفق الأعلى مستويًا عليه، ثم نزل وقرب من محمد ﷺ، وخاطبه بما أمره الله به، قائلًا ربك يقول لك كذا وكذا.

---

(١) أخرجه ابن قانع في معجم الصحابة (٢/ ٢٨٧ رقم ٨١٩) وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ١٠٠): رواه الطبراني في الكبير وفيه بكر بن سهل الدمياطي ضعفه النسائي ووثقه غيره وبقية رجاله ثقات.

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٤٦٠٤) وأحمد (٤/ ١٣٠) ومحمد بن نصر المروزي في السنة (رقم ٢٤٤) وانظر: التمهيد (٢/ ١٥٦) (٤/ ٢٢١) وعون المعبود (١٢/ ٢٣١).

وأخبر سبحانه عن مسافة هذا القرب بأنه قدر قوسين أو أدنى من ذلك، وليس هذا على وجه الشك، بل تحقيق لقدر المسافة، وأنها لا تزيد عن قوسين البتة، كما قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٧] تحقيق لهذا العدد، وأنهم لا ينقصون عن مائة ألف رجل واحدًا، ونظيره قوله: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة: ٧٤] أي لا تنقص قسوتها عن قسوة الحجارة، بل إن لم تزد على قسوة الحجارة لم تكن دونها، وهذا المعنى أحسن وألطف وأدق من قول من جعل أو في هذه المواضع بمعنى بل، ومن قول من جعلها للشك بالنسبة إلى الرأي وقول من جعلها بمعنى الواو فتأمله، انتهى.

ثم أخبر تعالى عن تصديق فؤاده لما رأته عيناه، وأن القلب صدق العين، وليس كمن رأى شيئا على خلاف ما هو به فكذب فؤاده بصره، بل ما رآه ببصره صدقه الفؤاد، وعلم أنه كذلك، وفيها قراءتان إحداهما بتخفيف كذب، والثانية بتشديدها، يقال كذبته عينه، وكذبه قلبه، وكذبه جسده. إذا أخلف ما ظنه وحدسه، قال الشاعر:

كذبتك عينك أم رأيت بواسط   غلس الظلام من الرباب خيالا[1]

أي أرتك ما لا حقيقة له. فنفى هذا عن رسوله. وأخبره أن فؤاده لم يكذب ما رآه و(ما) إما أن تكون مصدرية، فيكون المعنى: ما كذب فؤاده رؤيته، وإما أن تكون موصولة، فيكون المعنى: ما كذب الفؤاد الذي رآه بعينه. وعلى التقديرين فهو إخبار عن تطابق رؤية القلب لرؤية البصر، وتوافقهما، وتصديق كل منهما لصاحبه، وهذا

---

(١) هذا البيت من بحر الكامل، وينسب إلى الأخطل: غياث بن غوث بن الصلت، من بني تغلب وكان نصرانياً وفي شعره إبداع وكان مصقول الألفاظ حسن الديباجة ويعد من أشعر أهل عصره مع جرير والفرزدق مات سنة ٩٠هـ. ذكر هذا البيت الطبري في تفسيره (١/ ٤٨٤) والسيوطي في تنوير الحوالك (١/ ١٨) والزرقاني في شرحه على الموطأ (١/ ٣٧) وابن منظور في اللسان (٦/ ١٥٦) (١٢/ ٣٧) والخطابي في غريب الحديث (٢/ ٣٠٣) وابن الأثير في النهاية في غريب الالحديث والأثر (٤/ ١٥٩).

ظاهر جدا في قراءة التشديد، وقد استشكلها طائفة منهم المبرد، وقال في هذه القراءة بعد قال لأنه إذا رأىٰ بقلبه فقد علمه أيضا بقلبه، وإذا وقع العلم فلا كذب معه، فإنه إذا كان الشيء في القلب معلوما، فكيف يكون معه تكذيب؟

قلت: وجواب هذا من وجهين: (أحدهما): أن الرجل قد يتخيل الشيء علىٰ خلاف ما هو فيكذبه قلبه، إذ يريه صورة المعلوم علىٰ خلاف ما هي عليه كما تكذبه عينه، فيقال كذبه قلبه، وكذبه ظنه، وكذبته عينه، فنفىٰ سبحانه ذلك عن رسوله، وأخبر أن ما رآه الفؤاد فهو كما رآه كمن رأىٰ الشيء علىٰ حقيقة ما هو به، فإنه يصح أن يقال لم تكذبه عينه.

الثاني أن يكون الضمير في رأىٰ عائدًا إلىٰ الرأي لا إلىٰ الفؤاد، ويكون المعنىٰ ما كذب الفؤاد ما رآه البصر، وهذا بحمد الله لا إشكال فيه، والمعنىٰ ما كذب الفؤاد ما رآه البصر، بل صدقه، وعلىٰ القراءتين فالمعنىٰ ما أوهمه الفؤاد أنه رأىٰ ولم ير، ولا اتهم بصره.

ثم أنكر سبحانه عليه مكابرتهم وجحدهم له علىٰ ما رآه، كما ينكر علىٰ الجاهل مكابرته للعالم ومماراته له علىٰ ما عمله، وفيها قراءتان أفتمارونه وأفتمرونه، وهذه المماراة أصلها من الجحد والدفع، يقول مريت الرجل حقه إذا جحدته، كما قال الشاعر:

لئن هجرت أخا صدق ومكرمة   لقد مريت أخـــا ما كان يمريكا[1]

ومنه المماراة، وهي المجادلة والمكابرة، ولهذا عدىٰ هذا الفعل بعلىٰ، وهي علىٰ بابها، وليست بمعنىٰ عن، كما قاله المبرد، بل الفعل متضمن معنىٰ المكابرة، وهذا في قراءة الألف أظهر.

ورجح أبو عبيدة قراءة من قرأ ﴿أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ﴾ [النجم: ١٢] قال: وذلك أن المشركين إنما شأنهم الجحود لما كان يأتيهم من الوحي، وهذا كان أكثر من المماراة منهم يعني

---

(١) هذا البيت ذكره القرطبي في تفسيره (١٧/ ٩٣).

أن من قرأ ﴿ أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ ﴾ فمعناه أفتجادلونه ومن قرأ ﴿ أَفَتُمَرُونَهُۥ ﴾ معناه أفتجحدونه وجحودهم لما جاء به كان هو شأنهم وكان أكثر من مجادلتهم له.

وخالفه أبو علي وغيره، واختاروا قراءة ﴿ أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ ﴾ قال أبو علي: من قرأ أفتمارونه فمعناه، أفتجادلونه جدالا ترومون به دفعه عما علمه وشاهده، ويقوى هذا الوجه قوله تعالى: ﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾ [الأنفال: ٦] ومن قرأ ﴿ أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ ﴾ كان المعنى أفتجحدونه قال، والمجادلة كأنها أشبه في هذا، لأن الجحود كان منهم في هذا وغيره، وقد جادله المشركون في الإسراء.

قلت: القوم جمعوا بين الجدال والدفع والإنكار، فكان جدالهم جدال جحود ودفع، لا جدال استرشاد وتبين للحق وإثبات الألف يدل على المجادلة، والإتيان بعلى يدل على المكابرة، فكانت قراءة الألف منتظمة للمعنيين جميعًا، فهي أولى، وبالله التوفيق.

ثم أخبر سبحانه عن رؤيته لجبريل مرة أخرى عند سدرة المنتهى، فالمرة الأولى كانت دون السماء بالأفق الأعلى، والثانية كانت فوق السماء عند سدرة المنتهى، وقد صح عنه ﷺ أنه جبريل عليه الصلاة والسلام رآه على صورته التي خلق عليها مرتين، كما في الصحيحين عن زر بن حبيش أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم: ٩] قال: أخبرني ابن مسعود. أن النبي ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح. وفي الصحيحين أيضًا عن عبد الله بن مسعود: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ [النجم: ١١] قال: رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح[1]، وقال البخاري عنه: رأى رفرفًا أخضر يسد الأفق[2].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٣٢) ومسلم (رقم ١٧٤) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٠٩-٦١١) وشرح النووي (٣/ ٦-٧).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٣٣) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦١١) وشرح النووي (٣/ ٧).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ قال: رأى جبريل ﷺ[(١)]. وفي صحيحه أيضًا عن مسروق قال: كنت متكئًا عند عائشة فقالت: ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية. قلت: ما هن؟ قالت: من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية. قال: وكنت متكئًا فجلست، فقلت: يا أم المؤمنين انظريني ولا تعجليني، ألم يقل الله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ [التكوير: ٢٣] ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**إنما هو جبريل لم أره على صورته، التي خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطا من السماء سادا عظم خلقه ما بين السماء والأرض**» فقالت: أولم تسمع أن الله ﷻ يقول: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣] أولم تسمع أن الله ﷻ يقول: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى: ٥١]».

قالت: ومن زعم أن محمدًا كتم شيئًا من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية، والله ﷻ يقول: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [المائدة: ٦٧].

قالت ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية، والله ﷻ يقول: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[(٢)] [النمل: ٦٥] ولو كان محمد كاتمًا شيئًا مما أنزل عليه لكتم هذه الآية: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وفي الصحيحين عن مسروق أيضًا قال: سألت عائشة رضي الله عنها: هل رأى

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٧٥) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٠٧-٦٠٩) وشرح النووي (٣/ ٤-٧).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٧٧) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٠٧-٦٠٨).

محمد ربه؟ فقالت سبحان الله! لقد وقف شعري مما قلت[١]. وفيهما أيضًا قال: قلت لعائشة: فأين قوله ﷻ: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم: ٨، ٩] قالت: إنما ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجال، وإنه أتاه في هذه المرة في صورته التي هي صورته فسد الأفق[٢].

وفي صحيح مسلم: أن أبا ذر سأله ﷺ: هل رأيت ربك فقال: «نور أنَّى أراه»[٣] وفي صحيح مسلم أيضا من حديث أبي موسى الأشعري قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: **«إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»**[٤] وهذا الحديث ساقه مسلم بعد حديث أبي ذر المقدم، وهو كالتفسير له.

ولا ينافي هذا قوله في حديث الصحيح. حديث الرؤية يوم القيامة: **«فيكشف الحجاب فينظرون إليه»**[٥]. فإن النور الذي هو حجاب الرب تعالى يراد به الحجاب الأدنى إليه وهو لو كشف لم يقم له شيء.

كما قال ابن عباس في قوله ﷻ: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ قال: ذاك نوره الذي هو نوره، إذا تجلى به لم يقم له شيء، وهذا الذي ذكره ابن عباس يقتضي أن قوله: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ على عمومه وإطلاقه في الدنيا والآخرة، ولا يلزم من ذلك أن لا يرى بل يرى في الآخرة بالأبصار من غير إدراك، وإذا كانت أبصارنا لا تقوم لإدراك الشمس على ما هي عليه، وإن رأتها مع القرب الذي بين المخلوق والمخلوق، فالتفاوت الذي بين أبصار

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٨٥٥) ومسلم (رقم ١٧٧) وانظر: (٨/ ٦٠٧).
(٢) أخرجه البخاري (٣٢٣٥) ومسلم (رقم ١٧٧) وانظر: عمدة القاري (١٥/ ١٤٤).
(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٧٨) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٠٨) وشرح النووي (٣/ ١٢).
(٤) أخرجه مسلم (رقم ١٧٩) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٩٦) وشرح النووي (٣/ ١٣).
(٥) أخرجه مسلم (رقم ١٨١) انظر: فتح الباري (٨/ ٣٤٧) و(١١/ ٤٢٢).

الخلائق وذات الرب جل جلاله أعظم وأعظم، ولهذا لما حصل للجبل أدنى شيء من تجلي الرب تسافى الجبل واندك لسبحات ذلك القدر من التجلي.

وفي الحديث الصحيح المرفوع: «**جنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا راد الكبرياء على وجهه في جنة عدن**»[(١)].

فهذا يدل أن رداء الكبرياء على وجهه تبارك وتعالى هو المانع من رؤية الذات ولا يمنع من أصل الرؤية فإن الكبرياء والعظمة أمر لازم لذاته تعالى فإذا تجلى سبحانه لعباده يوم القيامة وكشف الحجاب بينهم وبينه فهو الحجاب المخلوق، وأما أنوار الذات الذي يحجب عن إدراكها فذاك صفة للذات، لا تفارق ذات الرب جل جلاله، ولو كشف ذلك الحجاب لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه، وتكفي هذه الإشارة في هذا المقام للمصدق الموقن، وأما المعطل الجهمي، فكل هذا عنده باطل ومحال.

والمقصود أن المخبر عنه بالرؤية في سورة النجم هو جبريل.

وأما قول ابن عباس رأى محمد ربه بفؤاده مرتين[(٢)]. فالظاهر أن مستنده هذه الآية، وقد تبين أن المرئي فيها جبريل فلا دلالة فيها على ما قاله ابن عباس، وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي الإجماع على ما قالته عائشة، فقال في نقضه على بشر المريسي في الكلام على حديث ثوبان ومعاذ: أن رسول الله ﷺ قال: «**رأيت ربي البارحة في أحسن صورة**»[(٣)] فحكى تأويل المريسي الباطل، ثم قال: ويلك أن تأويل هذا

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٨٧٨) ومسلم (رقم ١٨٠) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٤٣١-٤٣٢).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٧٦) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٠٨) وشرح النووي (٣/ ٧).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٣٢٣٣) والدارمي (رقم ٢١٤٩) والشيباني في الآحاد والمثاني (٥/ ٤٨ رقم ٢٥٨٥) والطبراني في الكبير (١/ ٣١٧ رقم ٩٣٨) وأبو يعلى (٤/ ٤٧٥ رقم ٢٦٠٨) وأحمد (١/ ٣٦٨) وحسنه الترمذي وصححه الألباني.

الحديث على غير ما ذهبت إليه، أما أن رسول الله ﷺ قال في حديث أبي ذر: «إنه لم ير ربه»[١]. وقال رسول الله ﷺ: «لن تروا ربكم حتى تموتوا»[٢]. وقالت عائشة رضي الله عنها: من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية[٣].

وأجمع المسلمون على ذلك مع قول الله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] يعنون أبصار أهل الدنيا، وإنما هذه الرؤية كانت في المنام، يمكن رؤية الله على كل حال كذلك، وروى معاذ بن جبل عن النبي ﷺ أنه قال: «صليت ما شاء الله من الليل، ثم وضعت جنبي فأتاني ربي في أحسن صورة»، فهذا تأويل هذا الحديث عند أهل العلم، وقد ظن القاضي أبو يعلى أن الرواية اختلفت عن الإمام أحمد: هل رأى رسول الله ربه ليلة الإسراء أم لا؟ على ثلاث روايات:

إحداها: أنه رآه قال المروزي قلت لأبي عبد الله يقولون: إن عائشة قالت: من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية. فبأي شيء يدفع قول عائشة؟ فقال: بقول النبي ﷺ: «رأيت ربي» قول النبي ﷺ أكبر من قولها.

قال: وذكر المروزي في موضع آخر: أنه قال لأبي عبد الله: ههنا رجل يقول: إن الله يرى في الآخرة. ولا أقول إن محمدًا رأى ربه في الدنيا، فغضب، وقال: هذا أهل أن يخفى يسلم الخبر كما جاء، قال: فظاهر هذا أنه أثبت رؤية عين. ونقل حنبل قال:

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١/ ٢٥٤ رقم ٥٨) عن عبد الله بن شقيق العقيلي قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته عن كل شيء. فقال: عن أي شيء كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رأيت ربك؟ فقال: سألته. فقال: رأيت نوراً. قال أبو حاتم: معناه أنه لم ير ربه. ولكن رأى نوراً علوياً من الأنوار المخلوقة. وانظر: الإجابة لما استدركت عائشة (ص ٩٧) وفتح الباري (٨/ ٦٠٧).

(٢) أخرجه الضياء في المختارة (٨/ ٢٦٥ رقم ٣٢٢) والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١٩ رقم ٧٧٦٤) والطبراني في مسند الشاميين (٢/ ١٨٥ رقم ١١٥٧) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٨٤٨) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٨٦ رقم ٤٢٨) وانظر: فتح الباري (١/ ١٢٠) (٨/ ٦٠٨).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٧٧) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٠٧-٦٠٨).

قلت لأبي عبد الله: النبي ﷺ رأىٰ ربه رؤيا حلم بقلبه، قال: فظاهر هذا نفي الرؤية، وكذلك نقل الأثرم وقد سأله عن حديث عبد الرحمن بن عابس عن النبي ﷺ: «رأيت ربي في أحسن صورة» فقال: معمر مضطرب، لأن معمرًا رواه عن أيوب عن معبد عن عبد الرحمن بن عابس عن النبي، ورواه حماد عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس، ورواه يوسف بن عطية عن قتادة عن أنس، ورواه عبد الرحمن بن زيد عن جابر عن خالد بن اللجلاج عن عبد الرحمن بن عابس عن رجل من أصحاب النبي، ورواه يحيىٰ بن أبي كثير، فقال عن ابن عابس عن معاذ عن النبي، وأصل الحديث واحد. قال الأثرم فقلت لأبي عبد الله: فإلىٰ أي شيء تذهب؟ فقال: قال الأعمش عن زياد بن الحصين عن أبي العالية عن ابن عباس قال: رأىٰ محمد ربه بقلبه. ونقل الأثرم: أن رجلًا قال لأحمد عن الحسين الأشيب أنه قال: لم ير النبي ﷺ ربه تعالىٰ، فأنكره عليه إنسان، وقال: لِمَ تقول رأه، ولا تقول بعينه ولا بقلبه، كما جاء الحديث، فاستحسن ذلك الأشيب، فقال أبو عبد الله: حسن قال: وظاهر هذا إثبات رؤية لا يعقل معناها، هل كانت بعينه أم بقلبه، فهذه نصوص أحمد، وقد جعلها القاضي مختلفة، وجعل المسألة علىٰ ثلاث روايات ثم احتج للرواية الأولىٰ بحديث أم الطفيل، وحديث عبد الرحمن بن عابس الحضرمي، ولا دلالة فيهما، لأنها رؤية منام فقط، واحتج لها بما لا يرضىٰ أحمد أن يحتج به، وهو حديث لا يصح عن أبي عبيدة بن الجراح مرفوعًا: «لما كانت ليلة أسري بي رأيت ربي في أحسن صورة، فقال: فيم يختصم الملأ الأعلىٰ؟» وذكر الحديث، وهذا غلط قطعا، فإن القصة إنما كانت بالمدينة، كما قال معاذ بن جبل: احتبس عنا رسول الله ﷺ في صلاة الصبح، حتىٰ كدنا نتراءىٰ عين الشمس، ثم خرج فصلىٰ بنا، ثم قال: «رأيت ربي البارحة في أحسن صورة، فقال: يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلىٰ؟» وذكر الحديث، فهذا كان بالمدينة، والإسراء كان بمكة، وليس عن الإمام أحمد ولا عن النبي ﷺ نص أنه رآه بعينه يقظه، وإنما حمل القاضي كلام أحمد ما لا يحتمله، واحتج لما فهم منه بما لا يدل عليه، وكلام أحمد يصدق

بعضه بعضا. والمسألة رواية واحدة عنه، فإنه لم يقل بعينه، وإنما قال رآه. واتبع في ذلك قول ابن عباس: رأى محمد ربه. ولفظ الحديث: رأيت ربي. وهو مطلق، وقد جاء بيانه في الحديث الآخر.

ولكن في رد أحمد قول عائشة ومعارضته بقول النبي ﷺ إشعار بأنه أثبت الرؤية التي أنكرتها عائشة، وهي لم تنكر رؤية المنام، ولم تقل: من زعم أن محمدًا رأى ربه في المنام فقد أعظم على الله الفرية. وهذا يدل على أحد أمرين: إما أن يكون الإمام أحمد أنكر قول من أطلق نفي الرؤية، إذ هو مخالفته للحديث، وإما أن يكون رواية عنه بإثبات الرؤية، وقد صرح بأنه رآه رؤيا حلم بقلبه، وهذا تقييد منه للرؤية، وأطلق أنه رآه، وأنكر قول من نفى مطلق الرؤية، واستحسن قول من قال: رآه ولا يقول بعينه ولا بقلبه. وهذه النصوص عنه متفقة لا مختلفة، وكيف يقول أحمد رآه بعيني رأسه يقظة، ولم يجئ ذلك في حديث قط، فأحمد إنما اتبع ألفاظ الحديث، كما جاءت، وإنكاره قول من قال لم يره أصلا، لا يدل على إثبات رؤية اليقظة بعينه، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم: ١٧] قال ابن عباس: ما زاغ البصر يمينًا ولا شمالًا، ولا جاوز ما أمر به. وعلى هذا المفسرون، فنفى عن نبيه ما يعرض للرائي الذي لا أدب له بين يدي الملوك والعظماء من التفاته يمينًا وشمالًا ومجاوزة بصره لما بين يديه، وأخبر عنه بكمال الأدب في ذلك المقام، وفي تلك الحضرة، إذ لم يلتفت جانبًا، ولم يمد بصره إلى غير ما أري من الآيات، وما هناك من العجائب، بل قام مقام العبد الذي أوجب أدبه وإطراقه وإقباله على ما أري دون التفاته إلى غيره، ودون تطلعه إلى ما لم يره، مع ما في ذلك من ثبات الجأش، وسكون القلب وطمأنينته، وهذا غاية الكمال. وزيغ البصر: التفاته جانبا. وطغيانه: مده أمامه إلى حيث ينتهي. فنزه في هذه السورة علمه عن الضلال، وقصده وعمله عن الغي، ونطقه عن الهوى، وفؤاده

عن تكذيب بصره وبصره، عن الزيغ والطغيان، وهكذا يكون المدح:

تلك المكارم لا قعبان من لبن ... شيبا بمـــاء فعادا بعـــد أبوالا[(١)]

ولما ذكر رؤيته لجبريل عند سدرة المنتهىٰ استطرد منها، وذكر أن جنة المأوىٰ عندها، وأنه يغشاها من أمره وخلقه ما يغشىٰ، وهذا من أحسن الاستطراد، وهو أسلوب لطيف جدًّا في القرآن، وهو نوعان:

أحدهما: أن يستطرد من الشيء إلا لازمه، مثل هذا، ومثل قوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٩]، ثم استطرد من جوابهم إلىٰ قوله: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۝ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ﴾ [الزخرف: ١٠-١٣]، وهذا ليس من جوابهم، ولكن تقرير له، وإقامة الحجة عليهم، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ۝ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ۝ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ۝ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ [طه: ٤٩-٥٢]، فهذا جواب موسىٰ، ثم استطرد سبحانه منه إلىٰ قوله: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ۝ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه: ٥٣-٥٥]، ثم عاد إلىٰ الكلام الذي استطرد منه.

---

(١) هذا البيت من بحر البسيط، وينسب إلىٰ أمية بن أبي الصلت، شاعر جاهلي حكيم من أهل الطائف، نبذ عبادة الأوثان وأدرك الإسلام ولكنه لم يسلم ومات بعد الهجرة بخمس سنوات. وهذا البيت ذكره ياقوت في معجم البلدان (٤/ ٢١١) والخطابي في غريب الحديث (١/ ١١١) والفسوي في المعرفة والتاريخ (١/ ٣٣٣) والأزرقي في أخبار مكة (ص ١٠٠) والنووي في تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٦٩).

والنوع الثاني: أن يستطرد من الشخص إلى النوع كقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣] إلى آخره، فالأول آدم والثاني بنوه، ومثله قوله: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَـٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَـٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٩، ١٩٠] إلى آخر الآيات فاستطرد من ذكر الأبوين إلى ذكر المشركين من أولادهما، والله أعلم.

***

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾.

[(١)]أسري برسول الله ﷺ - بجسده على الصحيح - مِن المسجد الحرامِ إلى بيتِ المقدس، راكباً على البُراقِ، صُحبة جبريل عليهما الصلاةُ والسَّلام، فنزل هُناكَ، وصَلَّى بالأنبياء إماماً، وربط البُراقَ بحَلْقَةِ بابِ المسجد. وقد قيل: إنه نزل ببيتِ لحمٍ، وصلَّى فيه، ولم يَصِحَّ ذَلكَ عَنْهُ البتة. ثمَّ عُرِجَ بِهِ تِلكَ الليلةَ مِنْ بَيْتِ المقدسِ إلى السَّمَاءِ الدُّنيا، فاستفتح لَهُ جِبْرِيلُ، فَفُتِحَ لَهُ.

فَرَأَىٰ هُنَالِكَ آدَمَ أَبَا البَشَرِ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، ورحَّبَ بِهِ، وَأَقَرَّ بِنبوَّتِه، وَأَرَاهُ الله أرْوَاحَ السُّعَدَاءِ عَنْ يَمِينِهِ، وَأَرْوَاحَ الأَشْقِيَاءِ عَنْ يَسَارِهِ.

ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَاسْتَفْتَحَ لَهُ، فَرَأَىٰ فِيهَا يَحْيَىٰ بن زَكَرِيَّا وَعِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ، فَلَقِيَهُمَا وَسَلَّمَ عَلَيْهِمَا، فَرَدَّا عليه، وَرَحَّبَا بِه، وَأَقَرَّا بِنُبُوَّتِهِ. ثُمَّ عُرج بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَة، فَرأىٰ فيها يوسف، فسلَّمَ عليه، فردَّ عليه، ورحَّبَ به، وأقرّ بنبوتِه. ثُمَّ

(١) ١٢٥ زاد المعاد جـ٢.

عُرِجَ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَرَأَىٰ فِيهَا إِدْرِيسَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَرَحَّبَ بِهِ، وَأَقَرَّ بِنبوَّتِهِ، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ الخَامِسَةِ، فَرَأَىٰ فِيهَا هَارون بْنَ عِمْرَان، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَرَحَّبَ بِهِ، وَأَقَرَّ بِنُبُوَّتِهِ.

ثُمَّ عُرِجُ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَلَقِي فِيهَا مُوسَىٰ بن عِمْرَان، فَسَلَّمَ عَلَيهِ وَرَحَّبَ بِهِ، وَأَقَرَّ بِنُبُوَّتِهِ، فَلَمَّا جَاوَزَهُ، بَكَىٰ مُوسَىٰ، فَقِيلَ لَهُ مَا يُبْكِيكَ ؟ فَقَالَ: أَبْكِي، لأَنَّ غُلاَمَاً بُعِثَ مِنْ بَعْدِي، يَدْخُلُ الجنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ مِمَّا يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي.

ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَلَقِي فِيهَا إِبْرَاهِيمَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَرَحَّبَ بِهِ، وَأَقَرَّ بِنُبُوَّتِهِ، ثُمَّ رُفِع إِلَىٰ سِدْرَةِ المُنْتَهَىٰ، ثُمَّ رُفِعَ لَهُ البَيْتُ المَعْمُورُ، ثُمَّ عُرِجَ بِهِ إِلَىٰ الجبَّارِ جَلَّ جَلالُه، فَدَنَا مِنْهُ حَتَّىٰ كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى. فَأَوْحَىٰ إِلىٰ عَبْدِهِ مَا أوْحَىٰ، وَفَرَضَ عَلَيْهِ خَمْسِينَ صَلاَةً. فَرَجِعَ حَتَّىٰ مَرَّ عَلَىٰ مُوسَىٰ، فَقَالَ لَهُ: بِمَ أُمِرْتَ ؟ قَالَ: بِخَمْسِينَ صَلاَةً، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تُطِيقُ ذَلِكَ، ارْجعْ إِلَىَ رَبِّكَ، فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لأُمَّتِكَ، فالْتَفَتَ إِلَىٰ جِبْرِيلَ كَأَنَّهُ يَسْتَشِيرُهُ في ذلِكَ، فَأَشَارَ أَنْ نَعَمْ إِنْ شِئْتَ، فَعَلاَ بِهِ جِبْرِيلُ حَتَّىٰ أَتَىٰ بِهِ الجَبَّارَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وهُوَ في مَكَانِهِ. هذا لفظُ البخاري في بعض الطرق، فَوَضَعَ عَنْهُ عَشْرَاً، ثُمَّ أُنْزِلَ حَتَّىٰ مَرَّ بِمُوسَىٰ، فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ: ارْجعْ إِلَىٰ رَبِّكَ، فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَرَدَّدُ بَيْنَ مُوسَىٰ وَبَيْنَ اللهِ ﷻ حَتَّىٰ جَعَلَهَا خَمْسَاً، فَأَمَرَهُ مُوسَىٰ بالرُّجُوعِ وَسُؤَالِ التَّخْفِيفِ، فَقَالَ: قَدِ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي، وَلكِنْ أَرْضَىٰ وَأُسلِّمُ، فَلَمَّا بَعُدَ نَادَىٰ مُنَادٍ: قَدْ أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي»(١).

واختلف الصحابةُ: هل رأىٰ ربَّهُ تلك الليلةَ، أم لا؟ فصحَّ عن ابن عَبَّاس أنه رأىٰ ربَّهُ، وصحَّ عنه أنه قال: «رَآهُ بِفُؤَادِهِ». وصحَّ عَنْ عَائِشَةَ وابْن مَسْعُودٍ إِنْكَارُ ذلِكَ، وقَالاَ: إِنَّ قَوْلَه: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: ١٣، ١٤] إِنَّمَا

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٨٨٧) ومسلم (رقم ١٦٢) وانظر: فتح الباري (٧/ ٢١٩-٢١٧) وشرح النووي (٢/ ٢٢١-٢٢٣).

هُوَ جِبْرِيلُ. وَصَحَّ عَنْ أبي ذَرِّ أنَّه سَأَلَهُ: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ فقالَ: «نُورُ أَنَّى أَرَاهُ»[1] أي: حال بيني وبين رؤيته النور، كما قال في لفظ آخر: «رَأَيْتُ نُورَاً». وقد حكى عثمانُ بن سعيد الدَّارمي اتفاقَ الصَّحَابة على أنه لم يره.

قال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية قدَّس الله روحَه: وليس قولُ ابن عباس: «إنه رآه» مناقِضاً لهذا، ولا قولُه: «رآهُ بفُؤاده»[2] وقد صحَّ عنه أنه قال: «رأيتُ ربِّى تَبَارَكَ وتَعَالَى» ولكن لم يكن هذا في الإسراء، ولكن كان في المدينة لما احتُبِسَ عنهم في صلاة الصبح، ثم أخبرهم عن رؤيةِ رَبِّه تبارك وتعالى تِلْكَ اللَّيْلَةَ في منامه، وعلى هذا بنى الإمامُ أحمد رحمه الله تعالى، وقال: «نعم رآه حقاً، فإنَّ رؤيا الأنبياء حق، ولا بُدَّ»، ولكن لم يَقُلْ أحمد رحمه الله تعالى: إنَّه رآهُ بِعَيْنَي رأسِهِ يقظةً، ومَن حكى عنه ذلك، فقد وَهِمَ عليه، ولكن قال مرّة: «رآه»، ومرَّة قال: «رآه بفؤاده»، فَحُكِيَتْ عنه رِوايتان، وحُكِيَت عنه الثالثة مِن تصرُّفِ بعض أصحابه: أنه رآه بعيني رأسه، وهذه نصوصُ أحمد موجودة، ليس فيها ذلك وأمَّا قولُ ابنِ عباس: «إنَّه رآهُ بفُؤادِهِ مرتين»، فإن كان استنادُه إلى قوله تعالى: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ [النجم: ١١]، ثم قال: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ [النجم: ١٣] والظاهر أنه مستندُه، فقد صحَّ عنه ﷺ أن هذا المرئي جبريلُ، رآهُ مرَّتَيْنِ في صُورته التي خُلِقَ عَلَيْهَا، وقول ابن عباس هذا هو مُسْتَنَدُ الإمام أحمد في قوله: رآه بفؤاده، والله أعلم.

وأما قولُهُ تعالى في سورة النجم: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ [النجم: ٨] فهو غير الدُّنو والتَّدلي في قصة الإسراء، فإنَّ الذي في سورة النجم هو دُنُو جبريل وتدلِّيه، كما قالت عائشةُ وابنُ مسعود، والسياقُ يَدُلُّ عليه، فإنه قال: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم: ٥] وهو جبريل ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ [النجم: ٦-٨]،

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٧٨) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٠٨) وشرح النووي (٣/ ١٢).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٧٦) واظر: شرح النووي (٣/ ٧).

فالضمائر كُلُّها راجعة إلىٰ هذا المعلِّم الشديد القوىٰ، وهو ذُو المِرَّة، أي: القوة، وهو الذي استوىٰ بالأفق الأعلىٰ، وهو الذي دنىٰ فتدلَّىٰ، فكان من محمد ﷺ قَدْرَ قوسين أو أدنىٰ، فأما الدُّنُوُّ والتدَّلي الذي في حديث الإسراء، فذلك صريحٌ في أنه دنوُّ الربِّ تبارك وتدلِّيه ولا تَعَرُّض في سورة النجم لِذلك، بل فيها أنه رآه نزلةً أُخرىٰ عِند سِدرةِ المنتهىٰ، وهذا هو جبريلُ، رآهُ محمد ﷺ علىٰ صُورته مرتين: مرة في الأرض، ومرة عند سدرة المنتهىٰ، والله أعلم.

فلما أصبحَ رسولُ الله ﷺ في قومِه، أخبرهم بما أراه اللهُ من آياتِه الكبرىٰ، فاشْتَدَّ تكذيبُهم له، وأذاهُم وضراوتُهم عليه، وسألوه أن يَصِفَ لَهُمْ بَيْتَ المَقْدِسِ، فجلاهُ الله له حَتَّىٰ عَايَنَهُ، فَطَفِقَ يُخبِرُهم عَنْ آياتِهِ، وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ أَن يَرُدُّوا عَلَيْهِ شَيْئًا. وأخبَرَهُم عَنْ عِيرهم في مَسْرَاهُ ورجوعِهِ، وأخبَرَهُم عن وقتِ قُدومِهَا، وأخبَرَهُم عن البعير الذي يَقْدُمُها، وكان الأمرُ كما قال، فلم يزِدْهُم ذلك إلا نفوراً، وأبىٰ الظالمون إلا كُفورًا.

[1]قال الله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم: ٨، ٩]...

الشيخ[2] فهم من الآية: أن الذي دنىٰ فتدلىٰ، فكان ـ من محمد ﷺ قاب قوسين أو أدنىٰ: هو الله ﷻ وهذا ـ وإن قاله جماعة من المفسرين ـ فالصحيح: أن ذلك هو جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ فهو الموصوف بما ذكره من أول السورة إلىٰ قوله: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: ١٣، ١٤] هكذا فسره النبي ﷺ في الحديث الصحيح، قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية؟ فقال: «جبريل، لم أره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين» ولفظ القرآن لا يدل علىٰ غير ذلك من وجوه.

(١) ٣١٩ مدارج جـ٣.

(٢) يعني صاحب المنازل شيخ الإسلام الإمام الهروي رحمه الله. (ج).

أحدها: أنه قال: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ وهذا جبريل الذي وصفه الله بالقوة في سورة التكوير. فقال: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠].

الثاني: أنه قال ذو مرة أي حسن الخلق، وهو الكريم المذكور في التكوير.

الثالث: أنه قال: ﴿ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ وهو ناحية السماء العليا، وهذا استواء جبريل بالأفق الأعلى، وأما استواء الرب جل جلاله فعلى عرشه.

الرابع: أنه قال: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ فهذا دنو جبريل وتدليه إلى الأرض، حيث كان رسول الله ﷺ، وأما الدنو والتدلي في حديث المعراج فرسول الله ﷺ كان فوق السموات، فهناك دنى الجبار جل جلاله منه وتدلى، فالدنو والتدلي في الحديث غير الدنو والتدلي في الآية، وإن اتفقا في اللفظ.

الخامس: أنه قال: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ والمرئي عند السدرة هو جبريل قطعًا، وبهذا فسره النبي ﷺ، فقال لعائشة: «ذاك جبريل».

السادس: أن مفسر الضمير في قوله: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ ﴾ وفي قوله: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ وفي قوله: ﴿ فَٱسْتَوَىٰ ﴾ وفي قوله: ﴿ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ واحد، فلا يجوز أن يخالف بين المفسِّر والمفسَّر من غير دليل.

السابع: أنه سبحانه ذكر في هذه السورة الرسولين الكريمين الملكي والبشري، ونزه البشرى عن الضلال والغواية، ونزه الملكي عن أن يكون شيطانا قبيحا ضعيفا، بل هو قوي كريم حسن الخلق، وهذا نظير الوصف المذكور في سورة التكوير سواء.

الثامن: أنه أخبر هناك أنه رآه بالأفق المبين، وههنا أخبر أنه رآه بالأفق الأعلى، وهو واحد وصف بصفتين، فهو مبين وهو أعلى، فإن الشيء كلما علا بان وظهر.

التاسع: أنه قال: ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ والمرة الخلق الحسن المحكم، فأخبر عن حسن خلق الذي علم النبي ﷺ، ثم ساق الخبر كله عنه نسقًا واحدًا.

العاشر: أنه لو كان خبرًا عن الرب تعالىٰ لكان القرآن قد دل علىٰ أن رسول الله ﷺ رأىٰ ربه سبحانه مرتين مرة بالأفق ومرة عند السدرة، ومعلوم أن الأمر لو كان كذلك لم يقل النبي ﷺ لأبي ذر وقد سأله: هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أَنَّىٰ أراه»؟ فكيف يخبر القرآن أنه رآه مرتين، ثم يقول رسول الله ﷺ «أَنَّىٰ أراه»، وهذا أبلغ من قوله لم أره، لأنه مع النفي يقتضي الإخبار عن عدم الرؤية فقط، وهذا يتضمن النفي وطرفا من الإنكار علىٰ السائل، كما إذا قال لرجل هل كان كيت وكيت؟ فيقول: كيف يكون ذلك؟!

الحادي عشر: أنه لم يتقدم للرب جل جلاله ذكر يعود الضمير عليه في قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾، والذي يعود الضمير عليه لا يصلح له، وإنما هو لعبده.

الثاني عشر: أنه كيف يعود الضمير إلىٰ ما لم يذكر، ويترك عوده إلىٰ المذكور مع كونه أولىٰ به.

الثالث عشر: أنه قد تقدم ذكر صاحبكم، وأعاد عليه الضمائر التي تليق به، ثم ذكر بعده شديد القوىٰ ذا المرة. وأعاد عليه الضمائر التي تليق به، والخبر كله عن هذين المفسرين، وهما الرسول الملكي والرسول البشري.

الرابع عشر: أنه سبحانه أخبر أن هذا الذي دنىٰ فتدلىٰ كان بالأفق الأعلىٰ وهو أفق السماء، بل هو تحتها قد دنىٰ من رسول رب العالمين، ودنو الرب تعالىٰ وتدليه علىٰ ما في حديث شريك كان من فوق العرش لا إلىٰ الأرض.

الخامس عشر: أنهم لم يماروه صلوات الله وسلامه عليه علىٰ رؤية ربه، ولا أخبرهم بها لتقع مماراتهم له عليها، وإنما ماروه علىٰ رؤية ما أخبرهم من الآيات التي أراه الله إياها، ولو أخبرهم الرب تعالىٰ لكانت مماراتهم له عليها أعظم من مماراتهم علىٰ رؤية المخلوقات.

السادس عشر: أنه سبحانه قرر صحة ما رآه الرسول، وأن مماراتهم له علىٰ ذلك

باطلة بقوله: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٨] فلو كان المرئي هو الرب ﷻ والمماراة على ذلك منهم لكان تقرير تلك الرؤية أولى، والمقام إليها أحوج، والله أعلم.

***

﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝ ﴾.

(١) قال الله تعالى مخبرًا عن كمال أدب رسوله [في] ليلة الإسراء: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾، وهذا غاية الأدب، فإن البصر لم يزغ يمينًا و[لا] شمالًا، ولا طمح متجاوزًا إلى ما هو رائيه ومقبل عليه: كالمتشارف إلى ما وراء ذلك، ولهذا اشتد نهي النبي ﷺ للمصلي أن يزيغ بصره إلى السماء، وتوعدهم على ذلك بخطف أبصارهم، إذ هذا من كمال الأدب مع من المصلي، واقف بين يديه، بل ينبغي له أن يقف ناكس الرأس مطرقًا إلى الأرض، ولولا أن عظمة رب العالمين سبحانه فوق سماواته على عرشه لم يكن فرق بين النظر إلى فوق أو إلى أسفل.

(٢) وجرت عادة القوم: أن يذكروا في هذا المقام قوله تعالى عن نبيه ﷺ حين أراه ما أراه: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم: ١٧] وأبو القاسم القشيري صدر باب الأدب بهذه الآية، وكذلك غيره.

وكأنهم نظروا إلى قول من قال من أهل التفسير: إن هذا وصف لأدبه ﷺ في ذلك المقام، إذ لم يلتفت جانبًا، ولا تجاوز ما رآه، وهذا كمال الأدب، والإخلال به: أن يلتفت الناظر عن يمينه وعن شماله، أو يتطلع أمام المنظور، فالالتفات زيغ، والتطلع إلى ما أمام المنظور: طغيان ومجاوزة، فكمال إقبال الناظر على المنظور: أن لا يصرف بصره عنه يمنة ولا يسرة، ولا يتجاوزه.

---

(١) ٢٨٢ روضة المحبين.

(٢) ٣٨٢ مدارج جـ٢.

هذا معنى ما حصلته عن شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه.

وفي هذه الآية أسرار عجيبة، وهي من غوامض الآداب اللائقة بأكمل البشر ﷺ: تواطأ هناك بصره وبصيرته، وتوافقا وتصادقا فيما شاهده بصره، فالبصيرة مواطئة له، وما شاهدته بصيرته فهو أيضًا حق مشهوده بالبصر، فتواطأ في حقه مشهد البصر والبصيرة.

ولهذا قال ﷻ: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ [النجم: ١١، ١٢] أي ما كذب الفؤاد ما رآه ببصره.

ولهذا قرأها أبو جعفر: «وما كذب الفؤاد ما رأى» ـ بتشديد الذال ـ أي لم يكذب الفؤاد البصر، بل صدقه وواطأه لصحة الفؤاد والبصر، أو استقامة البصيرة والبصر، وكون المرئي المشاهد بالبصر والبصيرة حقًا.

وقرأ الجمهور «ما كذب الفؤاد» بالتخفيف، وهو متعد، و«ما رأى» مفعوله: أي ما كذب قلبه ما رأته عيناه، بل واطأه ووافقه، فلمواطأة قلبه لقالبه، وظاهره لباطنه، وبصره لبصيرته: لم يكذب الفؤاد البصر، ولم يتجاوز البصر حده فيطغى، ولم يمل عن المرئي فيزيغ، بل اعتدل البصر نحو المرئي ما جاوزه ولا مال عنه، كما اعتدل القلب في الإقبال على الله والإعراض عما سواه، فإنه أقبل على الله بكليته، وللقلب زيغ وطغيان كما للبصر زيغ وطغيان، وكلاهما منتف عن قلبه وبصره، فلم يزغ قلبه التفاتا عن الله إلى غيره ولم يطغ بمجاوزته مقامه الذي أقيم فيه وهذا غاية الكمال والأدب مع الله الذي لا يلحقه فيه سواه.

فإن عادة النفوس إذا أقيمت في مقام عال رفيع: أن تتطلع إلى ما هو أعلى منه وفوقه، ألا ترى إلى موسى ﷺ لما أقيم في مقام التكليم والمناجاة: طلبت نفسه الرؤية ونبينا ﷺ لما أقيم في ذلك المقام وفاه حقه: فلم يلتفت بصره ولا قلبه إلى غير ما أقيم فيه البتة؟

ولأجل هذا ما عاقه عائق ولا وقف به مراد، حتى جاوز السموات السبع، حتى عاتب موسى ربه فيه، وقال: «يقول بنو إسرائيل: إني كريم الخلق على الله، وهذا قد

جاوزني وخلفني علوا، فلو أنه وحده ولكن معه كل أمته». وفي رواية للبخاري: «فلما جاوزه بكى قيل: ما يبكيك قال: أبكي أن غلاما بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي»(١) ثم جاوزه علوا فلم تعقه إرادة، ولم تقف به دون كمال العبودية همة.

ولهذا كان مركوبه في مسراه يسبق خطوه الطرف، فيضع قدمه عند منتهى طرفه، مشاكلًا لحال راكبه، وبعد شأوه الذي سبق به العالم أجمع في سيره، فكان قدم البراق لا يختلف عن موضع نظره، كما كان قدمه لا يتأخر عن محل معرفته.

فلم يزل ﷺ في خفارة كمال أدبه مع الله سبحانه وتكميل مراتب عبوديته له حتى خرق حجب السموات، وجاوز السبع الطباق، وجاور سدرة المنتهى، ووصل إلى محل من القرب سبق به الأولين والآخرين، فانصبت إليه هناك أقسام القرب انصبابًا، وانقشعت عنه سحائب الحجب ظاهرًا وباطنًا حجابًا حجابًا، وأقيم مقامًا غبطه به الأنبياء والمرسلون، فإذا كان في المعاد أقيم مقاما من القرب ثانيا يغبطه به الأولون والآخرون، واستقام هناك على صراط مستقيم من كمال أدبه مع الله، ما زاغ البصر عنه وما طغى، فأقامه في هذا العالم على أقوم صراط من الحق والهدى، وأقسم بكلامه على ذلك في الذكر الحكيم، فقال تعالى: ﴿ يسٓ ۝ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ﴾ [يس: ١-٤] فإذا كان يوم المعاد أقامه على الصراط يسأله السلامة لأتباعه وأهل سنته، حتى يجوزونه إلى جنات النعيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

(٢)وسئل ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ فقال: «إنما هو جبريل ﷺ لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين» ذكره مسلم.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٨٨٧) وانظر: فتح الباري (٧/ ٢١١).

(٢) ٢٧٠ أعلام جـ٤.

[(١)]وقال تعالىٰ في وصفه: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴾ [النجم: ٥، ٦] قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ذو منظر حسن» وقال قتادة: «ذو خلق حسن» وقال ابن جرير: «عنىٰ بالمِرَّة صحة الجسم وسلامته من الآفات والعاهات، والجسم إذا كان كذلك من الإنسان كان قويًّا».

والمرة واحدة المرر، وإنما أريد به ذو مرة سوية، ومنه قول النبي ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني، ولا لذي مِرَّة سَوِيٍّ»[(٢)].

قلت: هذا حجة من قال: المرة القوة في الآية، وهو قول مجاهد وابن زيد، وهو قول ضعيف، لأنه قد وصفه قبل ذلك بأنه (شديد القوىٰ).

ولا ريب أن المرة في الحديث هي القوة، لا المنظر الحسن، فإما أن يقال: المرة تقال علىٰ هذا وعلىٰ هذا، وإما أن يقال ـ وهو الأظهر ـ: إن المرة هي الصحة والسلامة من الآفات والعاهات الظاهرة والباطنة، وذلك يستلزم كمال الخلقة وحسنها وجمالها، فإن العاهة والآفة إنما تكون من ضعف الخلقة والتركيب، فهي قوة وصحة تتضمن جمالًا وحسنًا، والله تعالىٰ أعلم.

***

﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ۝ ﴾.

[(٣)]إنه سبحانه سمىٰ الحجة العلمية سلطانًا، قال ابن عباس رضي الله عنه كل سلطان في القرآن فهو حجة، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ

---

(١) ١٢٩ إغاثة جـ٢.

(٢) أخرجه ابن حبان (٨/ ١٨٧ رقم ٣٣٩٤) وابن خزيمة (٤/ ٧٨ رقم ٢٣٨٧) والنسائي في الكبرىٰ (٢/ ٥٤ رقم ٢٣٧٨) وأبو داود (رقم ١٦٣٤) والترمذي (رقم ٦٥٢) وحسنه والحاكم (١/ ٥٦٥ رقم ١٤٧٧) وقال: هذا حديث علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٣) ٥٨ مفتاح جـ١.

مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [يونس: ٦٨] يعني ما عندكم من حجة بما قلتم إن هو إلا قول على الله بلا علم.

وقال تعالى: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ [النجم: ٢٣] يعني ما أنزل بها حجة ولا برهانا، بل هي من تلقاء أنفسكم وآبائكم، وقال تعالى: ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الصافات: ١٥٦، ١٥٧] يعني حجة واضحة فائتوا بها إن كنتم صادقين في دعواكم إلا موضعًا واحدًا اختلف فيه، وهو قوله: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩] فقيل: المراد به القدرة والملك، أي ذهب عني مالي وملكي، فلا مال لي ولا سلطان. وقيل: هو على بابه، أي انقطعت حجتي، وبطلت، فلا حجة لي.

والمقصود: إن الله سبحانه سمى علم الحجة سلطانا، لأنها توجب تسلط صاحبها واقتداره، فله بها سلطان على الجاهلين، بل سلطان العلم أعظم من سلطان اليد، ولهذا ينقاد الناس للحجة ما لا ينقادون لليد، فإن الحجة تنقاد لها القلوب، وأما اليد فإنما ينقاد لها البدن، فالحجة تأسر القلب وتقوده وتذل المخالف، وإن أظهر العناد والمكابرة، فقلبه خاضع لها، ذليل مقهور، تحت سلطانها، بل سلطان الجاه إن لم يكن معه علم يساس به، فهو بمنزلة سلطان السباع والأسود ونحوها، قدرة بلا علم ولا رحمة، بخلاف سلطان الحجة، فإنه قدرة بعلم ورحمة وحكمة، ومن لم يكن له اقتدار في علمه، فهو إما لضعف حجته وسلطانه، وإما لقهر سلطان اليد والسيف له، وإلا فالحجة ناصرة نفسها، ظاهرة على الباطل قاهرة له.

***

﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾.

[(١)]أما اللمم فهو طرف من الجنون، ورجل ملموم أي به لمم، ويقال أيضًا: أصابت فلانًا من الجن لمة، وهو المس، والشيء القليل، قاله الجوهري.

قلت: وأصل اللفظة من المقاربة، ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ [النجم: ٣٢] وهي الصغائر، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما رأيت أشبه باللمم مما قال أبو هريرة ﷺ: إن العين تزني وزناها النظر، واليد تزني وزناها البطش، والرجل تزني وزناها المشي، والفم يزني وزناه القبل[(٢)]، ومنه ألمَّ بكذا أي قاربه ودنا منه، وغلامٌ ملم أي قارب البلوغ، وفي الحديث: «**إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطًا أو يلم**»[(٣)]، أي يقرب من ذلك.

[(٤)]وتوبة العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها، وتوبة منه بعدها، فتوبته بين توبتين من ربه: سابقة ولاحقة، فإنه تاب عليه أولًا إذنًا وتوفيقًا، وإلهامًا، فتاب العبد، فتاب الله عليه ثانيًا: قبولًا وإثابة...

[(٥)]الذنوب تنقسم إلى: صغائر وكبائر، بنص القرآن، والسنة، وإجماع السلف، وبالاعتبار، قال الله تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ [النساء: ٣١] وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ [النجم: ٣٢] وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن، إذا اجتنبت الكبائر**»[(٦)]. وأما ما يحكى عن

---

(١) ٥٠ روضة المحبين.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٢٤٣) ومسلم (رقم ٢٦٥٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٦) وشرح النووي (١٦/ ٢٠٥).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ١٤٦٥) ومسلم (رقم ١٠٥٢) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٤٧-٢٤٨) وشرح النووي (٧/ ١٤١-١٤٣).

(٤) ٣١٢ مدارج جـ١.

(٥) ٣١٥ مدارج جـ١.

(٦) أخرجه مسلم (رقم ٢٣٣) وانظرك فتح الباري (٤/ ١١١).

أبي إسحاق الإسفرائيني أنه قال: الذنوب كلها كبائر، وليس فيها صغائر، فليس مراده: أنها مستوية في الإثم، بحيث يكون إثم النظر المحرم، كإثم الوطء في الحرام، وإنما المراد: أنها بالنسبة إلى عظمة من عصي بها كلها كبائر، ومع هذا فبعضها أكبر من بعض، ومع هذا فالأمر في ذلك لفظي لا يرجع إلى معنى.

والذي جاء في لفظ الشارع تسمية ذلك «لممًا» و«محقرات»، كما في الحديث: «إياكم ومحقرات الذنوب» وقد قيل: إن «اللمم» المذكور في الآية من الكبائر، حكاه البغوي. وغيره. قالوا: ومعنى الاستثناء: أن يلم بالكبيرة مرة، ثم يتوب منها، ويقع فيها ثم ينتهي عنها، لا يتخذها دأبه، وعلى هذا يكون استثناء «اللمم»: من الاجتناب، إذ معناه: لا يصدر منهم، ولا تقع منهم الكبائر إلا لممًا.

والجمهور على أنه استثناء من الكبائر، وهو منقطع أي لكن يقع منهم اللمم. وحسن وقوع الانقطاع بعد الإيجاب، والغالب خلافه: أنه إنما يقع حيث يقع التفريغ، إذ في الإيجاب هنا معنى النفي صريحا، فالمعنى: لا يأتون ولا يفعلون كبائر الإثم والفواحش، فحسن استثناء اللمم.

ولعل هذا الذي شجع أبا إسحاق على أن قال: الذنوب كلها كبائر، إذ الأصل في الاستثناء الاتصال ولا سيما وهو من موجب.

ولكن النصوص وإجماع السلف على انقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر. ثم اختلفوا في فصلين أحدهما: في «اللمم» ما هو؟ والثاني: في «الكبائر»، وهل لها عدد يحصرها أو حد يحدها، فلنذكر شيئا يتعلق بالفصلين.

فأما «اللمم» فقد روي عن جماعة من السلف: أنه الإلمام بالذنب مرة ثم لا يعود إليه، وإن كان كبيرًا. قال البغوي: هذا قول أبي هريرة ومجاهد والحسن ورواية عطاء عن ابن عباس قال: وقال عبدالله بن عمرو بن العاص: «اللمم ما دون الشرك» قال السدي: قال أبو صالح: سئلت عن قول الله ﷻ: ﴿ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ فقلت: «هو الرجل يلم بالذنب ثم لا

يعاوده»، فذكرت ذلك لابن عباس، فقال: «لقد أعانك عليها ملك كريم».

والجمهور: على أن «اللمم» ما دون الكبائر، وهو أصح الروايتين عن ابن عباس، كما في صحيح البخاري من حديث طاوس عنه قال: «ما رأيت أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان: النطق، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»[(١)] رواه مسلم من حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة، وفيه: «والعينان زناهما: النظر، والأذنان: زناهما الاستماع، واللسان: زناه الكلام، واليد: زناها البطش، والرجل: زناها الخطى»[(٢)].

وقال الكلبي: «اللمم» على وجهين: كل ذنب لم يذكر الله عليه حدًّا في الدنيا ولا عذابًا في الآخرة، فذلك الذي تكفره الصلوات الخمس، ما لم يبلغ الكبائر والفواحش. والوجه الآخر: هو الذنب العظيم يلم به المسلم المرة بعد المرة، فيتوب منه. وقال سعيد بن المسيب: هو ما ألم بالقلب أي ما خطر عليه.

قال الحسين بن الفضل: «اللمم» النظر من غير تعمد فهو مغفور، فإن أعاد النظر فليس بلمم وهو ذنب، وقد روى عطاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ:

إن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك لا ألما[(٣)]

وذهبت طائفة ثالثة إلى أن «اللمم» ما فعلوه في الجاهلية قبل إسلامهم، فالله لا

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٢٤٣) ومسلم (رقم ٢٦٥٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٦) وشرح النووي (١٦/ ٢٠٥).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٥٧).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٣٢٨٤) والبيهقي في الشعب (٥/ ٣٩٢ رقم ٧٠٥٥) وفي السنن الكبرى (١٠/ ١٨٥ رقم ٢٠٥٣٣) والحاكم (٤/ ٢٧٤ رقم ٧٦٢٠) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١١٥): رواه البزار ورجاله رجال الصحيح.

يؤاخذهم به، وذلك أن المشركين قالوا للمسلمين: «أنتم بالأمس كنتم تعملون معنا. فأنزل الله هذه الآية» وهذا قول زيد بن ثابت وزيد بن أسلم.

والصحيح: قول الجمهور: إن اللمم صغائر الذنوب: كالنظرة والغمزة والقبلة ونحو ذلك، هذا قول جمهور الصحابة ومن بعدهم، وهو قول أبي هريرة وعبدالله بن مسعود وابن عباس ومسروق والشعبي، ولا ينافي هذا قول أبي هريرة وابن عباس في الرواية الأخرى: «إنه يلم بالكبيرة، ثم لا يعود إليها»، فإن «اللمم» إما أنه يتناول هذا وهذا، ويكون على وجهين، كما قال الكلبي، أو أن أبا هريرة وابن عباس ألحقا من ارتكب الكبيرة مرة واحدة ولم يصر عليها، بل حصلت منه فلتة في عمره باللمم، ورأيا أنها إنما تتغلظ وتكبر وتعظم في حق من تكررت منه مرارا عديدة، وهذا من فقه الصحابة ﷺ وغور علومهم.

ولا ريب أن الله يسامح عبده المرة والمرتين والثلاث، وإنما يخاف العنت على من اتخذ الذنب عادته، وتكرر منه مرارا كثيرة، وفي ذلك آثار سلفية، والاعتبار بالواقع يدل على هذا.

ويذكر عن علي ﷺ: أنه «دفع إليه سارق فأمر بقطع يده، فقال: يا أمير المؤمنين والله ما سرقت غير هذه المرة، فقال: كذبت فلما قطعت يده قال: اصدقني كم لك بهذه المرة. فقال: كذا وكذا مرة؟ فقال: صدقت إن الله لا يؤاخذ بأول ذنب»، أو كما قال فأول ذنب إن لم يكن هو اللمم فهو من جنسه ونظيره، فالقولان عن أبي هريرة وابن عباس متفقان غير مختلفين، والله أعلم.

وهذه اللفظة فيها معنى المقاربة والإعتاب بالفعل حينا بعد حين، فإنه يقال: ألمّ بكذا إذا قاربه ولم يغشه، ومن هذا سميت القبلة والغمزة لمما، لأنها تلم بما بعدها، ويقال: فلان لا يزورنا إلا لماما، أي حينا بعد حين، فمعنى اللفظة ثابت في الوجهين اللذين فسر الصحابة بهما الآية، وليس معنى الآية ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ

وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾، فإنهم لا يجتنبونه، فإن هذا يكون ثناء عليهم بترك اجتناب اللمم، وهذا محال، وإنما هذا استثناء من مضمون الكلام، ومعناه فان سياق الكلام في تقسيم الناس إلى محسن ومسيء، وأن الله يجزي هذا بإساءته وهذا بإحسانه، ثم ذكر المحسنين ووصفهم بأنهم يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، ومضمون هذا: أنه لا يكون محسنا مجزيا بإحسانه ناجيا من عذاب الله، إلا من اجتنب كبائر الإثم والفواحش، فحسن حينئذ استثناء اللمم، وإن لم يدخل في الكبائر، فإنه داخل في جنس الإثم والفواحش.

وضابط الانقطاع: أن يكون له دخول في جنس المستثنى منه، وإن لم يدخل في نفسه ولم يتناوله لفظه كقوله تعالى: ﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمًا ﴾ [مريم: ٦٢]، فإن السلام داخل في الكلام الذي هو جنس اللغو والسلام، وكذلك قوله: ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ [النبأ: ٢٤، ٢٥]، فإن الحميم والغساق داخل في جنس الذوق المنقسم، فكأنه قيل في الأول: لا يسمعون فيها شيئًا إلا سلامًا. وفي الثاني: لا يذوقون فيها شيئا إلا حميمًا وغساقًا. ونص على فرد من أفراد الجنس تصريحا، ليكون نفيه بطريق التصريح والتنصيص لا بطريق العموم، الذي يتطرق إليه تخصيص هذا الفرد، وكذلك قوله: ﴿ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ﴾ [النساء: ١٥٧]، فإن الظن داخل في الشعور الذي هو جنس العلم والظن.

وأدق من هذا: دخول الانقطاع فيما يفهمه الكلام بلازمه كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢] إذ مفهوم هذا: أن نكاح منكوحات الآباء سبب للعقوبة إلا ما قد سلف منه قبل التحريم، فإنه عفو: ﴿ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣] وإن كان المراد به: ما كان في شرع من تقدم فهو استثناء من القبح المفهوم من ذلك التحريم والذم لمن فعله، فحسن أن يقال: «إلا ما قد سلف». فتأمل هذا فإنه من فقه العربية....

[(١)]وأما الكبائر: فاختلف السلف فيها اختلافا لا يرجع إلى تباين وتضاد، وأقوالهم متقاربة. وفي الصحيحين من حديث الشعبي عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس»[(٢)]. وفيهما عن عبدالرحمن بن أبي بكرة عن أبيه عن النبي ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» ثلاثًا قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين» وجلس وكان متكئًا فقال: «ألا وقول الزور» فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت[(٣)].

وفي الصحيح من حديث أبي وائل عن عمرو بن شرحبيل عن عبدالله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندًا وهو خلقك» قال قلت: ثم أيّ؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك» قال: قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني بحليلة جارك»، فأنزل الله تعالى تصديق قول النبي ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾[(٤)] [الفرقان: ٦٨].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»[(٥)].

وروى شعبة عن سعد بن إبراهيم: سمعت حميد بن عبد الرحمن يحدث عن عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «من أكبر الكبائر: أن يسب الرجل

(١) ٣٢٠ مدارج جـ١.
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٨٧٠).
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٦٥٤) ومسلم (رقم ٨٧).
(٤) أخرجه البخاري (رقم ٤٤٧٧) ومسلم (رقم ٨٦) وانظر: فتح الباري (٨/ ٤٩٣-٤٩٤) وشرح النووي (٢/ ٨٠).
(٥) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٦٦) ومسلم (رقم ٨٩) وانظر: فتح الباري (١٢/ ١٨٢) وشرح النووي (٢/ ٨٣-٨٦).

والديه» قالوا: وكيف يسب الرجل والديه؟ قال: «يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه»[١]. وفي حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ: قال: «إن من أكبر الكبائر: استطالة الرجل في عرض أخيه المسلم بغير حق»[٢].

وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: «أكبر الكبائر: الشرك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله»[٣].

قال سعيد بن جبير: سأل رجل ابن عباس عن الكبائر: أسبع هن؟ قال: «هن إلى السبعمائة أقرب، إلا أنه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار»[٤] وقال: «كل شيء عصي الله به فهو كبيرة[٥] من عمل شيئا منها فليستغفر الله، فإن الله لا يخلد في النار من الأمة إلا من كان راجعًا عن الإسلام أو جاحدًا فريضة أو مكذبا بالقدر».

وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: «مـا نهى الله عنه في سورة النساء من أولها إلى قولـه: ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ [النساء: ٣١] فهو كبيرة»[٦] وقال علي بن أبي طلحة: هي كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب[٧].

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٩٠) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٠٤) وشرح النووي (٢/ ٨٣-٨٤).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/٤٤٨ رقم ٢٢٠٠٥) وعبدالرزاق (٨/ ٣١٤ رقم ١٥٣٤٥) والطبراني في الأوسط (٨/ ١٥٨ رقم ٧١٥١) وهناد في الزهد (٢/ ٥٦٤ رقم ١١٧٦) وابن أبي الدنيا في الصمت (رقم ٧٢٧).

(٣) أخرجه عبدالرزاق (١٠/ ٤٥٩ رقم ١٩٧٠١) والطبراني في الكبير (٩/ ١٥٦ رقم ٨٧٨٤) والبيهقي في الشعب (٢/ ٢٠ رقم ١٠٥٠) وصحح إسناده الهيثمي في المجمع (١/ ١٠٤) وانظر: فتح الباري (١٢/ ١٨٣).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٥/ ٤١) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ١٩١٩) وانظر: شرح النووي (٢/ ٨٤).

(٥) أخرجه البيهقي في الشعب (١/ ٢٧٣ رقم ٢٩٣) عن عبيدة، وانظر: التمهيد (١٥/ ١٢).

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره (٥/ ٣٧).

(٧) أخرجه الطبري في تفسيره (٥/ ٤١) والبيهقي في الشعب (١/ ٢٧٠-٢٧١ رقم ٢٩٠) عن ابن عباس، وانظر: صيانة صحيح مسلم (ص ٢٦٥) وفتح الباري (١٠/ ٤١٠).

وقال الضحاك: هي ما أوعد الله عليه حدا في الدنيا أو عذابا في الآخرة.

وقال الحسين بن الفضل: ما سماه الله في القرآن كبيرًا أو عظيما، نحو قوله: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ [النساء: ٢] ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٣١] ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣] ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف: ٢٨] ﴿ سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٦] ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

***

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾.

[1]أخبر أنه ليس على أحد في وزر غيره شيء، وأنه لا يستحق إلا ما سعاه، وأن هذا هو العدل الذي نزه نفسه عن خلافه.

[2]هل تنتفع أرواح الموتى بشيء من سعي الأحياء أم لا؟

فالجواب: إنها تنتفع من سعي الأحياء بأمرين مجمع عليهما بين أهل السنة من الفقهاء وأهل الحديث والتفسير: (أحدهما) ما تسبب إليه الميت في حياته. (والثاني) دعاء المسلمين له واستغفارهم والصدقة والحج على نزاع ما الذي يصل من ثوابه: هل هو ثواب الإنفاق أو ثواب العمل؟ فعند الجمهور يصل ثواب العمل نفسه، وعند بعض الحنفية إنما يصل ثواب الإنفاق.

واختلفوا في العبادة البدنية: كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر؛ فمذهب الإمام أحمد وجمهور السلف: وصولها، وهو قول بعض أصحاب أبي حنيفة، نص على هذا الإمام أحمد في رواية محمد بن يحيى الكحال قال: قيل لأبي عبد الله: الرجل

(١) ١٠٨ مفتاح جـ٢.

(٢) ١٤٥ الروح.

يعمل الشيء من الخير من صلاة أو صدقة أو غير ذلك، فيجعل نصفه لأبيه أو لأمه؟ قال: أرجو، أو قال: الميت يصل إليه كل شيء من صدقة أو غيرها، وقال أيضًا: اقرأ آية الكرسي ثلاث مرات، وقل هو الله أحد، وقل: اللهم إن فضله لأهل المقابر.

والمشهور من مذهب الشافعي ومالك: أن ذلك لا يصل، وذهب بعض أهل البدع من أهل الكلام: أنه لا يصل إلى الميت شيء البتة لا دعاء ولا غيره.

[(١)] إن الموت معاد وبعث أول، فإن الله ﷻ جعل لابن آدم معادين وبعثين، يجزي فيهما الذين أساءوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، فالبعث الأول مفارقة الروح للبدن ومصيرها إلى دار الجزاء الأول.

والبعث الثاني يوم يرد الله الأرواح إلى أجسادها ويبعثها من قبورها إلى الجنة أو النار! وهو الحشر الثاني، ولهذا في الحديث الصحيح: «**وتؤمن بالبعث الآخر**»[(٢)] فإن البعث الأول لا ينكره أحد وإن أنكر كثير من الناس الجزاء فيه والنعيم والعذاب، وقد ذكر الله ﷻ هاتين القيامتين، وهما الصغرى والكبرى في سورة المؤمنين وسورة الواقعة وسورة القيامة وسورة المطففين وسورة الفجر وغيرها من السور، وقد اقتضى عدله وحكمته أن جعلها داري جزاء المحسن والمسيء، ولكن توفية الجزاء إنما يكون يوم المعاد الثاني في دار القرار، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقد اقتضى عدله وأوجبت أسماؤه الحسنى وكماله المقدس تنعيم أبدان أوليائه وأرواحهم، وتعذيب أبدان أعدائه وأرواحهم، فلابد أن يذيق بدن المطيع له وروحه من النعيم واللذة ما يليق به، ويذيق بدن الفاجر العاصي له وروحه من الألم والعقوبة ما يستحقه، هذا موجب عدله وحكمته وكماله المقدس.

ولما كانت هذه الدار دار تكليف وامتحان لا دار جزاء، لم يظهر فيها ذلك، وأما

---

(١) ٩١ الروح.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٧٧٧) ومسلم (رقم ٩، ١٠) وانظر: شرح النووي (١/ ١٦٢).

البرزخ فأول دار الجزاء، فظهر فيها من ذلك ما يليق بتلك الدار، وتقتضي الحكمة إظهاره، فإذا كان يوم القيامة الكبرىٰ وفي أهل الطاعة وأهل المعصية ما يستحقونه من نعيم الأبدان والأرواح وعذابهما، فعذاب البرزخ ونعيمه أول عذاب الآخرة ونعيمها، وهو مشتق منه، وواصل إلىٰ أهل البرزخ هناك، كما دل عليه القرآن والسنة الصحيحة الصريحة في غير موضع(١).

(٢)فالدليل علىٰ انتفاعه بما تسبب إليه في حياته ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاث: من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»(٣).

فاستثناء هذه الثلاث من عمله يدل علىٰ أنها منه، فإنه هو الذي تسبب إليها، وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول لله ﷺ: «**إنما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علمًا علمه ونشره، أو ولدًا صالحًا تركه، أو مصحفًا ورثه، أو مسجدًا بناه، أو بيتًا لابن السبيل بناه، أو نهرًا إكراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته، تلحقه من بعد موته**»(٤)، وفي صحيح مسلم أيضًا من حديث جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء. ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**»(٥) وهذا المعنىٰ روي عن النبي ﷺ من عدة وجوه صحاح وحسان، وفي المسند عن حذيفة قال: سأل رجل علىٰ عهد رسول الله ﷺ فأمسك القوم، ثم إن

---

(١) تقدم بقية البحث في سورة المؤمنين. (ج).

(٢) ١٤٦ الروح.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٦٣١) وانظر: شرح النووي (١١/ ٨٥).

(٤) أخرجه ابن خزيمة (٤/ ١٢١ رقم ٢٤٩٠) وابن ماجه (رقم ٢٤٢) والبيهقي في الشعب (٣/ ٢٤٧-٢٤٨ رقم ٣٤٤٨) وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٥٥ رقم ١٢٣).

(٥) أخرجه مسلم (رقم ١٠١٧) وانظر: فتح الباري (١٢/ ١٩٣).

رجلًا أعطاه فأعطى القوم، فقال النبي ﷺ: «من سن خيرًا فاستن به كان له أجره ومن أجور من تبعه غير منتقص من أجورهم شيئًا. ومن سن شرًّا فاستن به كان عليه وزره ومن أوزار من تبعه غير منتقص من أوزارهم شيئًا»[(١)].

وقد دل على هذا قوله ﷺ: «لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل»[(٢)] فإذا كان هذا في العذاب والعقاب، ففي الفضل والثواب أولى وأحرى.

والدليل على انتفاعه بغير ما تسبب فيه القرآن والسنة والإجماع وقواعد الشرع. أما القرآن فقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ [الحشر: ١٠] فأثنى الله سبحانه عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم، فدل على انتفاعهم باستغفار الأحياء.

وقد يمكن أن يقال: إنما انتفعوا باستغفارهم، لأنهم سنوا لهم الإيمان بسبقهم إليه، فلما اتبعوهم فيه كانوا كالمستنين في حصوله لهم، لكن قد دل على انتفاع الميت بالدعاء إجماع الأمة على الدعاء له في صلاة الجنازة.

وفي السنن من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء»[(٣)].

وفي صحيح مسلم من حديث عوف بن مالك قال: صلى رسول الله ﷺ على جنازة، فحفظت من دعائه، وهو يقول: «اللهم اغفر له وارحمه، وعافه واعف عنه، وأكرم نزله،

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٥٢٠) (٥/ ٣٨٧) والطبراني في الأوسط (٣/ ١١٦ رقم ٢٦٥٦) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٦٧): رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح إلا أبا عبيدة بن حذيفة وقد وثقه ابن حبان.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٨٦٧) ومسلم (رقم ١٦٧٧) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٦٩) (١٢/ ١٩٣) وشرح النووي (١١/ ١٦٦).

(٣) أخرجه ابن ماجه (رقم ١٤٩٧) والبيهقي في الكبرى (٤/ ٤٠ رقم ٦٧٥٥) وصححه ابن حبان، انظر: سبل السلام (٢/ ١٠٥) ونيل الأوطار (٤/ ١٠٥-١٠٦).

وأوسع مدخله، واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله دارا خيرًا من داره، وأهلًا خيرًا من أهله، وزوجًا خيرًا من زوجه، وأدخله الجنة، وأعذه من عذاب القبر وعذاب النار»[١]. وفي السنن عن واثلة ابن الأسقع قال: صلىٰ رسول الله ﷺ علىٰ رجل من المسلمين فسمعته يقول: «اللهم إن فلان ابن فلان في ذمتك وحبل جوارك، فقه من فتنة القبر وعذاب النار، وأنت أهل الوفاء والحق، فاغفر له، وارحمه، إنك أنت الغفور الرحيم»[٢].

وهذا كثير في الأحاديث، بل هو المقصود بالصلاة علىٰ الميت، وكذلك الدعاء له بعد الدفن، وفي السنن من حديث عثمان بن عفان ﷺ قال: كان النبي إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه، فقال: «استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت، فانه الآن يسأل»[٣].

وكذلك الدعاء لهم عند زيارة قبورهم، كما في صحيح مسلم من حديث بريدة بن الحصيب قال: كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلىٰ المقابر أن يقولوا: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية»[٤].[٥]

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٩٦٣) وانظر: عمدة القاري (٨/ ١٤١).

(٢) أخرجه ابن حبان (٧/ ٣٤٣ رقم ٣٠٧٤) وفي موارد الظمآن (رقم ٧٥٨) وابن ماجه (رقم ١٤٩٩) وأحمد (٣/ ٤٩١) والطبراني في الكبير (٢٢/ ٨٩ رقم ٢١٤) وفي مسنده الشاميين (٢/ ١٦٠ رقم ١١٠٧) وفي الدعاء (رقم ١١٨٩) وانظر: عمدة القاري (٨/ ١٤١).

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ٣٢٢١) والبيهقي في الكبرىٰ (٤/ ٥٦ رقم ٦٨٥٦) والحاكم (١/ ٥٢٦ رقم ١٣٧٢) وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط الإسناد ولم يخرجاه. وأخرجه أيضاً البيهقي في إثبات عذاب القبر (رقم ٤٠) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٢١٢٣) وانظر: التمهيد (٢٣/ ٢٧٠) وفيض القدير (٢/ ١٣٠).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ٩٧٥).

(٥) استطرد المؤلف رحمه الله في البحث حول وصول الثواب أو عدمه قرابة كراسة، وذكر حجج الموصلين والنافين بما لا مزيد عليه لباحث. (ج).

[(١)] وبالجملة فأفضل ما يهدى إلى الميت العتق والصدقة والاستغفار له والدعاء له والحج عنه، وأما قراءة القرآن وإهداؤها له تطوعا بغير أجرة، فهذا يصل إليه كما يصل ثواب الصوم والحج.

فإن قيل: فهذا لم يكن معروفا في السلف، ولا يمكن نقله عن واحد منهم مع شدة حرصهم على الخير، ولا أرشدهم النبي ﷺ وقد أرشدهم إلى الدعاء والاستغفار والصدقة والحج والصيام، فلو كان ثواب القراءة يصل لأرشدهم إليه، ولكانوا يفعلونه.

فالجواب: أن مورد هذا السؤال إن كان معترفا بوصول ثواب الحج والصيام والدعاء والاستغفار قيل له: ما هذه الخاصية التي منعت وصول ثواب القرآن، واقتضت وصول ثواب هذه الأعمال؟ وهل هذا إلا تفريق بين المتماثلات، وإن لم يعترف بوصول تلك الأشياء إلى الميت فهو محجوج بالكتاب والسنة والإجماع وقواعد الشرع. وأما السبب الذي لأجله يظهر ذلك في السلف، فهو أنهم لم يكن لهم أوقاف على من يقرأ ويهدى إلى الموتى، ولا كانوا يعرفون ذلك البتة، ولا كانوا يقصدون القبر للقراءة عنده، كما يفعله الناس اليوم، ولا كان أحدهم يشهد من حضره من الناس على أن ثواب هذه القراءة لفلان الميت، بل ولا ثواب هذه الصدقة والصوم.

ثم يقال لهذا القائل: لو كلفت أن تنقل عن واحد من السلف أنه قال اللهم ثواب هذا الصوم لفلان لعجزت، فإن القوم كانوا أحرص شيء على كتمان أعمال البر، فلم يكونوا ليشهدوا على الله بإيصال ثوابها إلى أمواتهم.

---

(١) ١٧٥ الروح.

فإن قيل: فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أرشدهم إلى الصوم والصدقة والحج دون القراءة! قيل: صلى الله عليه وآله وسلم لم يبتدئهم بذلك، بل خرج ذلك منه مخرج الجواب لهم، فهذا سأله عن الحج عن ميته فأذن له، وهذا سأله عن الصيام عنه فأذن له، وهذا سأله عن الصدقة، فإذن له، ولم يمنعهم مما سوى ذلك. وأي فرق بين وصول ثواب الصوم الذي هو مجرد نية وإمساك وبين وصول ثواب القراءة والذكر.

والقائل: إن أحدًا من السلف لم يفعل ذلك قائل ما لا علم له به، فإن هذه شهادة على نفي ما لم يعمله، فما يدريه أن السلف كانوا يفعلون ذلك، ولا يشهدون من حضرهم عليه، بل يكفي اطلاع علام الغيوب على نياتهم ومقاصدهم، لاسيما والتلفظ بنية الإهداء لا يشترط كما تقدم.

وسر المسألة: أن الثواب ملك العامل، فإذا تبرع به وأهداه إلى أخيه المسلم أوصله الله إليه، فما الذي خص من هذا ثواب قراءة القرآن، وحجر على العبد أن يوصله إلى أخيه، وهذا عمل سائر الناس، حتى المنكرين في سائر الإعصار والأمصار من غير نكير من العلماء.

فإن قيل: فما تقولون في الإهداء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟

قيل: من الفقهاء المتأخرين من استحبه، ومنهم من لم يستحبه ورآه بدعة، فإن الصحابة لم يكونوا يفعلونه، وأن النبي له أجر كل من عمل خيرًا من أمته من غير أن ينقص من أجر العامل شيء، لأنه هو الذي دل أمته على كل خير، وأرشدهم ودعاهم إليه، ومن دعا إلى هدى فله من الأجر مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيء. وكل هدى وعلم فإنما نالته أمته على يده فله مثل أجر من اتبعه: أهداه إليه أو لم يهده، والله أعلم.

***

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾.

[(١)]انتهت إليه الغايات والنهايات، وليس له سبحانه غاية ولا نهاية: لا في وجوده، ولا في مزيد جوده. إذ هو «الأول» الذي ليس قبله شيء، و«الآخر» الذي ليس بعده شيء، ولا نهاية لحمده وعطائه، بل كلما ازداد له العبد شكرًا زاده فضلًا، وكلما ازداد له طاعة زاده لمجده مثوبة، وكلما ازداد منه قربًا لاح له من جلاله وعظمته ما لم يشاهده قبل ذلك. وهكذا أبدًا لا يقف على غاية ولا نهاية، ولهذا جاء «إن أهل الجنة في مزيد دائم بلا انتهاء» فإن نعيمهم متصل ممن لا نهاية لفضله ولا لعطائه، ولا لمزيده ولا لأوصافه، فتبارك الله ذو الجلال والإكرام: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾ [صٓ: ٥٤]، «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته: ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر»[(٢)].

***

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾.

[(٣)]وقوله ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ [النجم: ٤٣]، والضحك والبكاء فعلان اختياريان، فهو سبحانه المضحك المبكي حقيقة، والعبد هو الضاحك الباكي حقيقة، وتأويل الآية، بخلاف ذلك إخراج للكلام عن ظاهره بغير موجب، ولا منافاة بين ما يذكر من تلك التأويلات وبين ظاهره، فإن إضحاك الأرض بالنبات وإبكاء السماء بالمطر، وإضحاك العبد وإبكاءه بخلق آلات الضحك والبكاء له لا ينافي حقيقة اللفظ وموضوعه، ومعناه من أنه جاعل الضحك والبكاء فيه بل الجميع حق.

***

(١) ٢٦٨ مدارج جـ٣.
(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٧٧).
(٣) ٥٩ شفاء.

﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

[١]قال عكرمة عن ابن عباس «السمود: الغناء في لغة حمير» يقال: اسمدي لنا، أي غني لنا، وقال أبو زبيد:

وكــأن العزيــف فيهــا غـــناء　　للنــدامَى مــن شــارب مَـسْمُود[٢]

قال أبو عبيدة: المسمود: «الذي غُنِّي له»، وقال عكرمة: «**كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا، فنزلت هذه الآية**».

وهذا لا يناقض ما قيل في هذه الآية من أن: «السمود»: الغفلة والسهو عن الشيء، قال المبرد: هو الاشتغال عن الشيء بهمٍّ أو فرح، يتشاغل به، وأنشد:

رمـى الحـدثان نـسوة آلِ حـرْب　　بمقــدارٍ سَـمَدْنَ لـه سُـمودا[٣]

وقال ابن الأنباري: السامد اللاهي، والسامد الساهي، والسامد المتكبر، والسامد القائم، وقال ابن عباس، في الآية: وأنتم مستكبرون وقال الضحاك: «أشرون بطرون» وقال مجاهد «غضاب مبرطمون» وقال غيره: «لاهون غافلون معرضون».

فالغناء يجمع هذا كله، ويوجبه، فهذه أربعة عشر اسمًا، سوى اسم الغناء.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة النجم

والحمد لله رب العالمين



(١) ٢٥٨ إغاثة جـ١.

(٢) هذا البيت من بحر الخفيف، ينسب إلى أبي زبيد الطائي: حرملة بن المنذر بن معديكرب أدرك الإسلام وأسلم واستعمله عمر بن الخطاب على صدقات قومه بني طيء مات سنة ٤١هـ. هذا البيت ذكره الحربي في غريب الحديث (٢/ ٥٢١).

(٣) هذا البيت من بحر الوافر، وينسب إلى الكميت بن معروف الأسدي، شاعر مخضرم، عاش أكثر حياته في الإسلام وكان ذا قريحة وجودة في الشعر مات سنة ٦٠هـ وينسب أيضاً إلى أيمن بن خريم الأسدي المتوفى سنة ٨٠هـ وكذا ينسب إلى عبدالله بن الزبير بن الأشيم الأسدي المتوفى سنة ٧٥هـ. ذكر البيت ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٠/ ٤٧) وعزاه إلى أيمن بن خريم. وذكره أيضاً ابن قتيبة في غريب الحديث (٢/ ٥٩٨) وابن منظور في اللسان (٣/ ٢١٩).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾.

[١]الأجداث: القبور، وفيها لغتان بالثاء والفاء، أهل العالية تقوله بالثاء، وأهل السافلة بالفاء.

***

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾.

[٢]إن كل واحد منا مأمور بأن يصدق الرسول فيما أخبر به، ويطيعه فيما أمر، وذلك لا يكون إلا بعد معرفة أمره وخبره، ولم يوجب الله سبحانه من ذلك على الأمة إلا ما فيه حفظ دينها ودنياها وصلاحها في معاشها ومعادها، وبإهمال ذلك تضيع مصالحها وتفسد أمورها، فما خراب العالم إلا بالجهل، ولا عمارته إلا بالعلم، وإذا ظهر العلم في بلد أو محلة قل الشر في أهلها، وإذا خفي العلم هناك ظهر الشر والفساد، ومن لم يعرف هذا فهو ممن لم يجعل الله له نورا. قال الإمام أحمد: ولولا العلم كان الناس كالبهائم. وقال: الناس أحوج إلى العلم منهم إلى الطعام والشراب، لأن الطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرتين أو ثلاثا، والعلم يحتاج إليه كل وقت.

الرابع: أن الواجب على كل عبد أن يعرف ما يخصه من الأحكام، ولا يجب عليه أن يعرف ما لا تدعوه الحاجة إلى معرفته، وليس في ذلك إضاعة لمصلحة الخلق ولا تعطيل لمعاشهم، فقد كان الصحابة ﷺ قائمين بمصالحهم ومعاشهم وعمارة حروثهم والقيام على مواشيهم، والضرب في الأرض لمتاجرهم، والصفق بالأسواق،

---

(١) ٢٠٩ بدائع جـ٤.

(٢) ٢٣٨ أعلام جـ٢.

وهم أهدى العلماء الذين لا يشق في العلم غبارهم.

الخامس: أن العلم النافع هو الذي جاء به الرسول دون مقدرات الأذهان ومسائل الخرص والألغاز، وذلك بحمد الله تعالى أيسر شيء على النفوس تحصيله وحفظه وفهمه، فإنه كتاب الله الذي يسره للذكر، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

قال البخاري في صحيحه: قال مطر الوراق: هل من طالب علم فيعان عليه؟[(١)] ولم يقل: فتضيع عليه مصالحه، وتتعطل معايشه عليه، وسنة رسوله وهي بحمد الله تعالى مضبوطة محفوظة، وأصول الأحكام التي تدور عليها نحو خمسمائة حديث، وفرشها وتفاصيلها نحو أربعة آلاف حديث، وإنما الذي هو في غاية الصعوبة والمشقة مقدرات الأذهان وأغلوطات المسائل والفروع والأصول التي ما أنزل الله بها من سلطان، التي كل مالها في نمو وزيادة وتوليد، والدين كل ماله في غربة ونقصان، والله المستعان.

***

﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ ﴾.

[(٢)]الاصطبار: افتعال من الصبر كالاكتساب والاتخاذ، وهو مشعر بزيادة المعنى على الصبر، كأنه صار سجية وملكة: فإن هذا البناء مؤذن بالاتخاذ والاكتساب، قال تعالى: ﴿ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾ [القمر: ٢٧] فالاصطبار أبلغ من الصبر، كما أن الاكتساب أبلغ من الكسب، ولهذا كان في العمل الذي يكون على صاحبه، والكسب فيما له، قال تعالى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] تنبيهًا على أن الثواب يحصل لها بأدنى سعي وكسب، وأن العقاب إنما هو باكتسابها وتصرفها وما تعانيه، وإذا علم

---

(١) أخرجه البخاري معلقاً في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾ قبل الحديث (رقم ٧٥٥١) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٥٢١).

(٢) ٢٧ طريق الهجرتين.

هذا فالتذاذ بالبلوى والاستبشار باختيار الله سبحانه لا يخص الاصطبار، بل يكون مع الصبر ومع التصبر، ولكن لما كان الاصطبار أبلغ من الصبر وأقوى كان بهذا التلذذ والاستبشار أولى، والله أعلم.

***

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ ﴾.

[1]...من هذا أدلة القرآن بتعذيب المعينين الذين عذبهم على تكذيب رسله وعصيان أمره على أن هذا الحكم عام شامل على من سلك سبيلهم واتصف بصفتهم، وهو سبحانه قد نبه عباده على نفس هذا الاستدلال، وتعدية هذا الخصوص إلى العموم، كما قال تعالى عقيب إخباره عن عقوبات الأمم المكذبة لرسلهم وما حل بهم: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ [القمر: ٤٣] فهذا محض تعدية الحكم إلى من عدا المذكورين بعموم العلة، وإلا فلو لم يكن حكم الشيء حكم مثله لما لزمت التعدية ولما تمت الحجة.

***

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾.

[2]هذان الضلالان أعني الضلال والشقاء، يذكرهما سبحانه كثيرًا في كلامه، ويخبر أنهما حظ أعدائه، ويذكر ضدهما، وهما الهدى والفلاح كثيرًا، ويخبر أنهما حظ أوليائه.

أما الأول فكقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ [القمر: ٤٧] فالضلال الضلال والسعر هو الشقاء والعذاب، وقال تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ [يونس: ٤٥].

---

(١) ١٣١ أعلام جـ١.

(٢) ٣٧ مفتاح جـ١.

وأما الثاني فكقوله تعالىٰ في أول البقرة، وقد ذكر المؤمنين وصفاتهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝ ﴾ [البقرة: ٥] وكذلك في أول لقمان.

وقال في الأنعام: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢] ولما كانت سورة أم القرآن أعظم سورة في القرآن، وأفرضها قراءة علىٰ الأمة، وأجمعها لكل ما يحتاج إليه العبد، وأعمها نفعًا ذكر فيها الأمرين.

فأمرنا أن نقول: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ فذكر الهداية والنعمة، وهما الهدىٰ والفلاح.

ثم قال: ﴿ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] فذكر المغضوب عليهم وهم أهل الشقاء. والضالين وهم أهل الضلال، وكل من الطائفتين له الضلال والشقاء، لكن ذكر الوصفين معًا لتكن الدلالة علىٰ كل منهما بصريح لفظه، وأيضًا فإنه ذكر ما هو أظهر الوصفين في كل طائفة، فإن الغضب علىٰ اليهود أظهر لعنادهم الحق بعد معرفته، والضلال في النصارىٰ أظهر لغلبة الجهل فيهم.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال اليهود مغضوب عليهم والنصارىٰ ضالون.

[(١)]قال سفيان عن زياد بن إسماعيل المخزومي ثنا محمد بن عباد بن جعفر ثنا أبو هريرة قال: جاء مشركو قريش إلىٰ رسول الله ﷺ يخاصمون في القدر، فنزلت هذه الآية: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ۝ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ۝ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴾ [القمر: ٤٧-٤٩] رواه مسلم.

وقد روىٰ الدارقطني من حديث حبيب بن عمرو الأنصاري عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة نادىٰ منادٍ: أين خصماء الله وهم القدرية»[(٢)] ولكن

---

(١) ٢٨ شفاء.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦/ ٣١٧ رقم ٦٥١٠) من حديث حبيب بن عمرو الأنصاري عن أبيه عن عبد الله بن عمر عن أبيه مرفوعاً. والديلمي في الفردوس (١/ ٢٥٥ رقم ٩٩٢) وابن أبي عاصم في =

حبيب هذا قال الدارقطني: مجهول والحديث مضطرب الإسناد، ولا يثبت. والمخاصمون في القدر نوعان:

أحدهما: من يبطل أمر الله ونهيه بقضائه وقدره: كالذين قالوا: ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

والثاني: من ينكر قضاءه وقدره السابق. والطائفتان خصماء الله. قال عوف: من كذب بالقدر فقد كذب بالإسلام، إن الله تبارك وتعالى قدر أقدارًا، وخلق الخلق بقدر، وقسم الآجال بقدر، وقسم الأرزاق بقدر، وقسم البلاء بقدر، وقسم العافية بقدر، وأمر ونهى. وقال الإمام أحمد: القدر قدرة الله. واستحسن ابن عقيل هذا الكلام جدًّا، وقال: هذا يدل على دقة علم أحمد، وتبحره في معرفة أصول الدين، وهو كما قال أبو الوفاء: فإن إنكار القدر إنكار لقدرة الرب على خلق أعمال العباد وكتابها وتقديرها، وسلف القدرية كانوا ينكرون علمه بها، وهم الذين اتفق سلف الأمة على تكفيرهم، وسنذكر ذلك فيما بعد إن شاء الله.

(1)وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩]، خلق الله الخلق كلهم بقدر، وخلق الخير والشر، فخير الخير السعادة، وشر الشر الشقاوة.

وفي صحيح مسلم عن أبي الأسود الدؤلي قال: قال لي عمران بن حصين: أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون، أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون ممن أتاهم به نبيهم وثبتت به الحجة؟ قال: قلت: لا، بل فيما قضى عليهم ومضى، قال: أفيكون ذلك ظلمًا؟ قال: ففزعت فزعاً شديداً، وقلت: إنه ليس

=

السنة (١/ ١٤٨ رقم ٣٣٦) والخطيب البغدادي في تالي تلخيص المتشابه (رقم ١٢٣) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٠٦): رواه الطبراني في الأوسط من رواية بقية وهو مدلس وحبيب بن عمرو مجهول. وانظر: العلل الواردة في الأحاديث النبوية للدارقطني (٢/ ٧٠-٧١).

(١) ٦٦ طريق الهجرتين.

شيء إلا خلقه وملكه: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، فقال: سددك الله إنما سألتك لأحزز عقلك. إن رجلاً من مزينة - أو جهينة - أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس ويتكادحون فيه، أشيء قضى عليهم ومضى، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم؟ قال: فيما قضى عليهم ومضى. فقال الرجل: ففيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ: «من كان خلقه الله لإحدى المنزلتين فسيستعمله لها»، وتصديق ذلك في كتاب الله ﷻ: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾[1] [الشمس: ٧-٨].

***

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝ ﴾.

[2]قال عطاء: كل شيء فعلوه مكتوب عليهم في اللوح المحفوظ، وروى حماد بن زيد عن داود بن أبي هند عن الشعبي: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴾ قال: كتب عليهم قبل أن يعملوه.

وقالت طائفة: المعنى أنه يحصي عليهم في كتب أعمالهم، وجمع أبو إسحاق بين القولين فقال: مكتوب عليهم قبل أن يفعلوه، ومكتوب عليهم إذا فعلوه للجزاء، وهذا أصح، وبالله التوفيق.

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس قال: ما رأيت شيئا أشبه باللمم، مما قال أبو هريرة: أن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك ويكذبه».

وفي الصحيح أيضًا عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كتب على ابن آدم

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٥٠).
(٢) ٤٢ شفاء.

نصيبه من الزنا، مدرك ذلك لا محالة، فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطا، والقلب يهوىٰ ويتمنىٰ، ويصدق الفرج ذلك كله ويكذبه»[١].

وفي صحيح البخاري وغيره عن عمران بن حصين قال: دخلت علىٰ النبي ﷺ وعقلت ناقتي بالباب، فأتاه ناس من بني تميم، فقال: «اقبلوا البشرىٰ يا بني تميم» قالوا: قد بشرتنا فأعطنا. مرتين، ثم دخل عليه ناس من اليمن، فقال: «اقبلوا البشرىٰ يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم» قالوا: قد قبلنا يا رسول الله، قالوا: جئنا لنسألك عن هذا الأمر قال: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه علىٰ الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض» فنادىٰ منادٍ: ذهبت ناقتك يا ابن الحصين، فانطلقت فإذا هي ينقطع دونها السراب، فوالله لوددت أني كنت تركتها[٢].

فالرب سبحانه كتب ما يقوله وما يفعله، وما يكون بقوله وفعله، وكتب مقتضىٰ أسمائه وصفاته وآثارها، كما في الصحيحين من حديث أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضىٰ الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: أن رحمتي غلبت غضبي»[٣].

***

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٥٥﴾.

[٤]سمىٰ الجنة مقعد صدق لحصول كل ما يراد من المقعد الحسن فيها، كما يقال: مودة صادقة: إذا كانت ثابتة تامة. وحلاوة صادقة. وحملة صادقة، ومنه الكلام

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٢٤٣) ومسلم (رقم ٢٦٥٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٦) وشرح النووي (١٦/ ٢٠٥).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣١٩٠، ٣١٩١) وانظر: فتح الباري (٨/ ٨٣) (١٣/ ٤٠٩).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٠٤) ومسلم (رقم ٢٧٥١) وانظر: عمدة القاري (٢٥/ ١٠٠).

(٤) ٧٦ حادي الأرواح.

الصدق، لحصول مقصوده منه، وموضع هذه اللفظة في كلامهم الصحة والكمال، ومنه الصدق في الحديث، والصدق في العمل، والصديق الذي يصدق قوله بالعمل، والصَّدق بالفتح: الصلب من الرماح، ويقال للرجل الشجاع أنه لذو مصدق، أي صادق الجملة، وهذا مصداق هذا: أي ما يصدقه.

ومنه الصداقة لصفاء المودة والمخالة، ومنه صدقني القتال، وصدقني المودة.

ومنه قدم صدق، ولسان صدق، ومدخل صدق، ومخرج صدق، وذلك كله للحق الثابت المقصود الذي يرغب فيه، بخلاف الكذب الباطل، الذي لا شيء تحته، ولا يتضمن أمرًا ثابتًا قط.

وفسر قوم قدم صدق بالجنة، وفسر بالأعمال التي تنال بها الجنة، وفسر بالسابقة التي سبقت لهم من الله، وفسر بالرسول الذي على يده وهدايته نالوا ذلك.

والتحقيق: أن الجميع حق، فإنهم سبقت لهم من الله الحسنى بتلك السابقة، أي بالأسباب التي قدرها لهم على يد رسوله، وأدخر لهم جزاءها يوم القيامة.

ولسان الصدق وهو لسان الثناء الصادق بمحاسن الأفعال وجميل الطرائق، وفي كونه لسان صدق إشارة إلى مطابقته للواقع، وأنه ثناء بحق لا بباطل.

ومدخل الصدق ومخرج الصدق هو المدخل والمخرج الذي يكون صاحبه فيه ضامنا على الله، وهو دخول وخروج بالله ولله، وهذه الدعوة من أنفع الدعاء للعبد، فإنه لا يزال داخلا في أمر وخارجا من أمر، فمتى كان دخوله لله وبالله وخروجه كذلك، كان قد أدخل مدخل صدق، وأخرج مخرج صدق، والله المستعان. اهـ.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة القمر

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝ ﴾.

[1]دلت هذه الكلمات على إعطائه سبحانه مراتب الوجود بأسرها، فقوله: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ إخبار عن الإيجاد الخارجي العيني، وخص الإنسان بالخلق لما تقدم، وقوله: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ إخبار عن إعطاء الوجود العلمي الذهني فإنما تعلم الإنسان القرآن بتعليمه، كما أنه إنما صار إنسانًا بخلقه، فهو الذي خلقه وعلمه، ثم قال: ﴿ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ والبيان يتناول مراتب ثلاثة كل منها يسمى بيانًا: أحدها: البيان الذهني الذي يميز فيه بين المعلومات. الثاني: البيان اللفظي الذي يعبر به عن تلك المعلومات، ويترجم عنها فيه لغيره. الثالث: البيان الرسمي الخطي الذي يرسم به تلك الألفاظ، فيتبين الناظر معانيها، كما يتبين للسامع معاني الألفاظ، فهذا بيان للعين، وذاك بيان للسمع، والأول بيان للقلب، وكثيرًا ما يجمع سبحانه بين هذه الثلاثة كقوله: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦] وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨] ويذم من عدم الانتفاع بها في اكتساب الهدى والعلم النافع كقوله: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ ﴾ [البقرة: ١٨] وقوله: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾ [البقرة: ٧] وقد تقدم بسط هذا الكلام.

تنبيه: ثم تأمل حكمة اللطيف الخبير فيما أعطى الإنسان علمه بما فيه صلاح معاشه ومعاده، ومنع عنه علم ما لا حاجة له به، فجهله به لا يضر، وعلمه به لا ينتفع

---

(١) ٢٨٩ مفتاح جـ١.

به انتفاعا طائلا، ثم يسر عليه طرق ما هو محتاج إليه من العلم أتم تيسير، وكلما كانت حاجته إليه من العلم أعظم كان تيسيره إياه عليه أتم، فأعطاه معرفة خالقه وبارئه ومبدعه سبحانه، والإقرار به ويسر عليه طرق هذه المعرفة، فليس في العلوم ما هو أجل منها ولا أظهر عند العقل والفطرة، وليس في طرق العلوم التي تنال بها أكثر من طرقها، ولا أدل ولا أبين، ولا أوضح، فكلما تراه بعينك أو تسمعه بأذنك أو تعقله بقلبك، وكلما يخطر ببالك، وكلما نالته حاسة من حواسك، فهو دليل على الرب تبارك وتعالى، فطرق العلم بالصانع فطرية ضرورية، ليس في العلوم أجلى منها، وكل ما استدل به على الصانع فالعلم بوجوده أظهر من دلالته، ولهذا قالت الرسل لأممهم: ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: ١٠] فخاطبوهم مخاطبة من لا ينبغي أن يخطر له شك ما في وجود الله سبحانه ونصب من الأدلة على وجوده وحدانيته وصفات كماله الأدلة على اختلاف أنواعها، ولا يطيق حصرها إلا الله، ثم ركز ذلك في الفطرة، ووضعه في العقل جملة.

ثم بعث الرسل مذكرين به، ولهذا يقول تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥] وقوله: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝ ﴾ [الأعلى: ٩] وقوله: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ [الغاشية: ٢١] وقوله: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ [المدثر: ٤٩] وهو كثير في القرآن ومفصلين لما في الفطرة والعقل العلم به جملة.

فانظر كيف وجد الإقرار به وبتوحيده وصفات كماله ونعوت جلاله وحكمته في خلقه وأمره المقتضية إثبات رسالة رسله ومجازات المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، مودعًا في الفطرة مركوزًا فيها، فلو خليت على ما خلقت عليه، لم يعرض لها ما يفسدها ويحولها ويغيرها عما فطرت عليه، ولأقرت بوحدانيته، ووجوب شكره وطاعته وبصفاته وحكمته في أفعاله وبالثواب والعقاب، ولكنها لما فسدت وانحرفت عن المنهج الذي خلقت عليه أنكرت ما أنكرت وجحدت. ما جحدت...

[(١)] وقد جمع بين الأمرين ـ أعني القرآن ونطق اللسان ـ وجعل تعليمها من تمام نعمته وامتنانه، كما قال: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝ ﴾. فبهذه الحروف علم القرآن، وبها علم البيان، وبها فضل الإنسان على سائر أنواع الحيوان، وبها أنزل كتبه، وبها أرسل رسله، وبها جمعت العلوم وحفظت، وبها انتظمت مصالح العباد في المعاش والمعاد، وبها يتميز الحق من الباطل والصحيح من الفاسد، وبها جمعت أشتات العلوم، وبها أمكن تنقلها في الأذهان، وكم جلب بها من نعمة ودفع بها من نقمة، وأقيلت بها من عثرة، وأقيمت بها من حرمة، وهدى بها من ضلالة، وأقيم بها من حق، وهدم بها من باطل. فآياته سبحانه في تعليم البيان كآياته في خلق الإنسان، ولولا عجائب صنع الله ما ثبتت تلك الفضائل في لحم ولا عصب، فسبحان من هذا صنعه في هواء يخرج من قصبة الرئة فينضم في الحلقوم وينفرش في أقصى الحلق ووسطه وآخره وأعلاه وأسفله وعلى وسط اللسان وأطرافه وبين الثنايا وفي الشفتين والخيشوم، فيسمع له عند كل مقطع من تلك المقاطع صوت غير صوت المقطع المجاور له، فإذا هو حرف[(٢)].

[(٣)] وتأمل قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝ ﴾ كيف جعل الخلق والتعليم ناشئًا عن صفة الرحمة متعلقًا باسم الرحمن، وجعل معاني السورة مرتبطة بهذا الاسم، وختمها بقوله: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٧٨] فالاسم الذي تبارك هو الاسم الذي افتتح به السورة، إذ مجيء البركة كلها منه، وبه وضعت، والبركة في كل مبارك، فكل ما ذكر عليه بورك فيه، وكل ما أخلي منه نزعت منه البركة، فإن كان مذكى وخلى منه اسمه كان ميتة، وإن كان

---

(١) ١٢٧ التبيان.

(٢) هذا جزء من البحث الكامل وسيأتي في سورة القلم إن شاء الله. (ج).

(٣) ١٢٣ مختصر الصواعق جـ٢.

طعامًا شارك صاحبه فيه الشيطان، وإن كان مدخلًا دخل معه فيه، وإن كان حدثًا لم يرفع عند كثير من العلماء، وإن كان صلاة لم تصح عند كثير منهم، ولما خلق سبحانه الرحم واشتق لها اسمًا من اسمه، فأراد إنزالها إلى الأرض، وتعلقت به سبحانه، فقال: «مه، فقالت: هذا المقام العائذ بك من القطيعة، فقال: **ألا ترضين أن أقطع من قطعك، وأصل من وصلك**»[١]. وهي متعلقة بالعرش لها حنحنة كحنحنة المغزل، وكان تعلقها بالعرش رحمة منه بها، وإنزالها إلى الأرض رحمة بخلقه.

ولما علم سبحانه ما تلقاه من نزولها إلى الأرض ومفارقتها لما اشتقت (منه) رحمها بتعلقها بالعرش واتصالها به، وقوله: «**ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعت**»، ولذلك كان من وصل رحمه لقربه من الرحمن ورعاية حرمة الرحم قد عمر دنياه، واتسعت له معيشته، وبورك له في عمره، ونسيء له في أثره، فإن وصل ما بينه وبين الرحمن ـ جل جلاله ـ مع ذلك وما بينه وبين الخلق بالرحمة والإحسان تم له أمر دنياه وأخراه، وإن قطع ما بينه وبين الرحم وما بينه وبين الرحمن أفسد عليه دنياه وآخرته ومحق بركة رحمته ورزقه وأثره، كما قال ﷺ: «**ما من ذنب أجدر أن يعجل لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له من العقوبة يوم القيامة من: البغي، وقطيعة الرحم**»[٢] فالبغي معاملة الخلق بضد الرحمة، وكذلك قطيعة الرحم، وأن القوم ليتواصلون وهم فجرة فتكثر أموالهم ويكثر عددهم، وأن القوم ليتقاطعون فتقل أموالهم، ويقل عددهم، وذلك لكثرة نصيب هؤلاء من الرحمة، وقلة نصيب هؤلاء منها.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٨٣٠) ومسلم (رقم ٢٥٥٤) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤١٨) وشرح النووي (١٦/ ١١٢).

(٢) أخرجه ابن حبان (٢/ ٢٠٠ رقم ٤٥٥) وفي موارد الظمآن (رقم ٢٠٣٩) وأبو داود (رقم ٤٩٠٢) وابن ماجه (رقم ٤٢١١) والترمذي (رقم ٢٥١١) وقال: هذا حديث حسن صحيح. والحاكم (٢/ ٣٨٨ رقم ٣٣٥٩) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤١٥).

وفي الحديث: «إن صلة الرحم تزيد في العمر»[١]! وإذا أراد الله بأهل الأرض خيرًا نشر عليهم أثرًا من آثار اسمه الرحمن، فعمر به البلاد، وأحيا به البلاد، وإذا أراد بهم شرًّا أمسك عنهم ذلك الأثر، فحل بهم من البلاد بحسب ما أمسك عنهم من آثار اسمه الرحمن، ولهذا إذا أراد الله سبحانه أن يخرب هذه الدار ويقيم القيامة أمسك عن أهلها أثر هذا الاسم، وقبضه شيئًا فشيئًا، حتىٰ إذا جاء وعده قبض الرحمة التي أنزلها إلىٰ الأرض؛ فتضع لذلك الحوامل ما في بطونها، وتذهل المراضع عن أولادها، فيضيف سبحانه تلك الرحمة التي رفعها وقبضها إلىٰ ما عنده من الرحمة، فيكمل بها مائة رحمة، فيرحم بها أهل طاعته وتوحيده، وتصديق رسله وتابعيهم، وأنت لو تأملت العالم بعين البصيرة لرأيته ممتلئًا بهذه الرحمة الواحدة: كامتلاء البحر بمائه والجو بهوائه، وما في خلاله من ضد ذلك فهو مقتضىٰ قوله: «سبقت رحمتي غضبي» فالمسبوق لابد لاحق، وإن أبطأ، وفيه حكمة لا تناقضها الرحمة، فهو أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، فسبحان من أعمىٰ بصيرة من زعم أن رحمة الله مجاز.

***

﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦﴾.

[٢]تأمل حكمة اللطيف الخبير في كونها[٣] جعلت زينة للشجر، وسترًا ولباسًا للثمرة، ووقاية لها من الآفات التي تمنع كمالها، ولهذا إذا جردت الشجرة عن ورقها فسدت الثمرة ولم ينتفع بها، وانظر كيف جعلت وقاية لمنبت الثمرة الضعيفة من اليبس، فإذا ذهبت الثمرة بقي الورق وقاية لتلك الأفنان الضعيفة من الحر، حتىٰ إذا

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (١/ ٢٨٩ رقم ٩٤٣) وفي الكبير (٨/ ٢٦١ رقم ٨٠١٤) والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٩٣ رقم ١٠٠) وقال المنذري في الترغيب (٢/ ١٥/رقم ١٣١٧): رواه الطبراني في الكبير بإسناد حسن. وكذا قال الهيثمي في المجمع (٣/ ١١٥) وانظر: شرح النووي (١٦/ ٢١٣).

(٢) ٢٢٦ مفتاح جـ١.

(٣) يعني ورق الشجر الذي ذكره المؤلف رحمه الله قبل ذلك في الأصل. (ج).

طفئت تلك الجمرة ولم يضر الأفنان عراها من ورقها وسلبها إياه، لتكتسى لباسًا جديدًا أحسن منه، فتبارك الله رب العالمين، الذي يعلم مساقط تلك الأوراق ومنابتها، فلا تخرج منها ورقة إلا بإذنه، ولا تسقط إلا بعلمه، ومع هذا فلو شاهدها العباد على كثرتها وتنوعها، وهي تسبح بحمد ربها مع الثمار والأفنان والأشجار لشاهدوا من جمالها أمرًا آخر، ولرأوا خلقتها بعين أخرى، ولعلموا أنها لشأن عظيم خلقت، وأنها لم تخلق سدى، قال تعالى: ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ [الرحمن: ٦] فالنجم ما ليس له ساق من النبات. والشجر ما له ساق، وكلها ساجدة لله مسبحة بحمده: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤].

ولعلك أن تكون ممن غلظ حجابه فذهب إلى أن التسبيح دلالتها على صانعها فقط، فاعلم أن هذا القول يظهر بطلانه من أكثر من ثلاثين وجهًا، قد ذكرنا أكثرها في موضع آخر، وفي أي لغة تسمى الدلالة على الصانع تسبيحا وسجودًا وصلاة وتأويبًا وهبوطًا من خشيته، كما ذكر تعالى ذلك في كتابه، فتارة يخبر عنها بالتسبيح، وتارة بالسجود، وتارة بالصلاة كقوله تعالى: ﴿ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾ [النور: ٤١] أفترى يقبل عقلك أن يكون معنى الآية قد علم الله دلالته عليه، وسمى تلك الدلالة صلاة وتسبيحًا، وفرق بينهما، وعطف أحدهما على الآخر، وتارة يخبر عنها بالتأويب كقوله: ﴿ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ ﴾ [سبأ: ١٠]، وتارة يخبر عنها بالتسبيح الخاص بوقت دون وقت: كالعشي والإشراق، أفترى دلالتها على صانعها إنما يكون في هذين الوقتين، وبالجملة فبطلان هذا القول أظهر لذوي البصائر من أن يطلبوا دليلًا على بطلانه، والحمد لله.

***

﴿ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ۝١٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٨ ﴾.

(١)...من هذا المعنى مجيء المشرق والمغرب في القرآن تارة مجموعين، وتارة مثنيين، وتارة مفردين، لاختصاص كل محل بما يقتضيه من ذلك، فالأول كقوله: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ ﴾ [المعارج: ٤٠]، والثاني كقوله: ﴿ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ۝١٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٨ ﴾ [الرحمن: ١٧، ١٨]، والثالث كقوله: ﴿ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴾ [المزمل: ٩]، فتأمل هذه الحكمة البالغة في تغاير هذه المواضع في الإفراد والجمع والتثنية بحسب مواردها يطلعك على عظمة القرآن الكريم وجلالته، وأنه تنزيل من حكيم حميد، فحيث جمعت كان المراد بها مشارق الشمس ومغاربها في أيام السنة وهي متعددة، وحيث أفردت كان المراد أفقي المشرق والمغرب، وحيث ثنيا كان المراد مشرقي صعودها وهبوطها ومغربيهما، فإنها تبتدئ صاعدة حتى تنتهي إلى غاية أوجها وارتفاعها، فهذا مشرق صعودها، وينشأ منه فصلا الخريف والشتاء: فجعل مشرق صعودها بجملته مشرقًا واحدًا، ومشرق هبوطها بجملته مشرقًا واحدًا، ويقابلها مغرباها، فهذا وجه اختلاف هذه في الإفراد والتثنية والجمع، وأما وجه اختصاص كل موضع بما وقع فيه فلم أر أحدًا تعرض له ولا فتح بابه، وهو بحمد الله بين من السياق، فتأمل وروده مثنى في سورة الرحمن.

لما كان مساق السورة مساق المثاني المزدوجات فذكر أولا نوعي الإيجاد وهما الخلق والتعظيم، ثم ذكر سراجي العالم ومظهري نوره وهما الشمس والقمر، ثم ذكر نوعي النبات ما قام منه على ساق وما انبسط منه على وجه الأرض وهما النجم والشجر، ثم ذكر نوعي السماء المرفوعة والأرض الموضوعة، وأخبر أنه رفع هذه ووضع هذه، ووسط بينهما ذكر الميزان، ثم ذكر العدل والظلم في الميزان، فأمر

---

(١) ١٢١ بدائع جـ١.

بالعدل ونهى عن الظلم، ذكر نوعي الخارج من الأرض، وهما الحبوب والثمار، ثم ذكر خلق نوعي المكلفين، وهما نوع الإنسان ونوع الجان، ثم ذكر نوعي المشرقين ونوعي المغربين، ثم ذكر بعد ذلك البحرين الملح والعذب فتأمل حسن تثنية المشرق والمغرب في هذه السورة وجلالة ورودهما لذلك، وقدر موضعهما اللفظ مفردا ومجموعا، تجد السمع ينبو عنه، ويشهد العقل بمنافرته للنظم، ثم تأمل ورودهما مفردين في سورة المزمل لما تقدمهما ذكر الليل والنهار، فأمر رسوله عليه الصلاة والسلام بقيام الليل، ثم أخبره أن له في النهار سبحا طويلا، فلما تقدم ذكر الليل وما أمر به فيه، وذكر النهار وما يكون منه فيه عقب ذلك بذكر المشرق والمغرب، اللذين هما مظهر الليل والنهار، فكان ورودهما مفردين في هذا السياق أحسن من التثنية والجمع، لأن ظهور الليل والنهار هما واحد، فالنهار أبدا يظهر من المشرق والليل أبدا يظهر من المغرب، ثم تأمل مجيئهما مجموعين في سورة المعارج في قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ [المعارج: ٤٠، ٤١] لما كان هذا القسم في سياق سعة ربوبيته وإحاطة قدرته، والمقسم عليه أرباب هؤلاء، والإتيان بخير منهم ذكر المشارق والمغارب، لتضمنهما انتقال الشمس التي هي أحد آياته العظيمة الكبيرة، ونقله سبحانه لها وتصريفها كل يوم في مشرق ومغرب، فمن فعل هذا كيف يعجزه أن يبدل هؤلاء، وينقل إلى أمكنتهم خيرًا منهم.

وأيضًا فإن تأثير مشارق الشمس ومغاربها في اختلاف أحوال النبات والحيوان أمر مشهور وقد جعل الله تعالى ذلك بحكمته سببًا لتبدل أجسام النبات وأحوال الحيوانات، وانتقالها من حال إلى غيره، ويبدل الحر بالبرد والبرد بالحر والصيف بالشتاء والشتاء بالصيف إلى سائر تبدل أحوال الحيوان والنبات والرياح والأمطار والثلوج، وغير ذلك من التبدلات والتغيرات الواقعة في العالم، بسبب اختلاف مشارق

الشمس ومغاربها، كان ذلك تقدير العزيز العليم، فكيف لا يقدر مع ما يشهدونه من ذلك على أن يبدل خيرًا منهم، وأكد هذا المعنى بقوله: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ فلا يليق بهذا الموضع سوى لفظة الجمع، ثم تأمل كيف جاءت أيضا في سورة الصافات مجموعة في قوله: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴾ [الصافات: ٥]، لما جاءت مع جملة المربوبات المتعددة، وهي السماوات والأرض وما بينهما، كان الأحسن مجيئها مجموعة، لينتظم مع ما تقدم من الجمع والتعدد ثم تأمل كيف اقتصر على المشارق دون المغارب، لاقتضاء الحال لذلك، فإن المشارق مظهر الأنوار، وأسباب انتشار الحيوان وحياته وتصرفه ومعاشه وانبساطه، فهو إنشاء مشهود، فقدمه بين يدي الرد على منكري البعث، ثم ذكر تعجب بنيه من تكذيبهم واستبعادهم البعث بعد الموت ثم قدر الموت وحالهم فيه، وكان الاقتصار على ذكر المشارق هاهنا في غاية المناسبة للغرض المطلوب، والله أعلم.

***

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾.

[1]«الفناء» مصدر فني يفنى فناءً إذا اضمحل وتلاشى وعدم، وقد يطلق على ما تلاشت قواه وأوصافه، مع بقاء عينه، كما قال الفقهاء: لا يقتل في المعركة شيخ فانٍ، وقال تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن: ٢٦] أي هالك: ذاهب.

[2]...الفناء في الآية الهلاك والعدم، أخبر سبحانه: أن كل من على الأرض يعدم ويموت، ويبقى وجهه سبحانه، وهذا مثل قوله: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠] ومثل قوله: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥] قال الكلبي ومقاتل: لما نزلت هذه الآية قالت الملائكة: هلك أهل الأرض، فلما قال تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا

---

(١) ١٥٤ مدارج جـ١.

(٢) ٣٦٨ مدارج جـ٣.

وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] أيقنت الملائكة بالهلاك، قال الشعبي: إذا قرأت ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ فلا تسكت حتى تقرأ ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] وهذا من فقهه في القرآن وكمال علمه، إذ المقصود: الإخبار بفناء من عليها مع بقاء وجهه سبحانه، فإن الآية سيقت لتمدحه بالبقاء وحده، ومجرد فناء الخليقة ليس فيه مدحه، إنما المدح في بقائه بعد فناء خلقه، فهي نظير قوله: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾.

[1]إن الروح هل تموت أم الموت للبدن وحده؟ فقد اختلف الناس في هذا فقالت طائفة: تموت الروح وتذوق الموت، لأنها نفس، وكل نفس ذائقة الموت، قالوا: وقد دلت الأدلة على أنه لا يبقى إلا الله وحده، قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ قالوا: وإذا كانت الملائكة تموت فالنفوس البشرية أولى بالموت، قالوا: وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠] هذا مع القطع بأن أرواحهم قد فارقت أجسادهم، وقد ذاقت الموت.

والصواب أن يقال: موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها، فإن أريد بموتها هذا القدر فهي ذائقة الموت، وإن أريد أنها تعدم وتضمحل وتصير عدما محضا، فهي لا تموت بهذا الاعتبار، بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو في عذاب، كما سيأتي إن شاء الله تعالى بعد هذا، وكما صرح به النص أنها كذلك حتى يردها الله في جسدها، وقد نظم أحمد بن الحسين الكندي هذا الاختلاف في قوله:

تنازع الناس حتى لا اتفاق لهم ... إلا على شجب والخلف في الشجب
فقيل تخلص نفس المرء سالمة ... وقيل تشرك جسم المرء في العطب[2]

---

(١) ٤٠ الروح.

(٢) هذان البيتان من بحر البسيط وينسبان إلى المتنبي وقد سبق التعريف به. وذكرهما أبو الحسن الجرجاني في الوساطة بين المتنبي وخصومه (ص ٢٩٤) والثعالبي في يتيمة الدهر (١/ ٣٤١).

فإن قيل: فعند النفخ في الصور هل تبقى الأرواح حية كما هي أو تموت ثم تحيا قيل قد قال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [الزمر: ٦٨] إلا من شاء الله فقد استثنى الله سبحانه بعض من في السموات ومن في الأرض من هذا الصعق.

فقيل: هم الشهداء هذا قول أبي هريرة وابن عباس وسعيد بن جبير. وقيل هم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت وهذا قول مقاتل وغيره[(١)].

***

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾.

[(٢)]ذكر الحاكم في صحيحه من حديث أبي حمزة الثمالي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن مما خلق الله لوحًا محفوظًا من درة بيضاء دفناه من ياقوتة حمراء، قلمه نور، وكتابه نور، ينظر فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة أو مرة، ففي كل نظرة منها يخلق ويرزق، ويحيي ويميت، ويعز ويذل، ويفعل ما يشاء، فذلك قوله: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾[(٣)].

وقال مجاهد والكلبي وعبيد بن عمير وأبو ميسرة وعطاء ومقاتل: من شأنه أنه يحيي ويميت، ويرزق ويمنع، وينصر، ويعز، ويذل، ويفك عانيًا، ويشفي مريضًا، ويجيب داعيا، ويعطي سائلا، ويتوب على قوم، ويكشف كربا، ويغفر ذنبا، ويضع أقواما ويرفع آخرين[(٤)]. دخل كلام بعضهم في بعض، وقد ذكر الطبراني في المعجم

---

(١) بحث المؤلف رحمه الله هنا بحثًا مطولًا لمن أراده. (ج).

(٢) ٢٣ شفاء.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٧/ ١٣٥) والضياء في المختارة (١٠/ ٧١ رقم ٦٣) والحاكم (٢/ ٥١٦ رقم ٣٧٧١) والطبراني في الكبير (١٠/ ٢٦٠ رقم ١٠٦٠٥) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٩١): رواه الطبراني من طريقين رجال هذه ثقات.

(٤) أخرجه عبدالرزاق في تفسيره (٣/ ٢٦٣) والطبري في تفسيره (٢٧/ ١٣٥) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٧٢).

والستة وعثمان بن سعيد الدارمي في كتاب الرد على المريسي عن عبد الله بن مسعود قال: إن ربكم ﷻ ليس عنده ليل ولا نهار، نور السماوات والأرض نور وجهه، وأن مقدار كل يوم من أيامكم عنده ثنتي عشرة ساعة، فيعرض عليه أعمالكم فيها على ما يكره، فيغضبه ذلك. وأول من يعلم غضبه حملة العرش، يجدونه يثقل عليهم، فيسبحه حملة العرش وسرادقات العرش والملائكة المقربون وسائر الملائكة، ثم ينفخ جبريل في القرن، فلا يبقى شيء إلا سمع صوته، فيسبحون الرحمن ثلاث ساعات، حتى يمتلئ الرحمن ﷻ رحمة، فتلك ست ساعات، ثم يؤتى بالأرحام، فينظر فيها ثلاث ساعات، فذلك قوله في كتابه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٦] وقوله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠] فتلك تسع ساعات، ثم يؤتى بالأرزاق، فينظر فيها ثلاث ساعات، فذلك قوله في كتابه: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الشورى: ١٢] ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ قال: هذا شأنكم وشأن ربكم تبارك وتعالى...

...قال عثمان بن سعيد الدارمي ثنا موسى بن إسماعيل ثنا حماد بن سلمة عن الزبير أبي عبد السلام عن أيوب بن عبد الله الفهري أن ابن مسعود قال: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار.. فذكر الحديث إلى قوله: فيسبحه حملة العرش وسرادقات العرش والملائكة المقربون وسائر الملائكة[1]. فهذا تقدير يومي، والذي قبله تقدير حولي، والذي قبله تقدير عمري عند تعلق النفس به، والذي قبله كذلك عند أول تخليقه وكونه مضغة، والذي قبله تقدير سابق على وجوده، لكن بعد خلق

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ١٧٩ رقم ٨٨٨٦) والدارمي في نقضه على المريسي الجهمي العنيد (١/ ٤٧٥-٤٧٦) وضعفه محققه الدكتور رشيد بن حسن الألمعي حفظه الله. وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٨٥): رواه الطبراني في الكبير وفيه أبو عبدالسلام، قال أبو حاتم: مجهول، وقد ذكره ابن حبان في الثقات. وعبدالله بن مكرز أو عبيد الله على الشك لم أر من ذكره.

السماوات والأرض والذي قبله تقدير سابق على خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكل واحد من هذه التقادير كالتفصيل من التقدير السابق، وفي ذلك دليل على كمال علم الرب وقدرته وحكمته وزيادة تعريف لملائكته وعباده المؤمنين بنفسه وأسمائه.

(١) وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] يغفر ذنبًا، ويفرّج كَرْباً، ويكشف غماً، وينصر مظلوماً، ويأْخذ ظالماً، ويفك عانياً، ويغني فقيراً، ويجبر كسيراً، ويشفي مريضاً، ويقيل عثرة، ويستر عورة، ويعز ذليلاً، ويذل عزيزاً، ويعطى سائلاً، ويذهب بدولة، ويأْتي بأُخرى، ويداول الأَيام بين الناس، ويرفع أَقواماً، ويضع آخرين، يسوق المقادير التي قدرها قبل خلق السموات والأَرض بخمسين أَلف عام إِلى مواقيتها، فلا يتقدم شيء منها عن وقته ولا يتأَخر، بل كل منها قد أَحصاه كما أَحصاه كتابه، وجرى به قلمه، ونفذ فيه حكمه، وسبق به علمه، فهو المتصرف في الممالك كلها وحده تصرف ملك قادر قاهر عادل رحيم تام الملك، لا ينازعه في ملكه منازع، ولا يعارضه فيه معارض، فتصرفه فى المملكة دائر بين العدل والإِحسان والحكمة والمصلحة والرحمة، فلا يخرج تصرفه عن ذلك.

وفى تفسير الحافظ أَبى بكر أَحمد بن موسى بن مردويه من حديث الحمانى: حدثنا إِسحق بن سليمان عن معاوية بن يحيى عن يونس بن ميسرة عن أَبى إدريس عن أَبى الدرداء أَنه سئل عن قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾، فقال: سئل عنها رسول الله ﷺ فقال: «مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْباً، وَيُفَرِّجَ كَرْباً، وَيَرْفَعَ قَوْماً، وَيَضَعَ آخَرِينَ»(٢).

---

(١) ١٢٣ طريق الهجرتين.

(٢) أخرجه البخاري معلقاً من قول أبي الدرداء ﷺ في كتاب التفسير، باب سورة الرحمن قبل حديث (رقم ٤٨٧٨) وأخرجه مرفوعاً ابن حبان (٢/ ٤٦٤ رقم ٦٨٩) وفي الموارد (رقم ١٧٦٣) والطبراني في الأوسط (٣/ ٢٧٨ رقم ٣١٤٠) وفي مسند الشاميين (٣/ ٢٥٥-٢٥٦ رقم ٢٢٠٢) والبيهقي في الشعب (٢/ ٣٦ رقم ١١٠١) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٢٣).

[(١)]ثم خوف سبحانه الإنسان الذي هذا وصفه حين يبعثر ما في القبور، ويحصل ما في الصدور، أي ميز وجمع وبين وأظهر ونحو ذلك، وجمع سبحانه بين القبور والصدور، كما جمع بينهما النبي ﷺ في قوله: «ملأ الله أجوافهم وقبورهم نارًا»[(٢)]. فإن الإنسان يواري صدره ما فيه من الخير والشر، ويواري قبره جسمه، فيخرج الرب جسمه من قبره وسره من صدره، فيصير جسمه بارزًا على الأرض وسره باديًا على وجهه، كما قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١] وقال ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ [القلم: ١٦].

***

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾.

[(٣)]الجنة: اسم شامل لجميع ما حوته من البساتين والمساكن والقصور، وهي جنات كثيرة جدًّا، كما روى البخاري في صحيحه، عن أنس بن مالك أن أم الربيع بنت البراء وهي أم حارثة بن سرقة أتت رسول الله ﷺ، فقالت: يا نبي الله ألا تحدثني عن حارثة وكان قتل يوم بدر، أصابه سهم غرب، فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء. قال: «يا أم حارثة، إنها جنان في الجنة وإن أبنك أصاب الفردوس الأعلى»[(٤)] وفي الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «جنتان من ذهب آنيتها وحليتها وما فيها، وجنتان من فضة آنيتها وحليتها وما فيها، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»[(٥)] وقد قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]

(١) ٥٢ التبيان.
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٩٣١) ومسلم (رقم ٦٢٧) وانظر: فتح الباري (٨/ ١٩٨) (١١/ ١٩٥).
(٣) ٧٧ حادي الأرواح.
(٤) أخرجه البخاري (رقم ٢٨٠٩) وانظر: عمدة القاري (١٤/ ١٠٦).
(٥) أخرجه البخاري (رقم ٤٨٧٨) ومسلم (رقم ١٨٠) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٤٣١-٤٣٢).

فذكرهما ثم قال: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٦٢]. فهذه أربع، وقد اختلف في قوله: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا ﴾ هل المراد به أنهما فوقهما أو تحتهما على قولين: فقالت طائفة: من دونهما. أي أقرب منهما إلى العرش فيكونان فوقهما.

وقالت طائفة: بل معنى من دونهما تحتهما قالوا: وهذا المنقول في لغة العرب إذا قالوا: هذا دون هذا أي دونه في المنزلة، كما قال بعضهم لمن بالغ في مدحه: أنا دون ما تقول، وفوق ما في نفسك. وفي الصحاح: دون نقيض فوق، وهو تقصير عن الغاية، ثم قال ويقال: هذا دون هذا، أي أقرب منه، والسياق يدل على تفضيل الجنتين الأوليين من عشرة أوجه:

(أحدها): قوله: ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾ [الرحمن: ٤٨]، وفيه قولان: أحدهما: أنه جمع فنن، وهو الغصن. والثاني: أنه جمع فن وهو الصنف أي ذواتا أصناف شتى من الفواكه وغيرها، ولم يذكر ذلك في اللتين بعدهما.

(الثاني): قوله: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ [الرحمن: ٥٠]، وفي الأخريين: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ [الرحمن: ٦٦] والنضاخة هي الفوارة، والجارية السارحة، وهي أحسن من الفوارة، فإنها تضمن الفوران والجريان.

(الثالث): أنه قال: ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ [الرحمن: ٥٢] وفي الأخريين ﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [الرحمن: ٦٨]، ولا ريب أن وصف الأوليين أكمل، واختلف في هذين الزوجين بعد الاتفاق على أنهما صنفان.

فقالت: طائفة الزوجان الرطب واليابس، الذي لا يقصر في فضله وجودته عن الرطب، وهو متمتع به كما متمتع باليابس، وفيه نظر لا يخفى، وقالت: طائفة الزوجان صنف معروف وصنف من شكله غريب، وقالت: طائفة نوعان ولم تزد، والظاهر والله أعلم: أنه الحلو والحامض والأبيض والأحمر، وذلك لأن اختلاف أصناف الفاكهة أعجب وأشهى وألذ للعين والفم.

(الرابع): أنه قال: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٍ ﴾ [الرحمن: ٥٤]، وهذا تنبيه على فضل الظهائر وخطرها وفي الأخريين، قال: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٍ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ [الرحمن: ٧٦] وفسر الرفرف بالمحابس والبسط وفسر بالفرش، وفسر بالمحابس فوقها، وعلى كل قول فلم يصفه بما وصف به فرش الجنتين الأوليين.

(الخامس): أنه قال: ﴿وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤] أي قريب وسهل يتناولونه كيف شاؤا، ولم يذكر ذلك في الأخريين.

(السادس): أنه قال: ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ ﴾ [الرحمن: ٥٦] أي قد قصرن طرفهن على أزواجهن، فلا يرون غيرهم لرضاهن بهم ومحبتهن لهم، وذلك يتضمن قصر أطراف أزواجهن عليهن، فلا يدعهم حسنهن أن ينظروا إلى غيرهن، وقال في الأخريين: ﴿ حُورٌ مَّقۡصُورَٰتٌ فِي ٱلۡخِيَامِ ﴾ [الرحمن: ٧٢] ومن قصرت طرفها على زوجها باختيارها أكمل ممن قصرت بغيرها.

(السابع): أنه وصفهن بشبه الياقوت والمرجان في صفاء اللون وإشراقه وحسنه، ولم يذكر ذلك في التي بعدها.

(الثامن): أنه قال ﷺ في الجنتين الأوليين: ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠] وهذا يقتضي أن أصحابهما من أهل الإحسان المطلق الكامل، فكان جزاؤهم بإحسان كامل.

(التاسع): أنه بدأ بوصف الجنتين الأوليين، وجعلهما جزءًا لمن خاف مقامه، وهذا يدل على أنهما أعلى جزاء الخائف لمقامه، فرتب الجزاء المذكور على الخوف ترتيب المسبب على سببه، ولما كان الخائفون على نوعين مقربين وأصحاب يمين ذكر جنتي المقربين، ثم ذكر جنتي أصحاب اليمين.

(العاشر): أنه قال: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٦٢]، والسياق يدل على أنه

نقيض فوق، كما قال الجوهري فإن قيل: فكيف انقسمت هذه الجنان الأربع على من خاف مقام ربه. قيل: لما كان الخائفون نوعين، كما ذكرنا كان للمقربين منهم الجنتان العاليتان، ولأصحاب اليمين الجنتان اللتان دونهما، فإن قيل فهل الجنتان لمجموع الخائفين، يشتركون فيهما أم لكل واحد جنتان، وهما البستانان قيل: هذا فيه قولان للمفسرين. ورجح القول الثاني بوجهين: (أحدهما) من جهة النقل و(الثاني) من جهة المعنى، فأما الذي من جهة النقل، فإن أصحاب هذا القول رووا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «هما بستانان في رياض الجنة»[1]. وأما الذي من جهة المعنى، فإن إحدى الجنتين جزاء أداء الأوامر. والثانية جزاء اجتناب المحارم.

فإن قيل: فكيف قال في ذكر النساء ﴿ فِيهِنَّ ﴾ في الموضعين، ولما ذكر غيرهن قال ﴿ فِيهِمَا ﴾.

قيل: لما ذكر الفرش قال بعدها: ﴿ فِيهِنَّ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ ثم أعاده في الجنتين الأخريين بهذا اللفظ ليتشاكل اللفظ والمعنى والله أعلم.

[2]أما الفرش فقد قال تعالى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ [الرحمن: ٥٤] قال تعالى: ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ [الواقعة: ٣٤] فوصف الفرش بكونها مبطنة بالإستبرق، وهذا يدل على أمرين:

(أحدهما): أن ظهائرها أعلى وأحسن من بطائنها، لأن بطائنها للأرض وظهائرها للجمال والزينة والمباشرة، قال سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن أبي هبيرة ابن مريم عن عبد الله في قوله بطائنها من إستبرق، قال: هذه البطائن قد خبرتم

---

(١) قال السيوطي في الدر (٧/ ٧٠٨): وأخرج ابن مردويه عن عياض بن تميم أنه سمع رسول الله ﷺ تلا ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦] قال: بستانان عرض كل واحد منها مسيرة مائة عام.. وذكره الحافظ ابن حجر في اللسان (٢/ ٢٨٢) في ترجمة الحسين بن داود البلخي وقال: حديثه موضوع. وانظر: ميزان الاعتدال (٢/ ٢٨٧-٢٨٨).

(٢) ١٤٧ حادي الأرواح.

بها، فكيف بالظهائر[١].

(الثاني): يدل على أنها فرش عالية لها سمك وحشو بين البطانة والظهارة، وقد روى في سمكها وارتفاعها آثار إن كانت محفوظة، فالمراد ارتفاع محلها كما رواه الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ قال ارتفاعها كما بين السماء والأرض ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام[٢]، قال الترمذي: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد قيل، ومعناه: إن ارتفاع المذكور للدرجات والفرش عليها قلت رشدين بن سعد عنده مناكير: قال الدارقطني: ليس بالقوي، وقال أحمد: لا يبالي عمن روى، وليس به بأس في الرقاق. وقال: أرجو أنه صالح الحديث، وقال يحيى بن معين: ليس بشيء وقال أبو زرعة: ضعيف. وقال الجوزجاني: عنده مناكير، ولا ريب أنه كان سيء الحفظ، فلا يعتمد على ما ينفرد به، وقد قال ابن وهب: حدثنا عمرو بن الحارث عن دراج أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ قال: «ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض»، وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ فالله أعلم. وقال الطبراني: حدثنا المقدام بن داود حدثنا أسد بن موسى حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن مطرف عن عبد الله بن الشخير عن كعب في قوله ﷻ: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ قال: مسيرة أربعين سنة. قال الطبراني: حدثنا إبراهيم بن نائلة حدثنا إسماعيل بن عمرو والبجلي حدثنا إسرائيل عن جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة قال سئل رسول الله ﷺ عن الفرش المرفوعة قال: «لو طرح فراش من

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٥١٦ رقم ٣٧٧٢) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقال المنذري في الترغيب (٤/ ٢٩٥) رواه البيهقي موقوفاً بإسناد حسن.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٧٥) والترمذي (رقم ٣٢٩٤) وأبو الشيخ في العظمة (٣/ ١٠٩٦ رقم ٥٩٣) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ٢٩٥): رواه ابن أبي الدنيا والترمذي وقال: حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث رشدين يعني عن عمرو بن الحارث عن دراج.

أعلاها إلى قرارها مائة خريف»[١]. وفي رفع هذا الحديث نظر، فقد قال ابن أبي الدنيا: حدثنا إسحاق بن إسماعيل حدثنا معاذ بن هشام قال: وجدت في كتاب أبي القاسم عن أبي أمامة في قوله ﷺ: «﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ قال: لو أن أعلاها سقط ما بلغ أسفلها أربعين خريفًا»[٢].

[٣]أعظم الإحسان الإيمان والتوحيد، والإنابة إلى الله، والإقبال عليه، والتوكل عليه، وأن يعبد الله كأنه يراه: إجلالا ومهابة وحياء ومحبة وخشية، فهذا هو مقام الإحسان، كما قال النبي ﷺ وقد سأله جبريل عن الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه»[٤].

وإذا كان هذا هو الإحسان فرحمة الله قريب من صاحبه، فإن الله إنما يرحم أهل توحيده المؤمنين به، وإنما كتب رحمته ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] والذين يتبعون رسوله، فهؤلاء هم أهل الرحمة، كما أنهم هم المحسنون، وكما أحسنوا جوزوا بالإحسان، و﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] يعني هل جزاء من أحسن عبادة ربه إلا أن يحسن ربه إليه، قال ابن عباس: هل جزاء من قال لا إله إلا الله، وعمل بما جاء به محمد إلا الجنة، وقد ذكر ابن أبي شيبة وغيره من حديث الزبير بن عدي عن أنس بن مالك قال: قرأ

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٨/ ٢٤٢ رقم ٧٩٤٧) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ٢٩٥ رقم ٥٧٠٤): رواه الطبراني ورواه غيره موقوفاً على أبي أمامة وهو أشبه بالصواب. وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٢٠): رواه الطبراني وفيه جعفر بن الزبير الحنفي وهو ضعيف، وانظر: عمدة القاري (١٩/ ٢١٩).

(٢) ذكره السيوطي في الدر (٨/ ١٥) وعزاه إلى ابن أبي شيبة وهناد وابن أبي الدنيا في صفة الجنة.

(٣) ١٨ بدائع جـ٣.

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٥٠) ومسلم (رقم ٨، ٩) وانظر: فتح الباري (١/ ١٢٠) وشرح النووي (١/ ١٥٧).

رسول الله ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴾ ثم قال: «هل تدرون ما قال ربكم»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: «يقول هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة»[١].

[٢]ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة الإحسان، وهي لب الإيمان وروحه وكماله، وهذه المنزلة تجمع جميع المنازل، فجميعها منطوية فيها، وكل ما قيل من أول الكتاب إلىٰ ههنا فهو من الإحسان.

فالإحسان جامع لجميع أبواب الحقائق، وهو أن تعبد الله كأنك تراه، أما الآية: فقال ابن عباس رضي الله عنهما والمفسرون: هل جزاء من قال: لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد إلا الجنة. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قرأ: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴾ ثم قال: «هل تدورن ماذا قال ربكم»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: «يقول: هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة»[٣].

وأما الحديث: فإشارة إلىٰ كمال الحضور مع الله ﷻ ومراقبته الجامعة لخشيته، ومحبته ومعرفته، والإنابة إليه، والإخلاص له، ولجميع مقامات الإيمان.

***

﴿ فِيهِمَا فَـٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ ﴾.

[٤]يُذكر عن ابن عباس موقوفاً ومرفوعاً: «ما مِن رُمَّانٍ من رُمَّانِكم هذا إلا وهو مُلقَّحٌ بحبَّةٍ من رُمَّانِ الجنَّةِ»[٥] والموقوفُ أشْبَهُ. وذكر حَربٌ وغيره عن عليٍّ أنه قال:

---

(١) عزاه السيوطي في الدر (٧/ ٧١٣) إلىٰ ابن مردويه عن جابر بن عبدالله مرفوعاً. بينما عزاه في (٧/ ٧١٤) إلىٰ الحكيم الترمذي والبغوي والديلمي وابن النجار عن أنس مرفوعاً أيضاً، وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٩).

(٢) ٤٥٩ مدارج جـ٢.

(٣) تقدم في سورة الأعراف علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦] قريبًامن هذا. (ج).

(٤) ٣٥١ زاد المعاد جـ٣.

(٥) أخرجه الديلمي في الفردوس (٤/ ٤١ رقم ٦١٢٩) وابن عدي في الكامل (٦/ ٢٨٥) وقال الذهبي في =

كُلُوا الرُّمَّانَ بِشحْمِه، فإنه دباغُ المَعِدَةِ[1]. حلوُ الرُّمَّان حار رطب، جيدٌ للمَعِدَة، مقوٍ لها بما فيه من قبْضٍ لطيف، نافع للحلق والصدر والرِّئة، جيدٌ للسُّعال، وماؤه مُلَيِّن للبطن، يَغْذي البدن غِذاءً فاضلاً يسيراً، سريعُ التحلُّل لرِقَّته ولطافته، ويُولِّد حرارة يسيرة في المعدة وريحاً، ولذلك يُعين على الباه، ولا يصلح للمَحْمُومين، وله خاصيَّة عجيبة إذا أُكل بالخبز يمنعه من الفساد في المعدة. وحامضه بارد يابس، قابض لطيف، ينفع المَعِدَة الملتهبة، ويُدِرُّ البَوْل أكثرَ من غيره من الرُّمَّان، ويُسكِّنُ الصَّفْراء، ويقطع الإسهال، ويمنع القيء، ويُلطِّف الفضول، ويُطفيءُ حرارة الكبد، ويُقَوِّي الأعضاء، نافع من الخَفَقان الصَّفراوي، والآلام العارضة للقلب، وفم المعدة، ويُقوِّي المَعِدَة، ويدفع الفُضول عنها، ويُطفئُ المِرَّة الصفراء والدم، وإذا استُخرجَ ماؤه بشَحْمه، وطُبِخَ بيسير من العسل حتى يصير كالمرهم، واكتُحِلَ به، قطع الصفرة من العَيْن، ونقَّاها من الرطوبات الغليظة، وإذا لُطخ على اللِّثَة، نفع من الأَكلة العارضة لها، وإن استُخرج ماؤهما بشحمهما، أطلَق البطن، وأحْدَر الرُّطوباتِ العَفِنَةَ المُرِّية، ونفع مِن حُميَّات الغب المُتطاوِلة.

وأما الرُّمَّان المزُّ، فمتوسط طبعاً وفعلاً بين النوعين، وهذا أمْيَلُ إلى لطافة الحامض قليلاً، وحَبُّ الرُّمَّان مع العسل طِلاءٌ للداحِس والقروح الخبيثة، وأقماعُه للجراحات، قالوا: ومَن ابتلع ثلاثةً من جُنبُذِ الرُّمَّان في كل سنة، أمِنَ مِنَ الرَّمد سنته كلَّها.

***

﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ ﴾.

= الميزان (٦/ ٣٦٠) في ترجمة محمد بن الوليد بن أبان القلانسي: فمن أباطيله: حدثنا أبو عاصم وذكر الحديث. وضعفه العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٢٥٢ رقم ٢٢٤٤).

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٢) والبيهقي في الشعب (٥/ ١٠٤ رقم ٥٩٥٨) وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ٩٦): رواه أحمد ورجاله ثقات.

[(١)]قال تعالىٰ في وصفهن[(٢)]: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢] المقصورات المحبوسات، قال أبو عبيدة: خدرن في الخيام، وكذلك قال مقاتل: وفيه معنىٰ آخر، وهو أن يكون المراد أنهن محبوسات علىٰ أزواجهن، لا يرون غيرهم، وهم في الخيام، وهذا معنىٰ قول من قال: قصرن علىٰ أزواجهن، فلا يردن غيرهم، ولا يطمحن إلىٰ من سواهم، وذكره الفراء. قلت: وهذا معنىٰ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ ولكن أولئك قاصرات بأنفسهن، وهؤلاء مقصورات، وقوله: ﴿فِى ٱلْخِيَامِ﴾ علىٰ هذا القول صفة لحور، أي هن في الخيام، وليس معمولًا لمقصورات، وكأن أرباب هذا القول فسروا بأن يكن محبوسات في الخيام، لا تفارقنها إلىٰ الغرف والبساتين، وأصحاب القول الأول يجيبون عن هذا بأن الله سبحانه وصفهن بصفات النساء المخدرات المصونات، وذلك أجمل في الوصف، ولا يلزم من ذلك أنهن لا يفارقن الخيام إلىٰ الغرف والبساتين، كما أن نساء الملوك ودونهم من النساء المخدرات المصونات لا يمنعن أن يخرجن في سفر وغيره إلىٰ منتزه وبستان ونحوه، فوصفهن اللازم لهن القصر في البيت، ويعرض لهن مع الخدم الخروج إلىٰ البساتين ونحوها، وأما مجاهد فقال: مقصورات قلوبهن علىٰ أزواجهن في خيام اللؤلؤ، وقد تقدم وصف النسوة الأول بكونهن قاصرات الطرف، وهؤلاء بكونهن مقصورات، والوصفان لكلا النوعين، فإنهما صفتا كمال، فتلك الصفة قصر الطرف عن طموحه إلىٰ غير الأزواج، وهذه الصفة قصر الرجل علىٰ التبرج والبروز الظهور للرجال.

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن: ٧٠] ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ فالخيرات جمع خيرة، وهي مخففة من خيره: كسيدة ولينة، وحسان جمع حسنة، فهن خيرات الصفات والأخلاق والشيم وحسان الوجوه، قال وكيع: حدثنا سفيان عن

---

(١) ١٥٩ حادي الأرواح.

(٢) أي الحور العين.

جابر عن القاسم عن أبي بزة عن أبي عبيدة عن مسروق عن عبد الله قال: «لكل مسلم خيرة، ولكل خيرة خيمة، ولكل خيمة أربعة أبواب، يدخل عليها في كل يوم من كل باب تحفة وهدية وكرامة، لم تكن قبل ذلك: لا ترحات، ولا ذفرات، ولا بخرات، ولا طامحات»[(١)]. اهـ.

[(٢)]ذكر خيامهم ذكر خيامهم وسررهم وأرائكهم وبشخاناتهم، قال تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢]، وفي الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها ستون ميلا، فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن، فلا يرى بعضهم بعضاً»، وفي لفظ لهما: «في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة، عرضها ستون ميلا، في كل زاوية منها أهل، ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمن» وفي لفظ آخر لهما أيضًا: «الخيمة درة طولها في السماء ستون ميلا، في كل زاوية منها أهل للمؤمن، لا يراهم الآخرون»[(٣)] وللبخاري وحده في لفظ: «طولها ثلاثون ميلًا»[(٤)]. وهذه الخيم غير الغرف والقصور، بل هي خيام في البساتين وعلى شواطئ الأنهار.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا الحسين بن عبد الرحمن، عن أحمد بن أبي الحوري. قال: سمعت أبا سليمان قال: «ينشأ خلق الحور العين إنشأ، فإذا تكامل خلقهن ضربت عليهم الملائكة الخيام»[(٥)].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٣٢٨ رقم ١٨٧٦٣) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ٢٨٤): رواه ابن أبي الدنيا من رواية جابر الجعفي موقوفاً. وانظر: الدر المنثور (٧/ ٧٢٠) وتفسير ابن كثير (٤/ ٢٨١).

(٢) ١٥٠ حادي الأرواح.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٤٣، ٤٨٧٩) ومسلم (رقم ٢٨٣٨) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٢٣-٣٢٤) وشرح النووي (١٧/ ١٧٥).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٤٣).

(٥) انظر: فيض القدير (٤/ ٤٤٨).

وقال بعضهم: لما كن أبكاراً، وعادة البكر أن تكون مقصورة في خدرها حتى يأخذها بعلها، أنشأ الله تعالى الحور، وقصرهن في خدور الخيام، حتى يجمع بينهن وبين أوليائه في الجنة.

وقال ابن أبي الدنيا: «حدثنا إسحاق، حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن جابر، عن القاسم بن أبي بزة، عن أبي عبيدة، عن مسروق، عن عبدالله قال: «لكل مسلم خيرة ولكل خيرة خيمة، ولكل خيمة أربعة أبواب يدخل عليها كل يوم من كل باب تحفة وهدية وكرامة لم تكن قبل ذلك، لا مزجات ولا زفرات ولا بخرات ولا طماحات، حور عين كأنهن بيض مكنون»[(١)]. حدثنا علي بن الجعد حدثنا شعبة عن عبد الله بن ميسرة قال: سمعت أبا الأحوص يحدث عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ قال: در مجوف[(٢)].

وقال عبد الله بن المبارك: أنبأنا سليمان التيمي عن قتادة عن خليد القصري عن أبي الدرداء قال: «الخيمة لؤلؤة واحدة لها سبعون باباً كلها من درة»[(٣)]. قال ابن المبارك وأخبرنا همام عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «الخيمة درة مجوفة فرسخ في فرسخ لها أربعة الآف مصراع من ذهب»[(٤)].

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا فضيل بن عبد الوهاب حدثنا شريك عن منصور عن مجاهد: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ قال: في خيام اللؤلؤ والخيمة لؤلؤة واحدة. حدثني محمد بن جعفر حدثنا منصور حدثنا يوسف بن الصباح عن أبي صالح عن

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٣٢٨ رقم ١٨٧٦٣) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ٢٨٤ رقم ٥٦٥٦): رواه ابن أبي الدنيا من رواية جابر الجعفي موقوفاً. وانظر: الدر المنثور (٧/ ٧٢٠) وتفسير ابن كثير (٤/ ٢٨١).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٤٢ رقم ٣٤٠٦١).

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٢٥٠) وانظر: عمدة القاري (١٥/ ١٥٣).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٧/ ١٦٢) وابن أبي شيبة (٧/ ٤١ رقم ٣٤٠٥٨) وعبد الرزاق (١١/ ٤١٨ رقم ٢٠٨٨٢). وقد ذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٢٨٥) وقال: وإسناد هذه أصح.

ابن عباس: حور مقصورات في الخيام. قال الخيمة درة من لؤلؤة مجوفة، طولها فرسخ وعرضها فرسخ، ولها ألف باب من ذهب، حولها سرادق دوره خمسون فرسخًا، يدخل عليه من كل باب منها ملك بهديه من عند الله ﷻ. وذلك قوله: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد: ٢٣] والله أعلم.

[(١)] وأما السرر فقال تعالى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الطور: ٢٠] وقال تعالى: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴾ [الواقعة: ١٣-١٦] وقال تعالى: ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ فأخبر تعالى عن سررهم بإنها مصفوفة بعضها إلى جانب بعض ليس بعضها خلف بعض، ولا بعيدا من بعض. وأخبر أنها موضونة. والوضن في اللغة النضيد والنسج المضاعف، يقال وضن فلان الحجر أو الآجر، بعضه فوق بعض، فهو موضون. وقال الليث: الوضن نسج السرير وأشباهه، ويقال: درع موضونة مقاربة النسج. وقال رجل من العرب لامرأته: ضني متاع البيت، أي قاربي بعضه من بعض. قال أبو عبيدة والفراء والمبرد وابن قتيبة: موضونة منسوجة مضاعفة، متداخلة بعضها فوق بعض على بعض، كما توضن حلق الدرع، ومنه سمي الوضين، وهو نطاق من سيور تنسج، فيدخل بعضها في بعض، وأنشدوا للأعشى:

ومن نسج داود موضونة   تساق مع الحي عيرًا فعيرًا[(٢)]

قالوا موضونة: منسوجة بقضبان الذهب، مشتبكة بالدر والياقوت والزبرجد. قال هشيم: أنبأنا حصين عن مجاهد عن ابن عباس قال مرمولة بالذهب. وقال مجاهد: موصولة بالذهب. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: موضونة مصفوفة. فأخبر سبحانه أنها مرفوعة. قال عطاء عن ابن عباس، قال: سرر من ذهب، مكللة بالزبرجد

---

(١) ٣٠٤ حادي الأرواح طبعة دار ابن كثير.

(٢) هذا البيت من بحر المتقارب، وينسب إلى الأعشى وقد سبق التعريف به، وذكره البيت الطبري في تفسيره (٢٧/ ١٧٢) وابن منظور في اللسان (١٣/ ٤٥٠).

والدر والياقوت. والسرير مثل ما بين مكة وأيلة. وقال الكلبي: طول السرير في السماء مائة ذراع، فإذا أراد الرجل أن يجلس عليه، تواضع له حتى يجلس عليه، فإذا جلس عليه ارتفع إلى مكانه.

وأما الأرائك فهي جمع أريكة، قال مجاهد عن ابن عباس: ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ [الإنسان: ١٣] قال: لا تكون أريكة حتى يكون السرير في الحجلة، فإذا كان سريرًا بغير حجلة لا يكون أريكة، وإن كانت حجلة بغير سرير لم تكن أريكة، ولا تكون أريكة إلا والسرير في الحجلة، فإذا اجتمعا كانت أريكة. وقال مجاهد: هي الأسرة في الحجال. قال الليث: الأريكة سرير حجلة، فالحجلة والسرير أريكة، وجمعها أرائك. وقال أبو إسحاق: الأرائك الفرش في الحجال. قلت: هاهنا ثلاثة أشياء (أحدها) السرير، و(الثانية) الحجلة وهي البشخانة التي تعلق فوقه، و(الثالث) الفراش الذي على السرير، ولا يسمى السرير أريكة، حتى يجمع ذلك كله. وفي الصحاح: الأريكة سرير متخذ مزين في قبة أو بيت، فإذا لم يكن فيه سرير فهو حجلة، والجمع الأرائك، وفي الحديث: أن خاتم النبي ﷺ كان مثل زر الحجلة، وهو الزر الذي يجمع بين طرفيها من جملة أزرارها، والله أعلم.

***

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ ﴾.

[1]أما البسط والزرابي، فقد قال تعالى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ [الرحمن: ٧٦] وقال تعالى: ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: ١٣-١٦] وذكر هشام عن أبي بشر عن سعد بن جبير قال: الرفرف رياض الجنة، والعبقري عتاق الزرابي. وذكر إسماعيل ابن علية عن أبي رجاء عن الحسن في قوله تعالى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ قال: هي

---

(١) ١٤٨ حادي الأرواح.

البسط قال: وأهل المدينة يقولون: هي البسط. وأما النمارق، فقال الواحدي: هي الوسائد في قول الجميع، واحدها نمرقة بضم النون، وحكى الفراء نمرقة بكسرها، وأنشد أبو عبيدة:

إذا ما بساط اللهو مد وقربت ... للذاته أنماطه ونمارقه[(١)]

قال الكلبي: وسائد مصفوفة بعضها إلى بعض، وقال مقاتل: هي الوسائد مصفوفة على الطنافس. وزرابي بمعنى البسط والطنافس، واحدها زربية في قول جميع أهل اللغة والتعبير، ومبثوثة مبسوطة منشورة.

وأما الرفرف فقال الليث: ضرب من الثياب خضر تبسط الواحد رفرفة. وقال أبو عبيدة: الرفارف البسط، وأنشد لابن مقبل:

وأنا لنازلون تغشى نعالنا ... سوابغ من أصناف ريط ورفرف[(٢)]

وقال أبو إسحاق: قالوا الرفرف ههنا رياض الجنة. وقالوا: الرفرف الوسائد، وقالوا: الرفرف المحابس، وقالوا: فضول المحابس للفرش، وقال المبرد: هو فضول الثياب التي تتخذ الملوك في الفرش وغيره. وقال الواحدي: وكأن الأقرب هذا، لأن الغرب تسمى كسر الخباء، والخرقة التي تخاط في أسفل الخباء رفرفا، ومنه الحديث في وفاة النبي ﷺ: «فرفع الرفرف فرأينا وجهه كأنه ورقة» قال ابن الأعرابي: الرفرف هاهنا طرف البساط، فشبه ما فضل من المحابس عما تحته بطرف الفسطاط، فسمى

---

(١) هذا البيت من بحر الخفيف، وينسب إلى محمد بن عبدالله النميري الثقفي شاعر الغزل نشأ ومات في الطائف، كان كثير التشبيب بزينب أخت الحجاج، فتهدده، ففر إلى اليمن ثم استجار بعبدالملك بن مروان فأجاره وعفا عنه الحجاج على ألا يعود، مات سنة ٩٠هـ. وينسب أيضاً إلى نصيب بن رباح مولى عبدالعزيز بن مروان مات سنة ١٠٨هـ. وذكر البيت ابن منظور في اللسان (١٠/ ٣٦١) منسوباً إلى محمد بن عبدالله بن نمير.

(٢) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى تميم بن أبي بن مقبل من بني العجلان شاعر جاهلي أدرك الإسلام وأسلم، عاش نيفاً ومئة سنة، وعد في المخضرمين له ديوان شعر ورد فيه ذكر وقعة صفين، مات سنة ٣٧هـ.

رفرفًا. قلت: أصل هذه الكلمة من الطرف أو الجانب، فمنه الرفرف في الحائط، ومنه الرفرف وهو كسر الخباء، وجوانب الدرع، وما تدلى منها الواحدة رفرفة، ومنه رفرف الطير إذا حرك جناحه حول الشيء، يريد أن يقع عليه والرفرف ثياب خضر يتخذ منها المحابس الواحدة رفرفة، وكل ما فضل من شيء فثني وعطف فهو رفرف، وفي حديث ابن مسعود في قوله ﷻ: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٨] قال: رأى رفرفا أخضر سد الأفق[١]. وهو في الصحيحين.

فصل وأما العبقري فقال أبو عبيدة: كل شيء من البسط عبقري. قال: ويرون أنها أرض توشى فيها. وقال الليث: عبقر موضع بالبادية كثير الجن، يقال كأنهم جن عبقر. قال أبو عبيدة في حديث النبي ﷺ ذكر عمر: فلم أر عبقريا يفري فرية[٢]. وإنما أصل هذا فيما يقال: إنه نسب إلى عبقر، وهي أرض يسكنها الجن، فصار مثلا منسوبا إلى شيء رفيع، وأنشد لزهير:

تخال عليها جنَّةً عبقـــرية جديرون يوما أن ينالوا فيستعلوا[٣]

وقال أبو الحسن الواحدي: وهذا القول هو الصحيح في العبقري، وذلك أن العرب إذا بالغت في وصف شيء نسبته إلى الجن أو شبهته بهم، ومنه قول لبيد:

جن البَدِيّ رواسيا أقدامها[٤]

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٨٥٨) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦١١) وشرح النووي (٣/ ٧).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٦٨٢) ومسلم (رقم ٢٣٩٣) وانظر: فتح الباري (٧/ ٣٩) وشرح النووي (١٥/ ١٥٩-١٦٢).

(٣) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى زهير بن أبي سلمى، حكيم الشعراء في الجاهلية، وقد سبق التعريف به. وذكر البيت ابن سلام في غريب الحديث (١/ ٨٨) (٣/ ٤٠١) وابن منظور في اللسان (٤/ ٥٣٥) وياقوت في معجم البلدان (٤/ ٧٩). والقرطبي في التفسير (١٧/ ١٩٢).

(٤) هذا عجز بيت من بحر الكامل، وينسب إلى لبيد بن ربيعة العامري، وقد سبق التعريف به، وصدر البيت: غُلبٌ تشذَّر بالذحول كأنها.
ذكر البيت ابن سلام في غريب الحديث (٣/ ٤٧٤) وياقوت الحموي في معجم البلدان (١/ ٣٦٠).

وقال آخر يصف امرأة:

جنية أو لها جن يعلمـها رمي القلوب بقوس ما لها وتر[١]

وذلك أنهم يعتقدون في الجن كل صفة عجيبة، وأنهم يأتون بكل أمر عجيب، ولما كان عبقر معروفا بسكناهم نسبوا كل شيء يبالغ فيه إليها، يريدون بذلك أنه من عملهم وصنعهم، هذا هو الأصل، ثم صار العبقري اسمًا ونعتًا لكل ما بولغ في صفته، ويشهد لما ذكرنا بيت زهير، فإنه نسب الجن إلىٰ عبقر، ثم رأينا أشياء كثيرة نسبت إلىٰ عبقر غير البسط والثياب، كقوله في صفة عمر عبقر.

وروىٰ سلمة عن الفراء قال: العبقري السيد من الرجال، وهو الفاخر من الحيوان والجوهر، فلو كانت عبقر مخصوصة بالوشي، لما نسب إليها غير الموشىٰ، وإنما ينسب إليها البسط الموشية العجيبة الصنعة، كما ذكرنا، كما نسب إليها كل ما بولغ في وصفة، قال ابن عباس: ﴿ وَعَبْقَرِيٍّ ﴾ يريد البسط الطنافس. وقال الكلبي: هي الطنافس المجملة. وقال قتادة: هي عتاق الزرابي. وقال مجاهد: الديباج الغليظ. وعبقري جمع واحده عبقرية، ولهذا وصف بالجمع، وتأمل كيف وصف الله ﷻ الفرش بأنها مرفوعة، والزرابي بأنها مبثوثة، والنمارق بأنها مصفوفة، فرفع الفرش دال علىٰ سمكها ولينها، وبث الزرأبي دال علىٰ كثرتها، وأنها في كل موضع لا يختص بها صدر المجلس دون مؤخره وجوانبه، ووصف المساند يدل علىٰ أنها مهيأة للاستناد إليها دائما ليست مخبأة تصف في وقت دون وقت، والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الرحمن

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

---

(١) هذا البيت من بحر البسيط، وينسب إلىٰ محمد بن بشير الخارجي، شاعر أموي سكن المدينة المنورة وفي شعره متانة وفصاحة، مات ١٣٠ هـ وذكر البيت ابن منظور في اللسان (٤/ ١١).

سُورَةُ الوَاقِعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ ﴾.

[(١)]ذكر الله تعالى أصناف بني آدم: سعيدهم وشقيهم. قسم سعيدهم إلى قسمين: سابقين، وأصحاب يمين، فقال: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ [الواقعة: ١٠] اختلف في تقريرها على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه من باب التوكيد اللفظي، ويكون الخبر قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [الواقعة: ١١]. والثاني: أن يكون السابقون الأول مبتدأ والثاني خبر له على حد قولك: زيد زيد، أي زيد الذي سمعت به هو زيد، كما قال:

أنا أبو النجم وشعري شعري[(٢)]

وكقول الآخر:

إذ الناس ناس، والزمان زمان[(٣)]

---

(١) ٨٥ حادي الأرواح.

(٢) هذا البيت من بحر الرجز، وينسب إلى أبي النجم العجلي: الفضل بن قدامة من بني بكر بن وائل، من أكابر الرجاز ومن أحسن الناس إنشاداً للشعر، كان يحضر مجالس عبدالملك بن مروان وابن هشام، توفي ١٣٠هـ. وذكر بيته هذا كل من ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٦١) وابن حجر في فتح الباري (١/ ١٦) وبدر الدين العيني في عمدة القاري (١٤/ ١٢٨) والمباركفوري في تحفة الأحوذي (٥/ ٢٣٣).

(٣) هذا البيت من بحر الكامل، وينسب إلى الطغرائي: الحسين بن علي بن محمد بن عبدالصمد الأصبهاني، شاعر من الوزراء الكتاب، كان يلقب بالأستاذ، وأثنى عليه المؤرخون، مات سنة ٥١٣هـ، وهذا عجز بيت أما صدره فهو: أصلحت لي زمني ورضت صعابه
وذكر عجز البيت الخطابي في العزلة (ص ٣١) ولم ينسبه لأحد.

قال ابن عطية: وهذا قول سيبويه، والثالث: أن يكون الأول غير الثاني، ويكون المعنين: السابقون في الدنيا إلى الخيرات هم السابقون يوم القيامة إلى الجنات. والسابقون إلى الإيمان هم السابقون إلى الجنان. وهذا أظهر، والله أعلم. فإن قيل: فما تقول في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه من حديث بريدة بن الحصيب قال: أصبح رسول الله ﷺ فدعا بلالاً، فقال: «**يا بلال، بِمَ سبقتني إلى الجنة؟ فما دخلت الجنة قط إلا سمعت خشخشتك أمامي، ودخلت البارحة فسمعت خشخشتك أمامي، فأتيت على قصر مربع مشرف من ذهب، فقلت: لمن هذا القصر؟ قالوا: لرجل من أمة محمد، قلت: أنا محمد لمن هذا القصر؟ قالوا: لعمر بن الخطاب**» فقال بلال: يا رسول الله ﷺ ما أذنت قط إلا وصليت ركعتين، وما أصابني حدث قط إلا توضأت عندها، ورأيت أن لله عليَّ ركعتين، فقال رسول الله ﷺ: «**فبذلك**»[(١)]. قيل: نتلقاه بالقبول والتصديق، ولا يدل على أن أحدًا يسبق رسول الله ﷺ إلى الجنة، وأما تقدم بلال بين يدي رسول الله ﷺ في الجنة فلأن بلالًا كان يدعو إلى الله أولًا في الأذان، فيتقدم أذانه بين يدي رسول الله ﷺ، فتقدم دخوله بين يديه: كالحاجب والخادم. وقد روي في حديث: «أن النبي ﷺ يبعث يوم القيامة وبلال بين يديه ينادي بالأذان»[(٢)]. فتقدمه بين يديه كرامة لرسوله وإظهارًا لشرفه وفضله، لا سبقًا من بلال، بل هذا السبق من جنس سبقه إلى الوضوء ودخول المسجد ونحوه، والله أعلم.

***

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾.

---

(١) أخرجه ابن خزيمة (٢/ ٢١٣ رقم ١٢٠٩) والترمذي (رقم ٣٦٨٩) وأحمد (٥/ ٣٥٤) وفي فضائل الصحابة (رقم ٧١٣)، والبيهقي في الشعب (٣/ ٦ رقم ٢٧١٧) والحاكم (١/ ٤٥٧ رقم ١١٧٩) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقال الترمذي هذا حديثٌ صحيحٌ غريبٌ.

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه (٣/ ١٤١).

[(١)]قال تعالىٰ: ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾ [الرحمن: ٤٨] ﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [الرحمن: ٦٨] والمخضود: الذي قد خضد شوكه، أي نزع وقطع، فلا شوك فيه. وهذا قول ابن عباس ومجاهد ومقاتل وقتادة وأبي الأحوص وقسامة بن زهير وجماعة، واحتج هؤلاء بحجتين: إحداهما: أن الخضد في اللغة القطع، وكل رطب قضيته، فقد خضدته، وخضدت الشجر إذا قطعت شوكه، فهو خضيد ومخضود، ومنه الخضد علىٰ مثال الثمر، وهو كل ما قطع من عود رطب، خضد بمعنىٰ مخضود: كقبض وسلب. والخضاد شجر: رخو لا شوك له. الحجة الثانية: قال ابن أبي داود حدثنا محمد بن مصفى حدثنا محمد بن المبارك حدثنا يحيىٰ بن حمزة حدثنا ثور بن يزيد حدثني حبيب بن عبيد عن عتبة بن عبد السلمي، قال: «كنت جالسًا مع رسول الله ﷺ فجاء أعرابي فقال: يا رسول الله أسمعك تذكر في الجنة شجرة لا أعلم شجرة أكثر شوكًا منها، يعني الطلح. فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله جعل مكان كل شوكة منها ثمرة مثل خصوة التيس الملبود، فيها سبعون لونًا من الطعام، لا يشبه لون آخر**» (الملبود) الذي قد اجتمع شعره بعضه علىٰ بعض[(٢)]. وقال عبد الله بن المبارك: أنبأنا صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر قال كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: أن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم، أقبل أعرابي يوما، فقال: يا رسول الله ﷺ ذكر الله في الجنة شجرة مؤذية، وما كنت أرىٰ في الجنة شجرة تؤذىٰ صاحبها. قال رسول الله ﷺ: «**وما هي**»؟ قال: السدر فإن له شوكًا مؤذيًا قال: «**أليس الله يقول: ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ خضد الله شوكه، فجعل مكان كل شوكة ثمرة**»[(٣)] وقالت طائفة: المخضود هو

(١) ١١٧ حادي الأرواح.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ١٠٣) وفي صفة الجنة (رقم ٣٤٧) والطبراني في الكبير (١٧/ ١٣٠ رقم ٣١٨) وفي مسند الشاميين (رقم ٤٩٢) وانظر: صفة الجنة للمقدسي (رقم ٧٢) بتحقيقي وهو من منشورات دار بلنسية بالرياض.

(٣) أخرجه الحاكم (٢/ ٥١٨ رقم ٣٧٧٨) وذكره المنذري في الترغيب (٤/ ٢٩٣) وقال: رواه ابن أبي الدنيا وإسناده حسن.

الموقر حملًا، وأنكر عليهم هذا القول، وقالوا: لا يعرف في اللغة الخضد بمعنى الحمل، ولم يصب هؤلاء الذين أنكروا هذا القول، بل هو قول صحيح، وأربابه ذهبوا إلى أن الله ﷻ لما خضد شوكة وأذهبه وجعل مكان كل شوكة ثمرة، أوقرت بالحمل، والحديثان المذكوران أن يجمعان القولين، وكذلك قول من قال: المخضود الذي لا يعقر اليد، ولا يرد اليد عنه شوك، ولا أذى فيه. فسره بلازم المعنى، وهكذا غالب المفسرين يذكرون لازم المعنى المقصود تارة وفردا من أفراده تارة، ومثالا من أمثلته، فيحكيها الجماعون للغث والسمين أقوالا مختلفة ولا اختلاف بينها.

وأما الطلح فأكثر المفسرين قالوا: إنه شجرة الموز. قال مجاهد: أعجبهم طلح وج وحسنه فقيل لهم: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ وهذا قول علي بن أبي طالب وابن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري، وقالت طائفة أخرى: بل هو شجر عظام طوال، وهو شجر البوادي الكثير الشوك عند العرب، قال حاديهم:

بشرها دليلها وقالا غدا ترين الطلح والجبالا[1]

ولهذا الشجر نور ورائحة وظل ظليل، وقد نضد بالحمل والثمر مكان الشوك، وقال ابن قتيبة: هو الذي نضد بالحمل أو بالورق والحمل من أوله إلى آخره، فليس له ساق بارز. وقال مسروق: ورق الجنة نضيد من أسفلها إلى أعلاها، وأنهارها تجري من غير أخدود. وقال الليث: الطلح شجر أم غيلان، ليس له شوك أحجن، من أعظم العضاه شوكا، وأصلبه عودا، وأجوده صمغا.

قال أبو إسحاق: يجوز أن يعني به شجر أم غيلان، لأن له نورا طيب الرائحة جدا، فوعدوا بما يحبون مثله، إلا أن فضله على ما في الدنيا كفضل سائر ما في الجنة على سائر ما في الدنيا، فإنه ليس في الجنة إلا الأسامي، والظاهر أن من فسر الطلح المنضود بالموز: إنما أراد التمثيل به الحسن لحسن نضده، وإلا فالطلح في اللغة هو الشجر العظام من شجر البوادي، والله أعلم. وفي الصحيحين من حديث أبي الزناد عن

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ٢٨٩).

الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام، لا يقطعها، فاقرؤا إن شئتم ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾»[١].

[٢]قال تعالىٰ: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ قال أكثر المفسرين: هو الموز، والمنضود: هو الذي قد نضد بعضه علىٰ بعض، كالمشط وقيل: الطلح: الشجر ذو الشوك، نضد مكان كل شوكة ثمرة، فثمره قد نضد بعضه إلىٰ بعض، فهو مثل الموز. وهذا القول أصح، ويكون من ذكر الموز من السلف: أراد التمثيل، لا التخصيص، والله أعلم، وهو حار رطب، أجوده النضيج الحلو، ينفع من خشونة الصدر والرئة والسعال، وقروح الكليتين والمثانة، ويدر البول، ويزيد في المني، ويحرك الشهوة للجماع، ويلين البطن، ويؤكل قبل الطعام، ويضر المعدة، ويزيد في الصفراء والبلغم، ودفع ضرره بالسكر أو العسل.

[٣]في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود قال: قال: أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ فكبرنا، ثم قال: أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟ فكبرنا، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة، وسأخبركم عن ذلك. ما المسلمون في الكفار إلا كشعرة بيضاء في ثور أسود، أو كشعرة سوداء في ثور أبيض»[٤]. هذا لفظ مسلم. وعند البخاري: «وكشعرة سوداء في ثور أبيض» بغير ألف. وعن بريدة بن الحصيب قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة عشرون ومائة صف، هذه الأمة منها ثمانون صفًّا»[٥] رواه الإمام أحمد والترمذي وإسناده علىٰ شرط الصحيح، رواه الطبراني

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٥٢، ٣٢٥٣، ٤٨٨١) ومسلم (رقم ٢٨٢٦).

(٢) ٣٦٦ زاد المعاد جـ٣.

(٣) ٩٠ حادي الأرواح.

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٤٨) ومسلم (٢٢٢) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٨٧-٣٩٢) وشرح النووي (٣/ ٩٥).

(٥) أخرجه أحمد (١/ ٤٥٣) والترمذي (رقم ٢٥٤٦) وابن ماجه (رقم ٤٢٨٩) والحاكم (١/ ١٥٥ رقم ٢٧٣) والطبراني في الأوسط (١/ ١٧٢ رقم ٥٣٩) وفي الصغير (رقم ٨٢) وهناد في الزهد (١/ ١٤٧ =

في معجمه من حديث عبد الله بن عباس، وفي إسناده خالد بن يزيد البجلي، وقد تكلم فيه، ورواه أيضًا من حديث القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود قال: قال: «**كيف أنتم وربع الجنة لكم، ولسائر الناس ثلاثة أرباعها؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**كيف أنتم وثلثها؟**» قالوا: ذاك أكثر قال: «**كيف أنتم والشطر لكم؟**» قالوا: ذاك أكثر فقال رسول الله ﷺ: «**أهل الجنة عشرون ومائة صف، لكم منها ثمانون صفًّا**»[1] قال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن القاسم بن عبد الرحمن إلا الحارث بن خضيرة، تفرد به عبد الواحد بن زياد، وقال عبد الله بن أحمد: حدثنا موسى بن غيلان بن هاشم بن مخلد حدثنا عبد الله بن المبارك عن سفيان عن أبي عمرو عن أبيه عن أبي هريرة قال: لما نزلت: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٣٩، ٤٠] قال رسول الله ﷺ: «**أنتم ربع أهل الجنة، أنتم ثلث أهل الجنة، أنتم نصف أهل الجنة، أنتم ثلثا أهل الجنة**»[2] قال الطبراني: تفرد برفعه ابن المبارك عن الثوري، وقال خيثمة بن سليمان القرشي حدثنا أبو قلابة هو عبد الملك بن محمد بن بكار الصيرفي حدثنا حماد بن عيسى حدثنا سفيان الثوري عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «**أهل الجنة عشرون ومائة صف، أنتم منها ثمانون صفًّا**». وهذه الأحاديث قد تعددت طرقها، واختلفت مخارجها، وصح سند بعضها، ولا تنافي بينها وبين حديث الشطر، لأنه رجا أولًا أن يكونوا شطر أهل الجنة، فأعطاه الله سبحانه

= رقم ١٩٦) وابن المبارك في الزهد (رقم ١٥٧٢) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٨٨، ٤١٢) وشرح النووي (٣/ ٩٥).

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٥٣) والبزار (٥/ ٣٦٨-٣٦٩ رقم ١٩٩٩) وأبو يعلى (٩/ ٢٤١ رقم ٥٣٥٨) والطبراني في الأوسط (١/ ١٧٢ رقم ٥٣٩) وفي الكبير (١٠/ ١٦٨ رقم ١٠٣٥٠) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٤٠٣): رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني في الثلاثة ورجالهم رجال الصحيح غير الحارث بن حصيرة وقد وثق.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧/ ١٠١) والخطيب البغدادي في موضح أوهام الجمع والتفريق (٢/ ٣٩٣) وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٣٩٧) وفتح الباري (١١/ ٣٨٧).

رجاءه، وزاد عليه سدسًا آخر، وقد روى أحمد في مسنده من حديث أبي الزبير. أنه سمع جابرًا يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أرجو أن يكون من يتبعني من أمتي يوم القيامة ربع أهل الجنة» قال: فكبرنا ثم قال: «فأرجو أن تكونوا الشطر»[(١)] وإسناده على شرط مسلم.

***

﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ٣٧ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٣٨﴾.

[(٢)]أعاد الضمير إلى النساء ولم يجر لهن ذكر لأن الفرش دلت عليهن، إذ هي محلهن، وقيل: الفرش في قوله: ﴿وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٤] كناية عن النساء، كما يكنى عنهن بالقوارير والأزر وغيرها، ولكن قوله مرفوعة يأبى هذا، إلا أن يقال: المراد رفعة القدر، وقد تقدم تفسير النبي ﷺ، للفرش وارتفاعها، فالصواب أنها الفرش نفسها، ودلت على النساء لأنها محلهن غالبًا. قال قتادة وسعيد بن جبير: خلقناهن خلقًا جديدًا، وقال ابن عباس: يريد نساء الآدميات. وقال الكلبي ومقاتل: يعني نساء أهل الدنيا العُجز الشمط، يقول تعالى: خلقناهن بعد الكبر والهرم، وبعد الخلق الأول في الدنيا. ويؤيد هذا التفسير حديث أنس المرفوع: «هن عجائزكم العمش الرمص» رواه الثوري عن موسى بن عبيدة عن يزيد الرقاشي عنه، ويؤيده ما رواه يحيى الحماني حدثنا ابن إدريس عن ليث عن مجاهد عن عائشة: أن رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها عجوز، فقال: «من هذه» فقالت: إحدى خالاتي قال: «أما أنه لا يدخل الجنة العجوز» فدخل على العجوز من ذلك ما شاء الله، فقال النبي ﷺ: «﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ﴾ [الواقعة: ٣٥] خلقًا آخر، يحشرون يوم القيامة حفاة عراة غرلًا، وأول

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٤٦، ٣٨٣) وأبو عوانة (رقم ٢٥٨) والطبراني في الكبير (١٠/ ٥ رقم ٩٧٦٥) وقال ابن كثير في تفسير (١/ ٣٩٦): وهو على شرط مسلم.

(٢) ١٦٠ حادي الأرواح.

من يكسى إبراهيم خليل الله» ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿ إِنَّآ أَنشَأۡنَـٰهُنَّ إِنشَآءً ﴾[1]. قال آدم ابن أبي إياس: حدثنا شيبان عن الزهري عن جابر الجعفي عن زيد بن مرة عن سلمة بن يزيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنشَأۡنَـٰهُنَّ إِنشَآءً ﴾ قال: «يعني الثيب والأبكار اللاتي كن في الدنيا»[2] قال آدم: وحدثنا المبارك بن فضالة عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة العجز» فبكت عجوز فقال رسول الله ﷺ: «أخبروها أنها يومئذ ليست بعجوز، إنها يومئذ شابة، إن الله ﷻ يقول: ﴿ إِنَّآ أَنشَأۡنَـٰهُنَّ إِنشَآءً ﴾». وقال ابن أبي شيبة حدثنا أحمد بن طارق حدثنا مسعدة بن اليسع حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن عائشة أن النبي ﷺ أتته عجوز من الأنصار، فقالت: يا رسول الله ﷺ ادع الله تعالى أن يدخلني الجنة. فقال نبي الله ﷺ: «إن الجنة لا يدخلها عجوز» فذهب نبي الله ﷺ فصلى ثم رجع إلى عائشة فقالت عائشة: لقد لقيت من كلمتك مشقة وشدة، فقال ﷺ: «إن ذلك كذلك إن الله تعالى إذا أدخلهن الجنة حولهن أبكارًا»[3]. وذكر مقاتل قولًا آخر، وهو اختيار الزجاج: إنهن الحور العين، التي ذكرهن، قيل: أنشأهن الله ﷻ لأوليائه، لم يقع عليهن ولادة، والظاهر أن المراد أنشأهن الله تعالى في الجنة إنشاء، ويدل عليه وجوه:

أحدها: أنه قد قال في حق السابقين: ﴿ يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ۝ بِأَكۡوَابٖ ﴾ إلى قوله: ﴿ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ ﴾ [الواقعة: ١٧-٢٣] فذكر سردهم وآنيتهم وشرابهم وفاكهتهم وطعامهم وأزواجهم والحور العين، ثم ذكر أصحاب الميمنة وطعامهم وشرابهم وفراشهم ونساءهم، والظاهر أنهن مثل نساء من قبلهم خلقن في الجنة.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٧/ ١٠٢).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٧/ ١٨٥) وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٩٢) وتهذيب الكمال (٣٢/ ١٤٧) والاستيعاب (٢/ ٦٤٤).

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥/ ٣٥٧ رقم ٥٥٤٥) وهناد في الزهد (١/ ٥٨ رقم ٢٤).

الثاني: أنه سبحانه قال: ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَـٰهُنَّ إِنشَآءً ﴾، وهذا ظاهر أنه إنشاء أول لا ثان، لأنه سبحانه حيث يريد الإنشاء الثاني يقيده بذلك كقوله: ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ [النجم: ٤٧] وقوله: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الواقعة: ٦٢].

الثالث: إن الخطاب بقوله: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَـٰثَةً ﴾ [الواقعة: ٧] إلى آخره للذكور والإناث، والنشأة الثانية عامة أيضا للنوعين، وقوله: ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَـٰهُنَّ إِنشَآءً ﴾ ظاهره اختصاصهن بهذا الإنشاء، وتأمل تأكيده بالمصدر، والحديث لا يدل على اختصاص العجائز المذكورات بهذا الوصف، بل يدل على مشاركتهن للحور العين في هذه الصفات المذكورة، فلا يتوهم انفراد الحور العين عنهن بما ذكر من الصفات، بل هنّ أحق به منهن، فالإنشاء واقع على الصنفين، والله أعلم.

وقوله: ﴿ عُرُبًا ﴾ جمع عروب: وهن المتحببات إلى أزواجهن، قال ابن الأعرابي: العروب من النساء: المطيعة لزوجها المتحببة إليه. وقال أبو عبيدة: العروب الحسنة التبعل.. قلت: يريد حسن مواقعتها وملاطفتها لزوجها عند الجماع. وقال المبرد: هي العاشقة لزوجها، وأنشد للبيد:

وفي الحدوج عروب غير فاحشة ريا الروادف يعشى دونها البصر[١]

وذكر المفسرون في تفسير العُرُب: أنهن العواشق المتحببات الغنجات الشكلات المتعشقات الغلمات المغنوجات، كل ذلك من ألفاظهم. وقال البخاري في صحيحه: عربا مثقلة واحدها عروب، مثل صبور وصبر، وتسميها أهل مكة العربة. وأهل المدينة الغنجة. وأهل العراق الشكلة[٢]. والعُرُب: المتحببات إلى أزواجهن، هكذا

(١) هذا البيت من بحر البسيط وهو ينسب إلى لبيد بن ربيعة العامري وقد سبق التعريف به. وذكر البيت الطبري في تفسيره (٢٧/ ١٨٦).

(٢) أخرجه البخاري معلقاً في كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، قبل حديث (رقم ٣٢٤٠) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣١٧).

ذكره في كتاب بدء الخلق، وقال في كتاب التفسير في سورة الواقعة: عربًا مثقلة، واحدها عروب، مثل صبور وصبر، تسميها أهل مكة العربة، وأهل المدينة الغنجة، وأهل العراق الشكلة. قلت فجمع سبحانه بين حسن صورتها وحسن عشرتها، وهذا غاية ما يطلب من النساء، وبه تكمل لذة الرجل بهن، وفي قوله: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن: ٧٤] إعلام بكمال اللذة بهن، فإن لذة الرجل بالمرأة التي لم يطأها سواه، لها فضل على لذته بغيرها، وكذلك هي أيضًا.

[(١)]وقد قرئت الآية بالوجوه الثلاثة، فمن قرأ بالضم أو الفتح فهو: مصدر، ومن قرأ بالكسر فهو بمعنى: المشروب، وعلى الأول يقع التشبيه بين الفعلين، وهو المقصود بالذكر، شبه شربهم من الحميم بشرب الإبل العطاش، التي قد أصابها الهيام، وهو داء تشرب منه ولا تروى، وهو جمع أهيم، وأصله هيم بضم الهاء: كأحمر وحمر، ثم قلبوا الضمة كسرة لأجل الياء، فقالوا هيم، وأما قراءة الكسر فوجهها أنه شبه مشروبهم بمشروب الإبل الهيم في كثرته وعدم الري به، والله أعلم.

***

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝ ﴾.

[(٢)]كيف ذكر مبدأ النشأة وآخرها مستدلًا بها على النشأة الثانية بقوله: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١] فإنكم إنما علمتم النشأة الأولى في بطون أمهاتكم ومبدأها مما تمنون، ولن نغلب على أن ننشئكم نشأة ثانية فيما لا تعلمون، فإذا أنتم أمثال ما كنتم في الدنيا في صوركم وهيئاتكم، وهذا من كمال قدرة الرب تعالى ومشيئته، لو تذكرتم أحوال

---

(١) ٩٧ بدائع جـ٢.

(٢) ١٢٤ التبيان.

النشأة الأولى لدلكم ذلك على قدرة منشئها على النشأة التي كذبتم بها، فأي استدلال وإرشاد أحسن من هذا، وأقرب إلى العقل والفهم، وأبعد من كل شبهة وشك؟ وليس بعد هذا البيان والاستدلال إلا الكفر بالله وما جاءت به الرسل والإيمان...

***

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾.

(١) وكذلك الحكمة في خلق النار على ما هي عليه كامنة في حاملها، فإنها لو كانت مظاهرة: كالهواء، والماء، والتراب، لأحرقت العالم وما فيه، ولم يكن بد من ظهورها في الأحايين للحاجة إليها، فجعلت مخزونة في الأجسام، توري عند الحاجة إليها، فتمسك بالمادة والحطب ما احتيج إلى بقائها، ثم تخبو إذا استغني عنها، فجعلت على خلقه وتقدير وتدبير حصل به الاستمتاع بها والانتفاع مع السلامة من ضررها، ثم في النار خلة أخرى، وهي أنها مما خص به الإنسان دون سائر الحيوان، فإن الحيوانات لا تستعمل النار ولا تستمتع بها، ولما اقتضت الحكمة الباهرة ذلك اغتنت الحيوانات عنها في لباسها وأقواتها فأعطيت من الشعور والأوبار ما يغنيها عنها، وجعلت أغذيتها بالمفردات، التي لا تحتاج إلى طبخ وخبز، ولما كانت الحاجة إليها شديدة جعل من الآلات والأسباب ما يتمكن به من إثارتها إذا شاء ومن إبطالها.

ومن حكمها هذه المصابيح التي يوقدها الناس، فيتمكنون بها من كثير حاجاتهم، ولولاها لكان نصف أعمارهم بمنزلة أصحاب القبور، وأما منافعها في إنضاج الأغذية والأدوية والدفء فلا يخفى، وقد نبه تعالى على ذلك بقوله: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ [الواقعة: ٧١-٧٣] أي تذكر بنار الآخرة فيحترز منها، ويستمتع بها المقوون، وهم

---

(١) ٣٣٦ شفاء العليل.

النازلون بالفيفاء، وهي الأرض الخالية، وخص هؤلاء بالذكر لشدة حاجتهم إليها في خبزهم وطبخهم، حيث لا يجدون ما يشترونه فيغنيهم عمَّا يصنعونه بالنار.

[(١)] ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ [الواقعة: ٧٣] تذكرة تذكر بها الآخرة، ومنفعة للنازلين بالقواء وهم المسافرون، يقال: أقوى الرجل إذا نزل بالقِيِّ، والقَوَىٰ وهي الأرض الخالية، وخص المقوين بالذكر وإن كانت منفعتها عامة للمسافرين والمقيمين، تنبيهًا لعباده ـ والله أعلم بمراده من كلامه ـ على أنهم كلهم مسافرون، وأنهم في هذه الدار على جناح سفر، ليسوا هم مقيمين ولا مستوطنين، وأنهم عابرو سبيل وأبناء سفر، والمقصود أنه سبحانه أشهدهم في هذه [الدار] ما أعد لأوليائه وأعدائه في دار القرار، وأخرج إلى هذه الدار من آثار رحمته وعقوبته ما هو عبرة ودلالة على ما هناك من خير وشر، وجعل هذه العقوبات والآلام والمحن والبلايا سياطًا يسوق بها عباده المؤمنين، فإذا رأوها حذروا كل الحذر، واستدلوا بما رأوه منها وشاهدوه على ما في تلك الدار من المكروهات والعقوبات، وكان وجودها في هذه الدار وإشهادهم إياها وامتحانهم باليسير منها: رحمة منه بهم، وإحسانًا إليهم، وتذكرة، وتنبيهًا.

[(٢)] ...وقال أبو داود الطيالسي في مسنده: حدثنا شعبة عن الحكم عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ قال: **«من ادعى إلى غير أبيه لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمس مائة عام»**[(٣)]. وقد أشهد الله سبحانه عباده في هذه الدار آثارًا من آثار الجنة، وأنموذجًا منها من الرائحة الطيبة، واللذات المشتهاة، والمناظر البهية، والفاكهة الحسنة، والنعيم والسرور وقرة العين، وقد روى أبو نعيم

---

(١) ١٤١ طريق الهجرتين.

(٢) ١١٥ حادي الأرواح.

(٣) أخرجه البخاري عن سعد مختصراً (رقم ٦٧٦٦) ولفظه: «من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام» ومسلم (رقم ٦٣) والطيالسي (رقم ٢٢٧٤) وفيه: «من مسيرة سبعين عاماً».

من حديث الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله ﷻ للجنة: طيبي لأهلك. فتزداد طيبا، فذلك البرد الذي يجده الناس بالسحر من ذلك**»[(١)] كما جعل سبحانه نار الدنيا وآلامها وغمومها وأحزانها تذكرة بنار الآخرة قال تعالى في هذه النار: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً ﴾، وأخبر النبي ﷺ: أن شدة الحر والبرد من أنفاس جهنم، فلابد أن يشهد عباده جنته وما يذكرهم بها. والله المستعان.

[(٢)]ثم تأمل الحكمة في خلق النار على ما هي عليه من المكون والظهور، فإنها لو كانت ظاهرة أبدًا كالماء والهواء كانت تحرق العالم وتنتشر ويعظم الضرر بها والمفسدة، ولو كانت كامنة لا تظهر أبدًا لفاتت المصالح المترتبة على وجودها، فاقتضت حكمة العزيز العليم: أن جعلها مخزونة في الأجسام، يخرجها ويبقيها الرجل عند حاجته إليها، فيمسكها ويحبسها بمادة يجعلها فيها من الحطب ونحوه، فلا يزال حابسها ما احتاج إلى بقائها، فإذا استغنى عنها وترك حبسها بالمادة خبت بإذن ربها وفاطرها، فسقطت المؤنة والمضرة ببقائها، فسبحان من سخرها، وأنشأها على تقدير محكم عجيب، اجتمع فيه الاستمتاع والانتفاع والسلامة من الضرر، قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة: ٧١-٧٤] فسبحان ربنا العظيم لقد تعرف إلينا بآياته، وشفانا ببيناته، وأغنانا بها عن دلالات العالمين، فأخبر سبحانه أنه جعلها تذكرة بنار الآخرة، فنستجير منها، ونهرب إليه منها، ومتاعا للمقوين، وهم المسافرون النازلون بالقواء. والقواء هي الأرض الخالية، وهم أحوج إلى الانتفاع بالنار للإضاءة والطبخ والخبز والتدفي والإنس، وغير ذلك.

ثم تأمل حكمته تعالى في كونه خص بها الإنسان دون غيره من الحيوانات، فلا

---

(١) أخرجه الطبراني في الصغير (رقم ٧٥) والديلمي في مسند الفردوس (٥/ ٢٤٨ رقم ٨٠٩٤) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٤١٢): رواه الطبراني في الأوسط وفيه عمر بن عبدالغفار وهو متروك.

(٢) ٢١٥ مفتاح جـ١.

حاجة بالحيوان إليها بخلاف الإنسان، فإنه لو فقدها لعظم الداخل عليه في معاشه ومصالحه، وغيره من الحيوانات لا يستعملها ولا يتمتع بها، وتنبه من مصالح النار على خلة صغيرة القدر عظيمة النفع، وهي هذا المصباح الذي يتخذه الناس، فيقضون به من حوائجهم ما شاؤا من ليلهم، ولو هذه الخلة لكان الناس نصف أعمارهم بمنزلة أصحاب القبور، فمن كان يستطيع كتابة أو خياطة أو صناعة أو تصرفا في ظلمة الليل الداجي، وكيف كانت تكون حال من عرض له وجع في وقت من الليل فاحتاج إلى ضياء أو دواء أو استخراج دم أو غير ذلك، ثم انظر إلى ذلك النور المحمول في ذبالة المصباح على صغر جوهره، كيف يضيء ما حولك كله، فترى به القريب والبعيد، ثم انظر إلى أنه لو اقتبس منه كل من يفرض أو يقدر من خلق الله كيف لا يفنى ولا ينفد ولا يضعف.

وأما منافع النار في إنضاج الأطعمة والأدوية وتجفيف ما لا ينتفع إلا بجفافه، وتحليل ما لا ينتفع إلا بتحليله، وعقد ما لا ينتفع إلا بعقده وتركيبه، فأكثر من أن يحصى، ثم تأمل ما أعطيته النار من الحركة الصاعدة بطبعها إلى العلو، فلولا المادة تمسكها لذهبت صاعدة، كما أن الجسم الثقيل لولا الممسك يمسكه لذهب نازلا، فمن أعطى هذا القوة التي يطلب بها الهبوط إلى مستقره، وأعطى هذه القوة التي تطلب بها الصعود إلى مستقرها، وهل ذلك إلا بتقدير العزيز العليم.

***

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

[(١)] هو سبحانه يقسم بما يقسم به من مخلوقاته، لتضمنه الآيات والعجائب الدالة عليه، وكلما كان أعظم آية وأبلغ في الدلالة كان إقسامه به أكثر من غيره، ولهذا يعظم

(١) ١٩٧ مفتاح جـ١.

هذا القسم كقوله: ﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [الواقعة: ٧٥، ٧٦] وأظهر القولين أنه قسم بمواقع هذه النجوم التي في السماء، فإن اسم النجوم عند الإطلاق إنما ينصرف إليها، وأيضًا فإنه لم تجر عادته سبحانه باستعمال النجوم في آيات القرآن، ولا في موضع واحد من كتابه، حتى تحمل عليه هذه الآية وجرت عادته باستعمال النجوم في الكواكب في جميع القرآن، وأيضًا فإن نظير الأقسام بمواقعها هنا إقسامه بهوى النجم في قوله: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ [النجم: ١] وأيضًا، فإن هذا قول جمهور أهل التفسير، وأيضًا فإنه سبحانه يقسم بالقرآن نفسه لا بوصوله إلى عباده، هذه طريقة القرآن، قال الله تعالى: ﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾ [صٓ: ١] ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [يسٓ: ١، ٢] ﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ [قٓ: ١] ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ [الدخان: ١، ٢] ونظائره، والمقصود أنه سبحانه إنما يقسم من مخلوقاته بما هو من آياته الدالة على ربوبيته ووحدانيته.

[1]وقوله تعالى: ﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٠] ذكر سبحانه هذا القسم عقيب ذكر القيامة الكبرى، وأقسام الخلق فيها، ثم ذكر الأدلة القاطعة على قدرته وعلى المعاد بالنشأة الأولى، وإخراج النبات من الأرض، وإنزال الماء من السماء، وخلق النار، ثم ذكر بعد ذلك أحوال الناس في القيامة الصغرى عند مفارقة الروح للبدن، وأقسم بمواقع النجوم على ثبوت القرآن، وأنه تنزيله.

وقد اختلف في النجوم التي أقسم بمواقعها، فقيل: هي آيات القرآن ومواقعها نزولها شيئا بعد شيء، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء وقول سعيد بن جبير والكلبي ومقاتل وقتادة، وقيل: النجوم هي: الكواكب ومواقعها مساقطها عند

---

(١) ١٣٧ التبيان.

غروبها. هذا قول أبي عبيدة وغيره. وقيل مواقعها انتشارها وانكدارها يوم القيامة، وهذا قول الحسن، ومن حجة هذا القول: أن لفظ مواقع تقتضيه، فإنه مفاعل من الوقوع، وهو السقوط فلكل نجم موقع وجمعها مواقع، ومن حجة قول من قال هي مساقطها عند الغروب: أن الرب تعالىٰ يقسم بالنجوم وطلوعها وجريانها وغروبها إذ فيها، وفي أحوالها الثلاث آية وعبرة ودلالة، كما تقدم في قوله تعالىٰ: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴾ [التكوير: ١٥، ١٦] وقال: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ [النجم: ١] وقال: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ ﴾ [المعارج: ٤٠]، ويرجح هذا القول أيضًا أن النجوم حيث وقعت في القرآن فالمراد منها الكواكب كقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ [الطور: ٤٩] وقوله: ﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وعلىٰ هذا فتكون المناسبة بين ذكر النجوم في القسم وبين المقسم عليه، وهو القرآن من وجوه أحدها أن النجوم جعلها الله يهتدىٰ بها في ظلمات البر والبحر وآيات القرآن يهتدىٰ بها في ظلمات الجهل والغي، فتلك هداية في الظلمات الحسية، وآيات القرآن في الظلمات المعنوية، فجمع بين الهدايتين مع ما في النجوم من الرجوم للشياطين، وفي آيات القرآن من رجوم شياطين الإنس والجن، والنجوم آياته المشهودة المعاينة، والقرآن آياته المتلوة السمعية، مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة علىٰ آياته القرآنية ومواقعها عند النزول.

ومن قرأ بموقع النجوم علىٰ الأفراد فلدلالة الواحد المضاف إلىٰ الجمع علىٰ التعدد، والمواقع اسم جنس والمصادر إذا اختلفت جمعت، وإذا كان النوع واحدا أفردت، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [لقمان: ١٩] فجمع الأصوات لتعدد النوع، وأفرد صوت الحمير لوحدته، فإفراد موقع النجوم لوحدة المضاف إليه، وتعدد المواقع لتعدده، إذ لكل نجم موقع.

والمقسم عليه ههنا قوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ [الواقعة: ٧٧] ووقع الاعتراض بين

القسم وجوابه بقوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [الواقعة: ٧٦] ووقع الاعتراض بين الصفة والموصوف في جملة هذا الاعتراض بقوله تعالىٰ: ﴿ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ فجاء هذا الاعتراض في ضمن هذا الاعتراض، ألطف شيء وأحسنه موقعًا، وأحسن ما يقع هذا الاعتراض إذا تضمن تأكيدًا أو تنبيهًا أو احترازًا كقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٢] فاعترض بين المبتدأ والخبر بقوله: ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [الأنعام: ١٥٢] لما تضمنه ذلك من الاحتراز الدافع لتوهم متوهم أن الوعد إنما يستحقه من أتىٰ بجميع الصالحات، فرفع ذلك بقوله: ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ وهذا أحسن من قول من قال: إنه خبر عن الذين آمنوا، ثم أخبر عنهم بخبر آخر، فهما خبران عن مخبر واحد، فإن عدم التكليف فوق الوسع لا يخص الذين آمنوا، بل هو حكم شامل لجميع الخلق مع ما في هذا التقدير من إخلاء الخبر عن الرابط، وتقدير صفة محذوفة أي نفسا منها، وتعطيل هذه الفائدة الجليلة، ومن ألطف الاعتراض وأحسنه قوله تعالىٰ: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل: ٥٧] فاعترض بقوله سبحانه بين الجعلين وفوائد الاعتراض تختلف بحسب قصد المتكلم، وسياق الكلام من قصد الاعتناء والتقرير والتوكيد، وتعظيم المقسم به والمخبر عنه، ورفع توهم خلاف المراد، والجواب عن سؤال مقدر، وغير ذلك، فمن الاعتراض الذي يقصد به التقرير والتوكيد، قول الشاعر:

لـــو أن الباخلين وأنـــت مـــنهم ... رأوك تعلمـــوا منـــك المطـــالا

ومما يقصد به الجواب عن سؤال مقدر قول الآخر:

فـلا صـرمه يبـدو وفي اليـأس راحـة ... ولا وصـله يـصفو لنـا فنكارمـه[1]

---

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلىٰ ابن ميادة: الرمّاح بن أبرد بن ثوبان الذبياني الغطفاني، وميادة أمه نسب إليها واشتهر بها، شاعر رقيق ومن مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، مات سنة ١٤٩هـ.

فقوله: وفي اليأس راحة. جواب لتقدير سؤال سائل: وما يغني عنك هجره؟ فقال: وفي اليأس راحة، أي المطلوب أحد أمرين: إما يأس مريح، أو وصال صاف. ومن اعتراض الاحتراز قول الجعدي:

ألا زعمت بنو كعب بأني ... وقد كذبوا كبير السن فاني[١]

ومنه قول نصيب:

فكدت - ولم أخلق من الطير - إن بدا ... سنا بارق نحو الحجاز أطير[٢]

فقوله: ولم أخلق من الطير. لرفع استفهام يتوجه عليه على سبيل الإنكار، لو قال: فكدت أطير. فيقال له وهل خلقت من الطير. فاحترز بهذا الاعتراض. وعندي أن هذا الاعتراض يفيد غير هذا، وهو قوة شوقه ونزوعه إلى أرض الحجاز، فأخبر أنه كاد يطير على أنه أبعد شيء من الطيران، فإنه لم يخلق من الطير، ولا عجب طيران من خلق من الطير، وإنما العجب طيران من لم يخلق من الطير، لشدة نزوعه وشوقه إلى جهة محبوبه، فتأمله.

ومن مواقع الاعتراض الاعتراض بالدعاء كقول الشاعر:

قد كنت أبكي وأنت راضية ... حذار هذا الصدود والغضب
إن دام ذا الهجر يا ظلوم - ولا ... دام - فما لي في العيش من أرب[٣]

---

(١) هذا البيت من بحر الوافر، وينسب إلى النابغة الجعدي: قيس بن عبدالله بن عدس العامري، كان ممن هجر الأوثان في الجاهلية، ونهى عن الخمر قبل ظهور الإسلام، وقدم على النبي ﷺ وأسلم جاوز المائة وكف بصره ومات سنة ٥٠هـ. وذكر البيت ابن حجر في الإصابة في تمييز الصحابة (٦/ ٣٩١-٣٩٢) مع اختلاف سيره وابن عبدالبر في الاستيعاب (٤/ ١٥١٧).

(٢) هذا البيت من بحر الطويل وينسب إلى نصيب بن رباح مولى عبدالعزيز بن مروان. كان شاعراً فحلاً، مقدماً في النسيب والمدائح، له شهرة ذائعة وكان أشعر أهل جلدته، تنسك في آخر عمره، مات سنة ١٠٨هـ. وذكر البيت ابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٢/ ٦٤).

(٣) هذان البيتان من بحر المنسرح، وينسبان إلى العباس بن الأحنف، شاعر غزل رقيق، خالف الشعراء في طرقهم فلم يمدح ولم يهج، بل كان شعره كله غزلاً وتشبيباً، مات ١٩٢هـ.

وقول الآخر:

إن سليمى - والله يكلؤها - ضنَّت بشيء ما كان يرزؤها[(١)]

وقول الآخر:

إن الثمانين - وبلغتها - قد أحوجت سمعي إلى ترجمان[(٢)]

ومنه الاعتراض بالقسم كقوله:

ذاك الذي - وأبيك - يعرف مالك والحق يدفع ترهات الباطل[(٣)]

ومن اعتراض الاستعطاف قوله:

فمن لي بعين التي كنت مرة إلى بها - نفسي فداؤك - تنظر

فاعترض بقوله: نفسي فداؤك. استعطافًا.

فتأمل حسن الاعتراض وجزالته في قول الرب تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ﴾ [النحل: ١٠١] فقوله: ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ اعتراض بين الشرط وجوابه أفاد أمورًا، منها الجواب عن سؤال سائل: ما حكمة هذا التبديل وما فائدته؟ ومنها أن الذي بدل وأتى بغيره منزل محكم نزوله قبل

(١) هذا البيت من بحر المنسرح، وينسب إلى إبراهيم بن هرمة، شاعر مشهور من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، قدمه الأصمعي على كثير من معاصريه، مات سنة ١٧٦ هـ ودفن بالبقيع. وذكر البيت الطبري في تفسيره (١٧/ ٣٠) وابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (ص ٧٩) وابن عبدالبر في التمهيد (٦/ ٣٩١) وابن منظور في اللسان (١/ ١٤٦).

(٢) هذا البيت من بحر السريع، وينسب إلى ابن الوردي: عمر بن مظفر بن عمر المعري الكندي، شاعر وأديب ومؤرخ، توفي بحلب سنة ٧٤٩هـ. وينسب أيضاً إلى ابن نباتة المصري: محمد بن محمد بن محمد بن الحسن الجذامي، شاعر عصره وأحد الكتاب المترسلين العلماء بالأدب سكن الشام وولد ومات بالقاهرة سنة ٧٨٦هـ. ذكر البيت ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٩/ ٢٢٥) وياقوت في معجم البلدان (٥/ ٢٣٩).

(٣) هذا البيت من بحر الكامل، وينسب إلى جرير وقد سبق التعريف به، وذكر البيت ابن منظور في اللسان (١٣/ ٤٨٠).

الإخبار بقولهم، ومنها أن مصدر الأمرين عن علمه تبارك وتعالى، وأن كلا منهما منزل، فيجب التسليم والإيمان بالأول والثاني.

ومن الاعتراض الذي هو في أعلى درجات الحسن قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ [لقمان: ١٤] فاعترض بذكر شأن حمله ووضعه بين الوصية والموصى به، توكيدًا لأمر الوصية بالوالدة، التي هذا شأنها، وتذكيرًا لولدها بحقها، وما قاسته من حمله ووضعه، مما لم يتكلفه الأب.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ [البقرة: ٧٢، ٧٣] فاعترض بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٢] بين الجمل المعطوف بعضها على بعض، إعلامًا بأن تدارؤهم وتدافعهم في شأن القتيل ليس نافعًا لهم في كتمانه، فالله يظهره ولابد، ولا تستطل هذا الفصل، وأمثاله، فإنه يعطيك ميزانًا، وينهج لك طريقًا، يعينك على فهم الكتاب، والله المستعان.

ثم قال: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ [الواقعة: ٧٧] فوصفه بما يقتضي حسنه وكثرة خيره ومنافعه وجلالته، فإن الكريم هو البهي الكثير الخير، العظيم النفع، وهو من كل شيء أحسنه وأفضله، والله سبحانه وصف نفسه بالكرم، ووصف به كلامه، ووصف به عرشه، ووصف به ما كثر خيره وحسن منظره من النبات وغيره، ولذلك فسر السلف الكريم بالحسن. قال الكلبي: إنه لقرآن كريم أي حسن كريم على الله. وقال مقاتل: كرمه الله وأعزه، لأنه كلامه. وقال الأزهري: الكريم اسم جامع لما يحمد، والله كريم جميل الفعال، وإنه لقرآن كريم يحمد لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة، وبالجملة فالكريم الذي من شأنه أن يعطي الخير الكثير بسهولة ويسر، وضده اللئيم الذي لا يخرج خيره النزر إلا بعسر وصعوبة، وكذلك الكريم في الناس واللئيم.

ثم قال تعالىٰ: ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٨] اختلف المفسرون في هذا، فقيل: هو اللوح المحفوظ، والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة، وهو المذكور في قوله: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣-١٦] ويدل علىٰ أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩]، فهذا يدل علىٰ أنه بأيديهم يمسونه، وهذا هو الصحيح في معنىٰ الآية، ومن المفسرين من قال: إن المراد به أن المصحف لا يمسه إلا طاهر، والأول أرجح لوجوه:

أحدها: أن الآية سيقت تنزيها للقرآن أن تنزل به الشياطين، وأن محله لا يصل إليه، فيمسه إلا المطهرون، فيستحيل علىٰ أخابث خلق الله وأنجسهم أن يصلوا إليه أو يمسوه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١] فنفىٰ الفعل وتأتيه منهم وقدرتهم عليه، فما فعلوا ذلك، ولا يليق بهم، ولا يقدرون عليه، فإن الفعل قد ينتفي عمن يحسن منه، وقد يليق بمن لا يقدر عليه، فنفىٰ عنهم الأمور الثلاثة، وكذلك قوله في سورة عبس: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ فوصف محله بهذه الصفات: بيانا أن الشيطان لا يمكنه أن يتنزل به، وتقرير هذا المعنىٰ أهم وأجل وأنفع من بيان كون المصحف لا يمسه إلا طاهر.

الوجه الثاني: أن السورة مكية والاعتناء في السور المكية إنما هو بأصول الدين من تقرير التوحيد والمعاد والنبوة، وأما تقرير الأحكام والشرائع، فمظنة السور المدنية.

الثالث: إن القرآن لم يكن في مصحف عند نزول هذه الآية، ولا في حياة رسول الله ﷺ، وإنما جمع في المصحف في خلافة أبي بكر، وهذا وإن جاز أن يكون باعتبار ما يأتي فالظاهر أنه إخبار بالواقع حال الإخبار، يوضحه.

الوجه الرابع: وهو قوله: ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ والمكنون المصون المستور عن الأعين، الذي لا تناله أيدي البشر، كما قال تعالىٰ: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٩]،

وهكذا قال السلف قال الكلبي: مكنون من الشياطين. وقال مقاتل: مستور. وقال مجاهد: لا يصيبه تراب ولا غبار. وقال أبو إسحاق: مصون في السماء، يوضحه.

الوجه الخامس: أن وصفه بكونه مكنونًا نظير وصفه بكونه محفوظًا فقوله: ﴿ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ كقوله ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]، يوضحه.

الوجه السادس: أن هذا أبلغ في الرد على المكذبين، وأبلغ في تعظيم القرآن من كون المصحف لا يمسه محدث.

الوجه السابع: قوله: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ بالرفع فهذا خبر لفظا ومعنى، ولو كان نهيا لكان مفتوحًا، ومن حمل الآية على النهي احتاج إلى صرف الخبر عن ظاهره إلى معنى النهي، والأصل في الخبر والنهي حمل كل منهما على حقيقته، وليس ههنا موجب يوجب صرف الكلام عن الخبر إلى النهي.

الوجه الثامن: أنه قال: ﴿ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ ولم يقل إلا المتطهرون، ولو أراد به منع المحدث من مسه، لقال: إلا المتطهرون، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وفي الحديث: «**اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين**»(١) فالمتطهر فاعل التطهير، والمطهر الذي طهره غيره، فالمتوضئ متطهر، والملائكة مطهرون.

الوجه التاسع: أنه لو أريد به المصحف الذي بأيدينا لم يكن في الإخبار عن كونه مكنونا كبير فائدة، إذ مجرد كون الكلام مكنونا في كتاب لا يستلزم ثبوته، فكيف يمدح القرآن بكونه مكنونا في كتاب، وهذا أمر مشترك، والآية إنما سيقت لبيان مدحه

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٥٥) والبيهقي في الكبرى (١/ ٧٨ رقم ٣٧٥) وابن أبي شيبة (١/ ١٣ رقم ٢٠) وعبدالرزاق (١/ ١٨٦ رقم ٧٣١) والطبراني في الأوسط (٥/ ١٤٠ رقم ٤٨٩٥) وانظر: شرح النووي (٣/ ١٢١).

وتشريفه، وما اختص به من الخصائص التي تدل علىٰ أنه منزل من عند الله، وأنه محفوظ مضمون لا يصل إليه شيطان بوجه ما، ولا يمس محله إلا المطهرون، وهم السفرة الكرام البررة.

الوجه العاشر: ما رواه سعيد بن منصور في سننه: حدثنا أبو الأحوص، حدثنا عاصم الأحول، عن أنس بن مالك في قوله: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ قال: المطهرون الملائكة، وهذا عند طائفة من أهل الحديث في الحكم المرفوع. وقال الحاكم: تفسير الصحابة عندنا في حكم المرفوع. ومن لم يجعله مرفوعا فلا ريب أنه عنده أصح من تفسير من بعد الصحابة، والصحابة أعلم الأمة بتفسير القرآن، ويجب الرجوع إلىٰ تفسيرهم. وقال حرب في مسائله: سمعت إسحاق في قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ قال: النسخة التي في السماء لا يمسها إلا المطهرون قال: الملائكة.

وسمعت شيخ الإسلام يقرر الاستدلال بالآية علىٰ: أن المصحف لا يمسه المحدث بوجه آخر. فقال هذا من باب التنبيه والإشارة إذا كانت الصحف التي في السماء لا يمسها إلا المطهرون، فكذلك الصحف التي بأيدينا من القرآن، لا ينبغي أن يمسها إلا طاهر. والحديث مشتق من هذه الآية، وقوله: «**لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر**»[1] رواه أهل السنن من حديث الزهري عن بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده: أن في الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ إلىٰ أهل اليمن في السنن والفرائض والديات: «**أن لا يمس القرآن إلا طاهر**» قال أحمد: أرجو أن يكون صحيحًا. وقال أيضًا: لا أشك أن رسول الله كتبه.

وقال أبو عمر بن عبد البر: هو كتاب مشهور عند أهل السير، معروف عند أهل

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٥٥٢ رقم ٦٠٥١) والبيهقي في الكبرىٰ (١/ ٨٧ رقم ٤١٢) والدارقطني (١/ ١٢٢ رقم ٦) والطبراني في الأوسط (٣/ ٣٢٦-٣٢٧ رقم ٣٣٠١) وفي الكبير (٣/ ٢٠٥ رقم ٣١٣٥) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٥٧٤) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وانظر: نصب الراية (١/ ١٩٨).

العلم معرفة يستغنى بشهرتها عن الإسناد، لأنه أشبه التواتر في مجيئه، لتلقي الناس له بالقبول والمعرفة. ثم قال: وهو كتاب معروف عند العلماء، وما فيه فمتفق عليه، إلا قليلًا[١]. وقد رواه ابن حبان في صحيحه ومالك في موطئه، وفي المسألة آثار أخر مذكورة في غير هذا الموضع.

ودلت الآية بإشارتها وإيمائها على أنه لا يدرك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة، وحرام على القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه، وأن يفهمه، كما ينبغي، قال البخاري في صحيحه في هذه الآية: لا يجد طعمه إلا من آمن به[٢]. وهذا أيضا من إشارة الآية وتنبيهها، وهو أنه لا يلتذ به وبقراءته وفهمه وتدبره إلا من شهد أنه كلام الله، تكلم بها حقًا، وأنزله على رسوله وحيا، ولا ينال معانيه إلا من لم يكن في قلبه حرج منه بوجه من الوجوه، فمن لم يؤمن بأنه حق من عند الله، ففي قلبه منه حرج، ومن لم يؤمن بأن الله سبحانه تكلم به وحياً، وليس مخلوقًا من جملة مخلوقاته، ففي قلبه منه حرج. ومن قال: إن له باطناً يخالف ظاهره، وإن له تأويلًا يخالف ما يفهم منه. ففي قلبه منه حرج. ومن قال: إن له تأويلًا لا نفهمه ولا نعلمه، وإنما نتلوه متعبدين بألفاظه. ففي قلبه منه حرج. ومن سلط عليه آل الآرائيين وهذيان المتكلمين وسفسطة المسفسطين وخيالات المتصوفين، ففي قلبه منه حرج. ومن جعله تابعًا لنحلته ومذهبه وقول من قلده دينه، ينزله على أقواله، ويتكلف حمله عليها، ففي قلبه منه حرج. ومن لم يحكمه ظاهراً وباطناً في أصول الدين وفروعه ويسلم وينقاد لحكمه أين كان، ففي قلبه منه حرج. ومن لم يأتمر بأوامره وينزجر عن زواجره، ويصدق جميع أخباره، ويحكم أمره ونهيه وخبره، ويرد له كل أمر ونهي وخبر خالفه،

---

(١) انظر: التمهيد (١٧/ ٣٣٨-٣٣٩) وتحفة الأحوذي (١/ ٣٨٧) وتنوير الحوالك (ص١٥٩) وشرح الزرقاني (٢/ ١٠) وتلخيص الحبير (٤/ ١٨).

(٢) أخرجه البخاري معلقاً في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا﴾ [آل عمران: ٩٣] قبل حديث (رقم ٧٥٣٣) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٥٠٩) وعمدة القاري (٢٥/ ١٨٦-١٨٧).

ففي قلبه منه حرج. وكل هؤلاء لم تمس قلوبهم معانيه، ولا يفهمونه كما ينبغي أن يفهم، ولا يجدون من لذة حلاوته وطعمه ما وجده الصحابة ومن تبعهم.

وأنت إذا تأملت قوله: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ وأعطيت الآية حقها من دلالة اللفظ وإيمائه وإشارته وتنبيهه، وقياس الشيء علىٰ نظيره، واعتباره بمشاكله، وتأملت المشابهة التي عقدها الله سبحانه وربطها بين الظاهر والباطن، فهمت هذه المعاني كلها من الآية، وبالله التوفيق.

ثم أكد ذلك وقرره وأطده بقوله: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، وكما أنه لازم لكونه قرآنًا كريمًا في كتاب مكنون، فهو ملزوم له، فهو دليل عليه مدلول له، وأفاد كونه تنزيلا من رب العالمين مطلوبين عظيمين من أجل مطالب الدين:

أحدهما: أنه المتكلم وأنه منه نزل ومنه بدأ، وهو الذي تكلم به، ومن هنا قال السلف منه بدأ ونظيره: ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى ﴾ [السجدة: ١٣] وقوله: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ ﴾ [النحل: ١٠٢].

والثاني: علو الله سبحانه فوق خلقه، فإن النزول والتنزيل الذي تعقله العقول وتعرفه الفطر، هو وصول الشيء من أعلا إلىٰ أسفل، والرب تعالىٰ إنما يخاطب عباده بما تعرفه فطرهم، وتشهد به عقولهم، وذكر التنزيل مضافًا إلىٰ ربوبيته للعالمين المستلزمة تملكه لهم، وتصرفه فيهم وحكمه عليهم وإحسانه وإنعامه عليهم، وإن من هذا شأنه مع الخلق كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سدىٰ، ويدعهم هملا، ويخلقهم عبثا لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يثيبهم ولا يعاقبهم، فمن أقر بأنه رب العالمين أقر بأن القرآن تنزيله علىٰ رسوله، واستدل بكونه رب العالمين علىٰ ثبوت رسالة رسوله، وصحة ما جاء به، وهذا الاستدلال أقوىٰ وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق، وإن كانت دلالتها أقرب إلىٰ أذهان عموم الناس، وتلك إنما تكون لخواص العقلاء.

وقد أشار سبحانه إلىٰ الطريقين في غير موضع من كتابه كقوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ فهذا استدلال بالآيات المعاينة المخلوقة، ثم قال: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣] فهذا استدلال بكمال ربوبيته وكمال أوصافه علىٰ صدق رسوله، فيما جاء به، وهذه الطريق أخص وأقوىٰ وأكمل وأعلىٰ. والأول أعم وأشمل، وقد تقدم بيانها عند قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴾ [الحاقة: ٤٤] وأين الاستدلال بأوصاف الرب تعالىٰ وكماله المقدس علىٰ ثبوت النبي وبعثه من الاستدلال عليه ببعض مخلوقاته؟

وتأمل فرق ما بين استدلال سيدة نساء العالمين خديجة رضي الله عنها بصفات الرب تعالىٰ وصفات محمد واستنتاجها من بين هذين الأمرين صحة نبوته ﷺ، وأنه رسول الله حقًّا، وأن من كانت هذه صفات ربه وخالقه تأبىٰ أن يخزيه، وأنه يؤيده ويعليه ويتم نعمته عليه.

وأنت إذا تأملت هذه الطريقة وهذا الاستدلال وجدت بينها وبين طريقة المتكلمين من الفرق ما لا يخفىٰ، وإذا حصل للعبد الفقه في الأسماء والصفات انتفع به في باب معرفة الحق والباطل من الأقوال والطرائق والمذاهب والعقائد أعظم انتفاع وأتمه، وقد بينا في كتابنا المعالم بطلان التحيل وغيره من الحيل الربوبية من أسماء الرب وصفاته، وأنه يستحيل علىٰ الحكيم أن يحرم الشيء ويتوعد علىٰ فعله بأعظم أنواع العقوبات، ثم يبيح التوصل إليه بنفسه بأنواع التحيلات، فأين ذلك الوعد الشديد وجواز التوصل إليه بالطريق البعيد، إذ ليست حكمة الرب تعالىٰ وكمال علمه وأسمائه وصفاته تنتقض بإحالة ذلك وامتناعه عليه، فهذا استدلال بالفقه الأكبر في الأسماء والصفات علىٰ الفقه العملي في باب الأمر والنهي، وهذا باب حرام علىٰ الجهمي المعطل أن يلجه إلىٰ الجنة، حرام عليه ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسين ألف سنة،

والله العزيز الوهاب لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، وبه التوفيق.

ثم وبخهم سبحانه على وضعهم الإدهان في غير موضعه، وأنهم يداهنون بما حقه أن يصدع به، ويفرق به، ويعض عليه بالنواجذ، وتثنى عليه الخناصر، وتعقد عليه القلوب والأفئدة، ويحارب ويسالم لأجله، ولا يلتوي عنه لا يمنة ولا يسرة، ولا يكون للقلب التفات إلى غيره، ولا محاكمة إلا إليه، ولا مخاصمة إلا به، ولا اهتداء في طرق المطالب العالية إلا بنوره، ولا شفاء إلا به، فهو روح الوجود، وحياة العالم، ومدار السعادة، وقائد الفلاح، وطريق النجاة، وسبيل الرشاد، ونور البصائر، فكيف تطلب المداهنة بما هذا شأنه، ولم ينزل للمداهنة، وإنما أنزل بالحق وللحق. والمداهنة إنما تكون في باطل قوي لا يمكن إزالته، أو في حق ضعيف لا يمكن إقامته، فيحتاج المداهن إلى أنه يترك بعض الحق، ويلتزم بعض الباطل، فأما الحق الذي قام به كل حق فكيف يدهن به؟!

(١)وأنت إذا تأملت قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝ ﴾ [الواقعة: ٧٧-٧٩] وجدت الآية من أظهر الأدلة على نبوة النبي ﷺ، وأن هذا القرآن جاء من عند الله، وأن الذي جاء به روحٌ مطهر، فما للأرواح الخبيثة عليه سبيل، ووجدت الآية أخت قوله: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ۝ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١] ووجدتها دالة بأحسن الدلالة على أنه لا يمس المصحف إلا طاهر...

(٢)...قلت: مثاله قوله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٩] قال: والصحيح في الآية: أن المراد به: الصحف التي بأيدي الملائكة لوجوه عديدة منها:

---

(١) ٢٢٥ أعلام جـ١.

(٢) ٤١٦ مدارج جـ٢.

أنه وصفه بأنه مكنون و المكنون المستور عن العيون وهذا إنما هو في الصحف التي بأيدي الملائكة.

ومنها: أنه قال: لا يمسه إلا المطهرون وهم الملائكة ولو أراد المتوضئين لقال: لا يمسه إلا المتطهرون، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢] فالملائكة مطهرون، والمؤمنون متطهرون.

ومنها: أن هذا إخبار، ولو كان نهيا لقال: لا يمسسه بالجزم. والأصل في الخبر: أن يكون خبرًا: صورة ومعنى.

ومنها: أن هذا رد على من قال: إن الشيطان جاء بهذا القرآن، فأخبر تعالى: أنه في كتاب مكنون لا تناله الشياطين، ولا وصول لها إليه، كما قال تعالى في آية الشعراء: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]، وإنما تناله الأرواح المطهرة وهم الملائكة.

ومنها: أن هذا نظير الآية التي في سورة عبس: ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس: ١٢-١٦] قال مالك في موطئه: أحسن ما سمعت في تفسير قوله: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ أنها مثل هذه الآية التي في سورة عبس.

ومنها: أن الآية مكية من سورة مكية تتضمن تقرير التوحيد والنبوة والمعاد، وإثبات الصانع، والرد على الكفار، وهذا المعني أليق بالمقصود من فرع عملي، وهو حكم مس المحدث المصحف.

ومنها: أنه لو أريد به الكتاب الذي بأيدي الناس: لم يكن في الإقسام على ذلك بهذا القسم العظيم كثير فائدة، إذ من المعلوم: أن كل كلام فهو قابل لأن يكون في كتاب حقا أو باطلا، بخلاف ما إذا وقع القسم على أنه في كتاب مصون مستور عن العيون عند الله، لا يصل إليه شيطان، ولا ينال منه، ولا يمسه إلا الأرواح الطاهرة الزكية،

فهذا المعنى أليق وأجل وأخلق بالآية، وأولى بلا شك.

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: لكن تدل الآية بإشارتها على أنه لا يمس المصحف إلا طاهر، لأنه إذا كانت تلك الصحف لا يمسها إلا المطهرون لكرامتها على الله، فهذه الصحف أولى أن لا يمسها إلا طاهر. وسمعته يقول في قول النبي ﷺ: «**لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة**»[(١)] إذا كانت الملائكة المخلوقون يمنعها الكلب والصورة عن دخول البيت، فكيف تلج معرفة الله عز وجل ومحبته وحلاوة ذكره والأنس بقربه في قلب ممتلىء بكلاب الشهوات وصورها، فهذا من إشارة اللفظ الصحيحة.

ومن هذا: أن طهارة الثوب الطاهر والبدن إذا كانت شرطًا في صحة الصلاة والاعتداد بها فإذا أخل بها كانت فاسدة، فكيف إذا كان القلب نجسا، ولم يطهره صاحبه، فكيف يعتد له بصلاته، وإن أسقطت القضاء، وهل طهارة الظاهر إلا تكميل لطهارة الباطن.

ومن هذا: أن استقبال القبلة في الصلاة شرط لصحتها، وهي بيت الرب، فتوجه المصلي إليها ببدنه وقالبه شرط، فكيف تصح صلاة من لم يتوجه بقلبه إلى رب القبلة والبدن، بل وجه بدنه إلى البيت، ووجه قلبه إلى غير رب البيت، وأمثال ذلك من الإشارات الصحيحة التي لا تنال إلا بصفاء الباطن وصحة البصيرة وحسن التأمل، والله أعلم.

***

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

لما كان قوام كل واحد من البدن والقلب إنما هو بالرزق، فرزق البدن الطعام

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٢٢) ومسلم (رقم ٢١٠٦) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٣٨١-٢٨٦) وشرح النووي (١٤/ ٨٤-٩٥).

والشراب، ورزق القلب الإيمان والمعرفة بربه وفاطره ومحبته والشوق إليه والإنس بقربه والابتهاج بذكره، وكان لا حياة له إلا بذلك، كما أن البدن لا حياة له إلا بالطعام والشراب، أنعم سبحانه على عباده بهذين النوعين من الرزق، وجعل قيام أبدانهم وقلوبهم بهما، ثم فاوت سبحانه بينهم في قسمة هذين الرزقين بحسب ما اقتضاه علمه وحكمته، فمنهم من وفر حظه من الرزقين ووسع عليه فيهما، ومنهم من قتر عليه في الرزقين.

ومنهم من وسع عليه رزق البدن، وقتر عليه رزق القلب وبالعكس، وهذا الرزق إنما يتم ويكمل بالشكر والشكر، مادة زيادته وسبب حفظه وبقائه، وترك الشكر سبب زواله وانقطاعه عن العبد، فإن الله تعالى تأذن أنه لا بد أن يزيد الشكور من نعمه، ولا بد أن يسلبها من لم يشكرها، فلما وضعوا الكفر والتكذيب موضع الشكر والإيمان جعلوا رزقهم نفسه تكذيبًا، فإن التصديق والشكر لما كانا سبب زيادة الرزق، وهما رزق القلب حقيقة، فهؤلاء جعلوا مكان هذا الرزق التكذيب والكفر، فجعلوا رزقهم التكذيب، وهذا المعنى هو الذي حام حوله من قال التقدير. وتجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون. وقال آخرون: التقدير وتجعلون بدل شكر رزقكم أنكم تكذبون، فحذف مضافين معا، وهؤلاء أطالوا اللفظ، وقصروا بالمعنى، ومن بعض معنى الآية قوله: مطرنا بنوء كذا وكذا. فهذا لا يصح أن تدل عليه الآية ويراد بها، وإلا فمعناها أوسع منه وأعم وأعلى، والله أعلم.

***

﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

ثم ختم السورة بأحوالهم عند القيامة الصغرى، كما ذكر في أولها أحوالهم في القيامة الكبرى، وقسمهم إلى ثلاثة أقسام، كما قسمهم هناك إلى ثلاثة، وذكر بين يدي هذا التقسيم الاستدلال على صحته وثبوته بأنهم مربوبون مدبرون مملوكون، فوقهم

رب قاهر مالك، يتصرف فيهم بحسب مشيئته وإرادته، وقررهم على ذلك بما لا سبيل لهم إلى دفعه ولا إنكاره، فقال: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴾ [الواقعة: ٨٣] أي: وصلت الروح إلى هذا الموضع، بحيث فارقت ولم تفارق، فهي برزخ بين الموت والحياة، كما أنها إذا فارقت صارت في برزخ بين الدنيا والآخرة، ملائكة الرب تعالى أقرب إلى المحتضر من حاضريه من الإنس، ولكنهم لا يبصرون بهم، فلولا تردونها إلى مكانها من البدن أيها الحاضرون، إن كان الأمر كما تزعمون أنكم غير مجزيين ولا مدينين ولا مستوعبين ليوم الحساب.

فإن قيل: أي ارتباط بين هذين الأمرين حتى يلازم بينهما.

قيل: هذا من أحسن الاستدلال وأبلغه، فإنهم إما أن يقروا بأنهم مربوبون مملوكون عبيد لمالك قادر متصرف فيهم قاهر آمر ناه، أو لا يقرون بذلك، فإن أقروا به لزمهم القيام بحقه عليهم وشكره وتعظيمه وإجلاله، وأن لا يجعلوا له ندا ولا شريكا، وهذا هو الذي جاءهم به رسوله، ونزل عليه به كتابه، وإن أنكروا ذلك، وقالوا: إنهم ليسوا بعبيد ولا مملوكين ولا مربوبين، وإن الأمر إليهم يردون الأرواح إلى مقارها إذا بلغت الحلقوم، فإن المتصرف في نفسه الحاكم على روحه لا يمتنع منه ذلك بخلاف المحكوم عليه المتصرف فيه غير المدبر له، سواء الذي هو عبد مملوك من جميع الجهات وهذا الاستدلال لا محيد عنه ولا مدفع له، ومن أعطاه حقه من التقرير والبيان انتفع به غاية النفع، وانقاد لأجله للعبودية، وأذعن، ولم يسعه غير التسليم للربوبية والإلهية والإقرار بالعبودية.

ولله ما أحسن جزالة هذه الألفاظ وفصاحتها، وبلوغها أقصى مراتب البلاغة والفصاحة والاختصار التام، وندائها إلى معناها من أقرب مكان، واشتمالها على التوبيخ والتقرير والإلزام ودلائل الربوبية والتوحيد والبعث، وفصل النزاع في معرفة الروح، وأنها تصعد وتنزل وتنتقل من مكان إلى مكان، وما أحسن إعادة (لولا) ثانيا قبل ذكر الفعل الذي يقتضيه الأول، وجعل الحرفين يقتضيانه اقتضاء واحدا، وذكر

الشرطين مع الفصل بينهما بكلمة واحدة، هي الرابط بين (لولا) الأولىٰ والثانية، والشرط الأول والثاني، وهذا تركيب يستحد العقل والسمع لمعناه ولفظه.

فتضمنت الآيتان تقريرا وتوبيخا واستدلالًا علىٰ أصول الإيمان من وجود الخالق سبحانه، وكمال قدرته ونفوذ مشيئته وربوبيته، وتصرفه في أرواح عباده، حيث لا يقدرون علىٰ التصرف فيها بشيء، وأن أرواحهم بيده، يذهب بها إذا شاء، ويردها إليهم إذا شاء، ويخلي أبدانهم منها تارة، ويجمع بينها وبينهما تارة، وإثبات المعاد وصدق رسوله فيما أخبر به عنه، وإثبات ملائكته، وتقرير عبودية الخلق، وأتىٰ بهذا في صورة تحضيضين وتوبيخين وتقريرين وجوابين وشرطين وجزاءين، منتظمة أحسن الانتظام، ومتداخلة أحسن التداخل، متعلقًا بعضها ببعض، وهذا كلام لا يقدر البشر علىٰ مثل نظمه ومعناه. قال الفراء: وأجيبت ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ﴾ و﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ [الواقعة: ٨٦] بجواب واحد، وهو: ﴿ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [الوقعة: ٨٧] قال: ومثله قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨] أجيبا بجواب واحد، وهما شرطان. قال الجرجاني قوله: ﴿ تَرْجِعُونَهَآ ﴾ جواب قوله: ﴿ فَلَوْلَآ ﴾ المتقدمة والمتأخرة علىٰ تأويل: فلولا إذا بلغت النفس الحلقوم، تردونها إلىٰ موضعها إن كنتم غير محاسبين ولا مجزيين، كما تزعمون. يقول تعالىٰ: إن كان الأمر كما تزعمون: أنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء ولا إله ولا رب يقوم بذلك، فهلا تردون نفس من يعز عليكم إذا بلغت الحلقوم، فإذا لم يمكنكم في ذلك حيلة بوجه من الوجوه فهل دلكم ذلك علىٰ أن الأمر إلىٰ مليك قادر قاهر متصرف فيكم، وهو الله الذي لا إله إلا هو. وقال أبو إسحاق: معناه فهلا ترجعون الروح إن كنتم غير مملوكين مدبرين؟ فهلا إن كان الأمر كما تزعمون كما يقول قائلكم: ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ﴾ [آل عمران: ١٦٨] و﴿ لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ ﴾ [آل عمران: ١٥٦] أي إن كنتم تقدرون أن تؤخروا أجلا، فهلا ترجعون الروح إذا بلغت

الحلقوم، وهلا تردون عن أنفسكم الموت؟

قلت: وكان هذا يلتفت إلى قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ﴾ [الإسراء: ٥٠، ٥١] أي إن كنتم كما تزعمون لا تبعثون بعد الموت خلقا جديدا، فكونوا خلقا لا يفنى ولا يبلى: إما من حجارة أو من حديد، أو أكبر من ذلك، ووجه الملازمة ما تقدم ذكره، وهو إما أن تقروا بأن لكم ربا متصرفا فيكم، ومالكا لكم تنفذ فيكم مشيئته وقدرته، يميتكم إذا شاء، ويحييكم إذا شاء، فكيف تنكرون قدرته على إعادتكم خلقا جديدا بعدما أماتكم، وإما أن تنكروا أن يكون لكم رب قادر قاهر مالك نافذ المشيئة فيكم، والقدرة فيكم، فكونوا خلقا لا يقبل الفناء والموت، فإذا لم تستطيعوا أن تكونوا كذلك فما تنكرون من قدرة من جعلكم خلقا يموت ويحيا أن يحييكم بعد ما أماتكم، فهذا استدلال يعجزهم عن كونهم خلقا لا يموت، والذي في الواقعة استدلال يعجزهم عن رد الروح إلى مكانها إذا قاربت الموت، وليس بعد هذا الاستدلال إلا الإذعان والانقياد أو الكفر والعناد.

***

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾.

[(١)] أي هلا تردون الروح إلى مكانها إن كنتم غير مربوبين ولا مقهورين ولا مجزيين وهذه الآية تحتاج إلى تفسير فإنها سيقت للاحتجاج عليهم في إنكارهم البعث والحساب، ولابد أن يكون الدليل مستلزم لمدلوله، بحيث ينتقل الذهن منه إلى المدلول. لما بينهما من التلازم، فيكون الملزوم دليل على لازمه، ولا يجب العكس. ووجه الاستدلال: أنهم إذا أنكروا البعث والجزاء، فقد كفروا بربهم، وأنكروا قدرته وربوبيته وحكمته، فإما إن يقروا بأن لهم ربا قاهرا متصرفا فيهم، يميتهم إذا شاء، ويحييهم إذا شاء، ويأمرهم وينهاهم، ويثيب محسنهم، ويعاقب مسيئهم، وأما إن لا

(١) ٢٧٩ الجواب الكافي.

يقروا برب هذا شأنه، فإن أقروا آمنوا بالبعث والنشور والدين الأمري والجزائي، وإن أنكروه وكفروا به فقد زعموا أنهم غير مربوبين ولا محكوم عليهم، ولا لهم رب يتصرف فيهم كما أراد، فهلا يقدرون على دفع الموت عنهم إذا جاءهم، وعلى رد الروح إلى مستقرها إذا بلغت الحلقوم؟ وهذا خطاب للحاضرين وهم عند المحتضر وهم يعاينون موته: أي فهلا يردون الروح إلى مكانها إن كان لهم قدرة وتصرف ولستم بمربوبين ولا مقهورين لقاهر قادر يمضي عليكم أحكامه، وينفذ فيكم أوامره، وهذه غاية التعجيز لهم إذا تبين عجزهم عن رد نفس واحدة إلى مكانها، ولو اجتمع على ذلك الثقلان فيا لها من آية دالة على وحدانيته وربوبيته سبحانه وتصرفه في عباده ونفوذ أحكامه فيهم وجريانها عليهم.

والدين دينان. دين شرعي أمري ودين حسابي جزائي. وكلاهما لله وحده فالدين كله أمر أو جزاء لله والمحبة أصل كل واحد من الدينين، فإن ما شرعه وأمر به يحبه ويرضاه، وما نهى عنه فإنه يكرهه ويبغضه لمنافاته لما يحبه ويرضاه، فهو يحب ضده، فعاد دينه الأمري كله إلى محبته ورضاه، ودين العبد لله به إذا كان عن محبة ورضى، كما قال النبي ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا»[1] وهذا الدين قائم بالمحبة وبسببها شرع ولأجلها أسس، وكذلك دينه الجزائي، فإنه يتضمن مجازات المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وكل من الأمرين محبوب للرب، فإنهما عدله وفضله، وكلاهما من صفات كماله.

[2]قال تعالى: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴾ [الرحمن: ١٢] وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ: «من عرض عليه ريحان فلا يرده، فإنه خفيف المحمل، طيب الرائحة»[3]

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٣٤) وانظر: عمدة القاري (١/ ١٠٩).

(٢) ٣٤٩ زاد المعاد جـ٣.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٢٥٣) وانظر: شرح النووي (١٥/ ٩).

وفي سنن ابن ماجه من حديث أسامة عن النبي ﷺ، أنه قال: «ألا هل مشمر للجنة، فإن الجنة لا خطر لها هي ـ ورب الكعبة ـ نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام في أبد في دار سليمة، وفاكهة وخضرة، وحبرة ونعمة، في محلة عالية بهية» قالوا: نعم، يا رسول الله ﷺ نحن المشمرون لها قال: «قولوا: إن شاء الله» فقال القوم: إن شاء الله تعالى[١].

[٢]الرَّيحان كلُّ نبت طيِّب الريح، فكلُّ أهل بلد يخصونه بشيء من ذلك، فأهلُ الغرب يخصونه بالآس، وهو الذي يعرِفُه العرب من الرَّيحان، وأهلُ العراق والشام يخصُّونه بالحَبَق. فأما الآسُ، فمزاجُه بارد في الأُولى، يابس في الثانية، وهو مع ذلك مركَّب من قُوَى متضادة، والأكثرُ فيه الجوهرُ الأرضي البارد، وفيه شيءٌ حار لطيف، وهو يُجفِّف تجفيفاً قوياً، وأجزاؤه متقاربةُ القُوَّة، وهي قوةٌ قابضة حابسة من داخل وخارج معاً. وهو قاطع للإسهال الصفراوي، دافع للبخار الحار الرَّطب إذا شُمَّ، مفرِّح للقلب تفريحاً شديداً، وشمُّه مانع للوباء، وكذلك افتراشُه في البيت. ويُبرئ الأورام الحادثة في الحالِبَيْن إذا وُضع عليها، وإذا دُقَّ ورقُه وهو غَضٌ وضُرِبَ بالخل، ووُضِعَ على الرأس، قطع الرُّعاف، وإذا سُحِقَ ورقه اليابس، وذُرَّ على القروح ذواتِ الرطوبة نفعها، ويُقوِّي الأعضاء الواهية إذا ضُمِّدَ به، وينفع داء الداحِس، وإذا ذُرَّ على البثورِ والقروحِ التي في اليدين والرِّجْلين نفعها. وإذا دُلِكَ به البدنُ قطع العَرَق، ونشَّفَ الرطوباتِ الفضلية، وأذهب نَتْنَ الإبط، وإذا جُلس في طبيخه، نفع من خراريج المَقْعدة والرَّحم، ومن استرخاء المفاصل، وإذا صُبَّ على كسور العِظام التي لم تَلتحِمْ، نفعها. ويجلو قشورَ الرأس وقروحَه الرَّطبة، وبثُورَه، ويُمسِكُ الشعر

(١) أخرجه الضياء في المختارة (٤/ ١٣٢ رقم ١٣٤٣) وابن حبان (١٦/ ٣٨٩ رقم ٧٣٨١) وفي الموارد (رقم ٢٦٠٢) وابن ماجه (رقم ٤٣٣٢) والبزار (٧/ ٤٣ رقم ٢٥٩١) والطبراني في الكبير (١/ ١٦٢ رقم ٣٨٨) وفي مسند الشاميين (٢/ ٣٢٢ رقم ١٤٢١).

(٢) ٣١٤ زاد المعاد جـ٤. طبعة مؤسسة الرسالة.

المتساقط ويُسَوِّدُه، وإذا دُقَّ ورقُه، وصُبَّ عليه ماء يسير، وخُلِطَ به شيءٌ من زيت أو دُهن الورد، وضُمِّدَ به، وافق القُروح الرَّطبة والنملة والحُمْرة، والأورام الحادة، والشرىٰ والبواسير. وحَبُّه نافع من نفْث الدم العارض في الصدر والرِّئة، دابغٌ للمَعِدَة وليس بضارٍّ للصدر ولا الرئة لجلاوته، وخاصيتُه النفعُ من اسْتِطلاق البطن مع السُّعال، وذلك نادر في الأدوية، وهو مُدِرٌّ للبَوْل، نافع من لذع المثانة، وعضِّ الرُّتَيْلاء، ولسْع العقارب، والتخلل بعِرْقه مُضِر، فليُحذَر.

وأما الرَّيحانُ الفارسي الذي يُسمَّىٰ الحَبَق، فحارٌّ في أحد القولين، ينفع شمُّه من الصُّداع الحار إذا رُشَّ عليه الماء، ويبرد، ويرطب بالعرض، وباردٌ في الآخر، وهل هو رطب أو يابس ؟ علىٰ قولين. والصحيحُ: أنَّ فيه من الطبائع الأربع، ويَجْلِبُ النوم، وبزره حابس للإسهال الصفراوي، ومُسَكِّن للمغص، مُقَوٍّ للقلب، نافع للأمراض السوداويَّة.

[(١)]مراتب الحياة: حياة الأرواح بعد مفارقتها الأبدان، وخلاصها من هذا السجن وضيقه، فإن من روائه فضاء وروحًا وريحانًا وراحة. نسبة هذه الدار إليه كنسبة بطن الأم إلىٰ هذه الدار أو أدنىٰ من ذلك. قال بعض العارفين: لتكن مبادرتك إلىٰ الخروج من الدنيا كمبادرتك إلىٰ الخروج من السجن الضيق إلىٰ أحبتك، والاجتماع بهم في البساتين المونقة، قال الله تعالىٰ في هذه الحياة ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ [الواقعة: ٨٧، ٨٨].

ويكفي في طيب هذه الحياة مرافقة الرفيق الأعلىٰ، ومفارقة الرفيق المؤذي المنكد، الذي تنغص رؤيته ومشاهدته الحياة، فضلًا عن مخالطته وعشرته إلىٰ الرفيق الأعلىٰ الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا في جوار الرب الرحمن الرحيم.

---

(١) ٣٧٤ مدارج جـ٣.

[(١)] فأما من قال: هي في الجنة، فاحتج بقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩] قال: وهذا ذكره سبحانه عقيب ذكر خروجها من البدن بالموت، وقسم الأرواح إلى ثلاثة أقسام: مقربين وأخبر أنها في جنة النعيم، وأصحاب يمين حكم لها بالسلام، وهو يتضمن سلامتها من العذاب، ومكذبة ضالة، وأخبر أن لها نزلًا من حميم وتصلية جحيم، قالوا: وهذا بعد مفارقتها للبدن قطعًا، وقد ذكر سبحانه حالها يوم القيامة في أول السورة فذكر حالها الموت وبعد البعث، واحتجوا بقول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ [الفجر: ٢٧]....

[(٢)] ومنها قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَـٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الواقعة: ٨٣-٩٦] فذكر هاهنا أحكام الأرواح عند الموت، وذكر في أول السورة أحكامها يوم المعاد الأكبر، وقدم ذلك على هذا تقديم الغاية للعناية، إذ هي أهم وأولى بالذكر، وجعلهم عند الموت ثلاثة أقسام، كما جعلهم في الآخرة ثلاثة أقسام.

ومنها قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠] وقد اختلف السلف متى يقال لها ذلك، فقالت طائفة: يقال لها عند الموت، وظاهر اللفظ مع هؤلاء، فإنه خطاب للنفس التي قد تجردت عن البدن وخرجت منه، وقد فسر ذلك النبي ﷺ،

---

(١) ١١٥ الروح.
(٢) ٩٤ حادي الأرواح.

بقوله في حديث البراء وغيره: «فقال لها: اخرجي راضية مرضيًّا عنك»[1]، وسيأتي تمام تقرير هذا في المسألة التي يذكر فيها مستقر الأرواح في البرزخ إن شاء الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ۝ ﴾ [الفجر: ٢٩] مطابق لقوله ﷺ: «اللهم الرفيق الأعلى».

وأنت إذا تأملت أحاديث عذاب القبر ونعيمه وجدتها تفصيلًا وتفسيرًا لما دل عليه القرآن، وبالله التوفيق.

***

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝ ﴾.

[2]ليس هذا سلام تحية، ولو كان تحية لقال: فسلام عليه كما قال: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ [الصافات: ١٠٩] ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ ﴾ [الصافات: ٧٩] ولكن الآية تضمنت ذكر مراتب الناس وأقسامهم عند القيامة الصغرى حال القدوم على الله، فذكر أنهم ثلاثة أقسام: مقرب له الروح والريحان وجنة النعيم، ومقتصد من أصحاب اليمين له السلامة فوعده بالسلامة ووعد المقرب بالغنيمة والفوز، وإن كان كل منهما سالما غانما وظالم بتكذيبه وضلاله، فأوعده بنزل من حميم، وتصلية جحيم، فلما لم يكن المقام مقام تحية، وإنما هو مقام إخبار عن حاله، ذكر ما يحصل له من السلامة، فإن قيل: فهذا فرق صحيح لكن ما معنى اللام في قوله: لك ومن هو المخاطب بهذا الخطاب، وما معنى حرف [من] في قوله: ﴿ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴾، فهذه ثلاثة أسئلة في الآية قيل: قد وفينا بحمد الله تعالى بذكر الفرق بين هذا السلام في الآية وبين سلام التحية، وهو الذي كان المقصود، وهذه الأسئلة وإن كانت متعلقة بالآية، فهي خارجة

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ١٩٦-١٨٧) هذا الحديث حديث حسنٌ رواته محتج بهم في الصحيح.

(٢) ١٤٦ بدائع الفوائد جـ٢.

عن مقصودنا، ولكن نجيب عنها إكمالا للفائدة بحول الله وقوته، وإن كنا لم نر أحدا من المفسرين شفى في هذا الموضع الغليل، ولا كشف حقيقة المعنى واللفظ، بل منهم من يقول المعنى: فمسلم لك إنك من أصحاب اليمين، ومنهم من يقول غير ذلك مما هو حوم على معناها من غير ورود، فاعلم أن المدعو به من الخير والشر مضاف إلى صاحبه بلام الإضافة، الدالة على حصوله له، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ ﴾ [الرعد: ٢٥] ولم يقل: عليهم اللعنة، إيذانا بحصول معناها وثبوته لهم، وكذلك قوله: ﴿ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٨] ويقول في ضد هذا: لك الرحمة، ولك التحية، ولك السلام. ومنه هذه الآية ﴿ فَسَلَٰمٌ لَّكَ ﴾ أي ثبت لك السلام، وحصل لك، وعلى هذا فالخطاب لكل من هو من هذا الضرب، فهو خطاب للجنس، أي فسلام لك يا من هو من أصحاب اليمين، كما تقول: هنيئا لك يا من هو منهم، ولهذا والله أعلم أتى بحرف من في قوله: ﴿ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ والجار والمجرور في موضع حال أي سلام لك كائنا من أصحاب اليمين، كما تقول: هنيئًا لك من اتباع رسول الله ﷺ وحزبه، أي كائنا منهم. والجار والمجرور بعد المعرفة ينتصب على الحال، كما تقول: أحببتك من أهل الدين والعلم، أي كائنا منهم، فهذا معنى هذه الآية، وهو وإن خلت عنه كتب أهل التفسير، فقد حام عليه منهم من حام، وما ورد ولا كشف المعنى ولا أوضحه، فراجع ما قالوه، والله تعالى الموفق المانّ بفضله.

فلما قام الدليل، ووضح السبيل، وتم البرهان على أنهم مملوكون مربوبون مجزيون محاسبون. ذكر طبقاتهم عند الحشر الأول والقيامة الصغرى. وهي ثلاث طبقات: طبقة المقربين، وطبقة أصحاب اليمين، وطبقة المكذبين. فجعل تحية المقربين عند الوفاة الروح والريحان والجنة. وهذه الكرامات الثلاثة التي يعطونها بعد الموت نظير الثلاث التي يعطونها يوم القيامة، فالروح الفرح والسرور والابتهاج ولذة الروح، فهي كلمة جامعة لنعيم الروح ولذتها، وذلك قوتها وغذاؤها. والريحان

الرزق وهو الأكل والشرب، والجنة المسكن الجامع لذلك كله، فيعطون هذه الثلاث في البرزخ وفي المعاد الثاني.

ثم ذكر الطبقة الثانية، وهي طبقة أصحاب اليمين، ولما كانوا دون المقربين في المرتبة جعل تحيتهم عند القدوم عليه السلامة من الآفات والشرور، التي تحصل للمكذبين الضالين، فقال: ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَـٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ [الواقعة: ٩٠، ٩١] والسلام مصدر من سلم، أي فلك السلامة، والخطاب له نفسه، أي يقال لك السلامة، كما يقال للقادم: لك الهناء، ولك السلامة، ولك البشرى، ونحو ذلك من الألفاظ، كما يقولون: خير مقدم، ونحو ذلك. فهذه تحية عند اللقاء، قال مقاتل: يسلم الله لهم أمرهم، ويتجاوز عن سيئاتهم، ويتقبل حسناتهم. وقال الكلبي: يسلم عليه أهل الجنة، ويقولون: السلامة لك، وعلى هذا فقوله: ﴿ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ أي هذه التحية حاصلة لك من إخوانك أصحاب اليمين، فإنه إذا قدم عليهم حيوه بهذه التحية، وقالوا: السلامة لك. وفي الآية أقوال أخر فيها تكلف وتعسف، فلا حاجة إلى ذكرها، ثم ذكر الطبقة الثالثة وهي طبقة الضال في نفسه، المكذب لأهل الحق، وإن له عند الموافاة نزل الحميم وسكنى الجحيم، ثم أكد هذا الجزاء بما جعله، كأنه رأي العين لمن آمن بالله ورسوله، فقال: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴾ [الواقعة: ٩٥] فرفع شأنه عن درجة الظن والعلم إلى اليقين وعن درجة اليقين إلى حقه.

ثم أمره أن ينزه اسمه تبارك وتعالى عما لا يليق به، وتنزيه الاسم متضمن لتنزيه المسمى، عما يقوله الكاذبون والجاحدون.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الواقعة

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

سُورَةُ الحَدِيدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

[(1)] القاعدة أن الشيء لا يعطف على نفسه؛ لأن حروف العطف بمنزلة تكرار العامل، لأنك إذا قلت: قام زيد وعمرو، فهي بمعنى قام زيد وقام عمرو، والثاني غير الأول، فإذا وجدت مثل قولهم: كذبا ومينا. فهو لمعنى زائد في اللفظ الثاني، وإن خفي عنك، ولهذا يبعد جدا أن يجيء في كلامهم جاءني عمر وأبو حفص، ورضي الله عن أبي بكر وعتيقه. فإن الواو إنما تجمع بين الشيئين لا بين الشيء الواحد فإذا كان في الاسم الثاني فائدة زائدة على معنى الاسم الأول كنت مخيرًا في العطف وتركه، فإن عطفت فمن حيث قصدت تعداد الصفات، وهي متغايرة، وإن لم تعطف فمن حيث كان في كل منهما ضمير هو الأول، فعلى الوجه الأول تقول زيد فقيه شاعر كاتب. وعلى الثاني فقيه وشاعر وكاتب. كأنك عطفت بالواو الكتابة على الشعر، وحيث لم تعطف أتبعت الثاني الأول، لأنه هو من حيث اتحد الحامل للصفات، وأما في أسماء الرب تبارك وتعالى فأكثر ما يجيء في القرآن الكريم بغير عطف نحو السميع العليم العزيز الحكيم الغفور الرحيم الملك القدوس السلام إلى آخرها، وجاءت معطوفة في موضعين: أحدهما في أربعة أسماء، وهي ﴿ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾. والثاني في بعض الصفات بالاسم الموصول مثل قوله: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ وَٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝ ﴾ [الأعلى: ٢-٤] ونظيره: ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝ وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾

---

(١) ١٨٩ بدائع جـ١.

[الزخرف: ١٠-١٢] فأما ترك العطف في الغالب، فلتناسب معاني تلك الأسماء، وقرب بعضها من بعض، وشعور الذهن بالثاني منها شعوره بالأول، ألا ترى أنك إذا شعرت بصفة المغفرة، انتقل ذهنك منها إلى الرحمة، وكذلك إذا شعرت بصفة السمع انتقل الذهن إلى البصر، وكذلك: ﴿ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤] وأما تلك الأسماء الأربعة، فهي ألفاظ متباينة المعاني متضادة الحقائق في أصل موضوعها، وهي متفقة المعاني، متطابقة في حق الرب تعالى لا يبقى منها معنى بغيره، بل هو أول كما أنه آخر، وظاهر كما أنه باطن، ولا يناقض بعضها بعضًا في حقه، فكان دخول الواو صرفًا لوهم المخاطب قبل التفكر والنظر عن توهم المحال، واحتمال الأضداد، لأن الشيء لا يكون ظاهرًا باطنًا من وجه واحد، وإنما يكون ذلك باعتبارين، فكان العطف هاهنا أحسن من تركه، لهذه الحكمة. هذا جواب السهيلي، وأحسن منه أن يقال: لما كانت هذه الألفاظ دالة على معاني متباينة، وأن الكمال في الاتصاف بها على تباينها، أتى بحرف العطف الدال على التغاير بين المعطوفات، إيذانا بأن هذه المعاني مع تباينها، فهي ثابتة للموصوف بها، ووجه آخر، وهو أحسن منها، وهو أن الواو تقتضي تحقيق الوصف المتقدم، وتقريره يكون في الكلام متضمنا لنوع مع التأكيد من مزيد التقرير، وبيان ذلك بمثال نذكره، مرقاة إلى فهم ما نحن فيه، إذا كان لرجل مثلًا أربع صفات هي عالم وجواد وشجاع وغني، وكان المخاطب لا يعلم ذلك أو لا يقر به، ويعجب من اجتماع هذه الصفات في رجل، فإذا قلت: زيد عالم. وكان ذهنه استبعد ذلك، فتقول: وجواد. أي وهو مع ذلك جواد، فإذا قدرت استبعاده لذلك قلت: وشجاع، أي وهو مع ذلك شجاع. وغني فيكون في العطف مزيد تقرير وتوكيد، لا يحصل بدونه، تدرأ به توهم الإنكار، وإذا عرفت هذا فالوهم قد يعتريه إنكار لاجتماع هذه المقابلات في موصوف واحد، فإذا قيل: هو الأول ربما سرى الوهم إلى أن كونه أولا يقتضي أن يكون الآخر غيره، لأن الأولية والآخرية من المتضايفات، وكذلك الظاهر والباطن إذا قيل هو ظاهر ربما سرى الوهم إلى أن الباطن مقابله، فقطع هذا الوهم

بحرف العطف الدال على أن الموصوف بالأولية هو الموصوف بالآخرية، فكأنه قيل: هو الأول وهو الآخر وهو الظاهر وهو الباطن لا سواه، فتأمل ذلك فإنه من لطيف العربية ودقيقها، والذي يوضح لك ذلك أنه إذا كان للبلد مثلًا قاض وخطيب وأمير، فاجتمعت في رجل حسن أن تقول: زيد هو الخطيب والقاضي والأمير. وكان للعطف هنا مزية ليست للنعت المجرد، فعطف الصفات هاهنا أحسن قطعًا لوهم متوهم أن الخطيب غيره، وأن الأمير غيره.

***

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾.

[1]من أدل شيء على مباينة الرب لخلقه، فإنه لم يخلقهم في ذاته، بل خلقهم خارجًا عن ذاته، ثم بان عنهم باستوائه على عرشه، وهو يعلم ما هم عليه، فيراهم، وينفذهم بصره، ومحيط بهم: علمًا، وقدرة، وإرادة، وسمعًا، وبصرًا، فهذا معنى كونه سبحانه معهم أينما كانوا، وتأمل حسن هذه المقابلة لفظًا ومعنى بين قوله: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ [الأنعام: ١٠٣] فإنه سبحانه لعظمته يتعالى أن تدركه الأبصار وتحيط به، وللطفه وخبرته يدرك الأبصار، فلا تخفى عليه، فهو العظيم في لطفه، اللطيف في عظمته، العالي في قربه، القريب في علوه، الذي ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

[2]كيف تكون حقيقة المعية في حق الرب تعالى ذلك حتى يدعى أنها مجاز لا

(١) ٢٠٩ حادي الأرواح.
(٢) ٢٦٦ مختصر الصواعق جـ٢.

حقيقة؟ فليس في ذلك ما يدل على أن ذاته تعالى فيهم، ولا ملاصقة لهم، ولا مخالطة، ولا مجاورة بوجه من الوجوه، وغاية ما تدل عليه [مع] المصاحبة والموافقة والمقارنة في أمر من الأمور، وذا الاقتران في كل موضع بحسبه يلزمه لوازم بحسب متعلقه.

فإذا قيل: الله مع خلقه بطريق العموم كان من لوازم ذلك: علمه بهم، وتدبيره لهم، وقدرته عليهم، وإذا كان ذلك خاصًّا كقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨] كان من لوازم ذلك معيته لهم بالنصرة والتأييد والمعونة؛ فمعية الله تعالى مع عبده نوعان: عامة وخاصة، وقد اشتمل القرآن على النوعين، وليس ذلك بطريق الاشتراك اللفظي، بل حقيقتها ما تقدم من الصحبة اللائقة، وقد أخبر الله تعالى أنه مع خلقه مع كونه مستويًا على عرشه، وقرن بين الأمرين كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ ﴾ [الحديد: ٤] فأخبر أنه خلق السموات والأرض، وأنه استوى على عرشه، وأه مع خلقه يبصر أعمالهم من فوق عرشه، كما في حديث الأوعال: «والله فوق عرشه يرى ما أنتم عليه»[(١)] فعلوه لا يناقض معيته، ومعيته لا تبطل علوه، بل كلاهما حق، فمن المعية الخاصة قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣] ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨] ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٤] ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠] ومن العامة: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد: ٤] وقوله: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ [المجادلة: ٧] فنبه سبحانه بالثلاثة على العدد

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ٢٠٢ رقم ٨٩٨٧) وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٦٨٨-٦٨٩ رقم ١٧) والبخاري في خلق أفعال العباد (ص ٤٣) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٨٦): رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح.

الذي يجمع الشفع والوتر، ولا يمكن أهله أن ينقسموا في النجوى قسمين، ونبه بالخمسة على العدد الذي يجمعهما، ويمكن أهله أن ينقسموا فيها قسمين، فيكون مع كل العددين.

فالمشتركون في النجوى: إما شفع أو وتر فقط، أو كلا القسمين، وأقل أقسام الوتر المتناجين: ثلاثة، وأقل أنواع الشفع: اثنان، وأقل أقسام النوعين إذا اجتمعا خمسة، فذكر أدنى مراتب طائفة الوتر، وأدنى مراتب النوعين إذا اجتمعا، ثم ذكر معيته العامة لما هو أدنى من ذلك أو أكثر.

وتأمل كيف جعل نفسه رابع الثلاثة وساس الخمسة، إذ هو غيرهم سبحانه بالحقيقة لا يجتمعون معه في جنس ولا فصل، وقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] فإنهم ساووا بينه وبين الاثنين في الآلهية.

والعرب تقول: أربع أربعة، وخامس خمسة، وثالث ثلاثة، لما يكون فيه المضاف إليه من جنس المضاف، كما قال تعالى: ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠] رسول الله وصديقه، فإن كان من غير جنس، قالوا: رابع ثلاثة، وخامس أربعة، وسادس خمسة.

وقال تعالى في المعية الخاصة لموسى وأخيه: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] وقال في العامة: ﴿فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ١٥]. فتأمل كيف أفرد ضمير نفسه، حيث أفرد موسى وأخاه عن فرعون، وكيف جمع الضمير لما دخل فرعون معهما في الذكر! فجعل الخاص مع المعية الخاصة، والعام مع المعية العامة، وأما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] فهذه الآية لها شأن[1].

***

(١) تكملة البحث تقدم في سورة (ق) ويأتي قريبًا في المجادلة ما يوضح المعنى إن شاء الله. (ج).

﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝﴾.

(١)ثم تأمل الحكمة في مقادير الليل والنهار تجدها على غاية المصلحة والحكمة، وأن مقدار اليوم والليلة لو زاد على ما قدر عليه أو نقص لفاتت المصلحة واختلفت الحكمة بذلك، بل جعل مكيالها أربعة وعشرين ساعة، وجعلا يتقارضان الزيادة والنقصان بينهما، فما يزيد في أحدهما من الآخر يعود الآخر فيسترده منه.

قال الله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ [الحديد: ٦]. وفيه قولان:

أحدهما: أن المعنى يدخل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك وضياء، هذا في مكان ظلمة الآخر، فيدخل كل واحد منهما في موضع صاحبه، وعلى هذا فهي عامة في كل ليل ونهار.

والقول الثاني: أنه يزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر، فما ينقص منه يلج في الآخر، لا يذهب جملة. وعلى هذا فالآية خاصة ببعض ساعات كل من الليل والنهار في غير زمن الاعتدال فهي خاصة في الزمان وفي مقدار ما يلج في أحدهما من الآخر، وهو في الأقاليم المعتدلة غاية ما تنتهي الزيادة خمس عشرة ساعة فيصير الآخر تسع ساعات، فإذا زاد على ذلك انحرف ذلك الإقليم في الحرارة أو البرودة إلى أن ينتهي إلى حد لا يسكنه الإنسان، ولا يتكون فيه النبات وكل موضع لا تقع عليه الشمس لا يعيش فيه حيوان ولا نبات لفرط برده ويبسه، وكل موضع لا تفارقه كذلك لفرط حره ويبسه، والمواضع التي يعيش فيها الحيوان والنبات هي التي تطلع عليها الشمس وتغيب، وأعدلها المواضع التي تتعاقب عليها الفصول الأربعة، ويكون فيها اعتدالان خريفين وربيعين.

***

﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۖ فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن

---

(١) ٢٠٩ مفتاح جـ١.

قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

[(١)]...ترسل الأمانة والرحم على جنبتي الصراط، فلا يجوزه خائن ولا قاطع رحم. ويختلف مرورهم عليه بحسب اختلاف استقامتهم على الصراط المستقيم في الدنيا: فمار كالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل وساع وماش وزاحف وحاب حبوًا وينصب على جنبتيه كلاليب، لا يعلم قدر عظمها إلا الله ﷻ تعوق من علقت به عن العبور على حسب ما كانت تعوقه الدنيا عن طاعة الله ومرضاته وعبوديته، فناج مسلم، ومخدوش مسلم، ومقطع بتلك الكلاليب ومكردس في النار، وقد طفئ نور المنافقين على الجسر أحوج ما كانوا إليه، كما طفئ في الدنيا من قلوبهم، وأعطوا دون الكفار نورًا في الظاهر، كما كان إسلامهم في الظاهر دون الباطن، فيقولون للمؤمنين: قفوا لنا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ وما نجوز به، فيقول لهم المؤمنون والملائكة: ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً.

قيل: المعنى ارجعوا إلى الدنيا، فخذوا من الإيمان نورًا تجوزون به، كما فعل المؤمنون. وقيل: ارجعوا وراءكم، حيث قسمت الأنوار، فالتمسوا هناك نورًا تجوزن به، ثم ضرب بينهم وبين أهل الإيمان بسور له باب، باطنه الذي يلي المؤمنين فِيهِ الرَّحْمَةُ، وَظَاهِرُهُ الذي يليهم ﴿مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ

---

(١) ٢٩٨ الروح.

وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٣-١٥] فإذا جاوز المؤمنون الصراط، ولا يجوزه إلا مؤمن أمنوا من دخول النار، فيحبسون هناك على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في دار الدنيا، حتى إذا هذبوا أذن لهم في دخول الجنة...

(١) قال تعالى: ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٤] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥] وأعظم الناس غرورًا بربه من إذا مسه الله برحمة منه وفضل قال: هذا لي. أي أنا أهله، وجدير به، ومستحق له، ثم قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [الكهف: ٣٦] فظن أنه أهل لما أولاه من النعم مع كفره بالله، ثم زاد في غروره، فقال: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] يعني الجنة والكرامة، فهكذا تكون الغرة بالله، فالمغتر بالشيطان مغتر بوعوده وأمانيه، وقد ساعده اغتراره بدنياه ونفسه، فلا يزال كذلك حتى يتردى في آبار الهلاك.

(٢) ولما كان الإيمان موجبًا للخشوع وداعيًا إليه، قال الله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦] دعاهم من مقام الإيمان إلى مقام الإحسان، يعني: أما آن لهم أن يصلوا إلى الإحسان بالإيمان؟ وتحقيق ذلك بخشوعهم لذكره الذي أنزله إليهم؟

(٣) قال الله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ قال ابن مسعود ﷺ: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين»(٤). وقال ابن عباس: «إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث

---

(١) ٢٩٨ الروح.
(٢) ٥٠٩ مدارج جـ٢.
(٣) ٥٢٠ مدارج جـ١.
(٤) أخرجه مسلم (رقم ٣٠٢٧) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٢٨).

عشرة سنة من نزول القرآن»[١] وقال تعالىٰ: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝ ﴾ [المؤمنون: ١، ٢].

والخشوع في أصل اللغة: الانخفاض والذل والسكون، قال تعالىٰ: ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ [طه: ١٠٨] أي سكنت وذلت وخضعت، ومنه وصف الأرض بالخشوع، وهو يبسها وانخفاضها وعدم ارتفاعها بالري والنبات، قال تعالىٰ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ [فصلت: ٣٩].

والخشوع قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل والجمعية عليه. وقيل: الخشوع الانقياد للحق، وهذا من موجبات الخشوع.

فمن علاماته: أن العبد إذا خولف ورد عليه بالحق استقبل ذلك بالقبول والانقياد. وقيل (الخشوع) خمود نيران الشهوة، وسكون دخان الصدور، وإشراق نور التعظيم في القلب. وقال الجنيد: الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب.

وأجمع العارفون علىٰ أن الخشوع محله القلب، وثمرته علىٰ الجوارح، وهي تظهره. ورأىٰ النبي ﷺ رجلًا يعبث بلحيته في الصلاة، فقال: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»[٢] وقال النبي ﷺ: «التقوىٰ ههنا» وأشار إلىٰ صدره ثلاث مرات[٣]، وقال بعض العارفين: حسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن. ورأىٰ بعضهم رجلًا خاشع المنكبين والبدن فقال: يا فلان الخشوع ههنا وأشار إلىٰ صدره، لا ههنا وأشار إلىٰ منكبيه.

وكان بعض الصحابة ﷺ وهو حذيفة يقول: إياكم وخشوع النفاق، فقيل له: وما

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٨/ ٥٨) وعزاه إلىٰ ابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٢) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٣/ ٢١٠) (٤/ ٢٤) وأبو عبدالرحمن السلمي في آداب الصحبة (رقم ٢٠٦) وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٣٠) في سنده سليمان بن عمرو أبو داود النخعي اتهم بوضع الحديث. وانظر: تخريج الأحاديث والآثار للزيلعي (٢/ ٣٩٩-٤٠٠).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٦٤) وانظر: فتح الباري (٥/ ٩٧).

خشوع النفاق؟ قال: «أن ترىٰ الجسد خاشعًا، والقلب ليس بخاشع»[١]. ورأىٰ عمر بن الخطاب ﷺ رجلًا طأطأ رقبته في الصلاة، فقال: «يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك، ليس الخشوع في الرقاب، إنما الخشوع في القلوب»[٢]. ورأت عائشة رضىٰ الله عنها شبابًا يمشون ويتماوتون في مشيتهم، فقالت لأصحابها: من هؤلاء؟ فقالوا: نساك، فقالت: كان عمر بن الخطاب إذا مشىٰ أسرع، وإذا قال أسمع، وإذا ضرب أوجع، وإذا أطعم أشبع، وكان هو الناسك حقًّا[٣]. وقال الفضيل بن عياض: كان يكره أن يُرِي الرجل من الخشوع أكثر مما في قلبه[٤]. وقال حذيفة ﷺ: أول ما تفقدون من دينكم الخشوع، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة[٥]. ورب مصل لا خير فيه، ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترىٰ فيهم خاشعًا. وقال سهل: «من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان» اهـ.

***

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ ﴾.

[٦]قيل: إن الوقف علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾ ثم يبتدئ ﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾ فيكون الكلام جملتين: أخبر في إحداهما عن المؤمنين بالله ورسله أنهم هم

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (ص١٤٢) وابن عساكر في تاريخه (٤٧/ ١٨٣) وابن أبي شيبة (٧/ ٢٤٣ رقم ٣٥٧١) عن أبي الدرداء، وكذا أخرجه البيهقي في الشعب (٥/ ٣٦٤ رقم ٦٩٦٦) موقوفاً. بينما أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٣/ ٢١٠) عن أبي بكر الصديق مرفوعاً إلىٰ رسول الله ﷺ.

(٢) ذكره الذهبي في الكبائر (ص ١٤٤).

(٣) أخرجه ابن عساكر في تاريخه (٤٤/ ٢٨٨) وابن سعد في الطبقات (٣/ ٢٩٠).

(٤) انظر: فتح الباري (٩/ ٣١٨) وعون المعبود (١٣/ ٢٣٣) وغريب الحديث لابن سلام (٢/ ٢٥٣).

(٥) أخرجه الحاكم (٤/ ٥١٦ رقم ٨٤٤٨) وابن أبي شيبة (٧/ ١٤٠ رقم ٣٤٨٠٨) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٨١).

(٦) ٣٥١ طريق الهجرتين.

الصديقون، والإيمان التام يستلزم العلم والعمل والدعوة إلى الله بالتعليم والصبر عليه، وأخبر في الثانية أن الشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم، ومرتبة الصديقين فوق مرتبة الشهداءِ، ولهذا قدمهم عليهم في الآيتين، هنا وفى سورة النساء، وهكذا جاءَ ذكرهم مقدماً على الشهداءِ في كلام النبي ﷺ في قوله: «اثبت أُحد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان»[(١)]، ولهذا كان نعت الصديقية وصفاً لأفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين أبي بكر الصديق، ولو كان بعد النبوة درجة أفضل من الصديقية لكانت نعتاً له ﷺ.

وقيل: إن الكلام كله جملة واحدة وأخبر عن المؤمنين بأنهم هم الصديقون والشهداءُ عند ربهم، وعلى هذا فالشهداء هم الذين يستشدهم الله على الناس يوم القيامة، وهو قوله تعالى: ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وهم المؤمنون، فوصفهم بأنهم صديقون في الدنيا وشهداءُ على الناس يوم القيامة، ويكون الشهداء وصفاً لجملة المؤمنين الصديقين.

وقيل: الشهداء هم الذين قتلوا في سبيل الله، وعلى هذا القول يترجح أن يكون الكلام جملتين، ويكون قوله: ﴿ وَٱلشُّهَدَآءُ ﴾ مبتدأ خبره ما بعده، لأنه ليس كل مؤمن صديق شهيداً فى سبيل الله.

ويرجحه أيضاً أنه لو كان الشهداء داخلاً في جملة الخبر لكان قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ [الحديد: ١٩] داخلاً أيضًا في جملة الخبر عنهم، ويكون قد أخبر عنهم بثلاثة أشياء: أحدها: أنهم هم الصديقون، والثاني: أنهم هم الشهداءُ، والثالث: أن لهم أجرهم ونورهم، وذلك يتضمن عطف الخبر الثاني على الأول، ثم ذكر الخبر الثالث مجرداً عن العطف، وهذا كما تقول: زيد كريم وعالم له مال، والأحسن فى هذا تناسب الأخبار بأن تجردها كلها من العطف، أو تعطفها جميعاً، فتقول: زيد كريم عالم له مال،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٦٧٥).

أو كريم وعالم وله مال، فتأمله.

ويرجحه أيضاً أن الكلام يصير جملاً مستقلة، قد ذكر فيها أصناف خلقه السعداء، وهم الصديقون والشهداء والصالحون، وهم المذكورون في الآية، وهم المتصدقون الذين أقرضوا الله قرضًا حسنًا، فهؤلاد ثلاثة أصناف، ثم ذكر الرسل في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد: ٢٥]، فيتناول ذلك الأصناف الأربعة المذكورة في سورة النساء، فهؤلاء هم السعداء، ثم ذكر الأشقياء وهم نوعان: كفار، ومنافقون، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الحديد: ١٩]، وذكر المنافقون في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]، فهؤلاء أصناف العالم كلهم، وترك ﷻ ذكر المخلط صاحب الشائبتين على طريقة القرآن في ذكر السعداء والأشقياء دون المخلطين غالبًا لسر اقتضته حكمته. فليحذر صاحب التخليط، فإنه لا ضمان له على الله، ولا هو من أهل وعده المطلق، ولا ييأس من روح الله فإنه ليس من الكفار الذين قطع لهم بالعذاب، ولكنه بين الجنة والنار، واقف بين الوعد والوعيد، كل منهما يدعوه إلى موجبه، لأنه أتى بسببه. وهذا هو الذي لحظه القائلون بالمنزلة بين المنزلتين، ولكن غلطوا في تخليده في النار، ولو نزلوه منزلة بين المنزلتين ووكلوه إلى المشيئة وقالوا بأنه يخرج من النار بتوحيده وإيمانه لأصابوا، ولكن منزلة بين منزلتين وصاحبهما مخلد في النار مما لا يقتضيه عقل ولا سمع، بل النصوص الصريحة المعلومة الصحة تشهد ببطلان قولهم، والله أعلم، وأيضاً فصاحب الشائبتين يعلم حكمه من نصوص الوعد والوعيد، فإن الله ﷻ رتب على كل عمل جزاءً في الخير والشر، فإذا أتى العبد بهما كان فيه سبب الجزاءَين، والله لا يضيع عمل مثقال ذرة، فإن كان عمل الشر مما يوجب سقوط أثر الحسنة كالكفر كان التأثير له، وإن لم يسقطه كالمعصية ترتب في حقه الأثران ما لم يسقط أحدهما بسبب من الأسباب التي نذكرها إن شاء الله فيما بعد، والمقصود أن درجة الصديقية والربانية ووراثة النبوة وخلافة

الرسالة هي أفضل درجات الأُمة، ولو لم يكن من فضلها وشرفها إلا أن كل من علم بتعليمهم وإرشادهم أو علم غيره شيئاً من ذلك كان له مثل أجره ما دام ذلك جارياً في الأمة على آباد الدهور، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال لعلي بن أبي طالب: «والله لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم»(١).

وصح عنه ﷺ أنه قال: «من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كان له مثل أجر من عمل بها لا ينقص من أُجورهم شيئاً»(٢). وصح عنه ﷺ أيضًا أنه قال: «إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»(٣). وصح عنه ﷺ أنه قال: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»(٤). وفي السنن عنه ﷺ أنه قال: «إن العالم يستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى النملة في جحرها»(٥). وعنه ﷺ أنه قال: «إن الله وملائكته يصلون على معلم الناس الخير»، وعنه ﷺ أنه قال: «إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ عظيم وافر»(٦). وعنه ﷺ: «العالم والمتعلم شريكان في الأجر، ولا خير في سائر الناس بعد»(٧)، وعنه ﷺ أنه قال: «نضر الله امرءاً سمع

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٩٤٢) وانظر: فتح الباري (٧/ ٤٧٨) وشرح النووي (١٥/ ١٧٨).
(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٠١٧) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٣١) وشرح النووي (٧/ ١٠٤).
(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٦٣١) وانظر: فتح الباري (٣/ ١٣٧) (١١/ ٥٨٤) شرح النووي (١١/ ٨٥).
(٤) أخرجه البخاري (رقم٧١) ومسلم (رقم ١٠٣٧) وانظر: فتح الباري (١/ ١٦١-١٦٤) (٧/ ١٢٨).
(٥) أخرجه الترمذي (رقم ٢٦٨٥) والطبراني في الكبير (٨/ ٢٣٤ رقم ٧٩١٢) ونقل المنذري تحسين الترمذي للحديث في ترغيبه (١/ ٥٦) وكذا النووي في رياضه (ص ٣١٤).
(٦) أخرجه ابن حبان (١/ ٢٨٩ رقم ٨٨) وفي الموارد (رقم ٨٠) وأبو داود (رقم ٣٦٤١) وابن ماجه (رقم ٢٢٣) والترمذي (رقم ٢٦٨٢) والطبراني في مسند الشاميين (٢/ ٢٢٤ رقم ١٢٣١) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٠٣-١٠٤ رقم ٩٧٥).
(٧) أخرجه ابن ماجه (رقم ٢٢٨) والطبراني في الكبير (٨/ ٢٢٠ رقم ٧٨٧٥) والديلمي في الفردوس (٣/ ١٦ رقم ٤٠٢٢) قال في مصباح الزجاجة (١/ ٣١): هذا إسناد فيه علي بن زيد بن جدعان، والجمهور على تضعيفه. وانظر: فيض القدير (٤/ ٣٥٢).

مقالتي فوعاها وأداها كما سمعها»[١]. والأحاديث في هذا كثيرة، وقد ذكرنا مائتي دليل على فضل العلم وأهله في كتاب مفرد، فيالها من مرتبة ما أعلاها، ومنقبة ما أجلها وأسناها، أن يكون المرءُ في حياته مشغولاً ببعض أشغاله، أو في قبره قد صار أشلاء متمزقة وأوصالاً متفرقة، وصحف حسناته متزايدة، يملى فيها الحسنات كل وقت، وأعمال الخير مهداة إليه من حيث لا يحتسب، تلك والله المكارم والغنائم، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، وعليه يحسد الحاسدون، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. وحقيق بمرتبة هذا شأنها أن تنفق نفائس الأنفاس عليها، ويسبق السابقون إليها، وتوفر عليها الأوقات وتتوجه نحوها الطلبات، فنسأل الله الذي بيده مفاتيح كل خير أن يفتح علينا خزائن رحمته، ويجعلنا من أهل هذه الصفة بمنه وكرمه وأصحاب هذه المرتبة يُدعون عظماءَ في ملكوت السماءِ، كما قال بعض السلف: من علم وعمل وعلَّم، فذلك يدعى عظيماً في ملكوت السماء. وهؤلاء هم العدول حقاً بتعديل رسول الله ﷺ لهم، إذ يقول فيما يروى عنه من وجوه شد بعضها بعضاً **«يحمل هذا العلم من كل خلف عدول، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»**[٢]. وما أحسن ما قال فيهم الإمام أحمد في خطبة كتابه في الرد على الجهمية: الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، ومن ضال جاهل قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس،

---

(١) أخرجه ابن حبان (١/ ٢٦٨ رقم ٦٦) وابن ماجه (رقم ٢٣٦) والترمذي (رقم ٢٦٥٨) والدارمي (رقم ٢٢٨) والشافعي في مسنده (ص ٢٤٠) والحميدي في مسنده (رقم ٨٨) والطبراني في الأوسط (٣/ ٢٥٦ رقم ٣٠٧٢) وفي الصغير (رقم ٣٠٠) وفي الكبير (٢/ ١٢٦ رقم ١٥٤١) وانظر: فتح الباري (١/ ١٧٧).

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٠٩ رقم ٢٠٧٠٠) والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٣٤٤ رقم ٥٩٩) وتمام في فوائده (رقم ٨٩٩) والخطيب في شرف أصحاب الحديث (ص ١١) وابن عبدالبر في التمهيد (١/ ٥٩) وابن عدي في الكامل (٣/ ٣١) والعقيلي في الضعفاء (١/ ٩).

وأقبح أثر الناس عليهم، ينفون عن كتاب الله تأويل الجاهلين، وتحريف الغالين، وانتحال المبطلين[١]. وذكر ابن وضاح هذا الكلام عن عمر بن الخطاب.

[٢]مدح الله سبحانه في كتابه أعمالا، وأثنى على أصحابها، ولا تحصل إلا بالغنى كالزكاة والإنفاق في وجوه البر، والجهاد في سبيل الله بالمال، وتجهيز الغزاة، وإعانة المحاويج، وفك الرقاب، والإطعام في زمن المسغبة.

وأين يقع صبر الفقير من فرحة الملهوف المضطر المشرف على الهلاك إذا أعانه الغنى ونصره على فقره ومخمصته، وأين يقع صبره من نفع الغني بماله في نصرة دين الله وإعلاء كلمته وكسر أعدائه؟ وأين يقع صبر أبى ذر على فقره إلى شكر الصديق به وشرائه المعذبين في الله وإعتاقهم وإنفاقه على نصرة الإسلام، حين قال النبى ﷺ: «**ما نفعني مال أحد ما نفعني مال أبي بكر**»[٣].

وأين يقع صبر أهل الصفة من إنفاق عثمان بن عفان تلك النفقات العظيمة التي قال له رسول الله في بعضها: «**ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم**»[٤]. ثم قال: «**غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت، وما أخفيت وما أبديت**»[٥] أو كما قال.

وإذا تأملتم القرآن وجدتم الثناء فيه على المنفقين أضعاف الثناء على الفقراء الصابرين، وقد شهد رسول الله ﷺ، بأن اليد العليا خير من اليد السفلى، وفسر اليد

---

(١) انظر: الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد (ص ٥٥-٥٦) بتحقيقي وهو من منشورات دار الثبات بالرياض.

(٢) ٢٧٦ عدة الصابرين.

(٣) أخرجه ابن حبان (١٥/ ٢٧٣ رقم ٦٨٥٨) وفي الموارد (رقم ٢١٦٦) والترمذي (رقم ٣٦٦١) وابن ماجه (رقم ٩٤) وأحمد (٢/ ٢٥٣) وابن أبي شيبة (٦/ ٣٤٨ رقم ٣١٩٢٧) وحسنه الترمذي وقال في مصباح الزجاجة (١/ ١٦): وهذا إسناد رجاله ثقات.

(٤) أخرجه الترمذي (رقم ٣٧٠١) وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٥٨٧ رقم ١٢٧٩) والحاكم (٣/ ١١٠ رقم ٤٥٥٣) وصححه. بينما حسنه الترمذي.

(٥) أخرجه الديلمي في الفردوس (٣/ ٩٩ رقم ٤٢٧٥) وابن عدي في الكامل (١/ ٣٤٠) (٦/ ٢٤٩) والعقيلي في الضعفاء (٤/ ٤٠٨) وابن عساكر في تاريخه (٣٩/ ٥٧).

العليا بالمعطية والسفلىٰ بالمسائلة، وقد عدد الله سبحانه علىٰ رسوله ﷺ، من نعمه أن أغناه بعد فقره، وكان غناه هو الحالة التي نقله إليها، وفقره الحالة التي نقله منها، وهو سبحانه كان ينقله من الشيء إلىٰ ما هو خير منه.

وقد قيل في قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الضحىٰ: ٤] أن المراد به الحالتان أي كل حالة خير لك مما قبلها، ولهذا أعقبه بقوله: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحىٰ: ٥] فهذا يدخل فيه عطاؤه في الدنيا والآخرة، قالوا: والغنىٰ مع الشكر زيادة فضل ورحمة والله، يخص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

قالوا: والأغنياء الشاكرون سبب لطاعة الفقراء الصابرين، لتقويتهم إياهم بالصدقة عليهم، والإحسان إليهم وإعانتهم علىٰ طاعتهم، فلهم نصيب وافر من أجور الفقراء زيادة إلىٰ نصيبهم من أجر الإنفاق وطاعاتهم التي تخصهم، كما في صحيح ابن خزيمة من رواية سلمان الفارسي ﷺ عن النبي ﷺ وذكر شهر رمضان فقال: «**من فطر فيه صائمًا كان مغفرة لذنوبه، وعتق رقبته من النار، وكان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء**»[1] فقد جاز الغني الشاكر أجر صيامه، ومثل أجر الفقير الذي فطره.

قالوا: ولو لم يكن للغنىٰ الشاكر إلا فضل الصدقة التي لما تفاخرت الأعمال كان الفخر لها عليهن، كما ذكر النضر بن شميل عن قرة عن سعيد بن المسيب أنه حدث عن عمر بن الخطاب قال ذكر. أن الأعمال الصالحة تتباهىٰ، فتقول الصدقة: أنا أفضلكم[2] قالوا: والصدقة وقاية بين العبد وبين النار، والمخلص المسر بها مستظل بها يوم القيامة في ظل العرش.

وقد روىٰ عمرو بن الحارث ويزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عقبة بن عامر

---

(١) أخرجه ابن خزيمة (٣/ ١٩١ رقم ١٨٨٧) والبيهقي في الشعب (٣/ ٣٠٥ رقم ١٣٦٠٨).

(٢) أخرجه ابن خزيمة (٤/ ٩٥ رقم ٢٤٣٣) والحاكم (١/ ٥٧٦ رقم ١٥١٨) وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم يخرجاه.

ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «إن الصدقه لتطفئ على أهلها حر القبور، وإنما يستظل المؤمن يوم القيامه في ظل صدقته»[١].

وقال يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عقبة يرفعه: «كل امرئ في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس» قال يزيد: وكان أبو الخير لا يأتي عليه يوم إلا تصدق فيه. ولو بكعكة أو بصلة[٢].

وفي حديث معاذ عن النبي ﷺ: «والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار»[٣].

وروى البيهقي من حديث أبي يوسف القاضي عن المختار بن فلفل عن أنس يرفعه: «باكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطى الصدقة»[٤] وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إذا تصدق العبد من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيبًا، أخذها الله بيمينه، فيربيها لأحدهم، كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله، حتى تكون مثل

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٧/ ٢٨٦ رقم ٧٨٨) وابن عبدالبر في الاستذكار (٨/ ٥٩٦) والبيهقي في الشعب (٣/ ٢١٢ رقم ٣٣٤٧) وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ١١٠): رواه الطبراني في الكبير وفيه ابن لهيعة وفيه كلام.

(٢) أخرجه ابن حبان (٨/ ١٠٤ رقم ٣٣١٠) وابن خزيمة (٤/ ٩٤ رقم ٢٤٣١) والبيهقي في الكبرى (٤/ ١٧٧ رقم ٧٥٤٠) والحاكم (١/ ٥٧٦ رقم ١٥١٧) والطبراني في الكبير (١٧/ ٢٨٠ رقم ٧٧١) وأبو يعلى (٣/ ٣٠٠ رقم ١٧٦٦) وأحمد (٤/ ١٤٧) وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ١١٠): رواه كله أحمد وروى أبو يعلى والطبراني في الكبير بعضه ورجال أحمد ثقات. وقال العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٥١٠ رقم ١٣٦٠) رواه أحمد وأبو يعلى وغيرهما عن عقبة بن عامر مرفوعاً وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم وقال: على شرط مسلم.

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٨ رقم ١١٣٩٤) والترمذي (رقم ٢٦١٦) وأحمد (٣/ ٣٢١) والبيهقي في الشعب (٥/ ٢٦٧ رقم ٦٦١٠) قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٣٠): رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح غير إسحاق بن أبي إسرائيل وهو ثقة مأمون. وصححه ابن حجر في الأمالي المطلقة (ص ٢١٤).

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٤/ ١٨٩ رقم ٧٦٢٠) وفي الشعب (٣/ ٢١٤ رقم ٣٣٥٣) والطبراني في الأوسط (٦/ ٩ رقم ٥٦٤٣) والديلمي في الفردوس (٢/ ٨ رقم ٢٠٧٩) وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ١١٠): رواه الطبراني في الأوسط وفيه عيسى بن عبدالله بن محمد وهو ضعيف.

الجبل العظيم»[١] وفي لفظ البيهقي في هذا الحديث: «**حتى إن التمرة أو اللقمة لتكون أعظم من أحد»**[٢] وقال محمد بن المنكدر: «**من موجبات المغفرة إطعام المسلم السغبان»** وقد روي مرفوعًا من غير وجه[٣].

وإذا كان الله سبحانه قد غفر لمن سقى كلبا على شدة ظمئه فكيف بمن سقى العطاش، وأشبع الجياع، وكسى العراة من المسلمين، وقد قال رسول الله ﷺ: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة»**[٤] فجعل الكلم الطيب عوضًا عن الصدقة، لمن لا يقدر عليها، قالوا: وأين لذة الصدقة والإحسان وتفريحهما القلب وتقويتهما إياه، وما يلقي الله سبحانه للمتصدقين من المحبة والتعظيم في قلوب عباده والدعاء لهم والثناء عليهم وإدخال المسرات عليهم من أجر الصبر على الفقر، نعم إن له لأجرًا عظيمًا، لكن الأجر درجات عند الله.

قالوا: وأيضًا فالصدقة والإحسان والإعطاء وصف الرب تعالى، وأحب عباده إليه من اتصف بذلك كما قال النبي ﷺ: «**الخلق عيال الله، فأحب الخلق إليه أنفعهم لعياله»**[٥] قالوا: وقد ذكر الله سبحانه أصناف السعداء، فبدأ بالمتصدقين أولهم، فقال

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٤١٠) ومسلم (رقم ١٠١٤) وانظر: شرح النووي (٧/ ٩٩).

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٣/ ٢٥٨ رقم ٣٤٧٦).

(٣) أخرجه الحاكم عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ مرفوعاً (٢/ ٥٧٠ رقم ٣٩٣٥) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. بينما أخرجه البيهقي في الشعب موقوفاً على محمد بن المنكدر (٣/ ٢١٦ رقم ٣٣٦٣) وأخرجه مرفوعاً في الشعب أيضاً (٣/ ٢١٧ رقم ٣٣٦٤) وأسقط جابر بن عبدالله. وأخرجه هناد في الزهد (١/ ٣٤٣ رقم ٦٣٤) من قول مجاهد.

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٦٠٢٣) ومسلم (رقم ١٠١٦) وانظر: فتح الباري (٣/ ٣٨٣ – ٢٨٤) وشرح النووي (٧/ ١٠٠-١٠٢).

(٥) أخرجه أبو يعلى (٦/ ٦٥ رقم ٣٣١٥) والبيهقي في الشعب (٦/ ٤٣ رقم ٧٤٤٥) والطبراني في الأوسط (٥/ ٣٥٦ رقم ٥٥٤١) والشاشي (١/ ٤١٩ رقم ٤٣٥) والخطيب في تاريخه (٦/ ٣٣٣) وابن عساكر في تاريخه (٣٣/ ٢٧٨) قال العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٤٥٨): ورد من طرق كلها ضعيفة وقال ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٥١٩): هذا حديث لا يصح.

تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ [الحديد: ١٨، ١٩] فهؤلاء أصناف السعداء ومقدموهم المصدقين والمصدقات، قالوا: وفي الصدقة فوائد ومنافع لا يحصيها إلا الله.

فمنها أنها تقي مصارع السوء، وتدفع البلاء، حتى إنها لتدفع عن الظالم. قال إبراهيم النخعي: وكانوا يرون أن الصدقة تدفع عن الرجل الظلوم وتطفئ الخطيئة، وتحفظ المال، وتجلب الرزق، وتفرح القلب، وتوجب الثقة بالله وحسن الظن به، كما أن البخل سوء الظن بالله، وترغم الشيطان يعني الصدقة، وتزكي النفس وتنميها، وتحبب العبد إلى الله وإلى خلقه وتستر عليه كل عيب، كما أن البخل يغطي عليه كل حسنة، وتزيد في العمر، وتستجلب أدعية الناس ومحبتهم، وتدفع عن صاحبها عذاب القبر، وتكون عليه ظلا يوم القيامة، وتشفع له عند الله، وتهون عليه شدائد الدنيا والآخرة، وتدعوه إلى سائر أعمال البر، فلا تستعصي عليه وفوائدها ومنافعها أضعاف ذلك قالوا: ولو لم يكن في النفع والإحسان إلا أنه صفة الله وهو سبحانه يحب من اتصف بموجب صفاته وآثارها، فيحب العليم والجواد والحيي والستير والمؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف.

***

﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ۝ ﴾.

[1]إن الزهد على أربعة أقسام: أحدها: فرض على كل مسلم، وهو الزهد في الحرام، وهذا متى أخل به انعقد سبب العقاب، فلابد من وجود مسببه ما لم ينعقد سبب آخر

(١) ٢٥١ طريق الهجرتين.

يضاده. الثاني: زهد مستحب، وهو على درجات في الاستحباب بحسب المزهود فيه. وهو الزهد في المكروه وفضول المباحات والتفنن في الشهوات المباحة. الثالث: زهد الداخلين في هذا الشأن، وهم المشمرون في السير إلى الله وهو نوعان:

أحدهما: الزهد في الدنيا جملة، وليس المراد تخليها من اليد ولا إخراجها وقعوده صفراً منها، وإنما المراد إخراجها من قلبه بالكلية، فلا يلتفت إليها، ولا يدعها تساكن قلبه، وإن كانت في يده. فليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهي في قلبك، وإنما الزهد أن تتركها من قلبك وهي في يدك. وهذا كحال الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز الذي يضرب بزهده المثل مع أن خزائن الأموال تحت يده، بل كحال سيد ولد آدم ﷺ حين فتح الله عليه من الدنيا ما فتح، ولا يزيده ذلك إلا زهداً فيها. ومن هذا الأثر المشهور، وقد روى مرفوعاً وموقوفاً: «**ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن الزهد في الدنيا أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك**»[1]. والذي يصحح هذا الزهد ثلاثة أشياء: أحدها: علم العبد أنها ظل زائل وخيال زائر، وأنها كما قال الله تعالى فيها: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ﴾ [الحديد: ٢٠]، وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يونس: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ

(١) أخرجه ماجه (رقم ٤١٠٠) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٤/ ٨٥-٨٦) وأبو نعيم في الحلية (٩/ ٣٠٣) وابن عدي في الكامل (٥/ ١١٧-١١٨).

نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الكهف: ٤٥]، وسماها سبحانه: متاع الغرور، ونهى عن الاغترار بها.

وأخبرنا عن سوء عاقبة المغترين بها، وحذرنا مثل مصارعهم، وذم من رضي بها واطمأن إليها. وقال النبي ﷺ: **«مالي وللدنيا إنما أنا كراكب قال في ظل شجرة، ثم راح وتركها»**(١). وفي المسند عنه ﷺ حديث معناه: أن الله جعل طعام ابن آدم وما يخرج منه مثلاً للدنيا، فإنه وإن قزَّحه وملَّحه فلينظر إلى ماذا يصير(٢)، فما اغتر بها ولا سكن إليها إلا ذو همة دنية وعقل حقير، وقدر خسيس. الثاني: علمه أن وراءها داراً أعظم منها قدراً وأجل خطراً وهي دار البقاءِ، وأن نسبتها إليها كما قال النبي ﷺ: **«ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم يرجع»**(٣)، فالزاهد فيها بمنزلة رجل في يده درهم زغل قيل له: اطرحه ولك عوضه مائة ألف دينار مثلاً، فألقاه من يده رجاءَ ذلك العوض، فالزهد فيها لكمال رغبته فيما هو أعظم منها زهد فيها. الثالث: معرفته أن زهده فيها لا يمنعه شيئاً كتب له منها، وأن حرصه عليها لا يجلب له ما لم يقض له منها، فمتى تيقن ذلك، وصار له به علم يقين هان عليه الزهد فيها، فإنه متى تيقن ذلك، وثلج له صدره، وعلم أن مضمونه منها سيأْتيه بقي حرصه وتعبه وكده ضائعاً، والعاقل لا يرضى لنفسه بذلك. فهذه الأُمور الثلاثة تسهل على العبد الزهد فيها، وتثبت قدمه في مقامه. والله الموفق لمن يشاءُ.

---

(١) أخرجه ابن حبان (١٤/ ٢٦٥ رقم ٦٣٥٢) وفي الموارد (رقم ٢٥٢٦) والطبراني في الكبير (١١/ ٣٢٧ رقم ١١٨٩٨) والبزار (٤/ ٣٣٧-٣٣٨ رقم ١٥٣٣) وابن المبارك في الزهد (رقم ١٩٥) والترمذي (رقم ٢٣٧٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٣٦) والطيالسي (رقم ٥٤٨) والبيهقي في الشعب (٥/ ٢٩ رقم ٥٦٥٢) وابن المبارك في الزهد (رقم ٤٩٣) وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (رقم ٢١١) قال المنذري في الترغيب (٣/ ١٠٣): رواه عبدالله بن أحمد في زوائده بإسناد جيد قوي.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٨٥٨) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٣٢) وشرح النووي (١٧/ ١٩٢).

[(١)] وقال تعالى: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗا ﴾ [الحديد: ٢٠] فأخبر سبحانه عن حقيقة الدنيا بما جعله مشاهدًا لأولي البصائر، وأنها لعب ولهو، تلهو بها النفوس، وتلعب بها الأبدان، واللهو واللعب لا حقيقة لهما، وأنهما مشغلة للنفس، مضيعة للوقت يقطع بها الجاهلون، فيذهب ضائعًا في غير شيء، ثم أخبر أنها زينة زينت للعيون وللنفوس، فأخذت بالعيون والنفوس استحسانًا ومحبة، ولو باشرت القلوب معرفة حقيقتها ومآلها ومصيرها لأبغضتها ولآثرت عليها الآخرة، ولما آثرتها على الآجل الدائم، الذي هو خير وأبقى، قال الإمام حدثنا وكيع حدثنا المسعودي عن عمرو بن مرة عن إبراهيم عن علقمة عن عبدالله ﷺ عن النبي قال: «**مالي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب قال في ظل شجرة في يوم صائف، ثم راح وتركها**». وفي جامع الترمذي من حديث سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء**»[(٢)] قال الترمذي: حديث صحيح.

وفي صحيح مسلم من حديث المستورد بن شداد قال رسول الله ﷺ: «**ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع**»، وأشار بالسبابة. وفي الترمذي من حديثه قال: كنت مع الركب الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ على السخلة الميتة، فقال رسول الله ﷺ: «**أترون هذه هانت على أهلها حتى ألقوها**» قالوا: ومن هوانها ألقوها يا رسول الله. قال: «**فالدنيا أهون على الله من هذه على أهلها**»[(٣)].

---

(١) ١٧٩ عدة الصابرين.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٣٢٠) وابن ماجه (رقم ٤١١٠) والطبراني في الكبير (٦/ ١٥٧ رقم ٥٨٤٠) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٣١٦ رقم ١٤٣٩) وصححه الترمذي.

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٢٣٢١) وابن ماجه (رقم ٤١١١) والضياء في المختارة (٧/ ١١٢ رقم ٢٥٣٣) والطبراني في الأوسط (٥/ ٢٩٦ رقم ٥٣٦١) وفي الكبير (٢٠/ ٣٠٤ رقم ٧٢٣) وأحمد (٤/ ٢٢٩) =

وفي الترمذي أيضًا من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالمًا أو متعلمًا**»(١) والحديثان حسنان.

قال الإمام أحمد حدثنا هيثم بن خارجة أنبأنا إسماعيل بن عياش بن عبد الله بن دينار النهراني قال: قال عيسى ﷺ للحواريين بحق أقول لكم: إن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة، وإن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة، وأن عباد الله ليسوا بالمتنعمين بحق، أقول لكم: إن شركم عملا عالم يحب الدنيا ويؤثرها على الآخرة، إنه لو يستطيع جعل الناس كلهم في عمله مثله(٢).

وقال أحمد حدثنا يحيى بن إسحاق قال أخبرني سعيد بن عبد العزيز عن مكحول قال: قال عيسى ابن مريم ﷺ يا معشر الحواريين أيكم يستطيع أن يبني على موج البحر دارًا قالوا: يا روح الله ومن يقدر على ذلك، قال: إياكم والدنيا فلا تتخذوها قرارًا(٣).

وفي كتاب الزهد لأحمد أن عيسى ابن مريم ﷺ كان يقول بحق: أقول لكم إن أكل الخبز وشرب الماء العذب ونومًا على المزابل مع الكلاب كثير لمن يريد أن يرث الفردوس(٤).

وفي المسند عنه: «**إن الله ضرب طعام ابن آدم مثلا للدنيا، وإن قزحه وملحه فلينظر إلى ماذا يصير**»(٥).

= وابن أبي عاصم في الزهد (رقم ١٣٥) وأحمد في الزهد (ص ٢٢) وابن المبارك في الزهد (رقم ٥٠٨) وحسنه الترمذي.

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٣٢٢) وابن ماجه (رقم ٤١١٢) والدارمي (رقم ٣٢٢) والطبراني في الأوسط (٤/ ٢٣٦ رقم ٤٠٧٢) وفي مسند الشاميين (١/ ١٠٧ رقم ١٦٣) وحسنه الترمذي.

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (ص ٩٤) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٧/ ٤٣٢).

(٣) أخرجه أحمد في الزهد (ص ٥٨).

(٤) أخرجه أحمد في الزهد (ص ٥٨).

(٥) أخرجه أحمد (٥/ ١٣٦) وابن حبان (٢/ ٤٧٦ رقم ٧٠٢) وفي الموارد (رقم ٢٤٨٩) والطبراني في الكبير (١/ ١٩٨ رقم ٥٣١) والبيهقي في الشعب (٧/ ٣٢٧ رقم ١٠٤٧٣) وابن أبي عاصم في الزهد =

ثم أخبر ﷻ عنها أنها يفاخر بعضنا بعضًا بها، فيطلبها ليفخر بها علىٰ صاحبه، وهذا حال كل من طلب شيئا للمفاخرة من مال أو جاه أو قوة أو علم أو زهد، والمفاخرة نوعان مذمومة ومحمودة، فالمذمومة مفاخرة أهل الدنيا بها، والمحمودة أن يطلب المفاخرة فى الآخرة، فهذه من جنس المنافسة المأمور بها، وهى أن الرجل ينفس علىٰ غيره بالشيء، ويغار أن يناله دونه، ويأنف من ذلك، ويحمي أنفه له، يقال نفست عليه الشيء أنفسه نفاسة إذا ضننت به ولم تحب أن يصير إليه دونك، والتنافس تفاعل من ذلك، كأن كل واحد من المتنافسين يريد أن يسبق صاحبه إليه، وحقيقة المنافسة الرغبة التامة والمبادرة والمسابقة إلىٰ الشيء النفيس.

ثم أخبر تعالىٰ عنها أنها تكاثر في الأموال والأولاد فيحب كل واحد أن يكاثر بني جنسه في ذلك ويفرح بأن يرىٰ نفسه أكثر من غيره مالًا وولدًا، وأن يقال فيه ذلك، وهذا من أعظم ما يلهي النفوس عن الله والدار الآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ﴾ [التكاثر: ١-٤] والتكاثر في كل شيء فكل من شغله وألهاه التكاثر بأمر من الأمور عن الله والدار الآخرة فهو داخل في حكم هذه الآية، فمن الناس من يلهيه التكاثر بالمال، ومنهم من يلهيه التكاثر بالجاه أو بالعلم، فيجمعه تكاثرا وتفاخرا، وهذا أسوأ حالا عند الله ممن يكاثر بالمال والجاه، فإنه جعل أسباب الآخرة للدنيا، وصاحب المال والجاه استعمل أسباب الدنيا لها وكاثر بأسبابها.

ثم أخبر سبحانه عن مصير الدنيا وحقيقتها، وأنها بمنزلة غيث أعجب الكفار نباته، والصحيح إن شاء الله أن الكفار هم الكفار بالله، وذلك عرف القرآن حيث ذكروا بهذا

=

(رقم ٢٠٥) وابن المبارك في الزهد (رقم ٤٩٤، ٤٩٥، ٥٤٦) والبيهقي في الزهد الكبير (٢/ ١٧٦ رقم ٤١٢) وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (رقم ٢١١) وقال المنذري في الترغيب (٣/ ١٠٣): رواه عبدالله بن أحمد في زوائده بإسناد جيد قوي.

النعت في كل موضع، ولو أراد الزراع لذكرهم باسمهم الذي يعرفون به، كما ذكرهم به في قوله يعجب الزراع، وإنما خص الكفار به، لأنهم أشد إعجابًا بالدنيا، فإنها دارهم التي لها يعملون، ويكدحون، فهم أشد إعجابًا بزينتها، وما فيها من المؤمنين.

ثم ذكر سبحانه عاقبة هذا النبات وهو اصفراره ويبسه، وهذا آخر الدنيا ومصيرها، ولو ملكها العبد من أولها إلى آخرها فنهايتها ذلك فإذا كانت الآخرة انقلبت الدنيا واستحالت إلى عذاب شديد أو مغفرة من الله وحسن ثوابه وجزائه، كما قال علي بن أبي طالب الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار عافية لمن فهم عنها، ومطلب نجح لمن سالم فيها مساجد أنبياء الله، ومهبط وحيه، ومصلى ملائكته، ومتجر أوليائه، فيها اكتسبوا الرحمة، وربحوا فيها العافية، فمن ذا يذمها وقد آذنت بنيها ونعت نفسها وأهلها، فتمثلت ببلائها وشوقت بسرورها إلى السرور تخويفا وتحذيرًا وترغيبا، فذمها قوم غداة الندامة، وحمدها آخرون ذكرتهم فذكروا، ووعظتهم فاتعظوا، فيا أيها الذام للدنيا المغتر بتغريرها، متى استذمت إليك بل متى غرتك أبمنازل آبائك في الثرى، أم بمضاجع أمهاتك في البلاء، كم رأيت موروثًا كم عللت بكفيك عليلا، كم مرضت مريضا بيديك تبتغي له الشفاء، وتستوصف له الأطباء، ثم لم تنفعه شفاعتك، ولم تسعفه طلبتك، مثلت لك الدنيا غداة مصرعه مصرعك ومضجعه مضجعك، ثم التفت إلى المقابر، فقال: يا أهل الغربة، ويا أهل التربة، أما الدور فسكنت، وأما الأموال فقسمت، وأما الأزواج فنكحت، فهذا خبر ما عندنا، فهاتوا خبر ما عندكم، ثم التفت إلينا، فقال: أما لو أذن لهم لأخبروكم: أن خير الزاد التقوى. فالدنيا في الحقيقة لا تذم، وإنما يتوجه الذم إلى فعل العبد فيها، وهي قنطرة أو معبر إلى الجنة أو إلى النار، ولكن لما غلبت عليها الشهوات والحظوظ والغفلة والإعراض عن الله والدار الآخرة، فصار هذا هو الغالب على أهلها وما فيها، وهو الغالب على اسمها، صار لها اسم الذم عند الإطلاق، وإلا فهي مبنى الآخرة ومزرعتها ومنها زاد الجنة وفيها اكتسبت النفوس الإيمان ومعرفة الله ومحبته وذكره ابتغاء مرضاته، وخير عيش

ناله أهل الجنة في الجنة إنما كان بما زرعوه فيها، وكفى بها مدحا وفضلا لأولياء الله، فيها من قرة العيون وسرور القلوب وبهجة النفوس ولذة الأرواح والنعيم الذي لا يشبهه نعيم بذكره ومعرفته ومحبته وعبادته والتوكل عليه والإنابة إليه والإنس به والفرح بقربه والتذلل له ولذة مناجاته والإقبال عليه والاشتغال به عمن سواه، وفيها كلامه ووحيه وهداه وروحه، الذي ألقاه من أمره، فأخبر به من شاء من عباده، ولهذا فضل ابن عقيل وغيره هذا على نعيم الجنة، وقالوا: هذا حق الله عليهم وذاك حظهم ونعيمهم، وحقه أفضل من حقهم، قالوا: والإيمان والطاعة أفضل من جزائه، والتحقيق أنه لا يصح التفضيل بين أمرين في دارين مختلفين، ولو أمكن اجتماعهما في دار واحدة لأمكن طلب التفضيل والإيمان والطاعة في هذه الدار أفضل ما فيها ودخول الجنة والنظر إلى وجه الله جل جلاله وسماع كلامه والفوز برضاه أفضل ما في الآخرة، فهذا أفضل ما في هذه الدار، وهذا أفضل ما في الدار الأخرى، ولا يصح أن يقال، فأي الأمرين أفضل، فهذا أفضل الأسباب، وهذا أفضل الغايات، وبالله التوفيق.

ولما وصف سبحانه حقيقة الدنيا وبين غايتها ونهايتها وانقلابها في الآخرة إلى عذاب شديد ومغفرة من الله وثواب أمر عباده بالمسابقة والمبادرة إلى ما هو خير وأبقى، وأن يؤثروه على الفاني المنقطع المشوب بالأنكاد والتنغيص، ثم أخبر أن ذلك فضله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وقال تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ۝﴾ [الكهف: ٤٥]، ثم ذكر سبحانه أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا، وأن الباقيات الصالحات، وهي الأعمال والأقوال الصالحة، التي يبقى ثوابها ويدوم جزاؤها خير ما يؤمله العبد ويرجو ثوابه، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا

حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٢٤]
ولما أخبر عباده عن آفات هذه الدار دعا عباده إلىٰ دار السلام، التي سلمت من التغير والاستحالة والزوال والفناء، وعم عباده بالدعوة إليها عدلا، وخص من شاء بالهداية إلىٰ طريقها فضلًا.

وأخبر سبحانه أن الأموال والأولاد لا تقرب الخلق إليه، وإنما يقربهم إليه تقوىٰ الله ومعاملته فيهم وحذر سبحانه عباده أن تلهيهم أموالهم وأولادهم عن ذكره، وأخبر أن من ذلك فعل فهو الخاسر حقيقة لا من قل ماله وولده في الدنيا.

ونهىٰ نبيه أن يمد عينيه إلىٰ ما متع به أهل الدنيا فيها فتنة لهم واختبارًا، وأخبر أن رزقه الذي أعده له في الآخرة خير وأبقىٰ من هذا الذي متعوا به، وأخبر سبحانه أنه آتاه السبع المثاني والقرآن العظيم، وذلك خير وأفضل مما متع به أهل الدنيا في دنياهم، وجعل ما آتاه مانعا له من مد عينيه إلىٰ ذلك، فهذا العطاء في الدنيا وما ادخر له من رزق الآخرة خير مما متع به أهل الدنيا، فلا تمدن عينيك.

***

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾.

(1)قال أبو داود الطيالسي: ثنا عبد المؤمن هو ابن عبد الله قال: كنا عند الحسن فأتاه يزيد بن أبي مريم السلولي يتوكأ علىٰ عصًا، فقال: يا أبا سعيد أخبرني عن قول الله ﷻ: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾ [الحديد: ٢٢] فقال الحسن: نعم والله إن الله ليقضي القضية في السماء ثم يضرب لها أجلًا أنه كائن في يوم كذا وكذا في ساعة كذا وكذا في الخاصة والعامة، حتىٰ إن الرجل

(١) ٧ شفاء.

ليأخذ العصا ما يأخذها إلا بقضاء وقدر، قال: يا أبا سعيد والله لقد أخذتها وإني عنها لغني، ثم لا صبر لي عنها، قال الحسن: أولا ترىٰ.

واختلف في الضمير قوله: ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ فقيل: هو عائد علىٰ الأنفس لقربها منه، وقيل هو عائد علىٰ الأرض، وقيل عائد علىٰ المصيبة.

والتحقيق أن يقال هو عائد علىٰ البرية التي تعم هذا كله، ودل عليه السياق، وقوله نبرأها. فينتظم التقادير الثلاثة انتظاما واحدا، والله أعلم، وقال ابن وهب أخبرني عمر بن محمد أن سليمان بن مهران حدثه قال: قال عبد الله بن مسعود: «**إن أول شيء خلقه الله عز وجل من خلقه القلم، فقال له: اكتب. فكتب كل شيء يكون في الدنيا إلىٰ يوم القيامة**» فيجمع بين الكتاب الأول وبين أعمال العباد فلا يخالف ألفاً ولا واوًا وميمًا.

وعن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله عز وجل خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقىٰ عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور شيء اهتدىٰ، ومن أخطأه ضل**» قال عبد الله: فلذلك أقول جف القلم بما هو كائن رواه الإمام أحمد، وقال أبو داود: حدثنا عباس بن الوليد بن مزيد قال: أخبرني أبي قال: سمعت الأوزاعي قال: حدثني ربيعة بن يزيد ويحيىٰ بن أبي عمرو الشيباني قال: حدثني عبدالله بن فيروز الديلمي قال: دخلت علىٰ عبد الله بن عمرو ابن العاص وهو في حائط له بالطائف يقال له الوهط فقلت خصال بلغتني عنك تحدث بها عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من شرب الخمر لم تقبل توبته أربعين صباحًا، وأن الشقي من شقي في بطن أمه**» وقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقىٰ عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور يومئذ اهتدىٰ، ومن أخطأه ضل**» فلذلك أقول جف القلم علىٰ علم الله[1]. ورواه

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٦) والبيهقي في الكبرىٰ (٩/ ٤ رقم ١٧٤٨٨) والحاكم (١/ ٨٤ رقم ٨٣) وصححه بقوله: هذا حديث صحيح قد تداوله الأئمة وقد احتجج بجميع رواته ولم يخرجاه، ولا أعلم له علة. وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٩٣-١٩٤): رواه أحمد بإسنادين والبزار والطبراني ورجال أحد إسنادي أحمد ثقات. وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٩١-٤٩٢).

الإمام أحمد في مسنده أطول من هذا عن عبد الله بن فيروز الديلمي.

[(١)] وقوله سبحانه: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣] فأخبر سبحانه أنه قدر ما يصيبهم من البلاء في أنفسهم قبل أن يبرأ الأنفس أو المصيبة أو الأرض أو المجموع وهو الأحسن، ثم أخبر أن مصدر ذلك قدرته عليه، وأنه يسير عليه، وحكمته البالغة، التي منها أن لا يحزن عباده على ما فاتهم، إذا علموا أن المصيبة فيه بقدره وكتابته، ولا بد قد كتبت قبل خلقهم هان عليهم الفائت، فلم يأسوا عليه، ولم يفرحوا بالحاصل، لعلهم أن المصيبة مقدرة في كل ما على الأرض، فكيف يفرح بشيء قد قدرت المصيبة فيه قبل خلقه.

ولما كانت المصيبة تتضمن فوات محبوب أو خوف فواته أو حصول مكروه أو خوف حصوله نبه بالأسى على الفائت على مفارقة المحبوب بعد حصوله وعلى فوته حيث لم يحصل، ونبه بعدم الفرح به إذا وجد على توطين النفس لمفارقته قبل وقوعها، وعلى الصبر على مرارتها بعد الوقوع، وهذه هي أنواع المصائب، فإذا تيقن العبد أنها مكتوبة مقدرة وأن ما أصابه منها لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، هانت عليه وخف حملها، وأنزلها منزلة الحر والبرد.

[(٢)] والفرق بين رقة القلب والجزع: أن الجزع ضعف في النفس وخوف في القلب، يمده شدة الطمع والحرص، ويتولد من ضعف الإيمان بالقدر، وإلا فمتى علم أن المقدر كائن ولابد كان الجزع عناء محضا ومصيبة ثانية، قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ فمتى آمن

(١) ١٩٤ شفاء.
(٢) ٣٠٥ الروح.

العبد بالقدر وعلم أن المصيبة مقدرة في الحاضر والغائب لم يجزع ولم يفرح.

ولا ينافي هذا رقة القلب فإنها ناشئة من صفة الرحمة، التي هي كمال، والله سبحانه إنما يرحم من عباده الرحماء، وقد كان رسول الله ﷺ أرق الناس قلبًا، وأبعدهم من الجزع، فرقة القلب رأفة ورحمة. وجزعه مرض وضعف، فالجزع حال قلب مريض بالدنيا قد غشيه دخان النفس الأمارة، فأخذ بأنفاسه، وضيق عليه مسالك الآخرة، وصار في سجن الهوى والنفس، وهو سجن ضيق الأرجاء، مظلم المسلك، فانحصار القلب وضيقه يجزع من أدنى ما يصيبه، ولا يحتمله، فإذا أشرق فيه نور الإيمان واليقين بالوعد، وامتلأ من محبة الله وإجلاله رق وصارت فيه الرأفة والرحمة، فتراه رحيما رفيق القلب بكل ذي قربى ومسلم، يرحم النملة في حجرها، والطير في وكره، فضلًا عن بني جنسه، فهذا أقرب القلوب من الله، قال أنس: كان رسول الله أرحم الناس بالعيال[1] والله سبحانه إذا أراد أن يرحم عبدًا أسكن في قلبه الرأفة والرحمة، وإذا أراد أن يعذبه نزع من قلبه الرحمة والرأفة، وأبدله بهما الغلظة والقسوة وفي الحديث الثابت: **«لا تنزع الرحمة إلا من شقي»**[2]، وفيه: **«من لا يرحم لا يرحم»**[3] وفيه: **«ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»**[4]، وفيه: **«أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذي قربى، ومسلم عفيف متعفف ذو عيال»** والصديق ﷺ إنَّما فضل الأمة بما كان في قلبه من الرَّحمة العامَّة زيادة

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (رقم ٣٧٦) وابن عساكر في تاريخه (٤/ ٨٨) وانظر: فيض القدير (٣/ ١٧) (٥/ ١٦٧).

(٢) أخرجه ابن حبان (٢/ ٢١٣ رقم ٤٦٦) وأبو داود (رقم ٤٩٤٢) والبيهقي في الكبرى (٨/ ١٦١ رقم ١٦٤٢٠) والترمذي (رقم ١٩٢٣) وأحمد (٢/ ٣٠١) وأبو يعلى (١٠/ ٥٢٦ رقم ٦١٤١) والطيالسي (رقم ٢٥٢٩) وحسنه الترمذي.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٥٩٩٧) ومسلم (رقم ٢٣١٨) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٢٩-٤٣٠) وشرح النووي (١٥/ ٧٦-٧٨).

(٤) أخرجه الترمذي (رقم ١٩٢٤).

على الصديقية، ولهذا أظهر أثرها في جميع مقدماته، حتى في الأسارى يوم بدر، واستقر الأمر على ما أشار به، وضرب له مثلا بعيسى وإبراهيم، والرب سبحانه تعالى هو الرءوف الرحيم، وأقرب الخلق إليه وأعظمهم رأفة ورحمة، كما أن أبعدهم منه من اتصف بضد صفاته، وهذا باب لا يلجه إلا الأفراد في العالم.

***

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

(١)...الأصل في العقود كلها إنما هو العدل، الذي بعثت به الرسل، وأنزلت به الكتب، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥] والشارع نهى عن الربا لما فيه من الظلم، وعن الميسر لما فيه من الظلم، والقرآن جاء بتحريم هذا وهذا؛ وكلاهما أكل المال بالباطل، وما نهى عنه النبي ﷺ، من المعاملات ـ كبيع الغرر، وبيع الثمر قبل بدو صلاحه، وبيع السنين، وبين حبل الحبلة، وبيع المزابنة، والمحاقلة، وبيع الحصاة، وبيع الملاقيح والمضامين، ونحو ذلك ـ هي داخلة إما في الربا وإما في الميسر؛ فالإجارة بالأجرة المجهولة مثل أن يكريه الدار بما يكسبه المكتري في حانوته من المال هو من الميسر، وأما المضاربة والمساقاة والمزارعة فليس فيها شيء من الميسر، بل هي من أ قوم العدل.

(٢)ورأيت لشيخ الإسلام ـ رحمه الله ورضي عنه ـ في ذلك جوابًا وسؤالًا هل السياسة بالضرب والحبس للمتهمين في الدعاوى وغيرها من الشرع أم لا؟ وإذا

---

(١) ٣٧٨ أعلام جـ١.
(٢) ٩٣ الطرق الحكمية.

كانت من الشرع فمن يستحق ذلك ومن لا يستحقه؟ وما قدر الضرب ومدة الحبس؟

فأجاب: الدعاوى التي يحكم فيها ولاة الأمور سواء سموا قضاة أو ولاة الأحداث أو ولاة المظالم أو غير ذلك من الأسماء العرفية الاصطلاحية، فإن حكم الله تبارك وتعالى شامل لجميع الخلائق، وعلى كل من ولي أمرا من أمور الناس أو حكم بين اثنين أن يحكم بالعدل، فيحكم بكتاب الله وسنة رسوله، وهذا هو الشرع المنزل من عند الله، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

فالدعاوي قسمان: دعوى تهمة ودعوى غير تهمة، فدعوى التهمة أن يدعى فعل محرم على المطلوب يوجب عقوبته مثل قتل أو قطع طريق أو سرقة أو غير ذلك من العدوان الذي يتعذر إقامة البينة عليه في غالب الأحوال، وغير التهمة أن يدعي عقدا من بيع أو قرض أو رهن أو ضمان أو غير ذلك[(١)]...

[(٢)]...فالواجب على ولي الأمر فعل ما أمره الله به، وما هو أصلح للمسلمين من إعزاز دين الله وقمع أعدائه، وإتمام ما فعله الصحابة من إلزامهم بالشروط عليهم، ومنعهم من الولايات في جميع أرض الإسلام. لا يلتفت في ذلك إلى مرجف أو مخذل، يقول: إن لنا عندهم مساجد وأسرى نخاف عليهم، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]. وإذا كان فوروز في مملكة التتار قد هدم عامة الكنائس على رغم أنف أعداء الله، فحزب الله المنصور

(١) بقية البحث مطولة مفيدة جدًا لمن هو راغب في تحقيق معلوماته. (ج).

(٢) ٦٨٨ أحكام أهل الذمة جـ٢.

وجنده الموعود بالنصر إلى قيام الساعة أولى بذلك وأحق، فإن النبي ﷺ أخبر أنهم لا يزالون ظاهرين إلى يوم القيامة، ونحن نرجو أن يحقق الله وعد رسوله ﷺ حيث قال: «**يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها**» ويكون من أجرى الله ذلك على يديه، وأعان عليه من أهل القرآن والحديث داخلين في هذا الحديث النبوي، فإن الله بهم يقيم دينه، كما قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

(١)ومن بعض حقوق الله على عبده: رد الطاعنين على كتابه ورسوله ودينه، ومجاهدتهم بالحجة والبيان، والسيف والسنان، والقلب والجنان، وليس وراء ذلك حبة خردل من الإيمان. وكان انتهى إلينا مسائل أوردها بعض الكفار الملحدين على بعض المسلمين، فلم يصادف عنده ما يشفيه، ولا وقع دواؤه على الداء الذي فيه، وظن المسلم أنه بضربه بداويه فسطا به ضرباً، وقال: هذا هو الجواب، فقال الكافر: صدق أصحابنا في قولهم: إن دين الإسلام إنما قام بالسيف لا بالكتاب. فتفرقا، وهذا ضارب وهذا مضروب، وضاعت الحجة بين الطالب والمطلوب؛ فشمر المجيب ساعد العزم، ونهض على ساق الجد، وقام لله قيام مستعين به، مفوض إليه، متوكل عليه في موافقة مرضاته، ولم يقل مقالة العجزة الجهال: إن الكفار إنما يعاملون بالجلاد دون الجدال. وهذا فرار من الزحف، وإخلاد إلى العجز والضعف، وقد أمر الله بمجادلة الكفار بعد دعوتهم؛ إقامة للحجة وإزاحة للعذر: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]، والسيف إنما جاء منفذاً للحجة، مقوماً للمعاند، وحداً للجاحد، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ

(١) ١٠ هداية الحيارى.

لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾، فدين الإسلام قام بالكتاب الهادي، ونفذه السيف الماضي.

فما هو إلا الوحي أوحد مرهف	يقيم ضباه أخدعي كل مائل
فهذا شفاء الداء من كل عاقل	وهذا دواء الداء من كل جاهل

وإلى الله الرغبة في التوفيق، فإنه الفاتح من الخير أبوابه، والميسر له أسبابه.

(١) عن الربيع بن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع»(٢) قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب رواه بعضهم فلم يرفعه وإنما جعل طلب العلم من سبيل الله، لأن به قوام الإسلام، كما أن قوامه بالجهاد، فقوام الدين بالعلم والجهاد، ولهذا كان الجهاد نوعين جهاد باليد والسنان، وهذا المشارك فيه كثير، والثاني الجهاد بالحجة والبيان، وهذا جهاد الخاصة من اتباع الرسل، وهو جهاد الأئمة، وهو أفضل الجهادين لعظم منفعته وشدة مؤنته وكثرة أعدائه، قال تعالى في سورة الفرقان، وهي مكية: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥١، ٥٢] فهذا جهاد لهم بالقرآن وهو أكبر الجهادين وهو جهاد المنافقين أيضًا، فإن المنافقين لم يكونوا يقاتلون المسلمين، بل كانوا معهم في الظاهر، وربما كانوا يقاتلون عدوهم معهم، ومع هذا فقد قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ [التحريم: ٩] واغلظ عليهم ومعلوم أن جهاد المنافقين بالحجة والقرآن، والمقصود أن سبيل الله هي الجهاد وطلب العلم ودعوة الخلق به إلى الله، ولهذا قال معاذ رضي الله عنه عليكم بطلب العلم، فإن تعلمه لله خشية، ومدارسته عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد. ولهذا قرن سبحانه بين الكتاب المنزل والحديد الناصر، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا

(١) ٧٠ مفتاح جـ١.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٦٤٧) والضياء في المختارة (٦/ ١٢٤ رقم ٢١١٩) وحسنه محقق المختارة.

رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ فذكر الكتاب والحديد، إذ بهما قوام الدين كما قيل.

[(١)]إن الله سبحانه قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥] فالكتاب كلامه، والميزان عدله، فأخبر أنه أنزلهما مع رسله، ثم قال: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ ولم يقل وأنزلنا معهم الحديد، فلما ذكر كلامه وعدله أخبر أنه أنزلهما مع رسله، ولما ذكر مخلوقه الناصر لكتابه وعدله أطلق إنزاله ولم يقيده بما قيد به إنزال كلامه، فالمسوي بين الإنزالين مخطئ في اللفظ والمعنى.

[(٢)]والمقصود الفرق بين الحجج والبينات، فنقول: الحجج الأدلة العلمية، والبينات جمع بينة، وهي صفة في الأصل يقال: آية بينة وحجة بينة، والبينة اسم لكل ما بين الحق من علامة منصوبة أو أمارة أو دليل علمي، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥] فالبينات الآيات التي أقامها الله دلالة على صدقهم من المعجزات والكتاب هو الدعوة، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧] ومقام إبراهيم آية جزئية مرئية بالأبصار، ومن آيات الله الموجودة في العالم...[(٣)].

[(٤)]وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ دل ذلك على أن في نفس الأمر قسطًا، وأن الله سبحانه أنزل

---

(١) ٢٢١ مختصر الصواعق جـ٢.

(٢) ١٤٦ مفتاح جـ١.

(٣) تقدمت تكملة هذا في سورة الأعراف. (ج).

(٤) ٩ مفتاح جـ٢.

كتابه، وأنزل الميزان، وهو العدل ليقوم الناس بالقسط، أنزل الكتاب لأجله والميزان، فعلم أن في نفس الأمر ما هو قسط وعدل: حسن، ومخالفته: قبيحة، وأن الكتاب والميزان نزلا لأجله.

ومن ينفي الحسن والقبح يقول ليس في نفس الأمر ما هو عدل حسن، وإنما صار قسطًا وعدلًا بالأمر فقط، ونحن لا ننكر أن الأمر كساه حسنًا وعدلًا إلى حسنه وعدله في نفسه، فهو في نفسه قسط حسن، وكساه الأمر حسنًا آخر، يضاعف به كونه عدلًا حسنًا، فصار ذلك ثابتًا له من الوجهين جميعًا.

***

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

[(١)]ومراتب العلم والعمل ثلاثة: «رواية، وهي مجرد النقل وحمل المروي ودراية وهي فهمه وتعقل معناه، ورعاية وهي العمل بموجب ما عمله ومقتضاه. فالنقلة همتهم الرواية، والعلماء همتهم الدراية، والعارفون همتهم الرعاية. وقد ذم الله من لم يرع ما اختاره وابتدعه من الرهبانية حق رعايته، فقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ [الحديد: ٢٧].

﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ﴾ منصوب بـ﴿ ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ على الاشتغال: إما بنفس الفعل المذكور على قول الكوفيين، وإما بمقدر محذوف مفسر بهذا المذكور على قول البصريين، أي وابتدعوا رهبانية، وليس منصوبا بوقوع الجعل عليه، فالوقف التام عند قوله: ﴿ وَرَحْمَة ﴾

---

(١) ٦٠ مدارج جـ٢.

ثم يبتدئ ورهبانية ابتدعوها أي لم نشرعها لهم، بل هم ابتدعوها من عند أنفسهم، ولم نكتبها عليهم، وفي نصب قوله: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه مفعول له أي لم نكتبها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله، وهذا فاسد فإنه لم يكتبها عليهم سبحانه، كيف وقد أخبر: أنهم هم ابتدعوها فهي مبتدعة غير مكتوبة، وأيضا فإن المفعول لأجله يجب أن يكون علة لفعل الفاعل المذكور معه، فيتحد السبب والغاية نحو: قمت إكراما، فالقائم هو المكرم، وفعل الفاعل المعلل ههنا، هو الكتابة، وابتغاء رضوان الله فعلهم لا فعل الله، فلا يصلح أن يكون علة لفعل الله لاختلاف الفاعل.

وقيل: بدل من مفعول (كتبناها) أي ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله.

وهو فاسد أيضًا إذ ليس ابتغاء رضوان الله عين الرهبانية، فتكون بدل الشيء من الشيء، ولا بعضها، فتكون بدل بعض من كل، ولا أحدهما مشتمل على الآخر، فتكون بدل اشتمال، وليس بدل غلط.

فالصواب: أنه منصوب نصب الاستثناء المنقطع، أي لم يفعلوها، ولم يبتدعوها، إلا لطلب رضوان الله، ودل على هذا قوله: ابتدعوها، ثم ذكر الحامل لهم والباعث على ابتداع هذه الرهبانية، وأنه هو طلب رضوان الله، ثم ذمهم بترك رعايتها، إذ من التزم لله شيئا لم يلزمه الله إياه من أنواع القرب لزمه رعايته وإتمامه، حتى ألزم كثير من الفقهاء من شرع في طاعة مستحبة بإتمامها، وجعلوا التزامها بالشروع كالتزامها بالنذر، كما قال: أبو حنيفة ومالك وأحمد في إحدى الروايتين عنه، وهو إجماع أو كالإجماع في أحد النسكين.

قالوا: والالتزام بالشروع أقوى من الالتزام بالقول، فكما يجب عليه رعاية ما التزمه بالنذر وفاء، يجب عليه رعاية ما التزمه بالفعل إتمامًا.

وليس هذا موضع استقصاء هذه المسألة.

والقصد: أن الله ﷻ ذم من لم يرع قربة ابتدعها لله تعالى حق رعايتها، فكيف بمن لم يرع قربة شرعها الله ورضيها لعباده وأذن بها وحث عليها.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾.

[(١)]وقد ذكر الله سبحانه هذين الأصلين في كتابه في غير موضع، وجعلهما صفة أهل الإيمان، وجعل ضدهما صفة من خرج عن الإيمان، فإن القلب الحي المستنير هو الذي عقل عن الله، وفهم عنه، وأذعن وانقاد لتوحيده ومتابعة ما بعث به رسوله ﷺ، والقلب الميت المظلم الذي لم يعقل عن الله، ولا انقاد لما بعث به رسول الله ﷺ، ولهذا يصف سبحانه هذا الضرب من الناس بأنهم أموات غير أحياء، وبأنهم في الظلمات لا يخرجون منها، ولهذا كانت الظلمة مستولية عليهم في جميع جهاتهم، فقلوبهم مظلمة، ترى الحق في صورة الباطل والباطل في صورة الحق، وأعمالهم مظلمة، وأقوالهم مظلمة، وأحوالهم كلها مظلمة، وقبورهم ممتلئة عليهم ظلمة، وإذا قسمت الأنوار دون الجسر للعبور عليه بقوا في الظلمات، ومدخلهم في النار مظلم. وهذه الظلمة هي التي خلق فيها الخلق أولا، فمن أراد الله ﷻ به السعادة أخرجه منها إلى النور، ومن أراد به الشقاوة تركه فيها، كما روى الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: **«إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل»**، فلذلك أقول: جف القلم على علم الله. وكان النبي ﷺ يسأل الله تعالى أن يجعل له نورًا في قلبه وسمعه وبصره وشعره وبشره ولحمه وعظامه ودمه، ومن فوقه ومن تحته، وعن شماله وخلفه وأمامه، وأن يجعل ذاته نورا، فطلب ﷺ النور لذاته ولأبعاضه ولحواسه الظاهرة والباطنة ولجهاته الست.

وقال أبي بن كعب ﷺ: المؤمن مدخله من نور، ومخرجه من نور، وقوله نور، وعمله نور، وهذا النور بحسب قوته وضعفه، يظهر لصاحبه يوم القيامة، فيسعى بين

---

(١) ٥ اجتماع الجيوش الإسلامية.

يديه ويمينه، فمن الناس من يكون نوره كالشمس، وآخر كالنجم، وآخر كالنخلة السحوق، وآخر دون ذلك، حتى إن منهم من يعطى نورا على رأس إبهام قدمه، يضيء مرة ويطفأ أخرى، كما كان نور إيمانه ومتابعته في الدنيا كذلك، فهو هذا بعينه يظهر هناك للحس والعيان. وقال وتعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢] فسمى وحيه وأمره روحا لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح، وسماه نورًا لما يحصل به من الهدى واستنارة القلوب، والفرقان بين الحق والباطل. وقد اختلف في الضمير في قوله ﷻ: ﴿ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا ﴾ فقيل يعود على الكتاب، وقيل على الإيمان، والصحيح أنه يعود على الروح في قوله: ﴿ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾.

فأخبر تعالى أنه جعل أمره روحًا ونورًا وهدى. ولهذا ترى صاحب اتباع الأمر والسنة قد كسي من الروح والنور وما يتبعهما من الحلاوة والمهابة والجلالة والقبول ما قد حرمه غيره، كما قال الحسن رحمه الله: «إن المؤمن من رزق حلاوة ومهابة» وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧] فأولياؤهم يعيدونهم إلى ما خلقوا فيه من ظلمة طبائعهم وجهلهم وأهوائهم. وكلما أشرق لهم نور النبوة والوحي وكادوا أن يدخلوا فيه منعهم أولياؤهم منه وصدوهم؛ فذلك إخراجهم إياهم من النور إلى الظلمات، وقال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢] فإحياؤه ﷻ بروحه الذي هو وحيه وهو روح الإيمان والعلم وجعل له نورًا يمشي به بين أهل الظلمة، كما يمشي الرجل بالسراج المضيء في الليلة الظلماء، فهو يرى أهل الظلمة في ظلامتهم، وهم لا يرونه، كالبصير الذي يمشي بين العميان.

والخارجون عن طاعة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ومتابعتهم يتقلبون في

عشر ظلمات: ظلمة الطبع، وظلمة الجهل، وظلمة الهوى، وظلمة القول، وظلمة العمل، وظلمة المدخل، وظلمة المخرج، وظلمة القبر، وظلمة القيامة، وظلمة دار القرار، فالظلمة لازمة لهم في دورهم الثلاثة.

وأتباع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يتقلبون في عشرة أنوار؛ ولهذه الأمة من النور ما ليس لأمة غيرها، ولنبيها ﷺ من النور ما ليس لنبي غيره، فإن لكل نبي منهم نورين، ولنبينا ﷺ تحت كل شعرة من رأسه وجسده نور تام، كذلك صفته وصفة أمته في الكتب المتقدمة. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [الحديد: ٢٨] وفي قوله: ﴿ تَمۡشُونَ بِهِۦ ﴾ إعلام بأن تصرفهم وتقلبهم الذي ينفعهم إنما هو بالنور، وأن مشيهم بغير النور غير مجد عليهم ولا نافع لهم؛ بل ضرره أكثر من نفعه، وفيه أن أهل النور هم أهل المشي في الناس، ومن سواهم أهل الزمانة والانقطاع، فلا مشي لقلوبهم ولا لأحوالهم ولا لأقوالهم، ولا لأقدامهم إلى الطاعات، وكذلك لا تمشي على الصراط إذا مشت بأهل الأنوار أقدامهم. وفي قوله: ﴿ تَمۡشُونَ بِهِۦ ﴾ نكتة بديعة، وهي أنهم يمشون على الصراط بأنوارهم كما يمشون بها بين الناس في الدنيا، ومن لا نور له فإنه لا يستطيع أن ينقل قدما عن قدم على الصراط فلا يستطيع المشي أحوج ما يكون إليه.

(١)قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ ﴾ [الحديد: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢] وقوله تعالى: ﴿ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [المائدة: ١٦]

---

(١) ١٢٧ مفتاح جـ١.

وقوله: ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢].

فإذا عدم القلب هذا النور صار بمنزلة الحيران الذي لا يدري أين يذهب، فهو لحيرته وجهله بطريق مقصوده يؤم كل صوت يسمعه، ولم يسكن قلوبهم من العلم ما تمتنع به من دعاة الباطل، فإن الحق متى استقر في القلب قوي به وامتنع مما يضره ويهلكه، ولهذا سمى الله الحجة العلمية سلطانًا، وتقدم قدم ذلك، فالعبد يؤتى من ظلمة بصيرته، ومن ضعف قلبه، فإذا استقر فيه العلم النافع استنارت بصيرته وقوي قلبه.

[1]وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ [الحديد: ٢٨] فضمن لهم سبحانه بالتقوى ثلاثة أمور: أحدها: أعطاهم نصيبين من رحمته، نصيبًا في الدنيا، ونصيبًا في الآخرة، وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة فيصير نصيبين. الثاني: أعطاهم نورًا يمشون به في الظلمات، الثالث: مغفرة ذنوبهم، وهذا غاية التيسير، فقد جعل سبحانه التقوى سببًا لكل يسر، وترك التقوى سببًا لكل عسر.

[2]كتاب للرعاف: كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يكتب على جبهته: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ [هود: ٤٤]. وسمعته يقول: كتبتها لغير واحد فبرأ، فقال: ولا يجوز كتابتها بدم الراعف، كما يفعله الجهال، فإن الدم نجس، فلا يجوز أن يكتب به كلام الله تعالى.

كتاب آخر له: خرج موسى عليه السلام برداء، فوجد شعيباً، فشده بردائه ﴿ يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد: ٣٩].

كتاب آخر للحزاز: يكتب عليه: ﴿ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ﴾ [البقرة: ٢٦٦] بحول الله وقوته.

---

(١) ٣٧ التبيان.

(٢) ٣٨٢ زاد المعاد جـ٣.

كتاب آخر له: عند اصفرار الشمس يكتب عليه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [الحديد: ٢٨].

كتاب آخر للحمى المثلثة: يكتب على ثلاث ورقات لطاف: بسم الله فرَّت، بسم الله مرت، بسم الله قلت، ويأخذ كل يوم ورقة، ويجعلها في فمه، ويبتلعها بماء.

كتاب آخر لعرق النسا: بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم رب كل شيء، ومليك كل شيء، وخالق كل شيء، أنت خلقتني، وأنت خلقت النَّسا، فلا تسلطه علي بأذى، ولا تسلطني عليه بقطع، واشفني شفاء لا يغادر سقماً، لا شافي إلا أنت.

كتاب للعرق الضارب: روى الترمذي في جامعه: من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم من الحمى، ومن الأوجاع كلها أن يقولوا: «بسم الله الكبير، أعوذ بالله العظيم من شر كل عرق نعار، ومن شر حر النار».

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الحديد

والحمد لله رب العالمين



سورة المجادلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١ ٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢ وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤ ﴾.

[(1)]ثبت في السنن والمسانيد «أن أوس بن الصامت: ظاهر من زوجته خولة بنت مالك بن ثعلبة، وهي التي جادلت فيه رسول الله ﷺ، واشتكت إلى الله، وسمع الله شكواها من فوق سبع سموات ـ فقالت: يا رسول الله، إن أوس بن الصامت تزوجني، وأنا شابة مرغوب فيَّ، فلما خلا سني، ونثرت له ذات بطني: جعلني كأمه عنده، فقال لها رسول الله ﷺ: «ما عندي في أمرك شيء»، فقالت: «اللهم إني أشكو إليك». وروي أنها قالت: «إن لي صبية صغارًا، إن ضمهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليَّ جاعوا. فنزل القرآن»[(2)].

وقالت عائشة: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات. لقد جاءت خولة بنت ثعلبة تشكو إلى رسول الله ﷺ، وأنا في كسر البيت، يخفى عليَّ بعض كلامها. فأنزل الله

---

(١) ١٥٨ زاد المعاد جـ٤.

(٢) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (٧/ ٣٨٢ رقم ١٥٠٢٠) والدارقطني (٣/ ٣١٦ رقم ٢٥٩) والطبراني في مسند الشاميين (٤/ ٨ رقم ٢٥٧٤) والحاكم (٢/ ٥٢٣ رقم ٣٧٩١) وابن ماجه (رقم ٢٠٦٣) وأبو يعلى (٨/ ٢١٤ رقم ٤٧٨٠) وصححه الحاكم، وانظر: تخريج الأحاديث والآثار للزيلعي (٣/ ٤٢٥) وانظر أيضاً: فتح الباري (١٣/ ٣٧٤).

ﷻ: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾(١) [المجادلة:١]. فقال النبي ﷺ: «**ليعتق رقبة؟**» قالت: لا يجد. قال: «**فيصوم شهرين متتابعين**» قالت: يا رسول الله، إنه شيخ كبير، ما به صيام، قال: «**فليطعم ستين مسكيناً**» قالت: ما عنده شيء يتصدق به. قال: «**فإني سأعينه بعَرْق من تمر**» قالت: وأنا أعينه بعَرْق آخر، قال: «**أحسنتِ، فأطعمي عنه ستين مسكينًا، وارجعي إلى ابن عمك**»(٢).

(٣)والسمع يراد به إدراك الصوت، ويراد به فهم المعنى، ويراد به القبول والإجابة، والثلاثة في القرآن، فمن الأول: قوله: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة:١]. وهذا أصرح ما يكون في إثبات صفة السمع، وذكر الماضي والمضارع واسم الفاعل سمع ويسمع وهو سميع وله السمع، كما قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله ﷺ وأنا في جانب البيت وإنه ليخفى عليّ بعض كلامها، فأنزل الله: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا ﴾. والثاني سمع الفهم كقوله: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ أي لأفهمهم ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٣]. لما في قلوبهم من الكبر والإعراض

(١) أخرجه البخاري تعليقاً في كتاب التوحيد من صحيحه باب قول الله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٤] قبل حديث (رقم ٧٣٨٦) والنسائي في الكبرى (٣/ ٣٦٨ رقم ٥٦٥٤) وابن ماجه (رقم ١٨٨) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٣٨٢ رقم ١٥٠١٩) وأبو يعلى (٨/ ٢١٤ رقم ٤٧٨٠) وأحمد (٦/ ٤٦) وعبد بن حميد (رقم ١٥١٤) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٧٨ رقم ٦٢٥) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٧٤).

(٢) أخرجه ابن الجارود (رقم ٧٤٦) وابن حبان (١٠/ ١٠٧-١٠٨ رقم ٤٢٧٩) وفي موارد الظمآن (رقم ١٣٣٤) وأبو داود (رقم ٢٢١٤) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٣٨٩ رقم ١٥٠٥١) وأحمد (٦/ ٤١٠) وانظر: المغني (٨/ ٣، ٢٥) وبداية المجتهد (٢/ ٧٨) وسبل السلام (٣/ ١٨٩) ونيل الأوطار (٧/ ٥٥).

(٣) ٧٩ مفتاح جـ١.

عن قبول الحق؛ ففيهم آفتان: إحداهما أنهم لا يفهمون الحق لجهلهم، ولو فهموه لتولوا عنه وهم معرضون عنه لكبرهم، وهذا غاية النقص والعيب. والثالث: سمع القبول والإجابة كقوله تعالى: ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٤٧] أي قابلون له مستجيبون لأهله، ومنه قوله: ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ [المائدة: ٤١] أي: قابلون مستجيبون، ومنه قول المصلي: سمع الله لمن حمده، أي أجاب الله حمد من حمده ودعاء من دعاه وقول النبي ﷺ: «**إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده، فقولوا: ربنا ولك الحمد، يسمع الله لكم**»[(١)] أي يجيبكم، والمقصود: أن الإنسان إذا لم يكن له علم بما يصلحه في معاشه، ومعاده كان الحيوان البهيم خيرًا منه لسلامته في المعاد مما يهلكه دون الإنسان الجاهل.

...[(٢)]وسألته ﷺ خولة بنت مالك فقالت: إن زوجها أوس بن الصامت ظاهر منها، وشكته إلى رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ، يجادلها فيه بقوله: «**اتقي الله فإنه ابن عمك**»، فما برحت حتى نزل القرآن: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١] الآيات، فقال: «**يعتق رقبة**» قالت: لا يجد. قال: «**فيصوم شهرين متتابعين**». قالت: إنه شيخ كبير ما به من صيام، قال: «**فليطعم ستين مسكينًا**». قالت: ما عنده من شيء يتصدق به، فأتي ساعته بعَرْق من تمر، قلت: يا رسول الله إني أعينه بعَرْق آخر، قال: «**أحسنت اذهبي فأطعمي بها عنه ستين مسكينًا، وارجعي إلى ابن عمك**» ذكره أحمد وأبو داود.

ولفظ أحمد: قالت: فيَّ والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله صَدْرَ سورة المجادلة، قالت: كنت عنده، وكان شيخًا كبيرًا قد ساء خلقه وضجر، قالت: فدخل عليَّ يومًا، فراجعته بشيء، فغضب، فقال: أنت عليَّ كظهر أمي، ثم خرج فجلس في نادي قومه

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٨٩) ومسلم (رقم ٤١١) وانظر: فتح الباري (٢/ ١٧٩-١٨٠) وشرح النووي (٤/ ١٣١-١٣٢).

(٢) ٣٥٣ أعلام جـ٤.

ساعة، ثم دخل عليَّ، فإذا هو يريدني عن نفسي، قالت: قلت: كلا، والذي نفس الخويلة بيده لا تخلص إليَّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكم، قالت: فواثبني، فامتنعت منه، فغلبته بما تغلب المرأة الشيخ الضعيف، فألقيته عني، ثم خرجت إلى بعض جاراتي، فاستعرت منها ثيابها، ثم خرجت حتى جئت رسول الله ﷺ، فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيت منه، فجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خُلُقه، فجعل رسول الله ﷺ، يقول: «**يا خويلة ابن عمك شيخ كبير، فاتقي الله فيه**»، قالت: فوالله ما برحت حتى نزل القرآن، فتغشى رسول الله ﷺ، ما كان يتغشاه ثم سُرِّيَ عنه، فقال: «**يا خويلة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك**» ثم قرأ عليَّ ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة:١]، إلى قوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة:٤]. قالت: فقال رسول الله، ﷺ: «**مُريه فليعتق رقبة**»[(١)] وذكر نحو ما تقدم. وعند ابن ماجه أنها قالت: يا رسول الله أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، فما برحت حتى نزل جبرائيل عليه السلام بهؤلاء الآيات.

[(٢)] وفي السنن: «**أن سلمة بن صخر البياضي: ظاهر من امرأته مدة شهر رمضان، ثم واقعها ليلة قبل انسلاخه.فقال له النبي ﷺ: «أنت بذاك يا سلمة؟» قال: قلت: أنا بذاك يا رسول الله ـ مرتين ـ وأنا صابر لأمر الله. فاحكم فيَّ بما أراك الله، قال: «حَرِّر رقبة» قلت: والذي بعثك بالحق نبيًا ما أملك رقبة غيرها ـ وضربت صفحة رقبتي ـ قال: «فصم شهرين متتابعين». قال: فهل أصبت الذي أصبت إلا في الصيام؟ قال: «فأطعم وسقًا من تمر ستين مسكينًا». قلت: والذي بعثك بالحق لقد بتنا وَحْشَيْن، ما لنا طعام. قال: «فانطلق إلى صاحب صدقة بني زريق فليدفعها إليك، فأطعم ستين مسكينًا وسقا**

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٤١٠) وابن حبان (١٠/ ١٠٧ رقم ٤٢٧٩).

(٢) ١٥٩ زاد المعاد جـ٤.

من تمر. **وكل أنت وعيالك بقيتها**». قال: فرحت إلىٰ قومي. فقلت: وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي، ووجدت عند رسول ﷺ السعة، وحسن الرأي، وقد أمر لي بصدقتكم»[١].

وفي جامع الترمذي عن ابن عباس: أن رجلًا أتىٰ النبي ﷺ، قد ظاهر من امرأته. فوقع عليها، فقال: يا رسول الله، إني ظاهرت من امرأتي، فوقعت عليها قبل أن أكفر؟ قال: «**وما حملك علىٰ ذلك؟ يرحمك الله**» قال: رأيت خلخالها في ضوء القمر. قال: «**فلا تقربها حتىٰ تفعل ما أمرك الله**» وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح. وفيه أيضًا عن سلمة بن صخر عن النبي ﷺ في المظاهر: يواقع قبل أن يكفر، فقال: «**كفارة واحدة**»[٢] وقال: حسن غريب. انتهىٰ. وفيه انقطاع بين سليمان بن يسار وسلمة بن صخر.

وفي مسند البزار عن إسماعيل بن مسلم عن عمرو بن دينار عن طاوس عن ابن عباس قال: «أتىٰ رجل إلىٰ رسول الله ﷺ، فقال: إني ظاهرت من امرأتي، ثم وقعت عليها قبل أن أكفر. فقال رسول الله ﷺ: «**ألم يقل الله** ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ﴾ [المجادلة:٣]؟» فقال: أعجبتني. فقال: «**أمسك حتىٰ تكفر**»[٣] قال البزار: لا نعلمه يروىٰ بإسناد أحسن من هذا، علىٰ أن إسماعيل بن مسلم قد تُكُلِّم فيه. وروي عن جماعة كثيرة من أهل العلم[٤]. فتضمنت هذه الأحكام أمورًا.

---

(١) أخرجه ابن الجارود (رقم ٧٤٤) وابن خزيمة (٤/ ٧٣ رقم ٢٣٧٨) وأبو داود (رقم ٢٢١٣) والترمذي (رقم ٣٢٩٩) والدارمي (رقم ٢٢٧٣) وأحمد (٤/ ٣٧) وحسنه الترمذي وانظر: المغني (٨/ ٣) ونيل الأوطار (٧/ ٥١).

(٢) أخرجه ابن الجارود (رقم ٧٤٧) والنسائي في الكبرىٰ (٣/ ٣٦٧ رقم ٥٦٥١، ٥٦٥٢) وفي المجتبىٰ (رقم ٣٤٥٧، ٣٤٥٨) والترمذي (رقم ١١٩٩) وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ صحيحٌ. والحاكم (٢/ ٢٢٢ رقم ٢٨١٧) وانظر: المغني (٨/ ١٠) ونيل الأوطار (٧/ ٥٣).

(٣) أخرجه الحاكم (٢/ ٢٢٢ رقم ٢٨١٨) والطبراني في الكبير (١١/ ١٥ رقم ١٠٨٨٧).

(٤) انظر: نصب الراية (٣/ ٢٤٦).

أحدها: إبطال ما كانوا عليه في الجاهلية، وفي صدر الإسلام من كون الظهار طلاقًا، ولو صرح بنيته له، فقال: «أنت عليَّ كظهر أمي، أعني به الطلاق» لم يكن طلاقًا. فكان ظهارًا. وهذا بالاتفاق إلا ما عساه من خلاف شاذ. وقد نص عليه أحمد والشافعي وغيرهما.

قال الشافعي: ولو ظاهر ـ يريد طلاقًا ـ كان ظهارًا، أو طلق يريد ظهارًا: كان طلاقًا. هذا لفظه، فلا يجوز أن ينسب إلى مذهبه خلاف هذا.

ونص أحمد على أنه إذا قال: «أنت عليَّ كظهر أمي، أعني به الطلاق» أنه ظهار. ولا تطلق به. وهذا لأن الظهار كان طلاقًا في الجاهلية فنسخ. فلم يجز أن يعاد إلى الحكم المنسوخ. وأيضًا: فإن أوس بن الصامت إنما نوى به الطلاق على ما كان عليه، وأجرى عليه حكم الظهار، دون الطلاق. وأيضًا: فإنه صريح في حكمه فلم يجز جعله كناية في الحكم الذي أبطله ﷻ بشرعه، وقضاء الله أحق، وحكم الله أوجب.

ومنها: أن الظهار حرام، لا يجوز الإقدام عليه. لأنه ـ كما أخبر الله عنه ـ منكر من القول وزور، فكلاهما حرام. والفرق بين جهة كونه منكرًا، وجهة كونه زورًا: أن قوله: «أنت عليَّ كظهر أمي» يتضمن إخباره عنها بذلك، وإنشاء لتحريمها. فهو يتضمن إخبارًا وإنشاءً. فهو خبر زُور، وإنشاء منكر، فإن الزور: هو الباطل، خلاف الحق الثابت. والمنكر: خلاف المعروف.

وختم ـ سبحانه ـ الآية بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة: ٢]. وفيه إشعار بقيام سبب الإثم، الذي لولا عفو الله ومغفرته لآخذه به.

ومنها: أن الكفارة لا تجب بنفس الظهار. وإنما تجب بالعود. وهذا قول الجمهور.

وروى الثوري عن ابن أبي نجيح عن طاوس قال: «إذا تكلم بالظهار فقد لزمه» وهذه رواية ابن أبي نجيح عنه. وروى معمر عن ابن طاوس عن أبيه في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾ [المجادلة: ٣] قال: «جعلها عليه كظهر أمه، ثم يعود فيطؤها، فتحرير رقبة».

وحكى الناس عن مجاهد: أنه تجب الكفارة بنفس الظهار. وحكاه ابن حزم عن الثوري وعثمان البتي. وهؤلاء لم يخف عليهم: أن العود شرط في الكفارة، ولكن العود عندهم: هو العود إلى ما كان عليه في الجاهلية من التظاهر. كقوله تعالى في جزاء الصيد: ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ﴾ [المائدة: ٩٥]، أي عاد إلى الاصطياد بعد نزول تحريمه. ولهذا قال: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ [المائدة: ٩٥].

قالوا: ولأن الكفارة إنما وجبت في مقابلة ما تكلم به من المنكر والزور. وهو الظهار دون الوطء، أو العزم عليه.

قالوا: ولأن الله سبحانه لما حرم الظهار،ونهى عنه: كان العود هو فعل المنهي عنه، كما قال تعالى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ [الإسراء: ٨] أي إن عدتم إلى الذنب عدنا إلى العقوبة. فالعود هنا: نفس فعل المنهي عنه.

قالوا: ولأن الظهار كان طلاقًا في الجاهلية. فنقل حكمه من الطلاق إلى الظهار، ورتب عليه التكفير.وتحريم الزوجة حتى يكفر، وهذا يقتضي أن يكون حكمه معتبرًا بلفظه كالطلاق...

***

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾.

[(١)]الكبت: الإذلال والخزي والتصريع على الوجه، قال النضر وابن قتيبة: هو الغيظ والحزن، وقال أهل التفسير: كبتوا: أهلكوا وأخزوا وحزنوا، وإذا كان المحاد مكبوتًا فلو كان آمنًا على نفسه وماله لم يكن مكبوتًا بل مسرورًا جذلًا يشفي صدره من الله ورسوله، آمنًا على دمه وماله، فأين الكبت إذن؟

ويدل عليه قوله: ﴿ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾، فخوفهم بكبت نظير كبت من قبلهم: وهو الإهلاك من عنده وأنا بأيدي عباده وأوليائه. وقوله: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ

---

(١) ٨٢٦ أحكام أهل الذمة جـ٢.

﴿ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ﴾ [المجادلة: ٢١] عقيب قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [المجادلة:٥] دليل على أن المحاداة مغالبة ومعاداة حتى يكون أحد المحادين غالبًا، وهذا إنما يكون بين أهل الحرب لا أهل السلم، فعلم أن المحاد ليس بمسالم، فلا يكون له أمان مع المحادة، وقد جرت سنة الله سبحانه أن الغلبة لرسله بالحجة والقهر، فمن أمر منهم بالحرب نصر على عدوه، ومن لم يؤمر بالحرب أهلك عدوه.

يوضحه: أن المحادة مشاقة، لأنها من الحد والفصل والبينونة، وكذلك المشاقة من الشق، وكذلك المعاداة من العُدْوة، وهي الجانب يكون أحد العدوين في شق وجانب وحد وعدوه الآخرة في غيرها، والمعنى في ذلك كله معنى المقاطعة والمفاصلة؛ وذلك لا يكون إلا مع انقطاع الحبل الذي بيننا وبين أهل العهد، لا يكون مع اتصال الحبل أبدًا.

يوضحه: أن الحبل وُصْلَةٌ وسبب، فلا يجامع المفاصلة والمباينة.

وأيضًا فإنها إذا كانت بمعنى المشاقة فقد قال تعالى: ﴿ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ١٢، ١٣] فأمر بضرب أعناقهم، وعلّل ذلك بمشاقتهم ومحادَّتهم، وكل من فعل ذلك وجب أن يضرب عنقه، وهذا دليل تاسع في المسألة. وترتيبه هكذا: هذا مشاق لله ورسوله، والمشاق لله ورسوله مستحق ضرب العنق. وقد تبينت صحة المقدمتين.

ونظير هذا الاستدلال قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾ [الحشر: ٣] والتعذيب في الدنيا هو القتال والإهلاك، ثم علّل ذلك بالمشاقة، وأخر عنهم ذلك التعذيب لما سبق من كتابه الجلاء عليهم، فمن وجدت منه المشاقة [من] غيرهم ممن لم يكتب عليه الجلاء استحق عذاب الدنيا الذي أخره عن أولئك. وهذا دليل عاشر في المسألة.

***

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

(1) قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] الآية فنبه ـ سبحانه ـ بالثلاثة على العدد الذي يجمع الشفع والوتر، ولا يمكن أهله أن ينقسموا في النجوى قسمين، ونبه بالخمسة على العدد الذي يجمعهما، ويمكن أهله أن ينقسموا فيها قسمين، فيكون مع كل العددين. فالمشتركون في النجوى: إما شفع فقط أو وتر فقط أو كلا القسمين، وأقل أقسام الوتر المتناجين ثلاثة، وأقل أنواع الشفع اثنان، وأقل أقسام النوعين إذا اجتمعا خمسة، فذكر أدنى مراتب طائفة الوتر وأدنى مراتب النوعين إذا اجتمعا. ثم ذكر معيته العامة لما هو أدنى من ذلك أو أكثر.

وتأمل كيف جعل نفسه: رابع الثلاثة، وسادس الخمسة؛ إذ هو غيرهم سبحانه بالحقيقة لا يجتمعون معه في جنس ولا فصل.

وقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] فإنهم ساووا بينه وبين الاثنين في الإلهية،والعرب تقول: رابع أربعة، وخامس خمسة، وثالث ثلاثة لما يكون فيه المضاف إليه م جنس المضاف، كما قال تعالى: ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠] رسول الله ﷺ وصديقه، فإن كان من غير جنس قالوا: رابع ثلاثة وخامس أربعة وسادس خمسة.

وقال تعالى في المعية الخاصة لموسى وأخيه: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] وقال في العامة: ﴿فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ١٥].

فتأمل كيف أفرد ضمير نفسه حيث أفرد موسى وأخاه عن فرعون؟ وكيف جمع

---

(١) ٢٦٦ مختصر الصواعق جـ١.

الضمير لما أدخل فرعون معهما في الذكر؟ فجعل الخاص مع المعية الخاصة، والعام مع المعية العامة.

(١) المعية نوعان: عامة. وهي: معية العلم والإحاطة. كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد: ٤].

وقوله: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ﴾ [المجادلة: ٧].

وخاصة وهي معية القرب، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨] وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣] وقوله: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فهذه معية قرب. تتضمن الموالاة،والنصر، والحفظ. وكلا المعنيين مصاحبة منه للعبد. لكن هذه مصاحبة اطلاع وإحاطة. وهذه مصاحبة موالاة ونصر وإعانة. فـ «مع» في لغة العرب تفيد الصحبة اللائقة، لا تشعر بامتزاج ولا اختلاط، ولا مجاورة، ولا مجانبة. فمن ظن منها شيئًا من هذا فمن سوء فهمه أُتِيَ.

وأما القرب: فلا يقع في القرآن إلا خاصًا. وهو نوعان: قربه من داعية بالإجابة. وقربه من عابده بالإثابة.

فالأول: كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦] ولهذا نزلت جوابًا للصحابة ﷺ وقد سألوا رسول الله ﷺ: «ربنا قريب فنناجيه؟ أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية»(٢).

---

(١) ٢٦٥ مدارج جـ٢.

(٢) أخرج أبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٣٥ رقم ٢٢) عن الصلت بن حكيم عن أبيه عن جده: أن أعرابياً قال أراه للنبي ﷺ: أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ١٨٦] وأخرجه البرقي في فوائد العراقيين (رقم ١٧) وابن حبان في الثقات (٨/ ٤٣٦) وانظر: تخريج الأحاديث والآثار للزيعلي (١/ ١١٤).

والثاني: قوله ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه: وهو ساجد»[(١)]، «وأقرب ما يكون الرب من عبده: في جوف الليل»[(٢)] فهذه قربه من أهل طاعته.

وفي الصحيح: عن أبي موسى ﷺ قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر. فارتفعت أصواتنا بالتكبير. فقال: «يا أيها الناس، اربعوا على أنفسكم. إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا. إن الذي تدعونه سميع قريب. أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»[(٣)].

فهذا قرب خاص بالداعي دعاء العبادة والثناء والحمد، وهذا القرب لا ينافي كمال مباينة الرب لخلقه. واستواءه على عرشه، بل يجامعه ويلازمه. فإنه ليس كقرب الإجسام بعضها من بعض، ـ تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا ـ ولكنه نوع آخر. والعبد في الشاهد يجد روحه قريبة جدًا من محبوب بينه وبينه مفاوز تتقطع فيها أعناق المطي، ويجده أقرب إليه من جليسه، كما قيل:

ألا رب من يدنو ويزعم أنه يحبك والنائي أحب وأقرب

وأهل السنة أولياء رسول الله ﷺ وورثته وأحباؤه. الذي هو عندهم أولى بهم من أنفسهم، وأحب إليهم منها: يجدون نفوسهم أقرب إليه، وهم في الأقطار النائية عنه من جيران حجرته في المدينة، والمحبون المشتاقون للكعبة والبيت الحرام يجدون قلوبهم وأرواحهم أقرب إليها من جيرانها ومن حولها. هذا مع عدم تأتي القرب منها، فكيف بمن يقرب خلقه كيف يشاء. وهو مستو على عرشه. وأهل الذوق لا يلتفتون في ذلك إلى شبهة معطل بعيد من الله خلي من محبته ومعرفته...

---

(١) إلى هنا أخرجه مسلم (رقم ٤٨٢) وفيه زيادة: «فأكثروا الدعاء». وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٠٠) وشرح النووي (٤/ ٢٠٦) (٦/ ١٠٥).

(٢) أخرجه ابن خزيمة (٢/ ١٨٢ رقم ١١٤٧) والنسائي في الكبرى (١/ ٤٨٢ رقم ١٥٤٤) والترمذي (رقم ٣٥٧٩) والحاكم (١/ ٤٥٣ رقم ١١٦٢) والبيهقي في الكبرى (٣/ ٤ رقم ٤٤٣٩) والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٣٤٩ رقم ٦٠٥) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٩٩٢) ومسلم (رقم ٢٧٠٤) وانظر: فتح البار (١٣/ ٣٧٤-٣٧٥).

﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

[١]... لم يأت (الحزن) في القرآن ألا منهيًا عنه ومنفيًا؛ فالنهي عنه كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾ [آل عمران: ١٣٩] وقوله: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ١٢٧] في غير موضع، وقوله: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠] والنفي كقوله تعالى: ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨].

وسر ذلك: أن «الحزن» موقف غير مسير، ولا مصلحة فيه للقلب. وأحب شيء إلى الشيطان: أن يحزن العبد ليقطعه عن سيره، ويوقفه عن سلوكه. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [المجادلة: ١٠]. ونهى النبي ﷺ الثلاثة: «أن يتناجى اثنان منهم دون الثالث، لأن ذلك يحزنه»[٢].

فالحزن ليس بمطلوب، ولا مقصود، ولا فيه فائدة. وقد استعاذ منه النبي ﷺ، فقال: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن»[٣]. فهو قرين الهم. والفرق بينهما: أن المكروه الذي يرد على القلب، وإن كل لما يستقبل: أورثه الهم، وإن كان لما مضى: أورثه الحزن. وكلاهما مضعف للقلب عن السير. مفتر للعزم.

ولكن نزول منزلته ضروري بحسب الواقع، ولهذا يقول أهل الجنة إذا دخلوها: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾ [فاطر: ٣٤] فهذا يدل على أنهم كان يصيبهم في الدنيا الحزن، كما يصيبهم سائر المصائب التي تجري عليهم بغير اختيارهم.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ

---

(١) ٥٠٥ مدارج جـ١.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٢٨٨) ومسلم (رقم ٢١٨٣) واللفظ لمسلم. وانظر: فتح الباري (١١/ ٨١-٨٤).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٨٩٣) وانظر: عمدة القاري (١٤/ ١٧٦).

عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة: ٩٢] فلم يمدحوا على نفس الحزن. وإنما مدحوا على ما دل عليه الحزن من قوة إيمانهم، حيث تخلفوا عن رسول الله ﷺ لعجزهم عن النفقة. ففيه تعريض بالمنافقين الذين لم يحزنوا على تخلفهم، بل غبطوا نفوسهم به.

وأما قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**ما يصيب المؤمن من هم ولا نصب، ولا حزن إلا كفر الله به خطاياه**»[١] فهذا يدل على أنه مصيبة من الله يصيب بها العبد، يكفر بها من سيئاته. لا يدل على أنه مقام ينبغي طلبه واستيطانه...

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾.

[٢]إنه سبحانه أخبر عن رفعة درجات أهل العلم والإيمان خاصة، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [المجادلة: ١١] وقد أخبر سبحانه في كتابه برفع الدرجات في أربعة مواضع.

أحدها هذا. والثاني قوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢، ٤]. والثالث قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٦٤١، ٥٦٤٢) ومسلم (رقم ٢٥٧٣) وانظر: شرح النووي (١٦/ ١٣٠).
(٢) ٥٠ مفتاح جـ١.

ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴾ [طه: ٧٥]. والرابع قوله تعالىٰ: ﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَـٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦] فهذه أربعة مواضع في ثلاثة منها الرفعة بالدرجات لأهل الإيمان الذي هو العلم النافع والعمل الصالح، والرابع الرفعة بالجهاد فعادت رفعة الدرجات كلها إلىٰ العلم والجهاد الذين بهما قوام الدين.

(١)إن النصوص النبوية قد تواترت بأن أفضل الأعمال: إيمان بالله؛ فهو رأس الأمر، والأعمال بعده علىٰ مراتبها ومنازلها.

والإيمان له ركنان: أحدهما معرفة ما جاء به الرسول والعلم به.

والثاني: تصديقه بالقول والعمل. والتصديق بدون العلم والمعرفة محال، فإنه فرع العلم بالشيء المصدق به، فإذا العلم من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، ولا تقوم شجرة الإيمان إلا علىٰ ساق العلم والمعرفة، فالعلم إذا أجل المطالب وأسنىٰ المواهب.

إن صفات الكمال كلها ترجع إلىٰ العلم والقدرة والإرادة، والإرادة فرع العلم، فإنها تستلزم الشعور بالمراد، فهي مفتقرة إلىٰ العلم في ذاتها وحقيقتها، والقدرة لا تؤثر إلا بواسطة الإرادة، والعلم لا يفتقر في تعلقه بالمعلوم إلىٰ واحدة منها، وأما القدرة والإرادة فكل منها يفتقر في تعلقه بالمراد والمعلوم إلىٰ العلم، وذلك يدل علىٰ فضيلته وشرف منزلته.

إن العلم أعم الصفات تعلقًا بمتعلقه وأوسعها، فإنه يتعلق بالواجب والممكن والمستحيل والجائز والموجود والمعدوم.

فذات الرب ـ سبحانه ـ وصفاته وأسماؤه معلومة له، ويعلم العباد من ذلك ما علمهم العليم الخبير. وأما القدرة والإرادة فكل منهما خاص التعلق.

---

(١) ٨١ مفتاح جـ١.

أما القدرة؛ فإنما تتعلق بالممكن خاصة لا بالمستحيل ولا بالواجب، فهي أخص من العلم من هذه الوجه، وأعم من الإرادة، فإن الإرادة لا تتعلق إلا ببعض الممكنات وهو ما أريد وجوده. فالعلم أوسع وأعم وأشمل في ذاته ومتعلقه.

إن الله سبحانه أخبر عن أهل العلم بأنه جعلهم أئمة يهدون بأمره، ويأتم بهم من بعدهم. فقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]. وقال في موضع آخر: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤] أي أئمة يقتدى بنا من بعدنا.

فأخبر سبحانه أن بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين؛ وهي أرفع مراتب الصديقين. واليقين هو كمال العلم وغايته، فبتكميل مرتبة العلم تحصل إمامة الدين، وهي ولاية آلتها العلم يختص الله بها من يشاء من عباده.

إن حاجة العباد إلى العلم ضرورية فوق حاجة الجسم إلى الغذاء، لأن الجسم يحتاج إلى الغذاء في اليوم مرة أو مرتين، وحاجة الإنسان إلى العلم بعدد الأنفاس، لأن كل نفس من أنفاسه فهو محتاج فيه إلى أن يكون مصاحبًا لإيمان أو حكمة، فإن فارقه الإيمان أو حكمة في نفس من أنفاسه فقد عطب وقرب هلاكه، وليس إلى حصول ذلك سبيل إلا بالعلم، فالحاجة إليه فوق الحاجة إلي الطعام والشراب. وقد ذكر الإمام أحمد هذا المعنى بعينه، فقال: الناس أحوج إلى العلم منهم إلى الطعام والشراب، لأن الطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين والعلم يحتاج إليه كل وقت.

إن صاحب العلم أقل تعبًا وعملًا وأكثر أجرًا، واعتبر هذا بالشاهد: فإن الصناع والأجراء يعانون الأعمال الشاقة بأنفسهم، والأستاذ المعلم يجلس بأمرهم وينهاهم ويريهم كيفية العمل، ويأخذ أضعاف ما يأخذونه.

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى حيث قال: «**أفضل الأعمال: إيمان بالله، ثم**

الجهاد»[١]. فالجهاد فيه بذل النفس وغاية المشقة، والإيمان علم القلب وعمله وتصديقه، وهو أفضل الأعمال مع أن مشقة الجهاد فوق مشقته بأضعاف مضاعفة، وهذا لأن العلم يعرف مقادير الأعمال ومراتبها، وفاضلها من مفضولها، وراجحها من مرجوحها، فصاحبه لا يختار لنفسه إلا أفضل الأعمال، والعامل بلا علم يظن أن الفضيلة في كثرة المشقة، فهو يتحمل المشاق وإن كان ما يعانيه مفضولًا، ورب عمل فاضل والمفضول أكثر مشقة منه، واعتبر هذا بحال الصديق فإنه أفضل الأمة. ومعلوم أن فيهم من هو أكثر عملًا وحجًا وصومًا وصلاة وقراءة منه. قال أبو بكر بن عياش: ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في قلبه. وهذا موضوع المثل المشهور.

من لي بمثل سيرك المدلل ... تمشي رويدًا وتجي في الأول[٢]

[٣]إن من نال شيئًا من شرف الدنيا والآخرة، فإنما ناله بالعلم، وتأمل ما حصل لآدم من تميزه على الملائكة واعترافهم له بتعليم الله له الأسماء كلها، ثم ما حصل له من تدارك المصيبة والتعويض عن سكنى الجنة بما هو خير له منها بعلم الكلمات التي تلقاها من ربه.

وما حصل ليوسف من التمكين في الأرض والعزة والعظمة بعلمه بتعبير تلك الرؤيا، ثم علمه بوجوه استخرج أخيه من إخوته بما يقرون به ويحكمون هم به حتى آل الأمر إلى ما آل إليه من العز والعاقبة الحميدة وكمال الحال التي توصل إليها بالعلم، كما أشار إليها سبحانه في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] جاء في

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٤/ ٣١٥ رقم ٧٩٣) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ١٥٦) وانظر: فتح الباري (٢/ ٩) وجامع العلوم والحكم (١/ ٢٧٤).

(٢) ذكره المناوي في فيض القدير (٦/ ٤٠).

(٣) ١٧٣ مفتاح جـ١.

تفسيرها: نرفع درجات من نشاء بالعلم، كما رفعنا درجة يوسف على إخوته بالعلم.

وقال في إبراهيم ﷺ: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ [الأنعام: ٨٣] فهذه رفعة بعلم الحجة، والأول رفعة بعلم السياسة.

وكذلك ما حصل للخضر بسبب علمه من تلميذه كليم الرحمن له وتلطفه معه في السؤال حتى قال: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف: ٦٦]، وكذلك ما حصل لسليمان من علم منطق الطير حتى وصل إلى ملك سبأ وقهر ملكتهم واحتوى على سرير ملكها ودخولها تحت طاعته، ولذلك قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النمل: ١٦].

وكذلك ما حصل لداود من علمه نسج الدروع من الوقاية من سلاح الأعداء وعدَّد ـ سبحانه ـ هذه النعمة بهذا العلم علي عباده، فقال: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

وكذلك ما حصل للمسيح من علم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ما رفعه الله به إليه وفضله وكرمه: وكذلك ما حصل لسيد ولد آدم من العلم الذي ذكره الله به نعمة عليه، فقال: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣].

(١) وللعلم ست مراتب: أولها حسن السؤال، الثانية: حسن الإنصات والاستماع، والثالثة: حسن الفهم، الرابعة: الحفظ، الخامسة: التعليم، السادسة: وهي ثمرته، وهي العمل به ومراعاة حدوده.

فمن الناس من يحرمه لعدم حسن سؤاله، إما لأنه لا يسأل أو يسأل عن شيء وغيره أهم إليه منه، كمن يسأل عن فضوله التي لا يضر جهله بها، ويدع ما لا غنى له عن معرفته، وهذه حال كثير من الجهال المتعلمين.

---

(١) ١٦٩ مفتاح جـ١.

ومن الناس من يحرمه لسوء إنصاته فيكون الكلام والممارات آثر عنده وأحب إليه من الإنصات، وهذه آفة كامنة في أكثر النفوس الطالبة للعلم، وهي تمنعهم علمًا كثيرًا ولو كان حسن الفهم.

ذكر ابن عبد البر عن بعض السلف أنه قال: من كان حسن الفهم رديء الاستماع لم يقم خيره بشره، وذكر عبد الله بن أحمد في كتاب العلل له قال: كان عروة بن الزبير يحب مماراة ابن عباس، فكان يخزن علمه عنه، وكان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة يلطف له في السؤال فيغره بالعلم غرًا. وقال ابن جريج: لم أستخرج العلم الذي استخرجت من عطاء إلا برفقي به.

وقال بعض السلف: إذا جالست العالم فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧].

فتأمل ما تحت هذا الألفاظ من كنوز العلم، وكيف تفتح مراعاتها للعبد أبواب العلم والهدى، وكيف ينغلق باب العلم عنه من إهمالها وعدم مراعاتها، فإنه ـ سبحانه ـ أمر عباده أن يتدبروا آياته المتلوة المسموعة والمرئية المشهودة بما تكون تذكرة لمن كان له قلب، فإن من عدم القلب الواعي عن الله لم ينتفع بكل آية تمر عليه، ولو مرت به كل آية ومرور الآيات عليه كطلوع الشمس والقمر والنجوم، ومرورها على من لا بصر له، فإذا كان له قلب وكان بمنزلة البصير إذا مرت به المرئيات فإنه يراها، ولكن صاحب القلب لا ينتفع بقلبه إلا بأمرين.

أحدهما: أن يحضره ويشهده لما يلقى إليه، فإن كان غائبًا عنه مسافرًا في الأماني والشهوات والخيالات لا ينتفع به، فإذا أحضره وأشهده لم ينتفع إلا بأن يلقي سمعه ويصغي بكليته إلى ما يوعظ به ويرشد إليه.

وهاهنا ثلاثة أمور: أحدها: سلامة القلب وصحته وقبوله: الثاني: إحضاره وجمعه ومنعه من الشرود والتفرق. الثالث: إلقاء السمع وإصغاؤه والإقبال على الذكر. فذكر

الله تعالى الأمور الثلاثة في هذه الآية..

(١)قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ ﴾ [المنافقون: ٢] وأجننت الميت واريته في القبر فهو جنين. والحب المفرط يستر العقل، فلا يعقل المحب ما ينفعه ويضره، فهو شعبة من الجنون، وأصل المادة من الستر في جميع تصاريفها، ومنه أجنه الليل، وجن عليه إذا ستره، ومنه الجنين لاستتاره في بطن أمه، ومنه الجنة لاستتارها بالأشجار، ومنه المجن لاستتار الضارب به والمضروب، ومنه الجن لاستتارهم عن العيون بخلاف الإنس، فإنهم يؤنسون أي يرون، ومنه الجنة بالضم وهي ما استترت به واتقيت.

***

﴿ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

(٢)قلت: الروح التي تتوفى وتقبض، فهي روح واحدة،وهي النفس، وأما ما يؤيد الله به أولياءه من الروح فهي روح أخرى غير هذه الروح، كما قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُ ﴾ [المجادلة:٢٢].

وكذلك الروح الذي أيد بها روحه المسيح ابن مريم، كما قال تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ ﴾ [المائدة: ١١٠].

وكذلك الروح التي يلقيها على من يشاء من عباده هي غير الروح التي في البدن.

وأما القوى التي في البدن فإنها تسمى أيضًا: أرواحًا. فيقال: الروح الباصر، والروح السامع، والروح الشام.

---

(١) ٤٩ روضة المحبين.

(٢) ٢٦٦ الروح.

فهذه الأرواح قوىٰ مودعة في الأبدان تموت بموت الأبدان، وهي غير الروح التي لا تموت بموت البدن ولا تبلىٰ كما يبلىٰ.

ويطلق الروح علىٰ أخص من هذه كله، وهو قوة المعرفة بالله والإنابة إليه ومحبته وانبعاث الهمة إلىٰ طلبه وإرادته، ونسبة هذه إلىٰ الروح كنسبة الروح إلىٰ البدن، فإذا فقدتها الروح كانت بمنزلة البدن إذا فقد روحه، وهي الروح التي يؤيد بها أهل ولايته وطاعته، ولهذا يقول الناس فلان فيه روح، وفلان ما فيه روح، وهوبو، وهو قصبة فارغة ونحو ذلك. فللعلم روح، وللإحسان روح، وللإخلاص روح، وللمحبة والإنابة روح، وللتوكل وللصدق روح، والناس متفاوتون في هذه الأرواح أعظم تفاوت، فمنهم من تغلب عليه هذه الأرواح فيصير روحانيًا، ومنهم من يفقدها أو أكثرها فيصير أرضيًا بهيميًا. والله المستعان.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة المجادلة

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

سُورَةُ الحَشْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ ﴾.

[(١)]...«الاعتبار» هو أن يعبر نظره من الأثر إلى المؤثر، ومن الصنعة إلى الصانع، ومن الدليل إلى المدلول، فينتقل إليه بسرعة لطف إدراك، فينتقل ذهنه من الملزوم إلى لازمه، قال الله تعالى: ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [الحشر: ٢] و«الاعتبار» افتعال من العبور. وهو عبور القلب من الملزوم إلى لازمه. ومن النظير إلى نظيره.

وهذا «الاعتبار» يضعف ويقوى، حتى يستدل صاحبه بصفات الله تعالى وكماله على ما يفعله، لحسن اعتباره وصحة نظره، وهو اعتبار الخواص واستدلالهم. فإنهم يستدلون بأسماء الله وصفاته وأفعاله، وأنه يفعل كذا ولا يفعل كذا. فيفعل ما هو موجب حكمته وعلمه وغناه وحمده، ولا يفعل ما يناقض ذلك.

وقد ذكر سبحانه هذين الطريقين في كتابه. فقال تعالى في الطريق الأولى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]. ثم قال في الطريق الثانية: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣].

فمخلوقاته: دالة على ذاته وأسمائه وصفاته، وأسماؤه وصفاته دالة على ما يفعله ويأمر به، وما لا يفعله ولا يأمر به. مثال ذلك: أن اسمه «الحميد» سبحانه يدل على أنه لا يأمر بالفحشاء والمنكر. واسمه «الحكيم» يدل على أنه لا يخلق شيئًا عبثًا. واسمه «الغني» يدل على أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا.

---

(١) ٣٥٧ مدارج جـ٣.

واسمه «الملك» يدل على ما يستلزم حقيقة ملكه: من قدرته،وتدبيره وعطائه ومنعه، وثوابه وعقابه، وبث رسله في أقطار مملكته، وإعلام عبيده بمراسيمه، وعهوده إليهم، واستوائه على سرير مملكته الذي هو عرشه المجيد.

فمتى قام بالعبد تعظيم الحق جل جلاله وحسن النظر في الشواهد، والتبصر والاعتبار بها: صارت الصفات والنعوت مشهودة لقلبه قبلة له...

***

﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

[1]...قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: ٧] فأمرنا باتباعه وطاعته فيما سنه وأمر به وما نهى عنه وما حكم به. وقال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي»[2] وقال: «من رغب عن سنتي

(١) ٤٢٨ مختصر الصواعق جـ٢.

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ١٧٤ رقم ٣٢٩) وابن ماجه (رقم ٤٢) والترمذي (رقم ٢٦٧٦) والدارمي (رقم ٩٥) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١١٤ رقم ٢٠١٢٥) والطبراني في الكبير (١٨/ ٢٤٦ رقم ٦١٨) وفي مسند الشاميين (١/ ٤٠٢ رقم ٦٩٧) وأحمد (٤/ ١٢٦).

فليس مني، ومن أحب سنتي فقد أحبني، ومن أحبني كان معي في الجنة»[١] فعرفنا سنته ووجدناها بهذه الآثار المشتهرة التي رويت بالأسانيد الصحيحة المتصلة التي نقلها حفاظ العلماء وثقاتهم بعضهم عن بعض.

ثم نظرنا فرأينا فرقة أصحاب الحديث: لها أطلب، وفيها أرغب، ولها أجمع، ولأصحابها أتبع، فعلمنا يقينا أنهم أهلها دون من عداهم من جميع الفرق، فإن صاحب كل حرفة أو صناعة إن لم يكن معه دلالة وآلة من آلات تلك الصناعة والحرفة ثم ادعى تلك الصناعة كان في دعواه مبطلًا، فإذا كانت معه آلات الصناعة الحرفة شهدت له تلك الآلات بصناعته، بل شهد له كل من عاينه قبل الاختبار...

[٢]والذي قال لنا: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧] هو الذي شرع لنا هذه الزيادة على لسانه[٣]. والله ـ سبحانه ـ ولاه منصب التشريع عنه ابتداء، كما ولاه منصب البيان لما أراده بكلامه.

بل كلامه كله بيان عن الله، والزيارة بجميع وجوهها لا تخرج عن البيان بوجه من الوجوه. بل كان السلف الصالح الطيب إذا سمعوا الحديث عنه وجدوا تصديقه في القرآن، ولم يقل أحد منهم قط في حديث واحد أبدًا: إن هذه زيادة على القرآن فلا نقبله ولا نسمعه ولا نعمل به، ورسول الله ﷺ أجل في صدورهم، وسنته أعظم عندهم من ذلك وأكبر.

ولا فرق أصلًا بين مجيء السنة بعدد الطواف وعدد ركعات الصلاة ومجيئها

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٦٧٨) والطبراني في الأوسط (٦/ ١٢٤-١٢٥ رقم ٥٩٩١) وحسنه الترمذي. والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٦٦١ رقم ٧١٤) والعقيلي في الضعفاء (٣/ ٣٤٩ رقم ١٣٨١) في ترجمة عياض بن سعيد المازني. وقال: وقد روي هذا بإسناد أصلح من هذا من غير هذا الوجه، بينما ضعفه الحافظ ابن حجر في لسان الميزان (٢/ ٣٧٣) في ترجمة خالد بن أنس.

(٢) يشير إلى ما تقدم من الأدلة على وجوب قبول السنة على أي وجه وردت. (ج).

(٣) ٢٩٤ أعلام جـ٢.

بفرض الطمأنينة وتعيين الفاتحة والنية؛ فإن الجميع بيان لمراد الله أنه أوجب هذه العبادات على عباده على هذا الوجه، فهذا الوجه هو المراد، فجاءت السنة بيانًا للمراد في جميع وجوهها، حتى في التشريع المبتدأ، فإنها بيان لمراد الله من عموم الأمر بطاعته وطاعة رسوله، فلا فرق بين بيان هذا المراد وبين بيان المراد من الصلاة والزكاة والحج والطواف وغيرها، بل هذا بيان المراد من شيء، وذاك بيان المراد من أعم منه؛ فالتغريب بيان محض للمراد من قوله: ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥].

وقد صرح النبي ﷺ بأن التغريب بيان لهذا السبيل المذكور في القرآن، فكيف يجوز رده بأنه مخالف للقرآن معارض له؟ ويقال: لو قبلناه لأبطلنا به حكم القرآن؟ وهل هذا إلا قلب للحقائق؟ فإن حكم القرآن العام والخاص يوجب علينا قبوله فرضًا لا يسعنا مخالفته؛ فلو خالفناه لخالفنا القرآن ولخرجنا عن حكمه ولابد، ولكان في ذلك مخالفة للقرآن والحديث معًا. يوضحه الوجه الثاني:

أن الله سبحانه نصب رسول الله ﷺ منصب المبلغ المبين عنه، فكل ما شرعه للأمة فهو بيان منه عن الله أن هذا شرعه ودينه،ولا فرق بين ما يبلغه عنه من كلامه المتلو ومن وحيه الذي هو نظير كلامه في وجوب الاتباع، ومخالفة هذا: كمخالفة هذا. يوضحه الوجه الثالث:

أن الله ـ سبحانه ـ أمرنا بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان، وجاء البيان عن رسوله ﷺ بمقادير ذلك وصفاته وشروطه؛ فوجب على الأمة قبوله، إذ هو تفصيل لما أمر الله به، كما يجب علينا قبول الأصل المفصل.

وهكذا أمر الله ـ سبحانه ـ بطاعته وطاعة رسوله؛ فإذا أمر الرسول بأمر كان تفصيلًا وبيانًا للطاعة المأمور بها، وكان فرض قبوله كفرض قبول الأصل المفصل، ولا فرق بينهما، يوضحه الوجه الرابع:

أن البيان من النبي ﷺ أقسام:

أحدها: بيان نفس الوحي بظهوره على لسانه بعد أن كان خفيًا.

الثاني: بيان معناه وتفسيره لمن احتاج إلىٰ ذلك، كما بين أن الظلم المذكور في قوله: ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ [الأنعام: ٨٢] هو الشرك، وأن الحساب اليسير هو العرض، وأن الخيط الأبيض والأسود هما بياض النهار وسواد الليل، وأن الذي رآه نزلة أخرىٰ عند سدرة المنتهي هو جبريل.

كما فسر قوله: ﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨] أنه طلوع الشمس من مغربها. وكما فسر قوله: ﴿ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ [إبراهيم: ٢٤] بأنها النخلة.

وكما فسر قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧] أن ذلك في القبر حين يسأل: من ربك؟ وما دينك؟

وكما فسر الرعد بأنه ملك من الملائكة موكل بالسحاب.

وكما فسر اتخاذ أهل الكتاب أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله: بأن ذلك باستحلال ما أحلوه لهم من الحرام، وتحريم ما حرموه من الحلال. وكما فسر القوة التي أمر الله أن نعدها لأعدائه بالرمي. وكما فسر قوله: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ١٢٣] بأنه ما يجزي به العبد في الدنيا من النصب والهم والخوف واللأواء.

وكما فسر الزيادة بأنها النظر إلىٰ وجه الله الكريم.وكما فسر الدعاء في قوله: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠] بأنه العبادة. وكما فسر أدبار النجوم بأنه الركعتان قبل الفجر وأدبار السجود بالركعتين بعد المغرب، ونظائر ذلك.

الثالث: بيانه بالفعل كما بين أوقات الصلاة للسائل بفعله.

الرابع: بيان ما سئل عنه من الأحكام التي ليست في القرآن فنزل القرآن ببيانها، كما سئل عن قذف الزوجة فجاء القرآن باللعان ونظائره.

الخامس: بيان ما سئل عنه بالوحي وإن لم يكن قرآنًا، كما سئل عن رجل أحرم في جبة بعدما تضمخ بالخلوق، فجاء الوحي بأن ينزع عنه الجبة ويغسل أثر الخلوق.

السادس: بيانه للأحكام بالسنة ابتداء من غير سؤال، كما حرم عليهم لحوم الحمر والمتعة وصيد المدينة ونكاح المرأة على عمتها وخالتها وأمثال ذلك.

السابع: بيانه للأمة جواز الشيء بفعله هو له وعدم نهيهم عن التأسي به.

الثامن: بيانه جواز الشيء بإقراره لهم على فعله، وهو يشاهده أو يعلمهم يفعلونه.

التاسع: بيانه إباحة الشيء عفوًا بالسكوت عن تحريمه وإن لم يأذن فيه نطقًا.

العاشر: أن يحكم القرآن بإيجاب شيء أو تحريمه أو إباحته، ويكون لذلك الحكم شروط وموانع وقيود وأوقات مخصوصة وأحوال وأوصاف، فيحيل الربُّ ﷻ على رسوله في بيانها كقوله تعالى: ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ ﴾ [النساء: ٢٤] فالحل موقوف على شروط النكاح وانتفاء موانعه وحضور وقته وأهلية المحل، فإذا جاءت السنة ببيان ذلك كله لم يكن الشيء منه زائدًا على النص فيكون نسخًا له، وإن كان رفعًا لظاهر إطلاقه.

فهكـذا كل حكم منه ﷺ زائـد على القرآن، هذا سبيله سواء بسواء، وقد قال تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ ﴾ [النساء: ١١] ثم جاءت السنة بأن القاتل والكافر والرقيق لا يرث، ولم يكن نسخًا للقرآن مع أنه زائد عليه قطعًا، أعني في موجبات الميراث؛ فإن القرآن أوجبه بالولادة وحدها، فزادت السنة مع وصف الولادة اتحاد الدين وعدم الرق والقتل، فهلا قلتم: إن هذه زيادة على النص فيكون نسخًا والقرآن لا ينسخ بالسنة كما قلتم ذلك في كل موضع تركتم فيه الحديث، لأنه زائد على القرآن.

(١) قال الله تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ [الحشر: ٧] فنزهه ربه ـ سبحانه ـ عن الفقر الذي يسوغ أخذ الصدقة، وعوَّضه عما نزهه عنه بأشرف المال وأجله وأفضله، وهو ما أخذه بظل رمحه وقائم سيفه من أعداء الله

---

(١) ٢٨٧ عدة الصابرين.

الذين كان مال الله بأيديهم ظلمًا وعدوانًا، فإنه خلق المال ليستعان به علىٰ طاعته، وهو بأيدي الكفار والفجار ظلمًا وعدوانًا، فإذا رجع إلىٰ أوليائه وأهل طاعته فاء إليهم ما خلق لهم. ولكن لم يكن غنىٰ رسول الله ﷺ وملكه من جنس غنىٰ بني الدنيا وأملاكهم، فإن غناهم بالشيء، وغناه ﷺ عن الشيء، وهو الغنىٰ العالي.

وملكهم ملك يتصرفون فيه بحسب إرادتهم، وهو ﷺ إنما يتصرف في ملكه تصرف العبد الذي لا يتصرف إلا بأمر سيده. وقد اختلف الفقهاء في الفيء: هل كان ملكًا للنبي ﷺ علىٰ قولين وهما روايتان عن أحمد.

والتحقيق أن ملكه له كان نوعًا آخر من الملك، وهو ملك يتصرف فيه بالأمر، كما قال ﷺ: «**والله لا أعطي أحدًا ولا أمنع أحدًا؛ إنما أنا قاسم، أضع حيث أمرت**»[1]، وذلك من كمال مرتبة عبوديته، ولأجل ذلك لم يورث، فإنه عبد محض من كل وجه لربه ﷻ والعبد لا مال له فيورث عنه.

فجمع الله له سبحانه بين أعلىٰ أنواع الغنىٰ وأشرف أنواع الفقر، فكمل له مراتب الكمال، فليست إحدىٰ الطائفتين بأحق به من الأخرىٰ، فكان ﷺ في فقره أصبر خلق الله وأشكرهم، وكذلك في غناه. والله تعالىٰ جعله قدوة للأغنياء والفقراء، وأي غنىٰ أعظم من غنىٰ من عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض، وعرض عليه أن يجعل له الصفا ذهبًا. وخُيِّر بين أن يكون ملكًا نبيًا وبين أن يكون عبدًا نبيًا، فاختار أن يكون عبدًا نبيًا، ومع هذا فجبيت إليه أموال جزيرة العرب واليمن فأنفقها كلها، ولم يستأثر منها بشيء، بل تحمل عيال المسلمين ودينهم، فقال: «**من ترك مالًا فلورثته، ومن ترك كلا فإليَّ وعليَّ**»[2].

فرفع الله ـ سبحانه ـ قدره أن يكون من جملة الفقراء الذين تحل لهم الصدقة، كما

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣١١٧) بلفظ: «**ما أعطيكم ولا أمنعكم، إنما أنا قاسم أضع حيث أمرت**» وانظر: فتح الباري (٦/ ٢١٨) وشرح النووي (١٤/ ١١٤-١١٥).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٣٩٨) ومسلم (رقم ١٦١٩) وانظر: فتح الباري (٩/ ٥١٦).

نزهه أن يكون من جملة الأغنياء الذين أغناهم بالأموال الموروثة، بل أغناه به عن سواه، وأغنى قلبه كل الغنى، ووسع عليه غاية السعة، فأنفق غاية الإنفاق، وأعطى أجل العطايا، ولا استأثر بالمال ولا اتخذ منه عقارًا ولا أرضًا، ولا ترك شاة ولا بعيرًا ولا عبدًا ولا أمه ولا دينارًا ولا درهمًا، فإذا احتج الغني الشاكر بحاله ﷺ لم يمكنه ذلك إلا بعد أن يفعل فعله، كما أن الفقير الصابر إذا احتج بحاله ﷺ لم يمكنه ذلك إلا بعد أن يصبر صبره، ويترك الدنيا اختيارًا لا اضطرارًا، فرسول الله ﷺ وفَّى كل مرتبة من مرتبتي الفقر والغنى حقها وعبوديتها.

وأيضًا فإن الله سبحانه أغنى به الفقراء، فما نالت أمته الغنى إلا به، وأغنى الناس من صار غيره به غنيًا. قال علي بن أبي رباح اللخمي: كنت عند مسلمة بن مخلد الأنصاري وهو يومئذ على مصر وعبد الله بن عمرو بن العاص جالس معه، فتمثل مسلمة ببيت من شعر أبي طالب فقال: لو أن أبا طالب رأى ما نحن فيه اليوم من نعمة الله وكرامته لعلم أن ابن أخيه سيد قد جاء بخير، فقال عبدالله بن عمرو: ويومئذ كان سيدًا كريمًا قد جاء بخير كثير. فقال مسلمة: ألم يقل الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦- ٨] فقال عبدالله بن عمرو: أما اليتيم فقد كان يتيمًا من أبويه. وأما العيلة فكلما كان بأيدي العرب إلى القلة يقول: إن العرب كانت كلها مقلة حتى فتح الله عليه وعلى العرب الذين أسلموا ودخلوا في دين الله أفواجًا ثم توفاه الله قبل أن يتلبس منها بشيء ومضى وتركها وحذر منها ومن فتنتها، قال وذلك معنى، قوله: ﴿عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾. وأما قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥] فلم تكن الدنيا لترضيه وهو لا يرضاها كلها لأمته، وهو يحذر منها، وتعرض عليه فيأباها، وإنما هو ما يعطيه من الثواب وما يفتح عليه وعلى أمته من ملك كسرى وقيصر ودخول الناس في الإسلام وظهور الدين إذ كان ذلك محبته ورضاه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ.

وروى سفيان الثوري عن الأوزاعي عن إسماعيل بن عبدالله عن علي بن عبدالله بن

عباس عن النبي ﷺ قال: «رأيت ما هو مفتوح بعدي كَفْرًا كَفْرًا فسرني ذلك» فنزلت ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴾ [الضحى: ١-٥] قال أعطني ألف قصر من لؤلؤ ترابها المسك في كل قصر ما ينبغي له[١]...

[٢]قال الله تعالىٰ: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ ﴾ [الحشر: ٧ - ١٠].

إلىٰ آخر الآية، فأخبر ـ سبحانه ـ أن ما أفاء علي رسوله بجملته: لمن ذكر في هؤلاء الآيات، ولم يخص منه خمسه بالمذكورين، بل عمم وأطلق، واستوعب، ويصرف علىٰ المصارف الخاصة، وهم أهل الخمس.

ثم علىٰ المصارف العامة، وهم المهاجرون والأنصار، وأتباعهم إلىٰ يوم الدين. فالذي عمل به هو وخلفاؤه الراشدون: هو المراد من هذه الآيات.

ولذلك قال عمر بن الخطاب فيما رواه أحمد وغيره عنه: «ما أحد أحق بهذا المال من أحد، وما أنا أحق به من أحد. والله ما من أحد إلا وله في هذا المال نصيب إلا عبد مملوك». ولكنا علىٰ منازلنا من كتاب الله، وقسمنا من رسول الله ﷺ فالرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وغناؤه في الإسلام، والرجل وحاجته. ووالله لئن بقيت لهم، ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال، وهو يرعى مكانه»[٣].

فهؤلاء المسلمون في آية الفيء: هم المسلمون في آية الخمس، ولم يدخل

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣/ ٢٩٧ رقم ٣٢٠٩) وفي الكبير (١٠/ ٢٧٧ رقم ١٠٦٥٠) وتمام في فوائده (رقم ٤٤٨) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٢١٢) وإسماعيل بن محمد التيمي في دلائل النبوة (رقم ٣١٨) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٣٨-١٣٩): رواه الطبراني في الكبير والأوسط... وفيه معاوية ابن أبي العباس ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات، وإسناد الكبير حسن.

(٢) ٤٦٨ زاد المعاد جـ٣.

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٤٢) والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (١/ ٣٩٥ رقم ٢٧٧) وحسنه محقق الأحاديث المختارة الدكتور: عبدالملك بن دهيش حفظه الله.

المهاجرون والأنصار وأتباعهم في آية الخمس، لأنهم المستحقون لجملة الفيء.

وأهل الخمس لهم استحقاقان: استحقاق خاص من الخمس، واستحقاق عام من جملة الفيء. فإنهم داخلون في النصيبين.

وكما أن قسمته من جملة الفيء بين من جعل له ليس قسمة الأملاك التي يشترك فيها المالكون، كقسمة المواريث والوصايا والأملاك المطلقة، بل بحسب الحاجة والنفع، والغناء في الإسلام، والبلاء فيه. فكذلك الخمس في أهله، فإن مخرجهما واحد في كتاب الله.

والتنصيص على الأصناف الخمسة: يفيد تحقيق إدخالهم، وأنهم لا يخرجون من أهل الفيء بحال، وأن الخمس لا يعدوهم إلى غيرهم كأصناف الزكاة لا تعدوهم إلى غيرهم، كما أن الفيء العام في آية الحشر للمذكورين فيها، لا يتعداهم إلى غيرهم.

ولهذا أفتى أئمة الإسلام ـ كمالك وأحمد وغيرهما ـ أن الرافضة: لا حق لهم في الفيء. لأنهم ليسوا من المهاجرين ولا من الأنصار، ولا من ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ [الحشر: ١٠] وهذا مذهب أهل المدينة، واختيار شيخ الإسلام ابن تيمية. وعليه يدل القرآن، وفعل رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين...

[١] وههنا دقيقة ينبغي التفطن لها، وهي أن إيثار المحبوب نوعان: إيثار معاوضة ومتاجرة، وإيثار حب وإرادة.

فالأول: يؤثر محبوبه على غيره طلبًا لحظه منه، فهو يبذل ما يؤثره ليعاوضه بخير منه. والثاني يؤثره إجابة لداعي محبته، فإن المحبة الصادقة تدعوه دائمًا إلى إيثار محبوبه، فإيثاره هو أجل حظوظه، فحظه في نفس الإيثار لا في العوض المطلوب بالإيثار، وهذا لا تفهمه إلا النفس اللطيفة الورعة المشرقة، وأما النفس الكثيفة فلا

(١) ٢٩٨ طريق الهجرتين.

خبر عندها من هذا، وما هو بعشها فلتدرج.

والدين كله والمعاملة في الإيثار، فإنه تقديم وتخصيص لمن تؤثره بما تؤثره به على نفسك، حتى إن من شرطة الاحتياج من جهه المؤثر، إذ لو لم يكن محتاجًا إليه لكان بذله سخاء وكرمًا، وهذا إنما يصح في إيثار المخلوق، والله سبحانه يؤثر عبده على غيره من غير احتياج منه ـ سبحانه ـ فإنه الغني الحميد. وفي الدعاء المرفوع: «**اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وأكرمنا ولا تهنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وأرض عنا**»[1]. وقيل: من آثر الله على غيره آثره الله على غيره.

والفرق: بين الإيثار والأثرة: أن الإيثار تخصيص الغير بما تريده لنفسك، والأثرة اختصاصك به على الغير. وفي الحديث: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأثره علينا»[2].

فإذا عرف هذا فالإيثار إما أن يتعلق بالخلق، وإما أن يتعلق بالخالق. وإن تعلق بالخلق، فكماله أن تؤثرهم على نفسك بما لا يضيع عليك وقتًا، ولا يفسد عليك حالًا، ولا يهضم لك دينًا، ولا يسد عليك طريقًا، ولا يمنع لك واردًا.

فإن كان في إيثارهم شيء من ذلك فإيثار نفسك عليهم أولى، فإن الرجل من لا يؤثر بنصيبه من الله أحدًا كائنًا من كان. وهذا في غاية الصعوبة على السالك، والأول أسهل منه. فإن الإيثار المحمود الذي أثنى الله على فاعله: الإيثار بالدنيا لا بالوقت والدين وما يعود بصلاح القلب.

قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣١٧٣) والضياء المقدسي في المختارة (١/ ٣٤١-٣٤٢ رقم ٢٣٤) والحاكم (١/ ٧١٧ رقم ١٩٦١) والنسائي في الكبرى (١/ ٤٥٠ رقم ١٤٣٩) وعبدالرزاق (٣/ ٣٨٣ رقم ٦٠٣٨) وأحمد (١/ ٣٤) وعبد بن حميد (رقم ١٥) والعقيلي في الضعفاء (٤/ ٤٦٠) والحديث ضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٧٠٥٥، ٧٠٥٦) ومسلم (رقم ١٧٠٩) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٧-٨).

نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩] فأخبر إن إيثارهم إنما هو بالشيء الذي إذا وقى الرجل الشح به كان من المفلحين، وهذا إنما هو فضول الدنيا لا الأوقات المصروفة في الطاعات. فإن الفلاح كل الفلاح في الشح بها، فمن لم يكن شحيحًا بوقته تركه الناس على الأرض عيانًا مفلسًا. فالشح بالوقت هو عمارة القلب وحفظ رأس ماله. ومما يدل على هذا أنه ـ سبحانه ـ أمر بالمسابقة في أعمال البر والتنافس فيها والمبادرة إليها، وهذا ضد الإيثار بها.

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. وقال تعالى: ﴿ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [البقرة: ١٤٨] وقال تعالى: ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴾ [المطففين: ٢٦].

وقال النبي ﷺ: «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول لكانت قرعة»[1]. والقرعة إنما تكون عند التزاحم والتنافس لا عند الإيثار، فلم يجعل الشارع الطاعات والقربات محلًا للإيثار، بل محلا للتنافس والمسابقة.

ولهذا قال الفقهاء: لا يستحب الإيثار بالقربات. والسر فيه ـ والله أعلم ـ أن الإيثار إنما يكون بالشيء الذي يضيق عن الاشتراك فيه، فلا يسع المؤثِر والمؤثَر، بل لا يسع إلا أحدهما. وأما أعمال البر والطاعات فلا ضيق على العباد فيها، فلو اشترك الألوف المؤلفة في الطاعة الواحدة لم يكن عليهم فيها ضيق ولا تزاحم ووسعتهم كلهم.

وإن قدر التزاحم في عمل واحد أو مكان لا يمكن أن يفعله الجميع ـ بحيث إذا فعله واحد فات على غيره ـ فإن في العزم والنية الجازمة على فعله من الثواب ما لفاعله كما ثبت عن النبي ﷺ في غير حديث، فإذا قدر فوت مباشرته له فلا يفوت عليه عزمه ونيته لفعله.

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (رقم ٦١٥) ومسلم (رقم ٤٣٧) وانظر: فتح الباري (٥/ ٢٩٥) وشرح النووي (٤/ ١٥٧-١٥٨).

وأيضًا فإنه إذا فات عليه كان في غيره من الطاعات والقربات عوض منه: إما مساو له، وإما أزيد، وإما دونه، فمتى أتى بالعوض وعلم الله من نيته وعزيمته الصادقة إرادته لذلك العمل الفائت أعطاه الله ثوابه وثواب ما تعوض به عنه، فجمع له الأمرين. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وأيضًا فإن المقصود رغبة العبد في التقرب إلى الله وابتغاء الوسيلة إليه والمنافسة في محابه. والإيثار بهذا التقرب يدل على رغبته عنه، وتركه له، وعدم المنافسة فيه. وهذا بخلاف ما يحتاج إليه العبد من طعامه وشرابه ولباسه إذا كان أخوه محتاجًا إليه، فإذا اختص به أحدهما فات الآخر. فندب الله عبده إذا وجد من نفسه قوة وصبرًا على الإيثار به ما لم يخرم عليه دينًا، أو يجلب له مفسدة، أو يقطع عليه طريقًا عزم على سلوكه إلى ربه، أو شوش عليه قلبه بحيث يجعله متعلقًا بالخلق، فمفسدة إيثار هذا أرجح من مصلحته.

فإذا ترجحت مصلحة الإيثار بحيث تتضمن إنقاذ نفسه من هلكة أو عطب أو شدة ضرورة ـ وليس للمؤثر نظيرها ـ تعين عليه الإيثار.

فإن كان به نظيرها لم يتعين عليه الإيثار، ولكن لو فعله لكان غاية الكرم والسخاء والإحسان، فإنه من آثر حياة غيره على حياته وضرورته على ضرورته فقد استولى على أمد الكرم والسخاء. وجاوز أقصاه، وضرب فيه بأوفر الحظ. وفي هذا الموضع مسائل فقهية ليس هذا موضع ذكرها، فإن قيل: ما الذي يسهل على النفس هذا الإيثار. فإن النفس مجبولة على الأثرة لا على الإيثار؟ قيل يسهله أمور:

أحدها: رغبة العبد في مكارم الأخلاق ومعاليها، فإن من أفضل أخلاق الرجل وأشرفها وأعلاها الإيثار، وقد جبل الله القلوب على تعظيم صاحبه ومحبته، كما جبلها على بغض المستأثر ومقته، ولا تبديل لخلق الله.

والأخلاق ثلاثة: خلق (الإيثار) وهو خلق الفضل. وخلق (القسمة والتسوية) وهو خلق العدل. وخلق (الاستئثار والاستبداد) وهو خلق الظلم. فصاحب الإيثار

محبوب مطاع مهيب، وصاحب العدل لا سبيل للنفوس إلى أذاه والتسلط عليه، ولكنها لا تنقاد إليه انقيادها لمن يؤثرها، وصاحب الاستئثار النفوس إلى أذاه والتسلط عليه أسرع من السيل في حدوره. وهل أزال الممالك وقلعها إلا الاستئثار؟ فإن النفوس لا صبر لها عليه.

ولهذا أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالسمع والطاعة لولاة الأمر وإن استأثروا عليهم، لما في طاعة المستأثر من المشقة أو لكره الاستئثار.

الثاني: النفرة من أخلاق اللئام، ومقت الشح وكراهته له.

الثالث: تعظيم الحقوق التي جعلها الله ﷻ للمسلمين بعضهم على بعض، فهو يرعاها حق رعايتها، ويخاف من تضييعها، ويعلم أنه إن لم يبذل فوق العدل لم يمكنه الوقوف مع حده، فإن ذلك عسر جدًا، بل لابد من مجاوزته إلى الفضل، أو التقصير عنه إلى الظلم، فهو لخوفه من تضييع الحق والدخول في الظلم يختار الإيثار بما لا ينقصه ولا يضره، ويكتسب به جميل الذكر في الدنيا وجزيل الأجر في الآخرة، مع ما يجلبه له الإيثار من البركة وفيضان الخير عليه، فيعود عليه من إيثاره أفضل مما بذله. ومن جرب هذا عرفه، ومن لم يجر به فليستقرئ أحوال العالم. والموفق من وفقه الله ﷻ.

(1)قال الله تعالى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

فالإيثار ضد الشح. فإن المؤثر على نفسه تارك لما هو محتاج إليه. والشحيح: حريص على ما ليس بيده. فإذا حصل بيده شيء شح عليه، وبخل بإخراجه.

فالبخل ثمرة الشح. والشح يأمر بالبخل. كما قال النبي ﷺ: **«إياكم والشح! فإن الشح أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»**(2).

---

(١) ٢٩١ مدارج جـ٢.

(٢) أخرجه بنحوه مسلم (رقم ٢٥٧٨) وانظر: شرح النووي (١٦/ ١٣٤).

فالبخيل: من أجاب داعي الشح. والمؤثر: من أجاب داعي الجود.

كذلك السخاء عما في أيدي الناس هو السخاء. وهو أفضل من سخاء البذل. قال عبد الله بن المبارك: سخاء النفس عما في أيدي الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل. وهذا المنزل: هو منزل الجود والسخاء والإحسان.

وسمي بمنزل «الإيثار» لأنه أعلى مراتبه، فإن المراتب ثلاث.

إحداها: أن لا ينقصه البذل، ولا يصعب عليه. فهو منزلة «السخاء».

الثانية: أن يعطي الأكثر، ويبقي له شيئًا، أو يبقي مثل ما أعطى، فهو «الجود».

الثالثة: أن يؤثر غيره بالشيء مع حاجته إليه، وهو مرتبة «الإيثار»، وعكسها «الأثرة»، وهو استئثاره عن أخيه بما هو محتاج إليه. وهي المرتبة التي قال فيها رسول الله ﷺ للأنصار ﷺ: «**إنكم ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض**» والأنصار: هم الذين وصفهم الله بالإيثار في قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] فوصفهم بأعلى مراتب السخاء، وكان ذلك فيهم معروفًا.

وكان قيس بن سعد بن عبادة ـ رضي الله عنهما ـ من الأجواد المعروفين. حتى إنه مرض مرة، فاستبطأ إخوانه في العيادة. فسأل عنهم؟ فقالوا: إنهم كانوا يستحيون مما لك عليهم من الدين. فقال: أخزى الله مالًا يمنع الإخوان من الزيارة. ثم أمر مناديًا ينادي: من كان لقيس عليه مال فهو منه في حل. فما أمسى حتى كسرت عتبة بابه، لكثرة من عاده. وقالوا له يومًا: هل رأيت أسخى منك؟ قال: نعم! نزلنا بالبادية على امرأة. فحضر زوجها. فقالت: إنه نزل بك ضيفان. فجاء بناقة فنحرها، وقال: شأنكم؟ فلما كان من الغد جاء بأخرى فنحرها. فقلنا: ما أكلنا من التي نحرت البارحة إلا اليسير. فقال: إني لا أطعم ضيفاني البائت. فبقينا عنده يومين أو ثلاثة، والسماء تمطر.وهو يفعل ذلك، فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار في بيته وقلنا للمرأة: اعتذري لنا إليه. ومضينا. فلما طلع النهار إذا نحن برجل يصيح خلفنا: قفوا. أيها

الركب اللئام. أعطيتموني ثمن قراي؟ ثم إنه لحقنا، وقال: لتأخذنه أو لاطاعننكم برمحي. فأخذناه وانصرف.

فتأمل سر التقدير، حيث قدر الحكيم الخبير ـ سبحانه ـ استئثار الناس على الأنصار بالدنيا ـ وهم أهل الإيثار ـ ليجازيهم على إيثارهم إخوانهم في الدنيا على نفوسهم بالمنازل العالية في جنات عدن على الناس. فتظهر حينئذ فضيلة إيثارهم ودرجته ويغبطهم من استأثر عليهم بالدنيا أعظم غبطة. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. فإذا رأيت الناس يستأثرون عليك ـ مع كونك من أهل الإيثار ـ فاعلم أنه لخير يراد بك. والله ﷻ أعلم.

و«الجود» عشر مراتب.

أحدها: الجود بالنفس. وهو أعلى مراتبه، كما قال الشاعر:

يجود بالنفس إذ ضن البخيل بها ... والجود بالنفس أقصى غاية الجود[1]

الثانية: الجود بالرياسة. وهو ثاني مراتب الجود. فيحمل الجواد جوده على امتهان رياسته، والجود بها. والإيثار في قضاء حاجات الملتمس.

الثالثة: الجود براحته ورفاهيته، وإجماع نفسه. فيجود بها تعبًا وكدًا في مصلحة غيره. ومن هذا جود الإنسان بنومه ولذته لمسامره كما قيل:

متيم بالندى لو قاله سائله ... هب لي جميع كرى عينيك لم ينم

الرابعة: الجود بالعلم وبذله. وهو من أعلى مراتب الجود. والجود به أفضل من الجود بالمال. لأن العلم أشرف من المال.

---

(١) هذا البيت من بحر البسيط، وينسب إلى مسلم بن الوليد الأنصاري المعروف بصريع الغواني، شاعر الغزل، وكان يكثر من البديع في شعره، وتبعه الشعراء في ذلك، مات سنة ٢٠٨هـ. وجاء صدر البيت هكذا: تجود بالنفس إذ أنت الضنين بها. وذكر البيت أبو بكر محمد بن داود الأصبهاني في كتاب الزهرة (٢/ ٨١٧) وجاء فيه: إذ ضن الجواد بها. وذكره أيضاً الخطيب البغدادي في تاريخه (١٣/ ٩٦) وابن عساكر في تاريخه (٦/ ١٠١).

والناس في الجود به على مراتب متفاوتة. وقد اقتضت حكمة الله وتقديره النافذ: أن لا ينفع به بخيلًا أبدًا.

ومن الجود به: أن تبذله لمن يسألك عنه، بل تطرحه عليه طرحًا.

ومن الجود بالعلم: أن السائل إذا سألك عن مسألة: استقصيت له جوابها جوابًا شافيًا، لا يكون جوابك له بقدر ما تدفع به الضرورة، كما كان بعضهم يكتب في جواب الفتيا «نعم» أو «لا» مقتصرًا عليها.

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ في ذلك أمرًا عجيبًا: كان إذا سئل عن مسألة حكمية، ذكر في جوابها مذاهب الأئمة الأربعة، إذا قدر، ومأخذ الخلاف، وترجيح القول الراجح. وذكر متعلقات المسألة التي ربما تكون أنفع للسائل من مسألته. فيكون فرحة بتلك المتعلقات، واللوازم: أعظم من فرحه بمسألته. وهذه فتاويه ـ رحمه الله ـ بين الناس. فمن أحب الوقوف عليها رأى ذلك.

فمن جود الإنسان بالعلم: أنه لا يقتصر على مسألة السائل. بل يذكر له نظائرها ومتعلقها ومأخذها، بحيث يشفيه ويكفيه.

وقد سأل الصحابة ﷺ النبي ﷺ عن المتوضئ بماء البحر؟ فقال: «**هو الطهور ماؤه، الحل ميتته**»[1] فأجابهم عن سؤالهم. وجاد عليهم بما لعلهم في بعض الأحيان إليه أحوج مما سألوه عنه.

وكانوا إذا سألوه عن الحكم نبههم على علته وحكمته. كما سألوه عن بيع الرطب بالتمر؟ فقال: «**أينقص الرطب إذا جف؟**» قالوا: نعم. قال: «**فلا، إذن**» ولم يكن يخفى

---

(١) أخرجه ابن حبان (٤/ ٤٩ رقم ١٢٤٣) وابن الجارود في المنتقى (رقم ٤٣) والحاكم (١/ ٢٤٠ رقم ٤٩٩، ٥٠٠) وابن خزيمة (١/ ٥٩ رقم ١٨) والنسائي في الكبرى (١/ ٧٥ رقم ٥٨) وأبو داود (رقم ٨٣) وابن ماجه (رقم ٣٨٦) والترمذي (رقم ٦٩) وقال: هذا حديثٌ حسن صحيحٌ. قال الحافظ في الفتح (٩/ ٦١٩): أخرجه مالك وأصحاب السنن وصححه ابن خزيمة وابن حبان. وصححه النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٣/ ٨٦).

عليه ﷺ نقصان الرطب بجفافه، ولكن نبههم على علة الحكم. وهذا كثير جدًا في أجوبته ﷺ. مثل قوله: «**إن بعت من أخيك ثمرة. فأصابتها جائحة فلا يحل لك أن تأخذ من مال أخيك شيئًا. بم يأخذ أحدكم مال أخيه؟ بغير حق؟**» وفي لفظ: «**أرأيت إن منع الله الثمرة: بم يأخذ أحدكم مال أخيه، بغير حق؟**»(١). فصرح بالعلة التي يحرم لأجلها إلزامه بالثمن. وهي منع الله الثمرة التي ليس للمشتري فيها صنع.

وكان خصومه ـ يعني شيخ الإسلام ابن تيمية ـ يعيبونه بذلك. ويقولون: سأله السائل عن طريق مصر ـ مثلًا ـ فيذكر له معها طريق مكة، والمدينة، وخراسان والعراق، والهند. وأي حاجة بالسائل إلى ذلك؟

ولعمر الله ليس ذلك بعيب، وإنما العيب: الجهل والكبر. وهذا موضع المثل المشهور:

لقبوه بحامض. وهو خل — مثل من لم يصل إلى العنقود

الخامسة: الجود بالنفع بالجاه كالشفاعة والمشي مع الرجل إلى ذي سلطان ونحوه. وذلك زكاة الجاه المطالب بها العبد. كما أن التعليم وبذل العلم زكاته.

السادسة: الجود بنفع البدن على اختلاف أنواعه. كما قال ﷺ: «**يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين اثنين: صدقة. ويعين الرجل في دابته، فيحمله عليها، أو يرفع له عليها متاعه: صدقة. وبالكلمة الطيبة: صدقة، وبكل خطوة يمشيها الرجل إلى الصلاة: صدقة. ويميط الأذى عن الطريق: صدقة**»(٢) متفق عليه.

السابعة: الجود بالعرض، كجود أبي ضمضم من الصحابة ﷺ كان إذا أصبح قال: «اللهم إنه لا مال لي، أتصدق به على الناس. وقد تصدقت عليهم بعرضي، فمن

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٥٥٤) وانظر: شرح النووي (١٠/ ٢١٦).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٧٢٠) وانظر: فتح الباري (٣/ ٣٠٨-٣٠٩) وشرح النووي (٥/ ٢٣٣-٢٣٤).

شتمني، أو قذفني: فهو في حل. فقال النبي ﷺ: «**من يستطيع منكم أن يكون كأبي ضمضم**»[١]؟ وفي هذا الجود من سلامة الصدر، وراحة القلب، والتخلص من معاداة الخلق ما فيه.

الثامنة: الجود بالصبر، والاحتمال، والإغضاء. وهذا مرتبة شريفة من مراتبه. وهي أنفع لصاحبها من الجود بالمال، وأعز له وأنصر،وأملك لنفسه،وأشرف لها. ولا يقدر عليها إلا النفوس الكبار.

فمن صعب عليه الجود بماله فعليه بهذا الجود. فإنه يجتني ثمرة عواقبه الحميدة في الدنيا قبل الآخرة. وهذا جود الفتوة. قال تعالى: ﴿ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ﴾ [المائدة: ٤٥] وفي هذا الجود. قال تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشورى: ٤٠]. فذكر المقامات الثلاثة في هذه الآية: مقام العدل، وأذن فيه. ومقام الفضل، وندب إليه. ومقام الظلم. وحرمه.

التاسعة: الجود بالخلق والبشر والبسطة. وهو فوق الجود بالصبر، والاحتمال والعفو. وهو الذي بلغ بصاحبه درجة الصائم القائم. وهو أثقل ما يوضع في الميزان. قال النبي ﷺ: «**لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط إليه**»[٢] وفي هذا الجود من المنافع والمسار، وأنواع المصالح ما فيه. والعبد لا يمكنه أن يسعهم بخلقه واحتماله.

العاشرة: الجود بتركه ما في أيدي الناس عليهم، فلا يلتفت إليه، ولا يستشرف له بقلبه، ولا يتعرض له بحاله، ولا لسانه. وهذا الذي قال عبدالله بن المبارك «**إنه أفضل**

---

(١) أخرجه الضياء في المختارة (٥/ ١٤٩ رقم ١٧٧٠) وأبو داود (رقم ٤٨٨٧) والبيهقي في الشعب (٦/ ٢٦١ رقم ٨٠٨٢) والعقيلي في الضعفاء (٤/ ٩٣).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٢٦) وفيه: «**تلقى أخاك بوجه طلق**» وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٤٧) وشرح النووي (١٦/ ١٧٧).

من سخاء النفس بالبذل». فلسان حال القدر يقول للفقير الجواد: وإن لم أعطك ما تجود به على الناس، فجد عليهم بزهدك في أموالهم. وما في أيديهم، تفضل عليهم، وتزاحمهم في الجود، وتنفرد عنهم بالراحة.

ولكل مرتبة من مراتب الجود مزيد وتأثير خاص في القلب والحال. والله ـ سبحانه ـ قد ضمن المزيد للجواد، والإتلاف للممسك. والله المستعان.

قال صاحب المنازل ـ رحمه الله ـ: «الإيثار: تخصيص واختيار. والأثرة: تحسن طوعًا. وتصح كرهًا».

فرق الشيخ بين «الإيثار» و«الأثرة» وجعل «الإيثار» اختيارًا و«الأثرة» منقسمة إلى اختيارية، واضطرارية. وبالفرق بينهما يعلم معنى كلامه. فإن «الإيثار» هو البذل، وتخصيصك لمن تؤثره على نفسك، وهذا لا يكون إلا اختيارًا.

وأما «الأثرة» فهي استئثار صاحب الشيء به عليك، وحوزه لنفسه دونك.

فهذه لا يحمد عليها المستأثر عليه. إلا إذا كانت طوعًا. مثل أن يقدر على منازعته ومجاذبته، فلا يفعل. ويدعه وأثرته طوعًا. فهذا حسن، وإن لم يقدر على ذلك كانت أثرة كره. ويعني بالصحة: الوجود، أي توجد كرهًا. ولكن إنما تحسن إذا كانت طوعًا من المستأثر عليه.

فحقيقة «الإيثار»بذل صاحبه وإعطاؤه. و«الأثرة» استبداله هو بالمؤثر به. فيتركه وما استبدل به: إما طوعًا، وإما كرهًا. فكأنك آثرته باستئثاره حيث خليت بينه وبينه، ولم تنازعه. قال عبادة بن الصامت ﷺ: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في عسرنا، ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله»[1] فالسمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره: لهم معه ومع الأئمة بعده، والأثرة: عدم منازعة الأمر مع الأئمة بعده خاصة، فإنه ﷺ لم يستأثر عليهم.

---

(١) تقدم تخريجاً قريباً.

...[(١)]وفيها[(٢)]: كمال محبة الصديق له، وقصده التقرب إليه، والتحبب بكل ما يمكنه، ولهذا ناشد المغيرة أن يدعه هو يبشر النبي ﷺ بقدوم وفد الطائف، ليكون هو الذي سرَّه وأفرحه بذلك. وهذا يدل على أنه يجوز للرجل أن يسأل أخاه أو يؤثره بقربة من القرب، وأنه يجوز للرجل أن يؤثر أخاه.

وقول من قال من الفقهاء: لا يجوز الإيثار بالقرب. لا يصح، وقد آثرت عائشة عمر بن الخطاب بدفنه في بيتها بجوار النبي ﷺ وسألها عمر ذلك، فلم تكره له السؤال، ولا لها البذل. وعلى هذا: فإذا سأل الرجل غيره: أن يؤثره بمقامه في الصف الأول: لم يكره له السؤال، ولا لذلك البذل. ونظائره.

ومن تأمل سيرة الصحابة وجدهم غير كارهين لذلك، ولا ممتنعين منه. وهل هذا إلا كرم وسخاء، وإيثار على النفس بما هو أعظم محبوباتها، وتفريح لأخيه المسلم، وتعظيم لقدره، وإجابة له إلى ما سأله، وترغيب له في الخير. وقد يكون ثواب كل واحد من هذه الخصال راجحًا على ثواب تلك القربة، فيكون المؤثر بها ممن تاجر، فبذل قربة وأخذ أضعافها؟

وعلى هذا: فلا يمتنع أن يؤثر صاحب المال بمائه من يتوضأ به ويتيمم هو، إذا كان لا بد من تيمم أحدهما، فآثره أخاه وحاز فضيلة الإيثار، وفضيلة الطُّهر بالتراب. ولا يمنع هذا كتاب ولا سنة، ولا مكارم أخلاق.

وعلى هذا: فإذا اشتد العطش بجماعة عاينوا التلف، ومع بعضهم ماء، فآثر به على نفسه واستسلم للموت. كان ذلك جائزًا، ولم يقل: إنه قاتل لنفسه، ولا أنه فعل محرمًا، بل هذا غاية الجود والسخاء، كما قال تعالى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩]. وقد جرى هذا بعينه لجماعة من الصحابة في فتوح الشام، وعد ذلك من مناقبهم وفضائلهم. وهل إهداء القرب المجمع عليها والمتنازع

(١) ٤٦٨ زاد المعاد جـ٢.

(٢) أي قصة ثقيف حيث ساقها الشيخ رحمه الله كاملة مفصلة قبل هذا. (ج).

فيها إلى الميت إلا إيثار بثوابها؟ وهو عين الإيثار بالقرب، فأي فرق بين أن يؤثره بفعلها ليحرز ثوابها، وبين أن يعمل ثم يؤثر بثوابها؟ وبالله التوفيق.

[١]رد الرافضة النصوص الصحيحة الصريحة المحكمة المعلومة عند خاص الأمة وعامتها بالضرورة؛ في مدح الصحابة، والثناء عليهم، ورضاء الله عنهم، ومغفرته لهم، وتجاوزه عن سيئاتهم، ووجوب محبة الأمة، واتباعهم لهم،واستغفارهم لهم، واقتدائهم بهم بالمتشابه من قوله: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»[٢] ونحوه.

كما ردوا المحكم الصريح من أفعالهم وإيمانهم وطاعتهم بالمتشابه من أفعالهم، كفعل إخوانهم من الخوارج حين ردوا النصوص الصحيحة المحكمة في موالاة المؤمنين ومحبتهم وإن ارتكبوا بعض الذنوب التي تقع مكفرة بالتوبة النصوح، والاستغفار، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، ودعاء المسلمين لهم في حياتهم وبعد موتهم، وبالامتحان في البرزخ وفي موقف القيامة، وبشفاعة من يأذن الله له في الشفاعة، وبصدق التوحيد، وبرحمة أرحم الراحمين.

فهذه عشرة أسباب تمحق أثر الذنوب، فإن عجزت هذه الأسباب عنها فلابد من دخول النار، ثم يخرجون منها؛ فتركوا ذلك كله بالمتشابه من نصوص الوعيد، وردوا المحكم من أفعالهم وإيمانهم وطاعتهم بالمتشابه من أفعالهم التي يحتمل أن يكونوا قصدوا بها طاعة الله، فاجتهدوا فأداهم اجتهادهم إلى ذلك، فحصلوا فيه على الأجر المفرد، وكان حظ أعدائهم منه تكفيرهم واستحلال دمائهم وأموالهم، وإن لم يكونوا قصدوا ذلك كان غايتهم أن يكونوا قد أذنبوا، ولهم من الحسنات والتوبة وغيرها ما يرفع موجب الذنب فاشتركوا هم والرافضة في رد المحكم من النصوص وأفعال المؤمنين بالمتشابه منها فكفروهم وخرجوا عليهم بالسيف يقتلون أهل الإيمان

---

(١) ٢٨٥ أعلام جـ٢.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٢١) ومسلم (رقم ٦٥) وانظر: فتح الباري (١/ ١١٣) وشرح النووي (٢/ ٥٥).

ويدعون أهل الأوثان. ففساد الدنيا والدين من تقديم المتشابه على المحكم، وتقديم الرأي على الشرع، والهوى على الهدى، وبالله التوفيق.

***

﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾.

[1]وكذلك فعل بالراهب الذي قتل المرأة وولدها، أمره بالزنا ثم بقتلها، ثم دلَّ أهلها عليه وكشف أمره لهم، ثم أمره بالسجود له، فلما فعل فرَّ عنه وتركه، وفيه أنزل الله سبحانه: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الحشر: ١٦] وهذا السياق لا يختص بالذي ذكرت عنه هذه القصة بل هو عام في كل من أطاع الشيطان في أمره له بالكفر، لينصره ويقضي حاجته، فإنه يتبرأ منه ويسلمه كما يتبرأ من أوليائه جملة في النار، ويقول لهم: ﴿ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ [إبراهيم: ٢٢] فأوردهم شر الموارد، وتبرأ منهم كل البراءة.

وتكلم الناس في قول عدو الله ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ﴾ [الحشر: ١٦] فقال قتادة وابن إسحاق «صدق عدو الله في قوله: ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ ﴾ [الأنفال: ٤٨] وكذب في قوله: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ﴾ [الأنفال: ٤٨] والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة فأوردهم وأسلمهم، وكذلك عادة عدو الله بمن أطاعه».

وقالت طائفة: «إنما خاف بطش الله تعالى به في الدنيا، كما يخاف الكافر والفاجر أن يقتل أو يؤخذ بجرمه، لا أنه خاف عقابه في الآخرة»، وهذا أصح، وهذا الخوف لا يستلزم إيمانًا ولا نجاة...

[2]نقض العهد بنو النضير. قال البخاري: «وكان ذلك بعد بدر بستة أشهرًا»[3] قاله

(١) ١٠٩ إغاثة جـ١.

(٢) ١٨٥ زاد المعاد جـ٢.

(٣) انظر: فتح الباري (٧/ ٣٣٢) وعمدة القاري (٦/ ٢٥٥) وتفسير ابن كثير (٤/ ٣٣٥).

عروة، وسبب ذلك: أنه ﷺ خرج إليهم في نفر من أصحابه، وكلمهم أن يعينوه في دية الكلابيين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري، فقالوا: نفعل يا أبا القاسم، اجلس ههنا حتى نقضي حاجتك، وخلا بعضهم ببعض، وسوَّل لهم الشيطان الشقاء الذي كتب عليهم، فتآمروا بقتله ﷺ، وقالوا: أيكم يأخذ هذه الرحا ويصعد، فيلقيها على رأسه يشدخه بها؟ فقال أشقاهم عمرو بن جحاش: أنا. فقال لهم سلام بن مشكم: لا تفعلوا، فوالله ليخبرن بما هممتم به، وإنه لنقض للعهد الذي بيننا وبينه. وجاء الوحي على الفور إليه من ربه ـ تبارك وتعالى ـ بما هموا به، فنهض مسرعًا، وتوجه إلى المدينة، ولحقه أصحابه، فقالوا: نهضت ولم نشعر بك؟ فأخبرهم بما همت يهود به.

وبعث إليهم رسول الله ﷺ: أن أخرجوا من المدينة، ولا تساكنوني بها، وقد أجَّلْتكم عشرًا، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه، فأقاموا أيامًا يتجهزون. وأرسل إليهم المنافق عبد الله بن أبي: أن لا تخرجوا من دياركم، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصْنكم، فيموتون دونكم، وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان.

وطمع رئيسهم حيُيّ بن أخطب فيما قال له، وبعث إلى رسول الله ﷺ، يقول: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك، فكبَّر رسول الله ﷺ، وأصحابه، ونهضوا إليهم، وعلي بن أبي طالب يحمل اللواء. فلما انتهى إليهم قاموا علي حصونهم يرمون بالنبل والحجارة، واعتزلتهم قريظة، وخانهم عبد الله بن أبي وحلفاؤهم من غطفان، ولهذا شبه الله ﷻ قصتهم وجعل مثلهم: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ [الحشر: ١٦].

فإن سورة الحشر هي سورة بني النضير، وفيها مبدأ قصتهم ونهايتها، فحاصرهم رسول الله ﷺ وقطع نخلهم وحرَّق، فأرسلوا إليه: نحن نخرج عن المدينة. فأنزلهم علي أن يخرجوا عنها بنفوسهم وذراريهم، وأن لهم ما حملت الإبل، إلا السلاح: وقبض النبي ﷺ الأموال والحلقة، وهي السلاح، وكانت بنو النضير خالصة لرسول الله ﷺ لنوائبه ومصالح المسلمين، ولم يخمسها، لأن الله أفاءها عليه، ولم يوجف

عليها المسلمون بخيل ولا ركاب[١].

[٢]وذكر الحاكم وغيره: أن بني النضير لما أجلوا من المدينة أقبل عمر بن سعد فأطاف بمنازلهم فرأىٰ خرابها ففكر. ثم رجع إلىٰ بني قريظة فوجدهم في الكنيسة فنفخ في بوقهم فاجتمعوا. فقال الزبير بن باطا: يا أبا سعيد أين كنت منذ اليوم؟ فلم نرك.وكان لا يفارق الكنيسة، وكان يتأله في اليهودية ـ قال: رأيت اليوم عبرًا اعتبرنا بها: رأيت إخواننا قد جلوا بعد ذلك العز والجلد والشرف الفاضل والعقل البارع، قد تركوا أموالهم وملكها غيرهم، وخرجوا خروج ذل، ـ والتوراة ـ ما سلط هذا علىٰ قوم قط لله بهم حاجة. وقد أوقع قبل ذلك بابن الأشرف في عزة بنيانه في بيته آمنًا، وأوقع بابن سنينة سيدهم. وأوقع ببني قينقاع فأجلاهم وهم جل اليهود، وكانوا أهل عدة وسلاح ونجدة، فحصرهم النبي ﷺ فلم يخرج إنسان منهم رأسه حتىٰ نهاهم، فكلم فيهم فتركهم علىٰ أن أجلاهم من يثرب.

يا قوم: قد رأيتم ما رأيتم فاطيعوني وتعالوا نتبع محمدًا، فوالله إنكم لتعلمون أنه نبي، وقد بشرنا به وبأمره ابن الهيبان وأبو عمرو بن حراس، وهما أعلم اليهود، جاءا من بيت المقدس يتوكفان قدومه وأمرانا باتباعه، وأمرانا أن نقرئه منهما السلام ثم ماتا علىٰ دينهما ودفناهما بحرتنا، فاسكت القوم فلم يتكلم منهم متكلم، فأعاد هذا الكلام ونحوه وخوفهم بالحرب والسباء والجلاء. فقال الزبير بن باطا: قد ـ والتوراة ـ قرأت صفته في كتاب التوراة التي أنزلت علىٰ موسي ليس في المثاني التي أحدثنا.

فقال له كعب بن أسد: ما يمنعك يا أبا عبد الرحمن من اتباعه قال: أنت. قال ولم ـ فوالتوراة ـ ما حلت بينك وبينه قط؟

قال الزبير: بل أنت صاحب عهدنا وعقدنا، فإن اتبعته اتبعناه، وإن أبيت أبينا.

فأقبل عمر بن سعد علىٰ كعب فذكر ما تقاولا في ذلك إلىٰ أن قال كعب: ما عندي

(١) تقدم سياق طوائف اليهود في سورة الأحزاب. (ج).
(٢) ١٨ هداية الحيارىٰ.

في ذلك إلا ما قلت، ما تطيب نفسي أن أصير تابعًا. وهذا المانع هو الذي منع فرعون من اتباع موسىٰ، فإنه لما تبين له الهدىٰ عزم علىٰ اتباع موسىٰ عليه السلام فقال له! وزيره هامان: بينا أنت إله تعبد تصبح تعبد ربا غيرك؟! قال: صدقت.

وذكر ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر، قال: حدثت عن صفية بنت حيي أنها قالت: كنت أحب ولد أبي إليه وإلىٰ عمي أبي ياسر، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة غدوا عليه ثم جاءا من العشي، فسمعت عمي يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: أتعرفه وتثبته. قال: نعم، قال: فما في نفسك منه قال: عداوته والله ما بقيت.

فهذه الأمة الغضبية معروفة بعداوة الأنبياء قديمًا وأسلافهم وخيارهم قد أخبرنا الله سبحانه عن أذاهم لموسىٰ، ونهانا عن التشبه بهم في ذلك، فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وأما خلفهم فهم قتلة الأنبياء: قتلوا زكريا وابنه يحيي وخلقًا كثيرًا من الأنبياء، حتىٰ قتلوا في يوم سبعين نبيًا، وأقاموا السوق في آخر النهار كأنهم لم يصنعوا شيئًا.

واجتمعوا علىٰ قتل المسيح وصلبه فصانه الله من ذلك وأكرمه أن يهينه علىٰ أيديهم، وألقىٰ شبهه علىٰ غيره، فقتلوه، وصلبوه، وراموا قتل خاتم النبيين مرارًا عديدة، والله يعصمه منهم. ومن هذا شأنهم لا يكبر عليهم اختيار الكفر علىٰ الإيمان لسبب من الأسباب التي ذكرنا بعضها أو سببين أو أكثر.

***

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝ ﴾.

[1]أمر بتقواه ونهىٰ أن يتشبه عباده المؤمنون بمن نسيه بترك تقواه.

(١) ٩٢ الجواب الكافي.

وأخبر أنه عاقب من ترك التقوى بأن أنساه نفسه أي أنساه مصالحها وما ينجيها من عذابه وما يوجب له الحياة الأبدية وكمال لذاتها وسرورها ونعيمها، فأنساه الله ذلك كله جزاء لما نسيه من عظمته وخوفه والقيام بأمره، فترى العاصي مهملًا لمصالح نفسه مضيعًا لها، قد أغفل الله قلبه عن ذكره، واتبع هواه، وكان أمره فرطًا، قد انفرطت عليه مصالح دنياه آخرته، وقد فرط في سعادته الأبدية، واستبدل بها أدنى ما يكون من لذة. إنما هي سحابة صيف أو خيال طيف.

أحلام نوم أو كظل زائل ... أن اللبيب بمثلها لا يخدع[(١)]

وأعظم العقوبات نسيان العبد لنفسه وإهماله لها وإضاعته حظها ونصيبها من الله وبيعه ذلك بالغبن والهوان وأبخس الثمن، فضيع من لاغنى له عنه ولا عوض له منه، واستبدل به من عنه كل الغنى أو منه كل العوض.

من كل شيء إذا ضيعته عوض ... وليس في الله إن ضيعت من عوض[(٢)]

فالله ﷻ يعوض عن كل شيء سواه ولا يعوض منه شيء، ويغني عن كل شيء، ولا يغني عنه شيء، ويمنع من كل شيء، ولا يمنع منه شيء، ويجير من كل شيء، ولا يجير منه شيء، وكيف يستغني العبد عن طاعة من هذا شأنه طرفة عين؟ وكيف ينسى ذكره، ويضيع أمره حتى ينسيه نفسه فيخسرها ويظلمها أعظم ظلم؟ فلما ظلم العبد ربه، ولكن ظلم نفسه، وما ظلمه ربه، ولكن هو الذي ظلم نفسه.

[(٣)]...والتحقيق: أن التوبة بين محاسبتين، محاسبة قبلها، تقتضي وجوبها.

---

(١) هذا البيت من بحر الكامل وينسب إلى عمران بن حطان السدوسي، هرب من الحجاج فلحق بالشام ولجأ إلى قوم من الأزد، فمات عندهم وهو يعتقد بمذهب الإباضية سنة ٨٤هـ. فعن قتادة قال: لقيني عمران بن حطان، فقال: يا أعمى احفظ عني هذه الأبيات. ذكرها الحافظ الذهبي في السير (٤/ ٢١٦) والحافظ المزي في تهذيب الكمال (٢٢/ ٣٢٤) والحافظ ابن عساكر في تاريخه (٤٣/ ٤٩٨).

(٢) ذكر المناوي في فيض القدير (١/ ٢٠٣) بيتًا قريب من هذا البيت، فقال: وأحسن منه قول القائل:

لكل شيء إذا فارقته عوض ... وليس لله إن فارقت من عوض

(٣) ١٧٠ مدارج جـ١.

ومحاسبة بعدها، تقتضي حفظها. فالتوبة محفوفة بمحاسبتين.

وقد دل على المحاسبة قوله تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ [الحشر: ١٨] فأمر سبحانه العبد أن ينظر ما قدم لغد. وذلك يتضمن محاسبة نفسه على ذلك، والنظر: هل يصلح ما قدمه أن يلقى الله به أو لا يصلح؟

والمقصود من هذا النظر: ما يوجبه ويقتضيه. من كمال الاستعداد ليوم المعاد. وتقديم ما ينجيه من عذاب الله، ويبيض وجهه عند الله! وقال عمر بن الخطاب ﷺ: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا. وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر»(١) ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٨] أو قال: «على من لا تخفى عليه أعمالكم»(٢).

(٣)قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر: ١٩] فتأمل هذه الآية تجد تحتها معنى شريفا عظيمًا، وهو أن من نسي ربه أنساه ذاته ونفسه، فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه، بل نسي ما به صلاحه وفلاحه في معاشه ومعاده، فصار معطلًا مهملًا بمنزلة الأنعام السائبة، بل ربما كانت الأنعام أخبر بمصالحها منه لبقائها على هداها التام الذي أعطاها إياه خالقها.

وأما هذا فخرج عن فطرته التي خلق عليها، فنسي ربه، فأنساه نفسه وصفاتها وما تكمل به وتزكو به وتسعد به في معاشها ومعادها. قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨] فغفل عن ذكر ربه، فانفرط عليه أمره وقلبه، فلا التفات له إلى مصالحه وكماله وما تزكو به نفسه وقلبه، بل هو مشتت القلب مضيعه، مفرط الأمر حيران لا يهتدي سبيلًا.

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٤٥٩) وابن أبي شيبة (٧/ ٩٦ رقم ٣٤٤٥٩) وابن المبارك في الزهد (رقم ٣٠٦) وابن عساكر في تاريخه (٤٤/ ٣١٤).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٦).

(٣) ٨٦ مفتاح جـ١.

[(١)] قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر: ١٩].

فهؤلاء نسوا نفوسهم لا من جميع الوجوه، بل من الوجه الذي به مصالحها وكمالها وسعادتها، وإن لم ينسوها من الوجه الذي منه شهوتها وحظها وإرادتها، فأنساهم مصالح نفوسهم أن يفعلوها ويطلبوها، وعيوبها ونقائصها أن يزيلوها ويجتنبوها، وكمالها الذي خلقت له أن يعرفوه ويطلبوه، فهم جاهلون بحقائق أنفسهم من هذه الوجوه وإن كانوا عالمين بها من وجوه آخر.

[(٢)] وتأمل قوله تعالىٰ: ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة: ٦٧] وقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر: ١٩] كيف عدل فيهم كل العدل بأن نسيهم كما نسوه، وأنساهم حظوظ أنفسهم ونعيمها وكمالها وأسباب لذتها وفرحها عقوبة لهم علىٰ نسيان المحسن إليهم بصنوف النعم المتحبب إليهم بآلائه فقابلوا ذلك بنسيان ذكره والإعراض عن شكره، فعدل فيهم بأن أنساهم مصالح أنفسهم فعطلوها، وليس بعد تعطيل مصلحة النفس إلا الوقوع فيما تفسد به وتتألم بفوته غاية الألم.

[(٣)] قوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر: ١٩] عاقبهم علىٰ نسيانهم له بأن أنساهم أنفسهم فنسوا مصالحها أن يفعلوها، وعيوبها أن يصلحوها، وحظوظها أن يتناولوها.

ومن أعظم مصالحها وأنفع حظوظها؛ ذكرها لربها وفاطرها، وهي لا نعيم لها ولا سرور ولا فلاح ولا صلاح إلا بذكره، وحبه، وطاعته، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه فأنساهم ذلك لما نسوه، وأحدث لهم هذا النسيان نسيانًا آخر.

وهذا ضد حال الذين ذكروه ولم ينسوه، فذكرهم مصالح نفوسهم ففعلوها، وأوقفهم علىٰ عيوبها فأصلحوها، وعرفهم حظوظها العالية فبادروا إليها، فجازىٰ

---

(١) ٢٥٨ الروح.

(٢) ٣٤٦ مختصر الصواعق جـ١.

(٣) ١٣٥ شفاء.

أولئك على نسيانهم بأن أنساهم الإيمان ومحبته وذكره وشكره فلما خلت قلوبهم من ذلك لم يجدوا عن ضده محيصًا. وهذا يبين لك كمال عدله ـ سبحانه ـ في تقدير الكفر والذنوب عليها، وإذا كان قضاؤه عليها بالكفر والذنوب عدلًا منه عليها فقضاؤه عليها بالعقوبة أعدل وأعدل، فهو ـ سبحانه ـ ماض في عبده حكمه، عدل فيه قضاؤه.

وله فيها قضاآن: قضاء السبب، وقضاء المسبب، وكلاهما عدل فيه، فإنه لما ترك ذكره، وترك فعل ما يحبه، عاقبه بنسيان نفسه، فأحدث له هذا النسيان ارتكاب ما يبغضه ويسخطه بقضائه الذي هو عدل، فترتب له على هذا الفعل والترك عقوبات وآلام لم يكن له منها بدّ، بل هي مترتبة عليها ترتب المسببات على أسبابها، فهو عدل محض من الرب ـ تعالى ـ فعدل في العبد أولًا وآخرًا، فهو محسن في عدله محبوب عليه، محمود فيه يحمده من عدل فيه طوعًا وكرهًا.

قال الحسن: لقد دخلوا النار وأن حمده لفي قلوبهم ما وجدوا عليه سبيلًا.

***

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

(١) قال ابن عباس في قوله: ﴿ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾ [الحشر: ٢٣]: هو العظيم، وجبروت الله عظمته، والجبار من أسماء الملوك والجبر الملك والجبابرة الملوك. قال الشاعر:

وأنعم صباحًا أيها الجبر (٢)

أي: أيها الملك. وقال السدي: هو الذي يجبر الناس، ويقهرهم على ما يريد.

---

(١) ١٢١ شفاء.

(٢) هذا عجز بيت من بحر الكامل، يسب إلى عمرو بن أحمر الباهلي، شاعر جاهلي مخضرم ولد ونشأ في نجد أدرك الإسلام وأسلم وشارك في بعض الفتوحات ومدح الخلفاء وطالب بدم عثمان وهجا يزيد ابن معاوية، توفي سنة ٧٥هـ تقريباً، وصدر البيت: واسلم براووق حبيت به.

وذكر عجز البيت السيوطي في تنوير الحوالك (ص١٤).

وعلى هذا؛ فالجبار معناه: القهار. وقال محمد بن كعب: إنما سمي الجبار لأنه جبر الخلق على ما أراد، والخلق أدق شأنًا من أن يعصوا ربهم طرفة عين إلا بمشيئته: قال الزجاج: الجبار الذي جبر الخلق على ما أراد. وقال ابن الأنباري: الجبار في صفة الرب ـ سبحانه ـ الذي لا ينال، ومنه قولهم: نخلة جبارة، إذا فاتت يد المتناول.

فالجبار في صفة الرب ـ سبحانه ـ ترجع إلى ثلاثة معان: الملك، والقهر، والعلو. فإن النخلة إذا طالت وارتفعت وفاتت الأيدي سميت جبارة.

ولهذا جعل ـ سبحانه ـ اسمه الجبار مقرونًا بالعزيز والمتكبر، وكل واحد من هذه الأسماء الثلاثة تضمن الاسمين الآخرين، وهذه الأسماء الثلاثة نظير الأسماء الثلاثة وهي: الخالق، البارئ، المصور؛ فالجبار المتكبر يجريان مجرى التفصيل لمعنى اسم العزيز، كما أن البارئ المصور تفصيل لمعنى اسم الخالق.

فالجبار من أوصافه يرجع إلى كمال القدرة والعزة والملك، ولهذا كان من أسمائه الحسنى. وأما المخلوق فاتصافه بالجبار ذم له ونقص، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥] أي: مسلط تقهرهم وتكرههم على الإيمان. وفي الترمذي وغيره عن النبي ﷺ: **«يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة أمثال الذر يطأهم الناس»**[١].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الحشر

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٤٩٢) والحميدي في مسنده (٢/ ٢٧٢ رقم ٥٩٨) وأحمد (٢/ ١٧٩) والبخاري في الأدب (رقم ٥٥٧) وقال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٢٣).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ ﴾.

[(١)] الكافر مفتون بالمؤمن في الدنيا، كما أن المؤمن مفتون به، ولهذا سأل المؤمنون ربهم أن لا يجعلهم فتنة للذين كفروا، كما قال الحنفاء: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [الممتحنة: ٤، ٥] وقال أصحاب موسى عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٥].

قال مجاهد: المعنى، لا تعذبنا بأيديهم، ولا بعذاب من عندك، فيقولون: لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم هذا. وقال الزجاج: معناه: لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على حق، فيفتنوا بذلك. وقال الفراء: لا تظهر علينا الكفار، فيروا أنهم على حق وأنا على باطل. وقال مقاتل: لا تقتر علينا الرزق وتبسطه عليهم، فيكون ذلك فتنة لهم.

وقد أخبر الله سبحانه أنه قد فتن كلا من الفريقين بالفريق الآخر، فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾. فقال الله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٢].

***

(١) ١٦٣ إغاثة جـ٢.

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

[(١)] إن الله سبحانه لما نهى في أول السورة عن اتخاذ المسلمين الكفار أولياء وقطع المودة بينهم وبينهم، توهم بعضهم أن برهم والإحسان إليهم من الموالاة والمودة، فبين الله سبحانه أن ذلك ليس من الموالاة المنهي عنها، وأنه لم ينه عن ذلك، بل هو من الإحسان الذي يحبه ويرضاه، وكتبه على كل شيء؛ وإنما المنهي عنه تولي الكفار والإلقاء إليهم بالمودة، ولا ريب أن جعل الكفر بالله وتكذيب رسوله موجبًا وشرطًا في الاستحقاق من أعظم موالاة الكفار المنهي عنها، فلا يصح من المسلم، ولا يجوز للحاكم تنفيذه من أوقاف الكفار؛ فأما إذا وقفوا ذلك فيما بينهم، ولم يتحاكموا إلينا ولا استفتونا عن حكمه لم يتعرض لهم فيه، وحكمه حكم عقودهم و أنكحتهم الفاسدة.

وكذلك وقف المسلم عليهم فإنه يصح منه ما وافق حكم الله ورسوله، فيجوز أن يقف على معين منهم أو على أقاربه وبني فلان ونحوه، ولا يكون الكفر موجبًا وشرطًا في الاستحقاق ولا مانعًا منه..

... وأما الوقف على كنائسهم وبيعهم ومواضع كفرهم التي يقيمون فيها شعار الكفر فلا يصح من كافر ولا مسلم.

***

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ

(١) ٣٠١ أحكام أهل الذمة جـ١.

تَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

[(١)] ذكر ابن أبي شيبة عن معتمر بن سليمان عن معمر عن الزهري: «إن أسلمت ولم يسلم زوجها، فهما على نكاحهما، إلا أن يفرق بينهما سلطان»[(٢)] ولا يعرف اعتبار العدة في شيء من الأحاديث، ولا كان النبي ﷺ، يسأل المرأة: هل انقضت عدتها أم لا؟

ولا ريب أن الإسلام لو كان بمجرده فرقة لم يكن فرقة رجعية بل بائنة. فلا أثر للعدة في بقاء النكاح. وإنما أثرها في منع نكاحها للغير. فلو كان الإسلام قد نجز الفرقة بينهما لم يكن أحق بها في العدة.

ولكن الذي دل عليه حكمه ﷺ: أن النكاح موقوف. فإن أسلم قبل انقضاء عدتها فهي زوجته، وإن انقضت عدتها فلها أن تنكح من شاءت، وإن انقضت عدتها فلها أن تنكح من شاءت. وإن أحبت انتظرته، فإن أسلم كانت زوجته من غير حاجة إلى تجديد نكاح. ولا نعلم أحدًا جدد للإسلام نكاحه البتة، بل كان الواقع أحد أمرين: إما افتراقهما ونكاحها غيره، وإما بقاؤهما عليه، وإن تأخر إسلامها أو إسلامه. وأما تنجيز الفرقة، أو مراعاة العدة: فلا نعلم أن رسول الله ﷺ، قضى بواحدة منهما، مع كثرة من أسلم في عهده من الرجال وأزواجهن، وقرب إسلام أحد الزوجين من الآخر، وبعده منه.

ولولا إقراره ﷺ، الزوجين علي نكاحهما ـ وإ تأخر إسلام أحدهما عن الآخر بعد صلح الحديبية وزمن الفتح ـ لقلنا بتعجيل الفرقة بالإسلام، ومن غير اعتبار عدة، لقوله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنه: ١٠]. وقوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ

---

(١) ٢٨ زاد المعاد جـ٤.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ١٠٧ رقم ١٨٣٢٣) وانظر: عمدة القاري (٢٠/ ٢٧٢) والتمهيد (١٢/ ٢٨) وسبل السلام (٣/ ١٣٣).

بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠]. وأن الإسلام سبب الفرقة. وكل ما كان سببًا للفرقة تعقبه الفرقة، كالرضاع والخلع والطلاق. وهذا اختيار الخلال وأبي بكر صاحبه، وابن المنذر، وابن حزم، وهو مذهب الحسن وطاوس وعكرمة وقتادة والحكم، قال ابن حزم: وهو قول عمر بن الخطاب، وجابر بن عبد الله، وابن عباس. وبه قال حماد ابن زيد، والحكم بن عتيبة، وسعيد بن جبير، وعمر بن عبدالعزيز، وعدي بن عدي الكندي، والشعبي وغيرهم. قلت: وهو أحد الروايتين عن أحمد.

ولكن الذي أنزل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠]. ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠]. لم يحكم بتعجيل الفرقة. فروى مالك في موطئه عن ابن شهاب قال: «كان بين إسلام صفوان بن أمية وبين إسلام امرأته ـ فاختة ـ بنت الوليد بن المغيرة نحو من شهر[1]. أسلمت يوم الفتح.وبقي صفوان حتى شهد حنيناً والطائف، وهو كافر، ثم أسلم. ولم يفرق النبي ﷺ، بينهما، واستقرت عنده امرأته بذلك النكاح» قال ابن عبد البر: وشهرة هذه الحديث أقوى من إسناده[2].

وقال: ابن شهاب «أسلمت أم حكيم يوم الفتح، وهرب زوجها عكرمة، حتى أتى اليمن. فدعته إلى الإسلام فأسلم وقدم فبايع النبي ﷺ، فبقيا على نكاحهما»[3]. ومن المعلوم يقينا: أن أبا سفيان بن حرب خرج فأسلم عام الفتح قبل دخول النبي ﷺ مكة ولم تسلم هند امرأته حتى فتح رسول الله مكة. فبقيا على نكاحهما[4].

وأسلم حكيم بن حزام قبل امرأته. وخرج أبو سفيان بن الحارث، وعبد الله بن

---

(١) أخرجه مالك (٢/ ٥٤٤ رقم ١١٣٣) وانظر: الاستذكار (٥/٥١٨) والتمهيد (١٢/١٩) وشرح الزرقاني (٣/ ٢٠٣) والمغني (٧/ ١١٨).

(٢) انظر: التمهيد (١٢/ ١٩).

(٣) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (٧/ ١٨٧ رقم ١٣٨٤٢) وعبدالرزاق (٧/ ١٦٩-١٧٠ رقم ١٢٦٤٦) ومالك (٢/ ٥٤٥ رقم ١١٣٤) وانظر: التمهيد (١٢/ ٥٢) وشرح الزرقاني (٣/ ٢٠٤).

(٤) انظر: فتح الباري (٩/ ٤٢١).

أبي أمية عام الفتح. فلقيا النبي ﷺ بالأبواء، فأسلما قبل منكوحتيهما فبقيا على نكاحهما ولم يعلم أن رسول الله ﷺ، فرق بين أحد ممن أسلم وبين امرأته.

وجواب من أجاب بتجديد نكاح من أسلم: في غاية البطلان. ومن القول على رسول الله ﷺ بلا علم. واتفاق الزوجين في التلفظ بكلمة الإسلام معًا في لحظة واحدة: معلوم الانتفاء.

ويلي هذا القول: مذهب من يقف الفرقة على انقضاء العدة مع ما فيه. إذ فيه آثار ـ وأن كانت منقطعة ـ ولو صحت لم يجز القول بغيرها. قال ابن شبرمة: «كان الناس على عهد رسول الله ﷺ يسلم الرجل قبل المرأة، المرأة قبل الرجل، فأيهما أسلم قبل انقضاء عدة المرأة. فهي امرأته. وإن أسلم بعد العدة: فلا نكح بينهما»[(١)] وقد تقدم قول الترمذي في أول الفصل. وما حكاه ابن حزم عن عمر، فما أدرى من أين حكاه؟ والمعروف عنه: خلافه. فإنه ثبت عنه من طريق حماد بن سلمة عن أيوب وقتادة كلاهما عن ابن سيرين عن عبدالله بن يزيد الخطمي «أن نصرانيًا أسلمت امرأته، فخيرهما عمر بن الخطاب، إن شاءت فارقته، وإن شاءت أقامت عليه»[(٢)].

[(٣)]قال المعجلون للفرقة: قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الممتحنة: ١٠].

قالوا: فهذا حكم الله الذي لا يحل لأحد أن يخرج عنه، وقد حرم فيه رجوع

(١) انظر: المغني (٧/ ١١٨).
(٢) انظر: المحلى (٧/ ٣١٣) وفتح الباري (٩/ ٤٢١).
(٣) ٣٣٨ أحكام أهل الذمة جـ١.

المؤمنة إلى الكافر، وصرح سبحانه بإباحة نكاحها؛ ولو كان في عصمة الزوج حتى يسلم في العدة أو بعدها لم يجز نكاحها، لاسيما والمهاجرة تستبرأ بحيضة. وهذا صريح في انقطاع العصمة بالهجرة.

وقوله: ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ صريح في أن المسلم مأمور ألا يمسك عصمة امرأته إذا لم تسلم، فصح أن ساعة وقوع الإسلام منه تنقطع عصمة الكافرة منه.وقوله تعالى: ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ صريح في تحريم أحدهما على الآخر في كل وقت، فهذه أربعة أدلة من الآية؛ ودعونا من تلك المنقطعات والمراسيل والآثار المختلفة، ففي كتاب الله الشفاء والعصمة.

قال الآخرون: مرحبًا وأهلًا وسهلًا بكتاب الله، وسمعًا وطاعة لقول ربنا، ولكن تأولتم الآية على غير تأويلها، ووضعتموها على غير مواضعها، وليس فيها ما يقتضي تعجيل الفرقة إذا سبق أحدهما الآخر بإلغائها، ولا فهم هذا منها أحد قط من أصحاب رسول الله ﷺ ولا من التابعين، ولا يدل على ما ذهبتم إليه أصلًا...

***

﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

(١) قلت: وكان شيخنا أبو العباس ابن تيمية ـ رحمه الله ورضي عنه ـ يضعف هذا القول جدًا، ويذهب إلى خروج البضع من ملكه متقوم ويحتج عليه بالقرآن.

قال: لأن الله تعالى أمر المسلمين أن يردوا إلى من ذهبت امرأته إلى الكفار مهره إذا أخذوا من الكفار مالًا بغنيمة أو غيرها، فقال تعالى: ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ﴾ [الممتحنة: ١١] ومعنى عاقبتم: أصبتم منهم عقبى، وهي الغنيمة. هذا قول المفسرين، والمقصود أنه قال:

(١) ١٦٦ بدائع جـ٣.

﴿فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ﴾ وهو المهر.

وقال ـ تعالىٰ ـ في هذه القصة: ﴿وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠] فأمر المسلمين أن يسألوا مهور نسائهم، ويسأل الكفار مهور نسائهم اللاتي هاجرن وأسلمن، ولولا أن خروج البضع متقوم لم يكن لأحد الفريقين علىٰ الآخر مهرًا.

واختلف أهل العلم في رد مهر من أسلم من النساء إلىٰ أزواجهن في هذه القصة: هل كان واجبًا أو مندوبًا علىٰ قولين أصلهما أن الصلح هل كان قد وقع علىٰ رد النساء أم لا؟

والصحيح أن الصلح كان عامًا علىٰ رد من جاء مسلمًا مطلقًا ولم يكن فيه تخصيص، بل وقع بصيغة (من) المتناولة للرجال والنساء، ثم أبطل الله منه رد النساء وعوض منه رد مهورهن، وهذه شبهة من قال: إن حكم هذه الآية منسوخ. ولم ينسخ منه إلا رد النساء خاصة، وكان رد المهور مأمورًا به.

والظاهر أنه كان واجبًا، لأن الله تعالىٰ قال: ﴿وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠]. فثبت أن رد المهور حق لمن يسأله، فيجب رده إليه. قال الزهري: ولولا الهدنة والعهد الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين قريش يوم الحديبية لأمسك النساء ولم يرد الصداق[(١)].

وكذلك كان يصنع بمن جاءه من المسلمات قبل العهد، فلما نزلت هذه الآية أقر المسلمون بحكم الله تعالىٰ، وأدوا ما أمروا به من نفقات المشركين علىٰ نسائهم، وأبىٰ المشركون أن يقروا بحكم الله تعالىٰ فيما أمر من رد نفقات المسلمين إليهم، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ﴾ [الممتحنة: ١١].

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٨/ ٧٤) وانظر: الدر المنثور (٨/ ١٠٣).

فهذا ظاهر القرآن يدل علىٰ أن خروج البضع من ملك الزوج متقوم.

قلت: ويدل عليه أن الشارع كما جعله متقومًا في دخوله، فكذلك في خروجه، لأنه لم يدخله إلىٰ ملك الزوج إلا بقيمة.وحكم الصحابة ﷺ في المفقود بما حكموا به من رد صداق امرأته إليه بعد دخول الثاني بها؛ دليل علىٰ أنه متقوم في خروجه وهذا ثابت عن خمسة من الصحابة منهم: عمر وعلي.

قال أحمد: أي شيء يذهب من خالفهم؟ فهذا القرآن والسنة وأقوال الخلفاء الراشدين دالة علىٰ تقويمه، ولو لم يكن له قيمة لما صح بذل نفائس الأموال فيه، بل قيمته عند الناس من أغلىٰ القيم، ورغبتهم فيه من أقوىٰ الرغبات، وخروجه عن ملك الرجل من أعظم المغارم حتىٰ يعده غرمًا أعظم من غرم المال. قلت لشيخنا: لو كان خروجه من ملكه متقومًا عليه لكانت المرأة إذا وطئت بشبهة يكون المهر للزوج دونها، فحيث كان المهر لها دل علىٰ أن الزوج لم يملك البضع، وإنما يملك الاستمتاع، فإذاخرج البضع عنه لم يخرج عنه شيء كان مالكه.

فقال لي: الزوج إنما ملك البضع ليستمتع به، ولم يملكه ليعارض عليه، فإذا حصل لها بوطء الشبهة عوض كان لها، لأن عقد النكاح لم يقتض ملك الزوج المعاوضة عن بضع امرأته، فصار ما يحصل لها بجناية الواطئ بمثابة ما يحصل لها بغيره من أروش الجنايات.

قلت له: فما تقول في خلع المريض بدون مهر المثل؟ فقال: هو يملك إخراج البضع مجانًا بالطلاق، فإذا أخذ منها شيئًا فقد زاد الورثة خيرًا. قال: ونحن إنما منعناه من المحاباة فيما ينتقل إلىٰ الورثة، لأنه يفوته عليهم،وبضع الزوجة لا حق للورثة فيه البتة، ولا ينتقل إليهم، فإذا أخرجه بدون مهر المثل لم يفوتهم حقًا ينتقل إليهم، انتهىٰ.

قلت: وأما منع الأب من خلع ابنته بشيء من مالها فليست مسألة وفاق، بل فيها قولان مشهوران، ونحن إذا قلنا: إن الذي بيده عقدة النكاح هو الأب، وأن له أن يعفو عن صداق ابنته قبل الدخول، وهو الصحيح لبضعة عشر دليلًا قد ذكرتها في موضع

آخر، فكذلك خلعها بشيء من مالها، بل هو أولىٰ لأنه إذا ملك إسقاط مالها مجانًا، فلأن يملك إسقاطه ليخلصها من رق الزوج وأسره، ويزوجها بمن هو خير لها منه أولىٰ وأحرىٰ. وهذه رواية عن أحمد ذكرها أبو الفرج في مبهجه وغيره، واختارها شيخنا. وأما قولكم: إنه يخرج من ملكه قهرًا بغير عوض فيما إذا طلق عليه الحاكم لإعسار أو عنت أو غيرها.

فجوابه: أن الشارع إنما ملكه البضع بالمعروف، وإنماملكه بحقه، فإذا لم يستمتع به بالمعروف الذي هو حقه أخرجه الشارع عنه، قال تعالىٰ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]. وقال: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨].وقال: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. فأوجب الله علىٰ الزوج أحد الأمرين: إما أن يمسك بمعروف، وإما أن يسرح بإحسان، فإذا لم يمسك بمعروف ولم يسرح بإحسان سرح الحاكم عليه قهرًا.

قلت لشيخنا: فلو قتلت الزوجة لم يجب للزوج المهر علىٰ قاتلها مع كونه قد أخرج البضع عن ملكه وفوته إياه، فلو كان خروجه متقومًا لوجب له علىٰ القاتل المهر.

فقال: النكاح معقود علىٰ مدة الحياة، فإذا قتلت زال وقت النكاح وانقضىٰ أمده، فلا يجب للزوج شيء بعد ذاك، كما لو ماتت. قلت له: فلو أفسد مفسد نكاحها بعد الدخول لأستقر المهر علىٰ الزوج، ولم يرجع علىٰ المفسد، فضعف هذا القول، وقال: عندي إنه يرجع به: وهو المنصوص عن أحمد، وهو مبني علىٰ هذا الأصل، فإذا ثبت أن خروج البضع من ملكه متقوم فله قيمته علىٰ من أخرجه من ملكه.

***

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٢﴾.

[(١)]قال: ذكر بعضهم أنه يجوز أن يقول: أنا مؤمن، ولا يقول أنا ولي. وفرق بينهما، فإن الله تعالى أمر من ظهر منه الإيمان أن يسمى مؤمنًا قال تعالى: ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ ﴾ [الممتحنة: ١٠] الآية. ولم يأمر من ظهر منه ذلك أن يسمى وليًّا، ولا فرق بينهما، فإن الله قد وصف الولي بصفة المؤمن فقال: ﴿ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٤]. وهذه صفة المؤمن، ثم لا يجوز أن يصف نفسه بأنه ولي، وكذلك المؤمن، ولأنه إنما يكون وليًا بتوليه لطاعات الله وقيامه بها كالمؤمن.

قلت: هذه حجة من منع قول القائل: أنا مؤمن بدون استثناء، كما لا يقول:أنا ولي. ومن فرق بينهما أجاب بأنه لا يمكنه العلم بأنه ولي، لأن الولاية هي القرب من الله ﷻ فولي الله هو القريب منه المختص به.

والولاء هو في اللغة القرب ولهذا علامات وأدلة وله أسباب وشروط وموجبات، وله موانع وآفات وقواطع، فلا يعلم العبد هل هو ولي الله أم لا.

وأما الإيمان فهو أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه، ويلتزم أداء فرائضه وترك محارمه، وهذا يمكن أن يعلمه من نفسه، بل ويعلمه غيره منه.

والذي يظهر لي من ذلك أن ولاية الله ـ تعالى ـ نوعان: عامة وخاصة، فالعامة ولاية كل مؤمن، فمن كان مؤمنًا لله تقيًا كا له وليًا، وفيه من الولاية بقدر إيمانه وتقواه ولا يمتنع في هذه الولاية أن يقول: أنا ولي إن شاء الله. كما يقول: أنا مؤمن إن شاء الله.

والولاية الخاصة: إن علم من نفسه أنه قائم لله بجميع حقوقه، مؤثر له على كل ما سواه في جميع حالاته، قد صارت مراضي الله ومحابه هي همه ومتعلق خواطره يصبح ويمسي وهمه مرضاة ربه، وإن سخط الخلق، فهذا إذا قال: أنا ولي الله كان صادقًا.

وقد ذهب المحققون في مسألة: أنا مؤمن إلى هذا التفصيل بعينه، فقالوا له: أن يقول آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه، ولا يقول: أنا مؤمن. لأن قوله أنا

---

(١) ١٠٦ بدائع جـ٣.

مؤمن يفيد الإيمان المطلق الكامل الآتي صاحبه بالواجبات التارك للمحرمات بخلاف قوله آمنت بالله. وفي الصحيحين عن عائشة قالت: كان المؤمنات إذا هاجرن إلى رسول الله ﷺ، يمتحنهن بقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ ﴾ [الممتحنة: ١٢]. إلى آخر الآية، قالت عائشة: فمن أقرت بهذا من المؤمنات فقد أقرت بالمحنة، وكان رسول الله ﷺ، إذا أقررن بذلك من قولهن، قال لهن رسول الله ﷺ: «**انطلقن فقد بايعتكن**» ولا والله ما مست يدُ رسول الله ﷺ، يد امرأة قط، غير أنه يبايعهن بالكلام، قالت عائشة: والله ما أخذ رسول الله ﷺ، على النساء قط إلا بما أمره الله، وما مست كف رسول الله ﷺ، كف امرأة قط، وكان يقول لهن إذا أخذ عليهن: «**قد بايعتكن**»[١] كلامًا.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الممتحنة

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٢٨٨) ومسلم (رقم ١٨٦٦) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٢٥).

سُورَةُ الصَّفِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾.

[(١)] أما إزاغة القلوب: فقال تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ وقال عن عباده المؤمنين أنه سألوه: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ [آل عمران: ٨] وأصل الزيغ الميل، ومنه زاغت الشمس إذا مالت. فإزاغة القلب: إمالته وزيغه: ميله عن الهدىٰ إلىٰ الضلال. والزيغ يوصف به القلب والبصر، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ [الأحزاب: ١٠]. وقال قتادة ومقاتل: شخصت فرقا، وهذا تقريب للمعنىٰ، فإن الشخوص غير الزيغ، وهو أن يفتح عينيه ينظر إلىٰ الشيء فلا يطرق، ومنه شخص بصر الميت، ولما مالت الأبصار عن كل شيء فلم تنظر إلا إلىٰ هؤلاء الذين أقبلوا إليهم من كل جانب اشتغلت عن النظر إلىٰ شيء آخر، فمالت عنه، وشخصت بالنظر إلىٰ الأحزاب، وقال الكلبي: مالت أبصارهم إلا من النظر إليهم، وقال الفراء: زاغت عن كل شيء، فلم تلتفت إلا إلىٰ عدوها متحيرة تنظر إليه.

قلت: القلب إذا امتلأ رعبًا شغله ذلك عن ملاحظة ما سوىٰ المخوف، فزاغ البصر عن الوقوع عليه وهو مقابله.

[(٢)] قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الصف: ٥] فعاقبهم ـ سبحانه ـ بإزاغة قلوبهم عن الحق لما زاغوا عنه ابتداء.

---

(١) ١٠٠ شفاء.

(٢) ٩٩ مفتاح جـ١.

ونظيره قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]. ولهذا قيل: من عرض عليه حق فرده فلم يقبله عوقب بفساد قلبه وعقله ورأيه. ومن هنا قيل: لا رأي لصاحب هوى؛ فإن هواه يحمله على رد الحق فيفسد الله عليه رأيه وعقله.

قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ [النساء: ١٥٥].

أخبر سبحانه أن كفرهم بالحق بعد أن علموه كان سببًا لطبع الله على قلوبهم ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥] حتى صارت غلفًا، والغلف جمع أغلف وهو القلب الذي غشيه غلاف كالسيف الذي في غلافه، وكل شيء في غلافه فهو أغلف، وجمعه غلف. يقال: سيف أغلف، وقوس غلفاء ورجل أغلف وأقلف إذا لم يختتن، والمعنى: قلوبنا عليها غشاوة وغطاء، فلا تفقه ما تقول يا محمد ﷺ، ولم يصنع شيئًا من قال: إن المعنى أنها غلف للعلم والحكمة، أي أوعية لها، فلا يحتاج إلى قولك ولا تقبله استغناء بما عندهم لوجوه:

أحدها: أن غلف جمع أغلف: كقلف وأقلف، وحمر وأحمر، وجرد وأجرد، وغلب وأغلب، ونظائره والأغلف من القلوب هو الداخل في الغلاف، هذا هو المعروف من اللغة.

الثاني: أنه ليس من الاستعمال السائغ المشهور أن يقال: قلب فلان غلاف لكذا، وهذا لا يكاد يوجد في شيء من نثر كلامهم ولا نظمه، ولا نظير له في القرآن فيحمل عليه، ولا هو من التشبيه البديع المستحسن، فلا يجوز حمل الآية عليه.

الثالث: أن نظير قول هؤلاء قول الآخرين من الكفار: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥]، والأكنة هنا هي الغلف التي قلوب هؤلاء فيها، والأكنة: كالأوعية والأغطية التي تغطي المتاع، ومنه الكنانة لغلاف السهام.

الرابع: أن سياق الآية لا يحسن مع المعنى الذي ذكروه، ولا يحسن مقابلته بقوله: ﴿ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء: ١٥٥]. وإنما يحسن مع هذا المعنى أن يسلب عنهم العلم والحكمة التي ادعوها، كما قيل لهم لما ادعوا ذلك: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٨٥]. وأما هنا فلما ادعوا أن قلوبهم في أغطية وأغشية لا تفقه قوله قوبلوا بأن عرفهم أن كفرهم ونقضهم ميثاقهم وقتلهم الأنبياء كان سببًا لأن طبع على قلوبهم.

[(١)]فإن قيل: فالزيع الأول من فعلهم، وهو مخلوق لله فيهم على غير وجه الجزاء، وإلا تسلسل الأمر. قيل: بل الزيغ الأول وقع جزاء لهم وعقوبة على تركهم الإيمان والتصديق لما جاءهم من الهدى. وهذا الترك أمر عدمي لا يستدعي فاعلًا، فإن تأثير الفاعل إنما هو في الوجود لا في العدم. فإن قيل: فهذا الترك العدمي له سبب أو لا سبب له. قيل سببه عدم سبب ضده، فبقي على العدم الأصلي.

***

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ ﴾.

[(٢)]...المقصود أن اسم النبي ﷺ، في التوراة (محمد) كما هو في القرآن: محمد. وأما المسيح فإنما سماه (أحمد) كماحكاه الله عنه في القرآن. فإذا تسميته بأحمد وقعت متأخرة عن تسميته محمدًا في التوراة ومتقدمة على تسميته محمدًا في القرآن فوقعت بين التسميتين محفوفة بهما.

وقد تقدم أن هذين الاسمين صفتان في الحقيقة والوصفية فيهما لا تنافي العلمية،

(١) ١٣٥ شفاء.

(٢) ١١٣ جلاء الأفهام.

وأن معناهما مقصود، فعرف عند كل أمة بأعرف الوصفين عندها، فمحمد مفعل من الحمد، وهو الكثير الخصال التي يحمد عليها حمدًا متكررًا حمدًا بعد حمد. وهذا إنما يعرف بعد العلم بخصال الخير وأنواع العلوم والمعارف والأخلاق والأوصاف والأفعال التي يستحق تكرار الحمد عليها.

ولا ريب أن بني إسرائيل هم أولو العلم الأول. والكتاب الذي قال الله فيه: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥]. ولهذا كانت أمة موسى أوسع علومًا ومعرفة من أمة المسيح. ولهذا لا تتم شريعة المسيح إلا بالتوراة وأحكامها، فإن المسيح عليه السلام وأمته محالون في الأحكام عليها، والإنجيل كأنه مكمل لها متمم لمحاسنها، والقرآن جامع لمحاسن الكتابين.

فعرف النبي ﷺ عند هذه الأمة باسم محمد الذي قد جمع خصال الخير التي يستحق أن يحمد عليها حمدًا بعد حمد.

وعرف عند أمة المسيح بأحمد الذي يستحق أن يحمد أفضل مما يحمد غيره، والذي حمده أفضل من حمد غيره، فإن أمة المسيح أمة لهم من الرياضيات والأخلاق والعبادات ما ليس لأمة موسى، ولهذا كان غالب كتابهم: مواعظ، وزهد، وأخلاق، وحض على الإحسان، والاحتمال، الصفح، حتى قيل: إن الشرائع ثلاثة:

شريعة عدل، وهي شريعة التوراة فيها الحكم والقصاص.

وشريعة فضل، وهي شريعة الإنجيل مشتملة على العفو ومكارم الأخلاق والصفح والإحسان، كقوله: من أخذ رداءك فأعطه ثوبك، ومن لطمك على خدك الإيمان فأدر له خدك الأيسر[1]، ومن سخرك ميلا فامش معه ميلين، ونحو ذلك.

وشريعة جمعت هذا وهذا؛ وهي شريعة القرآن، فإن يذكر العدل ويوجبه والفضل ويندب إليه، كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٨٧).

لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠] فجاء اسمه عند هذه الأمة بأفعل التفضيل، الدال على الفضل والكمال، كما جاءت شريعتهم بالفضل المكمل لشريعة التوراة، وجاء في الكتاب الجامع لمحاسن الكتب قبله بالاسمين معًا. فتدبر هذا الفضل وتبين ارتباط المعاني بأسمائها ومناسبتها لها، والحمد لله المان بفضله وتوفيقه..

وقول أبي القاسم: إن اسم محمد ﷺ إنما ترتب بعد ظهوره إلى الوجود، لأنه حينئذ حمد حمدًا مكررًا، فكذلك يقال في اسمه: أحمد أيضًا سواء، وقوله في اسمه أحمد: إنه تقدم لكونه أحمد الحامدين لربه، وهذا يقدم على حمد الخلائق له، فبناء منه على أنه تفضيل من فعل الفاعل، وأما على القول الآخر الصحيح فلا يجيء هذا. وقد تقدم تقرير ذلك والله ﷻ أعلم.

[1]...وموسى ﵇ كان في مظهر الجلال، ولهذا كانت شريعته شريعة جلال وقهر. أمروا بقتل نفوسهم، وحرمت عليهم الشحوم وذوات الظفر وغيرها من الطيبات، وحرمت عليهم الغنائم، وعجل لهم من العقوبات ما عجل، وحملوا من الآصار والأغلال ما لم يحمله غيرهم.

وكان موسى (ﷺ) من أعظم خلق الله هيبة ووقارًا، وأشدهم بأسًا وغضبًا لله، وبطشًا بأعداء الله،وكان لا يستطاع النظر إليه.

وعيسى (ﷺ): كان في مظهر الجمال. وكانت شريعته فضل وإحسان. وكان لا يقاتل، ولا يحارب. وليس في شريعته قتال البتة. والنصارى يحرم عليهم دينهم القتال. وهم به عصاة لشرعه. فإن الإنجيل يأمرهم فيه: أن «من لطمك على خدك الإيمان فأدر له خدك الإيسر، ومن نازعك ثوبك فأعطه رداءك، ومن سخرك ميلًا فامش معه ميلين» ونحو هذا. وليس في شريعتهم مشقة، ولا آصار، ولا أغلال، وإنما النصارى ابتدعوا تلك الرهبانية من قبل أنفسهم. ولم تكتب عليهم.

وأما نبينا (ﷺ): فكان في مظهر الكمال، الجامع لتلك القوة والعدل، والشدة في

---

(١) ٤٥٧ مدارج جـ٢.

ﷲ. وهذا اللين والرأفة والرحمة. وشريعته أكمل الشرائع. فهو نبي الكمال، وشريعته شريعة الكمال. وأمته أكمل الأمم. وأحوالهم ومقاماتهم أكمل الأحوال والمقامات. ولذلك تأتي شريعته بالعدل إيجابًا له وفرضًا. وبالفضل ندبًا إليه واستحبابًا. وبالشدة في موضع الشدة، وباللين في موضع اللين، ووضع السيف موضعه، ووضع الندى في موضعه. فيذكر الظلم ويحرمه. والعدل ويوجبه. والفضل ويندب إليه في بعض آيات، كقوله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى: ٤٠] فهذا عدل: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ فهذا فضل ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشورى: ٤٠] فهذا تحريم للظلم. وقوله: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾ [النحل: ١٢٦] فهذا إيجاب للعدل، وتحريم للظلم: ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ [النحل: ١٢٦] ندب إلى الفضل. وقوله: ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٩] تحريم للظلم ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ عدل ﴿ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨٠] فضل. وكذلك تحريم ما حرم على أمته صيانة وحمية.

حرم عليهم كل خبيث وضار، وأباح لهم كل طيب ونافع، فتحريمه عليهم رحمة وعلى من قبلهم لم يخل من عقوبة، وهداهم لما ضلت عنه الأمم قبلهم، ووهب لهم من علمه وحلمه، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس، وكمل لهم من المحاسن ما فرقه في الأمم قبلهم، كما كمل نبيهم (ﷺ) من المحاسن بما فرقه في الأنبياء قبله، وكمل في كتابه من المحاسن بما فرقها في الكتب قبله، وكذلك في شريعته. فهؤلاء «الضنائن» وهم المجتبون الأخيار. كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨] وجعلهم شهداء على الناس. فأقامهم في ذلك مقام الأنبياء الشاهدين على أممهم.

وتفصيل تفضيل هذه الأمة وخصائصها يستدعي سفرًا بل أسفارًا. وذلك فضل ﷲ يؤتيه من يشاء، وﷲ ذو الفضل العظيم.

[(١)]...وأما «أحمد» فهو أفعل التفضيل، أي هو أحمد من غيره، أي أحق بأن يكون محمودًا أكثر من غيره، يقال: هذا أحمد من هذا: أي هذا أحق بأن يحمده من هذا، فيكون تفضيل على غيره في كونه محمودًا فلفظ «محمد» يقتضي زيادة في الكمية، ولفظ أحمد يقتضي زيادة في الكيفية.

ومن الناس من يقول: معناه أنه أكثر حمدًا لله من غيره، وعلى هذا فيكون بمعنى الحامد والحماد، وعلى الأول بمعنى المحمود. وإن كان الفارقليط بمعنى الحمد فهو تسمية بالمصدر مبالغة في كثرة الحمد، كما يقال: رجل عدل ورضى ونظائر ذلك، وبهذا يظهر سر ما أخبر به القرآن عن المسيح من قوله: ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦] فإن هذا هو معنى الفار قليط كما تقدم. وفي التوراة ما ترجمته بالعربية: «وأما في إسماعيل فقد قبلت دعاك: ها أنا قد باركت فيه، وأثمره، وأكبره بمأذ مأذ» هكذا هذه اللفظة «مأذ» على وزن عمر.

وقد اختلف فيها علماء أهل الكتاب فطائفة يقولون: معناها جدًا جدًا، أي كثيرًا كثيرًا، فإن كان هذا معناها فهو بشارة بمن عظم من بنيه كثيرًا كثيرًا، ومعلوم أنه لم يعظم من بنيه أكثر مما عظم من محمد (ﷺ).

وقالت طائفة أخرى: بل هي صريح اسم محمد، قالوا: ويدل عليه أن ألفاظ العبرانية قريبة من ألفاظ العربية فهي أقرب اللغات إلى العربية.

[(٢)]... وتأمل كيف اشتق للنبي (ﷺ) من وصفه اسمان مطابقان لمعناه، وهما «أحمد، ومحمد»، فهو لكثرة ما فيه من الصفات المحمودة «محمد» ولشرفها وفضلها على صفات غيره «أحمد» فارتبط الاسم بالمسمى ارتباط الروح بالجسد.

[(٣)]فصل في أنه لو لم يظهر محمد بن عبدالله (ﷺ) لبطلت نبوة سائر الأنبياء، فظهور

---

(١) ٦١ هداية الحيارى.
(٢) ١٨ هداية الحيارى.
(٣) ١٥٩ هداية الحيارى.

نبوته تصديق لنبواتهم وشهادة لها بالصدق، فإرساله من آيات الأنبياء قبله، وقد أشار سبحانه إلى هذا المعنى بعينه في قوله: ﴿ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات: ٣٧] فإن المرسلين بشروا به وأخبروا بمجيئه؛ فمجيئه هو نفس صدق خبرهم، فكأن مجيئه تصديقًا لهم، إذ هو تأويل ما أخبروا به، ولا تنافي بين هذا وبين القول الآخر: إن تصديقه المرسلين شهادته بصدقهم وإيمانه بهم، فإنه صدقهم بقوله ومجيئه، فشهد بصدقهم بنفس مجيئه، وشهد بصدقهم بقوله.

ومثل هذا قول المسيح: ﴿ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦] فإن التوراة لما بشرت به وبنبوته كان نفس ظهوره تصديقًا لها.

ثم بشر برسول يأتي من بعده، فكان ظهور الرسول المبشر به تصديقًا له، كما كان ظهوره تصديقًا للتوراة فعادة الله في رسله أن السابق يبشر باللاحق، واللاحق يصدق السابق، فلو لم يظهر محمد بن عبدالله ولم يبعث لبطلت نبوة الأنبياء قبله، والله ـ سبحانه ـ لا يخلف وعده ولا يكذب خبره.

وقد كان بشر إبراهيم وهاجر بشارات بينات، ولم نرها تمت ولا ظهرت إلا بظهور رسول الله (ﷺ)، فقد بشرت هاجر من ذلك بما لم تبشر به امرأة من العالمين غير مريم ابنة عمران بالمسيح على أن مريم بشرت به مرة واحدة، وبشرت هاجر بإسماعيل مرتين، وبشر به إبراهيم مرارًا.

ثم ذكر الله سبحانه هاجر بعد وفاتها كالمخاطب لها على ألسنة الأنبياء، ففي التوراة «إن الله تعالى قال لإبراهيم: قد أجبت دعاءك في إسماعيل، وباركت عليه، وكبرته وعظمته» هكذا في ترجمة بعض المترجمين. وأما في الترجمة التي ترجمها اثنان وسبعون حبرًا من أحبار اليهود فإنه يقول: «وسيلد اثني عشر أمة من الأمم».

وفيها «لما هربت هاجر من سارة تراءى لها ملك الله، وقال يا هاجر! أمة سارة من أين أقبلت وإلى أين تذهبين؟! قالت: هربت من سيدتي، فقال لها الملك: ارجعي إلى

سيدتك، واخضعي لها، فإني سأكثر ذريتك وزرعك حتى لا يحصون كثرة، وها أنت تحبلين وتلدين ابنًا تسميه إسماعيل؛ لأن الله قد سمع بذلك خشوعك، وهو يكون عين الناس، ويكون يده فوق الجميع، ويد الجميع مبسوطة إليه بالخضوع، ويكون مسكنه على تخوم جميع إخوته».

وفي موضع آخر قصة إسكانها وابنها إسماعيل في برية فاران.

وفيها: «فقال لها الملك: يا هاجر! ليفرح روعك، فقد سمع الله تعالى صوت الصبي، قومي فاحمليه، وتمسكي به، فإن الله جاعله لأمة عظيمة، وأن الله فتح عليها، فإذا ببئر ماء، فذهبت، وملأت المزادة منه وسقت الصبي منه، فكان الله معهما ومع الصبي حتى تربى، كان مسكنه في برية فاران. فهذه أربع بشارات خالصة لأم إسماعيل نزلت اثنتان منها على إبراهيم، واثنتان على هاجر.

[(١)]... وفي التوراة أيضًا بشارات أخر بإسماعيل وولده، وأنهم أمة عظيمة جدًّا، وأن نجوم السماء تحصى ولا يحصون، وهذه البشارة إنما تمت بظهور محمد بن عبدالله وأمته. فإن «بني إسحاق» كانوا لم يزالوا مطروين مشردين خولًا للفراعنة والقبط، حتى أنقذهم الله بنبيه وكليمه موسى بن عمران، وأورثهم أرض الشام، فكانت كرسي مملكتهم، ثم سلبهم ذلك، وقطعهم في الأرض أممًا، مسلوبًا عزهم وملكهم: قد أخذتهم سيوف السودان، وعلتهم أعلاج الحمران حتى إذا ظهر النبي (ﷺ) تمت تلك النبوات، وظهرت تلك البشارات بعد دهر طويل وعلت بنو إسماعيل على من حولهم فهشموهم هشمًا، وطحنوهم طحنًا، وانشروا في آفاق الدنيا، ومدت الأمم أيديهم إليهم بالذل والخضوع، وعلوهم علو الثريا فيما بين الهند والحبشة والسوس والأقصى وبلاد الترك والصقالبة والخزر، وملكوا ما بين الخافقين، وحيث ملتقى أمواج البحرين، وظهر ذكر إبراهيم على ألسنة الأمم، فليس صبي من بعد ظهور النبي

---

(١) ١٦١ هداية الحيارى.

(ﷺ) ولا امرأة ولا حر ولا عبد ولا ذكر ولا أنثى إلا هو يعرف إبراهيم وآل إبراهيم.

وأما «النصرانية» وإن كانت قد ظهرت في أمم كثيرة جليلة، فإنه لم يكن لهم في محل إسماعيل وأمه هاجر سلطان ظاهر ولا عز قاهر البتة، ولا صارت أيدي هذه الأمة فوق أيدي الجميع، ولا امتدت إليهم أيدي الأمم بالخضوع، وكذلك سائر ما تقدم من البشارات التي تفيد بمجموعها العلم القطعي بأن المراد بها محمد بن عبدالله (ﷺ) وأمته، فإنه لو لم يقع تأويلها بظهوره (ﷺ) لبطلت تلك النبوات.

ولهذا لما علم الكفار من أهل الكتاب أنه لا يمكن الإيمان بالأنبياء المتقدمين إلا بالإيمان بالنبي الذي بشروا به قالوا نحن في انتظاره ولم يجئ بعد.

ولما علم بعض الغلاة في كفره وتكذيبه منهم أن هذا النبي في ولد إسماعيل أنكروا أن يكون لإبراهيم ولد اسمه إسماعيل، وأن هذا لم يخلقه الله، ولا يكثر على أمة البهت وإخوان القرود وقتلة الأنبياء مثل ذلك، كما لم يكثر على المثلثة عباد الصليب الذين سبوا رب العالمين أعظم مسبة أن يطعنوا في ديننا وينتقصوا نبينا (ﷺ). ونحن نبين أنهم لا يمكنهم أن يثبتوا للمسيح فضيلة ولا نبوة ولا آية ولا معجزة إلا بإقرارهم أن محمدًا رسول الله؛ وإلا فمع تكذيبه لا يمكن أن يثبت للمسيح شيء من ذلك البتة.

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝ ﴾.

[1]تشوقت النفوس إلى هذه التجارة الرابحة التي الدال عليها رب العالمين العليم الحكيم، فقال: ﴿ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ ﴾

---

(١) ٣٥٥ طريق الهجرتين.

فكأن النفوس ضنت بحياتها وبقائها. فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١١] يعني أن الجهاد خير لكم من قعودكم للحياة والسلامة.

فكأنها قالت: فما لنا في الجهاد من الحظ؟ فقال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ - مع المغفرة - ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٢]. فكأنها قالت: هذه في الآخرة فما لنا في الدنيا؟ فقال: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصف: ١٣] فلله ما أحلى هذه الألفاظ! وما ألصقها بالقلوب! وما أعظمها جذبًا لها وتسييرًا إلى ربها! وما ألطف موقعها من قلب كل محب! وما أعظم غنى القلب وأطيب عيشه حين تباشره معانيها! فنسأل الله من فضله إنه جواد كريم.

[١] ولما علم سبحانه أن آدم ونبيه قد بلوا بهذا العدو وسلط عليهم؛ أمدهم بعساكر وجند يلقونه بها، أمد عدوهم أيضًا بجند وعساكر يلقاهم بها، وأقام سوق الجهاد في هذه الدار في مدة العمر التي هي بالإضافة إلى الآخرة: كنفس واحد من أنفاسها، واشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون،وأخبر أن ذلك وعد مؤكد عليه في أشرف كتبه، وهي: التوراة والإنجيل، والقرآن، ثم أخبر أنه لا أوفى بعهده منه سبحانه، ثم أمرهم أن يستبشروا بهذه الصفقة التي من أراد أن يعرف قدرها فلينظر إلى المشتري من هو، وإلى الثمن المبذول في هذه السلعة، وإلى من جرى على يديه هذا العقد، فأي فوز أعظم من هذا، وأي تجارة أربح منه؟! ثم أكد سبحانه معهم هذا الأمر بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ

---

(١) ١٢٨ الجواب الكافي.

نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الصف: ١٠-١٣] ولم يسلط سبحانه هذا العدو على عبده المؤمن الذي هو أحب المخلوقات إليه، إلا لأن الجهاد أحب شيء إليه، وأهله أرفع الخلق عنده درجات وأقربهم إليه وسيلة.

(١)...وكل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١] فهذا أول نقد من ثمن هذه التجارة. فتاجروا أيها المفلسون، ويا من لا يقدر على هذا الثمن ههنا ثمن آخر فإن كنت من أهل هذه التجارة فأعط هذا الثمن: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [التوبة: ١١٢] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [الصف: ١٠، ١١] والمقصود أن الذنوب تنسي العبد حظه من هذه التجارة الرابحة، وتشغله بالتجارة الخاسرة، وكفى بذلك عقوبة، والله المستعان.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الصف

والحمد لله رب العالمين



(١) ١٤٢ الجواب الكافي.



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١﴾.

[1]لما كانت الأيام متماثلة لا يتميز يوم من يوم بصفة نفسية ولا معنوية لم يبق تمييزها إلا بالأعداد، ولذلك جعلوا أسماء أيام الأسبوع مأخوذة من العدد نحو الاثنين والثلاثاء والأربعاء. أو بالأحداث الواقعة فيها: كيوم بعاث، ويوم بدر، ويوم الفتح، ومنه يوم الجمعة. وفيه قولان: أحدهما لاجتماع الناس فيه للصلاة، والثاني وهو الصحيح: لأنه اليوم الذي جمع فيه الخلق وكمل، وهو اليوم الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين لفصل القضاء.

وأما يوم السبت فمن القطع، كما تشعر به هذه المادة، ومن السبات لانقطاع الحيوان فيه عن التحرك والمعاش. والنعال السبتية التي قطع عنها الشعر، وعلة السبات التي تقطع العليل عن الحركة والنطق، ولم يكن يومًا من أيام تخليق العالم، بل ابتداء أيام التخليق الأحد وخاتمتها الجمعة، هذا أصح القولين، وعليه يدل القرآن وإجماع الأمة: على أن أيام تخليق العالم ستة، فلو كان أولها السبت لكان سبعة.

وأما حديث أبي هريرة الذين رواه مسلم في صحيحه: خلق الله التربة يوم السبت[2] فقد ذكر البخاري في تاريخه: أنه حديث معلول، وأن الصحيح أنه قول كعب[3]، وهو كما ذكر لأنه يتضمن أن أيام التخليق سبعة، والقرآن يرده. واعلم أن معرفة أيام الأسبوع لا يعرف بحس ولا عقل ولا وضع يتميز به الأسبوع عن غيره، وأنما يعلم بالشرع، ولهذا لا يعرف أيام الأسبوع إلا أهل الشرائع، ومن تلقى ذلك عنهم وجاورهم. وأما

(١) ٨٤ بدائع جـ١.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٨٩).

(٣) انظر: التاريخ الكبير (١/ ٤١٣) وليس في نسختي عبارة: أنه حديث معلول.

الأمم الذين لا يدينون بشريعة ولا كتاب فلا يتميز الأسبوع عندهم من غيره ولا أيامه بعضها من بعض، وهذا بخلاف معرفة الشهر والعام، فإنه بأمر محسوس.

فائدة: في اليوم وأمس وغد، وسبب اختصاص كل لفظ بمعناه. اعلم أن أقرب الأيام إليك يومك الذي أنت فيه، فيقال: فعلت اليوم، فذكر الاسم العام، ثم عرف بأداة العهد، ولا شيء أعرف من يومك الحاضر فانصرف إليه، ونظيره الآن من آن والساعة من ساعة. وأما أمس وغد، فلما كان كل واحد منهما متصلًا بيومك اشتق له اسم من أقرب ساعة إليه فاشتق اليوم الماضي أمس الملاقي للمساء وهو أقرب إلى يومك من صباحه أعني صباح غد، فقالوا: أمس. وكذلك غد اشتق الاسم من الغدو وهو أقرب إلى يومك من مسائه أعني: مساء غد..

[(١)]وذكر أيضًا عن ابن عباس قال: ما من يوم إلا وليلته قبله إلا يوم عرفة، فإن ليلته بعده. قلت: هذا ما اختلف فيه. وحكي عن طائفة أن ليلة اليوم بعده. والمعروف عند الناس أن ليلة اليوم قبله، ومنهم من فصل بين الليلة المضافة إلى اليوم: كليلة الجمعة والسبت والأحد وسائر الأيام، والليلة المضافة إلى مكان أو حال أو فعل: كليلة عرفة وليلة النفر، ونحو ذلك. فالمضافة إلى اليوم قبله، والمضافة إلى غيره بعده، واحتجوا له بهذا الأثر المروي عن ابن عباس، ونقض عليهم بليلة العيد، والذي فهمه الناس قديمًا وحديثًا من قول النبي ﷺ: «**لا تخصوا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام، ولا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي**»[(٢)] أنها الليلة التي تسفر صبيحتها عن يوم الجمعة، فإن الناس يسارعون إلى تعظيمها وكثرة التعبد فيها عن سائر الليالي، فنهاهم ﷺ عن تخصيصها بالقيام، كما نهاهم عن تخصيص يومها بالصيام، والله أعلم.

---

(١) ١٩٤ بدائع جـ٣.

(٢) أخرجه ابن حبان (٨/ ٣٧٧ رقم ٣٦١٣) وابن خزيمة (٢/ ١٩٨ رقم ١١٧٦) والحاكم (١/ ٤٥٥ رقم ١١٧٢) وابن أبي شيبة (٢/ ٣٠٣ رقم ٩٢٥٤) والبزار (٦/ ٥٠٣ رقم ٢٥٤٢) والمحاملي في آماليه (رقم ٤١٢) وانظر: عمدة القاري (١١/ ١٠٥).

[١]وكان من هديه ﷺ تعظيم هذا اليوم وتشريفه، وتخصيصه بعبادات يختص بها من غيره. وقد اختلف العلماء: هل هو أفضل من يوم عرفة؟ علىٰ قولين، هما وجهان لأصحاب الشافعي.وكان ﷺ يقرأ في فجره بسورتي (الٓمٓ تنزيل) و(هل أتىٰ علىٰ الإنسان) ويظن كثير ممن لا علم عنده أن المراد: تخصيص هذه الصلاة بسجدة زائدة، ويسمونها سجدة الجمعة. وإذا لم يقرأ أحدهم هذه السورة استحب قراءة سورة أخرىٰ فيها سجدة. ولهذا كره من كره من الأئمة المداومة علىٰ قراءة هذه السورة في فجر الجمعة، دفعًا لتوهم الجاهلين.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: إنما كان النبي ﷺ يقرأ هاتين السورتين في فجر الجمعة، لأنهما تضمنتا ما كان ويكون في يومها، فإنهما اشتملتا علىٰ خلق ـ آدم ﷺ ـ وعلىٰ ذكر المعاد، وحشر العباد، وذلك يكون يوم الجمعة. وكان في قراءتهما في هذا اليوم تذكير للأمة بما كان فيه ويكون، والسجدة جاءت تبعًا، ليست مقصودة، حتىٰ يقصد المصلي قراءتها حيث اتفقت. **فهذه خاصة من خواص يوم الجمعة.**

الخاصية الثانية: استحباب كثرة الصلاة علىٰ النبي ﷺ، فيه وفي ليلته، لقوله ﷺ: **«أكثروا من الصلاة عليَّ يوم الجمعة وليلة الجمعة»**[٢]. ورسول الله ﷺ، سيد الأنام، ويوم الجمعة سيد الأيام، فللصلاة عليه في هذا اليوم مزية ليست لغيره، مع حكمة أخرىٰ، وهي أن كل خير نالته أمته في الدنيا والآخرة فإنما نالته علىٰ يده، فجمع الله لأمته به بين خيري الدنيا والآخرة، فأعظم كرامة تحصل لهم فإنما تحصل يوم الجمعة، فإن فيه بعثهم إلىٰ منازلهم وقصورهم في الجنة، وهو يوم المزيد لهم إذا دخلوا الجنة، وهو يوم عيد لهم في الدنيا، ويوم فيه يسعفهم الله تعالىٰ بطلباتهم وحوائجهم، ولا يرد سائلهم، وهذا كله إنما عرفوه وحصل لهم بسببه وعلىٰ يده ﷺ. فمن شكره وحمده وأداء

---

(١) ٢٠٦ زاد المعاد جـ١.

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٦٣٧) والبيهقي في الكبرىٰ (٣/ ٢٤٩ رقم ٥٧٩٠) وفي الشعب (٣/ ١١٠ رقم ٣٠٣٠) والشافعي في المسند (ص ٧٠) وفي الأم (١/ ٢٠٨) وابن أبي شيبة (٢/ ٢٥٣ رقم ٨٧٠٠).

القليل من حقه ﷺ: أن تكثر من الصلاة عليه، في هذا اليوم وليلته.

الخاصية الثالثة: صلاة الجمعة التي هي من آكد فروض الإسلام، ومن أعظم مجامع المسلمين، وهي أعظم من كل مجمع يجتمعون فيه وأفرضه، سوى مجمع عرفة، ومن تركها تهاونًا بها طبع الله على قلبه، وقرب أهل الجنة يوم القيامة وسبقهم إلى الزيادة يوم المزيد، بحسب قربهم من الإمام يوم الجمعة وتبكيرهم.

الخاصية الرابعة: الأمر بالاغتسال في يومها، وهو أمر مؤكد جدًّا، ووجوبه أقوى من وجوب الوتر، وقراءة البسملة في الصلاة، ووجوب الوضوء من مس النساء، ووجوب الوضوء من مس الذكر، ووجوب الوضوء من القهقهة في الصلاة، ووجب الوضوء من الرعاف والحجامة والقيء، ووجوب الصلاة علي النبي ﷺ، في التشهد الأخير، ووجوب القراءة على المأموم. وللناس في وجوبه ثلاثة أقوال: النفي، والإثبات، والتفصيل بين من به رائحة يحتاج إلى إزالتها، فيجب عليه، ومن هو مستغن عنه، فيستحب له. والثلاثة لأصحاب أحمد[1].

***

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝ ﴾.

[2]... تزكية النفوس مسلم إلى الرسل، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاهم إياها، وجعلها على أيديهم: دعوة وتعليمًا، وبيانًا، وإرشادًا، لا خلقًا ولا إلهامًا. فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم. قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ

---

(١) ذكر المؤلف رحمه الله في خواص يوم الجمعة وأحكامها قرابة ثلاث كراسات. (ج).

(٢) ٣١٥ مدارج جـ٢.

﴾ [الجمعة: ٢]، وقال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ۝ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ۝﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢].

وتزكية النفوس: أصعب من علاج الأبدان وأشد، فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة، التي لم يجئ بها الرسل: فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه، وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب؟ فالرسل أطباء القلوب، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم، وعلى أيديهم، ويمحض الانقياد، والتسليم لهم، والله المستعان.

فإن قلت: هل يمكن أن يقع الخلق كسبيًا، أو هو أمر خارج عن الكسب؟ قلت: يمكن أن يقع كسبيًا بالتخلق والتكلف. حتى يصير له سجية وملكة وقد قال النبي ﷺ لأشج عبد القيس ﷺ: «**إن فيك لخلقين يحبهما الله: الحلم، والإناة**». فقال: أخلقين تخلقت بهما. أم جبلني الله عليهما؟ فقال: «**بل جبلك الله عليهما**». فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله[1]. فدل على أن من الخلق: ما هو طبيعة وجبلة، وما هو مكتسب. وكان النبي ﷺ، يقول في دعاء الاستفتاح: «**اللهم اهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت**»[2] فذكر الكسب والقدر، والله أعلم.

[3]قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٢ ـ ٤].

فالأولون هم الذين أدركوا رسول الله ﷺ، وصحبوه، والآخرون هم الذين لم يلحقوهم، وهم كل من بعدهم على مناهجهم إلى يوم القيامة، فيكون التأخر وعدم اللحاق بهم في

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٧) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٥٩) وشرح النووي (١/ ١٨٩).
(٢) أخرجه مسلم (رقم ٧٧١) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٥٦) وشرح النووي (٦/ ٥٨).
(٣) ٣٦ التبوكية طبعة دار المدني.

الزمان، وفي الآية قول آخر: لما يحلقوا بهم في الفضل والرتبة، بل هم دونهم فيكون عدم اللحاق في الرتبة: والقولان كالمتلازمين، فإن من بعدهم لا يلحقون بهم لا في الفضل ولا في الزمان. فهؤلاء الصنفان هم السعداء. وأما من لم يقبل هدى الله الذي بعث به رسوله، ولم يرفع به رأسًا، فهو من الصنف الثالث، وهم: ﴿ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ [الجمعة: ٥].

(١)﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾ [الجمعة: ٤] يعني: وبعث في آخرين منهم لما يحلقوا بهم. وقد اختلف في هذا اللحاق المنفي، فقيل: هو اللحاق في الزمان. أي يتأخر زمانهم عنهم. وقيل: هو اللحاق في الفضل والسبق، وعلى التقديرين، فامتن عليهم ـ سبحانه ـ بأن علمهم بعد الجهل، هداهم بعد الضلالة، ويالها من منه عظيمة فاتت المنن، وجلت أن يقدر العباد لها على ثمن.

***

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾.

(٢)فقاس من حمَّله ـ سبحانه ـ كتابه ليؤمن به، ويتدبره، ويعمل به، ويدعو إليه، ثم خالف ذلك ولم يحمله إلا على ظهر قلب، فقراءته بغير تدبر ولا تفهم لا اتباع له ولا تحكيم له وعمل بموجبه، كحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدري ما فيها، وحظه منها حملها على ظهره ليس إلا؛ فحظه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره؛ فهذا المثل وإن كان قد ضرب لليهود فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العمل به، ولم يؤد حقه، ولم يرعه حق رعايته.

(٣)قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ﴾ الغرض تشبه حال اليهود في جهلها بما

---

(١) ٥٨ مفتاح جـ١.

(٢) ١٦٥ أعلام جـ١.

(٣) ٢٧ اجتماع الجيوش الإسلامية.

معها من التوراة وآياتها الباهرة بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة، وتساوي الحالين عند من حمل أسفار الحكمة وحمل ما سواها ولا يشعر ذلك إلا بما يزيد فيه من الكد والتعب.

[(١)]... وكان إذا عرض له في خطبته عارض اشتغل به، ثم رجع إلى خطبته، وكان يخطب، فجاء الحسن والحسين يتعثران في قميصين أحمرين، فقطع كلامه، فنزل فحملهما، ثم عاد إلى منبره، ثم قال: «صدق الله العظيم ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [التغابن: ١٥] رأيت هذين يتعثران في قميصيهما فلم أصبر حتى قطعت كلامي فحملتهما»[(٢)]. وجاء سليك الغطفاني، وهو يخطب، فجلس فقال له: «قم يا سليك فاركع ركعتين، وتجوز فيهما» ثم قال: وهو على المنبر: «إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين، وليتجوز فيهما»[(٣)] وكان يقصر خطبته أحيانًا ويطيلها أحيانًا بحسب حاجة الناس. وكانت خطبته العارضة أطول من خطبته الراتبة، وكان يخطب النساء على حدة في الأعياد، ويحرضهن على الصدقة، والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الجمعة

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

---

(١) ٩٨ زاد المعاد جـ١.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (١/ ٥٣٥ رقم ١٧٣١) وفي المجتبى (١٤١٣، ١٥٨٥) وابن حبان (١٣/ ٤٠٢ رقم ٦٠٣٨) وابن خزيمة (٢/ ٣٥٥ رقم ١٤٥٦) والبيهقي في الكبرى (٣/ ٢١٨ رقم ٥٦١٠) والترمذي (رقم ٣٧٧٤) وحسنه. وقال ابن عبدالهادي في تنقيح تحقيق أحاديث التعليق (٢/ ٨١): إسناد هذا الحديث على شرط مسلم.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٨٧٥) وانظر: فتح الباري (٢/ ٤٠٧-٤١٢) وشرح النووي (٦/ ١٦٤).

الفهرس

الصفحة الموضـــوع

سُورَةُ غَافِرٍ

الصفحة الموضوع

سُورَةُ فُصِّلَتْ

الصفحة الموضــــوع

سُورَةُ الشُّورَىٰ

الصفحة الموضوع

الصفحة الموضــــوع

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

الصفحة الموضوع

الصفحة المــوضــوع

سُورَةُ الأَحْقَافِ

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

الصفحة الموضوع

الصفحة الموضوع

سُورَةُ قٓ

الصفحة الموضـــوع

سُورَةُ الطُّورِ

الصفحة الموضـــوع

سُورَةُ النَّجْمِ

الصفحة الموضوع

سُورَةُ القَمَرِ

الصفحة الموضـــوع

سُورَةُ الحَدِيدِ

الصفحة الموضوع

سُورَةُ المُجَادَلَةِ

الصفحة الموضـوع

الصفحة الموضوع

سُورَةُ المُمْتَحَنَةِ

الصفحة الموضـــوع

سُورَةُ الصَّفِّ

سُورَةُ الجُمُعَةِ

وبهذا انتهى بفضل الله وكرمه المجلد السادس

ويليه إن شاء الله المجلد السابع والأخير

❁❁❁